

رحمة الله

بشارات هائمة

د. إيهاب عويس

رواية
Rewayah

بشارات هائمة

د. إيهاب محمد عويص

الطبعة الثانية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

ح دار الرواية، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عويص، إيهاب محمد

بشارات هانمة. / إيهاب محمد عويص - الرياض، ١٤٣٤، .

ص ١٦:٧٢٤ × ٢١ سم

ردمك: ٦ - ٠ - ٩٠٤٣٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- القصص الروسية

أ. العنوان

١٤٣٤/٣٦٤٨

ديوي ٨٩١,٧٣٠٣

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٣٦٤٨

ردمك: ٦ - ٠ - ٩٠٤٣٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء



• إلى رفيقة رحلتي، زوجتي أميرة نيكولايفنا عويص، التي هداها الله بي إلى الإسلام، ففاقتني تمسكاً به، حتى هداني الله بها إلى السعي نحو الالتزام الكامل بتعاليمه التي علمتها إياها سابقاً. وأمنت بأفكاري وأسلوبني في الطرح، فكان تشجيعها، بل إلحاحها، هو المحرك الأول لتسجيل هذه الرحلة.

والله من وراء القصد.

تقديم



إن المتأمل للمفاهيم الدينية يجد أن نهر الإيمان الدافق تُغذِّيه ثلاثة روافد؛ الرافد الأول هو «الفطرة» التي وضعها الله - سبحانه وتعالى - في الإنسان منذ نشأته الأولى، ونجد الدليل عليها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. كما نجده في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. سبحانه الله؛ يكاد زيت الفطرة أن يضيء دالاً الإنسان على ربه، حتى ولو لم تمسسه نار النبوات، ثم يأتي نور النبوة على نور الفطرة ليحقق للإنسان الهداية.

وقد أشار الفيلسوف الألماني الكبير إيمانويل كانت في كتابه «نقد العقل الخالص» إلى دور الفطرة بقوله: «أدرك أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكنه الأشياء، وأنه مؤهل بطبيعته لإدراك الجزئيات والظواهر فقط، في حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهي، وإنما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل؛ فشوقنا إلى العدل كان دليلاً على وجود العادل، كما أن ظمناً للمياه هو دليلاً على وجود الماء».

ولما كانت «النبوة» هي الرافد الثاني لنهر الإيمان (كما تشير سورة النور)، فإن الله - عزَّ وجلَّ - لم يترك أمة إلا وأرسل إليها من يُعَرِّفُهَا بِرَبِّهَا وبالطريق إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وتُكْمَلُ «التشئة» رافد النبوة، فنحن نربي أبناءنا على ما نعتق من دين، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: (كل مولود يُوَلَدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...) (١).

أما الرافد الثالث، فهو رافد «العقل»، الذي جعله الله - سبحانه وتعالى - المخاطب والمُكَلَّف والمحاسب. والقرآن الكريم يدعو الإنسان - في مواقف تفوق الحصر - إلى التفكير في ثلاثة مجالات من الآيات: الآيات المسطورة في القرآن والخاصة بالألوهية والرسالة والعبادة، وآيات هي المعجزات الإلهية التي يخرق فيها الله - عزَّ وجلَّ - نواميس الكون ليدرك العقل قدرته، وآيات هي الإبداع في الآفاق والأنفس، والتي قال فيها الله - سبحانه وتعالى -: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

نعم، إنها ثلاثة روافد تتجمع لتكوِّن في نفس الإنسان نهر الإيمان الدافق الذي يزيل في طريقه ضلالات الشرك والشك.

والمستكرون للإيمان الديني يقفون في معارضتهم عند أحد ثلاثة مستويات؛ فمنهم من ينكر الوجود الإلهي كُليَّة، وهؤلاء هم الملاحدة. ومنهم من يُقر بوجود الإله الخالق للكون وبأنه قد وضع فيه قوانين الطبيعة التي تديره دون تَدخُّل منه، أي أن الإله قد اعتزل الكون، ومن ثَمَّ ليس هناك حاجة للتواصل بين السماء والأرض، فينكرون الديانات، ويُعرف هؤلاء بالربوبيين، وينطبق عليهم قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري عن حديث أبي هريرة.

[العنكبوت : ٦١].

والمستوى الثالث من المنكرين على المؤمنين إيمانهم يمثله القائلون بالوجود الإلهي، وبفكرة التواصل بين الأرض والسماء، لكنهم لا يرضون عن أي من الديانات المتاحة! سواء عن مكابرة أو لعدم الفهم وعمامة الرؤية.

وأرى أن العمل الكبير الذي بين أيدينا (رحلة أبراهام) يستتفر فينا روافد الإيمان الثلاثة، كما يخاطب الفئات الثلاث من المنكرين، الذين تُشَوِّش على رؤيتهم ديانة مُحَرَّفَة تَرَبُّوا عليها، أو إلحاد نشؤوا في كنفه، وينطبق عليهم قول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان : ٢١]. وقد افتقد هؤلاء النور الهادي إلى الحق، واحتاجوا إلى من يمد إليهم يد العون.

وبعد قراءتي لهذه الملحمة، التي تقع في أكثر من ألفي صفحة، وجدت أن خير تعريف بها هو ما استخدمه المؤلف بنفسه: «رحلة حاخام اقترب من الكفر بعد تعمقه في طائفة آباءه. وراح يتنقل بين عقائد الإلحاد، إلى أن تأكد من عمقها ومن وجود الله، فعاد إلى اليهودية باحثاً في بقية طوائفها الأخرى، لكن رحلته تتطور بعد ذلك لتشمل مختلف الطوائف المسيحية أيضاً، وتقوده إلى الكشف عن خفايا الصدام واللقاء بين الحضارات، وعن حقائق أخرى لم تكن في الحسبان». ويمكن تصنيف الرواية باعتبارها دراسة عميقة ثرية تجمع بين تاريخ الأديان وعلم الديانات المقارن، كما سيتضح لك أثناء إبحارك بين صفحاتها.

والملحمة من ثلاثة أجزاء، قد تبدو منفصلة، لكنها في الحقيقة تمثل رحلة واحدة متصلة، تذكرني في بنائها بثلاثية نجيب محفوظ المنفصلة المتصلة.

وفي الجزء الأول بعنوان «الهروب إلى العاصفة»، يقوم المؤلف في أسلوب روائي ب «متابعة تاريخية» و«تفكيك فكري» للديانة اليهودية، من بدايتها وحتى الآن، كما يُلقِي الضوء على العلاقة بينها وبين الحركة الصهيونية. وقد ركز الكاتب على سلبيات

الفكر اليهودي، وكيف تطرق إليه التحريف والاقتباس، حتى صارت كتاباتهم المقدسة تتضح بكم كبير من السخرية والانتقاص من الإله ومن الأنبياء. وبين المؤلف كيفية انقسام اليهود إلى شُعب متعددة تفوق القدرة على الاستيعاب وربما على الحصر، حتى صار من الصعوبة - بل من المستحيل - أن يضع الباحث يده على تعريف محدد للديانة اليهودية، أو الشعب اليهودي، أو الإنسان اليهودي.

وفى الجزء الثانى من الملحمة «بشارات هائمة»، تنتقل أحداث الرواية إلى الديانة المسيحية، فيتناولها المؤلف بنفس منهج تناول اليهودية: تفكيك العقيدة - تاريخ نشأة المذاهب والفرق - التحريف والسلبيات... حتى وصل الأمر إلى أن صار كل من بابا الأرثوذكس وبابا الكاثوليك يُكفّر بعضهم بعضاً. ويُلقنا المؤلف إلى ما بين المذاهب المسيحية من خلافات حول الأقانيم الثلاثة (الأب والابن والروح القدس) التي تمثل إلهاً واحداً، ويلجأ في ذلك إلى مقولة فولتير الساخرة في كتابه «الملحد والحكيم» حيث يقول: «هل تؤمن بأن المسيح شخصية واحدة لها طبيعة واحدة وإرادة واحدة، أم شخصيتان لهما إرادة واحدة وطبيعة واحدة، أم شخصيتان لهما طبيعتان وإرادتان، أم شخصيتان لهما طبيعة واحدة وإرادتان؟»، هذا في الحقيقة هو جوهر الخلاف في المسيحية!!

ويفسر لنا المؤلف الامتزاج الذي حدث بين الديانتين اليهودية والمسيحية - بالرغم من العداة الشديد بينهما - حتى صار الكتاب المقدس للمسيحيين يشتمل على التوراة تحت اسم العهد القديم، وعلى الإنجيل تحت اسم العهد الجديد. وي طرح علينا الكاتب الأمور التي تدفع اليهودي والمسيحي إلى الشك في دياناتهما؛ وأهمها أن كلاً منهما يرى أن دينه قد نقل بعض الأساطير عن شخصيات تنتمي إلى ديانات قديمة، كزرادشت وبوذا وميثرا. كما أحصى الباحثون تناقضات بين العهد القديم والعهد الجديد وصلت إلى مائة وخمسين ألفاً. وكذلك التناقضات الجذرية بين ما في العهد القديم (خاصة سفر التكوين) وبين العلم، بخصوص نشأة الكون وكوكب الأرض والحياة والإنسان.

وأخيراً - وليس بآخرأ - عدم منطقية بعض ما في الديانتين من أفكار، كنظرية فداء المسيح عليه السلام للبشرية، وفكرة الصلب والقيامة.

وفي طرحه للديانتين (اليهودية والمسيحية) يتأرجح المؤلف - بحبكة روائية كبيرة - كالبندول بين المفاهيم الفكرية للديانتين وبين نشاطاتهما وتأثيراتهما السياسية والاجتماعية. وي طرح علينا بالتفصيل ما أحدثته من إفساد في الأرض وإفساد في النفس البشرية؛ كالحروب والإبادة والاستعباد والتعصب والاحتياط والإغراق في المادية والشذوذ والزنا.....

وفي الجزء الثالث والأخير من الملحمة بعنوان «كهولة قبل البلوغ» نصل إلى ذروة العمل الدرامي. فيستهله المؤلف باستعراض مقارن بين الديانات الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام)، يُسلم أبراهام إلى بحار الحيرة والقلق، فتعصف به رياح التوتر والتردد، حتى يكاد يتمنى أن تبتلعه الأرض. وإن كنت - أيها القارئ الكريم - قد مررت بمثل هذه الحالة فستدرك مرارة ما عاناه بطلنا أبراهام، فهو عذاب تتضاءل أمامه العذابات المادية والجسدية، ربما يفوق معاناة أبطال ملحمتي هوميروس الإلياذة والأوديسا، لذلك استحق هذا العمل أن يصنف كملحمة.

وإذا كان المؤلف قد أوقد بعض شموع الهداية بالحديث عن الإسلام في مواضع متفرقة من ملحمة، فإنه في الثلث الأخير من الجزء الثالث تحدث بشكل أكثر تركيزاً عن الإسلام. وكان طبيعياً ونحن نعيش مع دراسة مقارنة بين الديانات أن يشير الكاتب إلى إنجيل برنابا الذي جاءت فيه البشارة بالنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ وبالرسالة الخاتمة، ثم انتقل إلى استدلالات كونية على صدق الرسالة من خلال إثبات مركزية بيت الله الحرام في الأرض بما لذلك من دلالات فلسفية وعلمية. ولم يفتر الكاتب الإشارة إلى جوانب الإعجاز العلمي والتاريخي في القرآن الكريم، كما لم يفتر الرد على أهم الشبهات التي تُطرح ضد الإسلام.

وإذا كانت رحلة البحث عن الحقيقة تبدأ بالتحجر من الأوهام «تخلية» ثم طرح حقائق الطريق القويم «تحلية»، فهذا ما فعله الكاتب مع بطله أبراهام ومعنا. ثم نجده في آخر الملحمة لم يدفعنا لتبني رأي محدد من خلال تلخيص وتصنيف ما طرحه من أفكار، بل تركنا لنقوم بعملية التقويم بأنفسنا بعد أن طرح علينا على مدى أجزاء الملحمة الثلاثة الرأي والرأي الآخر.

إن معاناة بطل الملحمة أبراهام في بحثه عن الحقيقة وتردده بين الديانات تذكرني بخليل الله إبراهيم عليه السلام (ولعل اسم أبراهام مأخوذ من اسمه) وتفرسه في السماء، باحثاً عن الإله الحق ومستلهماً الهداية من الله - سبحانه وتعالى - ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩] .

ونسأل الله - سبحانه وتعالى - دائماً الهداية وحسن الخاتمة.

ويلتقي أبراهام بعد الربيع الأول من الجزء الأول من الملحمة بالشخصية المحورية المقابلة له في الرواية، وهي شخصية «أحمد»، المسلم المتوازن عقلاً وانفعالاً، والأقرب إلى ما ينبغي أن يكون عليه المفكر المسلم المعاصر. فأحمد قد حافظ على شخصيته الإسلامية وجذوره الفلسطينية ورفض تبني القيم الليبرالية بالمنظور الغربي. ولم يكن أحمد انتقائياً عند الأخذ بمنهج الإسلام ونصوص القرآن الكريم؛ فقد رفض ذم الكتائبين ولعنهم دون تمييز، باعتبار أن القوى الاستعمارية والمحتلة هي نتاج الحضارة «اليهودية المسيحية الصهيونية المستحدثة»، بالرغم من أنه قد عانى على المستوى الشخصي من هذا الاحتلال الذي ما زال يندس وطنه ووطننا فلسطين. وفي نفس الوقت لم يركن

أحمد إلى النصوص التي يغلب عليها التسامح واللين متخلياً عن قضية دينه ووطنه وحضارته. ولا شك أنه في هذا الموقف المتوازن يتبع خطوات الرسول الكريم ﷺ في مواقف حياته المختلفة. وإذا كان أحمد هو الشخصية التي قامت بتجلية الأوهام أيضاً الحقائق لأبراهام، فإنني أرى أن كلا الشخصيتين تمثلان كاتب الرواية، تارة وهو في طور الحيرة والقلق، وتارة وهو في طور سكينه اليقين.

وقد استخدم المؤلف أسلوب الرواية في توصيل الكم الكبير من المعلومات التي يطرحها علينا، فهو الأكثر تشويقاً والأيسر في توصيل المعلومة وتبسيطها وتحليلها، وأيضاً لتذكرها. وقد كان ذلك اختياراً موفقاً تطلب من الكاتب جهداً إضافياً لما بذله في جمع مادته العلمية. وأحسب أن لولا هذا الأسلوب لعجز القارئ عن تحقيق التواصل والمتابعة المطلوبة مع المؤلف، وهذا الأسلوب مطروق في عالم الفكر المعاصر من حين لآخر، فنجد في الفكر الإسلامي في الكتاب العظيم (قصة الإيمان) للشيخ نديم الجسر، ونجده في الفكر العالمي في كتاب (عالم صوفي) تأليف الكاتبة النرويجية جوستين جاردر.

وبالرغم من اتباع المؤلف للأسلوب الروائي، فقد توافرت في دراسته سمات العمل العلمي الموضوعي؛ فجميع البيانات والمعلومات الواردة في الرحلة صحيحة ودقيقة استخلصها الكاتب من أمهات الكتب والموسوعات المتخصصة في الدراسات الأكاديمية للتاريخ والعقائد المختلفة، وأرجعها إلى مصادرها في هوامش الكتاب الغزيرة والثرية، والتي زادت الكتاب ثراءً وموضوعية. كما اجتهد الكاتب في الالتزام بالحيادية والإنصاف في صياغة آراء الأبطال المعبرة عن معتقداتهم وعن نظرتهم للإسلام.

وقد انعكست شخصية الكاتب إلى حد كبير على عمله المتفرد، فلا شك أن كونه فلسطينياً مخلصاً لقضيته قد وجهه لاختيار الموضوع، وهو نقض العقيدة والحضارة «اليهودية المسيحية الصهيونية المستحدثة». كما يظهر من الملحمة أن حياته ودراسته وعمله

في روسيا الاتحادية لأكثر من عشرة أعوام، واطلعه على الأدب الروسي العظيم، قد انعكسا على أسلوبه الروائي، فنجد في عمله الفكري الأول يميل إلى الموسوعية والتفصيل والتحليل والتوليد والنزعة الإنسانية، وربما ساعد على تحقق هذه السمات تخصص الكاتب كطبيب أسنان مدقق متخصص في التقييم. ويتمشى توجه الكاتب إلى عالم الفكر والأدب مع أمر كاد أن يكون ظاهرة، وهو اتجاه عدد من الأطباء إلى هذا العالم، ومنهم الدكاترة محمد حسين هيكل، وأحمد ذكي أبو شادي، وإبراهيم ناجي، ويوسف إدريس، ومصطفى محمود، ويحيى الرخاوي، ومحمد الجوادى، وكاتب هذه المقدمة. وعلى المستوى العالمي تقابلنا أسماء أنطوان تشيكوف، وآرثر كونا نان دويل، وجون كيث، وسومر ست موم وغيرهم.

وفي حوار لي مع د. إيهاب عويص كاتب الملحة، سألته عن الأهداف وراء هذا العمل، فأخبرني أنها موجهة إلى ثلاث فئات؛ الأولى «القراء المسلمون» لمساعدتهم على تحقيق فهم أكثر واقعية لطبيعة الآخر، وعلى الخصوص أهل الكتاب، وأن يزيل بعض الغموض عن حقيقة العلاقة بين اليهود والمسيحيين. والفئة الثانية هم «الكتابيون» لمساعدتهم على فهم الإسلام من خلال كتبهم المقدسة بعد أن تشوهت رؤيتهم لنا. وأخيراً يخاطب المؤلف «القراء العلمانيين» ليصل بهم من خلال اكتشافات العلم الحديثة إلى تأكيد وجود الحياة الآخرة بالمنطق الدنيوي الذي يتبعونه.

وكما أخبرني الكاتب أن ما دفعه لإخراج هذا العمل هو ما آل إليه حال العالم بعد أن أصبحت سماواته مفتوحة، وصار الشاب المسلم يطالع ببساطة ويسر من خلال الشبكة العنكبوتية كل ما يموج به العالم من أحداث وما يسود فيه من معتقدات. لذلك لم يكتف الكاتب بطرح اليهودية بالتفصيل باعتبارها ديانة الصهاينة أعداء العرب والمسلمين، كما لم يكتف بتحليل المسيحية لفهم شركائنا في الوطن، لكنه عرض أيضاً «البوذية» باعتبارها قد بدأت بالانتشار في العالم الغربي كمنافس لانتشار الإسلام.

كما افتتح كتابه الأول بالحديث عن «عبدة الشيطان»، بعد أن صار شبابنا العربي يتابع أخبارهم، بل صار بعضهم يتبنى أفكارهم.

وبعد قراءتي للملحمة، أرى أن الكاتب قد نجح إلى حد بعيد في الوصول إلى أهدافه التي وضعها نصب عينيه عند تأليفه للرواية. بل وأضيف إلى نجاحه هذا نجاحاً آخر، وهو إظهار الكثير من أمور العقيدة والتاريخ التي كانت مخفية في بطون المراجع المتخصصة حتى كاد أن يفرقها النسيان، لولا أنه أثبتها في هذه الملحمة.

القارئ الكريم...

بعد هذه الجولة المتأملّة لأجزاء الرواية الثلاثة، والتي كانت وقفات سريعة تعجز عن الإحاطة بهذا العمل الملحمي والموسوعي؛ أرسل للكاتب - من خلال هذه السطور - رسالة تحمل طلبات ثلاثة:

أولاً: نظراً لغزارة وثراء وتخصّص ما طُرح في أجزاء الرواية الثلاثة، فإنني تَوَاق لأن أقرأ - في القريب - جمعاً وتلخيصاً بالأسلوب الأكاديمي لما تحويه من أفكار، وذلك كأسلوب آخر لعرض ما بها من معلومات ومعارف، حتى تُعم الفائدة من وراء الجهد الهائل الذي بذله المؤلف. وإذا كان التلخيص وإعادة العرض للأعمال التراثية أسلوباً مُتَّبِعاً في الفكر الإسلامي، فإنه ما زال منهجاً متبعاً في الفكر المعاصر، وربما كان من أشهر ما تم تلخيصه من أعمال معاصرة هو «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» للدكتور عبد الوهاب المسيري، فقد قام بنفسه بتلخيصها من ثمانية مجلدات إلى ثلاثة مجلدات، كما قمت أنا بإعادة عرض أهم أفكارها بأسلوب آخر في كتاب واحد.

ثانياً: وكما قرأنا في الملحمة طرحاً لنشأة المذهب والفرق في الديانتين اليهودية والمسيحية والاختلافات بينها، فإنني تَوَاقُّ لأن أطلع طرحاً مماثلاً عن الإسلام، خاصة فيما يخص السنة والشيعية.

ثالثاً: حديثاً عكف رجال متخصصون من غير المسلمين على القرآن الكريم وتفسيراته والسنة والنبوية وتفسيراتها وباقي كتب التراث، وأخذوا يستولدون منها ما اعتقدوا أنه مآخذات وتناقضات، ونشروها على مستوى العالم عن طريق الشبكة العنكبوتية، فوصلت للمسلم والكتابي والملحد. لا شك أن رد هذه الشبهات المستحدثة يحتاج إلى جهد علمي كبير تشارك فيه جهات إسلامية متخصصة، وأنا أعتقد أن كاتبنا بما يمتلكه من مثابرة ومن قدرات تحليلية وتركيبية قادر على المساهمة في هذا العمل الكبير، بنفس النجاح الذي حققه حين وضع يده على مآخذات اليهودية والمسيحية.

وختاماً أتمنى لك - القارئ الكريم - ساعات وأياماً ممتعة في صحبة هذه الملحة الموسوية.

د. عمرو شريف

أستاذ الجراحة العامة

كلية الطب . جامعة عين شمس

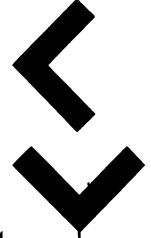
تمهيد



بطل روايتنا ابراهام هو حاخام روسي شاب من أحد البيوتات اليهودية العريقة، ضايقته المتناقضات التي اكتشفها أثناء تعمقه في دراسة شريعته، وصدّم برده فعل كبار الحاخامات على محاولته لتقصي الحقائق بشأنها، مما أورثه خيبة أمل وريبة في الدين حتى وصل به الشك إلى الوحي، فراح يبحث عن الحقيقة خارج نطاقه، بدءاً من عبادة الشيطان حتى العلمانية والتداخل اللاحادي في الأديان، مروراً بالبوذية وغيرها، إلى أن تأكد من عقمهم جميعاً ومن وجود الله فعلاً، ليعود إلى اليهودية باحثاً في بقية فرقها الأخرى، عله يجد ضالته في أحدها. وبعد أن عاش فترة في الأرض المقدسة، وجد أن بقية الفرق اليهودية كانت أشد ضلالاً من فرقته السابقة، وأن حكماء صهيون قد ذهبوا بجل ما جاء به أنبياء بني إسرائيل. ولكن فجيعته لم تكن على الصعيد الديني فحسب، بل تعدتها إلى الصعيد الاجتماعي والسياسي، فعابث عن قرب دسائس أبناء جلدته ومؤامراتهم، وعانى شخصياً من مطاردة الموساد وتلفيقاته حتى اضطر إلى الهرب إلى مصر، ثم اكتملت فجيعته عندما طالت حياته العاطفية، وخبر الخيانة بأبشع صورها بعدما ظن أنه قد عثر أخيراً على حب حياته^(١).

(١) راجع رواية "الهروب إلى العاصفة" للمؤلف، وهي الأولى في سلسلة "رحلة أبراهام".

الهجرة إلى الغرب



وتشمل:

حدوته قبطية

فرسان مالطا وبلاك ووتر

لغز المارونية

في كولونيا

التقليد الشريف

البابا

خلفاء الرسل

توبة مدعية لليهودية، ويهودية مدعين لادينية

الهجرة إلى الغرب



◀ حدوده قبطية

قصد أبراهام أحد صالونات الحلاقة في شارع شبرا، ليحلق سوافه الطويلة، (التي كان يخفيها سابقاً عن طريق ربطها مع بقية شعره إلى الورا)، كي يتخلص معها من آخر المظاهر اليهودية الشكلية العقيمة، ويبدأ مرحلة جديدة كلياً من حياته، يبحث فيها عن الحقيقة التي أيقن تماماً أنها غادرت اليهودية بكافة فرقها، ولاريب أنها استقرت في أحد طوائف دين المسيح. ولكنه ما إن دخل الصالون، حتى فوجئ بسماع كلمات سباب بذيء باللغة الروسية، وتهديد من صاحبها بأنه يستطيع أن يهدم الصالون على رأس من فيه، وأنهم لا يعرفون من هو ولا لمن يتبع. كان المتحدث رجلاً روسياً ذا عضلات مفتولة اكتشف لتوه أنه قد نسي محفظة نقوده في الفندق، ويبدو أنه لجأ إلى التهديد والوعيد بعد فشله في إقناع الحلاق بعودته لاحقاً لسداد المبلغ المترتب عليه نظير الحلاقة، وعندما رفع الحلاق السماعه ليطلب الشرطة، تقدم أبراهام ودفع له المبلغ من جيبه، منهياً الإشكال الذي قد يقود مواطنه إلى ما لا تحمد عقباه، لاسيما أنه يبدو عليه من النوع المعتد بنفسه إلى حد التهور.



- أشكرك يا صديقي على لطفك.
- لا عليك.
- اسمي ساشا.
- تشرفت بمعرفتك. أبراهام.
- بل أنا الذي تشرفت بمعرفتك أبراهام. فهؤلاء المتخلفون العرب، يظنون أنني يمكن أن أخدمهم لقاء مبلغ تافه، مع أنني أملك نقوداً تشتري مائة صالونات كصالونهم القدر هذا.
- هدئ من روعك، فقد انتهى الموضوع.
- أعطني رقم هاتفك وسأتصل بك مساءً لنلتقي وأسدد لك الدين.
- لا داعي لذلك فالأمر لا يستحق.
- إذن اسمح لي أن أدعوك الليلة إلى الشراب.
- صدقتي لا داعي لذلك.
- هيا... ألا تريد أن تشرب مع «تفاريش»^(١) روسي؟ لا أعذار. سأنتظرك الليلة في التاسعة في فندق «كمبينسكي النيل» في حي جاردن ستي على الكورنيش، اتفقنا.
- كان بودي، لكن...
- فقاطعه قائلاً:
- هيا... لا تكن جاداً هكذا، تعال ولنمرح قليلاً ونتذكر الوطن.
- حسناً سأتي.
- ستجديني منتظراً في بار الفندق.

(١) "تفاريش" تعني "رفيق" باللغة العربية.

- اتفقنا .

خرج أبراهام من الصالون وهو يشعر بأنه شخص جديد بعد الحلاقة، وكان قد قرر الاستفادة من حجة تأليف كتاب عن الأديان، كونها توفر غطاءً أكاديمياً مناسباً لبحثه، وتمنحه سبباً وجيهاً للاستفسار عن الأديان بحرية تامة. فبهذه الذريعة لن يضطر إلى وضع نفسه بموضع دوني يتعرض فيه لمواقف محرجة، ولن يتحمل عناء الدخول في مناقشات بيزنطية مع من يود إقناعه بوجهة نظره، ولن يضطر إلى تبرير ما لا يود البوح به من عدم اقتناعه بدين آبائه، وبحثه عن الحقيقة خارجه، كما لن تحور بعض المصطلحات والمفاهيم الأساسية في الدين على حساب مجاملته كيهودي^(١). وفعلاً ذهب من فوره إلى كنيسة قبطية معروفاً عن نفسه بهذه الصفة، وطلب مقابلة المسؤول الإعلامي فيها بعد أن تسلح بقلم، وبعض الأوراق، كي يضي على مظهره شيئاً من الاحترافية، فيما كان يستحضر كل ما قرأه عن تاريخ الكنيسة القبطية، وصراعاتها الدينية والسياسية، كي يضي على أسئلته بعداً أكاديمياً عملياً، يخرج من مجرد الاستفسار المباشر عن العقيدة النظرية.

- إذن فقد قدمت إلى مصر خصيصاً من أجل دراسة الكنيسة القبطية.

قال القس المسؤول ببعض الزهو. فأجابه أبراهام موافقاً:

- أجل سيدي.

- حسناً. لا بد أنك قد جمعت الكثير من المعلومات لأجل بحثك، فكيف أستطيع

أن أفيدك؟

- إنني أبحث حالياً في الطائفة المسيحية.

- ماذا تعني؟

(١) راجع رواية "الهروب إلى العاصفة" للمؤلف.

- أعني الانشقاقات بين الكنائس المسيحية بشكل عام، وبين الكنائس الأرثوذكسية على وجه الخصوص.

- هذا موضوع شائك وطويل.

- أجل، ولكنه يستحق العناء.

- تفضل بأستلتك إذن.

- من المعروف أن من أوائل الانشقاقات الرسمية الكبرى في الكنيسة المسيحية، هو ما حصل بواسطة كنيستكم، ثم حصل الانفصال الكبير بين كنيسة القسطنطينية، وكنيسة رومه، ومن ثم انقسم المسيحيون على إثر ذلك بين أرثوذكس وكاثوليك.

فقاطعه القس قائلاً:

- إن كلامك ليس دقيقاً تماماً؛ فالكنيسة المصرية لم تتشق عن كنيسة القسطنطينية، ولم تتشق الكنيسة فيما بعد عن الكنيسة الكاثوليكية كما يظن البعض، ولكن العكس هو الصحيح.

- كيف ذلك؟

- لقد امتلكت الكنيسة الأرثوذكسية في الإسكندرية^(١) الزعامة الروحية للعالم المسيحي منذ البداية، لكونها الكنيسة المرقسية^(٢) الأصيلة.

- أوضح من فضلك.

- إن من ترأس "المجمع المسكوني الأول"^(٣) هو الأنبا "ألكسندروس" بابا

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أنه يوجد في الإسكندرية بطركية أرثوذكسية أخرى، وبالمعنى المتعارف عليه للأرثوذكسية (روم أرثوذكس أو خلقيدونيون) تسمى بطركية الإسكندرية وعموم إفريقيا. وهي غير الكنيسة القبطية التي تسمى بطركية الكرازة المرقسية.

(٢) نسبة إلى مرقس المنسوب إليه أحد الأناجيل الأربعة، وهويته غير متفق عليها تماماً.

(٣) مجمع نيقية. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

الإسكندرية، وقد صنعوا له كرسيًا عظيمًا من الذهب ليجلس عليه، ولكن رفضه وجلس في المؤخرة، ثم جلس عليه بعدما أصر الجميع على ذلك. كذلك رأس البابا الإسكندري الأنبا "تيموثاوس" المجمع المسكوني الثاني^(١) وكذلك الأمر أيضاً بالنسبة إلى المجمع المسكوني الثالث^(٢) الذي رأسه البابا الإسكندري الأنبا "كيرلس الكبير". وأخيراً عقد المجمع المسكوني الرابع^(٣) فرأسه أيضاً البابا الإسكندري الأنبا "ديسقورس". وكما ترى فقد رأس باباوات الإسكندرية جميع المجامع المسكونية.

- ولكنني كنت أظن المجامع المسكونية أكثر من أربعة بكثير^(٤)!

- كما يظهر من اسمها؛ فإن المجامع المسكونية تشمل ممثلي كل الكنائس في المسكونة. وكما ترى فإن هذا الشرط قد تحقق في الأربعة الأولى منها فقط^(٥).

- فكيف خسرت الكنيسة القبطية زعامتها إذن؟

- بعد أن بعث المهترق "فلافيوس"^(٦) مقالة نسطور القديمة مرة أخرى، أوكل الإمبراطور إلى البابا "ديسقورس"^(٧) رئاسة مجمع أفسس^(٨) الثاني المقام للتصدي له. ولكن ذلك عز على بطريك رومه الذي كان يطمع في المنصب، فعمل على سحق

(١) مجمع القسطنطينية الأول. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) مجمع أفسس الأول. راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

(٣) مجمع أفسس الثاني. راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

(٤) هناك اختلافات كبيرة بين الكنائس حول إطلاق صفة "المسكوني" على المجامع. راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

(٥) هذا ليس صحيحاً كما ستري في رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف؟ كما أن المجمع "المسكوني" الرابع عندهم مرفوض تماماً عند أغلبية الكنائس الأخرى، التي تطلق عليه لقب "مجمع اللصوص"، وتعتبر أن مجمع خلقيدونية هو المجمع المسكوني الرابع الحقيقي!

(٦) بطريك القسطنطينية. راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

(٧) البطريك القبطي الخامس والعشرون.

(٨) في الأناضول، وهي قرية الفتية أصحاب الكهف كما ذكر ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق.

البابا ديسقورس، وقد تم له ذلك لاحقاً في مجمع خلقيدونية. حيث تدخلت الأغراض والمطامع الشخصية في التفرقة بين صفوف الكنيسة الواحدة، لا لشيء سوى الغيرة والأناية، فقرر فيه لعن ديسقورس ونفيه، وتعيين بطريك "ملكاني"^(١) خلفاً له، الأمر الذي دفع الكنيسة المصرية إلى إعلان عصيانها، وعدم اعترافها بمجمع خلقيدونية، ولا بقراراته، مما سبب عودة الاضطهاد مرة أخرى لحمل الكنيسة المصرية على اتباع عقيدة كنيسة القسطنطينية، والتي توافقها عليها الكنيسة الغربية في رومه. وهكذا عاشت الكنيسة المصرية سلسلة من المنازعات حول تعيين الأسقف، إلى أن تم الاتفاق عام ٤٨٢م على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل من الإمبراطور، إلا أنها خضعت إدارياً للكنيسة الغربية تحت رئاسة بطريك رومه.

- متى تكرر الانفصال في الأرثوذكسية، وما وجه الخلاف بين عقيدتكم وعقيدة

كنيسة القسطنطينية؟

في نهاية القرن التاسع الميلادي، وبالتحديد بعد انقضاء مجمع القسطنطينية الخامس^(٢) أصبح يمثل الأرثوذكسية كنيستان رئيسيتان هما: كنيسة القبطية الأصلية التي تؤمن بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة^(٣)، وكنيسة القسطنطينية^(٤) التي تخالفنا في طبيعة المسيح، في حين توافق الكنيسة الكاثوليكية الغربية بأن

(١) كما أوضحنا، يسمى الخلقيدونيون من قبل خصومهم بالملكانيين لاعتمادهم في هذا المجمع على سلطة الملك. والتسمية المرادفة التي يعتمدها الملكانيون هي "الروم"، باعتبار أن الإمبراطورية الرومانية هي أصل المسيحية! وفيها بدأت وانتشرت. ولاحقاً انقسم الروم إلى كاثوليك وأرثوذكس.

(٢) أو مجمع القسطنطينية السابع عند بقية الأرثوذكس. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) يتبعها في ذلك كنائس أثيوبيا (الحبيشة) والسودان، ويوافقها كنائس الأرمن والسريان أيضاً.

(٤) أي الكنيسة الأرثوذكسية المسكونية، وهو يقصد الروم الأرثوذكس بشكل عام. وهم موزعون حالياً على ١٣ كنيسة أرثوذكسية مستقلة، منها ٩ بطريشيات؛ وهي القسطنطينية - الإسكندرية - أنطاكية - القدس - موسكو - صربيا - رومانيا - بلغاريا - جورجيا. والباقي عليها أسقف (في اليونان يسمى "رئيس أساقفة").

للمسيح طبيعتين ومشيتين، ولكن يجمعنا معها الإيمان بانبثاق الروح القدس عن الأب وحده، دون الابن، مخالفين الكاثوليك بذلك^(١).

- وكيف حصل الانفصال النهائي بين الأرثوذكس الشرقيين بشكل عام، وبين

الكاثوليك الغربيين؟

- لقد كانت روما تمتلك الزعامة السياسية للعالم في ذلك الحين، فانسحقت كنيستها محاولة الاستحواذ على الزعامة الروحية أيضاً، بحيث تصبح مركز الثقل الديني والسياسي معاً. فنار الغيرة التي اشتعلت في صدر بطريرك رومه، لم تقف عند حد تأمره على بابا الإسكندرية، بل نظر أيضاً إلى بطريرك القسطنطينية بعين الحسد لما وصل إليه من مركز مرموق أقره مجمع خلقيدونية، الذي منحه حق الزعامة والتقدم، فوقف الخصمان وجهاً لوجه في نضال وشجار حول لقب "الأعظم"، ونسوا أو تناسوا ما قاله رب المجد^(٢) لتلاميذه عندما أصابتهم هذه النوبة الكبريائية: "أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً"^(٣).

- ألم تكن هناك أسباب عقائدية؟ أعني؛ هل كان هذا هو السبب الوحيد

للانفصال؟

(١) لقد تخبطت الآراء كثيراً حول طبيعة المسيح وكثرت الانشاقات بين الكنائس بسبب ذلك، حتى سخر كثير من المسيحيين أنفسهم من ذلك ورفضوا المسيحية جملة وتفصيلاً. وفي هذا قال الفيلسوف الشهير "فولتير" ساخراً في كتابه "الملحد والحكيم": "هل تؤمن بأن المسيح له طبيعة واحدة وشخص واحد وإرادة واحدة أو أن له طبيعتين وشخصيتين وإرادتين، أم أن له إرادة وطبيعة واحدة وشخصيتين أو إرادتين وشخصيتين وطبيعة واحدة؟!".

(٢) يقصد المسيح.

(٣) متى ٢٠: ٢٥-٢٧.

- في البداية نعم. ثم نشأ عن ذلك شجار آخر عنيف بين الكنيستين حول إضافة كلمة إلى قانون الإيمان وهي كلمة "الابن" التي أضافتها كنيسة رومه إلى قانون الإيمان عن الروح القدس عند القول "نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب"، وهنا تضيف كنيسة رومه كلمة "والابن"؛ فيقولون: المنبثق من الآب والابن^(١)!! وهذا يخالف تعليم الآباء وقرارات المجامع الأولى. وكان نتيجة لهذا أن اعترضت كنيسة القسطنطينية على ذلك، واعترضت أيضاً على بعض العادات الكنسية التي وضعتها كنيسة رومه كضرورة بقاء الكهنة غير متزوجين... إلخ. وظل النزاع قائماً بين الكنيستين حتى سنة ١٠٥٢م حيث أصدر بطريرك رومه حكم الحرم على بطريرك القسطنطينية فلم يكن من هذا الأخير إلا أن أذاع على العالم أن كنيسة رومه قد هرطقت. وكان نتيجة هذا الصراع والشجار انقسام آخر في الكنيسة، فانفصلت كنيسة رومه نهائياً عام ١٠٥٤م، وسميت الكنيسة الكاثوليكية (أي الجامعة)^(٢)، عن كنيسة القسطنطينية التي سميت الكنيسة الأرثوذكسية (المسكونية)^(٣). كما سميت أيضاً بالكنيسة الأرثوذكسية الخلقيدونية تمييزاً لها عن كنيستنا الأرثوذكسية الأصيلة التي لا تعترف بمجمع خلقيدونية أصلاً. وهكذا فإن الكنيسة الكاثوليكية هي التي انشقت عن الكنيسة الأرثوذكسية الخلقيدونية، وانشقت الاثنتان قبل ذلك عن الأمانة الأرثوذكسية التي ظلت الكنيسة القبطية وحدها أمينة عليها.

- ولكن يسوع الناصري قد قصد قيام كنيسة واحدة. وإذ قد بشر بطرس الرسول بأنه سيكون الصخرة التي تبنى عليها تلك الكنيسة، فإن الكرسي الرسولي في رومه (الفاتيكان)، الذي يتعاقب عليه الباباوات من خلفاء بطرس، هو الممثل الشرعي

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) أو اللاتينية (نسبة إلى اللغة المنتشرة في الشق الغربي من الإمبراطورية) أو الغربية.

(٣) أو كنيسة الروم (اليونانية نسبة إلى اللغة المنتشرة في الشق الشرقي من الإمبراطورية) أو الشرقية.

للكنيسة الحقيقية، أما أنتم (الأرثوذكس) فعدة كنائس مستقلة تنكر فضل البابا الرسمي .
 - رغم ادعائهم بأن بطرس كان البطريرك الأول على رومه، وظل فيها حتى قتل في
 المكان الذي أقيم عليه مقر الفاتيكان لاحقاً، إلا أن بعض الدلائل والمصادر المسيحية
 الأخرى تؤكد أنه توفي في سجن في أورشليم، وأن بولس هو من أسس كنيسة رومه
 وليس بطرس^(١). كما أن بطريرك الإسكندرية لم يكن أول بطاركة العالم المسيحي
 من حيث سمو المنزلة والأهمية فحسب، بل صاحب أعلى الكراسي كعباً من الوجهة
 العلمية، وكان هو المنفرد بلقب "بابا" لا يعرف به رسمياً في المجامع سواء. ولقب "بابا
 رومه" كان وقتئذ مما لم يتمخض به التاريخ، أما بابا الإسكندرية فكان علماً في رأسه
 نار، ولقب إعزاز وحب ومهابة وإجلال.

- أي إن لقب بابا الإسكندرية سبق لقب بابا رومه .

- بالتأكيد، فقد كان "حنانيا"، أول بطاركة الإسكندرية المسمين بالبابا، واستمر
 اللقب مع خلفائه. ولم يكن آنذاك بمصر أساقفة، وعندما رسم البابا "ديمتريوس"^(٢)
 عدداً من الأساقفة، صار كل منهم يسمى بـ"الأب"، وأصبحت لفظة البابا بمعنى "أبو
 جميع الآباء" تختص ببطريرك الإسكندرية فقط، ثم انتقل هذا الاسم عن كرسي
 الإسكندرية إلى كرسي رومه بفعل السياسة، لا الدين.

- ألهذا منعم البابا "يوحنا بولس الثاني" عندما زار مصر سنة ٢٠٠٠م من دخول

ديركم^(٣)

(١) المصدر هو :

<http://st-takla.org/Coptic-History/CopticHistory - 01-Historical-Notes-on-the-Mother-Church/Christian-Church-History - - 023-Paul-delivered-Christianity-to-the-Roman-Church.html>.

(٢) الحادي عشر من بطاركة الإسكندرية .

(٣) دير "سانت كاترين" في سيناء .



- إن شئت الحقيقة فنحن لا نعتبره مسيحياً أصلاً!
- لقد اضطره ذلك إلى الصلاة في الشارع أمام الدير، في حين استقبله شيخ الأزهر بالمطار، وفتح له أبواب مشيخة الأزهر.
- هذا شأنه الخاص.
- حتى عندما زار سورية، صحبه الرئيس "بشار الأسد" ومفتي سورية إلى داخل المسجد الأموي، فزار قبر "يوحنا المعمدان"^(١).
- وهذا أيضاً شأن السوريين الخاص.
- الغريب أنه يومها رفض زيارة قبر صلاح الدين الأيوبي، رغم كونه في حرم المسجد الأموي وعلى بعد خطوات قليلة منه، فما سبب ذلك برأيك؟
- هو لم يكن غيباً بالتأكيد، وكان يعلم أن ذلك قد يعتبر إشارة اعتذار إلى المسلمين عن الحروب الصليبية!!
- ما مدى صحة ما قاله "والتر السون فيلبس" في كتابه "تاريخ العالم": "وكانت النتيجة المحتومة أن رحبت الشعوب المضطهدة ومنهم المصريون أيما ترحيب بالفاتحين العرب، لينقذوهم مما يشكون من اضطهاد"؟ أعني هل ساعد المسلمون فعلاً على حماية الأقباط بعد ضم مصر إلى حكمهم؟
- الاحتلال هو الاحتلال. فعندما استرد "هرقل" مصر من الفرس^(٢) عين الأسقف الملكي "كيروس"^(٣) لحكمها في محاولة منه لتوطيد أركان ملكه عن طريق توحيد عقيدة الإمبراطورية على مذهب الطبيعتين. ولم يأل كيروس جهداً في إنفاذ ذلك، مستخدماً الترغيب تارة، والترهيب والعذاب والتكيل تارة أخرى، مما دفع بطريرك الكنيسة

(١) النبي يحيى عليه السلام.

(٢) سنة ٦٢٨ م. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) المقوقس.

المصرية "بنيامين" إلى الهروب إلى الصحراء، وأن يكتب إلى جميع أساقفته باللجوء إلى الجبال والبراري فراراً بعقيدتهم. فاعتقل الروم شقيقه، وقتلوه ببطء بإسالة شحمه بالشموع المشتعلة، ووضعوه في جرابٍ مثقّب وأنزلوه في البحر عدة مرات. ومثل ذلك العذاب الذي عاناه الأقباط، جعلهم يضيقون ذرعاً بحكامهم، وإن اتحدوا معهم في الإيمان بالرب يسوع، لذا فما إن ظهرت جحافل العرب منطلقاً من الجزيرة العربية حتى رخت الكنيسة المصرية بالتخلص من ظلم مسيحيي الإمبراطورية البيزنطية واضطهادهم، فالرب يسلط الظالم على الظالم، ولم يكن العرب بأفضل حالاً ممن سبقهم من المحتلين.

- غريب أن أسمع ذلك منك؛ فما أعرفه هو أن المسلمين بعد أن دانت لهم أرض مصر، أعاد قائدهم^(١) بطريك الكنيسة المصرية إلى كرسيه، ووافقه على ما أبداه من مقترحات لحفظ كيان الكنيسة، كما وافقه على تشييد ما دعت إليه الحاجة من الكنائس وتجديد البعض الآخر وإصلاحه، وسمح لهم بالمشاركة في بعض وظائف الدولة، فأصبح منهم العلماء والقادة فيما بعد. وحرص الولاة المسلمون دائماً على تقدير الرئاسة الدينية القبطية واحترامها ومخاطبتها بألقاب الشرف والتكريم، رغم ثوراتهم الدائمة وتمردهم المستمر، وتتفق روايات التاريخ كافة على اختلافها بأنه لو لم يقع الفتح الإسلامي، لأبيد الأقباط تماماً بإبادة كنيستهم وفتنتهم عن دينهم^(٢).

(١) الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٢) يقول شاهد العيان على الفتح الإسلامي لمصر، الأسقف " يوحنا النقيوسي " : " إن الله الذي يصون الحق ، لم يهمل العالم ، وحكم على الظالمين ، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه ، وردهم إلى يد الإسماعيليين ، ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر . . . وكان هرقل حزينا . . . وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مصر ، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم . . . مرض هرقل ومات . . . وكان المسلمون يأخذون الضرائب التي حددها الإسلام ، ولم يأخذوا شيئاً من مال الكنائس ، ولم يرتكبوا شيئاً ما ، سلباً ونهباً ، وحافظوا على الكنائس طوال الأيام " . وبعد الأسقف يوحنا النقيوسي بعدة قرون ، يشهد الأسقف " ميخائيل السرياني " على الحقيقة ذاتها ، فيقول عن تحرير الإسلام للمسيحية المصرية والشرقية ، وعن سماحة =

ظهر الحرج على وجه القس، فقال أبراهام مغيراً الموضوع:

- هل صحيح أن الحملات الصليبية كانت موجهة ضد الأرثوذكسية أيضاً، كما كانت موجهة ضد الإسلام؟

- أجل، فقد سقطت القسطنطينية على يد الحملة الصليبية الرابعة^(١)، وعندما قامت الحملة الصليبية الخامسة^(٢) بقيادة "لويس التاسع" ملك فرنسا، تمكنت في بادئ الأمر من احتلال مدينة دمياط، وفرضت بطريكاً كاثوليكياً من "الآباء الفرنسيين" عليها، ليمثل أول وجود كاثوليكي في مصر، لكن الرب سلب عليهم المسلمين، لتعود الأمور إلى نصابها.

- هل حاولوا مجدداً؟

- أجل، ولكن عن طريق الصلح هذه المرة. ففي سنة ١٧٦٩م عرضت الكنيسة الكاثوليكية انضمام الكنيسة المصرية إليها، ليقابلها البابا "يوانس الثامن عشر"

=الإسلام مع المسيحيين في مصر: "لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا المونوفيزيتية (القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح) بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنايس التي نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه. لقد نهب الرومان الأشرار كنايسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل من الجنوب لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب غارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام". واستعان المسلمون في تنظيم البلاد بفضلاء المسيحيين وعقلانهم وفي تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كل منها حاكم مسيحي ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة، وعين نواباً من المسيحيين ومنحهم حق التدخل في القضايا المختصة بالمسيحيين والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، وكانوا بذلك في نوع من الحرية والاستقلال المدني، وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية. وضرب المسلمون الخراج على البلاد بطريقة عادلة. وجعلوه على أقساط، في أجال معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد. وبالجملة، فإن المسيحيين نالوا في أيام الفتح الإسلامي راحة لم يروها من أزمان.

(١) سنة ١٢٠٤، وقد استمرت الحملة الصليبية الرابعة من ١٢٠١-١٢٠٤م.

(٢) استمرت الحملة الصليبية الخامسة من ١٢١٥-١٢٢١م.

بالرفض التام. ثم توالت الإرساليات الكاثوليكية على مصر من كبوشية وفرنسيسكانية ويسوعية، ولكنها لم تفلح بجذب الأقباط إلى الكاثوليكية، وبقي عدد الكاثوليكين صغيراً جداً، ومع ذلك أسس الفاتيكان بطريركية قبطية كاثوليكية في عام ١٨٢٤م ولكن لم تبدأ بعملها إلا في عام ١٨٩٥م.

- متى بدأ الكاثوليك بإرسال بعثاتهم التبشيرية إلى مصر؟

- منذ القرن السابع عشر الميلادي، يحاول بطريرك رومه إرسال رهبان كاثوليك لنشر مذهبه في مصر. وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى هنا زاد عدد المتذهبين بالكاثوليكية زيادة طفيفة، وفي عهد "محمد علي باشا" كان للفرنسيين نفوذ عظيم في مصر، وعن طريقه أرغم "المعلم غالي"، وكان صاحب المقام الأعلى، على الكتلكة بشرط ألا يكره على تغيير طقوس الكنيسة القبطية وعوائدها الشرقية، وذلك كي يكون مثلاً يقتدي به بقية الأقباط حيث لن يكرهوا على تغيير طقوسهم وعقائدهم الشرقية. ومن ذلك الحين وجدت طائفة "الأقباط الكاثوليك"^(١) ضئيلو العدد كما أوضحت قبل قليل، وأقيم أول بطريرك لهم سنة ١٨٩٩م.

- ماذا عن البروتستانت؟

- بدأ دخول البروتستانت مصر في منتصف القرن التاسع عشر عندما جاء أحد البروتستانت الأمريكيين ويدعى "لانش"، وأقام في الإسكندرية، ثم لحقه مرسل من اسكتلندا دعي "يوحنا هوج"، وبعد فترة من الزمان جاء إلى القاهرة سنة ١٨٦٢م، ثم

(١) المتحدون بالكنيسة الكاثوليكية مع الاحتفاظ ببعض عقائدهم السابقة. وعادة ما يكون سبب الاتحاد (الانضمام إلى) الكنيسة الكاثوليكية هو خلافات عائلية تؤدي إلى القطيعة والانفصال، أو غضب على الكنيسة الأم نفسها. وكان آخر وأكبر خطوة قام بها الفاتيكان في تشجيع ذلك هو قراره يوم ١٠/١٠/٢٠٠٩ بقبول انضمام الإنجليكانيين الغاضبين إلى الكنيسة الكاثوليكية مع احتفاظهم ببعض عقائدهم البروتستانتية!!!

استقر في أسيوط منذ سنة ١٨٦٥م، وبدأ عمله التبشيري. وحالياً تنشط الإرساليات البروتستانتية جنباً إلى جنب مع مثيلاتها الكاثوليكية، واستطاعوا تأسيس مراكز عديدة للتبشير بطائفتيهما في الصعيد بوجه خاص.

- وكيف كان ردكم على كل ذلك؟

- في عهد البابا "كيرلس الرابع"^(١) "أبو الإصلاح"، كما نسميه، بدأت بوادر حركة إصلاح الكنيسة المصرية وتطويرها، لمواجهة هذه التحديات؛ فافتتح مدارس للبنين والبنات، وأنشأ المدرسة البطريركية، بالإضافة إلى أنه أدخل أول مطبعة إلى مصر، ولكن البابا "ديميتريوس الثاني"^(٢) تصدى للتبشير الكاثوليكي والبروتستانتية في مصر بأسلوب آخر، وذلك بإصدار قرارات الحرمان ضد المرسلين الأمريكيين ومن يتصل بهم من الأقباط. وازدادت حملة الكنيسة المصرية ضراوة ضد إرساليات الكنائس الغربية في مصر في عهد البابا "كيرلس الخامس"^(٣)؛ فأغلق مدارسهم، وأصدر قرارات تعتبر هذه الكنائس وإرسالياتها وتابعيها ومن ينضم إليها من الأقباط مهرطقين. ولم يفلح تدخل القنصل الأمريكي "وليم تاير" والمبشر "جون هوم" في إقناع البابا بأن نشاطهم غير موجه ضد الأرثوذكس^(٤). وازداد تبعاً لذلك عدد المؤسسات الاجتماعية المختلفة التي تخدم الأرثوذكس، بغية التصدي للإرساليات التبشيرية الغربية.

فتساءل أبراهام:

- إذن كيف تغير الموقف الراض للتعاون أو القبول بوجود الكنائس الغربية بين

الكنائس الأرثوذكسية خلال الاستعمار الإنجليزي لمصر؟

(١) ١٨٥٤ - ١٨٦٢ م.

(٢) ١٨٦٢ - ١٨٧٤ م.

(٣) ١٨٧٤ - ١٩٢٧ م.

(٤) في الحقيقة كان قصد هذه الإرساليات تنصير الطوائف المسلمة فعلاً، ولكن نجاحهم الوحيد كان ضمن الأقباط فحسب.

- موقفنا ثابت ولم يتغير قط!

- ولكن في عهد البابا "يوساب الثاني" أصدر القس "إبراهيم لوقا" مجلة اليقظة" للدعوة إلى تقارب الكنيستين، البروتستانتية الأسقفية والقبطية، كما أعلن أن الوقت قد حان لأن يتبادل قساوسة الطوائف المسيحية المختلفة الوعظ في كنائس بعضهم البعض. وفي عام ١٩٢١م عقد "مؤتمر حلوان" بضاحية حلوان بمصر لعموم الكنائس الشرقية والغربية بهدف توحيد جهود الكنائس للتصير بين المسلمين لا فيما بينهم، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الكنيسة المصرية. وفي هذه الأثناء أعلن "إبراهيم فهمي المحامي"، أحد خريجي مدارس الأحد، تأسيس "جماعة الأمة القبطية"، وأنشأ لها فروعاً على مستوى محافظات مصر. وقد دعا إلى إحياء مفهوم الأمة القبطية من خلال التمسك بالعادات والتقاليد الكنسية، وبإحياء اللغة القبطية، واستخدام التقويم القبطي، وكذلك بإصدار الجرائد والمجلات التي تهتم بالأقلية القبطية^(١). وإمعاناً في التقارب انضمت الكنيسة المصرية إلى عضوية مجلس الكنائس العالمي الذي أنشئ عام ١٩٤٦م. ثم قامت جماعة الأمة القبطية في عام ١٩٥٤م باختطاف البابا يوساب الثاني وإجباره على توقيع وثيقة تنازل عن كرسي البابوية، ودعوة المجمع المقدس للانعقاد، ووضع وثيقة جديدة لانتخاب البطريرك، تشارك فيها كل الطوائف المسيحية. لذلك قامت الحكومة بواجبها، وألقت القبض على زعيم الجماعة واعتقلت أفرادها، ثم قامت بحلها وإعادة البابا إلى كرسيه.

- يبدو أنك جمعت الكثير من المعلومات فعلاً!

علق القس بضيق لم يتكبد عناء إخفائه، ثم قال مُسَلِّماً:

(١) تطور معه الأمر إلى أن أعلن بياناً يطالب فيه بالحكم الذاتي لأقباط مصر!

- صحيح أن حماية الدين لدى الإنجليز قد دفعتهم لنصرتنا وتذكيرنا بأننا لا ننتمي إلى الأمة العربية الطارئة على أرضنا، وشجعوا "حبيب جرجس"^(١) على رفع شعار "الأمة القبطية" مقابل الأمة الإسلامية، ولكن لولا الاضطهاد الذي كان يتناقل على كاهل الأقلية القبطية وهضم المسلمين لحقوقنا، لما احتاج أي قبطي إلى الاستقواء بالغرب، فضلاً عن التقارب الديني معهم.

- ولكن في ذلك الوقت، وتحديدًا في عهد الخديوي إسماعيل، كان عدد كبير من الأقباط في سلك القضاء والمجالس النيابية وكلفوا بالخدمة العسكرية، وظهرت في الساحة السياسية أسماء كبيرة مثل "بطرس باشا غالي" و"يوسف باشا سليمان".
- أجل، ولكنهم سرعان ما اتهموا بالتعاون مع الاستعمار الإنجليزي، وقد اغتيل بطرس باشا غالي فعلاً.

- ولكن هذا هو بالضبط ما أدى إلى انعقاد مؤتمر ١٩١٠م. فازداد نفوذ الأقباط السياسي بعده، وخاصة بعد انضمام كثير منهم إلى حزب الوفد وتولي "مكرم عبيد" منصب نائب رئيس الحزب؛ أي إنه لم يكن هناك هضم لحقوق الأقباط.

- على أية حال فإن الأمر قد تغير بعد الثورة على الملكية^(٢)، فقد عاد الأقباط مرة أخرى إلى الانزواء داخل الكنيسة لخوفهم من حكومة "جمال عبد الناصر"، ومن ثم هاجر الكثير منهم إلى أوروبا وأمريكا.

- عندئذ تحرك الغرب نحو مساندة الكنيسة القبطية نفسها، ومارس ضغطاً سياسياً واقتصادياً على الحكومة المصرية لتحقيق مركز ديني وسياسي واجتماعي متميز للأقباط، بأكثر مما كان أيام الملكية. أليس كذلك؟

(١) ١٨٦٧-١٩٥١م من أبرز رواد الإصلاح والتطوير في الكنيسة المصرية.

(٢) ثورة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢م.

- لا أنكر ازدياد الضغط الغربي على الحكومة لإلغاء "النظام الهمايوني"^(١)، وأنه تم بالفعل الاستجابة لتلك المطالب العادلة، وأنشئت العديد من الكنائس؛ منها "كاتدرائية القديس مرقس" بميدان العباسية بالقاهرة عام ١٩٦٧م، وتم إصلاح الأديرة وتعميرها وتحويلها من أماكن للعبادة إلى مراكز إنتاجية ومراكز اتصالات واسعة ومؤثرة على شؤون الكنيسة^(٢)، ولكن ذلك بالأساس كان بفضل تحركات أقباط المهجر وتعريف الرأي العام في العالم الحر بواقعنا المرير. وفي عام ١٩٧١م تولى البابا شنودة الثالث رئاسة الكنيسة المصرية^(٣) وقد كان صحفياً وكتاباً وشاعراً، وإليه يعود الفضل الأكبر في انتزاعنا لبعض حقوقنا.

- أصبح أن التوجه السياسي للكنيسة المصرية زاد في عهده^(٤) إذ قدم مفهوماً جديداً للمسيحية على أنها دين ودولة^(٥)؟

- (١) أصدرته الخلافة العثمانية في عام ١٨٥٦م كنظام إصلاحي لتنظيم بناء وترميم الكنائس داخلها.
- (٢) ساعد في ذلك الدعم السخي والأموال الطائلة من الكنائس الغربية.
- (٣) اسمه "نظير جيد"، تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة، ثم التحق بالقوات المسلحة كضابط احتياط.
- (٤) هناك دراسة نشرت على نطاق واسع على شبكة الإنترنت، كتبها باحث قبطي معروف في اللاهوت، هو الدكتور "جورج حبيب بياوي" أحد تلاميذ الراحل "متى المسكين"، تحدث فيها عن حجم الأخطاء التي ارتكبها البابا شنودة، وأنها كانت كبيرة جداً. فهو البابا الوحيد الذي شهد عهده أكبر قرارات شلح وفصل وتحريم لمن يخالفونه، وأكبر عدد من الانفصالات وأكبر عدد من تحول الأرثوذكس إلى ملل وديانات أخرى، وأكبر عدد من الصدمات مع الدولة والمجتمع! وعهده هو الوحيد الذي أحال الأرثوذكسية إلى "هوية" معزولة وصدامية مع هوية الدولة! وقد أحدثت هذه الدراسة ضجة كبيرة داخل الكنيسة التي تحركت بعصية وأفتت بـ "تكفير" بياوي!
- (٥) في برنامج (ما لا يقال) على بي بي سي العربية تحت عنوان "أقباط في الشارع"، كان أحد الهتافات في مظاهرة قبطية تقول: "إيه يا مبارك ساكت ليه إنت معاهم ولا إيه؟"، ثم جاء على لسان قبطية عجوز: "لو ما كنش حسني مبارك يخذ لنا حقنا، نخلي أمريكا تأخذ لنا حقنا. هو الصح ده". المقطع من تسجيلات الكنيسة نفسها. وقد علق الدكتور رفيق حبيب (كاتب وباحث مصري ظهر في الفيلم الوثائقي) على مثل هذه الأمور، وعلى قيام حزب قبطي قائلاً: "أصبح الصوت أعلى، ويتجاوز حدود ماتم التعارف عليه من تقليد في المجتمع المصري. أيضاً يستند إلى الدعم الغربي بصورة فجوة وواضحة دون أن يراعي أن مجرد الاستناد إلى طرف خارجي يعقد المشكلة أكثر".



- يمكنك قول ذلك.

- و لكن، ألم يقل المسيح: "مملكتي ليست في هذا العالم"!!!

ضرب القس الطاولة بقبضته قائلاً:

- مملكة المسيح ليست في هذا العالم، لكن كنيسته في هذا العالم، ولا بد لها أن تسود.

- ألهذا استخدم البابا شنودة سياسة الانتشار الدولي، والتقارب مع الكنائس

الغربية ومؤسساتها للضغط على مصر وتحقيق أغراض الكنيسة السياسية؟

- تماماً. ومن أجل ذلك تعددت جولاته ولقاءاته، ومن أبرز هذه اللقاءات: لقاؤه

ببابا الفاتيكان "بولس السادس" عام ١٩٧٣م، الذي تمت فيه المصالحة بين الكنيسة

الكاثوليكية الغربية والكنيسة المصرية الأرثوذكسية. وتوقيعه وثيقة رفع الحرم المتبادل

بين كنيسته والكنائس الأرثوذكسية الخلقيدونية وغير الخلقيدونية في "شميزي" عام

١٩٩٠م. وأيضاً الاتفاق على تحقيق الوحدة بين كل الكنائس المسيحية، وزيارته لرئيس

أمريكا كارتر عام ١٩٧٧م، التي كان لها أثرها السياسي والديني الكبير لمصلحة

الكنيسة المصرية. كما أعلن عن تنظيمات جديدة للكنيسة، ودعا إلى تطوير "الكلية

الأكليريكية"، وإعادة الكنيسة إلى مكانتها العالمية، فزاد اهتمامه بإنشاء الكنائس في

الخارج، وعين لها الأساقفة.

- وهل تعددت فعلاً، تحت رئاسة البابا شنودة وإشرافه، الاجتماعات ذات الصبغة

الدينية والسياسية، التي تطالب بإعطاء الكنيسة الأرثوذكسية في مصر دوراً فاعلاً

في السياسة، وأن يكون لها نصيبها من المناصب الوزارية؟ وهل دعت الحكومة المصرية

إلى التخلي عن فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية، والموافقة على إنشاء جامعة للأقباط

على غرار جامعة الأزهر؟

- أجل، ومن أشهر هذه الاجتماعات اجتماع الكنيسة المرقسية بالإسكندرية عام ١٩٧٣م، واجتماع الإسكندرية عام ١٩٧٧م، واجتماع تدريب مدرسي ومدرسات وخدام الدين المسيحي في كنيسة "مارجرس" بدمهور في ٢٨-٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٧٧م، واجتماع المحامين الأقباط بالإسكندرية. كما اهتم بزيادة عدد الأبرشيات حتى ارتفعت إلى ثلاث وخمسين أبرشية بدلاً من ثلاث وعشرين في عهد سلفه، ومن ثم زاد عدد الأساقفة إلى اثنين وستين أسقفًا.

- وهل ازدادت فعلاً، وفي عهده أيضاً، وبشكل ملحوظ، النشرات والكتب، وحملات التبشير والاستفزاز للمسلمين، مما أشعل المواجهات بين المسلمين والمسيحيين فيما عرف بأحداث الفتنة الطائفية^(١)؟

نظر القس إلى أبراهام متشككاً، ثم قال بريية:

- هل أنت حقاً روسي أرثوذكسي؟!

- عفواً!!!

- أسئلتك، وطريقة عرضك لها، غريبة جداً.

- أنا روسي يهودي من جهة المولد، ولكن لا علاقة لذلك بطبيعة أسئلتك.

- حسناً مثل هذه الإشاعات المفرضة هي ما دعت الرئيس السابق لمصر^(٢) إلى عزل البابا شنودة ونفيه في "دير وادي النطرون"، وقد أفرج عنه وعاد إلى كرسيه في عهد الرئيس الحالي لمصر محمد حسني مبارك.

- هل هناك اتجاهات داخل الكنيسة تعارض البابا شنودة؟

(١) في الزاوية الحمراء ومناطق مختلفة من صعيد مصر.

(٢) محمد أنور السادات.

- هناك اتجاه علماني يؤكد انفصال الدين عن الدولة، ويرى أن الكنيسة في هذا العصر خرجت عن المسيحية الصحيحة لخلطها بين الدين والدولة، ويطالب بأهمية قيام الكنيسة بواجبها الديني، وابتعادها ورجال الكنيسة عن السياسة، ومن أبرز ممثلي هذا التيار المهندس "ميلاد حنا"^(١). وهناك اتجاه انعزالي كنسي يدعو إلى تبني الكنيسة للخطاب الديني المحض، ويتجه إلى إصلاح الأديرة وتطويرها، وكان يمثلته الأب "متى المسكين"^(٢). وهناك اتجاه روحي انعزالي يدعو إلى تكفير كل من يخالفه، مستخدماً في محاربتهم الحرب الروحية بصراع الأرواح الشريرة، كما يدعو إلى محاربة التلفزيون كأحد أساليب مملكة الشر، وإلى مواجهة المجتمع والدولة سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين مواجهة علنية^(٣)، ويمثله الأب "دانيال البراموسي" في الداخل^(٤)، والقمص زكريا بطرس^(٥) في الخارج^(٦). كما أن هناك اتجاهاً شمولياً يرى أن الكنيسة مؤسسة شاملة مكلفة بأن تقدم الحلول لكل المشكلات، والأجوبة لكل الأسئلة المتصلة بالدين والدنيا، ويمثله البابا شنودة الثالث نفسه، والأبنا "غريغوريوس" أسقف البحث العلمي^(٧). وأخيراً هناك اتجاه توفيقى يرى أن للكنيسة دوراً دينياً ذا بعد وطني، يحتم

(١) الخبير الإسكاني وأحدر موز الحركة اليسارية في مصر .

(٢) اسمه يوسف إسكندر، وهو صيدلي انقطع للرهبنة في دير أبي مقار قرب الإسكندرية .

(٣) إلى هذا الاتجاه تنسب الحوادث المروعة من إغماء الفتيات المسلمات في شوارع مصر .

(٤) خريج كلية الهندسة، وصاحب النشاط المؤثر بين الشباب المسيحي في صعيد مصر خاصة .

(٥) الراعي السابق لكنيسة مارجرجس بمصر الجديدة ١٩٧٩م، وصاحب البرامج الفضائية التهكمية على

الإسلام وشخص الرسول الكريم*، والخائض في العرض والشرف عن طريق الكذب والتدليس في

قراءته وتفسيره للقرآن والسنة، وهو ما أثار سخط المسلمين، وبعض المسيحيين، حيث أصدر الأبنا

سيرايون بياناً حذر فيه بصورة شديدة اللهجة من هذا القس المشلوح .

(٦) أبعد عن منصبه لمهاجمته الدولة، ودعوته إلى تنصير المسلمين بشكل علني، ولاتهامه بالخروج عن

الأرثوذكسية واتباع البروتستانتية على مذهب الخمسينيين، مع أنه ينفي ذلك ويجاهر بقوة علاقته مع البابا

شنودة .

(٧) واسمه وهيب عطا، حاصل على دكتوراه في فلسفة اللغات .

عليها أداء أدوار وطنية محددة، مثل الوقوف في وجه المستعمر، مع البعد عن الأمور السياسية، ويمثله المفكر القانوني "وليم سليمان قلادة".

- ما مدى انتشار القبطية في مصر والعالم؟

- في مصر تصل نسبتنا إلى أكثر من ١٠٪ من السكان^(١)، كما يتبع كنيسةنا مسيحيو الحبشة والسودان، التي بها أقدم الكنائس التابعة لكنيسة الإسكندرية. وفي العصر الحديث أسست الكنيسة المصرية عدة كنائس تابعة لها في كل من كينيا، وليبيا، والجزائر، والكويت، والعراق، ودبي، والبحرين، وإسرائيل، والأردن، ولبنان، والولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا، والنمسا، وفرنسا، ودول أوروبية أخرى، وقد افتتح البابا شنودة الثالث مؤخراً أول كنيسة للأقباط في أبوظبي عاصمة الإمارات العربية المتحدة.

- يبدو أن الكنيسة المصرية تهتم بالحملات التبشيرية في داخل مصر وخارجها، أكثر بكثير من بقية الكنائس الأرثوذكسية.

- هذا نظراً للتحجيم الشيوعي لدور الكنائس في روسيا ودول أوروبا الشرقية، ولكن هذا أخذ بالتطور بعد انهيار الشيوعية. فبعد كنيسةنا في أبوظبي، وضع الرئيس الروسي آنذاك "فلاديمير بوتين" الأساس لأول كنيسة أرثوذكسية في الشارقة التي تبعد عنها مئتي كم تقريباً. ولعل التبشير من أهم واجبات الكنيسة، ولذلك فقد بعثنا بعدة إرساليات للتبشير حتى أوروبا، وأسسنا هناك كنائس أخذت عنا أنظمة الرهبنة.

- إذا كان الأمر كذلك، فما الذي يزعجكم من تبشير الكاثوليك والبروتستانت في مصر، أو حتى الدعوة الإسلامية للمسيحيين هنا؟

- ألي أن أرى جواز سفرك؟

(١) هذا ما يدعيه الأقباط، ولكن حسب الإحصائيات الرسمية بالتعاون مع عشر هيئات محلية وعالمية من بينها الأمم المتحدة، بلغ إجمالي مسيحيي مصر بجميع طوائفهم ٧٨,٥٪ من سكان مصر.

- بالتأكيد .

أطرق القس متأملاً في جواز سفر أبراهام، وبعد قراءة اسمه الكامل ورؤية الفيزا الإسرائيلية تأكد أنه يهودي فعلاً، وليس مسلماً متكرراً. فأعاد جواز السفر إليه ثانية، وقال بما يشبه الاعتذار:

- لطالما أردت رؤية جواز السفر الروسي والتغيرات التي طرأت عليه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. لقد تغير كثيراً، ولكنه لا يزال أحمر.

- أجل فقد أصبح ذلك تقليداً روسياً ولم تعد له علاقة بالشيوعية.

- حسناً. عودة إلى سؤالك الذي ستكون إجابتي عنه هي الأخيرة، نظراً لارتباطي بمشاغل كثيرة لهذا اليوم. ما يزعجنا بالنسبة إلى المسلمين هو أنهم لم يكتفوا باحتلال بلادنا، ومصادرة حقوقنا وهويتنا، بل أرادوا انتزاعنا من دين المحبة، ليفرضوا علينا هرطقتهم الهمجية الصحراوية أيضاً. أما عن المبشرين، فعوضاً عن أن يساعدونا في تحويل الوثنيين، لجأ أولئك الذئاب إلى الطريق الأسهل، خاطفين بعض الأقباط الأرثوذكس أنفسهم إلى طوائفهم الفاسدة!!!

قال القس متأففاً، فيما كان يستعد للقيام. فقام أبراهام بدوره، وقال مودعاً:

- أشكرك على سعة صدرك يا سيدي.

◀ فرسان مالطا وبلاك ووتر

- يا رفيق. أنا هنا.
- صدر صوت عال باللغة الروسية من قلب البار، فتوجه أبراهام نحوه، ملوّحاً لساشا، الذي بادره قائلاً:
- مرحباً أبراهام. بالمناسبة، الشعر القصير يليق بك أكثر بكثير من الشعر الطويل.
- شكراً، كيف حالك.
- بخير. ماذا تشرب؟
- جعة.
- ماذا؟ أنا أقصد ماذا تشرب مع الفودكا، يبدو أنك قد نسيت وطنك. ما رأيك بعصير برتقال طازج مع الفودكا؟
- كما تريد.
- فطلب ساشا زجاجة فودكا روسية فاخرة، وإبريقاً من عصير البرتقال، ثم استدار إليه ثانية وهو يسأله:
- ماذا تفعل هنا في مصر؟
- أوّلف كتاباً عن الأديان، وأنا حالياً أكتب عن الكنيسة القبطية.
- يا للملل. كيف تحتمل هذه التفاهات.
- هذه طبيعة عملي، وأنت ماذا تعمل؟
- التفت ساشا حوله بحذر ثم قال له بصوت منخفض:



- أنا أعمل لدى شركة "بلاك ووتر"^(١).
- ثم عاد للتلفث ثانية. ومع أن أبراهام أحس من الطريقة الغريبة التي تفوه بها ساشا باسم الشركة، أنها لابد تعني شيئاً خطيراً، إلا أنه أجاب بعدم اكتراث:
- وما نوع التجارة التي تمارسها تلك الشركة؟
- ماذا!!! لا تقل لي بأنك لم تسمع ببلاك ووتر من قبل!!!
- هذا هو الواقع.
- يبدو أنك لا تعيش بعيداً عن روسيا فقط، ولكن بعيداً عن العالم كله!
- عفواً؟
- حسناً، إنها أشهر شركة عسكرية أمنية خاصة.
- وجم أبراهام هنيهة، فهذا يعني أن رفيقه الجديد ليس سوى "مرتزق"^(٢)، وأزعجته فكرة أن يد مضيفه قد تكون مغموسة في الدماء، فاستفسر منه قائلاً:
- وما هي وظيفتك هنا في مصر؟
- مجرد مهمة روتينية لسفارتنا.
- حسناً، وما هي وظيفتك في الشركة بشكل عام؟
- فأفلتت من فمه ضحكة ساخرة وأجاب قائلاً:

(١) تعني حرفياً الماء الأسود.

(٢) وهو ذلك الشخص الذي يدخل طرفاً في نزاع مقابل أجر دون أن يكون له قضية يقاتل من أجلها، وغالباً ما يكون المرتزقة من العسكريين المتقاعدين، خاصة الذين سبق أن عملوا رسمياً كأفراد حماية لمسؤولين في دولهم، أو حماية الأثرياء والمشاهير وغيرهم. ومقابل الربح المادي يمكن استخدام المرتزقة من قبل أنظمة أو دول أو جيوش أو شخصيات لتنفيذ سياساتها وتحقيق غاياتها بوسائل يحدونها، وهي في عمودها وسائل لأخلاقية وغير مقيدة بأية قوانين قد تلزم الجيوش النظامية.

- في المصادر الرسمية، والأخبار يسموننا ب"المتعاقدين المدنيين".
- وأي طرف من أطراف النزاع يحظى بخدماتكم في العراق، "فرق الموت" الشيعية أم "القاعدة" السنية؟
- لا هؤلاء ولا هؤلاء، فنحن نعمل لمصلحة الجيش الأمريكي.
- عفواً. هل قلت لمصلحة الجيش الأمريكي؟
- تماماً.
- ولماذا يستعين بكم أقوى جيش في العالم؟!!
- لأن الجيش بشكل عام يكون ملتزماً بقوانين معينة، ويلاحقه الإعلام وأهالي قتلاه، أما الشركات فتتمتع بقدر أكبر من الحرية وتعرض أفرادها لجميع المخاطر دون أن يسأل عنهم أحد. وذلك مقابل أرباح هائلة بالطبع^(١).
- وما طبيعة الخدمات التي يمكن أن تؤديها شركة أمنية لجيش نظامي؟
- يبدو أنك فعلاً لا تعرف شيئاً عن ذلك. مثل هذه الشركات كانت موجودة دائماً، وكانت مهامها تقتصر على حراسة رؤساء الدول القادمين عبر الانقلابات في دول العالم الثالث، أو حماية الحكومات نفسها، وحماية آبار النفط ومناجم الألماس في إفريقيا، حتى القيام بقلب أنظمة حكم ما، كما حدث في جزر القمر بقيادة الفرنسي "بوب دينار"، وكذلك في دول أخرى مثل غينيا وجزر سيشل وغيرها من الدول.
- لقد سمعت عن مثل هذه الشركات، ولكنني لم أكن أعرف أن جيوشاً نظامية تستعين بها!!

(١) تصل عوائد الشركات الأمنية في العراق وأفغانستان وحدهما إلى نحو ١٠٠ مليار دولار سنوياً.

- لقد تطور نشاط الشركات الأمنية غداة نهاية الحرب الباردة على نحو واسع ليشمل تقديم المشورات العسكرية لقوات الجيش والشرطة وتدريبهم. إضافة إلى بعض الوظائف التي تنجزها أجهزتها الأمنية الخاصة بها، حيث تقوم بتقديم الدعم اللوجستي للانتشار العسكري وصيانة نظم الأسلحة وحماية المباني والمنشآت، وبالطبع حماية الأشخاص.

- وماذا عن مهامكم في العراق تحديداً؟

- لقد تطورت مهامنا في العراق بشكل لا سابق له في تاريخنا مع الجيش الأمريكي أو حتى البريطاني؛ إذ وكلت إلينا مهام تدريب فرق الموت، وحراسة قياداتهم التي هي قيادات حزبية عراقية^(١)، حتى إن أحدهم يشرف شخصياً على ثلاث منها^(٢)، وحماية مشاريع ما يسمى بـ "إعادة عمار العراق"، وحماية أعضاء الإدارة الأمريكية هناك، ابتداءً من "بول بريمر" إلى "توغروبنتي" وانتهاءً بـ "زلمي خليل زادة"، حتى الرئيس "بوش" عندما يزور العراق. كما تشمل مهامنا حماية كبار المسؤولين البريطانيين والعراقيين، بالإضافة إلى حماية العديد من المؤسسات الحكومية العراقية الحساسة، ومقرات قوات الاحتلال فيما يعرف بـ "المنطقة الخضراء". كما أننا نحمي قوافل الإمدادات التي تمر في مناطق تحت سيطرة المقاومة العراقية. وقد استعانوا بنا، كما استعانوا بالموساد، لجمع المعلومات العسكرية وتحليلها، واحتجاز السجناء واستجوابهم.

- وهل ينافسكم الموساد هناك.

- ليست منافسة، بل توزيع مهام وتنسيق، فكثير من قادتنا إسرائيليون أو يهود

(١) أول هذه الفرق أنشأها زعيم "حزب المؤتمر الوطني العراقي" "أحمد الجليبي" تحت اسم "أحرار العراق".
 (٢) يقصد "إياد علاوي". الأولى تم إنشاؤها في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤ وهي فرقة "المنى" ومقرها في أحد مطارات بغداد السابقة، والثانية "حماة بغداد" تم إنشاؤها في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥ بقيادة حسين الصدر، والثالثة "حماة الكاظمة" مهمتها حماية الروضة الكاظمة.

بشكل عام. ولا تتس خبرتهم العريقة في "مكافحة الإرهاب" وانتزاع المعلومات من المعتقلين الفلسطينيين^(١).

- هل كنتم أنتم من حقق مع معتقلي "سجن أبو غريب" الشهير؟

- ليست بلاك ووتر، بل شركتنا "تيتان" و"كاسي"، ولقد قاموا بجهد رائع وحصلوا

على معلومات أمنية قيمة.

- ولكنني لم أسمع عنهم في أثناء التحقيقات!

- نحن فوق القانون، والمحاكمات تقتصر على محاسبة بعض النظاميين فقط.

مع أننا قتلنا العديد من العراقيين سواء تحت التعذيب، أو بسبب إطلاق النار عشوائياً

خلال جولاتنا المحفوفة بالخطر. وإذا ورد أي احتمال للادعاء على أي شخص منا،

يسرب إلينا الخبر حتى نتمكن من تهريبه إلى خارج البلاد فوراً^(٢).

- وما سبب هذه الحصانة؟

(١) يتعدى الدور اليهودي ذلك بكثير؛ فالمعلومات المغلوطة بخصوص أسلحة الدمار الشامل التي كانت السبب الرئيسي المعلن في احتلال العراق هي من تدبيرهم هم. وتلك الأكاذيب قد خرجت من خلية أنشأها اليهود في وسط الإدارة الأمريكية، أسموها "مكتب المخططات الخاصة". وهذا المكتب كان يديره "إبرام شالسكي" بعدد لا يتعدى العشرين شخصاً من اليهود الصهانية، الذين يجمعون كل المعلومات ثم يحللونها، ويضيفون عليها ما يريدون من معلومات أو يشوهونها، ثم توضع على مكاتب صناع القرار في البيت الأبيض والبتاغون ووزارة الخارجية وإدارة الأمن القومي. وقد نشرت صحيفة The Nation الأمريكية مقالاً للكاتب "روبرت درايفوس"، ذكر فيه أن رئيس الوزراء الصهيوني شارون قد أنشأ مكتباً موازياً لمكتب المخططات الخاصة الأمريكي، وعلى اتصال مباشر به. وهذا المكتب كان يبدلج تقارير مكتوبة باللغة الإنكليزية إلى شالسكي مباشرة. وأحد تلك التقارير كان يؤكد أن الرئيس العراقي (رحمه الله) يستطيع أن ينشر أسلحة الدمار الشامل خلال خمس وأربعين دقيقة من إصدار أوامره. وبالطبع لم تجد قوات الاحتلال أياً من تلك الأسلحة المزعومة أو حتى وسائل إنتاجها. وتقرير آخر منهم كان وراء قضية شراء العراق لليورانيوم من إفريقيا التي ردها بوش ووزير دفاعه رامسفيلد ورئيس الوزراء البريطاني توني بليير، وهي التي استقال بسببها رئيس المخابرات الأمريكية.

(٢) بعد أن كثرت الشكاوى على تجاوزاتهم وهمجيتهم واستخفافهم بأرواح المواطنين العزل، التي كشف الإعلام عن بعضها، تم لاحقاً رفض تجديد عقد شركة بلاك ووتر. ولكن بقية الشركات التي لم تحظ بشهرتها، لا تزال تمارس أعمالها بالمعتاد.

- لأن الحاكم المدني السابق للعراق "بول بريمر" أصدر قراراً^(١) يمنح الشركات الأمنية حرية العمل في العراق، كما يمنحها حصانة قضائية ضد ملاحقة القانون العراقي لها. ولا يزال هذا القانون سارياً إلى الآن، وهذا لمصلحة الطرفين.

- لماذا؟

- لصعوبة تجنيد ما يسد حاجة القوات النظامية من الجنود بسبب تصاعد عمليات فصائل المقاومة العراقية، وازدياد أعداد الهاربين من جنود الاحتلال الذين يرفضون العودة إلى العراق ثانية. يضاف إلى ذلك حاجة قوات الاحتلال إلى القيام بتنفيذ عمليات مخالفة للقانون الدولي لتجنيد قواتها المساءلة أمام القانون الدولي بصفتها قوات احتلال. ثم لا تتس أن قتلى الشركات في العراق، لا يحسبون ضمن قتلى جيش الولايات المتحدة النظامي، كما أن جرائمهم لا يتم توثيقها، وبذلك لا يتم معاقبتهم عليها، وهو ما يغطي على التكلفة الحقيقية للحرب.

- حتى الحروب دخلت في مجال التخصص؟

- تماماً. فعصرنا هذا هو "عصر تخصص الحروب".

- هل تشاركون في القتال مباشرة؟

- في بعض الحالات، وبالذات فيما يعرف بـ "المثلث السني"^(٢)، فهناك يكون الاعتماد

علينا في أعلى مستوياته، نظراً لخطورة المنطقة. وأغلب قتالنا قضاوا هناك^(٣).

(١) بتاريخ ٢٧/٦/٢٠٠٤ م.

(٢) بعقوبة، الرمادي، الفلوجة.

(٣) أشهر عمليات المقاومة العراقية كانت في ٣١ آذار/ مارس ٢٠٠٤ م، بعد أن اصطادت في مدينة الفلوجة أربعة "علوج" أمريكيين يعملون لدى الشركة، وقام المواطنون بحرق جثثهم وتعليقها على الجسر في رد فعل على الجرائم الوحشية التي ارتكبوها بحقهم. وفي نيسان/ أبريل ٢٠٠٥ نجحت المقاومة بإسقاط طائرة نقل تعود ملكيتها للشركة، كانت تُقل ١١ شخصاً قتلوا جميعاً، ٦ منهم كانوا من حملة الجنسية الأمريكية، ثلاثة بلغاريين واثان من فيجي. وفي ٢٣ كانون الثاني/ يناير من ٢٠٠٦، أسقطت المقاومة طائرة أخرى تعود ملكيتها إلى شركة "بلاك ووتر" في شارع حيفا نفق فيها خمسة علوج.

- كم عددكم؟
- هذا سر. ولكن "خوسيه برادو"، رئيس مجموعة العمل التابعة للأمم المتحدة لشؤون المرتزقة، كشف في تقريره بأن المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في العراق، بشكل عام، يشكلون اليوم القوة العسكرية الثانية بعد الجنود الأمريكيين وأن عددهم أكبر من عناصر القوات البريطانية نفسها. وأن هناك ١٦٠ شركة على الأقل تعمل في العراق، وهي تستخدم على الأرجح خمسة وثلاثين ألف مرتزق إلى أربعين ألفاً.
- وهل تقديراته صحيحة.
- ابتسم ساشا بخبث قائلاً:
- ليست لدي معلومات دقيقة. ولكن بحكم عملي هناك، أستطيع القول أن تقديراته متواضعة جداً.
- وما هي جنسياتكم؟
- بالأساس أمريكيون وإسرائيليون وجنوب إفريقيين. والبعض من النيبال وتشيلي وكولومبيا والسلفادور وهندوراس وأيرلندا وإسبانيا وبولندا والبرازيل.
- وماذا عن الروس؟!
- لقد انضمنا مؤخراً إلى تلك القائمة؛ فنحن واللبنانيون نعتبر أحدث الداخلين إلى هذا المجال.
- ولن الأولوية؟
- لنا طبعاً، وبالذات الذين اكتسبوا خبرة قتالية في أفغانستان والشيشان، كما أن روايتنا أعلى بكثير من روايتهم^(١).

(١) تتراوح الأجر ما بين ٥٠٠ دولار إلى ٣٠٠٠ للمرتزق الواحد يومياً، في حين تتراوح أجور اللبنانيين ما بين ١٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ ألف شهرياً، وهي بذلك تقترب من أجور الجنود النظاميين التي تبلغ ٣٠٠٠ دولار شهرياً.

ثم التفت وراءه بخوف، وتابع قائلاً:

- بالمناسبة، أنا أرافق في مهمتي أحد القياديين الأمريكيين. وهو، وإن كان من أصل لبناني، قديم العهد معهم، ووصل إلى مكان مرموق في الشركة. وقد انضم إلينا بأي لحظة. لذا أرجو ألا تذكر شيئاً عن حديثنا هذا أمامه، خصوصاً باللغة الروسية، فهو يجيدها، لأنه درس هناك.

- كما تريد، ولكن لماذا؟

- لأنهم يطبقون علينا قواعد أمنية صارمة، مع أنه لا لزوم لها بعد أن فضح الإعلام كل شيء تقريباً. وأنا لا أريد لذلك اللبناني القذر أن يترفع أكثر على حساب خلق مشاكل لي، لاسيما أنه يوافقهم أيديولوجياً في معتقداتهم الفاسدة فيما يتعلق بـ"الحرب الصليبية"، وله علاقات مريبة مع "السي آي آيه"^(١)، والموساد.

- حسناً. ولكن، إذا كنتم لا تتبعون دولة بعينها، وإذا كان الروس خديثي العهد بهذه النشاطات، فما هي مهمتك في السفارة الروسية؟

- ما شأن السفارة الروسية في ذلك؟

- أنت قلت أنك في مهمة لسفارتنا في مصر.

- آه. اعذرني لم أقصد سفارتنا نحن روس؛ بل كنت أقصد سفارة "فرسان مالطا"^(٢).

- وما شأن جمهورية مالطا في ذلك؟

- لا علاقة لها بجزيرة مالطا الموجودة في البحر الأبيض المتوسط، بل بمقر مالطا

(١) جهاز الاستخبارات الأمريكية .

(٢) تقع في شارع هدى شعراوي وسط القاهرة .

الذي يقع حالياً في العاصمة الإيطالية روما^(١). وهي دولة ذات سيادة بموجب أحكام القانون الدولي. تأسست قبل ٩٢٧ عاماً، ولها دستورها وكيانها المستقل، ولها أيضاً ثلاثة أعلام رسمية، لكل علم استخداماته ودلالاته، ولها حكومتها الخاصة التي تتمتع بصفة "مراقب دائم" في المنظمات الدولية، مثل منظمة الأمم المتحدة. ولهذه الحكومة ٤٧ جمعية وطنية، موزعة على خمس قارات، وتقوم بإصدار جوازات السفر، وطباعة الطوابع المعترف بها دولياً. ولها عدة سفارات حول العالم. وعملتها هي الـ"سوكو".

- لم أسمع بهم سابقاً!

- وتقول أنك كاتب في مجال الأديان!!!

- وما دخل فرسان مالطا بالأديان؟!!!

- ربما يجب أن تراجع قراراتك بشأن التأليف عن موضوع معقد لهذه الدرجة، ما

دمت غير ملم بدقائقه.

- ماذا تعني؟

- أعني أنك لا تعرف أشهر الجماعات الدينية كما يجب.

- وهل تعرفها أنت؟!

- لا طبعاً، أنا أعرف التنظيم العسكري لفرسان مالطا فحسب، وما كنت حتى

لأعرفهم لولا طبيعة عملي، ولكنني لا أولف، مثلك، كتاباً عن الأديان!!!

- وما دخل طبيعة عملك بجماعة دينية كائنة ما كانت؟!

- إن شركة بلاك ووتر تابعة لها.

(١) اسمها الرسمي هو: حكومة "النظام العسكري ذو السيادة المستقلة لمالطا". ويكتب باللغة الإنجليزية: SOVEREIGN MILITARY ORDER of MALTA، وتختصر إلى (سموم SMOM). وهي فعلاً سموم، بل إنها مشبعة بالسم. ويطلق عليها أحياناً: "مسلك مالطا العسكري السيادي"، أو "المستشارية السامية العسكرية لفرسان مالطا".

- لقد أثرت فضولي فعلاً. من هم فرسان مالطا؟

- بدأ ظهور فرسان مالطا في القرن الحادي عشر^(١) كهيئة خيرية، أسسها بعض التجار الإيطاليين لرعاية مرضى الحجاج المسيحيين، في مستشفى قديس أورشليم يوحنا قرب كنيسة القيامة. وكانوا يمارسون عملهم في ظل حكام المدينة المسلمين، وقد أطلق عليهم اسم "فرسان المستشفى"^(٢) تمييزاً لهم عن هيئات الفرسان التي كانت موجودة في أورشليم آنذاك. مثل "فرسان الهيكل" و"الفرسان التيوتون"، وصاروا من أهم أعوان الصليبيين فيما بعد. ولم يلبث أولئك الهوسبيتاليون (الإسبتارية) أن دخلوا تحت لواء النظام "الديري البندكتي" المعروف في غرب أوربا، وصاروا يتبعون بابا رومه مباشرة بعد أن اعترف البابا "باسكال الثاني" بتنظيمهم رسمياً^(٣). وعندما قامت الحروب الصليبية الأولى^(٤)، وتم الاستيلاء على أورشليم، أنشأ رئيس المستشفى "جيرارد دي مارتينز" تنظيماً منفصلاً سماه "رهبان مستشفى قديس أورشليم يوحنا". وهؤلاء -بحكم درايتهم بأحوال البلاد- قدموا مساعدات قيمة للصليبيين، وخاصة بعد أن تحولوا إلى نظام فرسان عسكريين بفضل "ريموند دو بوي" خليفة "مارتينز" الذي أعاد تشكيل التنظيم على أساس عسكري مسلح ببركة البابا "أنوست الثاني"^(٥)، حتى قيل: إن الفضل في بقاء مدينة أورشليم في يد الصليبيين واستمرار الحيوية في الجيوش الصليبية يعود بالأساس إلى فرسان الهوسبيتاليين وفرسان الهيكل. وبعد سقوط أورشليم في يد المسلمين اتجه الهوسبيتاليون في البداية إلى مدينة "صور" ثم

(١) سنة ١٠٧٠ م.

(٢) الهوسبتاليون Hospitallers التي عربت إلى "الإسبتارية".

(٣) في ١٥ شباط/فبراير ١١١٣ م.

(٤) عام ١٠٩٧ م.

(٥) سنة ١١٣٠ م.

إلى "المرج"^(١) ومنها إلى "عكا" ثم "ليماسول" في قبرص^(٢). ومن قبرص استمروا في مناوشة المسلمين عن طريق القرصنة البحرية ضد سفنهم، إلا أن المقام لم يطب لهم هناك فعمد رئيسهم "وليم دي فاليت" إلى التخطيط لاحتلال "رودس" وأخذها من المسلمين، وهو ما قام به أخوه وخليفته "توك دي فاليت" في حرب صليبية خاصة^(٣) ليصبح اسم نظام الفرسان الجديد هو "النظام السيادي لرودس"، أو "النظام السامي لفرسان رودس". وفي رودس أنشأ تنظيم الهوسبتاليين مراكزه الرئيسية، وازدادت قوته ونفوذه، خاصة بعد أن تم حل تنظيم فرسان الهيكل، وألت بعض ثرواته إليهم. ولأن أرض رودس كانت نقطة استراتيجية مهمة، فقد عمد الأتراك المسلمون بدورهم إلى الاستيلاء عليها، خصوصاً مع تزايد قرصنة الصليبيين لسفنهم، وذلك بعد حصار وضغط متواصلين^(٤)، مما أجبر رئيسهم "فيليب ري ليل آدام" على الاستسلام^(٥) ثم الهجرة عن الجزيرة^(٦) متقللاً مع فرسانه بين عدة مدن، إلى أن منحهم الملك "شارك كنت" السيادة على جزيرة مالطة^(٧). وإلى جانب سيادتهم على مالطة بوثيقة شارك كنت، كانت لهم السيادة كذلك على عدة جزر مثل "دي جوزوا"، و"كومين" بجانب مدينة "طرابلس" التي كانت تتبع عرش صقلية. وقد صادق البابا "كليمنت السادس" على ذلك^(٨)، ومن ثم أصبح النظام يمتلك مقراً وأقاليم جديدة أدت إلى تغيير اسمه إلى

(١) في ليبيا حالياً.

(٢) سنة ١٢٩١ م.

(٣) ١٣٠٨ - ١٣١٠ م.

(٤) أهم حصارين كانا في ١٣١٠، ١٤٨٠ م.

(٥) في ١٥٢٢ م.

(٦) في أول كانون الثاني/يناير ١٥٢٣ م.

(٧) في ٢٤ آذار/مارس ١٥٣٠ م.

(٨) في ٢٥ نيسان/أبريل ١٥٣٠ م.

"النظام السيادي لفرسان مالطة"^(١). ومنذ ذلك الوقت أصبحت مالطة وطنهم الثالث، ومنها استمدوا اسمهم الحالي: فرسان مالطة، واستطاع رئيسهم "جان دي لافاليت" أن يقوي دفاعاتهم ضد الأتراك العثمانيين مصدر خوفهم، وأن يبني مدينة "فالتا"^(٢) التي أطلق عليها اسمه. وكان مما ساعد على ترسيخ وجودهم في مالطة وقوع معركة "ليبانتوا" البحرية^(٣) بين الروم والأتراك؛ مما أبعد خطر الأتراك، ووفر لنظام الفرسان جواً من الهدوء. وقد تميز هذا النظام منذ إقامته في مالطة بعدائه المستمر للمسلمين، وقرصنته لسفنههم حتى كوّن منها ثروة هائلة، ولاسيما في الحصار التاريخي ١٥٦٥ الذي انتهى بمذبحة كبيرة للأتراك. كما توسع النظام كثيراً، حتى إن الملك "لويس الرابع عشر" تنازل له^(٤) عن مجموعة من الجزر. وظل النظام في مالطة تحت حماية "الإمبراطور الروماني" و"الكرسي الرسولي" وفرنسا وإسبانيا. وانتشر سفراؤه في بعض الدول، وهو ما كان يعني اعترافاً بالسيادة الشخصية لـ"السيد الكبير" للنظام أو رئيس فرسان.

- وكيف تركوا مالطا إذن؟

- بقيام "الثورة الفرنسية"^(٥) وغزوها إيطاليا، فقد الفرسان الصليبيون ممتلكاتهم وامتيازاتهم في فرنسا وإيطاليا، وانتهى بهم الأمر بفقد مقرهم في جزيرة مالطة نفسها، وطردهم منها على يد "نابليون بونابرت" في أثناء حملته على مصر^(٦)، فأقاموا بصفة مؤقتة في "ترسيستا" في إيطاليا تحت ضغط من بلاط فينينا. وعندما استولى

(١) في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٣٠ م.

(٢) عاصمة جمهورية مالطة حالياً.

(٣) سنة ١٥٧١ م.

(٤) في ١٦٥٢ م.

(٥) سنة ١٧٨٩ م.

(٦) عام ١٧٩٨ م.

الأميرال "تلسون" على مالطا من الفرنسيين أقرت "اتفاقية الأمانيس" عودة الجزيرة للفرسان^(١)، إلا أن كونفرس فاليتا عاصمة مالطا أسند إدارة الجزيرة إلى الإمبراطورية البريطانية، وبذلك انقطع اتصال الفرسان نهائياً بمالطة. وجمهورية مالطا الحالية ليست هي دولة فرسان مالطا الاعتبارية.

- وإلى أين اتجهوا بعد ذلك، وماذا فعلوا؟

- انقسموا في البلاد؛ حيث اتجه العديد منهم إلينا في روسيا وتحديداً في العاصمة "سانكت بطرسبرغ"، فأصبح نظامهم الكاثوليكي الروماني الذي يحظى برعاية البابا، يخضع لقانون الإمبراطورية الروسية الأرثوذكسية، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً. واتجه جزء آخر إلى رومه حيث أرسى دعائمه. وبحلول ١٨٣٤ أصبح نظام الفرسان يمارس شؤونه من رومه بصفة رسمية باسم العمل الخيري، وفي نطاق المستشفيات. وصار نشاطهم المعلن هو عملهم الأول نفسه وقت إنشائهم، حتى أصبح نظامهم أشبه بهيئة خيرية وأخذت في التوسع حتى فتحت جمعية لها في الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٢٦م.

- وكيف عادوا إلى نشاطاتهم العسكرية السابقة؟

- بدأ ذلك في فرنسا، فقد استمرت محاولات إحياء النظام، وإن لم يكن إنشاء التنظيم له اتصال عضوي بالتنظيم القديم في البداية، والذي استقر نهائياً في الفاتيكان، كما انتقل بعض أفراد هذا النظام إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أصبح رمز نظام القديس يوحنا هو صليب أبيض مزدوج الأطراف معلق بحبل أسود، ولذلك أصبح فرسان الهوسبتالية يعرفون بفرسان الصليب الأبيض المزدوج الأطراف.

- وماذا كانت طبيعة نشاطهم في أمريكا؟

(١) سنة ١٨٠٢م.

- لقد صادف وصولهم فترة الحروب الأهلية هناك، وشهدت هذه الفترة ظهور منظمة "الكو كلوكس كلان" العنصرية^(١)، التي كانت تطالب في ذلك الحين بالدفاع عن الدين الكاثوليكي وعن سيادة الرجل الأبيض ومنع مساواة المواطنين السود مع البيض في الحقوق. وتوثقت العلاقات بين فرسان مالطة، الفارين إلى أمريكا، وبين الكو كلوكس كلان خصوصاً أن الطرفين يتفقان في المذهب الكاثوليكي، وقد جسد هذه العلاقات وعبر عنها تنظيم "فرسان الكاميليا" السري. وكانت طقوس احتفالات فرسان الكاميليا تشبه تماماً احتفالات فرسان مالطة؛ إذ يلبسون ملابس بيضاء عليها صليب أحمر، ويضعون على رؤوسهم أقنعة لا يظهر منها سوى العينين والأنف والشم، ويشعلون المشاعل النارية.

- أين يقع المقر الرئيسي للمنظمة حالياً؟

- لا يزال في العاصمة الإيطالية روما. ويحمل اسم مقر مالطا، ويلقب رئيسها بالسيد الأكبر، وهو حالياً الأمير البريطاني "أندرو بيريتي"^(٢)، ويحمل رتبة "كاردينال"، وهو يعامل كرئيس دولة بكل الصلاحيات والحصانات الدبلوماسية.

- وكم عدد أعضاء تلك المنظمة؟

- يقدر عددهم بنحو ١٠ آلاف فارس، في حين يصل عدد المتطوعين منهم إلى نصف مليون، ولهم محاكم خاصة معترف بها. ونشاطهم المعلن هو إنشاء المستشفيات وتوزيع المساعدات الإنسانية على المناطق المنكوبة.

- ونشاطهم الحقيقي؟

(١) المشهورون بأقنعتهم البيضاء الهرمية الطويلة، التي تغطي كامل الرأس مع وجود فتحتين للرؤية وأخرى للتنفس. وكانت هذه الأقنعة شائعة لدى الأخويات الكاثوليكية في جنوب أوروبا.

(٢) تقلد رئاسة المنظمة عام ١٩٨٨، على أنه الرئيس الثامن والسبعون للمنظمة منذ تأسيسها.

- أنا لن أقول لك شيئاً كي لا أبوح بأسرار عملي. ولكن نظراً لأنك تؤلف كتاباً عن الأديان، ولأنك من وطني، ولأنك ساعدتني اليوم دون أن تعرفني؛ فسأقول لك بعض ما كشف أصلاً على يد وسائل الإعلام المختلفة.

- أفدر لك هذا.

- هناك خطاب سياسي واسع في الغرب يتحدث عن أجواء حرب صليبية. وفي تقرير له نشرته مؤخراً مجلة "ذي نيشين" The Nation الأمريكية بعنوان "جيش بوش في الظل"، يكشف الإعلامي "سكيل" عن الصلة الدينية التي تجمع بين بلاك ووتر الكاثوليكية، وإدارة بوش قائلاً: "من الصعب تخيل أن المحسوبة التي اصطبغت بها إدارة الرئيس الأمريكي بوش لم يكن لها دور في نجاح بلاك ووتر. فمؤسس الشركة "إيريك برينس" هو كاثوليكي، يتشارك مع بوش في معتقداته المسيحية الأصولية".

- وما علاقة الكاثوليكية بالبروتستانتية؟!!!

- وما أدراني! إنها الأصولية، وأنا لا علاقة لي بها، فأنا مثلك تماماً أتبع للكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

سر أبراهام لأن ساشا ظنه مسيحياً، وقرر فعلاً التعريف بنفسه مستقبلاً بأنه مسيحي روسي من أتباع بطركية موسكو وعموم روسيا. فسأله بمزيد من الثقة:

- حسناً، وماذا كشفت وسائل الإعلام أيضاً؟

- أن فرسان مالطا يدعمون المتمردين على الحكومات الإسلامية في كل مكان، مثل جماعة "جون قرنق" في جنوب السودان، والتي وإن أصبحت حالياً شريكاً في حكم السودان نتيجة الضغوط، إلا أنها لا تزال تسعى إلى الحكم المطلق للسودان، أو على الأقل للجنوب الذي يبدو أنه سينفصل قريباً. وفرسان مالطة هم أيضاً الذين فصلوا تيمور عن إندونيسيا. وها هم أولاء يقاتلون حالياً في العراق وأفغانستان من خلال شركات تابعة لهم. ويسعون مؤخراً لتأمين موطئ قدم لهم في دارفور.

- وكيف سمح لهم بإنشاء سفارة في مصر إذا كانوا كذلك فعلاً؟
 - لقد طلب "شيمون بيريز"، نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك^(١)، من مصر الاعتراف بدولة فرسان مالطة. وهذا ما حصل فعلاً في عام ١٩٨٠. كما أن نشاطهم الخيري، ومزاولة عملهم من دول عظمى مثل أمريكا، بالإضافة إلى الامتيازات التي يمنحهم إياها الفاتيكان، قد أعطى ذلك لهم جواز المرور للدول النامية.

- هل لهم سفارات في دول عربية أخرى؟

- سفارتنا هنا هي أقدمها، أما أحدثها فقد افتتح في وسط العاصمة الأردنية عمان^(٢)، والسفير هناك من أصل لبناني^(٣) تماماً كالمسؤول الذي أرافقه حالياً. وما بين تاريخ افتتاح أحدث سفارة في الوطن العربي وأقدمها، انتشرت سفارات دولة فرسان مالطا من لبنان إلى المغرب. مروراً بالسودان والصومال وإريتريا وموريتانيا وجزر القمر، وست عشرة دولة إسلامية بشكل عام.

- وماذا عن توجههم الديني؟ أعني هل هو معلن؟

- بالطبع، فقد قال بيرتي: "نحن لا نخفي شيئاً، فنحن منظمة دينية قديمة، ولنا تقاليدنا وشعائرننا، لذلك فالجانب البروتوكولي والدبلوماسي في غاية الأهمية لنا. ونحن نبذل جهدنا لتقديم العون للمحتاجين، والقسم الأكبر منا رجال دين وقساوسة".
 - هل لوجودك في مصر بهذا الوقت بالذات أي علاقة بالعملية التي بدأت اليوم

على غزة؟

صمت ساشا مفكراً، كأنه تنبه لتوه إلى تلك المصادفة. إلا أنه هز رأسه بلامبالاة

قائلاً:

(١) الرئيس الحالي للكيان الصهيوني .

(٢) شارع المدينة المنورة .

(٣) وليد الحازن .

- إن مهمتي حالياً، كما أوضحت لك، هي مجرد مرافقة أحد القياديين إلى سفارتنا في القاهرة. ومع أنه لا يعني ما سيدور داخل الكواليس هناك، إلا أنني لا أعتقد أن ثمة ترابطاً بين زيارته وبين ما يجري الآن في غزة. فالعملية الإسرائيلية في غزة، كما فهمت من الأخبار اليوم، ستكون جوية بالأساس، واحتمال تورط القوات البرية فيها هو احتمال مستبعد. كما أنها ستكون قصيرة الأمد، وعلى بقعة صغيرة جداً من الأرض^(١)، مما ينفي حاجتهم إلينا فيها، خاصة أننا نحن من نلجأ إلى الجيش الإسرائيلي عادة، وليس العكس.

- لماذا؟

- لأنه الجيش الأكثر خبرة في العالم في مقاتلة المدنيين، وحروب الشوارع، والتصدي للإرهاب الإسلامي. حتى إن أغلب مدرّبينا وكثيراً من قادتنا هم من داخل مؤسسته العسكرية^(٢).

- أي إنك تعترف أن مهامكم بالأصل هي حروب دينية تعصبية ضد المدنيين العزل، وضد المقاومين لاحتلال أرضهم!
تتهد ساشا بحسرة قائلاً:

- أجل للأسف. ولكنني لا أشارك بهذه الجرائم بدافع عقائدي، بل بدافع مادي فقط. إنه مجرد عمل.

(١) هذا ما حدث فعلاً، وقد كان توغل القوات البرية على أطراف غزة مسرحياً ليسجل من قبل عدسات التصوير، في حين كان النشاط الأساسي للقصف الجوي والتدمير، متهربين من الاشتباك الحقيقي قدر المستطاع.

(٢) كشف تقرير حقوقي لمركز ميزان لحقوق الإنسان بأراضي ٤٨ عن انتهاكات تمارسها سلطات الاحتلال ضد الأسرى الفلسطينيين، وأكد أن الأسرى يضطرون إلى الصلاة داخل زنازينهم بجانب المراحيض، لعدم توفير أماكن مناسبة للصلاة، كما أن السجناء اليهود يسبون الرموز الدينية ويعتدون على حرمة القرآن الكريم ويمزقونه ويدوسونه، ويهينون الأسرى بتعريتهم كاملة ويعتدون عليهم بالضرب، بالإضافة إلى الطعام الفاسد والإهمال الطبي. هذه هي "الخبرة" التي قدمها الصهاينة في التعامل مع الأسرى المسلمين.

- كيف تستطيع النوم، ألا تفكر بضحاياك مطلقاً!!!
- إنهم يدفعون لي جيداً حتى لا أفكر بذلك كثيراً.
- لم أكن أعرف أن العالم بهذه القذارة.
- أفهم شعورك جيداً يا رفيق، فقد مررت بهذه المرحلة سابقاً، واستغرقت الكثير من الوقت قبل أن أستطيع التأقلم مع الواقع. إن عالمنا هو عالم قدر فعلاً، ولكن لا بد أن نكون أكثر قذارة حتى نتمكن من العيش فيه.
- مرحباً أيها الرفقاء، لماذا تسبون العالم؟ إنه أفضل عالم من بين كل عوالم الفضاء. كما أننا نعمل جيداً على تطهيره من كل القاذورات التي تتكلمان عليها.
- جاء صوت من ورائهم بلغة روسية ركيكة، وكان صاحبها هو "ميشيل"، ذلك القيادي الذي يرافقه ساشا في مهمته. فوقف ساشا من فوره مرحباً به، وعرفه بأبراهام، ثم دعاه إلى الجلوس. فجلس ميشيل مواصلاً حديثه عن تطهير العالم، وعن توقعاته بعودة الجرذان إلى ججورها بعد تحرك الجيش الإسرائيلي أخيراً لحماية المدنيين المساكين من الصواريخ الإرهابية. وكان منتشياً بالفرحة، ويقهقه بصوت عال، دون أن يعبأ بمن حوله، فأوماً ساشا لأبراهام بحركة مفادها أنه قد دخن ولا ريب بعض سجائر "الماريجوانا"، إلا أن ملامح وجه ميشيل ما لبثت أن اكتست بالجدية، وبدا عليه الاهتمام، عندما قال له ساشا أن أبراهام يؤلف كتاباً عن الأديان. فسأله بفضول:
- وهل كتبت شيئاً عن "الموارنة"؟
- لقد كتبت عن الكاثوليك، وعن كثير من الكنائس التي تتبعها، إلا أنني للأسف لم أحصل على الكثير من المراجع عن الكنيسة المارونية.
- أمامك الآن أكبر مرجع عن المارونية؛ فقد درست في الكلية اليسوعية، وأنا مستعد لتزويدك بكل المعلومات التي قد تحتاجها في ذلك.

- ميشيل. لا يبدو عليك أنك بحالة توهلك للكلام على الدين اليوم. فلنمرح هذه الليلة وغداً أشرح دينك لأبراهام وأنت صاح.
- قال ساشا وهو يجاهد كي يمنع نفسه من الضحك. فنظر إليه ميشيل موبخاً، ثم التفت إلى أبراهام يريد متابعة حديثه، فما كان من أبراهام إلا أن بادره قائلاً:
- أنا فعلاً متشوق لمعرفة كل شيء عن المارونية. ما رأيك أن نتقابل غداً في "اللوبي" وسأحضر معي قلمي وأوراقي لأسجل كل ما هو جديد علي؟
- اتفقنا. ما رأيك بأن نتقابل في العاشرة؟
- هذا مناسب لي تماماً.
- حسناً. أحضر معك كمية كبيرة من الأوراق، فلدي الكثير لأقوله.
- سأفعل.

عاد ميشيل إلى سابق مرجه، ناقلاً عدوى الضحك إلى رفيقيه بتعليقاته الساخرة على طريقة لبس بعض الجالسين حولهم، أو مظهرهم، أو بتقليده لتصرفاتهم. وبلغ الضحك أقصى مدى له عندما صار يخمن فحوى ثرثرتهم حول نصره إخوانهم في غزة، وفي الوقت نفسه عدم استعدادهم لتحمل شكة إبرة في سبيل ذلك. ويتحكم على خوفهم من دولة إسرائيل مع أنهم يفوقونها بمراحل، سواء من حيث المساحة أو عدد السكان. وقد بالغ في السخرية من جبن العرب و"بعبتهم الفارغة"، حسب تعبيره، لدرجة أن وقع ساشا، في إحدى المرات، عن كرسيه من شدة الضحك، ليتحول هو نفسه هذه المرة، إلى هدف سائغ لسخرية ميشيل اللاذعة.

لغز المارونية

جاء أبراهام مبكراً، ولكنه سرعان ما اكتشف أن ميشيل قد سبقه، فوقف يتأمله من بعيد. كان يتناول قهوته برزانة وهدوء، كأنه شخص آخر غير ذلك المستهتر الذي كان يسخر بالأمس من الآخرين، ويلقي الدعابة الماجنة تلو الأخرى بلامبالاة.

- صباح الخير ميشيل.

- صباح الخير أبراهام. بالمناسبة، أنا أقدر كثيراً من يلتزمون بالدقة في مواعيدهم. تفضل أرجوك.

- شكراً.

- ماذا تشرب؟

- قهوة سوداء^(١) بدون سكر.

أشار ميشيل إلى النادل، الذي خف إليه مسرعاً، فأعلمه بالطلب، ثم دنا برأسه من أبراهام قائلاً:

- هل تعلم أن المارونية من أقدم الطوائف المسيحية المعاصرة وأعرقها؟

- أجل، لقد قرأت أن جذورها تمتد إلى أواخر القرن الرابع للميلاد، عندما انعزل القديس "مارون" الناسك في جبال قورش^(٢) متعبداً، مما جذب إليه المؤمنين، مشكلين

(١) يقصد بدون حليب أو مبيض.

(٢) مدينة قورش أو (خورس) (Cyrhus) أصبحت اليوم أنقاضاً، وقد كانت قريبة من إعرار، تقع على بعد ٧٠ كم شمال غرب حلب على واد فسيح، وأبعاد منطقتها كانت قرابة ٦٠ × ٦٠ كم، مرتبطة بالرها وحماة. وكانت هي المدينة الكبرى في هذه المنطقة التابعة لسورية الثالثة أو الفراتية التي عاصمتها منبج (مبوك ثم هيرابوليس Hierapolis) وكانت منطقة قورش تحوي ٨٠٠ قرية تابعة لها.

طائفة عرفت باسمه فيما بعد^(١).

عندئذ رجع ميشيل بظهره إلى الورا، مسنداً إياه إلى الكنبه الجلدية الوثيرة التي يجلس عليها، وقال بخيلاء وهو يعقد ذراعيه:

- جيد أنك تعرف هذا. وماذا تعرف أيضاً؟

- أنتظر منك أنت أن تخبرني بالبقية.

- لقد توفي القديس مارون سنة ٤١٠م تقريباً بين أنطاكية وقورش، وفيما بعد وقع خلاف شديد بين أتباعه وبين كنيسة الروم مما اضطرهم إلى الرحيل إلى قلعة المضيق قرب "أفاميا"^(٢) على نهر العاصي، وشيدوا ديراً كبيراً يحمل اسمه^(٣) وهناك وقع خلاف آخر عام ٥١٧م بينهم وبين "اليعاقة" اللاخقدونيين^(٤) مما أسفر عن تهديم ديرهم فضلاً عن مقتل ٣٥٠ راهباً. وتتابع الغارات الانتقامية بين الطرفين مما أسفر عن هجرة الموارنة إلى شمالي لبنان، وهو المكان الذي أصبح موطناً ومستقراً لهم حتى الآن.

(١) أول من ارتأى بأن مصطلح "موارنة" مشتق من اسم ناسك اسمه مارون كان الكاتب الماروني "مرهج نيرون الباني" (فاوستوس نيرون، ت ١٧١١)، وهنا وجد الكتاب الموارنة الذين جاؤوا بعده في اسم القديس مارون هذا حلاً لمشكلة هويتهم المارونية. ولكن كاتب القرن الحادي عشر الماروني "توما" أسقف كفرطاب يقول في كتابه "الفصول العشرة" بوضوح أن مصطلح موارنة قد اشتق من ماران، وهي كلمة سريانية تعني "الرب" (أو السيد)، وبأنه كان اسم دير سمي الموارنة باسمه (بيت ماران (بيت الرب) أو دير ماران). ومع هذا الرأي أيضاً بعض أشهر المؤرخين الموارنة، مثل "جيراثيل القلاعي" مطران نفوسيا- قبرص (ت ١٥١٦) والبطريك "إسطفان الدويهي" (ت ١٧٠٤)، وهناك من يقول أن مارون هي صيغة تصغير من ماران أي السيد أو الرب الصغير.

(٢) تقع أفاميا فوق هضبة إلى الشمال الغربي من مدينة حماة في سورية بمسافة ٦٠ كم.

(٣) لم يكن ذلك الدير هو الوحيد الذي كان يسمى بدير مارون، فقد كان يوجد في سورية عدّة أديرة تحمل هذا الاسم، ومن غير المعقول أنها سميت جميعها تيمناً باسم ذلك الناسك. كما أن الموارنة أنفسهم لم يدعوا ذلك قبل مرهج نيرون كما أسلفنا.

(٤) الذين يعرفون اليوم بالسريان، ولكن آنذاك لم يكونوا يعرفون باليعاقبة، فلم يكن يعقوب البرادعي قد أصبح أسقفاً عليهم بعد.

- إذن فقد عانيتم من اضطهادات كثيرة منذ البداية.
- هذا طبيعي. فإيماننا يختلف عن إيمان الروم الأرثوذكس، وعن إيمان اليعاقبة اللاخلقديونيين.
- كيف ذلك؟
- لأننا كنا منذ البداية خلقديونيين^(١)، بل نتبع الكنيسة الكاثوليكية^(٢)، وليس كنيسة الروم الأرثوذكس^(٣).
- هل صحيح أن الموارنة واليعاقبة احتكموا في إحدى المرات إلى خليفة مسلم^(٤) لإنهاء الخلاف بينهم؟
- أجل، ولكن الخصومة استمرت رغم ذلك.
- أجاب ميشيل باقتضاب، وقد ظهر الضيق على وجهه لذكر ذلك الموضوع، ثم أردف مغيراً دفة الحديث:
- إذا كنت تريد أن تتعرف الفكر الماروني فلا بد أن تقرأ عن "يوحنا مارون" الذي يعتبر صاحب المارونية الحديثة.

(١) عقد مجمع خلقيدونية بعد وفاة القديس مارون بأكثر من ٤٠ سنة، كما أن الدلائل تشير إلى أن إيمان الموارنة وطقوسهم وكتبهم الدينية كانت أقرب إلى اللاخلقيدونية حتى القرن السابع على أقل تقدير.

(٢) يجدر التنبيه إلى أن كنيسة رومه لم تكن تعرف بالكاثوليكية آنذاك، ولم تكن تختلف بشيء يذكر عن بقية الكنائس الرسمية. كما أن صلاحيات كرسيها كانت ضمن الشق الغربي من الإمبراطورية الرومانية، ولم يكن لها آنذاك أي علاقة بالشرق.

(٣) آنذاك لم يكن هناك ما يعرف بكنيسة الروم الأرثوذكس، ولكننا نجد كل هذا في مصادرهم الحديثة للإيحاء بأنهم كانوا كاثوليك منذ البداية، ومن ثم تفسير عدائهم مع بقية الكنائس في المنطقة بناء على ذلك. ولكن يبدو أن الخلاف بين الموارنة وبين بقية الكنائس لم يكن له أي علاقة بالتقسيمات الخلقيدونية - اللاخلقيدونية أو حتى الأرثوذكسية - الكاثوليكية.

(٤) الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

- لقد قرأت عنه فعلاً، ولكن المعلومات التي حصلت عليها بشأنه كانت شحيحة، ومتضاربة. فهل لك أن تحدثني عنه؟
- بكل سرور يا عزيزي.

أجاب ميشيل فرحاً، ثم اعتدل بجلسته، وقال كمن يروي قصة بطل أسطوري:
- لقد ولد في "سروم" قرب أنطاكية، وتلقى دراسته في القسطنطينية، ثم عين أسقفاً على البترون على الساحل الشمالي من لبنان. حيث أظهر معتقده الماروني، لكن الكنائس الأخرى لم تقبل ذلك الرأي، أما بابا رومه "هونوريوس" الأول Honorius^(١) فقد رأى أن إيمانه هو الإيمان القويم فعلاً، فعينه بطريكاً على أنطاكية وسائر المشرق^(٢).

- متى جلس يوحنا مارون على كرسي أنطاكية؟

سأل أبراهام باستهجان. فأجاب ميشيل قائلاً:

- لقد اعتلى السدة البطريركية في أنطاكية بعد موت البطريرك الخلقيدوني "ثيوفانس" سنة ٦٨٧م.

- ولكن البابا هونوريوس الأول توفي قبل منتصف القرن السابع^(٣)!!! فكيف تفسر

عدم تطابق التواريخ^(٤)؟

- (١) لمزيد من المعلومات حول ذلك البابا راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.
(٢) هذا ما يؤكد كبر مؤرخي الموارد مثل المطران جبرائيل القلاعي. وجدير بالذكر أن لبطركية أنطاكية أهمية كبرى عند المسيحيين لأنها إحدى الكراسي الرسولية الأولى، والقول بأن يوحنا مارون كان يجلس على سدة البطريركية يعتبر من التقليد المسلم به لدى الموارنة بشكل عام.
(٣) حسب المصادر الفاتيكانية كان جلوسه على كرسي البابوية الرسولي من ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٦٢٥ إلى ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٦٣٨. والباحث في أمر ذلك البابا يصطدم بكثير من الروايات المتناقضة عنه، والتي يكتنفها الكثير من الغموض والإخفاء المتعمد لبعض التفاصيل.
(٤) بالإضافة إلى الإخفاء المتعمد للتفاصيل، كما رأينا وسنرى بعد قليل، يمكن تفسير اختلاف التواريخ بـ"السنوات الشبكية" في التقويم الميلادي، أو بطريقة حسابه ارتجاعياً بناء على التقويم الهجري كما سيمر معنا في هذه الرواية.

نظر ميشيل بشرود نحو الأفق وقد ظهرت على وجهه ملامح الحيرة، ثم قال كأنه يتحدث مع نفسه:

- وأنا نفسي مستغرب من هذا الموضوع أيضاً. ومع أنني فكرت به كثيراً، إلا أنني لا أفهم الغموض الذي يكتنفه، ولكن "المخطوطة الكرشونية"^(١) الموجودة في "كنيسة السيدة" في دمشق تؤكد بوضوح أن البابا هونوريوس هو من رسم البطريرك يوحنا مارون! والأغرب هو أن ذلك المجمع الذي أدان ذلك البابا^(٢) عقد بعد رحيل ذلك البابا بأكثر من ٤٠ سنة^(٣)!!!

- تقصد أن يكون المؤرخون قد أخطؤوا بتاريخ عقد المجمع أو بتاريخ وفاة البابا؟
- لا أظن ذلك مع أنه محتمل فعلاً، ولكن الأرجح هو ما افترضه مؤرخنا الدويهي بأن ناسخ المخطوطة ظن خطأ أن البابا هونوريوس هو البابا "سرجيوس"^(٤)!!! على كل الأحوال فإن هذه التفاصيل الصغيرة ليس لها أي قيمة جوهرية^(٥).

- ولكن بابا رومه سرجيوس^(٦) لم يكن مونوثيلياً قط، بل لم يكن حتى في زمن

(١) أي عربية مكتوبة بأحرف سريانية.

(٢) مجمع القسطنطينية الثالث، ويطلق عليه أيضاً اسم المجمع المسكوني السادس (٦٨٠ - ٦٨١ م) وقد رُفضه الموارنة، ثم عادوا لقبولوا به عندما تخلوا عن المونوثيلية (عقيدة المشيئة الواحدة في المسيح). للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) وهذا يدل على الأمر الجلل الذي قام به البابا هونوريوس، وأن آثاره قد استمرت إلى وقت طويل. وربما كان ذلك الأمر شيئاً أعظم من مجرد تهمة المونوثيلية وأشد خطراً.

(٤) هذا الافتراض خيالي جداً، حيث لا تشابه بين الاسمين إلا في النهاية "اوس" التي تميز معظم الأسماء اللاتينية، كما أنه من غير المعقول أن تخلط وثيقة كنسية بين عهدين مختلفين تماماً لباباوين روميين، يفصل بينهما خمسة عشر بابا!!!

(٥) هذا خطأ كبير كما سنرى لاحقاً. راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

(٦) ٦٨٧ - ٧٠١ م.

الإمبراطور "هرقل" ^(١) مبتدع "المونوثلية" ^(٢)؛

- وكذلك يوحنا مارون. فالمونوثلية ألصقت بنا بواسطة أعدائنا ^(٣)، والحقيقة هي أن الموارنة لم يكونوا يوماً مونوثليين ^(٤)، كما أن يوحنا مارون توفي سنة ٧٠٧م ^(٥)؛ أي بعد هرقل بأكثر من نصف قرن، وكان معاصراً للإمبراطور "جستيان الثاني" راينوتيميتوس (الأشرم)، وهو الذي تصدى لجيشه بجيش من الموارنة عندما أراد هدم

(١) ٦١٠-٦٤١م.

(٢) هرقل كان الإمبراطور الرومي الذي بعث إليه الرسول الأكرم بخطابه المشهور يدعو فيه إلى الإسلام، وهونوريوس كان بابا رومه آنذاك. وقد أحدثت تلك الدعوة الإسلامية في عقيدة الروم بليلة شديدة، يكتنفها الكثير من الغموض والإخفاء التعمد للحقائق، ونجم عنها جدال طويل حول طبيعة الإيمان وألوهية المسيح أثرت على الكنيسة لمدة طويلة. وقد اتخذ الجدال أشكالا كثيرة، أهم ما سجله التاريخ منها كان "المونوثلية"، والتي يذكر التاريخ أن كثيرين قد تبناها في ذلك الوقت منهم هرقل وهونوريوس ويوحنا مارون، وكثير من الأساقفة.

(٣) يحاول الموارنة التشكيك بكل من ذكر مونوثليتهم الأولى ويتهمونهم بالتحامل والعداء مثل "ديونيسيوس التلمحري"، بطريك أنطاكية السرياني الأرثوذكسي (ت ٨٤٥)، و"سعيد بن بطريق" بطريك الإسكندرية الخلقيدوني (٩٣٣-٩٤٠)، ومؤرخ القرن الثاني عشر "وليم الصوري"، والمؤرخ المسلم "أبو الحسن علي المسعودي" المتوفى في السنة ٩٥٧ للميلاد، وغيرهم.

(٤) هذا هو الموقف الذي يتبناه حالياً، وبشدة، أغلب الكتاب الموارنة، ولكن التاريخ والمدونات الكنسية الأخرى ينفيان زعمهم بشكل قاطع، وتنفية كذلك كتابات الموارنة السابقين أنفسهم، مثل "كتاب الهدى" الذي هو دستور الطائفة المارونية في الأجيال الوسطى، و"الفصول العشرة" لـ "توما" الأسقف الماروني لكفرطاب وكورة حلب في النصف الثاني من القرن الحادي عشر. والذي كتبها في السنة ١٠٨٩ دفاعاً عن المشيئة الواحدة، وللدرد على "يوحنا السابع" بطريك أنطاكية الأرثوذكسي، وغيرهم. وهذا ما دفع بعض الكتاب الموارنة إلى الاعتراف بحقيقة أن الموارنة كانوا مونوثليين قبل خضوعهم للكنيسة الكاثوليكية، إلا أنهم يصفون على مونوثليتهم تفسيراً غريباً لتبدو وكأنها على انسجام مع الإيمان الكاثوليكي، وأنهم ولو قالوا سابقاً بالمشيئة الواحدة فهي في عرفهم قد كانت: "واحدة معنوياً أي في مفعولها ونتيجتها لا في قوتها ومبدئها"!!! ويمكننا أن نذكر من هؤلاء المطران الماروني "يوسف دريان" في كتابه: "لباب البراهين الجليلة عن حقيقة أمر الطائفة المارونية" المطبوع سنة ١٩١١، والعلامة "بطرس دسي" في كتابه "الكنيسة المارونية حتى نهاية العصور الوسطى" ١٩١٣.

(٥) تاريخ ترجيحي وليس مجمعاً عليه.

معابدهم، واستئصالهم. وقد انتصر الموارنة في "أميون" على الجيش البيزنطي، مما أظهر أمرهم كأمة جبلية ذات شخصية مستقلة^(١).

- هل كان يوحنا مارون أول بطريك من طائفة الموارنة؟

- أجل، وبه يبدأ عهد البطارقة المارونيين^(٢)، كما أنه مؤسس المارونية الحديثة ومقنن نظريتها ومعتقدها^(٣).

- إذا كنتم منذ البداية خلقيدونيين وتؤمنون بمشيئتين للمسيح وليس بمشيئة واحدة، ولم تخرجوا عن إيمان الكنيسة الرسمي كما عرفت منك الآن؛ فما سبب

(١) ذكر ذلك الدويهي نقلاً عن كتاب "عقيدة اليعاقبة" كما يسميه، بل يخطو خطوة أبعد من ذلك بجعل يوحنا مارون ابن أخي الإمبراطور شارلمان!!! ولكنه يغفل حقيقة أن معركة أميون حصلت وفقاً لكتاب عقيدة اليعاقبة نفسه في عهد الإمبراطور جستنيان الأول (٤٨٣ - ٥٦٥)، وليس في عهد جستنيان الثاني (٦٦٩ - ٧١١)!!!

(٢) يؤكد الدكتور "متي موسى" (والذي استعنا بكتاباته كثيراً في هذا الفصل (الموقف)) عدم وجود أية معلومات ذات قيمة تاريخية حول البطارقة الموارنة الأوائل أو عددهم، حتى القرن الثاني عشر. وهو يذكر في هذا الصدد بقول المطران السرياني الكاثوليكي "أفليميس يوسف داوود"، الذي حاول أكثر من أي كاتب آخر تنفيذ مزاعم الموارنة بالالتزام الدائم بالإيمان القويم، بأن الدويهي كان عاجزاً، رغم الجهد الذي صرفه في كتابه "سير حياة البطارقة الموارنة" عن تقديم أية معلومات ثابتة حول البطارقة الموارنة الأوائل الذين جاؤوا قبل البطريرك "يوسف الجرجسي" في نهاية القرن الحادي عشر، (أو على الأصح القرن الثاني عشر). ويؤكد المطران داوود بأن الدويهي كان قادراً فقط على تخمين أسماء اثنين وعشرين بطريكاً، لكنه لا يقدم دليلاً حول حياتهم ونشاطهم. وما يثير الحيرة أيضاً أن الدويهي نفسه خامرته شكوك كبيرة حول هوية أربعة عشر من هؤلاء البطارقة الاثني والعشرين.

(٣) المحير في الموضوع، بالإضافة إلى ما أشار إليه د. متي موسى في الحاشية السابقة، هو عدم وجود دليل واضح أيضاً حول طبيعة إيمان يوحنا مارون وبقية البطارقة الأولين غير ما يتقبله تقليد الموارنة دون سند حقيقي. فلا يوجد أي أثر لمداومات أولئك البطارقة أو مجامعهم وقراراتها في حوليات الكنيسة المارونية نفسها، ولم تذكر في كتابات أية كنيسة أخرى. بمعنى آخر، فإن كل ما لدينا عن طبيعة إيمانهم (وبالذات طبيعة إيمان يوحنا مارون) هو إسقاط لإيمان الموارنة المعاصر رجعيًا على تاريخهم غير الموثق بدقة! بل وصل الأمر ببعضهم، مثل المطران "يوسف الدبس"، إلى حد الزعم بأن يوحنا مارون كان "خليفة ثيوفانس الشرعي" و"الكاثوليكي" وأن المجمع السادس هو الذي نصبه بطريكاً لأنطاكية!!!

الخلاف السابق بينكم وبين الكنيسة الرسمية إذن^(١)!!!

- كان الخلاف بيننا سياسياً وليس عقائدياً كما قرر المجمع اللبناني الماروني المنعقد في لبنان عام ١٧٣٦م^(٢).
- ولكن كيف حلت الإشكالات السياسية بينكم؟
- ببساطة، فقد عاد الفرع إلى الأصل.
- أوضح من فضلك.
- لقد كان الموارنة يعانون عزلة كبيرة في الشرق نظراً إلى إيمانهم الكاثوليكي^(٣)، لذا

(١) لدى تحري تواريخ الطوائف المسيحية يجد المؤرخ في متناول يده العديد من المصادر الأساسية والثانية وبلغات متعددة تتناول جوانب مختلفة من تاريخ هذه الطوائف وكنائسها وعقائدها وأحوالها على مر الزمان. أما بالنسبة إلى الطائفة المارونية فالحال مختلف تماماً، إذ نجد ندرة في المؤلفات الدينية والتاريخية ما عدا الملاحظات العابرة التي أبداها مؤرخون غير موارنة. وأول تاريخ كنسي ماروني كان "تاريخ العالم" الذي كتبه باللغة العربية كاتب ماروني في أوائل القرن العاشر يُعرف باسم "قيس"، أتى على ذكره مؤرخ القرن العاشر "أبو الحسن المسعودي" في كتابه "التنبيه والإشراف". ولكن مما يؤسف له حقاً أن يكون تاريخ قيس مفقوداً. ولهذا، لا نجد تاريخاً زمنياً وكنسياً للموارنة وكنيستهم حتى القرن السابع عشر، زمن كتابة "تاريخ الطائفة المارونية" للبطريك الماروني اسطفان الدويهي. ورغم وجود بعض الكتابات المارونية قبل ذلك التاريخ، إلا أنها للأسف لا تتناول تحديداً تاريخ الطائفة المارونية!

(٢) لقد قرر ذلك المجمع أن الموارنة أسسوا بطريركيتهم لأسباب علمانية بحتة، وليس لأسباب دينية!!! لكن إذا رجعنا إلى مناقشات هذا المجمع نفسه نجد أن أعضائه يناقضون أنفسهم فيقولون إن الصراع المستمر بين الملكيين

والموارنة هو الذي دفع الموارنة في النهاية إلى فصل أنفسهم عن الملكيين وتنصيب بطاركة تخصهم!!!!

(٣) لم يكن هذا هو سبب عزلتهم، فهم كما رأينا، لم يكونوا آنذاك كاثوليك أصلاً، بل يذكر البطريك المسكوني القديس "جرمانوس" (٧١٥-٧٢٩) الموارنة في كتابه "المجامع والهرطقات" فيقول أنهم لم يعتبروا بالمجمعين الخامس والسادس. ويعد القديس "يوحنا الدمشقي" رسالة في العقيدة الأرثوذكسية قبل السنة ٧٢٦ ليتبينها "إلياس" أسقف بيروود أمام رئيسه "بطرس" متروبوليت دمشق، فيجيء في القسم في آخرها أن الأسقف لا يقول إلا بها وأنه لا علاقة له بأي دستور إيمان آخر ولا سيما دستور إيمان الموارنة. ويوجه "ثيودوروس أبو قره" أسقف حران (٧٤٠-٨٢٠) رسالة إلى صديق له كان يعقوبياً فاهتدى، فيقول بالعربية: "ولا نرى أن القوى التي كانت في التركيب الأنسي بطلت لأن الكلمة هو كان المدبر والمحرك لها وإن كان قد يرى ذلك جند الموارنة".

فما إن هب الباباوات والملوك الكاثوليك لإنقاذ قبر المسيح والأراضي المقدسة من أيدي المحمديين، حتى سارعنا إلى تأكيد ولائنا للإيمان القويم الكاثوليكي من خلال تقديم أدلاء لإرشاد الحملة الصليبية الأولى إلى الطرق والمعابر، وساعدنا الفرنجة بأربعين ألف مقاتل ماروني^(١). ويوم فتحوا المدينة المقدسة عام ١٠٩٩، سمحوا لنا بسكنائها معهم والتملك فيها، وحرّموا ذلك على بقية المسيحيين المحليين، شأنهم في ذلك شأن المحمديين. وفي الممالك التي شيدها الصليبيون احتل الموارنة المرتبة الأولى بين الطوائف المسيحية المحلية، متمتعين بالحقوق والامتيازات التي يتمتع بها الفرنجة أنفسهم^(٢).

- ولكن إذا كنتم ممثلي الكاثوليكية في تلك الديار منذ البداية كما تقول، فما

معنى قيام الكنيسة اللاتينية(الكاثوليكية) هناك!!!

- لقد أخذ اتحادنا الكامل بالكنيسة الكاثوليكية بعض الوقت. ففي سنة ١١١٣م

قام البطريرك الماروني "أرميا العمشيتي" بزيارة لرومه، وعند عودته أدخل بعض التعديلات في خدمة القداس وطقوس العبادة وسيامة المطارنة. ثم ازداد التقارب بيننا حتى توج في عام ١١٨٢م بإعلان الطاعة للكرسي الرسولي^(٣)، أما في عام ١٧٣٦م^(٤) فقد بلغ التقارب حد الاتحاد الكامل معها، فأصبحت الكنيسة المارونية بذلك من الكنائس الأثيرة لدى باباوات رومه.

(١) يرجع تأثر الموارنة أكثر من جميع الطوائف المسيحية الأخرى بالوجود الصليبي إلى قلة عددهم بالنسبة إلى الكنائس الأخرى، ومعاداتهم لها جميعها، بالإضافة إلى وجود مرجعيتهم وجميع أتباع طائفتهم في الأراضي الصليبية. ومع أن بعض المصادر المارونية المتطرفة تدعي ارتباط كنيسة رومه منذ تأسيسها في القرن السابع، فإن ذلك يعتبر من غير المعقول، إذ إنه لم يكن لكنيسة رومه أي اتصال بالشرق حينها. أما المصادر المارونية الأكثر واقعية فتؤكد أن الحكم الصليبي هو الذي أدى إلى خضوع الموارنة لكرسي رومه.

(٢) كان الفرنجة الصليبيون يعاملون بقية المسيحيين المحليين بفوقية شديدة، واضطهدوهم مراراً.

(٣) أي لبابا رومه في الفاتيكان.

(٤) المجمع اللبثاني الماروني.

- وكان من بين هذه التعديلات لبس الخواتم، والقَلَنَسوة التي تشبه التاج، والعكاز إلى آخره. أليس كذلك؟

- كلا، فهذا التقليد الرومي اللاتيني متبع لدينا قبل ذلك بكثير، منذ أن رسم بابا رومه هونوريوس الأول يوحنا مارون بطرياً على أنطاكيا، فقد أنعم عليه حينها بتاج الأسقفية والخاتم والعكاز، بعد أن حذره من الملكيين^(١) واليعاقبة والأقباط، وأن يعلم "الإيمان الصحيح" ويهتم بمشورته^(٢).

- وبعد هونوريوس توقف البطارقة الموارنة عن الأخذ بمشورة باباوات رومه، وأصبح أولئك الباباوات وأباطرتهم وملوكهم لاحقاً ينكرون بكم أشد التنكيل، إلى أن حلت الإشكالات "السياسية" بينكم. أليس كذلك؟

علق أبراهام غامزاً، فتهرب ميشيل من ذلك التعليق المخرج، وتابع حديثه كأنه لم ينتبه إليه قائلاً:

- أما بالنسبة إلى التعديلات اللاتينية التي أدخلت على الطقس الماروني القديم، فقد شملت الزي الكهنوتي، وتغطيس المعمود ثلاث مرات في الماء، طلبه واحدة للثالوث، وتكريس الأحداث على أيدي المطارنة فقط، واستعمال الأجراس في الدعوة إلى القداس بدلاً من النواقيس الخشبية التي تستعملها سائر الكنائس الشرقية، وبعض التعديلات البسيطة الأخرى.

- يبدو أنكم تمتازون بالمحافظة الشديدة على تراثكم.

قال أبراهام غامزاً مرة أخرى، إلا أن ميشيل لم يفتن لذلك هذه المرة، فتابع حديثه بثقة مؤكداً ما اعتبره حقيقة مسلماً بها:

(١) أتباع الكنيسة الرومانية أي الكاثوليك أنفسهم، والأرثوذكس!!!

(٢) هذا كله حسب تعبيرات المؤرخ البطريرك اسطفان الدويهي. وبالنسبة إلى الطوائف الثلاث فقد كانوا يمثلون عموم المسيحيين غير الموحدين في ذلك الزمان، أما بالنسبة إلى الإيمان الصحيح فلنا أن نفترض بأنه نوع من التوحيد والله أعلم.

- هذا صحيح، حتى إننا لا نزال نحافظ على لغتنا السريانية القديمة في القدس، وعلى تقاليدنا وطقوسنا الخاصة أيضاً.
- هل تأثر وضعكم في لبنان بعد انتهاء الحملات الصليبية؟
- ليس تماماً. ولكن مع ذلك رافق الملك "غوي دي ليزنيان" جمهوراً كبير من المواردة إلى قبرص، بعدما احتل صلاح الدين الأيوبي المملكة اللاتينية في أورشليم. وهناك استوطنوا الجبل الذي يقع شمال نيقوسيا.
- يبدو أن تاريخكم مليء بالهجرات، فقد قرأت أن الكثير من المواردة فرّوا من لبنان عبر التاريخ فوصلوا إلى تكريت وغيرها من المدن بين دجلة والفرات منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كما ذهب بعضهم تجاه سورية الداخلية مستوطنين دمشق وحلب، وفريق ذهب إلى مصر، وهاجر آخرون إلى أمريكا وإفريقيا وإندونيسيا وتوجه غيرهم نحو "مالطة" و"رودس"!
- أجل، ولكن لا يزال أغلبنا يعيش في لبنان إلى الآن.
- كم عددكم؟
- يبلغ عددنا في العالم نحو عشرة ملايين نسمة^(١)، منهم ٩٠٠.٠٠٠ لا يزالون في لبنان.
- ما طبيعة علاقتكم بفرنسا؟
- أصبحت وثيقة جداً بعد الخدمات التي أديناها للفرنجة في الحروب الصليبية. وعندما نزل الملك "لويس التاسع"^(٢) إلى البر في عكا، تقدم إليه وفد مؤلف من خمسة عشر ألف ماروني، ومعهم المؤن والهدايا، فسلمهم بهذه المناسبة رسالة مؤرخة في

(١) لا تتعدى التقديرات الأكثر تواضعاً رقم ستة ملايين نسمة.

(٢) قائد الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩ م.

٢١/٥/١٢٥٠م فيها تصريح واضح بأن فرنسا تتعهد بحمايتهم جاء فيها: "ونحن مقتنعون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية". وقد استمر هذا التعاطف في الأجيال التالية، وذلك عندما أرسل نابليون الثالث فرقة فرنسية لتهدئة الجبل عام ١٨٦٠م^(١) بعد الحروب الطاحنة بيننا وبين "الدروز". وبعد ذلك تمكنت كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا وبروسيا (ألمانيا حالياً) من فرض إرادتها على الدولة العثمانية بحماية الطوائف المنتسبة إليها. فصدر البروتوكول الخاص بـ"نظام المتصرفية" عام ١٨٦٠م، والذي من أهم بنوده: "أن تخضع إدارة جبل لبنان لمتصرف كاثوليكي، ينصبه الباب العالي بعد موافقة الدول التي وقعت الميثاق، ويكون مرجعه مباشرة إلى الباب العالي". وبعد الحرب العالمية الأولى أصبح لبنان نتيجة اتفاقية "سايكس بيكو" تحت الانتداب الفرنسي الذي أعلن بلسان "روبير كولوندر"، رئيس البعثة السياسية الفرنسية في بيروت، غداة انتهاء الحرب العالمية الأولى أن: "مجيء فرنسا إلى لبنان هو لحماية أصدقائها الموارنة، وضمان مصالحهم".

(١) يلاحظ أن الأقليات عادة ما تلجأ إلى الجبال هرباً بعقيدتها وتتمركز حولها، كما حصل لجبال الدروز والعلويين والأرمن. وجبل الموارنة "جبل لبنان" يتكون من قسم من سلسلة جبال لبنان الغربية يمتد من بلدة بشرى شمالاً حتى بلدة جزين جنوباً. وأنداك لم يكن هناك شيء اسمه دولة لبنان بحدودها الحالية. فهي قد تشكلت في ٣١ آب/أغسطس ١٩٢٠م؛ حين أعلن الجنرال الفرنسي "غورو" دولة "لبنان الكبير"، ضاماً إليها ولاية بيروت مع أقيمتها وتوابعها (صيدا وصور ومرجعيون وطرابلس وعكار)، والبقاع مع أقيمتيه الأربعة (بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا)، فاستعت مساحة لبنان من ٣٥٠٠ كلم مربع، إلى ١٠٤٥٢ كلم مربع، وازداد سكانه من ٤١٤ ألف نسمة إلى ٦٢٨ ألفاً. ومع أن هذا التوسيع لحدود لبنان قد أفقد الموارنة شيئاً من استقلاليتهم، إلا أنه أكسبهم الصدارة والسلطة في لبنان الكبير، ووسع من نفوذهم فيه، وأنقذهم من المجاعة التي كادت تخنق المتصرفية. وقد كان "الحويك" بطريك الموارنة آنذاك، من أكبر مؤيدي توسيع متصرفية جبل لبنان (وفي الوقت ذاته رفض بشدة الاتحاد مع سورية) بما يضمن مصلحة الموارنة، خاصة أن كثيراً منهم قد بدؤوا فعلاً بالهجرة إلى المدن الكبيرة، أو إلى الأراضي الخصبية طلباً للرزق. وتعالق الأصوات التي زعمت أن الأتراك (الخلافة العثمانية) هم من ألحقوا الأفضية الأربعة بولاية دمشق بغير وجه حق، وأن دولة لبنان الكبير ما هي إلا استعادة لحدود لبنان التاريخي!!!

وبالفعل فقد قامت بتدريب المسيحيين عامة، ونحن خاصة، على كيفية إدارة شؤون البلاد في أثناء فترة حكمها المباشر للبنان بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٤٣م، ثم سلمتنا السلطة بعد مغادرة جيوشها لبنان نهائياً عام ١٩٤٦م.

- وقبل ذلك (في عام ١٩٤٣م) ألزمت فرنسا كل الأطراف هناك، بناء على إحصاء أجرته، بأن يكون كل من رئيس الدولة، ورئيس الجيش وكثير من كبار موظفي الدولة من طائفتكم حصراً، بغض النظر عن أية متغيرات مستقبلية في التركيبة السكانية. أليس كذلك؟

- تماماً. ونتيجة لذلك، أصبحنا نملك أكبر نفوذ في توجيه السياسة اللبنانية المعاصرة حتى هذه اللحظة، مع أن هذا النفوذ بدأ للأسف بالانحسار حالياً لكفة المسلمين.

- وما السبب في ذلك؟

- هناك أسباب عديدة بداية بـ"اتفاق الطائف"^(١) الذي حدد نظام اقتسام السلطة الطائفي المعقد، مانحاً المسلمين والمسيحيين تمثيلاً متساوياً في مجلس النواب، بدلاً من التمثيل بنسبة ٦ إلى ٥ لمصلحة المسيحيين كما كان في السابق^(٢). ومروراً بالتدخل الإيراني من أجل بسط نفوذ الشيعة، ومن ثم زيادة الدعم السعودي لسنة لبنان في المقابل. ثم نظراً لانسحاب سورية، التي كانت -على كل علاقتها- أحد أهم المحافظين على التوازن الطائفي المتوافق عليه سابقاً في الساحة اللبنانية. كما أن انتهاء احتكارنا القديم للتعليم يعد أيضاً سبباً وجيهاً لانحسار نفوذنا.

(١) وقد أبرم في مدينة "الطائف" عام ١٩٨٩م بين الأطراف اللبنانية المتحاربة، منهيماً الحرب الأهلية في لبنان.

(٢) تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا التمثيل لم يعد يتناسب مع الوضع الديموغرافي الجديد، فلقد كشفت دراسة مسحية وردت في جريدة "السمير" اللبنانية بتاريخ ٢٨ / ١٠ / ٢٠٠٦م أن عدد سكان لبنان المسجلين يبلغ ٤,٥ مليون نسمة، يشكل المسيحيون نسبة ٤٠,٥ ٪ منهم، أما المقيمون فيبلغ عددهم ٣,٧ مليون نسمة يشكل المسيحيون منهم نسبة ٣٧,٢ ٪، وهذا يعني أن المسلمين المقيمين يشكلون ثلثي سكان لبنان تقريباً طبقاً للإحصائيات المسيحية نفسها!

- وكيف ذلك؟

- قبل أن يتحضر العرب، كنا المسيطرين على التعليم وأسسنا على مدى خمسين عاماً، بمساعدة فرنسا وأمريكا، العديد من المؤسسات والبرامج التعليمية والتوجيهية، التي خرجت القادة والموظفين. وحتى الزعامات العربية المسلمة ألزمت نفسها، كما ألزمت شعوبها، بقيود التبعية لنا في السنوات التالية، بسبب تخرجها في مدارسنا ونيلها لثقافتنا. وليس من قبيل المصادفة أن تكون جميع الحركات العلمانية والقومية قد أسسها خريجو تلك الجامعات، ولا أن يكون أعضاء هذه الأحزاب والحركات ممن تلقى ثقافته في مدارسنا، وتأثر بآدابنا وثقافتنا وسلوكنا، سواء كانوا من المسيحيين أم المسلمين.

- لحظة من فضلك. أستم أنتم أيضاً عربياً!!!

- لا تغلط يا صديقي، فنحن "مردة"^(١).

- لقد سمعت بهذه التسمية مراراً^(٢)، ولكن ما المقصود منها^(٣)؟

- المقصود أن أصولنا ترجع إلى المردة، الذين هم قوم محاربون أشاوس سيطروا على بلاد واسعة من الجبل الأسود حتى أورشليم، وشكلوا "سوراً نحاسياً منيعاً" فصل

(١) المردة Mardaites، أو الجراجمة؛ هم جماعة غير مؤكد أصلها. ويذهب البعض مثل د. متي موسى إلى التشكيك بكون المردة هم نفس الموارنة الأولين أصلاً، بل هناك بعض الموارنة أنفسهم ممن يشككون بذلك. حيث لا توجد دلائل تاريخية حاسمة تربطهم بهم عنصرياً.

(٢) هذه هي التسمية التي استخدمها الرئيس الأمريكي باراك أوباما في خطابه الشهير إلى العالم الإسلامي من القاهرة عندما تحدث عن حقوق الأقليات.

(٣) المؤرخون الذين يفترضون صحة النسب بين المردة والموارنة، يقترحون أن سبب التسمية ربما يرجع إلى فترة الصراع بين الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين. فقد دُعيت الفرقة الأولى من قبل خصومها بأتباع الإمبراطور البيزنطي أو بالـ "ملكين" (ملكوي بالسرانية)، في حين دُعيت الفرقة الأخرى التي تمردت على الإمبراطور وقاومته بالمردة (التمردين). وربما احتفظ الموارنة بهذا اللقب، في حين تميز بقية السوريين بلقب اليعاقبة أو لآثم السران، وتميز المصريون بلقب الأقباط.

الحدود البيزنطية مع المسلمين وضايقتهم لفترة طويلة من الزمن^(١)، وهؤلاء المردة بالذات هم الذين انتخب مطارنتهم يوحنا مارون بطريكاً على أنطاكيا.

- ولكن، كيف يمر انتخاب بطريك شعب بهذه الأهمية دون أن يذكر ذلك المؤرخون البيزنطيون واللاتين، ودون أن يرد اسم ذلك البطريرك في قائمة بطاركة أنطاكية؟!!!

توقف أبراهام للحظة مفكراً، ثم أردف قائلاً بدهشة أكبر:

- ثم إنك قلت في البداية أن بابا رومه هو من رسم يوحنا مارون بطريكاً على أنطاكية؟!!!

- في الواقع هناك آراء متعددة بين المؤرخين الموارنة حول الكيفية التي صار فيها يوحنا مارون بطريكاً، وكلها ممكنة^(٢)، وأنا لن أتعب رأسك بمثل هذه التفاصيل الصغيرة، ولكن أرجو ألا تقول ثانية أن الموارنة عرب.

- إذا كان هذا الأمر يضايقك إلى هذه الدرجة، فأنا أعتذر فعلاً.

- لا عليك يا صديقي.

- ولكن لماذا تستخدمون اللغة العربية مادام الأمر كذلك؟

- بحسب المجمع البطريركي الماروني المنعقد عام ٢٠٠٦ فإن "العربية لا تتعدى كونها لغة محلية لا مضر من أن يستبدل بها، خارج حدود النطاق البطريركي، اللغة المحلية التي يمارسها المصلون".

- ولكن كثير من الموارنة، وفق ما قرأت، كانوا دعاة للقومية العربية قبل ذلك التاريخ، بل ويعود إليهم فضل كبير في حماية اللغة العربية وآدابها.

(١) صاحب هذا التعبير هو المؤرخ البيزنطي "ثيوفانس".

(٢) هذا ما يقرره المطران الماروني "يوسف الدبس" في كتابه "الجامع المفصل في تاريخ الموارنة الموصل" بعد انتهائه من سرد تلك الآراء وتحليلها (بيروت، ١٩٠٥).

- لنكن صريحين. فقد كان ذلك من أجل فصل المسلم العربي عن المسلم التركي في أثناء الخلافة العثمانية. وأفضل الطرائق إلى ذلك كانت عبر إحياء القومية العربية لتحل مكان الولاء للإسلام، ومن ثم محاربة الأتراك^(١)، وهذه المرحلة قد انقضت، وبذلك أقفل معظم أدبائنا "كرخانة"^(٢) اللغة العربية الفصحى وكل ما يمت بصلة إلى قوميتها البالية، واعتماد اللهجة اللبنانية المحكية^(٣).

- وما هي بقية أسباب بداية انحسار نفوذكم في لبنان لمصلحة العرب؟

- بالإضافة إلى ما قلته سابقاً، أعتقد أن السبب الأهم حالياً هو خلافات قياداتنا السياسية نفسها، واستقواؤها، للأسف الشديد، بالمسلمين بعضهم ضد بعض. فالجنرال "ميشيل عون"، والوزير "سليمان فرنجية" يتحالفون مع الشيعة، ضد إخوانهم المسيحيين الذين تحالفوا مع السنة مثل الدكتور "سمير جعجع" والشيخ "أمين الجميل". حتى إن الإعلام قد طلع علينا مؤخراً بمصطلحات تهكمية مثل "ماروني سني" و"ماروني شيعي". وأتمنى ألا يطول ذلك كثيراً، وألا يتطور الأمر إلى الأسوأ، في ظل هذه الظروف العصبية التي يمر بها النفوذ المسيحي في لبنان.

- أتمنى ذلك أيضاً.

- وليس في لبنان وحده، بل النفوذ المسيحي في أوروبا نفسها.

- ماذا تعني؟

(١) حسب تعبير القس الماروني الدكتور "شفيق أبو زيد" كبير الباحثين في مركز الدراسات السامية بجامعة أكسفورد في برنامج "مساجلات" على قناة الأن ب اللبنانية ANB بتاريخ ٢٥/١٢/٢٠٠٩ تحت عنوان "المسيحيون في الشرق".

(٢) هذا المصطلح من نحت الشاعر سعيد عقل في حوار أجرته معه "منى سكرية" في السفير ١٣/٤/١٩٩٤ م. وأتذكر تصريحه الشهير الذي رأيناه جميعاً على شاشة الجزيرة في البرنامج الوثائقي "حرب لبنان" عندما وصف شارون بـ "البطل" وأثنى وشكر الجيش الإسرائيلي على ما يفعله في لبنان!!!

(٣) حركة اللبنانية.

- ألم تتابع قداسة البابا بندكت السادس عشر حين حذر الأوروبيين من انحسار الهوية المسيحية لأوروبا في ظل انخفاض معدل المواليد، وزيادة عدد المسلمين؟! - كلا للأسف.

- لقد طالب قداسته بضرورة تأكيد الهوية المسيحية لأوروبا في العصر الحديث، خاصة أنها تعاني هجر الطقوس الكنسية، وقلة المواليد و"ثقافة تجاوزت السيطرة". وقال مخاطباً الأوروبيين: "إن مستقبل أوروبا المسيحية كئيب وينذر بالخطر، خاصة إذا لم تنجبوا الأولاد وتقيموا شريعة الرب". مضيفاً أن هذا هو سبيل أوروبا إذا أرادت أن تكون حضارتها في مستوى تحديات الألفية الثالثة.

- إن تحذير البابا هذا يتناغم مع تقارير يهودية حذرت هي الأخرى من تضائل عدد اليهود في أوروبا، وتراجع تأثيرهم السياسي في الدول التي يعيشون فيها، وذلك في الوقت الذي تتزايد فيه قوة المهاجرين المسلمين في تلك الدول. وقال تقرير أصدره "معهد تخطيط سياسة الشعب اليهودي" للعام ٢٠٠٧، أن عدد يهود أوروبا يتناقص من عام إلى آخر، وأن "المجتمعات اليهودية الأوروبية آخذة بالاختفاء" بسبب الهجرة والانصهار في المجتمعات التي يعيشون فيها، ولكونهم مجموعة سكانية مسنة. وأن مجموعات يهودية كثيرة في أوروبا يتوقع أن تنقلص أو أنها ستختفي بالكامل. ونقلت صحيفة "يديعوت أحرונوت" عن التقرير قوله: "إن المجموعات اليهودية أخذت تضعف وتفقد قوة تأثيرها السياسي مقابل تصاعد قوة المهاجرين المسلمين". ويفيد التقرير أنه فيما كان عدد اليهود في أوروبا ١.٦ مليون في العام ٢٠٠١، أصبح عددهم اليوم مليوناً و١٥٥ ألفاً، ويتوقع أن يطرأ انخفاض آخر على عدد اليهود بحلول العام ٢٠٢٠ ليصبح عدد يهود أوروبا مليوناً و٣٠ ألفاً.

- أنت يهودي أليس كذلك؟

- لماذا تظن ذلك؟

- لأنني لاحظت من نبرتك في الحديث عن تضاؤل عدد اليهود ونفوذهم، المرارة نفسها التي أحس بها أنا بالنسبة إلى المسيحيين.
- هذا ليس دقيقاً.
- لا تقلق. فكونك يهودياً يجعلك أكثر قرباً بالنسبة إلي مما لو كنت مسيحياً أرثوذكسياً كما كنت أظن. وعندما قامت دولة إسرائيل نظر إليها كثير منا على اعتبار أنها "حاضنة" للمسيحيين^(١).
- في الواقع، أنا يهودي فعلاً.
- إذن فأنا مصيب في تخميني. ومع أنني لن أستطيع الخوض معك في أسرار مهنتي، إلا أنني أستطيع أن أطمئنك بأنني أفعل كل ما بوسعي لمحاربة "المحمديين" الكفرة، والحد من نفوذهم.
- وكيف يجب أن يطمئنني ذلك؟
- أأنت يهودياً؟
- أجل!
- إذن فعدونا مشترك وهو الإسلام، وهدفنا مشترك وهو التعجيل بقدم المسيح. وعند قدومه يفصل بيننا، فإن كان هو يسوع العائد ثانية إلى الأرض من خلالكم، صرتم مسيحيين مثلنا، وإن كان مشيخاً يهودياً آخر، عدنا نحن إلى الديانة اليهودية الأم.
- أشتم رائحة البروتستانتية في حديثك!
- يا عزيزي، كلنا خدم للرب يسوع.
- أجل بالطبع، ولكن لماذا تستثني الأرثوذكس من ذلك؟

(١) بعد قيام الكيان الصهيوني نشطت دعاية محمومة لوصفه بذلك، وتبناها للأسف بعض السياسيين والأدباء.

- لأنهم هراطقة، كما أنهم، باستثناء بعض الأقباط المتتورين نتيجة حياتهم في "المهجر"، لا يزالون غير مدركين لخطر استيقاظ الوحش الإسلامي حتى الآن. وقد أعياني صديقك ساشا مثلاً وأنا أشرح له ذلك دون جدوى. فذلك الأحمق يعتبر المسلمين كأى مجموعة دينية أخرى؛ فيهم الشرير وفيهم الجيد، ولا يصدق بأنهم شر شيطاني محض.

- إذا كنت فعلاً تعتقد أنه أحمق، فلماذا تستأمنه على حمايتك إذن؟

- هو قال هذا؟!!! ذلك الثرثار الأبله. وماذا قال لك أيضاً؟

تنبه أبراهام على زلة اللسان التي صدرت عنه بكشف ما أسر ساشا له، فقال محاولاً تصحيح ذلك الخطأ الجسيم، وهو يتصنع السخرية من ساشا:

- لقد تفاخر بأن كل معارفه، بمن فيهم أنت نفسك، يشعرون بالاطمئنان عندما يمشون بجانبه، فلا يخافون وهم معه من التعرض لأحد، لأنهم يعلمون جيداً أنه سيحميهم، فيبدو أنه مغتر كثيراً بعضلاته المفتولة، ويظن بأن مظهره يخيف كل من قد تسول له نفسه العبث معه أو مع أي من معارفه.

- هذا هو الشيء الوحيد الذي يصلح له ذلك الروسي الأحمق "كومة العضلات". على كل حال دعنا من أولئك الأرثوذكس السدج.

- كما تريد.

- بالمناسبة، أنا لم أفطر بعد، هيا بنا إلى المطعم.

- شرط أن تسمح لي بدعوتك.

- لقد تأخرت يا صديقي، فأنا صاحب الدعوة، وأنت ضيف عندي في الفندق الذي أقيم فيه. بالإضافة إلى كونك "الأخ البكر" حسب وصف قداسة البابا لليهود، ولذلك إكرامك واجب.

في أثناء الطعام جلس الاثنان يتبادلان أطراف الحديث. وعاد ميشيل إلى طبيعته السابقة التي كان عليها ليلة أمس من المزاح والمشاكسة والتعليق على المحيطين بهم، ولكن هذه المرة انتهى به الأمر إلى العثور على بائعة هوى حقيقية، من اللائي يتصيدن الأجانب، فأخذ يتبادل معها النظرات والتلميحات. مما أزعج أبراهام، فسأله عازماً على إعادته إلى رزائنه السابقة:

- يبدو من معلوماتك أنك كنت متفوقاً فعلاً في الكلية اليسوعية، فلم لم تخدم في الكنيسة؟

أحس ميشيل ببعض الخجل من نفسه، فعدّل جلسته قائلاً:

- لقد كان هذا هو المخطط له فعلاً، ولكن في أثناء الحرب الأهلية أرسلني والدي إلى الاتحاد السوفييتي، لأدرس في كلية عسكرية مختصة بحرب الشوارع، كي أخلفه في قيادة المليشيا التي أسسها، وقد ساعدت أبي فعلاً بعد عودتي من هناك، ولكني فضلت لاحقاً الانضمام إلى "جيش لبنان الجنوبي" بقيادة الجنرال "أنطوان لحد". وبعد الهزيمة، لجأت كالباقين إلى إسرائيل، لكنني اكتشفت أنني لا أستطيع التسليم بالهزيمة، والعمل بـ"الحمص" مثلهم^(١)، فهاجرت إلى الولايات المتحدة، وحصلت على جنسيتها، وصرت أتقل بين الشركات المتخصصة في الحماية الأمنية. وأعمل حالياً على تأسيس شركتي الخاصة.

- أتمنى لك التوفيق في ذلك.

(١) افتتح العميل الخائن أنطوان لحد مطعماً لبنانياً في الكيان الصهيوني يساعده به ضباط وجنود سابقون من عصابته التي كانت تعرف بجيش لبنان الجنوبي، فصار يعرف في الصحافة الإسرائيلية باسم "جنرال الحمص" زيادة في تحقيره، وبالذات عندما كان يتحدث في الإعلام عن خذلان الجيش الصهيوني له، بعدم إبلاغه بموعد انسحابه من جنوب لبنان، مما كبده وعصابته خسائر جسيمة على يد "حزب الله". ومع أن هذه هي عادة الكيان الصهيوني في نبذ عملائه القدماء بعد انتفاء الحاجة إليهم، إلا أن هذا للأسف لم يمنع عملاءهم الجدد من الاستمرار في خدمتهم.

- وأنا بدوري أتمنى لك التوفيق في مشروعك في الكتابة عن الأديان.
 - أشكرك. ولقد ساعدتني كثيراً في ذلك، ولدرجة لا أظنك تدرك مداها.
 - حقاً! لقد كان ذلك من دواعي سروري على أية حال.
 - هل لك أن تتم معروفيك وتحديثي عن العقيدة الكاثوليكية بشكل عام.
 - يكفيننا حديثاً عن الدين اليوم، فكما يقولون ساعة لربك، وساعة لقلبك.
 قال ميشيل وهو يرمق تلك المومس بطرف عينه، ثم أردف قائلاً وهو يتصنع الجدية:

- ثم إن اليوم هو آخر يوم لي في مصر، ولا يزال هناك بعض الأمور العالقة،
 التي علي القيام بها.
 - آه. طبعاً... بالتأكيد. على كل حال أشكرك كثيراً على تخصيص جزء من وقتك
 لي على كثرة مشاغلك، كما أشكرك على الفطور.
 - على الرحب والسعة أيها الأخ البكر.
 صافحه أبراهام مودعاً، ثم توجه من فوره إلى ساشا، حيث اعتذر إليه عن هفوته
 غير المقصودة، وأخبره بالحجة التي اختلقها حتى لا تتعارض أقوالهما، في حال بقي
 شيء من الشك في صدر ميشيل، وحاول الإيقاع به ليعرف أيكون فعلاً قد باح بأسرار
 بلاك ووتر.

◀ في كولونيا

قضى أبراهام أياماً طويلة يبحث في الإنترنت عن طوائف المسيحية وعقائدها ليجيب عن كل ما عنَّ في رأسه من تساؤلات. وفي إحدى المرات، وبينما كان يستعرض بريده الإلكتروني، وجد رسالة من مصدر مجهول تقول: "أنا في مسقط رأس السيدة سارة، أتمشى في "الفوس جنجر تسونة"^(١)، سأعود يوم الأحد القادم في الساعة السابعة مساءً"، وبعد قليل من التفكير استنتج أبراهام أن كاتب الرسالة هو أحمد، وأنه يقصد بالسيدة سارة جدته التي حدثه عنها، وعليه؛ فسيكون معنى الرسالة أن أحمد في ألمانيا في مدينة إيزرلون، وسيكون يوم الأحد في منطقة المشاة اعتباراً من الساعة. ولما كان أبراهام مشتاقاً لأحمد فعلاً، ولم يعد هناك ما يفعله في مصر، خاصة أن الرد على طلبه قد وصل مع الموافقة، وختمت الفيزا الألمانية على جواز سفره، فقد توجه مسرعاً إلى أقرب مكتب للسفرات وحجز تذكرة في أول طائرة مغادرة إلى ألمانيا.

حطت طائرة "اللوفتهانزا"^(٢) التي كان يستقلها أبراهام في مطار "بون - كولون"^(٣)، ولما كان اليوم هو الخميس، ولا يزال أمامه ثلاثة أيام حتى يحين مواعده مع أحمد في إيزرلون، فقد قرر أن يقضيها في إحدى المدينتين. وبالتأكيد لم تطل حيرته كثيراً

(١) مصطلح ألماني يعني "منطقة المشاة"، وهي أشبه بشارع مبلط بالحجارة، ولكن لا يسمح للسيارات أن تسير به. ويكون عادة في وسط المدينة وبه المركز التجاري. ومثل هذه المناطق موجود في أغلب المدن الأوروبية.

(٢) اسم شركة الخطوط الجوية الألمانية. وهو باللغة الجرمانية القديمة، ومعناه الحرفي هو القافلة الهوائية (الجوية).

(٣) مطار بين مدينتي بون وكولون (كولونيا).

بينهما، فمدينة كولونيا تتميز عن مدينة بون، الحديثة نسبياً، بقدمها وعراقتها^(١) وأسواقها التجارية الفخمة، والأهم من ذلك كله كنيستها الشهيرة، التي تعتبر أعلى كاتدرائية في العالم^(٢).

وكالعادة لم يُضِع أبراهام وقته سدى؛ فما إن استأجر غرفة في فندق، حتى اغتسل وبدل ملابسه، ثم توجه إلى كاتدرائية كولونيا وطلب مقابلة أحد القساوسة المسؤولين بذريعة كتابه المزعوم.

- لقد وصلت اليوم صباحاً، ولم تذهب إلى أي مكان بعد؟ ولم يجذبك ولا حتى شارع المشاة المجاور للكنيسة!!!

قال القس بدهشة مشوبة بالإعجاب. فرد أبراهام بحياء:

- بل جذبني كثيراً سيدي، وأنوي زيارته حالما أنهى لقائي معك، الذي يفوق أهمية بكثير.

- اسمح لي إذن أن أهنئك على نشاطك وعلو همتك. ولولا تقديري لذلك لما وافقت على مقابلتك فوراً.

- أقدر لك هذا سيدي.

- كيف أستطيع أن أخدمك؟

(١) يبلغ عمر كولون ٢٠٠٠ سنة تقريباً، وتعد رابع أكبر مدينة ألمانية. فقد اكتسب الموقع الروماني "كولون كلاوديا أرا أجرينيزيوم" على نهر الراين صفة المدينة سنة ٥٠ ميلادية، وسرعان ما أصبحت المدينة من أهم المراكز التجارية الرومانية شمال جبال الألب.

(٢) يصل علوها إلى ١٥٧ متراً، ومع ذلك فهي لا تعتبر سوى ثاني أعلى مبنى بالمدينة. وهذه الكاتدرائية القوطية هي أشهر معلم من معالم كولونيا. كما أنها تقع وسط المدينة، وبالقرب من نهر الراين مباشرة وبجانب أكبر المتاحف، وكذلك بجانب محطة القطار الرئيسية التي تجلب أكثر من ٨,١ ملايين زائر سنوياً إلى كولون.

- كانت تعرف كنيسةكم في الماضي بالكنيسة الغربية أو اللاتينية لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتيني خاصة^(١)، فما أصل تسمية الكاثوليكية الجديدة نسبياً؟
- إن الكاثوليكية تعني "الجامعة"، وهي ليست تسمية جديدة كما تعتقد؛ فأول من استعمل هذه التسمية الكاثوليكية هو أسقف أنطاكية القديس "أغناطيوس" الأنطاكي في القرن الثاني الميلادي، وذلك للدعوة إلى تأييد الكنيسة مقابل الحركات الهرطقية الخارجة عن الكنيسة الجامعة (العالمية)^(٢).
- عندما كنت في مصر تعرفت طائفة الأقباط الكاثوليك، وقد عجبت من اتحاد جماعة من الأقباط مع كنيسة رومه؛ فمن المعروف أن الأقباط بالذات هم من أكثر المسيحيين تعصباً لطائفتهم^(٣) التي تتناقض كثيراً مع الكاثوليكية، فما الذي دفعهم إلى ذلك؟
- هذا ما أسميه عودة إلى الأصل. فالكنيسة الكاثوليكية ليست فقط أكبر الكنائس المسيحية في العالم، بل هي أم الكنائس ومعلمتهن أيضاً، لذلك عادت كنائس كثيرة إلى حضن الأم، معترفة بسيادة الكرسي الرسولي (الفاتيكان) عليها.
- ولكن تاريخ الكنيسة يخبرنا أن أسقفية رومه ليست الكرسي الرسولي الأول، بل ليست من الكراسي الرسولية الثلاث الأولى التي أقرتها المجامع المسكونية الأولى أي الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم^(٤).

(١) مقابل الشرق اليوناني (بيزنطة) الذين احتفظوا بالاسم الأكثر قدماً وهو الأرثوذكسية.

(٢) هذا أمر نسبي، ف"أريوس" الموحد استخدم الكلمة نفسها في وصف كنيسة التوحيد، واعتبر تأليه المسيح عليه السلام، وتثليث الله تعالى من الحركات الهرطقية الخارجة عن الكنيسة الجامعة أو العالمية. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) الأرثوذكسية اللاخليدونية.

(٤) أسست الأولى والثانية في مجمع نيقية سنة ٣٢٥، أما الثالثة فقد أسست في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١، الذي جعل منها كياناً إقليمياً وقانونياً. ومع أنها كانت الكرسي الرسولي الأول بعد رفع المسيح عليه السلام، إلا أنها سرعان ما اندثرت، ثم أصبحت كنيسة رومه بعد ذلك تابعة لكرسي أنطاكية.

- إن فضل وأقدمية كرسي رومه الرسولي هو من البدهيات التي ليس هناك داعٍ لمناقشتها أصلاً، فمؤسسه هو بطرس^(١) رئيس الرسل، وقد أسسها سنة ٤٢م، أي قبل المجامع المسكونية بثلاثة قرون، وقد بقي يرأسها مدة ٢٥ سنة حتى عام ٦٧م^(٢) وهو من قال له الرب يسوع: "وأنا أقول لك أنت الصخرة، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها".

- كنيسة أنطاكية أيضاً تتسبب تأسيسها إلى بطرس الرسول.

- حتى إن كان ذلك صحيحاً، فالمكان الذي أقام به بطرس إلى يوم استشهاده كان روما وظل إلى ذلك الوقت بطريركاً عليها وحدها.

- هم يؤكدون كذلك أنه ظل بطريركاً لأنطاكية حتى وفاته أيضاً، كما أن بعض المصادر المسيحية الأخرى تؤكد أنه مات في سجن بأورشليم وليس في روما.

- هذا محض افتراء.

- وهناك من يقول أن بولس هو مؤسس كرسي رومه وليس بطرس.

- حقاً؟! ومن أين جاؤوا بهذه الخرافة أيضاً؟

- من الإنجيل نفسه؛ فكنيسة رومه كانت أممية وليست يهودية (روا: ٥، ١٣).

وقد كان القديس بولس هو رسول الأمم (أع٢٢: ١٨، ٢١) أما القديس بطرس فهو رسول الختان (غل٢: ٧ - ٩). والمسيح اختار بولس تحديداً ليحمل اسمه أمام الأمم والملوك (أع٩: ١٥)، وبالذات إلى رومه (أع٢٣: ١١).

(١) قبل أن يسميه المسيح عليه السلام بـ"صخر" (بطرس)، كان اسمه "سمعان" (شمعون).

(٢) إن المعلومات الواردة في أعمال الرسل تشكك كثيراً في هذه التواريخ، ولكن من المؤكد أن بطرس قد حضر إلى روما، وقد يكون أسس كنيسة هناك فعلاً قبل استشهاده. ويجدر التنبيه هنا إلى أن التقليد الكنسي لكنيسة أنطاكية يعتبر أن بطرس قد أسس أول كرسي أسقفي له فيها عام ٣٤م! وبقي هناك سبع سنوات حتى عام ٤١م، وأنه ظل أسقفاً على أنطاكية حتى تاريخ استشهاده في روما عام ٦٧م!

- لكن الإنجيل نفسه يقول أيضاً إن القديس بطرس قد عمد "كرنيليوس" قائد المئة الأممي. وكما ترى فإنه من ثم صار رسول الأمم أيضاً.
- هذه كانت حادثة فردية وقعت سنة ٤٠م تقريباً، ولكن الاختصاص قد تحدد وتأيد في جانب بولس فيما بعد بواسطة مجمع الكنيسة في أورشليم (غل ٢: ٧ - ٩).
- هذا لا يعني أن القديس بطرس لم يكرز في رومه.
- ولكن الكتاب يقول إن بولس اعتمد في كرازته على مبدأ واضح، وهو أنه لا يكرز في مكان كرز فيه آخر: "كنت متحزماً أن أبشر هكذا. ليس حيث سمي المسيح. لثلاثي أبني على أساس لآخر" (رو ١٥: ٢٠)، بل إن بولس أقر هذا المبدأ بالذات في رسالته إلى رومه، مما يدل على أن أحداً من الرسل لم يذهب إلى تلك المدينة ويبشرها قبله. وكان بولس يشتهي تبشير أهل رومه (روا: ١١، ١٥) وذهب إليها بالفعل، واستأجر بيتاً هناك يكرز فيه ويقبل كل الذين يدخلون إليه، مدة سنتين كاملتين (أع ٢٨: ٣٠)، وهذا دليل أكيد أن بطرس لم يكن قد ذهب إلى رومه حتى ذلك الوقت، ولم يكن موجوداً بها في تلك الفترة؛ أي بين سنتي ٦١ - ٦٣ م.
- ليس بالضرورة.
- الإصحاح السادس عشر من رسالة بولس إلى أهل رومه حافل بعدد كبير من أسماء المسيحيين الرومان (يهوداً وأمميين) يبعث إليهم بولس بتحياته الحارة وتقديره، ولم يكن بطرس بينهم! كما أن هذه الرسالة تشعرنا بأنه حتى وقت كتابتها سنة ٥٨، لم تكن هناك أي كنيسة مؤسسة من هيئة رسولية في رومه، فهو يوجهها إلى "جميع الموجودين في رومه أحياء الله مدعوين قديسين" (روا: ٧).
- أنت تحاول التشكيك في أمر قد أجمع عليه معظم المسيحيين، إن لم يكونوا كلهم.

- ربما أجمعوا على ذلك فعلاً، ولكن مع هذا فلا توجد أي إشارة في أسفار العهد الجديد، ولو من بعيد، لكرازة بطرس في رومه! في حين ثبت أن بولس وصل إلى هناك وأقام كارازاً بها (أع ٢٨: ١٦، ٣٠، ٣١). وبعد ثلاثة أيام من وصوله إلى رومية سنة ٦١م، استدعى وجوه اليهود وحدثهم عن المسيح رجاء إسرائيل. وجاءت إجابتهم أنهم لا يعرفون شيئاً عن المسيحية " لكننا نستحسن أن نسمع منك ماذا ترى، لأنه معلوم عندنا من جهة هذا المذهب أنه يقاوم في كل مكان" (أع ٢٨: ٢٠، ٢٢). وهذا يعني أن أحداً لم يبشروهم قبله، وبمعنى آخر لم تكن هناك كنيسة في رومه حتى ذلك الوقت. وقد كان ذلك سنة ٦١م! فأين كانت إذن كرازة بطرس في رومه^(١)!!!

- لقد ذهب القديس بطرس إلى روما سنة ٤٢، وهذه معلومة لا تقبل الجدل، ليس في المصادر الكاثوليكية فقط، بل التاريخ نفسه يحدثنا كيف صلبه الإمبراطور "تيرون" هناك، والصرح البابوي مبني فوق ضريحه. وهكذا فلا يستطيع أي أحد أن ينتقص من فضل الكرسي الرسولي في رومه. وكيفيك أن تقرأ التاريخ لترى أن البلاد التي تشملها السلطة البطريركية لتلك الكراسي الثلاث التي أشرت إليها^(٢) قد سقطت الواحدة تلو الأخرى على يد الجيوش المحمدية المحتلة، في السنوات الأولى بعد ظهور دينهم الوثني.

- ولكن البطارقة ظلوا في كراسيهم بفضل تسامح المسلمين.

- أجل، ولكن مجد المسيحية قد زال من تلك الأقاليم، وكانت المسيحية الباقية فيها مسيحية مارقة قومية، وسلطات كهنوتية مستقلة تمام الاستقلال عن كل من القسطنطينية ورومه، ويتلاعب بها المحمديون. وبعد عدة قرون، سقطت القسطنطينية

(١) الغريب أن السفر نفسه ذكر أن الملك قد طرد كل اليهود من روما قبل هذه الحادثة بفترة (أعمال ١٨ : ٢)،

فمن أين جاء كل هؤلاء اليهود!؟

(٢) الإسكندرية، أنطاكية وأورشليم.

نفسها بأيدي المحمدين، وجعلوها عاصمة الخلافة. وتسمت بـ"إسلام بول" أي مدينة الإسلام^(١)، وهكذا فلم تبق أي من الكنائس الخمس الكبرى^(٢) حرة تدافع عن الإيمان المسيحي وتحمل لواءه إلا الكرسي الرسولي في رومه. وهذا بحد ذاته دليل قوي على أهمية هذه الكنيسة عند الرب يسوع الذي لم يسمح بأن تقع هي الأخرى فريسة للهمجين.

- هل تلمح إلى أن المسلمين كانوا وراء الطائفية المسيحية وتفرق الكنائس؟!!!
- قل لي أنت؟ لقد صار الشرق كله يخضع لسلطة واحدة، سلطة السلطان العثماني، الذي عرف كيف يستفيد من الوضع القائم كلّ الإفادة. فلم يكتفِ بجعل القسطنطينية عاصمة سياسية للإسلام فحسب، بل أيضاً عاصمة دينية مسيحية للشرق، أسوة برومه عاصمة الغرب الدينية. وطُلب من البطريرك المسكوني أن يشمل بسلطانه رؤساء الدين الملكيّن. فصار تثبيتهم -وأحياناً انتخابهم- يخضعان لسلطة "الفتار"^(٣). وأسّرت السلطات الكنسية في الشرق، فتهلّنت تماماً^(٤)؛ فمنذ سنة ١٥٢٤ حتّى أيامنا هذه، لا تزال كلّ كراسيها الأسقفية بيد اليونانيين. وهكذا قطعت تلك البطريركيات كلّ علاقة تربطها برومه، وسلّكوا طريق الشقاق. ولكن الهلينية لم تتمكّن من بطريركية أنطاكية، لأن بطاركتها كانوا يُنتخبون من سكّان البلاد الأصليين، الذين استطاعوا أن يحافظوا على علاقتهم الأصلية برومه.
- ولكن أغلب بطاركة أنطاكية كانوا تابعين لكرسي القسطنطينية لا كرسي رومه.

(١) يقصد إسطنبول.

(٢) الإسكندرية، أنطاكية، أورشليم، القسطنطينية، ورومه.

(٣) مقاطعة "الفتار" من إسطنبول، حيث يقع مقر بطريرك القسطنطينية، الزعيم الروحي للكنيسة الأرثوذكسية.

(٤) نسبة إلى الثقافة الهلينية (اليونانية).

- إن عقيدة البطريركيّة الأنطاكيّة لم تتبدّل في جوهرها، وإن وُجد على رأسها أحياناً بعض البطارقة الذين ظهروا أكثر ميلاً إلى القسطنطينية من ميلهم إلى رومه. ومن الثابت أنّ الكنيسة، ليست فقط من يتولّى رئاستها، فهي أيضاً تحيا وتبقى بأساقفتها وإكليروسها ومؤمنيها؛ فالمؤمنون يحملون في ذاتهم معنى الحقيقة، وغريزة تمكّنهم من الاهتداء إليها. فإذا كان البابا هونوريوس الأول مثلاً، قد تعطّف نحو التوحيد، فهل يجوز لنا أن نقول بأن كنيسة الغرب قد اعتنقت هذه الهرطقة^(١)؟

- إذن تريدون القول أن الشركة بين رومه وأنطاكية كانت مزدهرة منذ البداية؟
- أجل، ولكن فيما بعد صار ينظر إلى تلك الشركة بمنظورين مختلفين، فصاعت الهوية أو الشخصية الأنطاكية، واتّجهت جماعة من مؤمنيها نحو بيزنطة، فانقلبت بيزنطيّة أكثر منها أنطاكيّة. كما اتّجهت جماعة أخرى نحو رومه فأقامت معها علاقات على حساب أمانتها لمعتقد الكنيسة المحليّة. وعند وفاة البطريرك "طاناس"، سنة ١٧٢٤، انتُخب على أنطاكية بطريركان، أحدهما أرثوذكسي والآخر كاثوليكيّ. وبقي الحال هكذا حتّى أيامنا. إن سنة ١٧٢٤، هي سنة مشؤومة: سلطتان كنسيّتان متوازيتان، طائفتان شقيقتان تتمزّقان، على مرأى من عين المحمدين الميامين، الذين هبّوا يمنحون الكرسي البطريركيّ والأسقفيات، لمن يُجزل لهم العطاء. ولم يغب الشهداء والمجاهرون بإيمانهم، في تلك الفترة، عن الطائفتين. وراحت كلّ من الكنيستين، تسلك سبيلاً متباعداً عن الأخرى. وبذلك صار عندنا الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة الأرثوذكسيّة.

(١) جاءت هذه العبارة حرفياً على الموقع الديني الكاثوليكي :

<http://www.opuslibani.org.lb/opusliarabe%5Csynodearabe%5Cmelkite%5Chistoire.htm>

وهي كما نرى اعتراف دامغ بتوحيد البابا هونوريوس الأول، بما يؤكّد ما ذهبنا وسنذهب إليه.

- وماذا عن الأقباط، وبقية الأرثوذكس الذين احتفظوا على مر تاريخهم بمسافة فاصلة، تصل إلى القطيعة والتكفير، مع كنيسة رومه، حتى من قبل ظهور الإسلام؟! الشيطان دائماً يجد وسيلة ما لمهاجمة الإيمان القويم، وقبل أن يخترع الإسلام، أوحى ببدع كثيرة مشابهة. وكما ترى فإن أعداداً متزايدة من المسيحيين قد بدؤوا بإدراك ذلك. وبالفعل، عاد قسم منهم إلى الأصل.

- بالتأكيد هناك أسباب أخرى دفعتهم إلى الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية غير العودة إلى الأصل! أليس كذلك؟

- في مرحلة أولى، جاءت الإرساليات^(١) إلى الشرق، وتجنّد أفرادها في خدمة السلطة الكنسيّة المحليّة، وتعاونوا معها. وراح رعاة كثيرون، لا يقيمون علاقات مع رومه، يشجّعون أبناءهم على التعامل مع المرسلين. وكان الشعب يتوق إلى وعي أكثر عمقاً، للإيمان الذي يعيشه، رغم ألف سنة من القمع المحمدي والإكراه، وتمنّى أن يجد كلّ ذلك عند الرهبان المثقّفين أكثر من إكليروسه، فالإيمان واحد والعقيدة واحدة. ليس هذا ما عنيته.

- أعرف. بالتأكيد ساهمت سُمعة الثقافة الغربيّة وشهرتها وحضارتها، في جذب بعض الجماعات وجعلتها تتقبّل اللتنة^(٢) برضا. وهكذا، وبعد مئات السنين، بدأنا نلاحظ أسلوباً جديداً في فقه الإيمان التقليديّ.

- ولكنّ تصرف هؤلاء "الكاثوليك" الجدد، رآه البعض خيانة وتحولاً عن إيمان الأجداد.

- هذا في نظر جماعة مشدودة إلى ماضيها ومتعلّقة به رغم كل سلبياته.

(١) اليسوعيّة، الكبوشيّة، والرهبان الكرمليون والفرنسيسكان وغيرهم.
(٢) نسبة إلى اللاتينية (الغرب) مقابل الهلنتنة نسبة إلى الهيلينية أي اليونانية (الشرق). والمقصود هنا الكاثوليكية الغربية مقابل الأرثوذكسية الشرقية.

- كيف بدأ الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية؟

- منذ أن أسس أول إمبراطور مسيحي، أي "قسطنطين الأول"^(١)، مدينة القسطنطينية (رومه الجديدة)، وبنى فيها كنيستها "أجا صوفيا" وجعلها تلي كنيسة رومه القديمة في المكانة، قام التنافس بين الكنيستين في السيطرة على العالم المسيحي، الذي استمر إلى أن تم الانفصال الإداري بينهما بعد مجمع القسطنطينية، ثم الانفصال الكامل عام ٨٦٩م بعد محاولة البابا "ليو التاسع" ١٠٥٤م فرض العقائد والأفكار السليمة على الشرق، فرفضها بطريرك القسطنطينية "ميخائيل كيرولأريوس"، وتفجرت بينهما الخلافات القديمة حول انبثاق روح القدس.

- وكيف خسرت الكنيسة الكاثوليكية نفوذها في الغرب نفسه؟

- في أواخر هذه الفترة اشتد الصراع بين البابوية والإمبراطورية التي عملت على تفتيت قوة البابوية ونفوذها، ونجح الملوك والأمراء أخيراً في إضعافها عن طريق تشجيع ما سمي بـ"حركات الإصلاح"، التي انتهت بتأسيس البروتستانتية (المعترضين) التي أصبحت منافساً قوياً للكنيسة في الغرب^(٢).

- إذن فالإسلام بريء من هذه الجهة على الأقل.

- ليس تماماً.

- ماذا تعني؟

- في ذلك الوقت ظهرت في أوروبا بوادر النهضة العلمية المتأثرة بحضارة المحمديين في الأندلس بعد ترجمة العلوم الإسلامية واليونانية إلى اللاتينية، وبرز

(١) هذا هو المشهور، مع أن أغلب كتب التاريخ تؤكد أن الإمبراطور فيليب "العربي" كان مسيحياً قبل الإمبراطور قسطنطين بثمانين عاماً على الأقل.

(٢) في هذه المرحلة بالذات تأسست الجمعيات الرهبانية مثل: اليسوعيون، والإخوان الفرنسيسكان، والإخوان الدومينكان، لمساعدة الكنيسة ضد حركات الخروج عليها، وإمدادها بأتباع مخلصين.

عدد من العلماء الذين أسهبوا في الحديث عن بطلان آراء الكنيسة العلمية، وبخاصة في الجغرافيا والفلك^(١)، وكان الرأي السائد في الكنيسة آنذاك أن التأثر بالكفرة، وإخضاع الكتاب المقدس للنقد يجب ألا يمر دون عقاب رادع. وكان ذلك العقاب برأيهم هو الحرق للأسف، استناداً إلى فهمهم آنذاك لما ورد في إنجيل يوحنا: "إن كان أحد لا يثبت فيّ، يطرح خارجاً كالغصن فيجف، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق". (يو ١٥: ٧).

- لقد قرأت أن الكنيسة بالغت في الرقابة على الكتب والمطبوعات لئلا يذيعوا آراء مخالفة للعقيدة الكاثوليكية، وتوسعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضدهم. وقد حكمت تلك المحاكم في الفترة من ١٤٩٩-١٤٨١م على تسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بأحكام مختلفة، كما أصدرت قرارات تحرم قراءة كتب "جاليليو" و"جيوردا نويرنو"، و"كوبرنيكوس"، وحتى "نيوتن" لمجرد قوله بقانون الجاذبية الأرضية، وتأمّر بحرق كتبهم. وقد أحرق بالفعل الكاردينال "إكيمينس" في غرناطة ثمانية آلاف كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة.

- هذا صحيح للأسف. وهو ما أعطى سنداً شعبياً، ومبرراً لقيام بعض الحركات المشبوهة، التي كانت الثورة الفرنسية أشدها خطورة. فقد أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية عام ١٧٩٠م قرارات قاصمة لظهر الكنيسة حين ألغت العصور الكنسية، وصادرت أموالها، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعين رجال الكنيسة بدلاً من البابا، بالإضافة إلى إغلاق المدارس التابعة لها، وتسريح الرهبان والراهبات. فأصدر البابا "جريجوري السادس عشر" عدة منشورات يدين

(١) جاء في مقدّمة نسخة العهد الجديد من الكتاب المقدس، دار المشرق، ط ١٣، ما نصه: "إن القارئ في عصرنا، وهو حريص على الدقة، لا ينفك يبحث عن الأحداث التي تم إثباتها والتحقق منها، يقع في حيرة أمام تلك المؤلفات (الأنجيل الأربعة وملحقاتها) التي تبدو له مفككة، يخلو تصميمها من التنسيق، ويستحيل التغلب على تناقضاتها، ولا يمكنها أن تردّ على الأسئلة التي تطرح عليها".

فيها مبادئها، لأنها تحمل مضامين تخالف الدين المسيحي. ثم جاء القانون الذي أقرته الحكومة الفرنسية ١٩٠٥م بفصل الدين عن الدولة تماماً، وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدس والكنيسة بحرية أكبر. كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يقسموا يمين الولاء والطاعة للشعب والملك والدستور المدني الجديد. وقد امتدت هذه القرارات حتى شملت كل دول أوروبا، لينتهي بذلك دور الكنيسة في السيطرة على السياسة، ولينحصر نشاطها بالوعظ والترانيم.

- ما أسس العقيدة الكاثوليكية؟

- نحن في الكنيسة الكاثوليكية نؤمن مثل باقي الكنائس الأخرى بإله واحد مثلث الأقانيم: الأب، الابن، الروح القدس، على حسب ما ورد في قانون الإيمان النيقاوي لعام ٣٢٥م. كما نؤمن بأن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد إحداهما لاهوتية، والأخرى ناسوتية. ونؤمن، على عكس الأرثوذكسية، بما أقر في مجمع القسطنطينية الرابع عام ٨٦٩م من أن الروح القدس منبثق من الأب والابن معاً. كما نؤمن بأن أقنوم الابن أقل من أقنوم الأب في الدرجة، وأن الأقانيم ما هي إلا مراحل انقلب فيها الله إلى الإنسان، ولذا فهي ذوات متميزة يساوي فيها المسيح بالأب حسب لاهوته، ولكنه دونه حسب ناسوته، كما ينص على ذلك "قانون الإيمان". ونؤمن بتجسد الله في السيد المسيح من أجل خلاص البشرية من إثم خطيئة آدم وذريته من بعده. وأنه ولد من مريم العذراء، وصلب ومات فداءً لخطايا الناس^(١)، ثم قام بعد ثلاثة أيام ليجلس على يمين

(١) في تعاليم آباء الكنيسة صلب المسيح ومات "تكفيراً عن الخطيئة الأصلية" فقط (خطيئة آدم) التي ورثها كل الناس. ولم يصلب ويقتل تكفيراً عن كل خطايا الناس كما بتنا نسمع حالياً. ويتبادر هنا سؤال بسيط، وهو: "ما دام المسيح قد مات تكفيراً عن تلك الخطيئة، فهذا يعني أن يزول العقاب الذي شمل نسل آدم وحواء ونسل الحية بسببها، مثل: أوجاع الحمل والولادة لحواء (تكوين ٤ عدد ٢) دوام العداوة بين نسل المرأة والحية، لعنة التربة التي يعتمد عليها الإنسان في حياته على الأرض (تكوين ٣ عدد ١٧ - ١٩) =

الرب ويحاسب الخلائق يوم الدينونة. كما أننا نؤمن بالأسرار السبعة^(١): ممارسة سر الاعتراف مرة واحدة في السنة، وكذلك سر تناول في عيد الفصح، ونستعمل الفطير في العشاء الرباني بدلاً من الخبز المختمر، والمعمودية، التي لا تتم بالتغطيس ثلاثاً وإنما بالسكب، وتكون من الكاهن، أو بالصبغة بدم الشهيد في سبيل الإيمان فقط. والمسح بـ "الميرون المقدس" يجوز تأخيره عن التعميد للقاصر حتى يبلغ سن الرشد. ولا يمسح بالزيت المقدس إلا لمن شارف على الموت، ونحرم الطلاق في جميع الأحوال حتى في حالات الزنا^(٢)، وبالطبع نقدر الصليب ونتخذ شعاراً، كما نقدر تماثيل الرب وأمه.

- هذا الموضوع يحيرني فعلاً، فهل لي أن أتجرأ وأسألكم عنه بشيء من التفصيل؟

- لا داعي لكل هذه المقدمة، أسأل كما شئت، وستجدي متفهماً إلى أبعد درجة.

- أشكرك يا سيدي. أنتم تركعون لتلك التماثيل وتصلون أمامها، وتجعلون الصليب مقترناً بتمثال يسوع عليه^(٣)، ولكن الرب يمنع الصلاة أمام الصليب أو التماثيل.

- نحن لا نعبد التماثيل والصلبان والصور، ولكننا نعبد الرب الذي يمثله الصليب، ونرفع من قيمة القديسين ونزيدهم شرفاً.

=عقوبة الرب للحية التي أغوت حواء بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب طوال حياتها! (تكوين ٣ عدد ١٤). ولكن الغريب أن كل هذا استمر بالطريقة نفسها إلى الآن (باستثناء أكل الحية للتراب طبعاً)!!! والأدهى أن الشيطان المتسبب بالخطيئة الأصلية نفسها، لم يعاقب معهم! إلا إذا اعتبرنا أن الشيطان هو الحية، وعليه يكون عقابه هو الزحف على الأرض فقط (لكن يبدو أنه أعفي من أكل التراب)!!!

(١) بالإضافة إلى سر ثامن تنفرد به الكاثوليكية عن الكنائس الأخرى، وهو عصمة البابا عن ارتكاب المعاصي والآثام، وأنه خليفة الرسول بطرس ونائب الرب يسوع على الأرض!!!

(٢) يذكر أن البابا يحق له إلغاء هذا التحريم لمن يريد. (كان ذلك في الماضي يكلف مبلغاً هائلاً).

(٣) ابتدأت الكنيسة الكاثوليكية بممارسة هذه الأمور عام ٧٨٨، ومنذ ذلك الحين، يوضع التمثال فوق مذابح الكنائس حيث تمارس طقوس العبادة. لمزيد من المعلومات راجع رواية الهروب إلى العاصفة، ورواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- إن اتسع لي صدرك، فاسمح لي بالقول إن هذا العذر بالذات هو ما استعمله الوثنيون؛ حين قالوا أنهم لا يعبدون الأصنام الحجرية أو المعدنية، ولكنهم يعبدون الشخص الذي تمثله هذه الأصنام. ولكن مهما تكن التعليقات النظرية من هذا النوع، فهي بنظر الرب، وبمفهوم ممارسة الناس لها، عبادة أوثان. ففي سفر الخروج إصحاح ٢٠ وعدد ٤ و٥: "لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما على الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن".

- يا بني، نحن لا نقصد العبادة عندما ننحني قليلاً أمام التماثيل أو نركع لها، كما أننا لا نسجد لها بمعنى سجود العبادة.

- ولكن مجرد عمل تلك التماثيل يحرمه الرب: "لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً، صورة مثال ما، شبه ذكر أو أنثى" (تشية ٤: ١٦)، "ملعون الإنسان الذي يصنع تمثالاً منحوتاً أو مسبوكاً رجساً لدى الرب" (تشية ٢٧: ١٥)، وبالأحرى يحرم مجرد التسبيح لها: "أنا الرب هذا اسمي، ومجدي لا أعطيه لآخر، ولا تسبيحي للمنحوتات" (إشعيا ٤٢: ٨). وفي السفر نفسه إصحاح ٤٤ وعدد ٩ يقول: "الذين يصورون صنماً كلهم باطل مشتبهاتهم لا تنفع، وشهودهم هي. لا تبصر ولا تعرف حتى تخزي"، ثم في سفر آخر يقول: "احترزوا من أن تتسوا عهد الرب إلهكم الذي قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً، صورة كل ما نهاك الرب إلهك" (تشية ٤: ٢٣).

- يبدو أنك يهودي، أو على الأقل متأثر بالعهد القديم على حساب العهد الجديد، حسب موضة الإصلاح.

- ولكن العهد الجديد ينكر ذلك أيضاً.

- حقاً؟! وكيف ذلك؟

- "أيها الأولاد احفظوا أنفسكم من الأصنام" (١ يوحنا ٥ : ٢١). "الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا" (يو ٤ : ٢٤). فالرب يطلب منا عبادة غير مقسمة ولا مجزأة.

- إف. لقد أوضحت لك أن التماثيل والصلبان ليست أصناماً، ولا علاقة لها بكل هذا الكلام، ولا أظنك تفهم ديني أكثر مني.

أدرك أبراهام حينها مقدار سعة صدر محدثه التي تباهى بها، وقرر أن يكف عن الجدل، ويكتفي بطرح الأسئلة فقط، فقال مستفسراً عن موضوع آخر يحيره:

- حسناً وماذا تعنون بـ"المطهر"؟ فقد وجدت هذا المصطلح في كتبكم جنباً إلى جنب مع الجنة والنار!

- يوجد بعد الموت مكان ثالث يسمى المطهر تعتقل فيه النفوس التي لم تصل إلى درجة النقاوة الكاملة، وتظل تعذب حتى تطهر بما بقي عليها من الدين للعدل الإلهي، وعندئذ يسمح لها بدخول الملكوت.

أراد أبراهام أن يقول أن هذا مخالف لقرارات مجمع الرسل الأول في أورشليم ٥٥-٥١م، ولكنه أمسك لسانه عن الجدل أو التعليق، وتابع أسئلته قائلاً:

- وماذا تعتقدون في الجنة؟ ما المتع الموجودة فيها؟

- الجنة مكان روحي، ولا يوجد فيها أكل ولا شرب ولا متع حسية. فذلك كله من

ادعاء المحمديين الذين يتصورونها مكاناً للجنس والخمر^(١).

(١) هذا هو المشهور بين المسيحيين بناء على التقليد، مع أن كتابهم المقدس ينفي ذلك في أكثر من موضع. ومنها ما جاء في إنجيل متى ٢٦ عدد ٩ : "وأقول لكم أنني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي". وفي الإنجيل نفسه متى ١٩ عدد ٢٩ : "وكل من ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أمماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف، ويرث الحياة الأبدية". وفي الإنجيل نفسه متى ١٠ عدد ٢٨ : "ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوا. بل خافوا بالحرى من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم". =

- لقد لاحظت أن قساوستكم غير ملتحين، فهل تؤمنون أن الالتحاء أيضاً من ابتداء المسلمين؟

فهقه القس ضاحكاً وهو يقول:

- كلا، في هذه بالذات هم أبرياء^(١).

- بماذا تتميز الكاثوليكية عن بقية الطوائف؟

- باستعمال اللغة اللاتينية^(٢) والبخور، والصور المجسمة، وبتقويمها الخاص. وهذه هي الطقوس الرومانية. وهناك من يستعمل الطقوس الشرقية مثل الروم الكاثوليك في جنوب إيطاليا، والموارنة، والسريان الذين يتبعون الطقس الأنطاكي، وهناك كاثوليك أقباط وأحباش يستمسكون بالطقس القبطي.

- وماذا عن الصلاة والصيام؟

- الصلاة الفردية أساسية، على أن للصلاة طرائق عديدة، وينبغي أن تقتزن بشيء من التنشف. والصيام المفروض هو الصوم الكبير السابق لعيد الفصح، وجعل صوم الجمعة والسبت فقط عبارة عن الانقطاع عن أكل اللحم. كما فرض أيضاً صوم الأزمنة الأربعة فيما يعرف بصوم "البارامون"^(٣)، وهي السابقة لأعياد "الميلاد"، و"العنصرة" و"انتقال العذراء" وجميع القديسين. ويوجد خلاف بين الكنيسة اللاتينية

=وفي إنجيل لوقا ٢٢ عدد ٣٠: "لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر". وفي إنجيل لوقا نفسه ١٤ عدد ١٥: "فلما سمع ذلك واحد من المتكئين قال له: طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله". وجاء في سفر الرؤيا رؤيا ٢ عدد ٧: من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنايس. من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله.

(١) يجوز للكهنة الكاثوليك والبروتستانت حلق اللحى، ولكنه لا يجوز عند كهنة الأرثوذكس المسيحيين ولا عند كهنة اليهود وحاخاماتهم.

(٢) تحرم البروتستانتية أن تقام الصلاة بلغة غير اللغة المفهومة للمتعبد كما تفعل الكنائس الأخرى التي تقيمها بلغة ميتة كاللاتينية والقبطية.

(٣) أي الاستعداد للاحتفالات.

وطوائف الكنائس الكاثوليكية الشرقية في قواعد الصوم.

- وما هو تنظيم الإكليروس عندكم؟

- البابا يدير الكنيسة بواسطة كرادلة^(١) في رومه ومطارنة في جميع أنحاء العالم. وتنقسم الكنيسة عندنا إلى أبرشيات، وعلى رأس كل أبرشية مطران يعينه البابا، وفي كل أبرشية عدة كنائس يديرها كهنة رعاة لخدمة أبناء الكنيسة.

- وأين تتركز الكاثوليكية؟

- الدول التي بها نسبة كبيرة من الكاثوليك هي: البرتغال وفرنسا وبلجيكا وجنوب هولندا وأيرلندا واسكتلندا وجنوب ألمانيا وجنوب سويسرا وإيطاليا والنمسا وسلوفينيا وكرواتيا وسلوفاكيا والتشيك وبولندا وغرب أوكرانيا ورومانيا وبعض مناطق لاتفيا ولتوانيا، وكندا الفرنسية ودول أمريكا اللاتينية والفلبين وجنوب شرق آسيا. كما توجد أقليات كاثوليكية في إنجلترا وويلز وبعض مناطق أيرلندا الشمالية، والولايات المتحدة الأمريكية، وهولندا، وبعض دول إفريقيا.

- آه، صحيح، هل يجوز حقاً للربان عندكم أن يأكلوا دهن الخنزير.

- أجل.

- بالنسبة إلى الطعام بشكل عام؛ ما هو المباح، وما هو المحرم عندكم؟

- الكاثوليكية تبيح أكل كل شيء، حتى الدم والميتة والمنخقة، فكما قال الرب يسوع: " ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه. لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تتجس الإنسان" (مرقس ٧: ٤ و١٥).

- أشكرك كثيراً على وقتك الثمين سيدي.

(١) كاردينال كانت بالأصل رتبة عسكرية وكانت لهم إقطاعيات فحصلوا على مكانة في الكنيسة تحولت إلى رتبة كنسية لا يعلوها إلا البابا نفسه.

- كلا لن تذهب الآن، فهذا وقت الغداء، وأنت لا بد منهنك من السفر وجائع.
ستبقى لتأكل معنا.
- كلا أرجوك.
- قال أبراهام بقرف، ثم تدارك قائلاً بعد أن شعر بالأسف لعدم سيطرته على ردة فعل التي كانت خالية من اللباقة تماماً:
- يشرفني ذلك كثيراً، ولكني لن أسمح لنفسي بأن أزعجك بأكثر مما فعلت،
ويكفييني الوقت الثمين الذي اقتطعته من فترة راحتك لتجيب عن أسئلتني.

التقليد الشريف

اتجه أبراهام نحو منطقة المشاة الشهيرة (شاسيه كولونيا)، وكأنه يهيم في الصحراء، فلم يكن يرى أي شيء حوله. كان يفكر فقط بمقدار الاختلاف بين الطوائف المسيحية بدرجة مربكة. فالك يروي القصة نفسها من منظوره الخاص، ويظن أنه وحده على الحق، وبعضهم يستعين بالحق الذي لا يزال في اليهودية لإثبات وجهة نظره، ولكن الشكر للرب، فعلى الأقل هم متفقون على العداء للإسلام. وفي النهاية قرر نسيان كل شيء وإعطاء نفسه الفرصة كي يروح عنها قليلاً، ويرتاح من كثرة التفكير وكثرة القراءة اللذين أجهداه فعلاً.

جلس في المقاهي الممتدة بطاولاتها على الرصيف، وتناول وجبة خفيفة، ثم أخذ يرتشف قهوته متأماً روعة وفخامة الأبنية والمحال التجارية من حوله. كان يراقب المارة الممتلئين بالنشوة، وحب الحياة. فيغبطهم تارة على سعادتهم واستمتاعهم بأوقاتهم، ويعتبر أن مثلهم من يستحق هذه الحياة فعلاً، ثم يشفق عليهم تارة أخرى، لالتفاتهم عن المعنى الحقيقي للحياة، الذي هو عبادة الرب وطاعته، ولعدم إدراكهم أنهم بذلك ينزلون إلى درك الحيوانات، التي لا همَّ لها إلا إشباع غرائزها وحاجاتها المادية.

قضى أبراهام بقية يومه في استكشاف المدينة دون أن يسمح لنفسه بالتفكير في الدين مطلقاً. وبينما كان يتابع جولته السياحية في صباح اليوم التالي، مر بجانب كنيسة بروتستانتية كبيرة، فتجاوزها مسرعاً، ولكنه لم يستطع أن يقاوم فضوله، ولا كبح رغبته في تعرف البروتستانتية، من فم أصحابها، ولا سيما أن ألمانيا هي مهدها الأول الذي انطلقت منه إلى العالم. وهكذا ضرب قراره السابق عرض الحائط،

واستدار متوجهاً نحو الكنيسة؛ فهو لن يعرف أي معنى للراحة قبل أن يصل إلى الحقيقة، ويتحرر من كل الأوهام التي تؤرقه.

- لقد قمت بجهد جبار فعلاً، وأتمنى أن أحصل على نسخة من كتابك حالما تتهيئه.
قال القس اللوثري^(١) لأبراهام، بعد أن سمع منه ملخصاً عن بحثه في المسيحية.
فأجابه بدبلوماسية، وهو يحاول إخفاء ضيقه من كثرة استفساراته التي كانت أشبه بتحقيق ضابط من الغستابو^(٢)؛

- أعدك بذلك، إن استطعت إنهاءه.

- ولماذا لا تتهيئه؟ فيبدو بأن همتك عالية في هذا المجال.

- هذا من ذوقك فقط.

- أخبرني، كيف وجدت مصر؟ يقولون أنها بلد جميل جداً.

- أجل سيدي هو في غاية الجمال والعراقة. وبالمناسبة فقد لاحظت هناك تحولاً ملحوظاً من الأقباط الأرثوذكس باتجاه دينكم مع أنهم، وحسب معرفتي المتواضعة بهم، من أكثر الناس اعتزازاً بدينهم وتقاليدهم.

- أنت محق في ذلك تماماً. ولعلوماتك الخاصة، فإن المنضمين إلينا ليسوا من

الأقباط الأرثوذكس فقط، بل من جميع "التقليديين".

- ولكن ماذا تقصد بالتقليديين سيدي؟

(١) اللوثرية طائفة بروتستانتية تنسب إلى "مارتن لوثر" وتعتبر حركة مارتن لوثر تاريخياً بداية الحركات البروتستانتية، وإن كانت قد سبقتها احتجاجات أخرى كحركة جون ويكلف (١٣٢٤-١٣٨٤م) في إنكلترا وحركة جون هوس (١٣٦٩-١٤١٥م) في تشيكيا، ولكن تلك الحركات لم تستمر طويلاً، فقد تمكنت البابوية من القضاء عليها ونعتتها بالهرطقة، فتم حرق هوس، وإخراج جثة ويكلف وحرقها.
(٢) المخابرات الألمانية أيام النازية.

- هم الذين يؤمنون بسلطان الكتاب المقدس بالإضافة إلى تعاليم الآباء، أو "التقليد الشريف"^(١) كما يسمونه، هو ما تسلموه وتداولوه خلفاً عن سلف، من العقائد والشعائر الدينية، مشافهة، مما لم يكتب في الأسفار المنزلة.

- ما هو تعليم التقليديين؟

- يتلخص تعليمهم في ثلاثة أمور: (١) رفض تعليم العقليين الذين يجعلون عقل الإنسان مصدر معرفة الحق ومقياسه، ويعتقدون أن الإيمان يجب أن يبنى على إعلان الله وشهادته، وأن الإيمان المبني على أساس بشري هو بشري فقط. (٢) يرفضون رأي الباطنيين، ويؤمنون باحتياجهم إلى إعلان إلهي مرسل إليهم من خارج نفوسهم. (٣) يعتقدون أن بعض ما أعلنه الله مكتوب، وبعضه غير مكتوب، ولذلك يشمل قانون إيمانهم الكتاب المقدس والتقليد جنباً إلى جنب. وهم يعتقدون أن الشعب لا يقدر أن يميز الكتب الإلهية عن غيرها، ولا الصالح أو الطالح من التقليدات (التقليد الكنسي)، ولا أن يفسر الكتاب، لذلك أقام الله له الكنيسة معلمة معصومة، وهي تحكم في كل ذلك حكماً قاطعاً معصوماً.

- وما الذي تعترضون عليه في ذلك؟

- كل شيء^(٢).

- وما الذي توافقونهم عليه من تعاليمهم الأخرى؟

(١) وهو ما يستمد منه أغلب العقائد المسيحية رغم عدم وجود أي ذكر لها في الكتاب المقدس . ومن أمثلة ذلك عطلة يوم الأحد ومعمودية الأطفال وغيرها .

(٢) رغم انتقاد البروتستانت للتقليد الشريف، ومحاولتهم الدؤوب لعدم جعله مصدراً أساسياً للتشريع، إلا أن الكثير من عقائدهم أيضاً يستند إليه دون غيره، وإن كان يفهم مختلف عن بقية الكنائس . يذكر أن أغلب العقائد المسيحية الحالية ترجع إلى التقليد، وليس لها نص صريح في الكتاب المقدس كالتثليث والكهنوت والقداس والحبل بمرم العذراء نفسها بلا دنس، والأسرار وغيرها مما يعتبر أساس العقيدة المسيحية الحالية .

- أن الكتاب المقدس موحى به بسلطان الله وإلهام روحه^(١)، وأنهم يقرون بقانونية جميع الأسفار التي نعتقد بقانونيتها.
- وأنتم، هل تقررون بقانونية جميع الأسفار التي يعتقدون هم بقانونيتها؟
- كلا بالطبع، فهم يعتقدون بقانونية بعض "أسفار الأبوكريفا"^(٢).
- وأنتم لماذا لا تعتقدون بقانونيتها؟
- لقد اعتبرها اليهود كتب قراءة، لا كتباً مقدسة. ولما كان اليهود هم حفظة الكتب الإلهية، ومنهم أخذ الجميع، فكلامهم في مثل هذه القضية هو المعوّل عليه.
- وماذا تأخذون على التقليديين أيضاً؟
- زعمهم أن بعض التعاليم الضرورية ليست واضحة في الكتاب المقدس بما فيه الكفاية، وبعضها جاء فيه تلميحاً فقط، وبعضها لا وجود له مطلقاً فيه. كما أنهم يعتقدون أن الكتاب المقدس صعب ومبهم، ولا يمكن فهمه بدون مفسر منظور معصوم من الخطأ، وهو عندهم الكنيسة فقط، والبابا تحديداً.
-
- (١) بعد اكتشاف الكثير من الأخطاء في الكتاب المقدس، والتي لا يمكن أن تكون من فعل الله بالتأكيد، نشأ مفهوم جديد للإيحاء في المسيحية. وهو يتلخص في أن الله لم ينزل كتاباً بكلمته مباشرة، ولكن الروح القدس (أحد أقانيم الله الثلاثة عندهم) حل على الأنبياء وألهم كلاً منهم لكتابة كلمة الله بأسلوبه الخاص، ووفق خلفيته وثقافة عصره. وقد ظن الأحرار أنهم استطاعوا بذلك أن يبرروا أخطاء الكتاب المقدس، وفي الوقت نفسه لا يلغون نسبتهم إلى الله!!!
- (٢) Apocrypha هي كلمة يونانية تعني حرفياً "الخفي" أي الكتب الخفية (أو السرية) التي تشمل حقائق عميقة غامضة لا يمكن أن يفهمها أو يدرك كنهها إلا قلة من الخاصة، ولذلك بقيت مخفية عن العامة. ثم تطور المعنى إلى الكتب المنحولة دون أن تتغير الكلمة، (مع أن الكتب المنحولة هي سيودايبجرافا Pseudepigrapha) وصار يقصد بها هنا الأسفار المختلف عليها بين الكاثوليك والبروتستانت. وجدير بالذكر أن لوثر وأتباعه حذفوا آنذاك أسفاراً أخرى من العهد الجديد مثل سفر الأعمال ورسالة يعقوب، وقيل أنهم حذفوا أيضاً سفر الرؤيا. غير أنهم أعادوا تلك الأسفار إلى الكتاب المقدس ثانية بعد المعارضة التي واجهوها بسبب ذلك. ومن أقوال لوثر الشهيرة: "إنني أقول بدون فخر أنه منذ ألف سنة لم ينظف الكتاب أحسن تنظيف (حذف الأسفار التي يعتبرها مزيفة، أي الأبوكريفا) ولم يفسر أحسن تفسير ولم يدرك أحسن إدراك أكثر مما نظفته وفسرته وأدركته".

- وما الجديد الذي تقدمونه في ذلك؟

- نحن نعتقد أن جميع المؤمنين يمكنهم أن يفهموا من الكتاب، بإرشاد الروح القدس. وهو كل ما يحتاجونه لخلاصهم، لأنه منزل لكل إنسان، وأن لهم الحق أن يقرؤوه بأنفسهم، ويبحثوا عن معناه الحقيقي، دون الحاجة إلى التقليد، بل يجب أن يفعلوا هذا^(١).

- و لماذا يعتبر التقليديون أصلاً، أنهم بحاجة إلى التقليد؟

- هم يعتبرونه إعلانات الله، ويظنون أنهم عن طريقه يثبتون بعض الأمور.

- مثل ماذا؟

- مثل: (١) قانونية الأسفار.

- اعذرني للمقاطعة أرجوك، ولكن هل هذا يعني أن إثبات قانونية الأسفار ليس

له سند إلا من شهادة التقليد؟

- كلا، مطلقاً. فإن قانونية كل سفر من الأسفار المقدسة مسندة بأدلة كافية

كثيرة، منها شهادة أهل القرون الأولى للكنيسة المسيحية، الذين كانت لهم وسائل تحقق ذلك^(٢).

- حسناً، وماذا أيضاً؟

- (١) قانونية الأسفار. (٢) إلهام كاتبيها. (٣) تعليم التثليث. (٤) التعليم عن الروح

القدس. (٥) معمودية الأطفال. (٦) إبدال السبت بالأحد. (٧) درجات الإكليروس. (٨)

(١) عملياً، فإن البروتستانت أيضاً لا يعتبرون أن الكتاب المقدس فيه "كل" ما يحتاجون للخلاص.

(٢) في الواقع فإن اختيار شهادات بعينها دون أخرى يدخل أيضاً في نطاق التقليد الذي على أساسه اختارت الجامعات المسكونية أي الأسفار تعتبر قانونية وأبها يجب رفضه ومن ثم حرقه وتحريم تداوله. وللزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

رياسة الأساقفة. ٩) دوام الرسولية. ١٠) حلول الروح القدس عند رسامة رجال الدين.
 (١١) أن العشاء الرباني ذبيحة. ١٢) الأسرار السبعة. ١٣) المطهر^(١).

- وما الشروط اللازمة لقبول تقليد ما على أنه جزء من إعلانات الرب؟

- هناك شرطان لذلك؛ الأول أن يتضمن التعليم التقليدي حقاً معلناً من الله خلاص الإنسان أو إرشاده فيما يؤول لخلاصه. والثاني أن يكون صحيحاً في نفسه، وأن يكون الإيمان به ضرورياً. ولكن إذا راجعت الأمور الثلاثة عشر التي أوردتها قبل قليل، فلن ترى أي واحد منها وقد اجتمع فيه هذان الشرطان معاً. فهي إما ليست من الحقائق الإلهية المعلنة لخلاص البشر، أو أنها غير صحيحة في نفسها، أو أنها موجودة في الكتاب المقدس فعلاً حسب التفسير الصحيح له. وهكذا فإذا فحصت جميع تلك القضايا لا ترى لها لزوماً. وإذا رأيت لزومها ترى أنها مبرهنة بالبراهين الكافية من الكتاب نفسه. فالكتاب المقدس بعهديه هو القانون الوحيد المعصوم للإيمان والعمل.

- ماذا تقصدون بذلك بالضبط؟

- أقصد أن الكتاب المقدس يتضمن جميع ما شاء الله أن يعلنه للبشر من الأوامر والنواهي والتعاليم. ولما كان هو الكتاب الوحيد المكتوب الموحى به من الله، والذي يتضمن كل ذلك، فإنه هو القانون أو الدستور الوحيد للبشر للإيمان والعمل. أما التقليديون فيعتقدون أن القانون المعصوم يشمل الكتاب المقدس، وأسفار الأبوكريفا، والتقاليد التي يقولون إنها تعاليم غير مكتوبة تسلموها من المسيح والرسول، وتداولوها خلفاً عن سلف، وأنها لازمة لأنها تعلمهم أشياء كثيرة ليست في الكتاب المقدس، ولأنها توضح معاني الكتاب المقدس وتفسره التفسير الصحيح!!!

- ما التقليد في نظر الكتاب المقدس.

(١) من هذه الأمثلة على تعاليم الآباء (التقليد الشريف) نجد أن نصيبها في تشكيل العقيدة المسيحية الحالية يضاهي نصيب الكتاب المقدس الذي يعتمدونه، بل إن اعتماد ذلك الكتاب نفسه هو أحد نتائج تعاليم الآباء وليس العكس!!!

- التقليد هو تسليم أمر أو قول من واحد لآخر. وهو أيضاً الشيء أو الخبر المنقول أو المسلم. وجاءت في العهد الجديد بثلاثة معان: التعاليم المنقولة من واحد إلى آخر، سواء نقلت شفاهاً أم كتابة كما في (٢تس ٢: ١٥)، والتعاليم أو الأخبار المنقولة شفاهاً عن الآباء جيلاً بعد آخر والمحسوبة عند البعض ذات سلطان، مثل تقاليد الفريسيين التي ذكرها المسيح^(١)، سواء ما دون منها في الكتاب المقدس، أو ما كان متداولاً شفاهاً بين اليهود. ومن أمثلة ذلك قول بولس: "إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي" (غل ١: ١٤)^(٢).

- إذن فقد كان هناك شيء اسمه "تقليد" في الكنيسة الأولى؟

- لقد كانت هذه التسمية موجودة ومتداولة بينهم فعلاً، ولكن ليس كما هي اليوم عند التقليديين، فقد أطلقت الكنيسة الأولى هذه التسمية على كل ما وصل إليها من التعاليم الإلهية من المسيح ورسله وأخبار اليهود، سواء كان كتابة أم شفاهاً، لأنها لم تكن تملك حينئذ تعاليم مكتوبة من الرسل، إلا رسائل لبعض الكنائس. فلما جمعت أسفار العهد الجديد في منتصف القرن الثاني تقريباً^(٣) وصارت قانوناً كاملاً للمسيحيين، أشار إليها الآباء بلفظ "تقليدات" أي التعاليم المنقولة عن المسيح ورسله. كما سماوا الأناجيل الأربعة نفسها "التقاليد الإنجيلية"، وسماوا الرسائل "التقاليد الرسولية"^(٤).

(١) المنشأ أو نواة ما بات يعرف لاحقاً بالتلمود.

(٢) كان بولس يهودياً فريسياً قبل أن يدعو إلى المسيحية.

(٣) وجمعت أسفار أخرى أيضاً في ذلك الزمان. أما إقرار هذه المجموعة بالذات فقد اعتمد رسمياً في منتصف القرن الرابع، ومع هذا فقد خضعت تلك المجموعة نفسها إلى إضافة أو استبعاد بعض أسفارها حتى أخذت شكلها النهائي الذي وصلنا. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه قبل قليل.

(٤) هاتان التسميتان توحيان أن ما اصطلاح على تسميته بالأناجيل الأربعة كانت تقليدات إنجيلية وليس كلمة الله أي إنجيل المسيح نفسه (مثل التفسير أو الدراسات القرآنية أو السيرة عندنا). وكذلك الأعمال والرسائل والرؤيا كانت تعتبر تقليدات رسولية وليست التعاليم التي نقلها تلاميذ المسيح عليه السلام عنه مباشرة. (مثل سير وفتاوي الصحابة والتابعين عندنا). راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

لأنه إلى ذلك الوقت لم يحدث ما يحملهم على التمييز بين التعاليم المكتوبة وغير المكتوبة^(١)، ولكن بعد ذلك العصر حدثت مباحثات ومجادلات كثيرة حملتهم على التمييز بين التقاليد المكتوبة (الكتابية) وهي أسفار العهد الجديد القانونية^(٢)، وبين التقاليد غير المكتوبة، فقبلوا القانون المكتوب وأهملوا التقاليد غير المكتوبة^(٣).

- وما هو تعليم التقليديين في شأن التقليد؟

- تعليمهم هو: أن المسيح ورسله علموا أموراً كثيرة غير مكتوبة في الكتاب المقدس، وهذا صحيح. وأن التعاليم المسماة بالتقليد كانت تسلم من جيل لآخر قرناً بعد قرن، وأنها جزء من قانون الإيمان لكل المؤمنين. كما أنهم يقولون أن تلك التقاليد، مع أنها غير مكتوبة^(٤)، كانت محفوظة في مؤلفات الآباء وقوانين المجامع وسجلات الكنيسة، وأنها تعالج وصايا وتعاليم وطقوساً وفرائض وغيرها، لم تذكر في الكتاب، وتهتم بتفسير أمور مذكورة فيه، ومن ثم فإنها تستحق نفس ما يستحقه الكتاب من الاعتبار، لأن مصدرهما واحد. وهم يميزون صحيحها من كاذبها حسب قدمه

(١) أو ربما كانوا يميزين تماماً، لأن تلك الرسائل والمواظ كانت تقليدات بكل المقاييس. أي إنها كانت تعتبر تعاليم غير مكتوبة (ليست من الكتاب) أي غير منزلة، في حين كانت التعاليم المكتوبة أو المنزلة هي الإنجيل الحقيقي إنجيل عيسى عليه السلام. ومع تقادم الزمن وفقدان الإنجيل الأصلي لعيسى، تم إنكار وجوده أصلاً، وصارت التقاليد الإنجيلية أنجيل، وجمعت مع التقاليد الرسولية لتشكّل ما بات يعرف بـ "العهد الجديد". والله أعلم.

(٢) أي التي اعتبروها، لسبب أو لآخر، غير كتابية. وهي كتب أخرى تتضمن "السيرة" و"المواظ". و"التعاليم وتفسيرها" وتحوي الكثير من آيات الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام. وبعضها كان ذا حظ أوفر من جهة السند أو تاريخ التدوين أو حتى من جهة شيوعها بين عموم المسيحيين كما سنرى في رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) ظاهراً فقط، أما عقائدهم الرئيسية فلا تزال تستند إليها أكثر من غيرها. ولا مناص لهم عن ذلك، فالعهد الجديد بمجملة عبارة عن سيرة ومواظ فقط، ولا يحوي الكثير من الأحكام والأوامر والنواهي، والشعائر والتعاليم. وهذه موجودة في التقليد بالذات. كما أن التقليد يحوي الكثير مما لم يذكر في الأسفار المعتمدة أصلاً كالولادة الإعجازية للمسح عليه السلام من عذراء مثلاً. ولكن المشكلة في التقليد هي عدم حفظه بشكل محدد، فتعرض بمرور الوقت إلى الزيادة والحذف والتأثر بالثقافات والأديان الأخرى أكثر من أسفار العهد القديم نفسها.

(٤) أي غير معتمدة في كتابهم المقدس أو غير منزلة.

وعوممه! وخاصة من شهادة الكنيسة التي كل من يرفضها عندهم يهلك. وبالإجمال كل ما تقول الكنيسة إنه جزء من الوحي يجب قبوله بدون اعتراض.

- إلامَ استند التقليديون ليثبتوا سلطان التقليد؟

- إلى أن الكتاب المقدس أشار إليه حسب زعمهم في (٢تس ٢: ١٥ و ٢: ٦)، وأن الآباء الأولين صدقوا سلطانه وأسسوا إيمانهم عليه، وأنه عند معرفة سلطان التعليم الشفهي للمسيح والرسول، نجده مماثلاً لسلطان تعليمهم المكتوب، وأنه من ينكر ذلك فليس من المسيحيين في شيء. كما أنهم يرون التقليد ضرورياً لأمرين: أولهما لأن الكتاب المقدس مبهم والتقليد يفسره، والثاني لأن الكتاب المقدس ناقص كقانون للإيمان والعمل، لعدم وجود تعاليم وفرائض ضرورية فيه، وأن التقليد يكمله. وهم يعتبرون أن شرائع البشر منها ما هو مكتوب ومنها ما هو غير مكتوب ولكنه مسلم به عند الجميع. ولما كانت الشريعة الإلهية من جملة الشرائع، لزم أن يكون بعضها مكتوباً وبعضها غير مكتوب!!!

- وأنتم كيف تردون على كل ذلك؟

- بتحكيم العقل والمنطق. فصحيح أنه قد ورد لفظ تقاليد في كلام بولس لأهل تسالونيكي (٢تس ٢: ١٥ و ٢: ٦)، ولكن كل من يتأمل كلمات بولس يجد أن المقصود بها "كل ما علمهم إياه شفاهاً وكتابةً" لا غير. هذا فضلاً عن عدم وجود أمر في الكتاب المقدس بقبول التقاليدات واعتبارها جزءاً من الإيمان. ونتيجة لذلك فإننا لا نحتاج إلى غير ما جاء بالكتاب المقدس (٢تي ٣: ١٧-١٥).

- قيل ذلك عن أسفار العهد القديم.

- ولكنه يصح على العهد الجديد أيضاً. وكذلك القول: "لا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه، لكي تحفظوا وصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها" (٢ت ٤: ١، ٢).



- بالطبع هذا صحيح، فكيف لم أفكر به مسبقاً؟

قال أبراهام متمتماً وهو يفكر بالتلمود، فسأله القس مستفسراً:

- عفواً، لم أسمعك جيداً.

- كنت أقول أن ذلك منطقي فعلاً.

- تماماً. وليس هذا فحسب بل "لأنني أشهد لكل من يسمع أقوال نبوة هذا

الكتاب: إن كان أحد يزيد على هذا يزيد الله عليه الضربات المكتوبة في هذا الكتاب.

وإن كان أحد يحذف من أقوال كتاب هذه النبوة يحذف الله نصيبه من سفر الحياة،

ومن المدينة المقدسة، ومن المكتوب في هذا الكتاب" (رؤ ٢٢: ١٨، ١٩)^(١). وهكذا فلما

كان الكتاب يشهد لنفسه أنه يتضمن إعلانات الله، ولا يرشدنا إلى مصدر آخر غيره،

فلا داعي لقبول غيره ولا لزوم لذلك. وقول التقليديين إن تعليم الإنجيل في زمان

(١) ما داموا مؤمنين بذلك فعلاً، فلم لا تزال عملية الحذف مستمرة إلى الآن؟! ولعل أهم الأمثلة هو حذف

نصوص كاملة مثل حذف نص التثليث الذي جاء في (١ يوحنا ٥: ٧-٨)، من ترجمة العالم الجديد ومن

ترجمة الكاثوليك العربية المسماة بالرهبانية اليسوعية. وفي عام ١٩٥٢م أصدرت لجنة تنقيح الكتاب

المقدس نسخة (R. S. V)، النسخة القياسية المراجعة، وكان هذا النص أيضاً ضمن ما حذفه المنقحون

لعدم وجوده في أقدم النسخ التي تم اكتشافها مؤخراً. (هذا التنقيح لم يسر على مختلف تراجم الإنجيل

العالمية)، وكذلك تم حذف نصوص أكبر بكثير مثل ما جاء في مرقس (١٦: ٩-٢٠)؛ فقد ذكر "جورج

بوست" في قاموس الكتاب المقدس أنها لم تكن في الكتب القديمة، لذا فهي الآن موجودة في بعض

النسخ دون الأخرى. كما تم حذف عبارات صغيرة مثل: وكان هؤلاء أشرف (الذين في بيرية) من الذين

في تسالونيكي، فقبلوا كلمة الله بكل نشاط فاحصين الكتب كل يوم، هل هذه الأمور هكذا؟" (أع ١٧:

١١)، و"إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثيما (أي محروماً)" (غلا ١:

٨)، وغير ذلك الكثير مثل: (مز ١٩: ٧، ورو ١٥: ٤، ولو ١٦: ٢٩، ويو ٣٩: ٦، وتث ٧: ٧، وإش

٣٤: ١٦، و٢بط ١: ١٩، ويوحنا ٧: ٥٣، ويوحنا ٨: ١١-١١، ومتى ٢١: ١٧... إلخ. فهل يعني

كل ذلك أن الله قد حذف نصيب المنقحين من سفر الحياة والمدينة المقدسة؟ وإذا كان المنقحون قد طهروا

الكتاب من زيادات أقحمت فيه، فهل يعني هذا أن الله سيزيد الضربات على آباء الكنيسة الذين قاموا

بهذه الزيادات وسلموها لهم، طبقاً لبداية النص نفسه: "وأنا أنذر كل من يسمع الأقوال النبوية في هذا

الكتاب أن لا يزيد عليها "حرفاً" وإلا زاده الله من الضربات الموصوفة في هذا الكتاب" (رؤ ٢٢: ١٨).

الرسل كان شفاهاً لا يبرر تعليمهم بالتقليد، فقد قصد الله أن يكون الدستور الأبدي للإيمان محفوظاً كتابةً وغير متروك للنقل الشفهي. وفي هذا تظهر حكمة الله ورحمته للبشر، ثم لا تنس أن في الكتاب ما يدل على وجوب رفض التقاليد، فقد وبخ المسيح الفريسيين لأنهم اتكلوا عليها: "ولماذا تخالفون وصية الله من أجل تقاليدكم؟" (مت ١٥: ٣). لذلك فلا نظن أن الله يزيد التقاليد على الكتاب المقدس لتكون جزءاً ضرورياً من قانون الإيمان، لأن الكتاب صحيح وكامل وواضح، وتعاليمه محققة، بخلاف التقاليد الشفهية، التي هي عرضة للتغيير والتحريف.

- هل يعني ذلك أنكم ترفضون التقاليد جملةً وتفصيلاً؟

- أجل.

- ولكنكم قبلتم عيد الفصح وعيد ميلاد المسيح وغيرهما، وهي لم تذكر في

الكتاب المقدس، أي إنها من تقاليد الآباء!

- هذا صحيح. ولكننا لا نعتبر ذلك ذا سلطان أو جزءاً من كلام الله. وكذلك نعتبر

أن أحكام المجمع هي أقوال قديمة وثمينة، ولكننا لا نعتقد أنها وحي أو حتى مؤيدة بالروح القدس، وإنما نقبل منها قوانين الإيمان القديمة المطابقة للكتاب الموحى به، مثل قانون الرسل، و"القانون النيقاوي"^(١)، و"القانون الأثناسيوسي"^(٢)، غير أن منزلتها عندنا ليست مثل منزلة كلام الله، بل هي كلام أفاضل البشر عبروا به عن تعاليم الله. ولذلك فإن بعض الكنائس الإنجيلية (البروتستانتية) تقبل بعض العوائد الكنسية التي تسلسلت منذ القدم في الكنيسة، والتي لا تناقض الكتاب المقدس^(٣).

(١) للاطلاع على ظروف صياغة ذلك القانون، راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

(٣) في الحقيقة، كل ذلك مناقض فعلاً للكتاب المقدس، أو على الأقل، وإذا تساهلنا كثيراً، فغير مذكور صراحةً وتأويله حمال أوجه.

- إذن فأنتم ترفضون التقاليد لأنها غير مدونة في الكتاب المقدس، ومن ثم تعذر إمكانية إثبات أنها من عند الرسل.

- تماماً. ولو أننا كنا في عصر المسيح ورساله لما ميزنا تعاليمهم الشفهية عن تعاليمهم المكتوبة. ولو تبين لنا أن تقليداً ما هو من تعليم المسيح ورساله، لقبناه دون تردد، باعتباره جزءاً من الكتاب المقدس.

- ولكن لا بد أن المسيح ورساله عملوا وعلموا أموراً كثيرة لم تكتب في الكتاب المقدس، ومثال ذلك تفاصيل تفسير المسيح لتلميذي عمواس الأمور المختصة به في العهد القديم (لو ٢٤: ٢٧) والتي لم تذكر تفاصيلها.

- لما كانت لم تذكر في الكتاب صراحة، فلا بد أن الله قصد بها خير الذين كانت لهم فقط، ولذلك لم يأمر بكتابتها وجعلها جزءاً من قانون الإيمان، إنها كالأمطار التي هطلت في عصرهم لتروي الأرض في ذلك الزمان، ولم يقصد جمعها لأجل الأجيال الآتية.

- ولكن ماذا لو أن من سمعها قد نقلها فعلاً إلى غيره، ثم وصلت إلينا كتقليد؟

- لا يخفى عليك، وعلى كل عاقل، أنه ليس في طاقة البشر مطلقاً أن يحفظوا كل ما يسمعون عن غيرهم، ولا أن يتداولوه بدقة من واحد لآخر بعد مرور سنة واحدة، فكيف بعد بضع مئات من السنين! إنه لمن المستحيل على البشر أن يتداولوا تعاليم ما سنة بعد سنة، وجيلاً بعد جيل، وقرناً بعد آخر، وتبقى تلك التعاليم على حالها. ومما يزيد الأمر صعوبة أن التعاليم التي نحن بصددنا تتعلق بأمر روحية وحقائق دينية يصعب فهمها جيداً على العقل البشري الساقط المظلم. فلا تجوز الثقة بصحة تقاليد دينية في مثل تلك الأحوال بدون براهين قاطعة على تدخل الله لحفظها من التحريف، وذلك مما يستحيل إثباته، ولذلك لجأت الكنائس التقليدية لإعلان أنها معصومة من الخطأ في التعليم، وأنها الوسيلة التي بها يحفظ الله التقاليد على سلامتها الأصلية!!

- ربما تدخل الرب نفسه ليحفظ هذه التقاليد عن طريق الكنائس التقليدية، كي تصل إلينا لاحقاً.

- يحتاج الاعتقاد بتدخل الله ليحفظ التقاليد إلى برهان قاطع ووعد إلهي، ولكن لا دليل لنا على حدوث ذلك، ولا وعد لنا به. نعم وعد المسيح كنيسته بأن أبواب الجحيم لن تقوى عليها، وبأنه يرسل روحه ليسكن مع شعبه ويرشدهم، وبأنه يكون معهم إلى انقضاء الدهر، ولكن هذه المواعيد ليست لجمهور منظور تحت نظام واحد، ولا تدل على أن إحدى الكنائس المنظورة تكون معصومة من الخطأ في تعليمها وأعمالها^(١)، ولا على أن التعاليم غير المكتوبة بالوحي تحفظ على حالتها قرناً بعد آخر، ولذلك لا يوثق بشيء من التقليد بتاتاً. صحيح أن الروح القدس يسكن في الكنيسة الحقيقية التي هي جماعة المؤمنين بالمسيح المتجددين بالروح القدس في كل زمان ومكان، ولكنه يعلم ويرشد ويحث ويقدم بواسطة كلام الله المكتوب.

- هل يؤيد التاريخ ادعاءهم بالتقليد؟

- كلا؛ فشهادة التاريخ للتقليد ناقصة، ولم يجدوا في القرون الثلاثة الأولى بعد الرسل شهادة تاريخية تبرهن أحد تقاليدهم، بل على العكس تماماً، وجدوا ما يناقضها، لذلك لجؤوا إلى الاستنتاج، وقالوا إن ما كان من التعاليم في القرنين الرابع والخامس لا بد من وجوده في القرن الثالث! وعلى ذلك لا بد من وجوده أيضاً في القرنين الثاني والأول!! ثم استنتجوا أن مصدر تلك التقاليد هو المسيح والرسل!!!! وواضح جداً أن هذا الاستنتاج خاطئ. كما أن الكتاب المقدس نفسه يثبتنا بدخول آراء فاسدة في الكنيسة سراً، وينهانا عن قبولها. وقد بين اللاهوتيون الإنجيليون أصل

(١) يذكر أن تلك الكنائس يناقض بعضها بعضاً في كثير من تلك التقاليد التي وصلت إلى حد تقرير طبيعة الذات الإلهية! وكل منها تؤكد أن التقليد الذي تعتمده هو فقط المؤيد من الروح القدس، وأن الباقي هرطقة!

الكثير من التقاليد وكيفية نموها وتقدمها بالتدرج، وأثبتوا من أقوال الآباء الأولين أن تلك التعاليم الغريبة لم تكن معروفة في عهد الآباء مطلقاً. كما برهنوا أن النظام التقليدي نشأ بالتدرج من جيل لآخر حتى القرن السادس والسابع، وأن كل اجتهاد في بيان علاقة ذلك النظام بالمسيح ورساله غير واف. وقد استمرت الكنيسة الكاثوليكية تفرض على تابعيها أن يؤمنوا أن العذراء مريم نفسها حبل بها بلا دنس^(١) وأن البابا والكنيسة معصومان في التعليم.

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف. وتجدر الإشارة هنا إلى أن البروتستانتية تنكر إنكاراً باتاً جميع ما تقيمه الكنائس الأخرى للسيدة مريم أمّ المسيح عليهما السلام من طقوس واحتفالات وعبادات وأعياد، وتعتبر ذلك خروجاً على أصول الدين.

البابا

كان أبراهام يعرف جيداً مدى حساسية البروتستانت لما بات يعرف بـ "عصمة البابا"، وأن رفضهم لهذا كان من أهم أسباب حركتهم "الاعتراضية أو الاحتجاجية"^(١)، ولكنه لم يكن مطلعاً بشكل كاف على حججهم في ذلك، فسأل القس مستفسراً:

- ما الذي يضايقكم إلى هذا الحد في موضوع عصمة الباباوات؟
- لأنهم بشر مثلنا، بل إن بعضهم كان كثيراً عليه أن يصنف كذلك أصلاً.
- اعذرني سيدي؛ ولكن ألا ترى أن ما قلته قد يدخل في باب التجني، أو التحامل غير المبرر.

- كلا، فقد قتل بعض هؤلاء الباباوات المعصومين بعضهم بعضاً، مثل البابا "يوحنا الثالث والعشرين" الذي سمم سلفه، وبعد أن أصبح البابا زاد من الوظائف الكنسية وصار يبيعها^(٢)، وفي عام ٨٩٧م أمر البابا "استيفن" السادس بأن تخرج جثة "البابا فورموسوس" من قبرها، وترتدي الملابس الأرجوانية، وتحاكم أمام مجلس كنسي بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة، ثم يحكم بإدانتها، وتجرد من ثيابها الكهنوتية، وتبتر أعضاؤها وتلقى في نهر التيبير!!!

- هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟
- بل أكثر بكثير، وهذا ليس سراً. فقد بقيت أسرة "ثيوفيلاكس" أحد كبار الموظفين في قصر البابا، ترفع الباباوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها. واستطاعت

(١) المعنى الحرفي لكلمة البروتستانتية.

(٢) بالإضافة إلى فساده الإداري، كان ذلك البابا شاذاً جنسياً أيضاً. يذكر أنه هو بالذات من قام بإلغاء المقطع الذي يصف اليهود بـ "الملعونين" من الصلاة الكاثوليكية.

ابنته "مروزيا" أن تتجح في اختيار عشيقها "سرجيوس الثالث" لكرسي البابوية، كما أفلحت زوجته "ثيودورا" في تنصيب البابا "يوحنا العاشر" الذي يقال إنه كان عشيقها. وفي عام ٩٢١ رفعت مروزيا "يوحنا الحادي عشر" إلى كرسي البابوية، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعي من البابا سرجيوس الثالث! وقد ظل ابنها الآخر "ألبريك" يحكم روما اثنتين وعشرين سنة، كان فيها الطاغية المسيطر على "جمهورية رومانية". وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه "أكتافيان"، وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان بابا بعد موت "أجابتوس الثاني"، وتم له ما أراد، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا "يوحنا الثاني عشر"، وامتازت مدة ولايته بضرور من التهتك والدعارة في قصر لاتيران. فقد عين غلاماً في العاشرة من عمره أسقفاً، وزنى بخليقة أبيه، وضاجع أرملة، وابنة أختها، وحول قصر البابوية إلى ماخور حقيقي للدعارة. وهو ما دفع الإمبراطور "أوتو" الأول إلى عقد مجلس لخلعه، وتنصيب البابا "ليو الثامن" مكانه. ولما رجع أوتو إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الإمبراطوري في روما وبتر أعضاءهم، وعمل على أن يعود إلى كرسي البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره. وكانت نهايته أن قتل في حضن امرأة، وكان القاتل زوجها. والبابا كليمانصو الخامس عشر كان يجول في فينا وليون لجمع المال ومعه عشيقته دون حياء.

- لقد سمعت عن فجور الرهبان والقساوسة في العصور المظلمة، وقرأت قول "سانت أدو" رئيس دير كلوني^(١): "إن بعض رجال الدين في الأديرة وخارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها، بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنون الخاشعون لكي تكون ملاذاً للغة والطهارة في حرمها المسور. لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل يسوع". ولكنني لم أكن أظن ذلك الانحلال الخلقي وصل إلى البابوات أنفسهم.

(١) توفي سنة ٩٤٢ م.

- ليس الانحلال الخلقي فقط. فحسب المؤرخين، كانت هناك ثلاث مشاكل داخلية زعزعت عضد الكنيسة في ذلك الوقت، من القاعدة إلى رأس الهرم. فبالإضافة إلى حالات الدعارة التي انتشرت بين بعض رجال الدين، كانت هناك مشكلتان أخريان لا تقلان عنها خطورة؛ إحداهما كان موضوع سيطرة زوجات ومحظيات وأبناء رجال الدين عليهم، ووراثتهم لأملآكهم التي حصلوا عليها من الكنيسة، والأخرى كانت موضوع المتاجرة بالمناصب والرتب الدينية في محيط البابوية والأسقفية. ورغم المحاولات الجادة في إصلاح الكنيسة من الداخل على يد بعض الباباوات الصالحين، فإنهم لم ينجحوا للأسف الشديد إلا بالقضاء على المشكلة الوسطى فقط.

- كيف؟

- بمنع زواج رجال الدين أصلاً^(١)!!!

- وهل كان رجال الدين الكاثوليك يتزوجون في ذلك العصر؟!!!

- بالطبع^(٢)، فهذه هي سنة الحياة الطبيعية، وغير ذلك يؤدي إلى الكبت أو الزنا والشذوذ^(٣). وفي القرنين التاسع والعاشر كان زواج القساوسة أمراً مألوفاً في إنجلترا وغالة وشمالى إيطاليا. وكتب "راثيروس" أسقف فيرونا في القرن العاشر يقول إن أساقفة أبرشيته كلهم متزوجون. ولم يستهل القرن الحادي عشر حتى

(١) لا تحرم البروتستانتية الزواج على رجال الدين بمختلف درجاتهم، كما لا يوجد فيها نظام الرهينة.
(٢) جاء في العهد الجديد على لسان بولس نفسه أن على الأسقف أن يكون: "منزهاً عن اللوم، زوج امرأة واحدة" (١ تيموثوس ٣: ٢) (يفهم من ذلك انتشار تعدد الزوجات. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف. وكذلك الشماس (١ تيموثوس ٣: ١٢).

(٣) بعد الانكشاف المتزايد لأمر الفضائح الجنسية من طرف القساوسة والرهبان، أصبح هذا رأي الكثير من الكاثوليك أنفسهم. ففي ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٠م ذكرت وكالة الأنباء الإيطالية "آكي" أن استطلاعاً أجري في بلجيكا أظهر بأن ٧٣ في المئة من الكاثوليك في البلاد يؤيدون زواج الكهنة كي لا يضطروا إلى العادة السرية أو اغتصاب الأطفال داخل الكنيسة.

كانت العزوبية بين رجال الدين غير الرهبان من الأمور الشاذة النادرة، فمن الخطأ أن نعد زواج القساوسة مناقضاً للأخلاق الفاضلة وإن لم يتفق في كثير من الأحيان مع المثل العليا للكنيسة، ذلك أن زواجهم كان متفقاً مع عادات ذلك الوقت ومبادئه الأخلاقية. ويخبرنا التاريخ أن أهل مدينة ميلانو كانوا يعدون القس المتزوج أسمى منزلة من القس الأعزب، لأن الثاني كان يتهم باتخاذ المحظيات. بل إن الرأي العام كان يتسامح مع المحظية أكثر من العلاقات غير المنتظمة. صحيح أن الكثرة الغالبة من القساوسة الأوربيين كانوا يحيون حياة لا غبار عليها من الناحية الأخلاقية، وأنا لنسمع طوال العصور الوسطى عن قساوسة وأساقفة يعيشون معيشة طاهرة نقية مخلصين لمن يرعونهم، ولكننا لا نستطيع إنكار أنه كان في أماكن متفرقة رجال شواذ يندى من أفعالهم الجبين. فما هو ذا الأسقف "بنيفاس" يشكو إلى البابا "زخاري" في ٧٤٢م أن الأسقفيات تعطى "للشراهين من غير رجال الدين، وللزانيين من القسيسين"، وأن بعض الشمامسة "يحتفظون بأربع محظيات أو خمس". وقد اتهم الموقر "بيد" في ذلك القرن بعينه "بعض أساقفة" إنجلترا بأنهم: "يضحكون ويهزلون، ويروون الأفاقيص، ويسكرون... يحيون حياة الملذات والفسق". وكثرت هذه التهم وأمثالها في أواخر الألف الأولى بعد الميلاد. فما هو ذا "رالف جلابر" يصف قساوسة ذلك العهد بأنهم يشاركون رعيتهم في فسادهم الخلقى، وما هو ذا راهب إيطاليا يدعى "بطرس داميان"^(١) يعرض على البابا كتاباً يسمى *Liber Gomorrhianus* ويصف فيه بالمغالاة التي يتوقعها الإنسان من رجل متمسك بدينه، ما يرتكبه القساوسة من رذائل. وفي هذا الكتاب فصل عن "مختلف القضايا المناقضة للطبيعة". وقد طالب داميان في هذا الكتاب بقوة أن يحرم الزواج على رجال الدين.

- أي إن زواج رجال الدين لم يكن ممنوعاً قبل ذلك؟!

(١) ١٠٠٧-١٠٧٢م.

- لم يكن ممنوعاً رسمياً^(١)، ولكن الكنيسة كانت منذ زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بذريعة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة، سواء أدرك ذلك أم لم يدركه. وأنه سيميل من أجلهم إلى جمع المال أو المتاع، وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبته لأحد أبنائه، وأن هذا قد يؤدي إلى طبقة وراثية من رجال الدين في أوروبا تشبه مثلتها في بلاد الهند. وأن ما يضيفه هذا السلطان الاقتصادي على القساوسة ذوي الأملاك يزيد في قوتهم إلى الحد الذي تعجز معه البابوية عن السيطرة عليهم. ويضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله والكنيسة ولرعيته، وأن مستواه الأخلاقي يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب، وأن يضيفي عليه مستواه هذا المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه. وكانت عدة مجالس كنسية قد طالبت بفرض العزوبة على القساوسة بشكل رسمي، وواحد منها^(٢) أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمان من الميراث على جميع أبناء القسيسين، لكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون وينجبون.

- فكيف استطاعوا تحريم زواج رجال الدين بشكل نهائي إذن؟

- لقد وجد البابا "ليو التاسع" أن كرسي الرسول بطرس قد افتقر لكثرة ما يوصي به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم، ولاستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة، فأقام المحاكم ضد الأساقفة وأمرهم أن يخرجوا زوجاتهم ومحظياتهم، وأن يمتنعوا عن استعمال الأسلحة. وسن قرارات حازمة وإصلاحات جذرية طهرت الكنيسة من الرشاوى والدعارة، وأعدت إلى الكنيسة ما خرج من أملاكها، وهو ما رد للبابوية ما كان لها من هيبة ومنزلة سامية في نفوس الناس. وكان مجلس لاتران المنعقد برئاسة

(١) في الواقع فإن عدم الزواج كان هو الممنوع وفقاً للكتاب المقدس؛ فقد جاء فيه على لسان بولس نفسه: "والروح صريح في قوله إن بعض الناس يرتدون عن الإيمان في الأزمنة الأخيرة، ويتبعون أرواحاً مضللة وتعاليم شيطانية لقوم مرانين كذابين اكنوت ضمائرهم فماتت، ينهون عن الزواج" (١ تيموثاوس ٤ : ١-٣).

(٢) عقد في بافيا عام ١٠١٨ م.

"تقولاي الثاني" و"هلديراند"^(١) في عام ١٠٥٩م قد حرم من حظيرة الدين كل قس يحتفظ بزوجة أو محظية، ونهى المسيحيين عن حضور القداس الذي يقيمه قس يعرفون أنه يحتفظ بامرأة في بيته. ولم يشأ كثيرون من أساقفة لمبارديا أن يشتتوا أسر قساوستهم فأبوا أن يذيعوا هذه القرارات، وأخذ بعض رجال الدين المعروفين في تسكانيا يدافعون عن مبدأ زواج القساوسة، ويقولون إنه يتفق مع الأخلاق ومع قوانين الكنيسة، وبذلك أصبح تنفيذ هذا التشريع غير مستطاع، وتذرع الوعاظ الخارجون على الدين بالرأي القائل إن القساوسة الذين يعيشون "آثمين" لا يستطيعون القيام بمراسيم العشاء الرباني الصحيحة، فأخذوا ينادون متحمسين ببطلان هذه المراسم، مما اضطر البابوية إلى الرجوع في دعوتها هذه إلى جماهير المصلين. ولما أصبح هلديراند هو جريجوري السابع في ١٠٧٣م تصدى لهذه المشكلة بعزيمة لا تنتهي ولا تعرف الملل، فجدد مجمع ديني عقد في عام ١٠٧٤ قرارات ١٠٥٩، وأرسل جريجوري هذه القرارات إلى جميع أساقفة أوروبا ومعها أمر صارم لهم بإذاعتها وتنفيذها بالقوة، وأباح لعامة الشعب ألا يطيعوا أمر من يخالفها من القساوسة. وكان لهذه الأوامر هي الأخرى رد فعل عنيف، فأعلن كثيرون من القساوسة أنهم يفضلون التخلي عن مناصبهم على التخلي عن زوجاتهم، وعارض غيرهم في تنفيذ القرارات لأنها تفرض على الطبيعة البشرية قيوداً لا يقبلها العقل السليم أو الكتاب المقدس، وتنبؤوا بأن تنفيذها سينشر الاختلاط الجنسي السري. وأعلن "أتو" أسقف كنستانس بأنه يجبذ آراء قساوسته المتزوجين ويحميهم من العدوان، فما كان من جريجوري إلا أن أصدر قراراً بحرمانه، وأعطى رعاياه من إطاعة أوامره. وخطا جريجوري خطوة أخرى في عام ١٠٧٥ فأمر أدواق سوايبا وكارنثيا، وغيرهم من الأمراء أن يلجؤوا إلى القوة إذا دعت الضرورة لمنع من يقاومون أوامره من القساوسة من أداء واجبات مناصبهم.

(١) البابا الشهير جريجوري السابع فيما بعد.

- إذن فجريجوري السابع هو من حرم زواج رجال الدين نهائياً.
 - كلا، ولكن كان له ولأستاذه "ليو التاسع" أكبر الأثر في ذلك، مع أنهما ماتا دون أن يتحقق لهما النصر. ثم جاء بعدهما بابوات أقوىاء آخرون مثل "إربان الثاني"، و"بسكال الثاني"، و"كلكستوس الثاني" أكدوا قراراتهما ونفذوها، حتى إذا كان عام ١٢١٥ أصدر مجلس لاتران برئاسة "إنوسنت الثاني" قراراً نهائياً بتحريم زواج القساوسة، وأخذت هذه العادة بعد ذلك تزول تدريجياً.

- وبالنسبة إلى موضوع المتاجرة بالمناصب الكنسية، فما الذي يجعل تلك المناصب الدينية مرغوبة إلى درجة أن يصبح الاتجار بها سلعة رابحة؟

- أولاً النفوذ، وثانياً الثراء المرتقب. فقد كان تقوى بعض الأباطرة والأثرياء حين يموتون سبباً في اتساع ثروة الكنائس والأديرة بما كان يهبه هؤلاء وأولئك لها من الهبات في أثناء حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم. وكان الرجال والنساء من أعلى الطبقات إذا ما أخافتهم نذر الموت يسعون لدخول الأديرة، ويسترضون ربهم بما يهبونها من الأموال التي تعفى بعدئذ من الضرائب، ومنهم من كانوا يعطون بعض أملاكهم لدير من الأديرة على أن يتقاضوا منه في نظير ذلك مرتباً سنوياً، وكانت أديرة كثيرة تدعي أن بها مخلفات لبعض القديسين الأجلاء، وكان الناس يعزون إلى الرهبان السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدرة على فعل المعجزات، ويقدمون إليهم المال راجين أن ينالوا من وراء استثماره لديهم أرباحاً طائلة لا يصدقها العقل.

- إلى أي مدى وصل موضوع بيع المناصب الدينية؟

- حسبنا أن نذكر أن غلاماً في العاشرة من عمره عين رئيس أساقفة في نربونة بعد أن دفعت أمه مبلغ مئة ألف صليدي، وأن "فيليب الأول" ملك فرنسا كتب إلى رجل أخفق في الحصول على منصب رئيس أساقفة يواسيه في إخفاقه بقوله:

"اتركني أجني المال من منافسك، ثم حاول أن تسقطه باتهامه بابتياح منصبه، وسترى بعد ذلك كيف نرضيه". وأضحت كثير من مناصب الأساقفة ميراثاً لبعض الأسر الشريفة، تختص به الصغار من أولادها أو حتى غير الشرعيين منهم. وكان أحد البارونات في ألمانيا يمتلك ثماني أسقفيات ويورثها أبناءه. ويزعم أحد الكرادلة الألمان عام ١٠٤٨ تقريباً أن الذين يبتاعون كراسي الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجهات الرخامية في الكنائس، وألواح القرميد في سقفها، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم. وكان الكثير من الذين ينالون المناصب الدينية بهذه الوسائل من العلمانيين^(١) لا من رجال الدين. ويعبدون المال من دون الله، ويدينون له وحده بالطاعة والولاء. ويقول البابا "إنوسنت الثالث" في وصف أحد رؤساء الأساقفة في نارين إن لديه كيساً من المال في الموضع الذي كان يجب أن يكون فيه قلبه. وقد أصبح ابتياح الكراسي الأسقفية أمراً مألوفاً يقبله الناس العمليون على أنه أمر عادي لا غضاضة فيه. أما المصلحون فأخذوا ينادون بأن "سمعان المجوسي"^(٢) قد استحوذ على الكنيسة. فالبابا بندكت(١٠٤٥-١٠٢٢) مثلاً، عين بابا في الثانية عشرة من عمره، ثم دنس منصبه بحياة الفحش، إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من روما، غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد "تسكيولوم". ولما أتعبه منصب البابوية باعها إلى "جريجوري السادس"^(٣) بألفي رطل من الذهب. ولما وجد ما في هذا من نفع كبير أنشأ مناصب جديدة وعرضها للبيع، فرفع أمناء البابوية في عهده إلى ستة وعشرين، وحصل بذلك على ٦٢٤٠٠ دوقية. ثم رفع عدد حاملي الأختام إلى اثنين وخمسين، وجنى ٢٥٥٠ دوقية

(١) من كلمة "لايمان" layman التي تترجم في العربية بمعنى علماني (عكس كهنوتي)، وهو من لم يحصل على تعليم ديني ولا حتى ترهين بدير، بغض النظر عن إيمانه.

(٢) شمعون الساحر الذي عرض رشوة على الحواريين لشراء سلطان إعطاء الروح واستغلالها.

(٣) ١٠٤٥-١٠٤٦م وهو ذو أصل يهودي.

من كل واحد منهم. والبابا "لاون العاشر" الذي توسع في منح الغفرانات^(١) فأرسل كثيراً من أتباعه إلى أقطار أوروبا يبيعون الغفرانات لأهلها بالدرهم لتمحى بها ذنوبهم ولا يحاسبون عليها في الآخرة... فأخذوا يبيعون صكوك الغفران بأبخس الأثمان.

- هذه أمور لا تصدق^(٢).

- هذا غيظ من فيض من فضائح باباوات الكنيسة أصحاب الكرسي المقدس!! الذين يزعمون لطوائفهم أنهم ورثة بطرس وحملة مفاتيح السماء، وأن لا خلاص لهم إلا على أيديهم المباركة، وأن كلاً منهم هو نائب المسيح في عصره وآراؤه -لذلك- غير قابلة للنقاش، وما يحدده في العقيدة يعتبر قضايا يقينية، حتى يكاد البابا يكون أفتوماً رابعاً لله^(٣)!!

صمت أبراهام مفكراً فيما سمعه، ثم ما لبث أن قال محاولاً التبرير:

- لقد قرأت أن الكاثوليك يعتقدون أن عصمة البابا لا تتجاوز وظيفته إلى شخصه، أي إنه عرضة للخطأ في سائر أعماله وأفكاره كغيره من البشر، ولكنه عندما يتكلم في الأمور الدينية يكون آله في يد الروح القدس، ولذلك يكون معصوماً. وقد صدق المجمع الفاتيكاني المنعقد في رومه سنة ١٨٧٠ على الاعتقاد بعصمة البابا

(١) تنكر البروتستانتية كل الإنكار أن يكون لرجل الدين الحق في غفران الذنوب في حالة الاحتضار وغيرها، وإنما يجعل ذلك الحق لله وحده، فيقبل إن شاء توبة العاصي ويغفر له ما تقدم من ذنبه، بل إن أهم ما اتجهت البروتستانتية في نشأتها إلى القضاء عليه هو ما كانت تزعمه الكنيسة الكاثوليكية لرجالها من السلطان في محو الذنوب، وما تبع هذا الزعم من نظام صكوك الغفران.

(٢) جميع هذه المعلومات التي أوردها عن الباباوات موثقة تاريخياً، وقد نقلناها حرفياً (مع الاختصار والتصريف في الترتيب وصياغتها على شكل حوار) من الكتاب الشهير "فصة الحضارة" للكاتب "ويل ديورانت" المجلد الخامس، الباب الحادي والعشرون، الفصول رقم ٦، ٧، ٩.

(٣) قرر مجمع رومه سنة ١٢١٥ ما يلي: "على الناس أن يتلقوا قول الكنيسة بالقبول؛ وافق العقل أو خالفه. وعلى المسيحي إذا لم يستغ عقله قولاً قالته الكنيسة أو مبدأً دينياً أعلنته؛ عليه أن يروض عقله على قبوله، فإذا لم يستطع فعليه أن يشك في عقله ولا يشك في قول البابا".

باعتباره معلماً دينياً، وعلى عصمة^(١) وظيفته البابوية باعتباره رئيس الكنيسة ومرشداً من الروح القدس في ذلك.

- إذا كان الأمر كذلك فعلاً، فلم اختلف آراء الباباوات المعصومين في كثير من الأمور الدينية نفسها! هل يعقل أن يرشد الروح القدس أحدهم إلى أمر ما، ثم يعود بعد سنين ليغير رأيه ويرشد آخر إلى أمر مناقض تماماً؟!

- مثل ماذا؟

- لقد اتبع بعض الباباوات السابقين البدعة الأريوسية التي تنكر لاهوت المسيح، وبعضهم -كالبابا "ليبريوس" (البابا فيليكس الأول) مثلاً- أدان "أثناسيوس" بناء على ذلك^(٢)، وأيضاً أدان المجمع السادس عام ٦٨٠م "البابا هونوريوس الأول" الذي وافق على بدعة "الفضل الواحد"^(٣)، واتهمه بأنه هرطوقي ولعنه. وقد أيد الإدانة البابا "ليو (لاون) الثاني"، والمجامع التي تبعتة. كما قبلت الكنيسة التعليم الأوغسطيني^(٤) وصدقت عليه بعض المجامع، وأثبتته الباباوات، واختلفت الكنيسة عليه بعد أن قبلته!

(١) أي إن الباباوات أنفسهم لم يعرفوا بأمر عصمتهم قبل ذلك التاريخ!!! وهذا هو سبب رفض بعض المطارنة الكاثوليك للتسليم بتلك "البدعة"، حسب وجهة نظرهم، مثل المطران "ستروسماير"، والمطران "كندريك"، والدكتور "دولانكير"، ورئيس أساقفة أوترينت في هولندا، فانشقوا بكنيسة سموها "الكنيسة الكاثوليكية القديمة" والتي انتشرت في معظم بقاع أوروبا، ووصلت إلى أمريكا.

(٢) لقد اتفقت كلتا الكنيستين، الشرقية والغربية، على قبول التوحيد لمدة طويلة، وقد أثبتته كثيرون من الرؤساء وبعض المجامع قبل أن يرفض رسمياً. لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، وحول أريوس وأثناسيوس راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) لمزيد من المعلومات حول هذا البابا راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

(٤) قبلت الكنيسة أكثر القضايا المهمة في تعليم أوغسطينوس في مجمع أفسس الثالث سنة ٤٣١م في عقائد فساد طبيعة الإنسان وموته الروحي، وعدم إمكان الخاطئ أن يتجدد بدون قوة الروح، وفي اختيار البعض للخلاص وعدم اختيار البعض الآخر. ولكنها في المجمع التريدينيني رفضت ما سبق أن قبلته، وعلمت أن النعمة الإلهية ليست إلا إعانة للإنسان ليرجع إلى الله، وأن المعمودية هي وسيلة التجديد، وأن الشهوة ليست خطيئة، وسكتت في أمر الاختيار.

واستمر الخلاف فيها عليه نحو ٨٠٠ سنة، إلى أن صدق "مجمع ترانت" النظام المقبول عندهم الآن. كما قرر البابا "جريجوري الكبير" في القرن السادس أن أسفار "المكابيين" لم تكتب بالهام^(١)، ولكن البابا "بيوس التاسع" في القرن التاسع قال إنها موحى بها من الله! فمن منهما هو المعصوم؟ وأيها نصدق؟! ثم أليس تحريم ما حلل الله يدخل في الأمور الدينية أيضاً؟! لقد حرم البابا ليو التاسع والبابا جريجوري السابع زواج الكهنة قطعياً، وتبعهما الباباوات اللاحقين في ذلك حتى الآن، في حين أن أغلب الباباوات السابقين لم يشددوا بشأن ذلك التقليد الذي يتعارض وتعاليم الكتاب المقدس، وجعلوه من باب الورع واللباقة الكهنوتية فحسب، بل إن بعضهم مثل "البابا هديان الثاني" نفسه كان متزوجاً. ولو أن الباباوات معصومون من الخطأ في الأمور الدينية، فإنهم يتفقون بالتأكيد في تعاليمهم، ولكن التاريخ يظهر أنهم تحالفوا وتناقضوا فيما بينهم مراراً وتكراراً.

- فعلاً. وأنتم ماذا تقولون في رؤسائكم العاميين؟

- البروتستانتية لا تقر الرئاسة العامة في شؤون الدين، تماماً كما فعلت مع البابوية. ولذلك ليس لكنائسنا رئيس عام كما هو الشأن في الكنائس الأخرى، وإنما تجعل لكل كنيسة بروتستانتية رئاسة خاصة بها، وليس لها إلا سلطان الوعظ والإرشاد والقيام على شؤون العبادات والواجبات الدينية الأخرى، وعلى تعليم مسائل الدين. ونحن نسمي رجال الدين بالـ"رعاة" لأنهم يرعون تابعي كنيستهم ويؤدون لهم ما على الراعي أن يؤديه نحو رعيته من واجبات.

(١) يقول كاتب المكابيين الثاني في نهاية سفره: "فإن كنت قد أحسنت التأليف وأصبحت الغرض، فذلك ما كنت أتمناه. وإن كان قد لحقني الوهن والتقصير فإني قد بذلت وسعي. ثم كما أن شرب الخمر وحدها أو شرب الماء وحده مضر، وإنما تطيب الخمر بمزوجة بالماء، وتُعب لذة وطرباً، كذلك تميم الكلام على هذا الأسلوب يُطرب مسامع مُطالعي التأليف" (١٥ : ٣٦-٤٠).

- فلم وافق المؤمنون على تقليد الرئاسة العامة في الدين طوال هذه السنوات قبل ظهور البروتستانتية؟

- لأن هذا التقليد يوافق ذوق أكثر البشر الذين لا يدرسون الكتاب المقدس، إذ إن الكنيسة بموجب هذا التعليم قادرة أن ترشدهم وتحررهم من المسؤولية الشخصية في أمور الدين، وتحكم في كل المسائل الدينية لأجلهم. فتخلصهم من لزوم البحث عن ماهية الحق، وتؤكد لهم خلاصهم بمجرد خضوعهم لها، وتحمل عنهم الخطأ، وتوزع عليهم النعمة، وتفتح لهم باب السماء^(١) ولو كانت هذه التقاليد ترتيباً من عند الله، لما تجاسرنا على رفضها.

(١) هذا هو أصل البلاء، والمدخل الشيطاني غير المباشر لتغيير دين الله وشرائع أنبيائه على مر العصور، حيث تختص طبقة معينة من الناس بالالتزام بتعاليم الدين وأموره، وتقوم بالانقطاع إلى الله تعالى والتشدد في تنفيذ أوامره كحجاب النساء ودراسة الكتاب والامتناع عن الشهوات وغيرها، فيما يعيش الباقون كما يحلو لهم، كأن كل ذلك قد أسقط عنهم (بقيام تلك الطبقة بأعبائه نيابة عنهم) مكتفين بتبجيل رجال الدين أولئك، وإطاعتهم في بعض الأمور ليقربوهم إلى الله زلفى. ولكن تلك الطبقة سرعان ما تُفتن بالنفوذ والسلطة، وتنغمس في مفاسد رعيته ليصبح التزامها شكلياً. ولما كانت هي وحدها المسؤولة عن تطبيق التعاليم الدينية وتفسيرها، فعالباً ما تكون لها الحرية المطلقة في تكييف الدين وتطويره ليتواءم مع ظروفها وتيسير أمور مرديها بما يدعم مكانتها. وإيجاد الحجج للتهاون في بعض الأمور، ثم تعويض ذلك بالتشدد في أمور أخرى، حتى يخرج الدين تدريجياً عن شكله الأصلي خلال عدة مئات من السنين. ورغم عدم وجود طبقة رجال دين في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، إلا أن هذا الأمر، كالعادة، بدأ بالتسلل إلى دين الله أخيراً، فصرنا نسمع عن رجال الدين المسلمين وقتاويهم العصرية، ونرى البعض يعيشون بعيداً عن الدين تماماً، ثم يمثلون بين أيادي "شيخهم" ليكسبوا رضاه، وبعد ذلك يواصلون ارتكاب ما شاؤوا من الموبقات مرتاحي الضمير.

◀ خلفاء الرسل

عاد أبراهام يفكر في التلمود مرة أخرى، وشعر أن حوار هذه المرة قد يكون مثمراً، وليس مجرد إتمام لمعرفة سابقة أو تفسير لها. فرغم كثرة قراءاته عن اللاهوت، وحياته منذ الصغر بين المسيحيين، وتفرغه للبحث في الأديان لأكثر من عام حتى الآن، إلا أنه لم يكن يعرف شيئاً عن التقليد الشريف، ولم يخطر بباله أصلاً أن للمسيحيين أيضاً تلمودهم الخاص، فقال محاولاً إعادة دفة الحوار نحو تقاليد آباء الكنيسة مجدداً:

- أنتم تحللون زواج رجال الدين، أليس كذلك؟
- بالطبع؛ فهذا التقليد يخالف تعاليم الكتاب المقدس.
- وحسب رأيكم؛ أي من التقاليد تخالف تعاليم الكتاب المقدس أيضاً؟
- جواز تقديم العبادة الدينية للصور والتماثيل مثلاً، واستحقاق الأعمال الصالحة، وغير ذلك. فكل ذلك يخالف تعاليم الكتاب صراحة. وإذ قد حاولوا إثبات أنها من التقاليد، فينتج أن التقاليد تخالف الكتاب المقدس.
- لكنك قلت أنهم يحكمون على أن التقليد صحيح عن طريق قدمه والاتفاق عليه.
- هذا ما يعتقدونه، ولكنه مرفوض لأسباب كثيرة: فإذا فرضنا أن الكنائس التقليدية أجمعت على تقليد، فإن ذلك يكون مقتصرًا عليها وحدها، وليس على كل المسيحيين، وإذا فرضنا أنهم كانوا كل المسيحيين في العالم عندما اتفقوا على ما يعتقدونه، فلا دليل على أن المسيحيين قبلهم كانوا يعتقدون ما يعتقدونه الآن نفسه، بل على العكس، لأن أكثر التعاليم التي حاولوا إثباتها بالتقاليد نشأت في الكنيسة في القرون الوسطى وما بعد ذلك.

- هل لك أن تضرب أمثلة على ذلك؟

- ما تحدثنا عنه من عصمة البابا، وصكوك الغفران، وتحريم زواج رجال الدين، والمطهر، والحبل بمريم العذراء بلا دنس، ومحدثات كثيرة أخرى.

- ولكن هذه قواعد للإيمان قبلتها كل الكنائس منذ القدم.

- هذا ليس صحيحاً؛ فلم يحدث أن قبلت كل الكنائس أي قاعدة بالإجماع قبل القرن الرابع^(١)، وحتى استناد التقليديين إلى كتابات الآباء، التي يقولون إنها تؤكد تقاليدهم، هو استناد واه؛ فما وصل إلينا من كتب الآباء من القرون الثلاثة الأولى ليس فيها ما يؤيد صدق تقليد واحد! فإذا كانت البراهين على الاتفاق ناقصة، فهل شهادة الكنيسة كافية! وكأن التقليدي يصدق الكنيسة، والكنيسة تصدق نفسها، لأنها معصومة من الخطأ!

- وهذا الذي يسمى بالتقليد الشريف أهو مجموع في كتاب واحد؟

- ليته كان كذلك، إذن لكان ضبطه وحفظه أسهل بكثير من الفوضى التي تحدثنا عنها.

- أين يوجد إذن؟

- في تقليدات متفرقة في صحف الكنيسة وسجلاتها، ويصعب على كل الشعب أن يعرفوها كلها! وهذا يبرهن على عدم صلاحيتها لتكون قانوناً لهم؛ لأن قانون الإيمان ينبغي أن يكون في يد الشعب. ولما كانت التقاليد ليست مجموعة في كتاب واحد، فيلزم أن يقبله الشعب على شهادة الكنيسة، فيقبلون قانوناً لا يقدر أن يجدوا

(١) حتى حينها رفضت الكثير من الكنائس ذلك الإجماع، فاتهمت بالهرطقة وحوربت واضطهدت مثل اليعاقبة الأولين والنسطوريين والأريوسيين وغيرهم الكثير. كما سنرى في مواقف (فصول) المحطة الأولى (بين التوحيد والتأليه) من الجولة الثالثة.

أدلة صدقه. ومن تعليقات التقليديين لوجوب التقاليد أن الكتاب المقدس مبهم وأن فهمه فوق طاقة الشعب، بل فوق طاقة الكنيسة نفسها بدون مساعدة التقاليد، وذلك غير صحيح، لأن الكتاب المقدس سهل الفهم. كما ينتج عن الاعتماد على التقاليد إهمال الكتاب المقدس، لأنه إذا وجد قانونان متساويان في السلطان، وكان أحدهما يفسر الآخر ويوضحه ويتسلط عليه، فلا بد من الاعتماد على المفسر أكثر من الذي يحتاج التفسير، فيكون إيمان الشعب مؤسساً على تفسير الإنسان للأقوال الإلهية لا على الإعلان الإلهي نفسه. فيصدق عليهم قول المسيح: "أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم" (مت ١٥: ٣)^(١).

- كلام منطقي جداً.

علق أبراهام وهو يفكر ثانية بالتلمود. فتابع القس قائلاً:

- ومما يرسخ ذلك هو تعريفهم لمفهوم "الكنيسة" نفسه. فالتقليديون يعتبرون أنها مجموعة من البشر يعتقدون اعتقاداً واحداً، ويمارسون أسراراً واحدة، ويطيعون رؤساءهم الدينيين. فقولهم: "يعتقدون اعتقاداً واحداً" يستبعد المعترضين والهرطقة، وقولهم: "يمارسون أسراراً واحدة" يستبعد غير المعتمدين، وقولهم: "يطيعون رؤساءهم" يستبعد كل الذين يرفضون سلطة الرؤساء الدينيين. لكن هذا التعريف التقليدي غير مبني على معنى كلمة "كنيسة" في العهد الجديد، ولا على ما يعلمه العهد الجديد عن الكنيسة.

- وكيف ذلك؟

(١) جاء بعد هذه العبارة في إنجيل متى ١٥ : ٩ : "وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم (تقاليد) هي وصايا الناس". وتكرر ذلك في إنجيل مرقس ٧ : ٧.

- هم يعتقدون أن الكنيسة الموعودة بالإرشاد الإلهي هي جماعة منظورة منتظمة كالكنيسة الكاثوليكية مثلاً^(١)، لا مجموع المتحدين بالمسيح بالإيمان الحقيقي. أما كلمة "كنيسة" في الكتاب المقدس فتعني شعب الله المؤمن الذين هم قبل المسيح. إنهم يعتقدون أن الكنيسة ينبغي أن تقوم على النظام الكنسي وحده، وهذا باطل، بدليل عدم تعيين الكتاب نظاماً خارجياً للكنيسة. فكما نستدل من التاريخ، لم يتم الأساقفة، بالشكل الذي نراهم عليه اليوم، إلا بعد عصر الرسل بزمان طويل. كما أن الرئاسة دخلت الكنيسة بالتدريج، وهي غير مثبتة من الكتاب بل من التقليد، لأن بطرس لم يكن رئيساً بدليل مساواته بيقوب ويوحنا (غل ٢: ٩)، وبدليل قول بولس إن بطرس مساو لبقية الرسل في المواهب الروحية والسلطان، وبدليل عدم رئاسة بطرس لمجمع الرسل الذي التأم في أورشليم (أع ١٥)، وتوبيخ بولس لبطرس في أنطاكية (غل ٢: ١١-٢١). حتى إن سلمنا برئاسة بطرس على سائر الرسل، فلا ينتج عن ذلك انتقال هذه الرئاسة لمن خلفوه، أي باباوات الفاتيكان وفق زعمهم، كما أنه لا يوجد دليل على ذلك مطلقاً.

- إذن فالتقليديون يعتقدون أن الكنيسة جماعة من الناس مقامة من الله تحت نظام واحد، وهي معلمة معصومة ذات سلطان.

- هذا ما يعتقدونه للأسف. بل إنهم يعتقدون أيضاً أنها مُعدّة لهذه الوظيفة لأنها وحدها المؤتمنة على كل إعلانات الله المكتوبة وغير المكتوبة، ولأن الروح القدس دائماً حاضر معها يرشدها ويحفظها من الخطأ في التعليم. وتتركز عصمتها إما في جماعة الأساقفة وهم مجتمعون كخلفاء للرسل ليحكموا في مسائل دينية، وإما في الباباوات بالتتابع لأن كلاً منهم نائب المسيح!

- كيف تنظرون إلى أن الكنيسة تعتبر نفسها شعب الله الجديد بدل اليهود؟

(١) كل كنيسة تعتقد أنها تتمتع وحدها بالإرشاد الإلهي، وسبق أن حرمت ولعنت بقية الكنائس الأخرى.

- إنه مبني على مذهب خاطئ في ماهية الكنيسة. فقد توهموا، كما توهم اليهود قبلهم، أن الكنيسة جماعة منظورة ذات نظام واحد، وظنوا أن الأمة اليهودية حسب الجسد هي الكنيسة، وأن لها كل المواعيد الإلهية. غير أن المسيح وبخهم على هذا الرأي (يو ٨: ٤٤-٢٣ ومت ٢: ٩)، وهاجمه الرسول بولس في رسالتيه إلى رومه وغلاطية إذ أثبت أن الوعد بالخلاص ليس لليهود فقط، ولا لجماعة منظورة تحت نظام خارجي، وأن الخلاص لا يتوقف على التسلسل من إبراهيم جسدياً، ولا على الختان، ولا على التمسك بالديانة اليهودية. وأثبت أيضاً أن جميع المؤمنين الحقيقيين هم أولاد إبراهيم وورثة له، وأن اليهودي في الخارج ليس هو اليهودي الحقيقي. وربما كان الإنسان يهودياً عبرانياً مختوناً في اليوم الثامن، وكان بلا عيب من جهة البر الذي بالناموس، ولكنه لا ينتفع من ذلك كله. وبناء عليه، بين إمكانية رفض الله لليهود كأمة، دون أن يخالف عهده مع إبراهيم، لأن الوعد لم يكن لإسرائيل بحسب الجسد بل لإسرائيل بحسب الروح (غل ٣: ٧ وفي ٣: ٦-٤. ورو ٢: ٢٨، ٢٩ و ٩: ٨-٦). لقد أخطأت الكنيسة التقليدية لما نقلت إلى نفسها ما قالته الأمة اليهودية عن نفسها، من أنها وارثة المواعيد وصاحبة حقوق الكتاب، وأن من يتحد معها ويسير تحت نظامها ينال الخلاص، وأن جميع الذين ماتوا وسيموتون خارجاً عن حضنها لا يستحقون السماء، ولذلك يهلكون. ولا يخفى ما في ذلك من تمام المشابهة بين الرأي اليهودي الذي أبطله المسيح ورسله، وبين رأي التقليديين في ماهية الكنيسة. وقد وصفت الكنيسة في الكتاب بـ: "هيكل الله الحي"، و"عروس المسيح" و"القديسين" و"أهل بيت الله" و"أبناء النور" و"المختارين للخلاص بتقديس الروح وتصديق الحق" و"جنساً مختاراً وكهنوتاً ملكياً وأمة مقدسة"، ونحو ذلك^(١)، ولم توصف بنظام معين أو جنس معين.

(١) ١ كو ١: ٢ و ٣ و ١٦: ١ و ١٩. وأف ٢: ٣-٨ و ١٩-٢٢. وكو ١: ٢١ و ٢: ١٠. واتس ٥:

٤ و ٥. و ٢ تس ٢: ١٣. و ١ بط ٢: ٩.

وروح الله تسكن في المؤمنين بالحق فيجعلهم أعضاء الكنيسة الحقيقية غير المنظورة التي هي جسد المسيح، سواء اتحدوا بها تحت نظام خارجي أم لا، كاللص على الصليب الذي صار عضواً حياً فيها، وخلص دون الدخول تحت نظام كنسي خارجي، وهذا يعني أن المؤمنين لا ينالون حقوق الكنيسة ومواعيدها بنظام خاص. وشرط العضوية في الكنيسة هو الإيمان بالمسيح لا الانتماء إلى نظام خارجي، فإن المؤمنين الحقيقيين هم أولاد الله وبنو الملكوت وورثة الموعد، سواء كانوا يهوداً أم أمماً، أحراراً أم عبيداً، بغض النظر عن علاقتهم الخارجية بنظام كنسي.

- إذن فأهم اختلاف بين البروتستانت والتقليديين هو في تعريف الكنيسة.

- أجل، فإن صح قولنا في أن كل مؤمن حقيقي هو عضو حي في الكنيسة التي لها مواعيد المسيح بالإرشاد والحفظ، تسقط كل دعاوي التقليديين؛ التي أهمها عصمة الكنيسة وسلطانها ودوام الرسولية. فالتقليديون يعتقدون أن رؤساء الكنيسة هم الخلفاء القانونيون للرسول، وورثة امتيازاتهم وحقوقهم الرسولية، ولذلك خصصوا الوعد بموهبة الروح القدس لأنفسهم. وهذا باطل، لأنه دعوى بدون برهان، ويتبين بطلانه من أن عدد الرسل كان معيناً، واختارهم المسيح ليشهدوا بصحة تعليمه وحوادث حياته وموته، وخاصة قيامته. وليكونوا أهلاً لذلك كان يجب:

أولاً- أن تكون لهم معرفة ذاتية كاملة بتعليم الإنجيل.

ثانياً- أن يكونوا قد رأوا المسيح بعد قيامته (أع ١: ٢٢).

ثالثاً- أن يكونوا ملهمين من الروح القدس ليكونوا معصومين في تعليمهم.

رابعاً- أن يصدق الروح على رسالتهم بأن يكمل تعبيهم بالنجاح ويؤيدهم بالمعجزات المتنوعة والمواهب الروحية. وقد اجتمعت كل هذه الصفات والمواهب والمعجزات في الرسل الحقيقيين.

- ولكنكم تعتقدون ببولس أنه رسول مع أنه لم يقابل المسيح في حياته.

- الرسول بولس يتحدث عن نفسه فيقول إنه مرسل بيسوع المسيح (غل ١: ١)، وإنه لم يتعلم الإنجيل من الآخرين بل بإعلان خاص من المسيح (غل ١: ١٢)^(١)، وإن المسيح تراءى له (أع ٢٢: ٨ و١كو ٩: ١ و١٥: ٨) وإنه موحى إليه، ولذلك يجب قبول تعليمه كتعليم المسيح (١كو ١٤: ٣٧) وأن الرب شهد له ولصحة رسالته كما شهد لرسالة بطرس (غل ٢: ٨)، وأنه عمل كل أعمال الرسل من العجايب والآيات (٢ كو ١٢: ١٢).

- إذن ما وجه اعتراضكم على اعتقاد التقليديين بدوام الرسولية؟

- لأنه يظهر جلياً من الإنجيل أن وظيفة الرسل وقتية غير قابلة للانتقال والتسلسل، وليس في الإنجيل أمر باستمرارها خلافاً لغيرها من الوظائف الكنسية التي لدينا براهين على دوامها. ومنها الأمر بإقامة أشخاص يؤدون تلك الخدمات، والتي يثبت وجودها تاريخ الكنيسة منذ بدئه حتى الآن. أما الرسل فلا برهان مثل هذا على دوامهم، بل بالعكس فليس في الإنجيل أمر بإقامة خلفاء لهم، ولا فيه وعد بدوام المواهب التي تتطلبها خدمتهم، ولا عندنا أدلة تاريخية موثقة على وجود أناس يمثل صفاتهم في الكنيسة.

- ولكن لما هلك يهوذا طلب بطرس إقامة واحد بدله ليرجع عدد الرسل اثني عشر.

- ليس عندنا خبر بتعيين أحد بعد موت الاثني عشر ليخلفهم، وقد عين بطرس رجلاً بدل يهوذا كي يكون شاهداً بقيامة المسيح، لا لحفظ التسلسل الرسولي، وذلك بدليل قوله: "ينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب

(١) الغريب أن بولس قد أهمل كل نسخ الأناجيل الموجودة في عصره تماماً، ولم يستشهد بأي منها! والأغرب أن نسخ الأناجيل الأربعة، المعترف بها حالياً، قد ثبت أنها كتبت بعد رسائله!! ومن المرجح أن كتبها استمدوا بعض معلوماتهم من تعاليمه!!! للمزيد من المعلومات راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.



يسوع وخرج. إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا يصير واحد منهم شاهداً معنا بقيامته" (أع ١: ٢١، ٢٢). ثم ألقوا قرعتهم فوقعت على "متياس"، فحسب رسولاً مع الأحد عشر الآخرين.

- كيف ينال الإنسان الخلاص؟

- جاء في تاريخ المسيحية رأيان متضادان في وسائل الخلاص التي بها ننال النعمة السماوية: ونحن نتبنى الرأي القائل بأن المسيح هو المخلص الوحيد الذي افتدانا بدمه، وأننا نحصل على الخلاص بالإيمان به، وأن الإيمان هو نتيجة معرفة الحق وقبوله، وأن الفاعل العظيم في تنوير قلوبنا وتجديدها وتقديسها هو الروح القدس الذي يستخدم في ذلك الحق المعلن في الكتاب المقدس، وأن الكارزين بالحق هم خدم مختارون من الله لنشر بشرى الخلاص، ولكن ليس لهم السلطان الخاص بالرسول ولا مواهبهم العجيبة، وأن سرِّي الكنيسة (المعمودية، والعشاء الرباني) ليسا إلا من جملة الوسائل لبنيانها وثباتها في الإيمان ونموها في التقوى، وأن فاعليتهما تتوقف على قبولهما بالإيمان، لا على ممارستهما بأيدي القساوسة.

- وما هو الرأي الآخر؟

- رأي الكنائس التقليدية؛ وهو يقوم على الاعتقاد بأن رجال الدين هم خلفاء الرسل، ولهم وحدهم سلطان الرسل ومواهبهم؛ وعلى ذلك فهم وكلاء النعمة الإلهية، وذوو قدرة على توصيلها إلى البشر بواسطة الأسرار الكنسية. أي إن الله يستخدمهم هم فقط كوسائل ليوصل نعمته وخلاصه إلى البشر! كما أعطى الرسل مواهب تجعلهم قادرين أن يعملوا العجائب، ويعطوا الروح القدس بوضع أيديهم عليهم، كما فعل بولس في أفسس (أع ١٩: ٦). وهكذا يفوض الله الإكليروس^(١) أن يمنحوا، بواسطة الأسرار، النعمة وتجديد النفس. وبناء على ذلك يكون قبول الأسرار عن يد الإكليروس

(١) طبقة الكهنوت أو رجال الدين.

ضرورياً للخلاص، وكذلك تتوقف فاعلية الأسرار على ممارستها بالأسلوب الذي يراه الإكليروس قانونياً، وهذا يخول الإكليروس سلطاناً في الأمور الروحية لم يخولهم إياه الله، ويملاً أيديهم من القوة المفرطة لاستعباد البشر.

- ولكن بعض آيات الكتاب تشير إلى رسامة الإكليروس بوضع الأيدي وقبول الروح القدس^(١)!

- لقد فسروا تلك الآيات تفسيراً فاسداً؛ فهي لا تشير إلا إلى موهبة عمل المعجزات بقوة الروح القدس لإثبات صدق الديانة المسيحية. ولما كانت تلك الغاية وقتية زالت تلك الموهبة بزوالها لعدم لزومها بعد.

فقال أبراهام وهو يقلب الكتاب المقدس:

- ولكن في يو ٢٠: ٢١، ٢٢ قال المسيح: "كما أرسلني الأب أرسلكم أنا". ولما قال هذا نفخ وقال لهم: "اقبلوا الروح القدس". والتقليديون يفسرون ذلك بأن الذين نفخ فيهم المسيح حينئذ، أفرزهم بذلك لوظيفة إكليريكية في الكنيسة، وأنهم أخذوا منه قوة ليرسموا خلفاء يمنحونهم الروح القدس كما فعل المسيح، وأيضاً موهبة عمل المعجزات، وأن الترتيب يمتد مثل سلسلة رسولية في أجيال الكنيسة!

- الخطأ في هذا التفسير أنه يفترض أن المسيح قصد أن يرسل الرسل كما أرسله الأب تماماً، وحتى إن كان ذلك صحيحاً، فلا يكون ذلك برهاناً على أنه فوض إليهم منح غيرهم تلك المواهب الرسولية إلى ما لا نهاية له من تاريخ الكنيسة. كما أن المسيح منح الرسل تلك القوات، وأرسلهم لغاية خاصة هي الكرازة بالإنجيل وتعليم البشر شروط المغفرة وصلاح السيرة، لا أن تكون لهم قدرة ذاتية على منح النعمة الإلهية. أما المسيح فأرسله الله فادياً وكاهناً وذيبة وشفيعاً وملكاً للمؤمنين، ولا

(١) ١كو ١٤: ٢٢، ومر ١٦: ١٥-١٨، وأع ٤: ٢٩، ٣٠ و٥: ١٢، وعب ٢: ٤.

يمكن انتقال هذه الوظائف إلى الرسل ولا إلى غيرهم. ولما كانوا ملهمين، كان تعليمهم وتصريحهم بفقران الخطايا أو بإمساكها بسطان منه وبالوحي لا محالة. وقبول الرسل الروح القدس من المسيح في هذا الوقت كان يرمز إلى قبولهم إياه قانونياً بعد ذلك ببضعة أيام في "يوم الخمسين"^(١)، ليصبحوا قادرين على تكميل أعماله الخاصة من عمل المعجزات، والشهادة للحق وتأسيس الكنيسة المسيحية وتنظيمها. أما الزعم أنهم حينئذ تقلدوا الدرجة الرسولية فتحريف للحق، لأنهم تقلدوا تلك الدرجة قبل ذلك الوقت بنحو ثلاث سنين، ويؤيد ذلك غياب "توما" عن الرسل وقتئذ، لأنه لو صح هذا الزعم يكون توما قد استبعد من بينهم لأنه لم ينل هذا التكليف معهم.

- معقول!... ولكن هناك آية صريحة في الرسامة: أع ٦: ٥، ٦ حيث يقول: "فحسن هذا القول أمام كل الجمهور، فاختروا "استفانوس" رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس، و"فيلبس" و"بروخورس" و"نيكانور" و"تيمون" و"برميناس" و"نيقولاس" دخيلاً أنطاكيا، الذين أقاموهم أمام الرسل، فصلوا ووضعوا عليهم الأيدي". وهذا خبر رسامة الشمامسة الأولين في الكنيسة.

- لاحظ من فضلك أن الآيتين ٣، ٥ توضحان أن هؤلاء الأشخاص كانوا مملوئين من الروح القدس قبل رسامتهم، وقبل وضع أيدي الرسل عليهم. ويؤيد ذلك ما جاء في آية ٨ من أن "استفانوس" صنع معجزات عظيمة. ولما كان القصد الخاص في رسامة استفانوس ليس القدرة على صنع العجائب وحلول الروح القدس فيه، بل خدمة موثقة، كان القول أن هؤلاء الأشخاص أخذوا الروح القدس بسبب وضع أيدي الرسل عليهم زعماً بدون برهان. نعم كان حلول الروح القدس فيهم من الأمور اللازمة لاستعدادهم لخدمتهم، غير أنه كان سابقاً لرسامتهم.

(١) عيد الحصاد وهو اليوم الخمسين بعد عيد الفصح.

- ولكن هناك تفسير يقول أنهم قبلوه برسامة سابقة لوظيفة أخرى أدنى من وظيفة الشمس.

- هذا افتراء محض؛ لأنهم لم يرسموا قبل ذلك قط، كما كانت وظيفة الشمس أدنى وظائف الكنيسة المسيحية حينئذ. فهذه الآية وإن كانت تشير إلى الرسامة، لا برهان فيها على أن قبول الروح القدس كان على يد الرسل عند تتميم الرسامة. وكذلك في أع ٨: ١٥، ١٧ حيث يقول: "اللذين (بطرس ويوحنا) لما نزلا صليا لأجلهم (أهل السامرة) لكي يقبلوا الروح القدس. حينئذ وضع الأيدي عليهم فقبلوا الروح القدس". حدث هذا بعد ذهاب بطرس ويوحنا من أورشليم إلى السامرة لما عرفوا أن السامريين قبلوا كلمة الله. وعند وصولهما إلى هناك صليا لأجل جميعهم ليقبلوا الروح القدس، ووضع الأيدي عليهم فقبلوا الروح القدس. ولما رأى ذلك "شمعون" قدم لهما دراهم لشراء سلطان إعطاء الروح القدس، فوبخه بطرس. وليس في كل هذا ما يشير إلى الرسامة مطلقاً، ولا إلى الخلافة الرسولية من باب أولى. ولا كان من قصد بطرس ويوحنا إفراز أحد للوظيفة الإكليريكية، بل كان قصدهم منح الروح القدس للجميع بوضع الأيدي. ويؤيد ذلك ما جاء من خبر انسكاب موهبة الروح القدس على جميع الذين في بيت "كرنيليوس" وتكلمهم باللسنة (أع ١٠: ٤٨-٤٤). وجاء في أع ١٩: ٦ أن بولس وضع يديه على المؤمنين في أفسس، فحل الروح القدس عليهم وتكلموا بلغات. وجاء في اكو ١٢: ١٤ ما يدل على أن تلك المواهب العجيبة لم تكن للإكليروس خاصة، بل لكل الشعب، وأنها كانت علامة مفيدة لغير المؤمنين. إن إعطاء الروح القدس بوضع أيدي الرسل لم يكن لرسامة إكليروس، ولا لإثبات الخلافة الرسولية، بل لمنح مواهب عجيبة. ولا نرى في العهد الجديد خبر إعطاء الروح القدس بغير وساطة الرسل الاثني عشر. وحتى الآن لم يوجد في الكنيسة المسيحية من استطاع ذلك غير الاثني عشر رسولاً.

- أعددكم قديسون؟
- إن القديسين لقب يمكن أن يوصف به كل إنسان مسيحي؛ إذ إن القداسة ليست في ذات الشخص ولكنها مقام يوصل إليه.
- والرهبان؟
- لا تؤمن الكنيسة البروتستانتية بنظام الرهبنة.
- والكهنوت؟
- ترفض البروتستانتية مرتبة الكهنوت إذ إن جميع المؤمنين بها كهنة، وليس هناك وسيط ولا شفيع بين الله والإنسان سوى شخص المسيح لأنه جاء رئيساً للكهنة. كما لا تؤمن الكنيسة بالبخور والهيكل.
- أليس عندكم رجال دين؟
- فقط القساوسة، والشمامسين. والراعي هو الأسقف، والرئاسة تكون بـ"مجمع السنودس" ليس لفرد.
- ولكن الكنيسة الإنجليكانية (الإنجليزية) ويتبعها في أمريكا عدد من الكنائس يتبعون النظام الأسقفي على أنه نظام إلهي؟
- تسمى هذه بـ"الكنائس الأسقفية"، وهي -خلافاً لسائر الفرق البروتستانتية- تعتمد هذه الفكرة في تعيين أو اختيار أو عزل القساوسة، والشمامسة، أو تدشين الأراضي والأبنية الدينية، وإدارة تركات الموتى لحين وجود وصي شرعي للميت. ويلقب أساقفة إنجلترا بلقب "لورد"، حيث يعتبرون من أشرف المملكة، ويرأس ملوك إنجلترا الكنيسة الإنجليزية، وبذلك يعينون الأساقفة الذين يتم انتخابهم من القساوسة بعد ذلك. أما أساقفة الولايات المتحدة الأمريكية فينتخبهم نواب من قساوسة الأسقفية وأهاليها قبل عرضهم على مجمع الأساقفة أو على مجمع نواب مؤلف من السينودس والأهالي.

- هل تصومون؟

- نحن لا نؤمن بالصوم كفريضة، بل هو سنة حميدة، ولا يطلق إلا على الإمساك عن الطعام مطلقاً فقط.

- والصلاة؟

- الصلاة ليس لها مقدار محدد، كما أنه ليس من المحتم الالتزام بحرفية الصلاة الربانية.

- وبم تتفقون مع الكنائس التقليدية؟

- في الإيمان بإله واحد مثلث الأقانيم، وفي عقيدة الصلب والفداء وفي تقديس

الصليب.

- والتشكيك في بعض التقاليد أهو رأي خاص بالبروتستانت، أم هناك غيركم

ممن يتبنون هذا الرأي أيضاً؟

- باستثناء التقليديين (الكاثوليك والبروتستانت) فإن جميع الطوائف المسيحية

الأخرى تشكك بالعديد من التقاليد. حتى إن بعض التقليديين أنفسهم صاروا يجاهرون

بأن كنيستهم أخطأت أحياناً بتصديقها بعض التقاليد التي لا دليل على أن الكنيسة

الأولى قبلتها، بل يوجد ما يدل على أنها رفضتها فعلاً، ومن أمثلة ذلك قبول الكنيسة

أسفار الأبوكريفا بدعوى أنها مثبتة من شهادة الآباء والكنيسة، مع أن جميع الآباء، إلا

ما ندر، يرفضون الأبوكريفا، ومنهم "أوريجانوس" الذي لم يذكرها في فهرسه للأسفار

المقدسة، وكذلك "أوسابيوس" و"كيرلس" و"روفينوس" و"أثناسيوس"، الذي رفضها

جميعها إلا كتاب "باروخ"؛ لظنه أنه كتاب موحى به. ورفضها "هيلأريوس" جميعها،

وكذلك "أيفانيوس"، و"جريجوري النازي"، و"أمفيلوجيوس"، و"إيرونيوس"^(١)،

و"مجمع لاودكية". وكما ترى فإنه من ضرب المستحيل أن تثبت الكنائس التقليدية

(١) الذي عرف باسم القديس "جيروم". راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

اتفاقها على الدوام في جميع المواضيع الدينية. ولا يوجد مقياس واقعي لمعرفة صحيح التقاليد من خاطئها، وقد دخل في الأزمنة الغابرة في الكنيسة كثير من التقاليد الأخرى التي تمسكوا بها ثم تبين أنها كاذبة فرفضوها، فإذا سلمنا بسلطان التقليد جعلنا الكنيسة عرضة إلى ما لا نهاية له من الأخطاء.

- كيف تسمى الكنائس البروتستانتية غير الأسقفية؟

- تسمى جميع الكنائس البروتستانتية بوجه عام بـ"الكنائس المصلحة" (ريفورمد) وإن كان يقصد بها من الناحية التاريخية الكنائس البروتستانتية التي يرتكز أصلها على عقائد "كالفن"، وعلى أساس النظام الكنسي المشيخي الذي تركز فيه السلطات على سلسلة مجالس من الشيوخ العلمانيين ورجال الإكليروس، وتزع إلى الشكل البسيط في العبادة. وقد قويت هذه الكنائس في إنجلترا في القرن السادس عشر وخصوصاً في اسكتلندا وشمال أيرلندا، وسميت كنائس سويسرا وهولندا وعدد من كنائس ألمانيا بالمصلحة، كما توجد بالولايات المتحدة الأمريكية كنائس تحمل لقب المصلحة.

- وماذا عنكم أنتم اللوثريون^(١)؟

- نحن بالتأكيد لسنا ممن يعرف بالمصلحة، ولكنه في الواقع، ونتيجة للحرية الفردية في فهم الكتاب المقدس وتفسيره لكل فرد من المؤمنين بالمذهب البروتستانت، فقد انقسمت الحركة البروتستانتية إلى كنائس عديدة، وطوائف مختلفة، ولذلك يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ٧٦.٧٥٤.٠٠٩ بروتستانت يتبعون إلى ٢٠٠ طائفة بروتستانتية^(٢).

(١) أتباع مارتن لوثر. وتتلخص آراؤه بأن الكتاب المقدس والإيمان هما الطريق الوحيد للخلاص وليس الكنيسة. وترك تفسير الكتاب وفهمه لكل مسيحي، وقبل من أسرار الكنيسة السبعة سري المعمودية والقربان فقط، ورفض كل واسطة بين المؤمن والله سواء كانت واسطة أرضية أم سماوية؛ كإكرام القديسين أو تقدس بقاياهم أو أيقوناتهم، وسمح بزواج الإكليروس. وينتشر أتباع لوثر في ألمانيا ودول الشمال الاسكندنافية خصوصاً.

(٢) وذلك حسب إحصائيات عام ١٩٨٢م.

- ما هي أهم الكنائس البروتستانتية؟

- كنيسة اللوثرية بالطبع، وقد بدأ إطلاق هذه التسمية على المؤمنين بأفكار ومعتقدات مارتن لوثر في القرن السادس عشر وذلك رغم مقاومة لوثر نفسه لهذه التسمية، وأصبحت "جامعة وتبرج" المهد الأساسي لها. وقد ارتبطت اللوثرية في ألمانيا ارتباطاً وثيقاً بالحالة السياسية منذ أن دعا لوثر إلى إشراف الدولة على الكنيسة، لذلك فإن الحكومة الألمانية تدخلت أكثر من مرة لحل الخلافات بين أعضاء الكنيسة أو للاتفاق مع كنائس المصلحة. كما كان لظهور الكنائس المعمدانية في القرن السابع عشر أثرها في إثارة الخلافات بين البروتستانت مرة أخرى. وفي زمن "فريدريك وليم الثالث" ملك بروسيا تم الاتحاد بين الكنائس اللوثرية والمصلحة، ومنها تشكلت الكنيسة الجديدة، غير أن جماعة كبيرة من اللوثرية لم تنضم إلى هذه الكنيسة، وعرفوا باللوثرين القدماء.

- ما حقيقة تأثير الكنيسة بالنظام النازي؟

- في عام ١٩٢٢م حاول النازيون صبغ الكنيسة الألمانية بصبغة قومية، فجرى توحيد ٢٨ كنيسة مصلحة ولوثرية على أساس أن الدم الآري أحد المؤهلات العضوية لهذه الكنيسة القومية العنصرية. وقد تناول هذا التأثير العقائد والمبادئ أيضاً، مما مهد لقيام ثورة من آلاف القساوسة البروتستانت من بينهم "مارتن تيمولر" للمطالبة بتشكيل "السينودس الذهبي". وفي عام ١٩٣٤م عارض السينودس الذهبي تدخل الدولة في شؤون الكنيسة، بل رفض ذلك رفضاً حاسماً. وفي عام ١٩٣٥م أنشأت الحكومة وظيفة وزير الدولة للشؤون الكنسية، وخولت له سلطات مطلقة على الكنيسة الإنجيلية الألمانية. وفي عام ١٩٣٦م انتشرت حركة الإيمان الألماني التي تحالفت مع الفلسفة الإثنية الجديدة. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية ألغت الكنيسة الإنجيلية دستورها الموصى به من النازية لعام ١٩٣٣م، وبدأت تنظيم نفسها من جديد.



- أي البلدان تعتبر الكنيسة اللوثرية فيها هي كنيسة الدولة.
- في الدنمارك وأيسلندا والنرويج والسويد وفنلندا.
- وما هي مراكز تجمع البروتستانت بشكل عام؟
- في ألمانيا وهولندا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وسويسرا، وتوجد أقليات بروتستانتية في باقي الدول الأخرى.
- لقد كان لحركات الإصلاح البروتستانتية في هذه الدول الأثر الكبير في كشف عورات الكنيسة الكاثوليكية، وفي فضح سلوك القائمين عليها، كما أنها أفسحت المجال أمام العلماء والمفكرين وعامة المؤمنين بالكنيسة في حق فهم الكتاب المقدس، وبذلك كسرت احتكار رجال الدين لهذا الأمر.
- هذا صحيح.
- ولكن في المقابل، نشأ عن ذلك آثار سلبية عديدة على المسيحية بوجه عام وعلى الكتاب المقدس بوجه خاص، فقد تعرض للنقد الشديد والتشكيك في صحة نصوصه.
- لم يكن ذلك هدفنا، وقد صرح لوثر مراراً بأنه لا يجوز للمسيحيين أن يتبعوا غير ما جاء في الكتاب المقدس.
- ومع أن البروتستانت قرروا حرية البحث والنظر في الأمور العقديّة، إلا أنهم حرموها فيما بعد كالكاثوليك، بل أصبحت حرية الفكر عندهم مقتصرة فقط على نقد رجال الكنيسة الكاثوليكية.
- هذا ليس دقيقاً.
- كيف ذلك، وقد عذبوا رجالاً من أجل عقائدهم مثل "سرفيتوس الإسباني"^(١)، ومنعوا كتباً من النشر لأنها تحوي في نظرهم ما لا يتفق وتعاليم الكنيسة. ويقول

(١) وقد كان موحداً. لمزيد من المعلومات راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

"هربرت فيشر" في "أصول التاريخ الأوربي الحديث" عن لوثر: "لم يكن يؤمن بالبحث الحر ولا بالتسامح". كما نقل عنه قوله مهاجماً ملكة العقل: "تلك المجنونة الصغيرة الحمقاء عروس الشيطان السيدة العقل ألد أعداء الله!!" وأيضاً: "نحن نعرف أن ملكة العقل من الشيطان لا تفعل سوى التشهير والأذى في كل ما يقوله الله ويفعله.. تمسك إذن بالوحي الإلهي ولا تحاول الفهم"^(١). وعن موقف حركة الإصلاح الديني من العلم، يقول "أ. وولف" في كتابه "عرض تاريخي للفلسفة والعلم": "أما من حيث حركة الإصلاح الديني فإن المصلحين كانوا لا يقلون تعصباً عن رجال الكنيسة الكاثوليكية، إن لم يزيدوا عليها، ولذلك فإنهم هاجموا النظريات العلمية واضطهدوا من يقول بها"، ويقول كالفن بعد أن أعلن كفر من يقول بدوران الأرض: "مَنْ مِنَ النَّاسِ يَجْرُو عَلَى أَنْ يَضَع سُلْطَةَ "كوبرنيكوس" فوق سلطة الروح القدس؟".

- إن المصلحين ليسوا ملائكة، وبالتأكيد كانت عندهم بعض الأخطاء.

- لكنهم حاربوا العقل واضطهدوا الفلاسفة أمثال "آرازموس" الذي حاول التوفيق بين العقل والكتاب المقدس. ويذكر "ديورانت" في قصة الحضارة تصريحات ليوثر تبين تطرفه في إنكار العقل حيث يقول: "أنت لا تستطيع أن تقبل كلاً من الإنجيل والعقل، فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر"، ويقول: "إن العقل أكبر عدو للدين". ونتيجة لقتل الروح العلمية والفكرية، وتطرف زعماء حركة الإصلاح البروتستانتي في ذم العقل، أدى ذلك كله إلى ظهور الأفكار المناوئة للدين، وتعاليت الصيحات الإلحادية التي تطالب بحرية الفكر وسيادة العقل، واعتباره المصدر الوحيد للمعرفة، وأيضاً المناداة بفصل الدين عن الدولة بشكل تام واعتماد العلمانية.

فقال القس بنبرة فيها شيء من الحدة:

- عفواً، ولكن أجنّت إلى هنا لتستفسر عن البروتستانتية أم لتشتتها؟

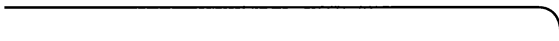
(١) نقلاً عن "تكوين العقل الحديث" لهرمان راندال، ١/ ٢٥٥-٢٥٧.

- أنا آسف سيدي. لم أقصد ذلك.

- يبدو أنني قد أخذت الكثير من وقتك في التحدث عن البروتستانتية، وأظن أن

الوقت قد حان لتستكمل جولتك السياحية.

ثم قام يوصل أبراهام إلى الباب دون أن يعطيه فرصة للرد.



◀ توبة مُدَّعِيَةٍ لليهودية، ويهودية مدَّعِينٍ للادينية

استقل أبراهام القطار في صباح الأحد الباكر، متوجهاً إلى مدينة إيزرلون. وما إن وصل إلى هناك حتى سارع إلى استئجار غرفة في أقرب فندق من المحطة، حيث وضع حقيبته، ثم خرج متلهفاً لتفقد أحياء مدينة جدته الحبيبة. كان يحاول تعرف الأماكن التي أسهبت في وصفها مراراً وتكراراً، وبالفعل نجح في تمييز بعض المعالم الطبيعية التي ظلت على حالها، كما نجح بشكل أقل في تمييز بعض المباني التي نجت من أهوال "الحرب العالمية الثانية". أما سعادته الكبرى فكانت حين عثر أخيراً على المنزل الذي ولدت وترعرعت به في "هاركورت شتراسة" رقم ١٠، وعينه من الداخل بعد أن استأذن أصحابه. ومع أنه قد مر أكثر من نصف قرن على مغادرة جدته إيزرلون، إلا أن وصفها كان دقيقاً، لدرجة أنه استطاع استنتاج التغيرات الكبيرة التي طرأت على البيت والشارع وبقية المباني والمعالم الرئيسية فيها.

قضى أبراهام سحابة يومه في استكشاف المدينة، وعندما قاربت الساعة السابعة مساءً، توجه إلى منطقة المشاة وأخذ يتجول فيها حتى يحين مواعده مع أحمد.

- ما هذه التسريحة العصرية الأنيقة يا بن العم؟ لم أكد أميزك من بين كل هؤلاء المارة.

جاءه صوت مألوف من ورائه، فالتفت أبراهام ليجد أحمد، كما توقع، فاتحاً ذراعيه، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. لكن الذي لم يتوقعه أنه هو أيضاً فتح ذراعيه ليعانقه بلهفة كبيرة. كان عناقهما مؤثراً، لدرجة أثارت انتباه المارة من

حولهم، وأكثر منهم أثار حيرة أبراهام نفسه. كانت هذه أول مرة يشعر فيها بمثل هذا الحنين والشوق، ويحس بعاطفة الأخوة، التي حرم منها، وطالما تمنّاها. وفي أثناء تبادل الحديث أحس أبراهام بكآبة وحزن شديدين في وجه أحمد رغم تعمه إظهار فرحته الصادقة برؤيته، فاستنتج السبب فوراً، وقال مواسياً:

- بالمناسبة. تعازي الحارة لقتلاككم في غزة.

- أشكرك يا بن العم. وأحسبهم إن شاء الله شهداء في الجنة.

ثم تحامل ليرسم الابتسامة مرة أخرى على وجهه قائلاً:

- هل تعرف أن جماعتك السابقة^(١) تنظم المظاهرة تلو الأخرى للاحتجاج على تلك المجزرة البشعة.

- أجل؛ فالبارحة شاهدت على التلفاز أحدهم وهو يحرق جواز سفره الإسرائيلي أمام كاميرات الصحفيين، ثم داسه بقدميه احتجاجاً على همجية تلك الدولة وتحديها للقيم الدينية والأخلاقية.

- لقد رأيت ذلك أيضاً. وقد كان ذلك ضمن فعاليات إحدى المظاهرات في لندن.
- كم ندمت حينها، وللمرة الأولى والأخيرة في حياتي، على أنني لم أقدم طلباً للحصول على جواز سفر إسرائيلي؛ إذن لأحرقته أنا أيضاً، عليّ أحرك شيئاً في الضمير الحكومي العالمي الذي طال سباته في شأن الصهيونية وجرائمها.

- للأسف فالضمير الحكومي العربي نفسه في سبات أيضاً عن ردع هذه الجرائم.
- بل حتى عن التخفيف من آثارها. وقد كنت في مصر ورأيت كيف تغلق الحكومة "معبّر رفح" في وجه الفلسطينيين احتراماً لتفاصيل معاهداتها مع إسرائيل، التي لم

(١) ناظوري كارتا.

تتحترم وساطة تلك الحكومة فضلاً عن تفاصيل معاهداتها معها^(١).

- لنا الله. هو مولانا ونعم النصير.

- ما الذي تفعله بإيزرلون؟

- جئت لأراك.

- حسناً كان سؤالاً غيبياً. ما الذي تفعله بألمانيا؟

- السبب نفسه.

- تعني أنك قدمت إلى ألمانيا خصيصاً لرؤيتي!

- في الحقيقة أجل، فقد كنت أستطيع القيام بنفس النشاطات التي أقوم فيها

حالياً لنصرة غزة من أي مكان آخر في أوروبا، ولكنني فضلت ألمانيا بالذات كي أقابلك.

- يا للغرابة! هل تعلم بأنني لم أكن بألمانيا، وأنني أيضاً جئت خصيصاً لمقابلتك!

- أعلم، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة لاتفاقنا على مكان للقاء، دون أن يعرفه

أحد غيرنا. والأهم من ذلك أن الوضع لم يعد مناسباً لك في مصر.

- وكيف علمت أن الوضع لم يعد مناسباً لي في مصر؟ وكيف عرفت أنني لا أزال

هناك أصلاً؟

- تلك قصة طويلة.

- ونحن لدينا كل الوقت.

(١) من آخر أمثلة التزامنا المشرف بتفاصيل المعاهدات الدولية كافة، بغض النظر عن قدمها أو أي اعتبار آخر، هو ما حصل عندما تناقلت وكالات الأنباء أن ست قطع عسكرية تابعة للكيان الصهيوني تتقدمها المدمرة إيلات عبرت قناة السويس في طريقها إلى البحر الأحمر. فقد صرح وزير الخارجية المصري "أحمد أبو الغيط" في مؤتمر صحفي في ختام الاجتماعات التحضيرية لقمة عدم الانحياز في شرم الشيخ أن العبور العسكري للقطع العسكرية تحكمه اتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨م!!! التي تتيح للسفن الحربية الحق في العبور البريء مادام أنه ليس لها "توجه عدواني"!!!

- لقد أخبرتني نتاشا، سكرتيرة النقيب ناحوم حزان ضابط الموساد المسؤول عن مراقبتك.
- ضابط موساد مسؤول عن مراقبتي أنا؟!!!
- أجل، وأنت قد رأيته وتحدثت معه دون أن تعرف هويته.
- أنا؟ ومتى كان ذلك؟!
- في الطائرة. فهو نفسه الدكتور حايم روبنشتاين الذي نجحت بالتملص منه في مطار القاهرة.
- لقد توقعت ذلك، ولكنني ظننته مجرد عميل، وليس ضابطاً برتبة نقيب. وماذا أخبرتك أيضاً؟
- أخبرتني عن المكيدة التي دبرها لك عن طريق عميلته جورجيت.
- وتعرف عن جورجيت أيضاً؟!!!
- لقد أخبرتني بكل ما حصل لك في الفترة الماضية.
- إذن فجورجيت يهودية فعلاً.
- كلا؛ إنها مسيحية. وهي تنتمي إلى كنيسة القدس الأرثوذكسية اليونانية.
- أي إنني كنت مصيباً بكونها إسرائيلية وليست مصرية.
- ثم صمت مفكراً، وقال وهو يسترجع حديثها في أول مقابلة لهما:
- ولهذا إذن كانت تركز على تلك الكنيسة في معرض حديثها عن الاختلاف بين الطوائف المسيحية الأرثوذكسية؛ فقد كانت تضع كل الكنائس الأرثوذكسية بكفة، وكنيسة أورشليم الأرثوذكسية اليونانية بكفة أخرى.

- إن تلك الكنيسة تختلف فعلاً عن بقية الكنائس الأرثوذكسية^(١).

- لقد لاحظت ذلك. يا لغباي! كيف مر علي كل ذلك بسهولة!!! فأولاً ادعت جورجيت بأنها بروتستانتية، وعندما كشفتها زلة لسانها، سارعت إلى الادعاء بأنها قبطية، مع أن معلوماتها عن الأرثوذكسية الخلقيدونية كانت أكثر عمقاً بكثير من معلوماتها عن الأرثوذكسية القبطية اللاخلقيدونية! فكيف لم أنتبه لكل هذا!!!

- هون عليك يا بن العم فكلنا عرضة للخطأ.

- لذا ينبغي أن نتعلم من أخطائنا ولا نسمح بخداعنا مجدداً من قبل الموساد.

(١) هناك علاقات مشبوهة بين بعض زعماء هذه الطائفة وحكومة الكيان. فقد صرح "سوخولفسكي"، المحامي السابق للبطيركية الأرثوذكسية في القدس بأنه: "لولا البطيركية وصفقات الأراضي التي نفذتها، لما قامت دولة إسرائيل". ويستدل من ذلك أن الصفقة السرية التي كشفت تفاصيلها صحيفة معارف الصهيونية في عددها الصادر يوم الجمعة ١٨ آذار/مارس ٢٠٠٥، بين مجموعتين يهوديتين استثماريتين والبطيركية الأرثوذكسية اليونانية ليست الصفقة الأولى في تاريخ هذه الكنيسة، بل هي سياسة ممنهجة تتطابق والمخطط الصهيوني المكشوف لتهويد مدينة القدس. وما يبرر حتى الآن توجيه أصابع الاتهام إلى البطيرك "ايرينوس" هو عدم تقديمه أية أدلة أو مستندات قانونية تثبت عدم تورطه، أو المجمع المقدس الذي يضم "٢٠" بطيركاً ومطراناً في هذه الصفقة الخطيرة التي نفذها "نيكولاس باباديماس" وباع خلالها فندق "إمبريال" و"البراء" في باب الخليل في البلدة القديمة من القدس. ويؤكد "مروان طوباسي"، رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الأرثوذكسي والناطق الإعلامي باسم لجنة التحقيق في قضية تسريب العقارات في منطقة باب الخليل: "أن صفقات عديدة نفذتها البطيركية الأرثوذكسية اليونانية في السنوات السابقة، إذ جرى في فترة الثمانينات تبادل أراض بين الكنيسة والحكومة الإسرائيلية وقتذاك في منطقة "الخان الأحمر" في أريحا. وفي فترة التسعينات، اكتشفنا وجود تسريبات خطيرة للأراضي الفلسطينية، فسارعنا إلى عقد المؤتمر العربي الأرثوذكسي وكشفنا فيه أن الكنيسة عقدت صفقات خطيرة مع إسرائيل تم بموجبها بيع وتأجير لأراض وأديرة في القدس وبيت لحم". ويوضح "مشحور" أن البطيرك ايرينوس ليس وحده المتهم في هذه القضية، وإنما المجمع المقدس أيضاً، إذ إن القانون الكنسي يفترض أن أي قرار بشأن أملاك الكنيسة يجب أن يتخذ بقرار من المجمع سواء تعلق هذا القرار بتأجير الأملاك أو بيعها". ومن هنا، فإن الكنيسة مطالبة بتبرئة ذمتها وبوضع جميع الحقائق أمام لجنة التحقيق، وخلاف ذلك يضعها في دائرة الشك والاتهام. وجدير بالذكر أن الأراضي التي بني عليها البرلمان الصهيوني نفسه كانت ملكاً للكنيسة اليونانية.

- ماذا تعني؟

- أعني أن تكون نتاشا مرسله من قبل الموساد لتقوم بهذا الدور معك.

- هذا مستبعد جداً.

- فما الذي دفع بها إذن إلى أن تكشف لك كل ذلك؟!!!

- لقد غرر بها ناحوم حتى صارت تحبه بجنون، وصدقت أنه يقاسي الأمرين مع زوجته المتسلطة التي سينفصل عنها حالما تتحسن ظروفه، لكنه مل منها بعد فترة من الزمن، وسئم من تقييدها لحريته، فأخذ بالابتعاد عنها بذريعة أن زوجته وجدت شعرة شقراء عالقة بثيابه، وصارت تشك بوجود امرأة أخرى في حياته. واختلق القصة تلو الأخرى لإبعادها عنه، حتى نجح في نقلها إلى قسم آخر، ثم اكتشفت أنه يلعب اللعبة نفسها مع السكرتيرة الجديدة، والأدهى من ذلك أنها اكتشفت لاحقاً أنه قد عداها بمرض "الإيدز".

- الإيدز؟!!!

- أجل، فهو لم يستطع منع نفسه من ممارسة الجنس مع إحدى عميلاته الحاملات للفيروس، ولم تنجح أساليب الوقاية التي استخدمها لحماية نفسه من ذلك المرض.

- وما حاجة الموساد لذلك النوع من العميلات؟

- يرسلونهن إلى البلاد العربية بشكل دوري لنشر الإيدز هناك، عن طريق إقامة علاقات محرمة مع أكبر عدد ممكن من الشباب العرب.

- إذن فما سمعته في مصر عن ذلك الموضوع كان صحيحاً.

- مئة بالمئة. وقد زارتي إحداهن مدعية بأنها من مكتب للإحصاء، ثم توددت إلي بشكل مبالغ فيه.

- لكنك لم تفعل شيئاً معها أليس كذلك؟!

- أبراهام! أنت تعرفني جيداً.

- بالتأكيد، ولكن كيف عرفت إذن أنها حامله للمرض؟

- لقد أخبرتني نتاشا لاحقاً بأن ناحوم هو الذي أرسلها إلي، ثم أراها كيف صدقتها مع أنها كانت أجمل عميلة حامله للمرض في الموساد. وقد صعقت عندما علمت فيما بعد أنه هو نفسه لم يستطع مقاومة الجمال الصارخ لتلك الفتاة التي أرسلها لإغرائي، وأن دناءة نفسه تلك، قد تسببت بمرضه ومن ثم بمرض نتاشا نفسها.

- كيف أراها!!! وهل زرعوا في الشقة كاميرات أيضاً!

- أجل.

- ولكن لماذا أراها ذلك؟

- لقد أراها مقاطع من التسجيلات على سبيل التسلية، وللسخرية من تزمتي وغبائي لرفض فتاة بمثل ذلك الجمال، حتى دون أن أعرف أنها حامله للمرض. ولكن نتاشا، على العكس من ذلك، أعجبت بتقواي وكثرة صلاتي وترفعي عن هوى النفس التي أنقذتني من الفخ المنسوب لي، ذلك الفخ الذي وقع فيه ناصبه رغم الاحتياطات التي اتخذها للاحتراز من عاقبته.

- ألم تخف نتاشا من عاقبة كشفها كل ذلك لك؟

- لم يعد يهمها شيء بعد أن تعرضت للخداع وأصيبت بالإيدز. كما هالها ما عرفته عن قذارة ناحوم وقذارة الأساليب التي يلجأ إليها. وبالذات المكائد الموجهة ضدك رغم إيمانه التام ببراءتك، وزيف الأدلة ضدك، واعترافه بأنك لا تشكل أي خطر على الدولة، وأنتك فقط تبحث عن الحقيقة. بالمناسبة نتاشا غير مقتنعة بموضوع تأليفك لكتاب عن الأديان، وتميل أكثر إلى فرضية أنك تريد اعتناق المسيحية.

- هل افترضوا ذلك أيضاً؟

- أجل، ولكن ليس لمدة طويلة فسرعان ما استبعدوا ذلك الاحتمال، وأكدوا فرضية تأليف الكتاب.

توقف أبراهام هنيهة، مسترجعاً بعض الذكريات، ثم تابع المشي قائلاً:

- لقد كنت محقاً في استنتاجاتي إذن، ولكن للأسف بعد فوات الأوان؛ فجورجيت تعرضت لموضوع تألّيفي كتاباً عن الأديان بزلة لسان، مع أنني لم أذكر ذلك لها، وعندما سألتها لمَ تظن ذلك، كانت إجابتها: "لأنك بالتأكيد لا تريد اعتناق المسيحية".
- ولكن هذا لم يكن رأي نتاشا... وهو ما ولد عندها تعاطفاً كبيراً تجاهك.

- تعاطف؟ بسبب ظنها أنني أريد اعتناق المسيحية!!!

- أجل، فنتاشا مسيحية تدعي أنها من أصل عبري، ككثير من الروس الذين هاجروا إلى إسرائيل أيام الشيوعية، هرباً من الوضع الاقتصادي المتأزم، والتشدد السياسي، وانعدام الحريات آنذاك. وقد روت لي بمرارة كيف اضطرت في سبيل ذلك إلى الاستحمام حسب طقوس اليهود المتبعة في إسرائيل، أمام ثلاثة من الحاخامات القدرين، الذين التهموا جسدها بنظراتهم الشهوانية الشاذة حسب تعبيرها، أما الآن وبعد تحسن الأوضاع في روسيا الاتحادية بشكل جذري فلم يعد هناك ما يمنعها من العودة.

- هل تعلم أن كثيراً من الروس، حتى ذوو الأصل العبري فعلاً، قد عادوا ثانية إلى روسيا، وتركوا إسرائيل نهائياً؟ فرغم العقوبات الاقتصادية المقنعة على حرية التجارة مع روسيا التي حددها "قانون جاكسون - فانينك"، ارتفع ناتج اقتصاد روسيا على أساس الدولار ٢٧٪ كل عام منذ أول سنوات حكم بوتين، حسب خبراء "جولدمان ساكس"، في حين بلغ نمو الناتج الصافي ٧٪! وتم تسديد الدين الخارجي بأكمله، مع احتياط في الخزانة ٢٥٠ بليون دولار، ومتوسط دخل للفرد أصبح يفوق الـ٤٠٠ دولار شهرياً.

- أجل فروسيا غنية أصلاً؛ فهي أول دولة مصدرة للغاز وثاني دولة مصدرة للبتروول بعد السعودية، وأمامها مخزون هائل في الجنوب حول بحر قزوين، وكذا جنوب غرب آسيا الروسية. وكل ما فعله بوتين هو إقصاء الأوليجاركيين^(١) وزعماء عصابات المافيا اليهود^(٢) الذين دمروا الاقتصاد الروسي في عصر الليبرالية الجديدة في أثناء رئاسة "بوريس يلتسين". ولهذا أيضاً قررت نتاشا ترك إسرائيل وراء ظهرها، خاصة بعد ما خبرته من الإسرائيليين وطبائعهم واستغلالهم، وبعد عودة راحيل إلى أحضان قاتل أمها، مما أصابها بالقرف من كل ما يتعلق باليهود وبإسرائيل.

- راحيل عادت إلى مردخاي!

- أجل، وقد أخبرته بكل شيء عنك، وعن عزمك لفضحه في كتابك.

- كتابي؟! ولكننا لم نتحدث عن ذلك الموضوع قط.

- غريب. ربما أرادت منه أن ينتقم لها منك إذن.

- أرادت من قاتل أمها أن ينتقم لها ممن خسر الكثير في سبيل مساعدتها!!!

- لقد كانت تتلاعب بك، وعندما جعلوها تظن أنك أنت من تلاعبت بها، جن

جنونها.

أطرق أبراهام متخيلاً راحيل مع مردخاي، ثم هز رأسه غير مصدق، وسأله

مستفسراً:

- أعود فأسألك ثانية: هل أنت واثق من أن نتاشا ليست أحد الأعياب الموساد؟

(١) أي رجال الأعمال بالغي الثراء، وبالذات من لهم نفوذ على الدولة. وتشير صحيفة الجارديان البريطانية

إلى أنه من بين الأوليجاركيين السبعة الكبار في روسيا في التسعينيات، والذين كانوا يتحكمون في ٥٠ % من اقتصاد روسيا، هناك ٦ يهود هم: بوريس بيريزوفسكي، ميخائيل خودركوفسكي، فلاديمير

جوزينسكي، ألكسندر سمولينسكي، ميخائيل فريدمان وفاليري مالكين.

(٢) مثل: بوتانين، أفين وبرااموفيتش.



- لقد فكرت في ذلك طويلاً، وفي النهاية نفيت هذا الاحتمال تماماً؛ فقد تركت الموساد فعلاً، كما أنها أعطتني الكثير من المعلومات ولم تأخذ مني شيئاً.
- وما الذي دفعها إلى إعطاء تلك المعلومات لك أنت بالذات؟
- لتعاطفها معك فيما تظنه سعيك إلى ترك اليهودية واعتناق المسيحية، ولمعرفتها بعلاقتي بك، ولتعاطفها مع ضحايا غزة، ورغبتها في مساعدة من يريد أن يحرر أرضه من نجس اليهود؛ أولئك الذين وصفتهم بعديمي الشرف وقتلة الرب وخائنيه، حتى إنها تحدثت معي بالروسية فقط رافضة بشكل قاطع أن تتحدث بلغتهم.
- هل تظن هذا منطقياً؟
- أجل؛ فقد عادت إلى روسيا بالفعل، وإذا نفذت ما قررته حقاً، فهي الآن راهبة في أحد الأديرة تكفر عن حياتها السابقة، وتدعو الله أن يغفر لها ذنوبها. فقد قالت أنها تتوي اعتزال العالم، وعدم ارتكاب أي خطيئة أخرى، إلى أن تقضي نحبها نتيجة مرضها العضال، والذي تعتبره عقاباً عادلاً من الله على آثامها. بالإضافة إلى أنني تأكدت من صحة كلامها عبر مصادر أخرى. ومع كل ذلك، فقد اتخذت كل الاحتياطات على فرض أنها كاذبة وأن الموضوع مكيدة أخرى من الموساد.
- قل لي من فضلك؛ هل ذكرت لك نتاشا شيئاً عن مدام فيومي.
- أجل.
- إذن هي أيضاً عميلة للموساد؟
- كلا، ولكنها عضو في الجماعة اليهودية القرائية في مصر، وبعض القائمين عليها يمدون الوكالة اليهودية أو تنظيمات يهودية أخرى بالمعلومات التي -كما تعرف- ستصل عاجلاً أم آجلاً إلى الموساد.
- هذا ما توقعته. ولكن، هل هي فعلاً ضد الصهيونية؟

- لا أعرف، ولكن ذلك مرجح جداً، وعلى الأغلب أنها نفسها لا تعرف إلى أين تذهب المعلومات التي تتطوع بتقديمها، مع أنني لا أستبعد تماماً أنها ربما تساعد الصهاينة مباشرة، ولكنها تخفي تعاطفها معهم نتيجة لإقامتها بمصر. ولا تنس أن أحد أبطال إسرائيل القوميون بطل عملية سوزانا^(١) كان من طائفة القرائيين.

- أين تقيم حالياً يا بن العم.

- في مدينة "آخن"^(٢)، فلي فيها بعض الأصدقاء.

- أنا أستأجر غرفة في فندق جيد هنا. وإن أردت، تستطيع مشاركتي فيها لنتذكر الأيام الخوالي.

- إذا لم يكن هناك ما يربطك بإيزرلون حالياً، فالأفضل أن ترافقني أنت إلى آخن؛ فالمجال هناك أوسع بالنسبة إلى المساعدة في تنظيم الاحتجاجات على الحرب في غزة.

- وبم ستفيد هذه الاحتجاجات؟

- وبم سيفيد الوقوف مكتوف اليدين؟! ثم إن هذه المظاهرات التي تستخف بها قد بدأت تؤتي أكلها. والكيان الصهيوني اليوم هو أبعد ما يكون عن صورته الإعلامية التي جهد لرسمها في الوعي العالمي.

- أنت محق في هذا فعلاً، ولكنني لن أستطيع حالياً السفر معك، فأنت نفسك ضيف هناك. اترك لي عنوانك ورقم هاتفك في آخن، وسأزورك لاحقاً.

(١) فضيحة لافون، وللمزيد حول هذا الموضوع راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) من أكبر المراكز الإسلامية في أوروبا نظراً لوجود جالية إسلامية كبيرة فيها من مختلف القوميات. وهم يملكون تأثيراً لا بأس به على الحكومة الألمانية، ساعدهم على سنّ بعض القوانين التي تعطيهم الفرصة لممارسة تعاليم دينهم، وعدم اضطرابهم إلى مخالفته في أماكن عملهم أو دراستهم.

- لن تتخلص من مسؤوليتك الأخلاقية بهذه السهولة، فقد جلبت معي جهاز الكمبيوتر المحمول، وستساعدني في الرد على العدوان من وجهة نظر يهودية عقائدية في بعض المنتديات اليهودية والمسيحية. ففي الإنترنت تدور الآن حرب لا تقل ضراوة عما يحدث على الأرض.

- بكل سرور يا بن العم، وأظنني سأكون مفيداً فعلاً في هذا المجال؛ فقد تكشفت لي في الآونة الأخيرة معلومات من شأنها أن تعري كل الادعاءات الصهيونية واليهودية المزيفة. والآن هيا بنا لنتعشى في مطعم الفندق، فقد بدا لي جيداً.

- مطعم الفندق؟؟؟ وماذا عن الكوشير!

- سأشرح لك ذلك لاحقاً بالتفصيل، أما الآن فتستطيع القول بأنني أشعر بذلك القرف الذي شعرت به نتاشا تجاه كل ما يمت بصلة إلى اليهودية الحالية واليهود، بل وتقاليدهم التي لا أجد لها أصلاً مقنعاً. وعلى كل الأحوال فنحن لن نأكل لحم الخنزير أو أي شيء مما أنا متأكد من أن الرب قد حرمه فعلاً.

- يسرني سماع ذلك.

- أين حقيبتك؟

- بخزانة في محطة القطارات.

- إذن فلنستقل سيارة أجرة لإحضارها، ثم نذهب إلى الفندق سيراً على الأقدام، فهو لا يبعد كثيراً عن المحطة.

جلس الاثنان على شرفة غرفة الفندق، يتأملان جمال المدينة من الأعلى، وهما يتناولان الشاي بعد وجبة عشاء دسمة تناولوها قبل قليل. وبعد فترة صمت قصيرة، قال أبراهام متنهداً:

- آآه. الطبيعة هنا جميلة جداً، ولكن انشغال بالي يحول بيني وبين الاستمتاع بروعتها.

- ما الذي يشغل بالك حالياً؟
 - بل ما الذي لا يشغل بالي.
 - تبدو مرهقاً فعلاً.
 - أجل، فأنا أعاني حالياً الأرق وقلة النوم. وقد اختلت ساعتى البيولوجية، ولم يعد هناك فرق عندي بين الليل أو النهار.
 - هذا مؤسف فعلاً... أما زلت تحبها؟
 - من؟ راحيل!!! إن ما يشغل بالي أهم بكثير من تلك...
 - لم تكن تستخدم مثل تلك الألفاظ سابقاً! يبدو أنها أثرت عليك كثيراً.
 - اعذرني يا بن العم، فما مر علي في الفترة السابقة أكبر من قوة أي شخص عادي على الاحتمال.
 - لا عليك يا بن العم، فأنا أتفهم ما أنت فيه.
 - كلا، فما عرفته من نتاشا هو جانب بسيط من الأحداث، وأنت لا تتصور الذي حصل حقاً.
 - هل ترغب بالحديث عن ذلك معي.
 - أجل، فلمن أبوح بهمومي، إن لم أبح لك؟ فأنت أقرب شخص إلي حالياً.
 - أشكرك على شعورك.
- بدأ أبراهام يقص على أحمد تفاصيل مأساته مع المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته، وروى له عن خداعها واعترافاتها وسرقتها له، وعن صدمته بمدام فيومي التي وثق بها كثيراً، وعن شعوره بالإحباط والنقص، والكره لذاته، لكونه يهودياً، وعن اكتشافه بأن اليهود الذين لا يشكلون أكثر من ثلاثة عشر مليوناً، مسؤولون بشكل مباشر أو غير مباشر عن إفساد أديان أكثر من ستة مليارات من البشر.

لم يدرِ أحمد ما الذي يجب عليه قوله في مثل تلك المواقف، ولكنه مع ذلك واساه كما يفعل الصديق في مثل تلك المواقف، وحاول رفع معنوياته المنهارة، ثم سأله مستفسراً:

- هل تظن حقاً أن السيدة فيومي قد نقلت أخبارك إلى الموساد مباشرة؟
 - لا أدري إن كانت متورطة مباشرة مع الموساد، أم أنها نقلت الأخبار عبر التنظيم اليهودي القرائي الذي لا ريب أنها تنتمي إليه كما ترجح أنت، ولكنني واثق من أن كل اليهود، إلا من رحم ربي، وهم قلة قليلة، يعملون لمصلحة إسرائيل ومن ثم الصهيونية.
 - لا ينبغي أن تقول هذا يا بن العم، فأنا نفسي كنت أظن ذلك قبل أن أعرفك أنت بالذات.

- أرجو أن أكون ممن رحم ربي.

- ولكن هناك العديد من اليهود المتدينين المعادين للصهيونية، وكذلك من العلمانيين اليساريين، بل ومن الوثنيين اليهود، الذين لا يقيمون لليهودية وزناً بالأصل، فضلاً عن إسرائيل أو الصهيونية.

- صدقتي يا بن العم، إن الأغلبية العظمى من هؤلاء اليهود المعادين لإسرائيل والصهيونية، وكذلك الذين لا يؤمنون باليهودية كدين، بل كثير ممن ارتدوا منهم عن اليهودية واعتنقوا ديناً آخر وأخلصوا له، يدعمونها عند الحاجة، وأنا واثق مما أقول تماماً.

- وعلى ماذا بنيت ثقتك هذه؟

- أولاً على تجربتي الشخصية مع جماعتي السابقة ناطوري كارتا، فمع فخري بما فعله ذلك الحاخام في لندن، وأملي في أن يكون أيضاً ممن رحم ربي، إلا أنني أكاد أجزم أن أهدافه دعائية في الدرجة الأولى، أو على الأقل ذات طابع فردي. فقادته

رغم مجاهرتهم بمعادة إسرائيل على رؤوس الأشهاد، إلا أن أغلبهم هاجروا إليها، ولا يزالون يعيشون فيها، ويعتبرون أنهم معنيون بإنقاذها من نفسها، وهذا هو رأي مدام تلباوم، التي على عداتها الصريح لإسرائيل، وتمنيها زوالها، إلا أنها ترجو أن يكون ذلك بيد الرب مباشرة، وليس عن طريق البشر، كي لا يجر ذلك مصائب على اليهود حسب تعبيرها. وكذلك حال اليهود غير الملتزمين بالدين، والذين لا يؤمنون بالرب كإيوسف اللاديني الذي يجمع التبرعات لإسرائيل، والعجوز الاشتراكية التي تخجل من ذكرى تورطها بالمشاركة في المؤامرة الصهيونية ولكنها ستمشي في الطريق نفسه لو عاد بها الزمن إلى الوراء. وكذلك الحال مع الليبراليين دعاة التعايش والسلام، كهافا التي تشجع النقد الحر ولا ترضى بالتسليم بما يفرض عليها، ولكنها تهجر من يحاول النباش في المنظمات السرية اليهودية، وتكتب به تقارير إلى الموساد. وأخيراً مدام فيومي القرائية المناهضة لإسرائيل وللإهودية الحاخامية بشكل عام، ولكنها تشعر بالعار لرؤية مجندين سود في الجيش الإسرائيلي، وتتطوع لتزويد الموساد بالمعلومات اللازمة.

- تجربة غنية فعلاً.

- ومؤلة أيضاً للأسف.

- لا عليك يا بن العم. ولكن ربما يجب ألا تتبنى مثل هذا الرأي نتيجة لتجارب

شخص واحد فقط، وإن كان هذا الشخص هو أنت.

- ليست تجاربي وحدي، ولكن واقع الحياة. فالحريديم ممثلون في أغودات

إسرائيل المنشأة لمحاربة الصهيونية، يشاركون بفعالية في سياساتها، ويوفرون لها

الحيل والفتاوى اللازمة لإضفاء صبغة دينية على كفرها. واليهود الليبراليون الداعون

إلى الاندماج في أوطانهم الأوربية والأمريكية والمتململون من تأثير سياسات إسرائيل

على أوضاعهم في بلدانهم، يتجسسون لحسابها ويقدمون الدعم السياسي والمادي لها

بلا حدود. والعلمانيون اليساريون الذين يجهدون في انتقادها ليل نهار، يجهدون أكثر في محاولة إيجاد مخارج من هاجس نهاية إسرائيل الذي يؤرقهم. والمسيحيون من أصل يهودي، لا همّ لهم إلا حشد قوى إخوانهم الجدد في الدين لمنصرة أولئك الذين ارتدوا عنهم.

هز أحمد رأسه مسلماً، وهو يقارن كل الأمثلة التي ضربها أبراهام مع ما قرأه وخبره بنفسه، ثم قال بشرود:

- ربما كنت محقاً.

- في هذا الأمر بالذات أظن أنني أصبت كبد الحقيقة، فكل من ينتسب إلى اليهودية بشكل أو بآخر يدعم إسرائيل بغض النظر عن خلفياته الفكرية أو الإيديولوجية. وآخر قراءاتي حول ذلك الموضوع، الذي تحررت عنه جيداً، هي هذا الكتاب.

قال ذلك وهو يخرج كتاباً من حقيبته، ثم قلب صفحاته الأولى وقرأ فيها:

- "وفي أحد الأيام سمعت إحدى الشقيقات تدلي بتصريح بسيط. كلماتها المختصرة كانت البذرة التي جعلتني أريد معرفة ما أجعله. حدث الأمر هكذا: السنة كانت ١٩٧٢، كنت جالسة في مطار في "بورتو فالارتا" في المكسيك. كنت أزور شقيقتي "هوتس" وزوجها "أرنولد"، وهما نيويوركيان، يمضيان الشتاء في المكسيك. وبينما كنا ننتظر رحلة العودة، اشترى أرنولد صحيفة "مكسيكو تايمز" باللغة الإنكليزية، وأعطانا إياها، وتركنا لعدة دقائق. جلسنا، تحدثنا، ونظرت إلى العناوين. القصة الرئيسية تحكي عن العرب واليهود والشرق الأوسط، "بصراحة"، قلت لأختي: "لا أفهم شيئاً من هذا". فأخذت أختي، التي لديها اطلاع بالتاريخ، قلم رصاص، ورسمت خريطة: "هنا توجد فلسطين، ومن فلسطين رسمت كيانياً آخر "إسرائيل" وكتبت "وجدت سنة ١٩٤٨". رسمت الضفة الغربية، غزة والقدس الشرقية العربية ثم توقفت، وساد صمت طويل. تتهد متابعة: "هذا هو الموضوع الذي لا نستطيع مناقشته أنا وأرنولد". دهشت

فسألت: "ولكن، لماذا؟" كلاهما ليبراليان، منفتحان، يدعمان دعوة حق المساواة للسود والهنود، دائماً يتعاطفان مع المضطهد، والفقير والعاطل عن العمل. في العقود الثلاثة من زواجهما أثرا بي، لأنهما أفضل ثنائي يناقش كل الموضوعات، مهما كانت عادية وبسيطة، ما الذي يميز هذا الموضوع حتى "يمنع مناقشته"؟ أنا بحاجة أن أعرف ولكن أفترض أنها تستطيع الشرح. "هل هذا تحريم؟" سألت مع علمي بخلفية أرنولد اليهودية... "لأسباب دينية؟". "لا" أجابت. "الدين ليس هو المشكلة، أرنولد أصر دائماً على أن اليهودية ليست دينه. إنه علماني، وكما تعلمين "تزوجنا وفق مراسيم مدنية؛ هو لم يدخل إلى الكنيس قط، ولا والداه، لذلك فالسبب الذي يمنعنا من مناقشة الشرق الأوسط ليس "اليهودية كدين" قلت: "هل تشرحين لماذا لا تستطيعان مناقشة موضوع العرب واليهود؟". "كلا". قالت: "يبدو أنه لا يقدر أن يشرح الأمر بالكلمات، لا يمكنه تحمل كلمة نقد ضد إسرائيل، هو لا يعرف الكثير عن التاريخ، ولا يريد الخوض فيه، لقد قال ببساطة بأننا لن نناقش الأمر، قال بأن الموضوع(عاطفي جداً بالنسبة إليه)". فجأة سمعت بأن رحلتي قد حانت. تعانقت أنا وأختي وأسرعت بالخروج. كلماتها بقيت في ذهني لعدة سنوات، بقيت أتساءل: "لماذا يستمع إلى أختي إذا انتقدت الولايات المتحدة أو أي بلد آخر في العالم، ولكن لا يستمع إليها، ولا يمكنه تحمل أي نقد لإسرائيل؟". في النهاية، قررت أن أقوم بجولة استكشاف".

- أذكر أنني قرأت هذا الكتاب عن حقيقة اليهود وما لا يعرفه مسيحيو أمريكا، من تأليف "غريس هالسل" (النبوءة والسياسة).

- تماماً. فما الذي يجعل ذلك اللاديني الذي لم يدخل لا هو ولا أبأوه إلى أي كنيس، ذلك التحرري متفتح العقل المدافع عن حقوق الأقليات والمضطهدين؛ ما الذي يجعله لا يتقبل مجرد النقد لإسرائيل!!!

- بدأت أفهم ما ترمي إليه.

- ولزيادة الإيضاح تذكر الفيلم "إسرائيل مفتاح أمريكا إلى النجاة" الذي أعده القس "مايك إيفنز" في الثمانينيات، وهذا القس كان صديقاً مقرباً لجورج بوش الأب ويحتل مكانة بارزة في الحزب الجمهوري.

- أذكر ذلك. فقد عرض في ذلك الوقت^(١) على ٢٥٠ محطة تلفزيونية وقال إيفنز فيه: "إن الله يريد من الأمريكيين نقل سفارتهم من تل أبيب إلى القدس، لأن القدس هي عاصمة داوود، ويحاول الشيطان أن يمنع اليهود من أن يكون لهم حق اختيار عاصمتهم. إذا لم تعترفوا بالقدس ملكية يهودية، فإننا سندفع ثمن ذلك من حياة أبنائنا وآبائنا، إن الله سيبارك الذين يباركون إسرائيل وسيلعن لاعنيها". وقد قدم في فيلمه مختلف التأكيدات السياسية حول أهمية إسرائيل للولايات المتحدة، وشدد على القول بأنه: "إذا تخلت إسرائيل عن المناطق التي تحتلها بصورة غير شرعية فإن الله سيدمر كلاً من إسرائيل والولايات المتحدة" ويختتم الفيلم بنداء إلى المسيحيين لدعم "أفضل صديق لأمريكا في ذلك الجزء من العالم". ولكن ما علاقة هذا بموضوعنا؟

- إن القس إيفنز يهودي متصر. ويقول الراهب "ويكرسون" بشأن ذلك: "إن مايك إيفنز تنصر من أجل مساعدة شعبه، ولكن هذا لا يعني أنه يذهب إلى إسرائيل ويحاول تنصير اليهود! لا شيء من ذلك على الإطلاق. فهو يريد أن يظهر لإسرائيل وللإهود أننا نحبههم وأنها نقف إلى جانبهم، ويريد أن يعرب لهم من خلال وجودنا ومن خلال هدايانا عن حينا الكبير"^(٢).

(١) ١٩٨٤م - ١٩٨٥م.

(٢) جاء في أحد المنتديات، نادي الفكر العربي:

(<http://www.nadyelfikr.com/printthread.php?tid=2526>)

قسم: الحوار الديني. الموضوع: الإنجيليون. على لسان أحد المحاورين المسيحيين التقليديين (اسمه هناك فادي) ما نصه: "نظرة المسيحيين الصهيونيين لليهود هي أنهم مازالوا "شعب الله المختار"! كان عندنا مجموعة من هذه النوعية في منتدى الكنيسة (ومنهم متصرفون من أصول يهودية) وكنت أشعر أن بركاناً انفجر تحتهم لو أن أحدهم تكلم بحرف على إسرائيل!! لَمْ هذا التقديس لهذا العرق؟! انتهى خلاص عصر أن يكونوا مُميزين عن غيرهم، وأصبحنا نحن الآن المُختارين!".

- لم أكن أعرف ذلك.

- هل تعرف أن رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بييجين المعروف بشدة تدينه قد أخبره عن خططهم بغزو لبنان قبل يومين من حدوثه! وايفنز يفتخر بأنه قد صلى مع بييجين لمدة ٢٤ ساعة مباشرة بعد غزو لبنان في عام ١٩٨٢م.

- اليهود المتدينون يحتقرون اليهود المرتدين، وبالذات للمسيحية، بأي دين صلى الاثنان معاً!!!

ابتسم أبراهام بمكر قائلاً:

- الرب وحده يعلم، وخذ "كرايسكي"^(١) مثلاً آخر.

- مهلاً! فهذا المثال ضدك لا معك؛ لأن كرايسكي وإن كان يهودياً، إلا أنه كان ضد الصهيونية بشكل جذري. وقد وصفته رئيسة وزراء إسرائيل المعاصرة له "غولدا مائير" بأنه "خائن لليهود"، وقد كان يرى أن غولدا مثل "زوجة الأب الشريرة" التي تحاول أن تفرض عليه أموراً لم يرغب فيها، وتدفع الشرق الأوسط نحو الحرب، بالإضافة إلى أنه كان صديقاً للعرب.

- إن الوثائق السرية للغاية حول حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ التي أفرجت عنها السلطات الإسرائيلية أخيراً تكشف عن مدى التعاون الذي كان يديه ذلك اليهودي مع "عدوته" غولدا مائير على حساب "أصدقائه" من الرؤساء العرب.

- وكيف ذلك!؟

- في ٢٨ أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٣ هاجم فلسطينيان قطاراً للمسافرين كان في طريقه من برتسلافا إلى فيينا، ولأنهما مسلحان بينادق "الكلاشينكوف" فقد سيطرا على القطار في أثناء توقفه في الجانب النمساوي من الحدود مع سلوفاكيا. من بين

(١) المستشار النمساوي السابق برونو كرايسكي.

المسافرين كان هناك عدد من اليهود الروس في طريقهم إلى إسرائيل. الفلسطينيون اللذان ينتميان إلى منظمة "نور الثورة" أخذوا خمسة من اليهود وضابط جمارك نمساوياً رهائن، وتوجها إلى مطار فيينا الدولي، وهددا بقتل الرهائن ما لم توقف النمسا هجرة اليهود من روسيا إلى إسرائيل عبر أراضيها، وتغلق معسكر نقل المهاجرين التابع للوكالة اليهودية القريب من فيينا.

- وهذا ما حدث فعلاً؛ فقد أغلق كرايسكي معسكر تجميع المهاجرين اليهود ونقلهم، فتم إطلاق سراح الرهائن، وغادر الفلسطينيون النمسا فعلاً على متن طائرة أقلتهما إلى ليبيا. وقد اتهمته غولدا مائير بتشجيع الإرهاب، وتوجهت إلى فيينا لإقناعه بالإبقاء على معسكر المهاجرين مفتوحاً. ومع أن اللقاء بين الاثنين استمر ساعة وأربعين دقيقة، فإن كرايسكي لم يقدم لها حتى كوب ماء، كما أعلنت غولدا فور عودتها إلى تل أبيب. فرد كرايسكي أنه لم يكن يوماً لا صهيونياً ولا متديناً، ولكنه لم ينكر أنه من أصل يهودي، وهو لا يرى في إسرائيل وطناً له، فهو نمساوي ولم يشعر إلا أنه نمساوي وعائلته أيضاً لديها الشعور نفسه.

ابتسم أبراهام بمرارة وقال موضحاً:

- مع أن معسكر تجميع المهاجرين ونقلهم قد أغلق بالفعل إلا أنه في أثناء ذلك اللقاء بين غولدا وكرايسكي اتفقا على ألا يتوقف انتقال المهاجرين الروس إلى إسرائيل عبر الأراضي النمساوية، ولكن إسرائيل تعهدت بتقليل الفترة التي يمضيها المهاجرون في النمسا، وإدارة عملية الهجرة دون ضجة إعلامية.

- يا إلهي!

- وبعد أيام قليلة من الهجوم على القطار الذي يقل المهاجرين اليهود وصل إلى فيينا مبعوث خاص من قبل الرئيس "أنور السادات"^(١) ليشكر كرايسكي على قراره

(١) "إسماعيل فهمي" الذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية المصرية.

إغلاق معسكر المهاجرين. وتقرير سفير إسرائيل في النمسا^(١) عن هذه الزيارة تضمن ما قاله كرايسكي للسفير حيث أوضح له أن إسماعيل فهمي قد أبلغه أن "لا مفر من نشوب حرب قبل نهاية هذا العام (أي سنة ١٩٧٣)".

- هل تعني أن كرايسكي خان ثقة العرب به وحذر إسرائيل من حرب رمضان؟!
- كلا، فكرائيسكي لم يصدق المبعوث المصري، حتى إنه أنهى اللقاء معه بسرعة، وتوجه إلى حملة انتخابية. ولكن بعد ثلاثة أيام اندلعت الحرب، فشعر بالندم لأنه لم يأخذ أقوال المبعوث المصري على محمل الجد، واستدعى السفير الإسرائيلي لإبلاغه بما قاله المبعوث، وإبداء خالص أسفه لعدم أخذ ذلك على محمل الجد.

- عدو الصهيونية وصديق العرب. هه. يا لي من أبله لأنني صدقت ذلك!
- لا تتطرف فتنتقل من النقيض إلى النقيض. لقد كان فعلاً عدواً للصهيونية وصديقاً للعرب، ولكن ذلك لم يمنعه، كما لم يمنع العديدين مثله، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، من الشعور بشيء من الولاء لإسرائيل، والالتزام بمساعدتها إن اقتضت الحاجة ذلك. وهذا ما كنت أحاول شرحه لك.

- كلامك خطير.

- وأظنه قد ينطبق على كل اليهود بشكل أو بآخر. وإذا ما ادعت الحاجة وتوافرت الظروف فينطبق حتى على أبي وأمي وعلى أولئك الذين أظنهم ممن رحم ربي. إنها لعنة أزلية من الرب على لسان أنبيائه يا بن العم، ابتلي بها اليهود الذين باؤوا بغضب على غضب بسبب حياتهم المليئة بقتل الأنبياء والتطاول على الرب والاحتيال على الدين والربا والمؤامرات والدسائس وإيقاد النار للحرب والفتنة بين الأمم.

- إذا كانت أزلية فلماذا كان الولاء قبل قيام إسرائيل؟

(١) "إسحاق باطيش".

- لوكالة اليهودية أو الحكومة الخفية أو المجموعة المصرفية الدولية أو الجمعيات السرية أو "الدجال". تختلف التسميات والطرائق، ولكنها تقود إلى أصل واحد.
- ما هو؟
- الولاء للشيطان الذي يستعين بهم للإفساد في الأرض.
- إذا كنت تعتقد ذلك، فما الذي يخرجك أنت عن تلك اللعنة الأزلية؟
- لاشيء، سوى... بحثي عن الحقيقة.

الدين والسياسة

وتشمل:

كنعانيون وهنود حمر

أذرع الأخطبوط

باباوات من أجل اليهود

البابا والقيصر

شهود زور

ضمير ليبرالي

هزيمة أم نصر؟

اغتسال الجسد والروح

مساجد وكنائس

للذي ببكة

الدين والسياسة



◀ كنعانيون وهنود حمر

قضى أبراهام وأحمد بقية اليوم وجزءاً من اليوم التالي على الشبكة العنكبوتية. كان أبراهام يهاجم الإسرائيليين ويدحض كل مزاعمهم المزيفة، ويرد عليها من وجهة نظر دينية يهودية، أو حتى سياسية إسرائيلية، مستخدماً كل المعلومات التي تحصل عليها خلال إقامته في الكيان الصهيوني. أما أحمد فقد كان يدعم تلك الردود بأخبار مآسي الحرب الموثقة بصور شظايا قتال انشطرت إلى جزيئات متناهية في الصغر، لدرجة يتعذر فصلها عن أجساد المصابين، مما يؤدي إلى النزيف حتى الموت، وصور إصابات بأسلحة لم تكن معروفة سابقاً وحيرت الطواقم الطبية، بما فيها الأجنبية نفسها، وباتت تشكل إدانة كبيرة للكيان الصهيوني. هذا غير صور القتل من النساء والأطفال والصحفيين والمسعفين، بالإضافة إلى صور المباني المقصوفة من مدارس ومستشفيات ومخازن أغذية ودواء تابعة لهيئة الأمم المتحدة، مما يعتبر انتهاكاً لمختلف الاتفاقيات الدولية.

صَعَق أبراهام نفسه لرؤية مثل تلك الصور، التي تتحاشى وسائل الإعلام الغربية^(١) التعرض لمعظمها، وتكتفي بنشر النزر اليسير منها، وتأسف لكون كثير من

(١) حتى العربية للأسف.

الدول التي تتغنى بحمايتها لحرية التعبير عن الرأي وحرية الصحافة، وبقية المسلسل الهزلي من الحريات، تمتع - مع سبق الإصرار - عن نشر حتى ذلك النزر اليسير!!! وتذكّر قرار "هيئة الإذاعة (والتلفزة) البريطانية" (BBC) لا بالامتناع عن نشر مثل تلك الصور واللقطات فقط، بل بالإصرار على عدم نشر نداء استغاثة لـ "لجنة طوارئ الكوارث البريطانية" لجمع التبرعات لمنكوبي غزة^(١)، في خرق نادر لاتفاق عمره ٤٦ عاماً مع تلك اللجنة التي تمثل ١٣ منظمة بما فيها "الصليب الأحمر البريطاني" (أو كسفام)، و"حماية الأطفال"، وجمعيات خيرية أخرى، يضمن لها دقيقتين في فترة البث العام في ساعات الذروة لتوجيه نداء للمواطنين البريطانيين بهدف مساعدة منكوبي الحروب والكوارث الطبيعية. وكيف خاطرت البي بي سي بتعريض مصداقيتها وشعبيتها للخطر، فقط في سبيل عدم إغضاب اللوبي اليهودي^(٢). لذا فقد نسخ من جهاز أحمد كل الصور التي عنده، وتعهّد بإعادة نشرها دورياً بين منتديات تلك الدول، التي تركز بقوة على نشر صور "الدمار" الذي تحدّثه "صواريخ القسام" بدائية

(١) يؤدي نداء لجنة الكوارث الطارئة على مستوى بريطانيا عادة إلى جمع ما متوسطه نحو ١٠ ملايين جنيه إسترليني كما حصل في كوارث أخرى في الكونغو والسودان ولبنان والعراق. وقد اقتدت محطات بريطانية أخرى بالبي بي سي مثل "بي سكاي بي"، و"أي تي إن"، و"أي تي في"، والقناة الرابعة، والقناة الخامسة. ولاحقاً تراجع القنوات الثلاث الأخيرة بالإضافة إلى ثلاث قنوات أرضية عن قرارها وباشرت ببث النداء.

(٢) على الرغم من مظاهرات الاحتجاج والتنديد التي استمرت لفترة طويلة أمام مقارها، ظلت البي بي سي مصممة على الرفض؛ بذريعة "الحفاظ على الحيادية وعدم أخذ جانب أحد طرفي النزاع" كما أعلنت!!! والحقيقة أن تلك المحطة لم تكن حيادية بتاتاً عندما يتعلق الموضوع بالترويج لليهود ومعاناتهم، والتنديد بالعمليات الفدائية. وحتى في شأن عدوان غزة الذي قررت المحطة فيه (ويشكل فجائي) اعتماد الحيادية أخيراً، فقد كانت نسبة عدد ضيوفها في أثنائه فلسطيني واحد إلى ١٣ صهيونياً. وركزت على تغطية المدنيين الصهاينة المصابين بالهلع جراء "صواريخ القسام"، في حين أنها أهملت ضحايا غزة بشكل متعمد. وقد ذكّرهم النائب البريطاني "جورج غلاوي" معاتباً، بأن أناساً في غزة أزالوا الخطر عن مراسلها "آلان جونستون"، وأنها شكرت من أجل ذلك حماس ورئيس الوزراء في الحكومة المقالة "إسماعيل هنية".

الغريب في الأمر أن البي بي سي تسعى للتأثير على العرب عن طريق بثها بالعربية، ولكن يبدو أنهم يستهينون بنالدرجة أنهم متأكدون من التأثير علينا حتى بدون الحد الأدنى من إبداء التعاطف مع ضحايانا، أو اعتبار أنهم بشر أيضاً، كاليهود مثلاً.

الصنع على مستوطنات القطاع الصهيوني، وتتناسى استخدام الكيان لأحدث الأسلحة الفتاكة في حربها على غزة، سواء المصرح باستخدامها، أو تلك التي لا تزال تحت التجربة أو تلك المحرم استخدامها دولياً، وبالذات في المناطق الآهلة بالسكان^(١). كما نسخ كل شكاوى منظمة "الصليب الأحمر الدولي" و"الأونروا" و"منظمة العفو الدولية" واحتجاجاتهم على جرائم الكيان الصهيوني بحق الإنسانية. وكذلك نسخ أدلة المنظمات الحقوقية الدولية الدامغة على انتهاكات الجيش الصهيوني وارتكابه لجرائم حرب حقيقية طبقاً للقانون الدولي.

في المساء جلس الصديقان ليقيماً حصيلة جهودهما ويستعرضا ردود أفعال المنتديات الغربية عليها. وبعد أن انتهيا، سحب أحمد المودوم الجوال (USB Stick)، من حاسوبه المحمول، ثم أغلقه قائلاً:

- يكفيني إنترنت لهذا اليوم.

فرد أبراهام وهو يشد ظهره ويمط ذراعيه، بعد كل تلك الساعات التي قضاها منحنيًا على شاشة الحاسوب:

- أجل، فلنتحدث قليلاً، فأنا مشتاق فعلاً للحديث معك.

- وأنا كذلك. ليتك أرسلت إلي رسالة إلكترونية تفيد بأنك ستصل يوم الخميس،

ولكنك لم تحدثني عما فعلته في تلك الأيام الثلاثة!

(١) مثل الفسفور الأبيض والدايم واليورانيوم المنضب. لدرجة أن كثيراً منها ظل مشتعلاً أياماً بعد انتهاء الحرب، فما بالنا حين يصيب الإنسان؟ وفي خلال حوار مع صحيفة "فلسطين تلغراف" الصادرة في لندن، في ٢٠/٦/٢٠٠٩ كشف الخبير والباحث البريطاني في الأسلحة النووية واليورانيوم "بيتر أير" النقاب عن أن أبحاث الفحص المخبري لعينات أخذت من غزة وتم التعامل معها في مختبر في ويلز، أثبتت أن الكيان الصهيوني استخدم القنابل القذرة (نفايات نووية)، التي تعد أشد خطورة من أسلحة أخرى محرمة، ولها نتائجها المدمرة على المدى البعيد، مشيراً إلى انتشار مرض السرطان وأمراض أخرى ذات صلة بين صفوف المدنيين.



- حال وصولي زرت كاتدرائية كولونيا، وتحدثت مع أحد قساوستها عن الكاثوليكية.
- ثم زرت في اليوم التالي كنيسة لوثرية وتحدثت مع قس آخر عن البروتستانتية.
- يا للنشاط! أنت لا تضيع وقتك سدى بتاتاً، أليس كذلك؟
- أحاول تعويض الأشهر الطويلة التي خسرتها مع راحيل؛ فقد ملكت علي حياتي وكل تفكيري آنذاك، لدرجة تكاسلت فيها كثيراً في بحثي عن الحقيقة.
- لا أعاد الله تلك الأيام. انس راحيل تماماً يا بن العم، وأخبرني عن حصيلة تلك الأحاديث مع القساوسة؟
- تماماً كحصيلة غيرها من الأحاديث التي خضتها إلى الآن مع أصحاب العقائد المختلفة: خيبة أمل من كمية الأوهام والمحدثات التي ملأت أديانهم. بالإضافة إلى أنني تأكدت عملياً من مناقضة البروتستانتية لمبادئها التي قامت أصلاً من أجلها.
- ليت العلة في ذلك فقط، إذن لهان الأمر.
- فيم العلة إذن؟!
- بتهويدها للمسيحية، عن طريق نقضها للأساس الذي بنيت عليه الكنائس التقليدية قبلها، وبامتداد تأثيرها إليهم مع مرور الزمن، بشكل أو بآخر.
- رغم مناقضة البروتستانتية لكثير من مبادئها، إلا أنني لاحظت أنها قد نجحت فعلاً في القضاء على الكثير من الأوهام والمحدثات التي غزت الكنائس التقليدية.
- هذا صحيح؛ فالبروتستانتية قد عادت إلى الدين الحق في كثير من النقاط، ولكن ذلك لا ينفي أنها أتت في المقابل بأوهام جديدة وبمحدثاتها الخاصة.
- أوضح من فضلك.
- كانت الكنائس التقليدية قبلهم تعتبر نفسها "شعب الله المختار" الجديد بدل اليهود الذين رفضوا الخلاص عبر المسيح فتجردوا من اختياراتهم. وكانت تعتبر اليهود قتلة

الرب، ولا أمل بخلاصهم إلا بترك اليهودية، واعتناق المسيحية. وترجمت الكتاب المقدس إلى اللاتينية، وجعلت تفسيره حكراً على كبار قساوستها، ومن خلالهم فقط تصل إلى عموم المسيحيين. وقد فسر هؤلاء كل النبوءات في الكتاب بصورة رمزية، أصبحت من خلالها الكنيسة هي المقصودة بها، وأهملوا أي فضل لليهود. وأصبحت الكنيسة تسمى نفسها أيضاً "إسرائيل فيروس"^(١) التي تعني "إسرائيل الحقيقية". وعندما جاء البروتستانت، أقروا بأن اليهود لا يزالون شعب الله المختار، وأن الله اختارهم بالذات ليتجسد بينهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأنه - ممثلاً بالمسيح - لن يعود إلى الأرض ثانية إلا بعد أن يرجع شعبه إلى فلسطين، ويعودون "أمة" هناك كما كانوا في السابق! وأن اليهود يمكن أن يصلوا إلى الخلاص مع الاحتفاظ بيهوديتهم في الوقت نفسه. كما أنهم رفضوا الترجمة اللاتينية المجهولة من قبل الناس، وترجموا الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية، وجعلوا الحرية للجميع بقراءة الكتاب وتفسيره كما يريدون، مبتعدين عن التفسير الرمزي المجازي، ومعتدين التفسير الحرفي له، وبالذات فيما يتعلق باليهود، بل إنهم استبدلوا بالمصطلحات الدينية اللاتينية بذريعة أنها لغة ميتة، ومصطلحات دينية من لغة ميتة أخرى^(٢)، لامصطلحات من لغاتهم المحلية!

- إن لي رأياً في ذلك، ولكنني مهتم بسماع رأيك أنت في تحليلك لما دفعهم إلى إعلاء شأن اليهود من وجهة نظرك.

- إنها إرادة الله عز وجل، لكلمة سبقت منه في الكتاب بعلو بني إسرائيل. ولكلمة أخرى بجعل الذين اتبعوا عيسى عليه السلام فوق الذين كفروا به من بني إسرائيل، وليس لبني إسرائيل أن يعلوا دون أن يكون ذلك عبر حبل من الذين هم فوقهم. ولكلمة

(١) باللاتينية Israel verus .

(٢) العبرية (القديمة) كانت أيضاً لغة ميتة ولا يتحدث بها أي شعب. ولاحقاً أعاد اليهود الألمان إحياءها وصاغوا قواعدها بشكل عصري.

ثالثة بأن يسكنوا الأرض حتى يأتي وعد الآخرة الذي وعدهم به سابقاً، ثم يجيء بهم لنيفاً (من أصول شتى) ويجازون عن فسادهم في الأرض.

- لقد تحدثنا عن ذلك مسبقاً، ولكنني لم أقصد رأيك الديني، بل رأيك الشخصي بماهية السبب الذي حدا بالبروتستانت إلى تغيير الفكر السائد عن اليهود، عند بقية الكنائس قبلهم؟

- تقصد تلك المقدمات والأسباب عينها التي أدت إلى تنفيذ مشيئة الله تعالى؟
- فلتعتبرها كذلك. ولكن أرجوك كن موضوعياً ومنطقياً، ولا تترك اعتقادك الإسلامي يؤثر على تحليلك للأمر. اسرد الحقائق المجردة، واترك لي تفسيرها واستنتاج الحكمة الإلهية من ورائها.

- كما تريد، فأنا لن أعجل عليك، لأنني واثق من أنك ستتهدي إلى الحقيقة في النهاية، مادمت تبحث عنها بهذا الجد.
- أتمنى ذلك.

- حسناً، سأسرد لك الحقائق المجردة. في عام ١٥٢٢م أصدر مارتن لوتر كتاب "المسيح ولد يهودياً"، مرسياً إحدى أهم دعائم الحركة المعارضة أو الاحتجاجية (البروتستانتية) على سلطان الكنيسة الكاثوليكية وفسادها. وحارب الكثير من الأوهام والمحدثات التي ما أنزل الله بها من سلطان، مرسياً ركائز حركة إصلاحية واسعة للمسيحية بشكل عام. وكان من ضمن المفاهيم الجديدة التي أتى بها، أن شرط المجيء الثاني للمسيح هو إقامة دولة لليهود في فلسطين. وأن كل من يساعد على ذلك يكون له نصيب في ملكوت الرب، وكل من يعرقله يبوء بغضبه. وقد أيدته الحكومة الألمانية وكل الأمراء الحانقين على سلطة البابا، مما جعل كنيسته منافساً خطيراً للكنيسة الكاثوليكية، ومهرباً منافساً من تسلطها الجائر باسم الدين، فاشتعلت الحروب

الطاحنة بين الكنيستين لعدة سنوات، راح ضحيتها الكثير من البسطاء، حتى أمكن التوصل إلى صلح^(١) على أساس إقرار "مبدأ إسيبير الأول" سنة ١٥٢٦م القائل: بأن لكل أمير الحق في اختيار المذهب الذي يريد سريانه في إمارته. وهكذا غربت شمس الكنيسة الكاثوليكية، وتقلص سلطانها، إذ أصبح بمقدور أية إمارة الخروج على سلطة البابا متى شاءت. ثم جاءت الضربة القاصمة للكنيسة التقليدية، عندما هزمت القوات الكاثوليكية في هولندا، وأعلن قيام جمهورية على أساس المبادئ البروتستانتية عام ١٦٠٩م. وقد كان ذلك بمنزلة انطلاقة للحركة الاحتجاجية المتهودة في أوروبا، مما ساعد على ظهور جمعيات وكنائس وأحزاب سياسية عملت جميعاً على تمكين اليهود من إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، أبرزها حركة السياسي البريطاني "أوليفر كرومويل"^(٢) الذي دعا حكومته الجديدة، بصفته راعي الكومنولث البريطاني الذي أنشئ حديثاً، إلى حمل "شرف إعادة إسرائيل إلى أرض أجدادهم، لأن وجودهم هناك هو الذي سيمهد للمجيء الثاني للرب المسيح". ومن هنا بدأت بذرة الدولة الصهيونية الحديثة في التخلق.

- وهل استمر ذلك في بريطانيا بعد سقوط جمهورية كرومويل وعودة الملكية؟
- أجل، ففي عام ١٨٠٧م أنشئت "جمعية لندن لتعزيز اليهودية بين المسيحيين".
- هل كان ذلك على المستوى الشعبي فقط؟
- بل تعدها سريعاً إلى المستوى الحكومي ثانية. وكما قال مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة^(٣) ذات مرة أمام المسيحيين الصهاينة: "إن كتابات المسيحيين الصهيونيين،

(١) صلح "أوجزبرج" سنة ١٥٥٥م.

(٢) ١٦٤٩-١٦٥٩م نجاح في إقامة جمهورية في إنجلترا وإبعاد الملكية.

(٣) "بنيامين نتنياهو" في عام ١٩٨٥م، وقد أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء الكيان مرتين.

من الإنجليز والأمريكيين، أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين، مثل "لويد جورج" و"آرثر بلفور" و"ودرو ويلسون" في مطلع هذا القرن، والذين كان لهم دور أساسي في إرساء القواعد السياسية والدولية، لإحياء الدولة اليهودية". وقد كان "أنطوني إشلي كوبر"^(١) هو من أطلق شعار: "وطن بلا شعب لشعب بلا وطن". كما يعتبر "تشارلز ه. تشرشل"^(٢) من أكبر المتعاطفين مع أفكار تلك المدرسة الصهيونية المسيحية، وكذلك اللورد "بالمستون"^(٣) الذي أرسل سنة ١٨٢٨م إلى سفيره في الأستانة، يدعوه إلى أن يضغط على السلطان العثماني ليقنعه ببدء الهجرات اليهودية إلى فلسطين، وبأنهم سيشكلون عقبة أساسية أمام مشروع "محمد علي باشا" لإعادة تجديد الشرق وبناء مملكة عربية. وفي ذلك الوقت كان "البيوريتان"^(٤) الإنكليز قد استقروا، وقويت شوكتهم في الأرض الجديدة (أمريكا) التي هربوا إليها بدينهم ذي الأصول الكالفنية نتيجة عودة الملكية واضطهادها ونفيها لهم.

- هل تذكر حديثنا في أورشليم عن العلمانية الدينية في الولايات المتحدة

الأمريكية؟

- بالطبع، فتلك الدولة الجديدة التي أسست في البداية على مبدأ حرية الأديان وتعددتها، صارت أقوى معاقل الأصولية الدينية في العالم، بعد أن أحكم البروتستانت سيطرتهم عليها فيما بعد^(٥)، فبدأت الحركة الصهيونية بالانتشار على

(١) اللورد "ريرل شانتسيري" ١٨٠١-١٨٨٥م.

(٢) الجد الأعلى لونسون تشرشل رئيس الحكومة البريطانية الأسبق.

(٣) وزير خارجية بريطانيا ١٧٨٤-١٨٦٥م.

(٤) تعني بالعربية "المتطهرون".

(٥) في البداية كان الموحدون من أهم العناصر الفعالة بين الآباء المؤسسين لتلك الدولة. بيد أن الأمور سارت على غير ما خطط لها.

أرضية صلبة^(١) وأنشئت العديد من اللجان والمنظمات والأحزاب التي تسعى إلى بناء وطن قومي لليهود في فلسطين^(٢)، ورفعت هذه المنظمات من شأن شعارات كـ"الأرض الموعودة"، و"الشعب المختار" في بداية الأربعينيات مع انتقال مركز الثقل في النظام العالمي إلى الولايات المتحدة. وقام الرؤساء الأمريكيون بالترويج للحركة الصهيونية بين مواطنيهم، ودعمها بكل قوتهم، فالرئيس روزفلت اتخذ نجمة داوود شعاراً رسمياً للبريد، والخوذات التي يلبسها الجنود، وعلى أختام البحرية، وجاء بعده ترومان الذي أصدر بياناً طالب فيه بإدخال مئة ألف يهودي فوراً إلى فلسطين، وكان له دور مشهود بجانب اليهود في حرب ١٩٤٨م. لقد عارض ترومان في سياساته الصهيونية كثيراً من المستشارين الحكوميين الذين كانوا يرسمون سياسة بلادهم الخارجية بناءً على مصالح بلادهم القومية؛ حيث كان ينظر بمنظار مختلف، قائم على أساس الدين. وعندما قدمه زعماء اليهود الحاضرون في إحدى الاحتفالات، وصفوه بأنه الرجل الذي ساعد على تأسيس دولة إسرائيل، فرد ترومان قائلاً: "وماذا تعني بقولك: ساعد

- (١) يعتبر "سايسروس سكلوفليد" ١٨٤٣م الأب اللاهوتي للصهيونية المسيحية في أمريكا. وبعده شن بلاكستون عام ١٨٩١ حملة سياسية للضغط على الرئيس بنيامين هاريسون من أجل دعم إنشاء دولة يهودية بفلسطين. ومع أنها لم تسفر عن شيء، تعتبر حملة بلاكستون الظهور الأول للصهيونية المسيحية في السياسة الأمريكية. ورغم أن الصهيونية المسيحية لم تختف تماماً في العهود التالية، فإن عودتها الحقيقية إلى الساحة السياسية كانت عام ١٩٤٨ عند الإعلان عن تأسيس الكيان الصهيوني، وزادت قوة بعد حرب الـ ٦٧ واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وشرقي القدس ومرتفعات الجولان السورية وصحراء سيناء المصرية عام ١٩٦٧، حيث أن المجتمع البروتستانتي الأصولي نظر لهذا الحدث كتتحقق لـ"النبوءة التوراتية" بانثاق دولة يهودية بفلسطين. وفي هذا الإطار كتب مفكر مسيحي صهيوني مباشرة بعد الحرب في دورية "المسيحية اليوم" Christianity Today "للمرة الأولى منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة القدس الآن في أيدي اليهود، ما يعطي دارسي الكتاب المقدس إيماناً متجدداً في دقته وصحة مضمونه".
- (٢) مثل "الفدرالية الأمريكية المؤيدة لفلسطين" التي أسسها القس "تشارلز راسل" عام ١٩٣٠م، و"اللجنة الفلسطينية الأمريكية" التي أسسها السيناتور "روبرت واطر" في عام ١٩٣٢م وضمت ٦٨ عضواً من مجلس الشيوخ، و٢٠٠ عضو من مجلس النواب وعدد من رجال الدين الإنجلييين.

على تأسيس... إنني كورش... إنني كورش"^(١). والرئيس جونسون قدم دعماً لامتاهياً لإسرائيل في حرب ١٩٦٧م، كما كان لموقف الرئيس "روزفلت" وإدارته الأثر البالغ في التوصل إلى "قرار التقسيم الجائر"، الذي اقتطع ٥٤ ٪ من أرض فلسطين العربية، لإنشاء دولة إسرائيل. مع أن اليهود في عام ١٩٤٥، كانوا يملكون ٥،٦٦ ٪ فقط من مساحة فلسطين الكلية، ولم يكن يصل عددهم إلى ثلث السكان، بل كان ٩٠ ٪ منهم من المهاجرين الجدد وليسوا من اليهود المحليين.

- ما الدور الذي كان للحكومة الأمريكية في ذلك؟

- لقد قاموا عن طريق الرشاوى والضغط والتهديد، بحمل بعض الدول الصغيرة على التصويت لقرار قيام دولة إسرائيل، بعد رفضها أول مرة. ولم تتوقف جهودهم بعد قيام ذلك الكيان الغاصب، بل أوجدوا مفاهيم جديدة لتساعد على تقبله من عموم المسيحيين، وتحويله إلى قبلة لهم، من مثل أن "وجود إسرائيل تحقيق للنبوءات التوراتية"، وأنه "تسريع لعودة المسيح"، ملمحين إلى "قرب نهاية العالم" بمعركة "هرمجدون"^(٢)، وأن إسرائيل بناء على كل ذلك، تستحق دعماً سياسياً ومالياً ودينياً قوياً من أجل تحقق النبوءات، وهو ما بات يعرف بـ "زرع المسيح في إسرائيل". وأصبحت

(١) يشبه نفسه بقورش ملك فارس الذي أعاد اليهود من منفاهم في بابل إلى فلسطين (إشعياء ٤٥).

(٢) هرمجدون هي كلمة عبرية ذكرت في العهد الجديد، في سفر الرؤيا، وتعني "جبل أو هضبة مجيدو". وتقع هضبة "مجدو" في فلسطين المحتلة على بعد ٩٠ كلم شمال القدس، و ٣٠ كلم جنوب غرب مدينة حيفا، وقد كانت مسرحاً لحروب ضارية ومشهورة في الماضي كما تعتبر موقعاً أثرياً مهماً أيضاً، وهو ضمن المكان الذي ذكره القرآن الكريم في حديثه عن هزيمة الروم في أدنى الأرض (أول سورة الروم). ومعركة هرمجدون هي عقيدة مسيحية ويهودية مشتركة، تؤمن بمجيء يوم يحدث فيه صدام بين قوى الخير (هم)، وقوى الشر (المسلمون غالباً)، وستتكون كما يدعون من منتي مليون جندي يأتون إلى وادي مجدو لخوض حرب نهائية. وتجدر الإشارة إلى أن هناك أحاديث شريفة ذكرت ملحمة كبرى في آخر الزمان تقع بين المسلمين والكفار، وينتهي الأمر فيها بانتصار المسلمين في المعركة، دون الإشارة إلى اسم هرمجدون تحديداً. ولكن في أحد الأحاديث عند أبي داود ذكر أن المعركة ستكون في "مرج ذي ثُلُول"!!!

العلاقة مع ذلك الكيان كما وصفها بصدق "جون فوستر دالاس" (١) سنة ١٩٥١م: "إن العلاقة بيننا وبين إسرائيل ليست مجرد علاقة سياسية، إنما هي علاقة أخلاقية، وعلاقة روحية، وقيمية". وفعلاً، فالتحالف بين الدولتين، فضلاً عن كل شيء، صار حلفاً دينياً عقائدياً، يعد أقوى من أي معاهدة أو اتفاقية مكتوبة على الورق؛ فكل من الأمريكيين والإسرائيليين ينتظرون المسيح الخاص بهم، ويتفق الطرفان على أن قيام الدولة اليهودية في فلسطين إشارة إلى قرب مجيئه. كما يتفقان على وجوب سيطرة اليهود على فلسطين كاملة، واتخاذ القدس عاصمة لهم، وفي المرحلة النهائية يجب عليهم إقامة الهيكل مكان المسجد الأقصى. وأن هذه الأمور، ما لم تأخذ مجراها على أرض الواقع، فإنها ستعطل مجيء المسيح بالنسبة إلى الطرفين. أضف إلى ذلك أن "الروح الأمريكية" يطيب لها أن تتماهى مع إسرائيل دينياً، وحتى تاريخياً، بقدر ما يبرر الحاضر الإسرائيلي، الماضي الأمريكي نفسه.

- ماذا عنيت بعبارتك الأخيرة؟

- إنهم من جهة دينية، يماهون بين الفلسطينيين الآن وبين "الكنعانيين" الوثنيين الذين حاربهم اليهود مع "يوشع بن نون" عندما دخلوا الأراضي المقدسة. ومن جهة تاريخية قومية، يماهون بين الفلسطينيين وبين "الهنود الحمر" الذين وجدهم أجدادهم في "أرض الميعاد الجديدة" عندما لجؤوا إليها فراراً بدينهم، ليصبح المستوطنون اليهود (وكثيرون منهم من أصل أمريكي) أشبه ما يكونون بـ"الرواد" (٢)، وشارون يتلبس في وجدانهم شخصية "صائد الهنود"، أما غزة والضفة الغربية المحتلتين، فتمثلان لهم ما كان يمثل "الغرب البعيد" (الغرب المتوحش Wild West). والأمريكيون، إذ يبررون

(١) وزير الخارجية الأمريكي آنذاك.

(٢) الآباء المؤسسون للولايات المتحدة، وهم المهاجرون الأوائل، وجزء مهم منهم كانوا من (المتطهرين) البروتستانت.

ما تفعله إسرائيل حالياً بغزة^(١) يبررون في الوقت نفسه الجرائم التي اقترفوها في الماضي السحيق، وهي جرائم لم يتم قط الشعور بالذنب على ارتكابها، بل إنهم ليبررون تلك التي اقترفوها فيما بعد مع الإفريقيين الذين مارسوا بحقهم أنواعاً شتى من القمع والتمييز، ولهذا ووجه الكتاب الأخير للرئيس الأمريكي الديمقراطي الأسبق "جيمي كارتر"^(٢) الذي سماه "فلسطين: السلام وليس الفصل العنصري" بموجة عاصفة من الانتقاد والسخط، لأنه قال فيه: "إن الفلسطينيين يتعرضون لقمع أشنع من ذلك الذي كان يتعرض له السود خلال فترة الفصل العنصري"^(٣). ولم تتوقف للآن الحملات القاسية على الرئيس الأسبق حامل "جائزة نوبل للسلام"، فقد سارع "كينيث شتين" المدير السابق لـ"مركز كارتر" إلى إعلان قطيعته مع الرئيس السابق معتبراً أن الكتاب مليء بالأخطاء. في حين أن "دنيس روس" الديمقراطي أيضاً، والموفد الخاص السابق إلى الشرق الأوسط في عهد "بيل كلينتون" اتهم كارتر بأنه نسخ خرائط ونشرها في كتابه مع أنها ليست ملكه. ووصف القانوني الشهير "آلان درشوفيتز" عنوان الكتاب

(١) في ١٠/٤/٢٠٠٩ كشفت منظمة العفو الدولية أن الولايات المتحدة سلمت الكيان الصهيوني شحنة هائلة من الذخائر الأمريكية الجديدة، ووفقاً للمعلومات حصلت عليها المنظمة فإن سفينة الشحن الألمانية "وبهر إلبى" فرغت أكثر من ٣٠٠ حاوية في ميناء أشدود الصهيوني قبل أسبوع من بدء العدوان على غزة، وكان المسؤول الأمريكي قد أعلن أن أوباما ليس لديه خطط لتخفيض المساعدات العسكرية للكيان الصهيوني وقدرها ٣٠ مليار دولار على مدى ١٠ سنوات.

(٢) ١٩٧٧ - ١٩٨١ م.

(٣) رغم تأييد كارتر للكيان الصهيوني شأنه شأن كل كبار الساسة الأمريكيين، إلا أنه يظل أقل رؤساء أمريكا انحيازاً للكيان وللصهيونية. وقد تعرض خلال فترة رئاسته إلى أزمات كثيرة، أخطرها فشله الذريع في إنهاء أزمة الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران، حيث أبقاهم الإيرانيون محتجزين لمدة ٤٤٤ يوماً، ولم يخلوا سبيلهم إلا في اليوم الذي غادر به كارتر البيت الأبيض في ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨١. ونسب فضل الإنجاز إلى "رونالد ريغان" الذي أثبت أنه حليف استراتيجي للكيان الصهيوني، وأكثر ولاء للصهيونية من جميع من سبقوه من رؤساء الولايات المتحدة قاطبة. وفي فترة حكمه كانت فضيحة "إيران جيت"، حين باعت الولايات المتحدة والكيان الصهيوني أسلحة بالسر إلى إيران، (أيام الحرب العراقية الإيرانية) رغم الحظر المعلن على بيع الأسلحة إليها.

بأنه "معيب"، وذهب البعض إلى وضع تعليقات على الكتاب على موقع "أمازون دوت كوم" لشراء الكتب وصفت الكتاب بأنه "معاد للسامية"!

- فكرة مثيرة جداً.

- وواقعية أيضاً؛ فهناك شراكة حقيقية لها مقاصد- دينية-سياسية- اجتماعية- تاريخية متداخلة. فلها دعم سياسي، ولها أيضاً دعم روحي، وجذورها الاجتماعية التاريخية ضاربة في العمق منذ نشأة الولايات المتحدة ذاتها. وقد روج المهاجرون الأوائل منذ خمسة قرون أن أمريكا هي "إسرائيل الجديدة"، وجعلوا نيويورك بل كل مدينة رئيسة منها "أورشليم الجديدة". كما يذهب البعض إلى أنه لولا اليهود ما اكتشف العالم الجديد، فعندما عرض "كريستوفر كولمبوس" مشروعه للتهرب من سيطرة المسلمين على الطرق التجارية عبر تحقيق حلمه في الإبحار غرباً للوصول إلى الشرق، رفض ملك البرتغال الفكرة، ولولا اليهود بقيادة "ديجو دي ديجا" أسقف سلامنكا وهو من يهود "المارانو" الذين يشغلون المناصب الممتازة في التجارة والإدارة، لما تم الدعم من السلطات الإسبانية والملكة "إيزابيلا" لهذا المشروع.

- بالمناسبة، مثل ذلك الأسقف هم من عنيتهم باليهود الذين يظنون على ولائهم القديم ويظنون يهوداً رغم اعتناقهم لدين آخر.

- فعلاً، فقد كنت أفكر فيه وفي غيره حين كنت تتحدث البارحة عن ذلك الموضوع.

- حسناً. أكمل.

- وحالياً يتعاطف الأمريكيون بكل كنائسهم مع إسرائيل، وأتباع الطائفة الإنجيلية هم أكثرهم مغالاة في تأييد الصهيونية، ويبلغ عددهم قرابة ٤٠ مليون نسمة^(١)، وهي

(١) وفق دراسة للبروفيسور القس "دونالد واغنز" من "جامعة نورث بارك" في شيكاغو فإنهم يشكلون نحو ٣٠٪ من مجمل عدد أتباع الصهيونية المسيحية في العالم والذي يقدر بنحو ١٣٠ مليون نسمة.

تسيطر الآن على الكونغرس الأمريكي، ولها الكثير من محطات الإذاعة والتلفزيون، والمجلات، والمطبوعات التبشيرية. وتعتقد هذه الحركة أن الله قد وضع في الكتاب المقدس نبوءات واضحة حول كيفية تدبيره^(١) لشؤون الكون ونهايته كما يلي:

- ١ - قيام إسرائيل وعودة اليهود إليها.
- ٢ - هجوم أعداء الله على إسرائيل ووقوع "محرقة" هرمجدون النووية^(٢).
- ٣ - انتشار الخراب والدمار ومقتل الملايين^(٣).
- ٤ - ظهور المسيح المخلص وتخليصه لأتباعه من هذه المحرقة.
- ٥ - إيمان من بقي من اليهود بالمسيح بعد المحرقة.
- ٦ - انتشار السلام في مملكة المسيح في أرض جديدة وتحت سماء جديدة مدة ألف عام.

وإن مهمة أعضاء هذه الحركة وأتباعها هي تدبير كل الأمور التي من الممكن أن تعجل في عودة المسيح إلى الأرض وتهيتها، ومن ضمن تلك الأمور: ضرورة إضعاف العرب عسكرياً، وتلبية جميع مطالب إسرائيل بالدعم المالي والسياسي والعسكري،

(١) يسمون أيضاً بـ "التدبيرين".

(٢) يقول المبشر فالويل في أحد تسجيلاته: "وهكذا ترون أن هرمجدون حقيقة، إنها حقيقة مركبة، ولكن نشكر الله لأنها ستكون نهاية العامة، لأنه بعد ذلك سيكون المسرح معداً لتقديم الملك الرب المسيح بقوة وعظمة... إن كل المبشرين بالكتاب المقدس يتوقعون العودة الحتمية للإله... وأنا نفسي أصدق بأننا جزء من جيل النهاية الذي لن يغادر قبل أن يأتي المسيح".

(٣) في كتابه الشهير "آخر أعظم كرة أرضية"، فسر "هال لندسي" كل التاريخ، قائلاً: إن دولة الكيان الصهيوني هي الخط التاريخي لمعظم أحداث الحاضر والمستقبل. وقد قال فيه: "لم يبق سوى حدث واحد ليكتمل المسرح تماماً أمام إسرائيل لتقوم بدورها في المشهد العظيم الأخير من مأساتها التاريخية، وهو إعادة بناء الهيكل القديم في موقعه القديم. ولا يوجد سوى مكان واحد يمكن بناء الهيكل عليه، استناداً إلى قانون موسى، في جبل موريا حيث الهيكلان السابقان". ووقت صدوره في السبعينيات كان ذلك الكتاب هو الأكثر مبيعاً، حيث بيع منه نحو ١٨ مليون نسخة.

وتعزيز ترسانتها النووية. وإلى هذه الحركة ينتمي صقور الإدارة الأمريكية الحالية المعروفون بالمحافظين الجدد، ومنهم الرؤساء الجمهوريون الثلاثة الآخرون، "ريغان"^(١)، و"البوشان" الكبير ثم الصغير. ومع أنني أشك بشعار "التغيير" الذي أطلقه باراك أوباما، إلا أنني واثق من أن عهده الذي سيبدأ قريباً، لا بد أن يشكل فترة راحة نسبية من الكوارث التي سببها ذلك الصغير الأرعن حين كان رئيساً لأكبر قوة عظمى في العالم.

- لا تكن متفائلاً؛ فأوباما سيواجه الكثير من الصعوبات حتى يستطيع إثبات نفسه. فهو مرشح مبتدئ ليست لديه قاعدة قوية، وسيمتحنه الكثيرون.

- من تقصد؟

- أقصد المحيطين به من إدارته الذين أتت بهم المؤسسة. حيث سيكون هناك تزاخم على مواقع التأثير على عقل الرئيس الأمريكي الشاب، وهو أمر منتظر من جميع القوى التي ساندت حملته، وأول من ظهر على الساحة منهم اليوم هو "رام عمانويل"، الذي قد تم اختياره مؤخراً ككبير موظفي البيت الأبيض، ومعنى ذلك في هذا التوقيت، أن رام هو المشرف على عملية الانتقال.

- رام عمانويل الذي كان والده^(٢) عضواً في منظمة "إيتسيل" السرية^(٣) المسؤولة

عن مجزرة "دير ياسين" الشهيرة!!!

(١) قال الصحفي اليهودي "وليام سفاير" في مقال له: إن "الرئيس الأمريكي ريجان اعتبر إسرائيل هي الديمقراطية المستقرة الوحيدة التي نستطيع الاعتماد عليها في البقعة التي يمكن أن تحدث فيها المعركة الفاصلة هـرمجدون"! كتاب (البعد الديني في السياسة الأمريكية)، د. يوسف الحسن.

(٢) اسمه بنيامين، ويحمل جنسية الكيان الصهيوني، وقد طرد في عهد الانتداب البريطاني، فهاجر إلى أمريكا حيث تزوج من يهودية هناك وأنجبا رام.

(٣) وهذه العصابة الإرهابية المشددة خاضت حرب عصابات ضد القوات البريطانية، تمهداً لإعلان قيام الكيان الصهيوني في ١٩٤٨، ونفذت هجمات كثيرة قبل ذلك ضد الفلسطينيين.

- هو بعينه.

- أليس هذا خياراً يثير الاستغراب من الرئيس المنتخب الذي وعد بالتغيير في واشنطن، وأن يجعل السياسة أكثر تحضراً وأن يفتح صفحة جديدة مع الجميع؟!!!
فрам العدواني مكروه تماماً من قبل الجمهوريين، كما أنه اختلف مع كل رجال البيت الأبيض في عهد كلينتون وتركه.

- لهذا قلت لك لا داعي للكثير من التناؤل. فرام هو أول إشارة تحدُّ لباراك أوباما، وأنتظر باقي التعيينات والإشارات، فالقوى التي ساندت أوباما تريد ممثلين لها في كل مواقع اتخاذ القرار.

- كيف كان رد فعل الإسرائيليين على اختياره؟

- لقد وصفته صحيفة هاآرتس بأنه "رجلنا في البيت الأبيض"، فانتماؤه إلى إسرائيل قوي جداً، حيث سارع إلى التطوع في مكتب التجنيد التابع للجيش الإسرائيلي في الفترة التي سبقت حرب الخليج عام ١٩٩١، حسبما ذكرت هذه الصحيفة، ثم عاد إلى إسرائيل لأداء الخدمة العسكرية عام ١٩٩٧ لمدة شهرين في وحدة عملت قرب الحدود اللبنانية^(١)، وعندما سألت صحيفة "معاريف" هل سيؤثر ابنه على الرئيس ليكون مؤيداً لإسرائيل، تساءل قائلاً: "لماذا لا يفعل ذلك؟ هل يمكنه أن يترك ضميره خارج البيت الأبيض؟"!!!

- ولكن مع كل هذا يظل أوباما أفضل من بوش الصغير.

- يبدو أن الرئيس المنتهية ولايته لا يعجبك كثيراً، وأذكر تشبيهاتك المتكررة لأي شيء يدعى الاستباق والحسم بـ"ضربة استباقية بوشية"؛ أي "ضربة على طريقة جورج بوش"، كما وصفت سابقاً إلقاء الشرطة الدانمركية القبض على بعض المسلمين "للاشتباه" بأنهم "ربما" يفكرون بقتل فسترغورد.

(١) تسمح قوانين الجيش الصهيوني لليهود من خارج الكيان بالتطوع في الخدمة العسكرية.

- إنني أنتظر الأيام المتبقية على انقضاء ولايته نهائياً بمنتهى الشوق^(١). فكيف يعجبني وهو من طغى في أفغانستان والعراق ومناطق متفرقة من البلاد، وأكثر فيها الفساد، بدعوى ضرباته الاستباقية، وحره الصليبية على ما يسميه بـ"الإرهاب"؟ كيف يعجبني وقد اتخذ حزبه الجمهوري شعار "الحرب ضد الفاشية الإسلامية"^(٢) في حملته لانتخابات التجديد النصفى للكونغرس الأمريكي؟ مع أن بوش الصغير وحزبه هم من أساطين "الفاشية اليهودمسيحية". ولا تنس أن إسرائيل عجلت بحربها على غزة في أواخر أيامه للاستفادة من الدعم المطلق لأمريكا، والذي قد لا يتوافر بعد تسلّم أوباما لمهام منصبه، خاصة بعد التصريحات الرنانة التي أطلقها عبر شعار "التغيير".

- أجل لقد تنبّهت لذلك، ولكنني أعجب لكون أوباما لم يدلّ بأي تصريح حتى الآن عن حرب غزة^(٣).

- كما قلت لك سابقاً: السياسة نفسها ولكن الأسلوب وترتيب الأولويات فقط هو ما سيتغير، ولكن هذا بحد ذاته ليس بالقليل بتاتاً. وبالمناسبة أظنه مرتاحاً لكون الإسرائيليين قد وفروا عليه الإحراج الذي سيضعه بموقف بالغ في السوء فيما لو بادروا بالهجوم في أول أيام حكمه، وأنا شبه متأكد أنهم سينهون مغامرتهم السخيفة قبل توليه مهام منصبه رسمياً.

(١) في الفترة التي تربط بين انتهاء الانتخابات وتنصيب الرئيس الجديد، تتولى الإدارة الحالية شؤون البلاد. وقد أعلن فوز باراك أوباما رسمياً بتاريخ ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٨، ثم أدى اليمين الدستوري في ٢٠ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٩م، ليستلم مهامه بوصفه الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة.

(٢) الغريب هو اختياره لكلمة الفاشية، مع أن الحزب الفاشي الذي تأسس في إيطاليا كان يجاهر بعادته للإسلام بالذات، ويدعو إلى إحياء الإمبراطورية الرومانية. وقد كان الجندي الفاشي الذاهب لاحتلال ليبيا ينشد قائلاً: "يا أمه صلاتك، ولا تبكي بل اضحكي وتأملي. ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني. وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة. ولأحارب الأمة الإسلامية. سأقاتل لمحو القرآن، وإن لم أرجع فلا تبكي على ولدي. وإن سألك أحد عن عدم حزنك علي فأجيبه إنه مات في محاربة الإسلام!!!"

(٣) نتيجة الضغوط اليهودية، خرج أوباما فيما بعد عن صمته وتهربه، وقال إنه يتفهم رد الإسرائيليين، وإنه ربما سيفعل المثل لو أطلق أحدهم صواريخ على أولاده!!!

- وأنا أيضاً أظن ذلك. بالمناسبة أعجبنى فعلاً مصطلح "اليهوميحية" الذي وصفت بوش الصغير وحزبه أنهم من أساطينها، ولكن ألا ترى فيه بعض المبالغة؟ خاصة أنك قدمت اليهودية على المسيحية!

- هذا المصطلح ليس من نحتي، بل متعارف عليه على شكل واسع. كما أنه دقيق فعلاً في وصف التهويد الحاصل للمسيحية حالياً. وإلا، فلماذا اجتهد بوش ورهطه من المحافظين الجدد في توسيع ما يسمى بـ "الحرب على الإرهاب" بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ليشمل حرب إسرائيل على الفلسطينيين؟ وكيف تفسر أنهم لا يهتمون بإخوانهم المسيحيين في الأراضي المقدسة حين يتعلق الأمر بإسرائيل؟ وأستشهد هنا بتعليق "بات بيوكانان"^(١) على الحرب الإسرائيلية على لبنان وحصار غزة: "إن المرء ليتساءل إن كان هؤلاء المسيحيون يهتمون فعلاً بما يحدث لإخواننا المسيحيين في لبنان وغزة، والذين يعيشون دون كهرباء بسبب الضربات الجوية الإسرائيلية، وهو شكل محرم من أشكال العقاب الجماعي الذي تركهم دون صرف صحي، يأكلون طعاماً متعفنًا، ويشربون مياهًا ملوثة، ويعيشون أياماً في الظلام ودون كهرباء في ذلك الحر الرهيب".

- أنت تعلم أنني متفق معك في موضوع إفساد اليهود للأديان، وإلى أبعد مما ذهب إليه أصلاً. ولكن، لم لا نناقش الأمور من جانب آخر غير ذلك الذي تدعوه "تهويد المسيحية"؟ فاليهودية في النهاية هي أضعف وأصغر من أن تحتوي ديناً يعد الأكبر في العالم من جهة العدد والنفوذ والثروة. ربما كان السبب هو استغلال اليهودية نفسها من قبل المسيحيين، لأن ذلك يصب في مصلحة المحافظين الجدد ومخططاتهم الجهنمية.

- إذن لماذا أصبح مسموحاً عند المسيحيين أن يشكك - بمنتهى الحرية - في كتابهم المقدس وأنبيائهم بل وبريهم نفسه، في حين لا يسمح بتاتاً بمجرد

(١) سياسي أمريكي من المحافظين القدامى، أي ضد المحافظين الجدد.

إعادة النظر في تاريخ المحرقة اليهودية! لماذا تتجو "أعمال فنية" تتحدث عن الشذوذ الجنسي لمن يدعونه ربهم^(١)، أو تشكك بكون من أوحى إليه هو الشيطان وليس "الآب" كما كان يظن^(٢)، أو تشكك بقوة شخصيته^(٣)، أو تتهمك بحادثة الصلب^(٤)، بل وتبول على رسمه مثل لوحة الفنان الأمريكي "اندريس سيررانو" Andres Serrano المسماة "البول على المسيح" Piss Christ^(٥) بذريعة أن ذلك يدخل ضمن الإبداع الفكري!! ثم يضييق صدرهم بـ"دافيد إيرفنج"، المؤرخ البريطاني الذي شكك

(١) لمزيد من المعلومات حول هذه التهمة الشيعة التي ألصقتها بعض أهل الكتاب (كما هو شأنهم مع أنبيائهم ورسولهم الذين لم يتركوا نقيصة إلا وألصقوها بهم) برسول الله عيسى عليه السلام.

(٢) مثل كتاب ثم فيلم (آخر وسوسة (إغواء) للمسيح)، تأليف "نيكوس كازانتزاكيس" (١٨٨٣ - ١٩٥٧) وإخراج "مارتن سكورسيس".

الغرب أن الكنيسة، بكل جيروتها وسلطانها، لا تنجح في منع مثل هذه الأفلام المسيئة للسيد المسيح إلا في البلدان التي بها أقليات مسيحية، وليس في الدول الأوروبية والأمريكية ذات الأغلبية المسيحية!!! وهو أمر له دلالات عديدة، أهونها هو الكشف عن مكر مخططات الغرب الكنسي التبشيرية.

(٣) مثل فيلم "Messia" أو (المنيا) الذي تم إنتاجه عام ١٩٧٦، ومخرجه يهودي اسمه Roberto Rossellin وقد أظهر المسيح كشخصية غير قادرة على السيطرة على أتباعه. ومثل المسرحية أو (الملهة الموسيقية) الساخرة التي كتبها اليهودي "توم رايس" بعنوان "يسوع المسيح أسمى النجوم" التي وضع لحنها اليهودي "أندرو للويدوبر"، وأخرجها اليهودي "جيم شارمان"، وهي تصم المسيح بالسذاجة والاضطراب!! ومثل كتاب "صانع الخرافة - بولس واختراع المسيحية" لمؤلفه اليهودي "هيام ماكوبي" والذي طبع عدة مرات قبل أن تصادره الكنيسة، ولا يزال يباع في السوق السوداء حتى الآن.

(٤) مثل فيلم حياة برايان Life of Brian للمجموعة الكوميدي البريطانية Monty Python في سنة ١٩٧٩، وفيه يروي الفيلم وبصورة ساخرة قصة حياة شخص اسمه برايان ولد في نفس اللحظة ونفس الزقاق الذي ولد فيه المسيح، تتكرر في الفيلم سلسلة من المواقف الكوميدي بسبب اشتباه الناس أن برايان هو المسيح بدءاً من زيارة الحكماء الثلاثة الذين - حسب التقليد المسيحي - تبعوا النجوم واستدلوا على مكان ولادة المسيح، إلى حادثة الصلب حيث يوضع برايان على الصليب بدلاً من المسيح. وقد اختير عام ٢٠٠٠ من قبل المجلة الفنية البريطانية Total Film كأحسن فيلم كوميدي بريطاني في التاريخ.

(٥) اللوحة رسمت في عام ١٩٨٧م، وهي عبارة عن صورة لصلب المسيح قام الرسام بغمسها في بوله الشخصي. وكان الهدف من ذلك حسب رأي الفنان هو "إظهار الطبيعة الإنسانية للمسيح" (مقابل الطبيعة الإلهية)، وترابط المسيح مع الإنسان البسيط "الذي يقوم يومياً بعملية البول".

في أرقام الهولوكوست"، وب"روجيه جارودي" صاحب كتاب "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية"، فيسُنون قانون "جيسو - فايو" ليقدموه إلى المحاكمة!!^١

- حسناً، حسناً. إن ما قلته صحيح تماماً، ولكنني أظن أن من الخطأ تفسير حب المحافظين الجدد، أو الأصوليين البروتستانت بشكل عام لليهود، بكونه تهويداً لليهودية.

- أولاً: ولمعلوماتك الخاصة، فليس كل المحافظين الجدد من المسيحيين؛ فكبار منظريهم من اليهود فعلاً، حتى يكاد البعض يخلط بين تسميتهم وتسمية أكبر طائفة دينية يهودية في الولايات المتحدة (اليهودية المحافظة)، ولكن هذا موضوع آخر ليس هنا مكانه.

ثانياً: ليس البروتستانت فقط هم من يساعدون اليهود، وإن كانوا الأكثر حماساً في ذلك؛ فتأثير عقائد البروتستانتية تعداها إلى غيرها من الطوائف المسيحية. فالرئيس الكاثوليكي السابق للولايات المتحدة "جون كينيدي"^(١) هو الذي قال: "إن أمريكا التزمت التزامات صريحة بحماية إسرائيل ومن مصلحتنا نحن الأمريكيين تنفيذ ما التزمنا به". وكان كينيدي يؤمن بأن الرب يهوه هو الذي يحمي أمريكا ويسهر على أمنها، ونظرت إدارته إلى القضية الفلسطينية على أنها مشكلة لاجئين ليس أكثر. والليبرالي الديمقراطي "بيل كلينتون"^(٢) قال للإسرائيليين عندما خطب في الكنيست في ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤: "إن الأمريكيين من خلال كل معتقد ديني أعجبوا بكم وساندوكم. إن بقاء إسرائيل مهم جداً، ليس لمصالحنا فحسب، بل لكل القيم العزيزة علينا"، وختم قائلاً: "ينبغي أن تدركوا أن مسيرتكم هي مسيرتنا، وأن أمريكا ستقف إلى جانبكم الآن وإلى الأبد"، وهو ليس من المحافظين الجدد، وليس

(١) كانت الكنيسة الكاثوليكية في البداية من أبرز الرافضين لقيام الكيان الصهيوني، ثم حدث تغير لاهوتي في موقفها وازداد هذا الموقف تماسكاً في ولاية جون كينيدي الذي دخل البيت الأبيض بصحة الأسقف الكاثوليكي المتشدد "كاشنغ"، والذي كان مشبعاً بالعداء للشوعية وللإسلام، وكان يؤمن أن الكيان الصهيوني هو الحليف الطبيعي للولايات المتحدة ضدهما.

من الأصوليين، وقد أحاط نفسه بمجموعة كبيرة من اليهود، فوزيرة الخارجية "مادلين أولبرايت" كانت يهودية^(١)، وكذلك وزير الدفاع "وليام كوهين"^(٢)، ووزير الخزانة "روبرت روبن"، ووزير الزراعة "دان جليكمان"، ومدير وكالة الاستخبارات المركزية CIA "جورج تينت"؛ كلهم من اليهود. هذا بالإضافة إلى أن سبعة من أصل أحد عشر عضواً في مجلس الأمن القومي الأمريكي في عهده كانوا يهوداً أيضاً^(٣)، هذا غير عشرات الدبلوماسيين الأمريكيين اليهود الموزعين على سفارات العالم، حتى الطاقم الأمريكي الذي تولى متابعة عملية السلام العربية الإسرائيلية في عهده، كان معظم أفرادها من اليهود؛ أمثال "دينس زوس"، و"هارون ميلير"، و"مارتن أنديك". وكان من النماذج اللافتة للوفد الفلسطيني عشية توقيع "اتفاق الخليل"^(٤) أنه عندما قام اليهود لأداء صلاتهم، لم يبق منتظراً في زاوية الغرفة سوى "صائب عريقات" و"جميل الطريفي" عضوي الجانب الفلسطيني، أما بقية الاثني عشر من أعضاء كلا الجانبين الإسرائيليين والأمريكي فكانوا من اليهود^(٥)!!!.

- (١) ادعت أنها اكتشفت أصلها اليهودي فجأة، بعد أن حصلت على المنصب !!!
- (٢) يذكر أن "كاسبر واينبيرجر" وزير الدفاع الأمريكي الشهير الأسبق كان يهودياً أيضاً، وكذلك كثير من رجال الصف الأول في وزارة الدفاع حتى الآن، مثل "ولفغانج" وغيره.
- (٣) بشكل عام كان خمسة وخمسون ٥٥ من كبار موظفي إدارته يهوداً، وهو صاحب شعار " لن نخذل إسرائيل أبداً".
- (٤) أوائل ١٩٩٧م.
- (٥) مؤخراً قامت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين "أنوروا" بتعيين اليهودي "فليبو جراندي" مفوضاً عاماً لوكالة الغوث !!! وفليبو جراندي له مواقف سلبية ضد مقاومة الشعب الفلسطيني ومعروف عنه الفساد المالي من خلال تقديم مصروفات غير حقيقية عن نشاطات داخل وكالة الغوث. وهو يهودي إيطالي يسكن إحدى المستوطنات في مدينة القدس المحتلة. كما أنه صاحب فكرة حرف سياسة وكالة الغوث الدولية من مؤسسة تعمل على إغاثة وتشغيل الشعب الفلسطيني إلى مؤسسة تعمل على "تطوير المجتمع من خلال تمكين المرأة عبر تأنيث وكالة الغوث" و"ألعاب الصيف"، وغيرها من الأنشطة المدمرة لمجتمعنا وقيمنا. يذكر أنه من الشواذ جنسياً ومعروف بانحرافه الأخلاقي.

وثالثاً وهو الأهم: من قال إن الأصوليين المسيحيين يحبون اليهود أصلاً؟! إنهم في الحقيقة ينتظرون هلاكهم في "الأيام الأخيرة". ففي "معركة هرمجدون" التي ينتظرونها على أحر من الجمر، ويؤمنون بها إيماناً مطلقاً، ينبغي أن يقتل جميع اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح. ولكنهم يؤمنون في الوقت نفسه بأن واجبه الديني يحتم عليهم دعم اليهود حالياً، للتسريع بعودة المسيح الذي سيقضي على أكثرهم.

فقال أبراهام مقاطعاً:

- أليس في هذا استغلال لليهود واليهودية؟

- لا أنكر هذا، ولكن لاحظ أنت أيضاً أن اليهود يدركون ذلك ويلعبون عليه جيداً، وإن لم يكونوا هم من ابتدع تلك الفكرة أصلاً، فعلى الأقل هم أكثر المستفيدين منها، ويستغلونها بكل مكر ممكن. ويلخص موقفهم ما قاله "ناتان بيرلتر"^(١) في كتابه "اللاسامية الحقيقية في أمريكا" الذي قال فيه: "إن الأصوليين الإنجيليين يفسرون نصوص الكتاب المقدس بالقول: (إن على جميع اليهود أن يؤمنوا بالمسيح أو أن يقتلوا في معركة هرمجدون)"، ثم أضاف قائلاً: "نحن نحتاج إلى كل الأصدقاء لدعم إسرائيل، وعندما يأتي المسيح فسوف نفكر بخياراتنا في ذلك اليوم. أما في الوقت الحاضر فدعونا نصلي للرب ونرسل الأسلحة إلى إسرائيل"^(٢). وما تسميه حب أولئك الأصوليين لليهود، ما هو في الحقيقة إلا "عبادة إسرائيل"، ولكن ليس حباً فيها،

(١) يهودي أمريكي، من حركة "بناي برث" اليهودية.

(٢) قال الشيخ الدكتور "سفر بن عبد الرحمن الحوالي" في محاضراته القيمة التي تحولت إلى كتاب بعنوان "الوعد الحق والوعد المفترى": "وبنظرة منطقية عابرة، يظهر جلياً أن هذا الالتقاء الظاهري يحمل تناقضاً كبيراً، يجعل من المفترض عقلياً أن يكون قيام دولة إسرائيل مسوغاً لحرب لا هوادة فيها بين الطائفتين (اليهود والنصارى) تبعاً للتناقض الكبير. والحرب المتوقعة بين المسيحيين (المسيح الدجال والمسيح بن مريم) وأن يكون النصارى في هذه المرحلة أكثر تقريباً إلى المسلمين، وتعاوناً معهم تبعاً لاتفاق الطائفتين في الإيمان بمسيح الهدى- عليه السلام - وعداوتهما لمسيح اليهود، ولكن ههنا مربط الفرس وبيت القصيد، ههنا يظهر المكر اليهودي الخبيث، ويتجلى معه الحقد النصراني الدفين على المسلمين".

بل لتقربهم إلى إله إسرائيل زلفى، ولذلك يسعون قبل الإسرائيليين، إلى تلبية متطلبات مجيء المسيح، واليهود يدركون ذلك جيداً؛ فقد صرح "إليك رسيشنيك" رئيس المنظمة الصهيونية في أمريكا في "مؤتمر رؤساء القيادات" الذي عقد في لندن حزيران/يونيو ١٩٨٤م: "نحن نوافق ونرحب ونحیی مثل هذا الدعم المسيحي لإسرائيل، دون أن نورط أنفسنا في قضاياهم الداخلية". ثم لا تنس أن صهيونية مارتن لوثر نفسها كانت مشوبة بكراهية اليهود بالإضافة إلى بعدها الديني بتعجيل قدوم المسيح. ففي عام ١٥٤٤م نشر كتابه "اليهود وأكاذيبهم" الذي قال فيه ما نصه: "من الذي يحول دون اليهود وعودتهم إلى يهودا، لا أحد... إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون لرحيلهم النهائي، لا لشيء إلا لنتخلص منهم، إنهم عبء ثقيل علينا". وهذا النص هو أول دعوة صادرة من سلطة دينية مسيحية إلى عودة اليهود إلى فلسطين بجهد وتدخل من البشر، وعدم ترك ذلك إلى قدر الله، كما كان يؤمن أغلبية اليهود آنذاك. وهذه الدعوة قد مست شغاف قلب المسيحيين من مختلف الجهات.

- لا أدري، فأحياناً أظن أن اليهود مسيطرون على المسيحية ويستغلون أهلها، وأحياناً أميل إلى الظن بأن المسيحيين هم المسيطرون على اليهود ويسيرونها حسب مصلحتهم.

- "بعضهم أولياء بعض" كما يقول الله تعالى في كتابه الكريم.

أذرع الأخطبوط

لم يُعجب أبراهام استشهداً أحمد بالقرآن، واعتبر ذلك خروجاً عن الحياد الذي اعتاده منه، فقال معاتباً:

- لقد ابتعدت عن الأكاديمية العلمية ثانية.

- بل لم أخرج عنها قيد أنملة. ولكن مع ذلك، فأنت محق بشأن عدم جدوى الاستشهاد بالقرآن الكريم مع من لا يؤمن به أصلاً.

- جيد أنك انتبهت لذلك. والآن، كيف توحدت مصالح الضدين (المسيحية واليهودية) حتى اختلطت الأمور إلى هذه الدرجة؟

فأجاب أحمد مدعماً قوله بالحقائق العلمانية هذه المرة:

- هناك أسباب كثيرة؛ منها تنامي النفوذ اليهودي في الغرب؛ فقد وصل في الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس إلى درجة عظيمة في التأثير على سياستها، تلاحظه في سيطرة عائلة "روتشيلد اليهودية" على الاقتصاد والسياسة، وفي وصول اليهودي الأصل "دزرائيلي" إلى رئاسة الوزراء، وفي تصريح لويد جورج، رئيس وزراء بريطانيا، بخطابه أمام الجمعية التاريخية حيث قال حرفياً: "لقد تربيت في مدرسة حيث تعلمت عن تاريخ اليهود أكثر مما تعلمته عن تاريخ بلادي. فباستطاعتي أن أذكر لكم أسماء كل ملوك إسرائيل، ولكنني أشك في كوني أستطيع تذكر ستة أسماء من ملوك إنكلترا. لقد تشبعنا بتاريخ شعبكم في أيام مجده، عندما أرسى قواعد ذلك الأدب العظيم الذي سيبقى صداه مسموعاً حتى آخر أيام العالم القديم، والذي سيبقى أثره جلياً في الجنس البشري إلى الأبد".

- هذا عن النفوذ، ولكن سؤالي عن توحيد المصالح المتضادة.

- هذا من ذلك؛ ففي الشهر التالي لبداية الحرب العالمية الأولى، قدم السير هيربرت صموئيل (وهو يهودي الأصل) أولى مذكراته الثلاث في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤م حين كان مدير البريد العام (أصبح وزيراً للداخلية لاحقاً) بوزارة "إسكويث" الأولى. كما قدم مذكرته الثانية في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه، والثالثة في كانون الثاني/يناير ١٩١٥م. طرح فكرته أولاً على وزير الخارجية "جراي" ثم قدمها لإسكويث، ثم تم توزيعها في كانون الثاني/يناير ١٩١٥م على مجلس الوزراء. وكان قد اقترح في مذكرته أن تصبح فلسطين تحت الحماية البريطانية من وجهة نظر استراتيجية، وقال: "إن مجرى الأحداث يقدم إمكان حصول تبدل بنتيجة الحرب في وضع فلسطين. ولقد سبق أن دب النشاط بين الاثني عشر مليون يهودي^(١)... في مختلف بلدان العالم... وانتشر شعور عام أن ثمة أملاً أخيراً بتحقيق بعض التقدم بصورة أو بأخرى باتجاه تحقيق الأمان التي تشبث بها اليهود بإصرار... على مدى ثمانية عشر قرناً لجهة عودتهم إلى الأرض التي شدتهم إليها روابط تكاد تكون على قدم التاريخ نفسه، إلا أنه يسود الاعتقاد بأن الوقت لم يحن بعد لإقامة دولة يهودية مستقلة استقلالاً ذاتياً"، وبين أن السبب هو أنهم لا يزالون يشكلون سدس سكان البلاد ويصعب عليهم حكم ٥٠٠-٤٠٠ ألف مسلم، ثم قال: "إنني لوائق أن الحل الأنجع لمشكلة فلسطين والذي سيلقى أقصى الترحاب من زعماء الحركة الصهيونية ومؤيديها في مختلف أنحاء العالم، هو ضم هذه البلاد إلى الإمبراطورية البريطانية"، وتكلم بشيء من التفصيل على شراء الأراضي والهجرة اليهودية إلى فلسطين.

- كيف كان رد رئيس الوزراء على ذلك؟

(١) لاحظ أن عدد اليهود سنة ١٩١٥ كان يقدر باثني عشر مليوناً. وبعد قرابة عقدين من الزمن أبادت المحرقة أكثر من ستة ملايين منهم (نصفهم)، ولكن عددهم ظل على حاله! إنهم فعلاً شعب عجيب!!

- لقد ربط إسكويث بين مذكرة صموئيل ورواية "تانكرد" التي ألفها دزرائيلي، رئيس وزراء بريطانيا الأسبق، التي يدعو من خلالها أبناء جنسه من اليهود إلى العودة إلى فلسطين؛ فقد كتب في مذكراته التي نشرت لاحقاً: "تلقيت للتو من هربرت صموئيل مذكرة بعنوان "مستقبل فلسطين" ... وهو يظن أننا نستطيع ... إسكان ثلاثة ملايين أو أربعة من اليهود الأوربيين في ذلك البلد،... وهذه المذكرة...تشبه إلى حد كبير طبعة جديدة من "تانكرد" أخرجت للحياة من جديد. وأعترف بنفوري من هذه المقترحات التي تضم مسؤوليات إضافية إلى مسؤولياتنا".

- إذا كانت هذا هو رد فعل الحكومة الإنجليزية، فما الذي تغير حتى أصبحت ترى ذلك من صميم واجبهال؟

- سيطرة اليهود على الإعلام وتشكيل وعي الشعب. فوكالة رويتر للأخبار أنشأها أحد اليهود^(١)، وأشهر الصحف البريطانية ك"التايمز"، و"الصنداي تايمز"، و"صن"، و"نيوز أف ذا وورلد"، و"سي تي ماجازين"، تتبع لإمبراطورية "مردوخ" الإعلامية اليهودية. كما يمتلك اليهود "الديلي تليجراف" التي أسسها اليهوديان "موريس ليفي" و"لوفي لاوس" عام ١٨٥٥. ويمتلك اليهودي "ليفونت" ٢٨٠ داراً للسينما في بريطانيا وحدها، كما يتربع "اللورد لوغريد" على إمبراطورية الإنتاج التلفزيوني البريطاني، ويمتلك شركة "ATV" للإنتاج التلفزيوني، كما يملك أعرق مسارح بريطانيا مثل "المسرح الملكي"، و"دوري لين"، و"فكتوريا بالاس"، و"أبوللو" وغيرها، ويمتلك اليهودي "سيدني برنشتاين" شركة "جرانادا" التي تعد إحدى أشهر شركات الإنتاج التلفزيوني في بريطانيا. وهذه السيطرة الإعلامية مع سيطرتهم على المال، ودورهم في تمويل الأحزاب واللعب بورقة الانتخابات، مكنهم من فرض بعض رموزهم على الحكومات

(١) وهو "جوليوس رويتر" في منتصف القرن التاسع عشر.

المتعاقبة، وأفضل مثال على ذلك هو حكومة رئيسة الوزراء البريطانية الشهيرة "مارغريت تاتشر"^(١)، التي كانت مليئة بالوزراء اليهود مثل وزير المالية "نيجيل لاوسون"، ووزير التجارة "لورد يونج"، ووزير التعليم "كيث جوزيف"، ووزيرة الدولة للشؤون الصحية "أدونيا كوري"، ومستشار تاتشر السياسي "ديفيد هارت". وفي حكومة "جون ميجر"^(٢) تولى يهوديان أهم حقيبتين وزاريتين فيها: "مالكولم ريفكند" وزيراً للخارجية، و"مايكل هوارد" وزيراً للداخلية. ولا يخفى عليك الباقي.

- يبدو أنك تحريت جيداً عن النفوذ اليهودي في بريطانيا.

- النفوذ اليهودي هناك بسيط بالمقارنة بنفوذهم في الولايات المتحدة^(٣).

- أعرف هذا^(٤).

- وكالعادة: يكمن السر في الإعلام؛ فهو الذي يشكل الرأي العام، ويعطي من ثم مجالاً أوسع للتحكم بالسياسة. واليهود في الولايات المتحدة يملكون أو يديرون أهم ثلاث شبكات تلفزيونية أساسية: (NBC، CBC، ABC)، ومع أنه يوجد نحو ١٧٥٩ صحيفة يومية و٦٦٨ صحيفة أسبوعية، إلا أن اليهود يركزون على أهم الصحف المؤثرة منها. فلهم نفوذ قوي في أكثر الصحف اليومية توزيعاً، وهما "وول ستريت جورنال"،

(١) رئيسة الوزراء ١٩٧٩ - ١٩٩١ م.

(٢) رئيس الوزراء ١٩٩١ - ١٩٩٧ م.

(٣) في سياق أحداث الرحلة ذكرنا وسنذكر الكثير من كبار السياسيين والمؤثرين في القرار الأمريكي من اليهود. ولكن ما خفي كان أعظم، ومنهم لان جرينسبان (مدير الاحتياطي الفدرالي الأمريكي)، روبرت روبن (وزير الخزانة الأمريكي)، ريتشارد ليفين (رئيس جامعة يال)، باري قولدووتر، إد ريندل، جاك أ. ماركيل، ريتشارد بيرل، سيمون بامبيرجر، ليندا لينغل، ميلتون جيرولد شاب.

(٤) عبّر الكاتب اليهودي الأمريكي "جون بيتر" عن ذلك بقوله: "إن الرؤساء الأمريكيين ومعاونهم ينحون أمام الصهاينة كما ينحني العابد أمام قبر مقدس". ولم يحاول أي من السياسيين الأمريكيين مجرد انتقاد طريقته بالتعبير !!!

و"الدلي نيوز"، وهم يملكون "نيويورك تايمز" اليومية التي تعد من أشهر الصحف الأمريكية. أما جريدة "الواشنطن بوست" التي يت رأس مجلس إدارتها اليهودي "لاري إسرائيل"، وسيطر عليها اليهود منذ ١٩٢٣، فتكمن أهميتها في انتشارها في أوساط الأجهزة الحكومية، حيث تحظى بتأثير قوي. ويمتلك اليهود أقوى مجلتي أسبوعيتين في أمريكا والأشهر على مستوى العالم وهما "التايم"، و"النيوزويك"^(١)، كما يسيطر اليهود على أهم مجلات الاقتصاد في العالم كـ"بزنس ويك"، فضلاً عن سيطرتهم على أشهر مجلات الدعاية والخلاعة كـ"بلاي بوي" و"كيو"، وكل ما يمت بصلة إلى تحطيم القيم الأسرية والأخلاقية، وإشاعة الفاحشة، ولاسيما من خلال السينما. فشركة "فوكس" أنشأها اليهودي "وليام فوكس"، وشركة "بارامونت" أنشأها اليهودي "لويس ماير"، وشركة "مترو جولدن ماير" نشأت عن اندماج شركة "مترو" التي امتلكها "لويس ماير" وشركة "جولدن" التي امتلكها اليهوديان "صموئيل جولدن" و"أدولف زوكور". كما يسيطر اليهود على شركة "يونيفرسال" التي يملكها اليهودي "كارل ليمل".

- بالمناسبة فإن هذه الشركات بالذات هي المسؤول الأكبر عن تشويه صورتكم، سواء مسلمين أم عرباً أم حتى فلسطينيين. وتسهم في صناعة التوجهات السياسية والفكرية بطرائق مؤثرة. وفي كثير من الأحيان يتم إبراز ممثلين يهود كأبطال للسينما العالمية منذ نشأتها حتى الآن، وفي مقدمة أبطال السينما اليهود نجوم مثل "شارلي شابلن"، و"جاك ليمون"، و"بول نيومان"، والمتهود "كيرك دوغلاس"، و"غاري غرانت"، و"جورج سيغال"، و"بيرت رينولدز"، ومن النساء اليهوديات: "إليزابيث تايلور"، و"آن بنكروفت"، و"بربارة سترايسند"، و"شيلي دوفال"، و"كاري فيشر"، و"سوزان أنسباك"،

(١) يملك "التايم" اليهودي "جون مائير"، وتوزع ٥, ٤ مليون نسخة أسبوعياً، أما "النيوزويك" فيسيطر عليها اليهود منذ ١٩٧٣ عندما اشتراها "مالكوم ماير"، ويرأس تحريرها اليهودي "ليستر بيرنشتاين"، ورئيس مجلس إدارتها ومديرها التنفيذي كلاهما يهوديان.

و"جيرالدين شابلين"^(١)، ومن أشهر المخرجين اليهود "ستيفن سيبيلغ"^(٢).

- بالتأكيد هناك نفوذ هائل لوسائل الإعلام المختلفة وأساطينها على الغرب. وهي لا تعتمد فقط إلى تشويه صورة الأعداء فحسب، بل تستفيد من ظروف الحريات الواسعة لتوجيه الرأي العام، وممارسة الضغط والتشهير ونشر الفضائح ضد الأصدقاء الذين يمكن أن يعارضوا المصالح اليهودية والصهيونية بشكل أو بآخر. ولذلك هي ذات تأثير مرعب على رجال الدولة والسياسيين الذين يسعون إلى استرضائها.

- السؤال هو: كيف استطاع اليهود أن يفعلوا كل هذا؟

- هناك أسباب كثيرة تعرفها جيداً؛ من اتحادهم وتنظيماتهم وعدم ترحبهم من اللجوء إلى أحط الوسائل لتحقيق أهدافهم مع الغويم الذين لا يعتبرونهم بشراً. على الأقل ليسوا كالشعب الإسرائيلي المقدس والمختار من الرب.

(١) من نجوم الصف الأول اليهود حالياً، نذكر:

Ben Stiller, Alicia Silverstone, Winona Ryder, Rachel Weisz Lisa Kudrow & David

Schwimmer (أي روس وفيبي) أبطال مسلسل friends. ومن النجوم نصف اليهود نذكر:

Harrison Ford, Jamie Lee Curtis, Michael Douglas Rob Schneide.

أما من الممثلين الذين تحولوا إلى الدين اليهودي فنذكر Kate Capshaw, Nell Carter, Sammy Davis Jr., Anne Meara, Marilyn Monroe, Elizabeth Taylor

(٢) Steven Spielberg صاحب أكثر الأفلام شهرة وريحاً مثل "آي. تي"، و"حديقة الديناصورات"، و"قائمة شندلر"، الذي يبرز معاناة اليهود في العهد النازي، وحصل على عدد من جوائز الأوسكار، و"مغبرو تابوت العهد القديم" الذي يصور المسلمين على أنهم عملاء للنازية، وبائعو لذة للأجانب. ومن أشهر المخرجين اليهود أيضاً:

Stanley Kubrick, Robert Zemeckis, Roman Polanski, Sidney Pollack Fred

Zinnemann, Frank Oz, Fritz Lang Billy Wilder

وبشكل عام فأغلبية كبار المخرجين هم من اليهود، ونسبتهم أكبر بكثير من نسبة اليهود في التمثيل، وربما يعود ذلك إلى كون اليهود غير مرغوبين كممثلين نظراً لافتقادهم إلى الملامح الجذابة والكاريزما اللازمة للتمثيل إلا فيما ندر.

- أجل، ولكن هذا كان شأنهم دائماً، وهو ما مكنهم من الحصول على الثروة وإيقاد الحروب والفساد. ولكن ما عنيته هو ما الذي تغير حتى حصلوا على النفوذ أيضاً؟

- هذا ما أسعى إلى قوله منذ البداية. إن الذي تغير هو تهويد المسيحية؛ فلولا ما صار يدعى بـ"الإرث الحضاري المشترك للحضارتين اليهودية والمسيحية" أي "اليهودمسيحية"، لما استطاعت كل هذه المؤسسات الإعلامية الظهور أصلاً، فضلاً عن الانتشار والتأثير.

- ربما برر ذلك تأثيرهم على الغرب وليس نفوذهم عليه.

- علاقة التأثير بالنفوذ كعلاقة المقدمة بالنتيجة؛ فبكل وسائل التأثير التي يملكونها، يعتبر الخلاف معهم مكلفاً جداً، وبالذات للسياسيين. خذ مثلاً حين انتخب "لايونيل دي روتشيلد" نائباً في البرلمان البريطاني، فحينها لم يتمكن من دخول المجلس لأن الدستور البريطاني - آنذاك - يقتضي القسم بأنه "مسيحي مؤمن صميم"؛ فاقترح اللورد "جون رسل" رئيس حزب الأحرار تعديل الدستور ليحق لكل بريطاني أن ينعم بجميع الامتيازات. إلا أن حزب المحافظين صوت جميع أعضائه ضد ذلك المشروع عدا دزرائيلي وزميل له، وألقى دزرائيلي خطاباً قوياً قال فيه: "إن أكبر خطأ يرتكبه حزب محافظ هو اضطهاد اليهود، تلك الأمة المحافظة الصميمة. فهذا التصرف يدفعونها إلى الالتحاق بأحزاب ثورية وفوضوية، يمهرونها بإدارة رشيدة مرهوبة الجانب". وبهذا فقد أصبحت الدول الأوروبية حكومات ومجتمعات بين أمرين كما قال "هرتزل"، فهم غير قادرين عن التراجع عن منح اليهود للحقوق التي اكتسبوها، ليس لمبررات أخلاقية، ولكن - وكما يتفق معه دزرائيلي - لأنه إن لم تمض هذه الحكومات والمجتمعات في الخط نفسه، فإن اليهود سينضوون تحت لواء الأحزاب

الثورية الفوضوية^(١).

- لكن هذا لم يمنع اليهود من الانضمام إلى مثل تلك الأحزاب، وربما تأسيسها!
 - هذا بالضبط ما أتحدث عنه. وقد لخص ذلك أحد اليهود أنفسهم، واسمه "بيتر ناثن" بقوله: "... فإذا كنت معادياً للرأسمالية، فإنها من اختراع اليهود، وها هو ذا جميع رأسمال العالم بيد اليهود، أما إذا كنت معادياً للشيوعية فستجد أن جميع قادة الاشتراكيين والشيوعيين من اليهود، كما هو الحال مع ماركس وتروتسكي ..."^(٢).

(١) لعل هذا ما أكدته هرتزل في خطابه الافتتاحي في مؤتمر بازل عام ١٨٩٧م حيث قال: "إنكم تعلمون أن المشكلة اليهودية قد أصبحت تعني في بعض الأقاليم مصيبة وكارثة للحكومة، فإذا ما هي أخذت جانب اليهود فإنها ستواجه بسخط الجماهير، وإذا ما هي وقفت ضد اليهود فإنها ستنزّل على رأسها عواقب اقتصادية كبيرة نظراً لنفوذ اليهود الفريد على الأعمال في العالم. إننا نجد أمثلة على هذا الأخير في روسيا، لكن إذا ما وقفت الحكومة موقفاً محايداً، فإن اليهود سيجدون أنفسهم قد تعرفوا من حماية النظام القائم ومدنّفين إلى أحضان الثوريين".

(٢) نبيننا تحليل بيانات التاريخ أن هناك تنسيقاً عالياً بين الكتل اليهودية الثلاث (كتلة الرأسمالية، وكتلة الاشتراكية الدولية، وكتلة الصهيونية) ومن أمثلة ذلك ما ذكره "مارتين جيلبرت" في كتابه "تاريخ إسرائيل" حيث قال: "في ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٧م، وبعد حوالي ستة أسابيع فقط بعد الافتتاح المهم لأول مؤتمر صهيوني في بال عقد اجتماع سري في VILNA لمنظمة يهودية جديدة هي Bund حزب العمال الاشتراكيين اليهودي والذي كرس نفسه لقدم الاشتراكية الدولية في روسيا". وفي عام ١٩١٧م تمكنت كتلة الاشتراكية الدولية (الجنح اليساري من اليهودية العالمية) من إسقاط الحكومة الروسية، كما تمكنت الصهيونية في نفس العام من انتزاع وعد بلفور من بريطانيا. ويأتي اعتراف وايزمان الخطير الذي يثبت أن اليهود كانوا يخططون لوقوع الحرب، لأنها السبيل الوحيد التي يجبرون من خلالها الدول الكبرى لتقديم مساعداتها وإعطاء موافقتها لمشروعاتهم. وحين أدركت الاشتراكية الدولية اليهودية إثر فشل ثورة عام ١٩٠٥م، أنه لا سبيل إلى نجاح الثورة الشيوعية في روسيا وسيطرة اليهود عليها إلا بدخول روسيا للحرب، وإشغال الجيش في جبهة القتال ليتسنى لهم النجاح في خطتهم، طلبت مساعدة الجناح اليميني لليهودية العالمية في ذلك. وبالنسبة إلى كتلة الرأسمالية، فالحرب تعني جنح الأرباح بشكل مضاعف وتقديم القروض الربوية، حتى إن بريطانيا أصبحت في حلول عام ١٩١٧م "مصرف ومستحصل قروض لأسواق المال العالمية" ليس لنفسها فحسب، بل بضمائها للأموال التي اقتترضتها روسيا وإيطاليا وحتى فرنسا، من أجل تسديد =

ورغم المبالغة في استخدام كلمة "جميع" إلا أن ذلك لا يعني أن هذا الزعم بعيد عن الحقيقة؛ فالجميع فعلاً يجمالونهم، ويحسبون لهم ألف حساب. والسياسي الذي يظهر أي بوادر "عدائية"، يتصرف معه بأشكال كثيرة، آخرها هي التصفية الجسدية. فـ"هايدر" مثلاً، زعيم أحد الأحزاب النمساوية، الذي أطلق يوماً عبارات مناهضة لليهود، قامت الدنيا ولم تقعد عندما فاز حزبه ديمقراطياً بأغلبية في مقاعد البرلمان، وثارَت ضجة إعلامية كبرى في إسرائيل وأمريكا وبريطانيا وفرنسا، بل والأمم المتحدة، حتى أرغم الاتحاد الأوروبي على مقاطعة النمسا لمنع هايدر من ترشيح نفسه لمنصب في الحكومة النمساوية، واستمر الرجل على موقفه وتحدياته وتصريحاته المثيرة للجدل، حتى اغتيل في نهاية المطاف "بظروف غامضة"^(١)!! وحتى في الولايات المتحدة نفسها فقد عبر "بات بيوكانان"^(١) عن النفوذ اليهودي قائلاً: "لقد أصبح الكونغرس مثل الضفة الغربية التي تحتلها إسرائيل!" وعندما قصفت إسرائيل السفينة الأمريكية "ليبرتي"، تم التعطيم على ذلك إعلامياً، وأعيد القتلى الأمريكيون إلى الولايات المتحدة ليلاً بلا ضجة، ولم يستقبل رفاتهم أي مسؤول أمريكي؛ "كي لا نخرج حليفنا إسرائيل" كما قال الرئيس الأمريكي آنذاك! لدرجة أن الصحفي الإسرائيلي "جابي براون" وصف

=أثمان الذخائر والمواد الأولية المستوردة. وكما يذكر المؤرخ فيشر إنه في تقدير مبكر بدا أن بريطانيا ستضطر إلى فتح اعتماد مالي قدره ألف مليون جنيه، إلا أن المبالغ التي أنفقتها بريطانيا على الحرب بلغت عشرة أضعاف هذا المبلغ، وقد كانت أسواق المال في شيكاغو ونيويورك هي المستفيدة من هذه القروض. أما الصهيونية، فكانت المستفيد الأكبر، والكل يخطب ودها لتقديم فلسطين وطناً قومياً لهم. ويقول وايزمان في مذكراته: "وفي الجملة أعددنا في الفترة بين سنتي ١٩٠٧م، ١٩١٤م، العدة اللازمة لمواجهة الحرب، وما عسى أن تعود علينا من وعود وعهود، ومن فرصة سانحة لبناء فلسطين من جديد يهودية".

(١) الزعيم اليميني في الحزب الجمهوري، والذي رشح نفسه للرئاسة وواجه معارضة "اللوبي اليهودي الصهيوني".

ذلك بقوله: "هذه جريمة حرب مخزية تستحق محاكمة دولية"^(١). ولم يخفِ اشمئزازه من إسرائيل، التي قال: "إنها على مدى تاريخها منذ وجدت وهي تحاول إخفاء سجلها المرعب في خرق حقوق الإنسان وراء دعاوى العقائد الدينية.... ولا أحد من المرتجفين في مجلس النواب أو الشيوخ"^(٢) بقادر أن يفضب عليه الجماعات المؤيدة لإسرائيل

(١) جاء هذا في كتاب "كتلة الأسرار" BODY OF SECRETS للصحفي المحقق "جيمس بامفورد" وجاء فيه أيضاً: "الغريب في أمر هذا اللغز أن الرئيس الأمريكي جونسون قبل بسرعة التفسير الإسرائيلي المتساذج على الآخرين، والذي برر الضربة بأنها مجرد "خطأ". جونسون أصدر على التو أوامر تقضي بإغراق السفينة وطي ملفها، مثيراً غضب قبطانها وزملائه ممن بقوا على قيد الحياة، وذلك قبل أن يصلها الصحفيون و"يسبوا إحراجاً لأحد أهم حلفاء أمريكا". الغريب أيضاً أن تلك الحادثة لم يتم التساؤل عنها في الكونغرس الأمريكي ولم يتم توكيل أية لجنة للتحقيق في ملاساتها". وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة، وسبب ضيقاً في بعض الدوائر الاستخباراتية الغربية. فبعد أن أورد مؤلفه جميع الإنباتات على تعرف الجيش الصهيوني هوية السفينة التجسسية الأمريكية، ورصده لها لمدة ست ساعات متواصلة من الساعة السادسة صباحاً وحتى الثانية عشرة ظهراً، وتبادل طياروه التحية مع ضباطها الذين رأوهم عن كثب بسبب تحليق طائراتهم المنخفض فوق السفينة، ونقل رسالة إلى قيادتهم الأرضية بذلك، يصدر القرار فجأة بقصف السفينة لأنها صارت شاهداً على المجزرة. والمجزرة التي دعمها المؤلف بالعديد من الأدلة لخصها كالآتي: "لقد تبدى للإسرائيليين بعد مرور ثلاثة أيام على بداية الحرب (٦٧) والاكتمال الذي قاموا به لسيناء وتكاثر عدد الأسرى المصريين، أن هؤلاء الأسرى باتوا يشكلون عبئاً لا يمكن تحمله؛ فليس هناك مكان لإيوائهم في خضم أيام الحرب، ولا وسائل لنقلهم إلى إسرائيل، ولا عدد كاف من الجنود الإسرائيليين لحراستهم والإشراف عليهم، لذا فإن الحل الأمثل كان قتلهم والتخلص منهم على الفور". وقد نفى الكيان الصهيوني بشدة قيامه بقتل أسرى مصريين، وقال إن القتلى كانوا ٢٥٠ مسلحاً فلسطينياً!!!

(٢) جدير بالذكر أن بعض المحللين (مثل الباحث السياسي البريطاني "أتوني بيرسون" الذي أصدر كتاباً عن الموضوع نفسه، أثار ضجة كبيرة في أوروبا والولايات المتحدة) يؤكدون بأن السفينة التجسسية رصدت تفاصيل خطة الكيان الصهيوني لغزو الجولان، (الهجوم حدث عشية هجوم الكيان الصهيوني على الجولان)، وخططت تتعارض مع ما اتفق عليه مسبقاً مع الولايات المتحدة، (يقول الميجر ماكينا ضابط المخابرات البريطانية: كانت أمريكا تخطط لاستعادة الأرضية التي فقدتها لحساب الاتحاد السوفيتي في المنطقة، أما الكيان فلم يهتم بالأهداف الأمريكية لأن كل ما أراده هو الحصول على أراضٍ جديدة)، فكان =

بنفوذها، ولا بفقدان مساهماتها المالية السخية إبان الحملات الانتخابية^(١)، بل تثار شكوك أيضاً في أن اغتيال الرئيس جون كيندي الذي صرح أن: "الانحياز الأمريكي في النزاع العربي الإسرائيلي لا يهدد الولايات المتحدة فحسب بل يهدد العالم بأسره"،

=لزاماً تدميرها. وطبقاً للبتاغون فإن مهمة السفينة كانت "تزويد أرصفة عائمة لمخبرات سلاح الإشارة والمخبرات الإلكترونية بغرض تحليل واستغلال الإشعاعات الكهرومغناطيسية في تلك المناطق من العالم التي لا توجد فيها محطات التقاط اعتراضى على اليابسة" وبعبارة أقل غموضاً، تستطيع السفينة التقاط أي اتصال لاسلكي بما في ذلك الاتصالات اللاسلكية الدبلوماسية والعسكرية القصيرة المدى والطويلة المدى، وجمع المعلومات المتعلقة بالأبعاد، وتوجيه الصواريخ، ومراقبة الأقمار الصناعية، بالإضافة إلى أمور أخرى. وتستطيع السفينة حل شيفرة (رموز سرية) تلك الاتصالات ثم إرسالها إلى وكالة الأمن القومي في قلعة "ميد" في "ملريلاند" عبر موجات الراديو القصيرة أو بواسطة نظام اتصالات خاص جواً يدعى (تي. آر. أس. سي. أو. أم) يستخدم إشارات موجة إلكترونية قدرتها مئة ألف واط للالتقاط عبر سطح القمر (٤٧). وهكذا فالسفينة، كما يتضح، كانت سفينة تجسس متطورة جداً.

(١) للموضوعية، وللإحاطة بجوانب الموضوع كافة، فلا بد أن نشير إلى وجود نظرية ثالثة (غير نظرية تغطية الجزيرة، ونظرية مخالفتها للتنسيق السابق مع أمريكا، حماية لحظتها الخاصة) طرحها الصحفي "بيتر هونام" عام ٢٠٠٣ في كتابه "العملية سيانيد"؛ عن أن: "عناصر سرية داخل الحكومتين الأمريكية والإسرائيلية قررت قصف السفينة وإلقاء اللوم على مصر وحلفائها السوفييت لتبرير رد فعل كاسح يضمن النصر لإسرائيل، ولكن السفينة ظلت طافية، فتم إحباط الخطة التي تقرر دفنها في غياهب السرية". ولكن سواء كان ذلك هو السبب الحقيقي وراء قصف السفينة أو سبباً آخر، أو اجتماع أكثر من سبب في ذلك، فإن من الثابت بالأدلة القاطعة أن الكيان الصهيوني كان متأكداً من هوية السفينة، وأن الهجوم الذي استمر لأكثر من أربعين دقيقة (دون أي إنذار أو تحذير) لم يكن مجرد "خطأ غير مقصود"، وأن الولايات المتحدة التي أوقدت الحروب (مثل حرب فيتنام التي قامت بسبب حادثة خليج "تونكين". لحسائر أقل من ذلك (أسفر الهجوم عن مقتل ٣٤ جندياً أمريكياً، وإصابة ١٧٤ آخرين، عوضاً عن السفينة نفسها التي تقدر كلفتها بـ ٤٠ مليون دولار) لم تحرك ساكناً!! ليس هذا فحسب، بل تدخلت في نزاهة القضاء لطي تلك الصفحة بهدوء ودون ضجة؛ فقد صرح المحامي المتقاعد بالبحرية الأمريكية الكابتن وارن بولستن لاحقاً، أن رئيس المحكمة العسكرية الأدميرال إيزاك أخبره بأن الرئيس ليندون جونسون ووزير الدفاع روبرت ماكينمارا قد طلبا منه أن ينتهي التحقيق إلى أن الهجوم ناجم عن التباس في هوية السفينة!!!

كان بيبعايز إسرائيلي^(١)، خاصة بعد إصراره على تفتيش "مفاعل ديمونة" والتأكد من كونه يحتوي على قنابل ذرية أم لا. ولا تنسَ مقولة الرئيس الأمريكي "جورج بوش الأب"^(٢) المشهورة: "إنني رجل يشعر بالضعف والانعزال، وهو يخاصم قوة عملاقة تتمثل في اللوبي الصهيوني"^(٣).

- لكن لماذا اليهود وليس الأمريكيون البروتستانت البيض أنفسهم هم من يملكون كل هذا النفوذ، وكل تلك المناصب والمؤسسات، مع أن نسبة اليهود هناك لا تزيد

(١) ظلت معرفة من خطط لقتل كينيدي أحد أغاز القرن الماضي التي لم تحل إلى الآن، حيث تم توجيه تهمة اغتياله إلى "هارفي أوزوالد"، إلا أن الأخير نفى ذلك بعد إلقاء القبض عليه عشية يوم الاغتيال، وبعد يومين وفيما كان التلفزيون يصوره على الهواء داخل السجن، في ٢٤ تشرين الأول/نوفمبر ١٩٦٣، أراه اليهودي "جك روبي" (اسمه الأصلي: "ياكوب روبنستين") قتيلاً قبل انعقاد جلسة المحاكمة. ثم توفي روبي نفسه لاحقاً عقب إصابته بسرطان الرئة بشكل اعتبره البعض مريباً، وتم ذلك قبل موعد محاكمته هو الآخر. وبالإضافة إلى اليهود، تثار الشكوك بأن وكالة المخابرات الأمريكية سي. أي. إيه (CIA) قد تكون هي أيضاً ضالعة في هذه المؤامرة.

(٢) تولى الرئاسة بين عامي ١٩٨٩ - ١٩٩٣ م.

(٣) أغضب جورج بوش الأب إسرائيل ومؤيديها من اليهود الأمريكيين بقوله إنه لن يؤيد تقديم أية أموال جديدة لإسرائيل تستخدمها للاستيطان. وكان ذلك هو أحد أهم أسباب خسارته لمحاولة إعادة انتخابه في عام ١٩٩٢ كما اعترف لمعاونه، إذ إنه فقد الكثير من دعم اليهود. وكلنا يذكر قصة كليتون الذي جاء بعده، عندما نسي نفسه أيضاً، وحاول الضغط على نتنياهو، ففجروا في بيته الأبيض القنبلة "مونكا لوينسكي"، التي كانت معدة منذ لحظة انتخابه، فأعادته إلى صوابه، فأصبح في نهاية مدة رئاسته صهيونياً، أكثر من الصهاينة، كي يستطيع أن يقاتل هو وزوجته الطموحة على فئات مواطنهم، في قاعات مجلس الشيوخ الأمريكي، ومن ثم دخول معترك السباق الرئاسي. يذكر أن هناك فضيحة ماثلة لا تزال في الدرج، وستخرج إلى العلن بقوة فيما لو قام الرئيس الأمريكي الجديد بتحد جاد للنفوذ الصهيوني، وهي ما ألمحت إليه صحيفة التابلويد الأمريكية الشهيرة "ناشونال إنكوير" عن علاقة باراك أوباما مع مساعدته "فيرا بيكر"، التي ساهمت بجمع التبرعات لحملة في الترشح لمجلس الشيوخ في عام ٢٠٠٤. وأعلنت الصحيفة على موقعها الإلكتروني أنها تملك لقطات فيديو يظهر فيها أوباما تلك الليلة وقد دخل فندق جورج في واشنطن بصحبة فيرا بيكر عند الساعة ١٠,٣٠. يذكر أن هذه هي الصحيفة ذاتها التي سبق أن كشفت فضيحة كليتون/ لوينسكي.

على ٢٪^(١) ألا ترى أن الأمر يتعدى مجرد تهويد المسيحية؟! أو مجرد استغلال
المسيحيين لليهود من أجل التعجيل بعودة ربهم؟!

- بل أظنه كذلك بالأساس. ولكن هذا لا يمنع أن لليهود مخططاتهم أيضاً، وأن
لديهم من الأساليب والتنظيم والمكر ما يمكنهم من استغلال ذلك بأكثر مما هو مقرر
لهم.

- أوضح من فضلك.

- أولاً: مع أن اليهود من أكثر الأقليات ثراء في العالم، إلا أنهم لا يسيطرون إلا
على نحو ١٠ - ١٢٪ من الاقتصاد الأمريكي، ويتركز نفوذهم خصوصاً في الصناعات
الخفيفة، والمواد الاستهلاكية والترفيهية والمعلوماتية^(٢)، ولذلك فإن قوتهم لا تكمن
في السيطرة الاقتصادية العامة، وإنما في استثمار ثروتهم بطريقة مؤثرة سياسياً
وإعلامياً. فهم يعدون الممولين الكبار لحملة الرئاسة الأمريكية حيث يقومون بتمويل
٦٠٪ من تكاليفها وخصوصاً في الحزب الديمقراطي، وهذا يوازي ٣٠ ضعف حجمهم
السكاني. ولأن حملات الرئاسة الأمريكية باهظة التكاليف^(٣)، فإن على أي مرشح
أن يسترضي هؤلاء للحصول على دعمهم، وهذا ينطبق أيضاً على مرشحي مجلس
الشيوخ والنواب، وإن بتكلفة مادية أقل. وفي الحزب الديمقراطي الأمريكي مثلاً، كان
أكثر من ٦٠٪ من الأموال التي حصل عليها كارتر وكلينتون في حملات الرئاسة من
اليهود. وكان هناك أكثر من سبعين يهودياً من أصل ١٢٥ يهودياً في المجلس المالي

(١) يقدر عدد اليهود في أمريكا بنحو ٥,٥ - ٥,٨ ملايين.

(٢) من أشهر أصحاب الماركات اليهود: رالف لورين (بولو)، ليفاي ستراوس (ليفايز جينز)، هوارد
شولتز (ستاربكس)، سيرجي برين (جوجل)، مايكل ديل (ديل)، لاري إلسون (أوراكل)، دونا
كاران (DKNY)، إيرف روبنز (باسكن وروبنز)، ويليام روزينبرغ (دانكن دوناتس).

(٣) تقدر بمئات الملايين من الدولارات.

الوطني للحزب الديمقراطي في أيام الرئيس كارتر، وكذلك فإن أكثر من ٦٠ ٪ من الأموال التي حصل عليها نيكسون (عن الحزب الجمهوري)، ليفوز بانتخابات ١٩٧٢ كانت من اليهود. وفي حفلة واحدة أقامتها الممثلة اليهودية المشهورة "بربارة سترايسند" في منتصف أيلول/سبتمبر ١٩٩٦ جمعت ٣.٥ مليون دولار لتمويل انتخاب كلينتون، حيث حضر الحفل ٧٠٠ شخص كانت قيمة اشتراك كل واحد منهم بين خمس مئة ألف دولار إلى ١٢ ألف دولار. وهم يستثمرون هذه الأموال بسخاء لتحقيق مصالحهم وفرض شروطهم؛ كدعم الكيان الصهيوني اليهودي في فلسطين، ومحاربة ما يسمونه الأصولية الإسلامية وغيرها.

ثانياً: يتمتع يهود أمريكا بقدرة عالية على التنظيم وتكوين مجموعات الضغط، فاليهود بشكل عام منظمون في مؤسسات وهيئات نشطة وفعالة، وتتعاون في خدمة قضاياها الكبرى وفق أفضل وسائل الاتصال والضغط والإقناع، وضمن استيعاب كامل للعقلية الأمريكية وطرائق التعامل معها. وقد ذكر أحد علماء الاجتماع البارزين: "أن تكون يهودياً هو أن تنضم لجمعية يهودية" ومن أبرز جماعات الضغط اليهودية للجنة الأمريكية الإسرائيلية للشؤون العامة "إيباك"^(١)، وهي تصدر صحيفة "نير إيست ريبورتس" (أي تقارير الشرق الأدنى)، وتصدر ملحقاً بعنوان "الحقائق والأكاذيب"، وبه متابعات مختصرة للصراع العربي الإسرائيلي، وغالباً ما يكون هذا هو المصدر الأساسي للمعلومات لكبار الساسة الأمريكيين. حيث تدفع اللجنة تكاليف إرسال ٤٠٠ نسخة مجانية أسبوعياً لأعضاء الكونغرس^(٢) وكبار المسؤولين ووفود الدول

(١) تأسست عام ١٩٥٤ وتضم ٤٥٠٠ شخصية من كبار الشخصيات اليهودية في المجتمع الأمريكي، ويشارك في عضويتها أكثر من ٥٠ ألف عضو يتبرع كل منهم على نحو سنوي منتظم بمبالغ من ٢٥ دولاراً إلى ٥٠٠٠ دولار. راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) مجلسا النواب والشيوخ.

إلى الولايات المتحدة. ولها هيكل تنظيمي فعال وسمعة قوية، وهي تستخدم الوسائل العقلية والعاطفية، كما تستخدم أساليب الرشاوى والتهديد والابتزاز والفضائح في الوقت نفسه. وقد أصبح اشتراك الرؤساء الأمريكيين وكبار رجال الدولة والأحزاب في الاجتماع السنوي لإيباك أمراً معتاداً، حيث يقومون بالتسابق لإلقاء كلمات التأييد والدعم للوبي اليهودي وللكيان الصهيوني. وفي ١٩٨٠ كان هناك ٣٤٢ منظمة مرتبطة بالحركة الصهيونية أو موالية لها حسبما أشار "الكتاب السنوي" لليهود الأمريكيين سنة ١٩٨٠، ومن بين هذه المنظمات ٦٧ منظمة صهيونية سياسية تعمل مباشرة لمصلحة الكيان الإسرائيلي، فضلاً عن المنظمات الدينية والثقافية والاجتماعية ومنظمات العلاقات العامة.

- إلى أي مدى يصل نفوذ هذه المنظمات؟

- لقد نجح اللوبي اليهودي مراراً في منع صفقات الأسلحة مع البلاد العربية والإسلامية، إذا رأى أن الأسلحة يمكن أن تشكل خطراً على إسرائيل أو تخل بتفوقها العسكري الساحق على البلاد العربية. مثل ما حصل في الثمانينيات مع السعودية، حين منع اللوبي إتمام صفقة أسلحة كان يمكن أن تجني الولايات المتحدة من ورائها ١٧ بليون دولار، ومع الكويت بصفقة تبلغ ١.٩ بليون دولار، ومع الأردن حيث منع بيعها طائرات ف-١٦ وصواريخ هوك. وبعد ذلك، وخصوصاً في عهد كلينتون، أصبحت وزارتا الخارجية والدفاع الأمريكيتان تتسقان مع اللوبي الصهيوني لمعرفة مدى ما يسمح به قبل أن تشرعا في عقد صفقات الأسلحة مع البلدان العربية.

ثالثاً: لليهود حضور علمي وثقافي واسع يضاهي أضعاف حجمهم، وعامة يهود أمريكا جامعيون، وتذكر دراسة أعدها البروفيسور "دبليو روبنشتاين" أنه من بين خمس مئة قيادي على مستوى أمريكا هناك ٥٧ يهودياً. ونسبتهم الأعلى هي وسط

قادة الإعلام إذ تصل إلى ٢٥.٨%^(١)، ويضيف أن ٤٥% من بين أبرز ١٧٢ شخصاً من كبار المثقفين والمفكرين على مستوى أمريكا هم من اليهود (أي ٧٧ شخصاً)، وأن هذه النسبة ترتفع إلى ٥٦% وسط أبرز علماء العلوم الاجتماعية، وإلى ٦١% في الإنسانيات (العلوم الإنسانية). ويضيف أن "من بين عشرين عالماً ومفكراً أمريكياً كان هناك ١٥ يهودياً"، وذلك حسب تصنيف أعدده مفكرون وعلماء آخرون سنة ١٩٧٠. وهؤلاء اليهود يسهمون بشكل قوي في توجيه الثقافة والرأي العام ومناهج التدريس والتربية، ومعظم هؤلاء لا يهتم بإبراز هويته اليهودية، بل يحرص أحياناً على إخفائها، ليكون أكثر قبولاً وتأثيراً في المجتمع. رابعاً: يستفيد اليهود من طريقة التصويت في الانتخابات الأمريكية لمضاعفة قوتهم وتأثيرهم الانتخابي. فلأنهم جماعات منظمة متعلمة، فإنهم يشاركون في الانتخابات بنسبة ٩٢% في مقابل ٥٤% بين عامة الأمريكيين، فتضاعف نسبتهم الانتخابية. واليهود أكثر الأقليات تركزاً في المدن، حيث تتضاعف القدرة على التأثير؛ فهم ١٦% من سكان مدينة نيويورك^(٢) و٢١% من كل سكانها البيض. ومع أن أغلبية اليهود (نحو ٧٠%) يعطون أصواتهم للحزب الديمقراطي، لأنه يعبر بشكل أفضل عن مصالح الأقليات، إلا أن لهم تأثيراً فعالاً في كلا الحزبين الجمهوري والديمقراطي من خلال عضويتهم النشطة فيهما،

(١) من أشهر الإعلاميين اليهود المتنفذين: في سي إن إن- وولف بليتز، وفي ايه بي سي نيوز- برابارا وولترز، وفي واشنطن بوست- يوجين ماير، وفي مجلة تايم- هنري جرونوالد، وفي واشنطن بوست- كاثرين جراهام، وفي نيويورك تايمز- جوزيف ليليفيد: يهودي، وفي نيويورك تايمز- ماكس فرانكل.

(٢) في نظام انتخاب رئيس أمريكا فإن الرئيس الذي يفوز في أي ولاية ولو بنسبة ٥١% فإنه يحصل على كل مقاعدها (أصواتها) الانتخابية. إذ إن لكل ولاية عدداً من المقاعد يمثلها في المجمع الانتخابي العام حسب عدد سكانها الذين يحق لهم الانتخاب، ويتركز اليهود في الولايات المهمة ذات المقاعد الأكثر؛ مثل نيويورك وفلوريدا وكاليفورنيا. ويكفي أن يكونوا عنصر ترجيح لهذا المرشح أو ذاك ليضمن الفوز بجمع مقاعد الولاية! مما يجعل الصوت اليهودي ذا حساسية وأهمية خاصة لكل مرشح.

وتبرعاتهم المالية، وشبكة علاقاتهم الواسعة مع دوائر الضغط والنفوذ فيهما. وفي صراع المرشحين لضمان الفوز بترشيح حزبهم، تحدث منذ البداية عمليات التصفية "والفترة" لكل مرشح داخل كل حزب، بحيث لا يتقدم إلى الأمام إلا من أعطى تعهدات أفضل وأكثر ليهود أمريكا والمصالح الصهيونية الإسرائيلية، وعند ذلك لا يهتم اليهود كثيراً أي مرشح فاز أو حصل على الرئاسة، لأن كليهما قد تمت "فلترته" بشأن القضايا المهمة لهم منذ البداية. خامساً: لديهم مؤسسات ترصد توجهات الرأي العام حول العداء لليهود وما يسمونه "اللاسامية". ويسعون إلى سحق أي شخصية أمريكية تجرؤ على مواجهتهم أو عدائهم علناً، ويكفي توجيه تهمة "اللاسامية" لأحدهم كي يقضى على مستقبله السياسي تماماً.

فقال أبراهام مقاطعاً:

- ربما كنت مبالغاً، تماماً كبعض اليهود الذين بالغوا في تقدير النفوذ اليهودي الفعلي، وخطوا في عقد التسعينيات من القرن العشرين (تحت إدارة كلنتون) خطوات إلى الأمام في جني حصاد ذلك، ووصل بهم الأمر إلى ترشح يهودي أرثوذكسي متدين (جوزيف ليبرمان) لمنصب نائب الرئيس الأمريكي عن الحزب الديمقراطي لانتخابات سنة ٢٠٠٠. ولكن ذلك أوجد معارضة قوية من الأمريكيين العاديين، بل من عدد من الدوائر والشخصيات اليهودية التي حذرت من احتمالات بروز العداء ضد اليهود بسبب نفوذهم المكشوف.

- لقد قتلها بنفسك: فسرُّ نجاح اليهود هو بقاؤهم في الظل خلف الكواليس، وعدم ممارسة أشكال مكشوفة من النفوذ السياسي، مهما اطمأنوا إلى استقرار أوضاعهم، وكبارهم يعون ذلك جيداً. سادساً: يستفيد اليهود من كون ٧٠٪ من مسيحيي أمريكا من البروتستانت المفتونين بتحقيق النبوءات التوراتية، ويدعمون إنشاء الكيان الصهيوني وفق خلفيات دينية مرتبطة بقدم المسيح، وبداية العهد الألفي

السعيد، مما تطرقنا إليه سابقاً. وسابعاً: لليهود حضور إعلامي قوي وسيطرة على الكثير من وسائل الإعلام الأمريكية، وقد تحدثنا عن ذلك أيضاً بإسهاب. ولولا هاتان النقطتان الأخيرتان اللتان فتحتا كل الأبواب الموصدة على مصراعيها لما استطاع اليهود أن يستفيدوا من أي من الأسباب الخمسة السابقة بتلك الفعالية نفسها، ولبقي تأثيرهم منحصرأ بالذهب، والربا، والدسائس، وإيقاد النار للحرب، والجمعيات السرية إلى يومنا هذا. وأبلغ مثال على ذلك هو قيام دولة إسرائيل بقرار من هيئة الأمم المتحدة في سابقة هي الأولى والأخيرة من نوعها. ولنطرح هذه التساؤلات: كم كان عدد الدول التي كانت قلقة بشأن مصير اليهود؟ وما الداعي لوجود دولة لليهود أصلاً واليهودية ديانة وليست قومية؟ ثم إن كانت قومية، فمن قال بأن القومية تعطي الشرعية لإقامة دولة؟ فهناك الفجر والأكراد والهنود الحمر والكثيرون غيرهم! فلماذا لم توجد لهم هيئة الأمم دولاً؟ وما مصلحة القوى العظمى وهيئة الأمم المتحدة في إنشاء دولة لليهود؟

- تحليلك منطقي جداً، لولا أنك أهملت أمراً في غاية الأهمية.

- وما هو؟

- فلنتحدث في ذلك غداً، حتى نتحقق الفائدة؛ فقد أرهقت كثيراً اليوم.

- أتفهمك تماماً. سنتحدث في ذلك غداً، فأنا نفسي مرهق أيضاً، كما أن الوقت

قد تأخر فعلاً، ولكن قل لي من فضلك، ما ذلك الأمر المهم الذي أغفلته في تحليلي؟

- ما الذي أدى إلى ذلك التغير الذي طرأ على المسيحية أصلاً؟

- ماذا تعني؟

- أعني دور اليهود أنفسهم في ذلك.

- أنا لا أنكر دور اليهود في ظهور البروتستانتية!

- لم أعنِ هذا، بل شيء أبعد منه بكثير. ولكن ذلك يشكل مدخلاً مناسباً لما أعنيه، وسنتحدث بتفاصيله غداً.

قال ذلك وهو يستلقي على سريره. ففعل أحمد الشيء نفسه بعد أن أطفأ الأنوار، لكنه ما لبث أن أضاء مصباح القراءة بجانب السرير قائلاً:

- حسناً، فلتحدثي عما تقصده بدور اليهود الأبعد غداً كما تريد، ولكن حدثني الآن عما اعتبرته مدخلاً مناسباً لموضوعك.

- لقد قصدت تأمر الغرب المسيحي مع إسرائيل ودعمهم غير المحدود لها.

- إن نظرية المؤامرة هي نظرية غير رائجة وغير مرغوبة من قبل متقفينا العرب بشكل عام^(١)، ولذلك ربما كان من الأفضل أن تسمي ذلك "العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية"^(٢). وهذا الدعم هو مقابل مجموعة من الأهداف المصلحية الاستعمارية التي يحققها الغرب من ورائه.

- إن نظرية المصلحة الاستعمارية للغرب في غرس إسرائيل ودعمها، لم تعد مقنعة بتاتا، وذلك لأن أبسط الجداول الاقتصادية تظهر بوضوح أن مصلحة الغرب مع أي من دول الخليج، هي أكبر وأهم من مصلحته مع إسرائيل، ولن أسترسل في ذلك، لرغبتني بالنوم، ولكن حسبي أن أذكرك بتغلغل اليهود وسط القادة الدينيين للمسيحية، ومن ثم خطابهم المعادي للعرب والمسلمين الذي يمثل على المستوى التاريخي النقاء

(١) في زمننا هذا أصبح لدى الجميع حساسية خاصة من كلمة مؤامرة، ترتجف منها أبدانهم، وترتعش دونها ألسنتهم، وكأنهم سينطقون بأحد المحظورات الكبرى التي قد تصل بهم إلى حد الكفر بواحد من أهم أركان النظام العالمي الجديد. ويشعرون كما لو أن موازين الكون قد انقلبت رأساً على عقب إذا ما ذكرت هذه الكلمة على أسماعهم، بل يحاولون اجتثاث هذه الكلمة من قواميس اللغة، واعتبارها كلمة نشازاً لا ينطق بها إلا المتخلفون فكراً. وللأسف فبسبب الجهود الإعلامية المضنية، وتجنيد الكثير من المثقفين المعتبرين، نجحت هذه المؤامرة في إنكار وجود المؤامرة إلى حد بعيد.

(٢) هذه التسمية من نحت الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله.

للحقد الصهيوني مع نظيره الصليبي لصناعة إيديولوجيا العداة للإسلام والإنسانية على السواء.

- حسناً. وما دور اليهود الأبعد من ظهور البروتستانتية؟
- كما اتفقنا. سنتحدث في ذلك غداً. والآن تصيح على خير يا بن العم.

◀ باباوات من أجل اليهود

في الصباح تناول الاثنان طعام الفطور في الفندق، ثم توجهوا إلى المدينة، حيث أخذ أبراهام يستعرض التغيرات التي طرأت عليها، مقارنة بوصف جدته، الذي طالما كان يستمع إليه باهتمام بالغ. وبعد انتهاء جولتهما في تلك المدينة العريقة، سأله أحمد مستقراً:

- هل يعني ذلك أن أصلك ألماني؟

- أجل، وقد ضمنت ذلك في طلب الهجرة الذي قدمته للسفارة الألمانية. وفي حال إتمامي لكل الإجراءات، فمن المرجح أن أحصل على الجنسية الألمانية طبقاً لـ"قانون العودة".

- وهل يوجد قانون العودة في ألمانيا أيضاً؟!!!

- عفواً، قلت ذلك بحكم العادة، ولكن هناك فعلاً قانون ألماني يشبه قانون العودة الإسرائيلي، وهو يسمى بصورة غير رسمية بقانون العودة، ولكنه بالطبع أكثر واقعية وعدلاً؛ فهو يسمح لأي شخص بأن يصبح مواطناً ألمانياً إذا كان من ذرية شخص كان كذلك، وحُرِمَ من تلك الجنسية لأسباب سياسية أو عرقية أو دينية خلال الفترة الواقعة بين ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٣٣، و٨ أيار/مايو ١٩٤٥. ولا يتعين على هذا الشخص أن يكون من ذرية الجيل الأول.

- وما الذي حرم جديك من الجنسية الألمانية؟

- حدث ذلك قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث حرر "الجيش الأحمر" (جيش الاتحاد السوفييتي) اليهود الألمان من معسكرات الاعتقال في القسم الذي احتلوه من ألمانيا، ثم تم ترحيلهم إلى الاتحاد السوفييتي.

- ولكن إيزرلون في الشق الغربي من ألمانيا .

- أجل، ولكن جدتي انتقلت بعد زواجها إلى العاصمة "برلين"^(١).

- في أي معسكر اعتقال كانت جدتك؟

فأفلتت من أبراهام ضحكة ساخرة وهو يقول:

- في الحقيقة، أنا لا أعرف بالضبط؛ فقد سمعت منها ثلاث روايات عن ثلاثة

معسكرات وثلاثة جيوش مختلفة أنقذتها .

- لا عليك، جدتك ليس الوحيدة في ذلك؛ فطبقاً لجريدة "نيويورك تايمز" يوم

٤ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٨٧ أعلن اليهودي الشهير "الناجي" من المحرقة "إيلي

فايسل"؛ أن وصول القوات السوفييتية إلى معسكر "أوشفيتز" وتحريره كان معجزة .

ومع هذا أعلن "الناجي" الشهير نفسه يوم ١١/٤/١٩٨٣ في حديث له أمام "نادي

الصحفيين في واشنطن" أذاعته وكالة الأنباء اليهودية أنه كان أحد "الناجين" من

معسكر "داشاو" الذي حرره الجيش الأمريكي يوم ١٥/٤/١٩٤٥ . وكما ترى فإن فايسل

هو الآخر حرره جيشان مختلفان من معسكري اعتقال مختلفين!

- ليست جدتي ولا فايسل على شيء مقارنة بـ"صائد النازيين" الشهير "سيمون

فيزنتال" الذي مات مؤخراً عن عمر ٩٦ عاماً . فقد أعلن حسب رواية الإذاعة البريطانية

أنه شخصياً "نجا" من أكثر من ١٢ معسكر إبادة نازياً! تصور مدى الاستخفاف بالعقول!

- هل تعرف أن العدد الإجمالي لليهود كان في كل دول أوروبا الواقعة تحت

الاحتلال النازي هو ٢.٤ مليون شخص، وبعد نهاية الحرب طالب ٣.٨ مليون يهودي

بتعويضات من ألمانيا على ادعاء أنهم "الناجون" من المحرقة! تصور!

(١) مع أن جزءاً من مدينة برلين كان يخضع للقيادتين الأمريكية والإنجليزية، ومن ثم صار يتبع ما بات

يعرف بألمانيا الغربية، إلا أن المدينة نفسها كانت تقع في الشق الشرقي الذي كان خاضعاً آنذاك للسيطرة

السوفييتية، وصار يعرف فيما بعد بألمانيا الشرقية .

- أعرف. وأعرف أيضاً أنه في سنة ١٩٣٩ ذكرت اللجنة الأمريكية اليهودية أن عدد اليهود هو ١٥.٦٨٨.٢٥٩ بالضبط، قيل إن ستة ملايين منهم أبيدوا في المحرقة النازية، فيبقى أكثر قليلاً من تسعة ملايين يهودي في العالم. ولكن في ٢٢ شباط/فبراير سنة ١٩٤٨ ذكرت جريدة نيويورك تايمز المملوكة لليهود أن العدد هو ١٨.٧٠٠.٠٠٠. وهذا يعني أن عدد اليهود في العالم قد تضاعف مرتين خلال أقل من تسع سنوات!

- أنا أعجب من أولئك الذين يصدقون كذبة الستة ملايين يهودي ضحايا المحرقة، وكذبة أن أربعة ملايين منهم أبيدوا في غرف الغاز بمعسكر أوشفيتز الشهير. خاصة أنه في سنة ١٩٩٠ "اتضح" أن عدد كل من قتلوا في أوشفيتز هو ١.٥ مليون فقط، أي بفارق ٢.٥ مليون من الرقم المزعوم أولاً عن الضحايا اليهود وحدهم. ومؤخراً شاهدت شريط فيديو للدكتور "فرانسيس بيير" مدير متحف أوشفيتز الحكومي أعلن فيه: "أن ما سمي بغرف الغاز في المعسكر المذكور كان أنباء مفبركة بمعرفة السوفييت بعد الحرب كنوع من الدعاية ليبقى العالم مشغولاً بجرائم النازية وينسى ما كان الشيوعيون السوفييت يرتكبونه من فظائع ليبتلعوا أكثر ما يستطيعون من دول أوربا".

- وأكثر من ذلك، فإن الصليب الأحمر الدولي قد أعلن رسمياً وقت الحرب أن أقل من ثلاث مئة ألف شخص من مختلف الأجناس قد ماتوا في معسكرات ألمانيا النازية نتيجة أسباب مختلفة؛ منها تقدم العمر، وأن نصف هذا العدد على الأكثر كان من اليهود. وأضاف تقرير الصليب الأحمر أن معظم الضحايا ماتوا نتيجة وباء التيفوس الذي سببته ظروف الحرب التي قضت على الكثيرين من ألمانيا ومن ضمنهم أطباء وممرضات وإداريو معسكرات الاعتقال. وعندما استجوب الصليب الأحمر الآلاف من الناجين من معسكرات الاعتقال عند نهاية الحرب، وسألهم عن رؤيتهم

غرف إعدام بالغاز، كان جوابهم بالنفي^(١).

فتهد أحمد بأسى قائلاً:

- ومع كل هذا، ظلت كذبة الغاز والحرق، وكذبة رقم الستة ملايين ضحية مقدسات لا يجوز المساس بها أو تحديها.

- هل تعرف من أين جاء رقم ستة ملايين ضحية يهودية؟

- كلا.

- لقد كان من اختراع الكاتب الشيوعي الشهير "إيليا إهرنبرج" الذي كان خبير الدعاية السوفييتية الأشهر خلال الحرب. وكان يهودياً، ومات بعد ذلك في إسرائيل. لقد كان إهرنبرج هو أول من أعلن هذا الرقم في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٤ عندما كان عشرات الألوف من المعتقلين اليهود في معسكرات النازية أمام خيار الانتظار في المعسكرات حتى "يحررهم" الشيوعيون أو الهرب غرباً. واختارت أغليبتهم الساحقة الهرب غرباً مع أسريهم من الألمان^(٢).

- ولكن جدتك اختارت انتظار الشيوعيين.

- بل يبدو أنها قد ذهبت إليهم بنفسها عندما تأخروا. فقد وصل بعض أقربائها إلى مراكز حساسة في الحزب آنذاك؛ لذا لم يوشم رقمها على ذراعها وترحل إلى سيبيريا ككثير من الأسرى المحررين، بل استقبلت كعميلة شيوعية مهمة، واستلمت وزوجها حال وصولهما شقة كبيرة في مركز المدينة، تطل على شارع النيفسكي نفسه. ومضى أبراهام يروي كيف تهافت عليه "الروس الجدد"^(٣) الذين كانوا يتصيدون

(١) جاء ذلك حرفياً في تقرير الصليب الأحمر رقم ٩٩٥٢ في حزيران/يونيو ١٩٤٦ م.

(٢) جاءت المعلومات السابقة من تقرير نشره الكاتب "جيم كيروان" على الإنترنت يوم ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠٩ م.

(٣) مصطلح اشتهر كثيراً في روسيا تلك الفترة. ويقصد به طبقة الأغنياء الرأسماليين الذين ظهروا بعد انهيار النظام الشيوعي.

مثل تلك الشقق الراقية، ليتشبهوا بالأرستقراطية الروسية قبل الثورة، وكيف كان كل واحد منهم يعرض سعراً أعلى من منافسيه، مما مكنه من بيعها بمبلغ خيالي، لم يكن يحلم به إطلاقاً. إلا أن أحمد الذي لم يكن راغباً في التطرق إلى تفاصيل أمور صديقه المادية، أدار دفة الحديث نحو موضوع المحرقة ثانية، وقاطعه قائلاً:

- بالمناسبة، هل سررت بوثيقة الدم والاعتذار والتوبة^(١) التي أصدرها الفاتيكان عن "الشواه"^(٢)؟

- كلا بالطبع، وكأن البابا "بيوس الثاني عشر"^(٣) هو الذي أصدر أوامره باعتقال اليهود، وكأن هتلر، الذي دمر أوروبا، بحاجة إلى (بابا) ليحثه على القتل. وهو من لم ينبجُ الكاثوليك أنفسهم من برائته، ولم يتمكن البابا من إنقاذهم. وهذا ما كنت أعنيه ليلة أمس، عندما ذكرت أن دور اليهود في التغيير الذي طرأ على المسيحية هو أبعد بكثير من البروتستانتية.

- ولكن هناك من يرى أن البابا يوحنا قد فعل ذلك من دافع التسامح والعدل ليريح اليهود.

- إذا كان اعتذار بابا رومه يريح اليهود، ويخفف هول المحرقة التي يدعونها، فمن الأولى إذن أن يعتذروا بدورهم عن صلب المسيح، واضطهاد أتباعه، وزرع الملل المختلفة في جسم كنيسته الواحدة! فقد يخفف ذلك أيضاً من ألم المسيحيين المتراكم على مر العصور.

- مع أنني أعرف آراءك عما يسمى بالمحرقة جيداً، إلا أنني ما أزال أستغرب كثيراً سماع كل هذا من يهودي.

(١) وثيقة "نحن نتذكر" التي أصدرها البابا الراحل "يوحنا بولس الثاني".

(٢) كلمة عبرية تعني "المحرقة".

(٣) بابا الفاتيكان المعاصر للحكم النازي.

- انس رأبي بالمرحقة، وانس كذلك أنني يهودي، ولنتحدث من منطلق إنساني عقلاني بحت.

- بالمناسبة. هل تعلم أن أحداث الاضطهاد التي جرت على اليهود في أعقاب إعلان الحملة الصليبية الأولى على الشرق، والمعروفة بحملة "بطرس الناسك" كانت أعظم هولاً من تلك المرحقة النازية المزعومة وإن صدقت^(١)؟ ولكن اليهود آنذاك لم تكن تتوافر لهم الفرصة لاستغلالها كما يفعلون الآن بالمرحقة؛ لأن المسيحيين لم يكونوا ليسمحوا لهم بذلك.

- وكم عدد من ذهب ضحيتها؟

- معظم كتاب الحوليات في تلك الفترة (ومن بينهم الرهبان المسيحيون أنفسهم) يؤكدون أن أعداد الضحايا كانت كبيرة جداً بالنسبة إلى التعداد اليهودي في تلك الفترة. وكان يمكن أن تبيدهم في أوروبا لولا إيقاف تلك الفتنة بتدخل معظم ملوك أوروبا وأمرائها آنذاك.

- وكيف بدأت؟

- كان سببها الحمية التي فجرها بطرس الناسك ضد أعداء الله كما زعم. فبعد أن ألقى خطابه الشهير حمل الصليب على كتفه وقال للجماهير: "هلموا إلى أرض السمن والوعسل"، حيث كانت أوروبا تعاني أسوأ انهياراتها الاقتصادية، وكانت المجاعة تنتشر في كل مكان. وبعد إلقائه لخطابه الحماسي أردف قائلاً: "وقبل أن نحارب عدو الله في الشرق (يعني المسلمين)، علينا محاربة عدو الله هنا" (يقصد اليهود)، ومن هنا تفجرت نار الفتنة، وتعقب المسيحيون اليهود في كل مكان في أوروبا القديمة، وانتشرت الفتنة انتشار النار في الهشيم وحصدت أرواح كل اليهود الذين كانوا بمحيطهم. وكما

(١) يقصد نسبة إلى عدد اليهود في كلا العصرين.

أشرت سابقاً، فإن معظم الباحثين التاريخيين يؤكدون أن عدد ضحايا تلك الفتنة كان يفوق عدد ضحايا الهولوكوست الألماني لليهود في الحرب العالمية الثانية، ويعجبون من إصرار اليهود على إغفالها وإبراز واقعة هتلر.

فابتسم أبراهام قائلاً:

- أستطيع تخمين السبب بكل بساطة؛ فاليهود في العصر الحالي قد استغلوا المحرقة إعلامياً. والإعلام قبل كل شيء هو نبش للسيكولوجيا^(١)، والمؤثرات السيكولوجية المتتابعة بإلحاح قد جعلت وجدان الغرب يمتلك حساسية خاصة إزاء النازية، ويشعر بعقدة الذنب، مما مكن اليهود من استغلال ذلك أبشع استغلال. أما حالة الحملة الصليبية الأولى، فقد أكل عليها الدهر وشرب، ولن توفر تغطيتها الإعلامية ولو جزءاً بسيطاً من الفوائد مقارنة بتلك التي جَنَوهَا من جراء المحرقة التي لا تزال طازجة نسبياً.

- تماماً. أضف إلى ذلك أن المذبحة القديمة تضعهم بخانة واحدة مع المسلمين باعتبارهم الكفار المستهدفين، وهذا ينقص من حجم التعاطف معهم. ولولا هذه الأسباب لكان الأحرى باليهود طلب اعتذار الفاتيكان عن تلك الفتنة أولاً.

- إن توخيت العدل، يا بن العم، فلا يحق لليهود طلب اعتذار المسيحيين ولو عن تلك الفتنة. فلا تنس أن اليهود الأوائل شتموا وصلبوا وقتلوا وبصقوا على من يركع له ولهم باباوات الفاتيكان، أي من يعتبرونه ربهم ورسله وأتباعه الأوائل، وأن أغلب المذابح بحق اليهود كانت رداً على كشف مؤامرات أو جرائم يهودية، أو غضباً عاماً على المرابين اليهود من قبل الفقراء المستغلين. ومع ذلك أصدر الفاتيكان وثيقة من عشر صفحات أبدى فيها أسفه على الأخطاء التي ارتكبتها مسيحيون كاثوليك لأنهم "لم يقدموا المساعدة" لليهود خلال إبادةهم على يد النازية في الحرب العالمية الثانية،

(١) علم النفس.

مع أنه قد قال: "إن المحرقة كانت صنيعة نظام عنصري وثني جديد، تجد معادة السامية فيه جذورها خارج المسيحية، ولم يتردد في الماضي قدماً وراء أهدافه في معارضة الكنيسة واضطهاد أعضائها". إذن، وكما ورد في الوثيقة، فإن هتلر كان يعارض الكنيسة الكاثوليكية ويضطهد أعضائها، فأين هو الذنب الذي اقترفه البابا بيوس الثاني عشر بحق اليهود، وهو الذي كان مضطهداً ورعيته من قبل النازية؟! كما أن الوثيقة تشيد بحكمة البابا ودبلوماسيته خلال الحرب العالمية الثانية، وإن جهات يهودية عديدة أثبتت على دوره في إنقاذ مئات الآلاف من اليهود، فلم الاعتذار إذن؟!!

- الغريب أن كثيراً من اليهود اعتبروا ذلك أقل بكثير مما يجب. فالحاخام "مائير لاو" أحد الناجين من معسكرات النازيين رفض الوثيقة جملة وتفصيلاً: "لأنها تتجاهل الموقف الشائن للبابا خلال المحرقة، وتكتفي بعموميات عن العلاقات بين المسيحيين واليهود". والباحث اليهودي "أفرايم زوروف" قال: "كنت أود لو اعترف الفاتيكان بأن اللاسامية المسيحية أدت إلى المحرقة. المهم أن يكون الفاتيكان واعياً لحجم الجرائم النازية، ولكن الوثيقة التي أصدرها تثبت أنه لا يريد تحمل مسؤولياته، ولا يستطيع أن يفهم مداخل المذبحة ومخارجها"!!!

- أجل، وقد كان هؤلاء بالذات هم المقصودون بتملق بابا الفاتيكان بندكت السادس عشر، عندما شكر الرب لامتلاك اليهود أرض أجدادهم. وفي الوقت الذي كان الشعب الفلسطيني بمسلميه ومسيحييه يحيون الذكرى الـ ٦٠ لنكبتهم واغتصاب أرضهم على أيدي عصابات القتل والإرهاب الصهيونية التي ارتكبت بحقهم أبشع المجازر والمذابح، أعرب البابا عن "أمنيته الصادقة بمناسبة الذكرى الستين لإقامة دولة إسرائيل"، "شاكراً الرب لامتلاك اليهود أرض أجدادهم ثانية".

فرد أحمد باستغراب:

- لم أسمع بهذا. متى أدلى بذلك التصريح؟

- لدى تسلمه أوراق اعتماد السفير الإسرائيلي الجديد لدى الفاتيكان "مردخاي لوي"، وهو الخامس منذ إقامة العلاقات بين دولة إسرائيل والفاتيكان في العام ١٩٩٤^(١). وفي آب/أغسطس ٢٠٠٥ أثبت البابا بندكت أنه فاق سلفه في التقرب من اليهود، حيث دخل للمرة الأولى في تاريخ البابوية معبداً يهودياً داخل ألمانيا، معقل النازية، وبعدها حيّاً البابا الجميع بالعبرية، تفقد صالة ذكرى المحرقة النازية داخل المعبد، ووصفها بأنها جريمة لا توصف ولم تكن تخطر بالبال مسبقاً. وأضاف قائلاً: "إنني أحني رأسي أمام الذين عانوا من جرائم النازية التي لا يمكن وصفها، والأحداث الرهيبة في ذلك الوقت. ويتعين علينا أن نوقظ ضمائرنا، وننهي الصراعات، ونتحرك نحو السلام". ولم تكن مصادفة أن ذلك اليوم كان يوم إحياء ذكرى مقتل يهود مدينة كولونيا في الفترة النازية.

- أذكر هذا. وقد أطلق الإعلام الألماني حينئذ على بندكت لقب "البابا الثاني من أجل اليهود". فقد وصف يوحنا بولس الثاني سابقاً بأنه "بابا اليهود" بسبب تعاطفه معهم. كما وصف "دافيد روزين" رئيس اللجنة الدولية للعلاقات الدينية مع اليهود الأمريكيين اعتلاء بندكت السادس عشر لكرسي البابوية، بأنه "سيكون عاملاً مؤثراً في مكافحة معاداة السامية ومخاطرها، وكذلك في العفو بين اليهود والكاثوليك"، وأن العلاقة بين اليهود والكنيسة ستمر بوقت لم تشهد من قبل.

ابتسم أبراهام بمكر قائلاً:

- يبدو أنه كان يعني ما يقول تماماً، فعندما نشر الفاتيكان صلاة جديدة لـ"قداس الجمعة الحزينة" في الشعيرة اللاتينية القديمة، ثارت نائرة اليهود ضد ما تضمنته من

(١) إن إقامة العلاقات بين الكيان الصهيوني والفاتيكان هي إحدى ثمرات "بيان مجمع الفاتيكان الثاني" (المدعو بوثيقة "نوسترا إيتاتي") عام ١٩٦٥م الذي برأ اليهود من دم المسيح ودشن معارضته لمعاداة السامية. وقد أعلنت هذه الوثيقة، أن موت السيد المسيح لا يمكن أن يعزى عشوائياً إلى جميع اليهود الذين عاشوا في عهده، أو إلى يهود اليوم.

"دعوة إلى تحول اليهود"، مما حدا بالفاتيكان إلى إصدار بيان، أقره بندكت السادس عشر، بل صاغ جزءاً منه، بحسب ما أكدته مصادر بالفاتيكان. وقد جاء فيه: "إن النص لا يهدف بأي حال إلى الإشارة إلى تغيير في احترام الكنيسة الكاثوليكية لليهود. وأن علاقات الكنيسة مع اليهود لا تزال تستند إلى البيان التاريخي لمجمع الفاتيكان الثاني، الذي نبذ مفهوم المسؤولية الجماعية لليهود عن دم المسيح ودشن حواراً معهم"، وأن الكنيسة "ترفض أي موقف ازدراء أو تمييز ضد اليهود، وتتبد بشدة أي نوع من معاداة السامية". وقد رفع الفاتيكان ذلك البيان إلى أمانة مكتب كبير حاخامات إسرائيل، معرباً عن أمله في: "أن تساعد التوضيحات التي وردت في هذا البيان على تصفية أي سوء فهم!" وأنه "يجدد التأكيد على رغبة لا تتزعزع في أن يستمر تطور التقدم الملموس الذي تحقق بخصوص التفاهم المتبادل ونمو الاحترام بين اليهود والمسيحيين".

- وماذا تقول تلك الصلاة التي انتقدها زعماء اليهود؟

- تقول: "اللهم سلم اليهود من ظلامهم واجعل لهم دليلاً في عماهم"، وحسب مصادر في الفاتيكان فقد أسقطت عبارة تطلب من الله أن "يزيل الحجاب عن قلوبهم".

- هذا يذكرني بقيام البابا "يوحنا الثالث والعشرين" بإلغاء مقطع من الصلاة الكاثوليكية يتحدث عن "اليهود الملعونين"، كما ألقى من النصوص الدينية جرم "قتل الرب"، على اعتبار أن وثيقة نوسترا إيتاتي^(١) تنص أيضاً على: "ألا ينظر إلى اليهود كمنبوذين من الرب، وملعونين كما جاء في الكتاب المقدس"^(١)

- وبعد بيان الفاتيكان وعودة الهدوء من جديد إلى العلاقات بين اليهود والكنيسة، استقبل بندكت بحفاوة كبيرة عند زيارته معبداً يهودياً في نيويورك الشهر الماضي خلال زيارته للولايات المتحدة. وقد كانت تلك الزيارة، التي قام بها البابا عشية عيد

(١) كانت تلك الوثيقة في طور الإعداد آنذاك.

الفصح اليهودي هي الثالثة زيارة يقوم بها بابا لمعبد يهودي^(١)، وقد قال حينها: "إنه لمن دواعي سروري أن آتي إلى هنا قبل بضع ساعات من الاحتفال بعيد الفصح عندكم، لأعرب عن احترامي وتبجيلي للطائفة اليهودية في مدينة نيويورك". وقبل أشهر قليلة قال في لقاء مع ممثلي الجالية اليهودية في أثناء زيارته إلى فرنسا: "إن معاداة السامية معادة للمسيحية، والكنيسة تعارض أي نوع من أنواع معاداة السامية التي لا يبررها أي تفسير لاهوتي"، وحيثاً "الدور الجليل" لليهود في تاريخ فرنسا، ومساهماتهم العظيمة في (تراثها الروحي)، في كلمة اعتبر كبير حاخامات فرنسا السابق "جوزيف سيتروك" أنها تعبر عن "تقارب تاريخي بين اليهودية والكنيسة"^(٢). وكما قلت قبل قليل، فإن هذا بالضبط ما كنت أعنيه ليلة أمس، عندما ذكرت دور اليهود في التغيير الذي طرأ على المسيحية. فالحاخامان الأكبران لدولة إسرائيل لم يخجلا من مطالبة البابا بندكت السادس عشر، بدعم إسرائيل فيما وصفاه بـ"مكافحة اللاسامية والإرهاب"، واستتكار حرق الكنس اليهودية في قطاع غزة^(٣).

- ولكن البابا كاثوليكي وليس بروتستانتيًا!

- ألم تقل البارحة إن تأثير مفاهيم البروتستانتية قد تعدها إلى باقي الطوائف

المسيحية ٩

- (١) بعد زيارته هو نفسه لمعبد في كولونيا، وزيارة سلفه البابا يوحنا بولس الثاني لمعبد روما في عام ١٩٨٦.
- (٢) كان ذلك تحديداً في أيلول/سبتمبر من عام ٢٠٠٨، في الذكرى الثانية لخطابه الشهير في "ريغينسبورغ" الألمانية الذي قال فيه إن الإسلام انتشر بالعنف. وهو ما يلقي مزيداً من الضوء حول سياسة الكيل بمكيالين، وحقبة التحالفات والتحديات التي يشدها البابا.
- (٣) جاء ذلك خلال استقبال البابا في مقره الصيفي، في العاصمة الإيطالية روما، للحاخامين الأكبرين للكيان الصهيوني "يونا متسجير" و"شلومو عمار" بمناسبة الذكرى الأربعين لإصدار حاضرة الفاتيكان الوثيقة التاريخية التي برأت اليهود من دم المسيح، عليه السلام، وأشادت بالعلاقات المسيحية-اليهودية وأعلنت مناهضة اللاسامية. وقد حظي اللقاء بين الحاخامين والبابا بتغطية إعلامية واسعة في الكيان، واحتل العناوين الأولى في صفحات الإنترنت لكبرى الصحف العبرية، التي رأت في اللقاء مكسباً جديداً تحققه إسرائيل في حاضرة الكاثوليك في العالم.

- آآآه. لقد فهمت قصدك الآن.

فهز أبراهام رأسه بالنفي قائلاً:

- لا أظن ذلك؛ لأنك تعتقد أن البروتستانتية هي السبب الرئيسي في ذلك

التغيير، وفي الواقع هي إحدى نتائج الخطة التي عمل عليها اليهود طويلاً.

- نعم تتحدث؟

- عن اختراق اليهودية للفاتيكان، ومن ثم للمسيحية كلها.

- وكيف ذلك؟

- أنت تعرف أن الباباوات كانوا على مر الأزمان يضطهدون اليهود بشكل مبالغ

فيه. وبعضهم كالبابا "بولس الرابع" أصدر في عام ١٥٥٥م قرارات متعسفة ضدهم،

كان منها إلزامهم بالسكن في أحياء خاصة بهم (غيتو)، ومنعهم من تطبيب المسيحيين،

أو استخدام عمال وخدم مسيحيين. كذلك فرض عليهم لبس قبعات صفراء تميزهم

من غيرهم، وعين مندوبين للتأكد من تطبيق هذه القرارات، وحرق الكثيرين منهم

بتهمة الارتداد. كما أصدر البابا "جريجوري الثالث عشر" عام ١٥٨١م، حكماً بإدانة

اليهود نص على "أن خطيئة الشعب الذي رفض المسيح وعذبه تزداد جيلاً بعد جيل،

وتحكم على كل فرد من أفراد العبودية الدائمة"، وقد سار على هذه السياسة

الباباوات من بعده، ولكن موقف الباباوات الآن بعيد كل البعد عن موقف أسلافهم،

وأسباب ذلك متعددة، ولكن بداية ذلك التغيير هي نجاح بعض اليهود الذين تنصروا

بالوصول إلى مراكز كبيرة في الكنيسة الكاثوليكية، مكنتهم من زرع بعض الباباوات

اليهود في الفاتيكان نفسه.

- هل تقصد الأساطير اليهودية التي تتفاخر بوجود يهود وصلوا إلى منصب بابا الفاتيكان، كما ورد في "بئر يهودا"^(١) مثلاً؟!!!
- هذه ليست أساطير، فيوجد مزبور يصف هذه الحادثة وينشد في اليوم الثاني بعيد السنة العبرية. ولكنني لن أتعرض هنا للروايات اليهودية الرمزية، بل سأذكر فقط الباباوات الذين اتفق كثير من المؤرخين المسيحيين أنفسهم على تأكيد أصولهم اليهودية، مع التنبية إلى أن "ما خفي كان أعظم".
- وهل تم كشف الأصول اليهودية لباباوات بعينهم؟
- أجل، مثل "جراتيان" أو البابا جريجوري السادس، وهيلدبراند أو البابا جريجوري السابع^(٢) و"بطرس" أو البابا "أناسولت الثاني" (أيولوسولت الثاني)، وذلك الأخير كان أصله اليهودي مفضوحاً حتى من قبل معاصريه الذين وصلت إلينا تهجماتهم عليه وتذكيرهم بأصله. وهكذا، فقد كان اختراق الكنيسة الكاثوليكية والوصول إلى رأس الهرم فيها في أولوية مخططات اليهود في سبيل تأييد مشروعهم الصهيوني المستقبلي. وهناك من يورد الدلائل على أن البابا "أوربان الثاني" المحرض على الحرب الصليبية الثانية كان من أصول يهودية أيضاً!
- اعذرني على جرأتي، ولكن أليس هذا بالضبط ما عبرت عنه بروتوكولات حكماء صهيون عندما تحدثت عن: "لحظة سوف يقوم اليهود فيها بتدمير الفاتيكان، لأن الفاتيكان رفضت الدعوات البروتستانتية التي تقول بأن على كل مسيحي أن يهتم بإعادة اليهود إلى أرضهم في فلسطين، والتي هي أرض آبائهم وأجدادهم"؟

(١) كتاب تأليف "ميشابن غوريون" وهو يتحدث عن بابا رمز له باسم "أندرياس" وأنه في الحقيقة هو إيلشانا ابن الرباني شمعون الذي عاش في مدينة ماينس.

(٢) وهو من سُمي المسلمين كفرة، وطالب بالحرب ضدهم.

- أوافقك على ذلك، ولا داعي للاعتذار؛ فأنا نفسي بدأت منذ مدة طويلة بتصديق احتمال أن تكون تلك البروتوكولات من صنيع اليهود فعلاً، وليست مكيدة روسية قيصرية كما يشاع. وذلك بعد حوار دار بيني وبين أحد الحاخامات المحافظين في أورشليم.

- يبدو هذا أكثر إثارة، وماذا قال لك؟

- سأقص عليك خبر ذلك لاحقاً^(١)، لكن هذا خارج موضوعنا حالياً.

- كما تريد. تابع أرجوك.

- إن أولئك الباباوات اليهود قد غيروا، عبر الزمن، الكثير من الاعتقادات الكاثوليكية السابقة بشأن أبناء جلدتهم.

- مهلاً؛ فهذا -إن صح- لم يمنع المواجهة بين الحركة الصهيونية والكنيسة الكاثوليكية التي أعلنت موقفها الراض للصهيونية فور انعقاد مؤتمر بازل في سويسرا. ففي أيار/مايو ١٨٩٧ ندد الفاتيكان بمحاولات السيطرة على فلسطين بمسوغات دينية مسيحية، وأصدر بياناً جاء فيه: "إن إعادة بناء القدس لتصبح مركزاً لدولة إسرائيلية يعاد تكوينها، يتناقض مع نبوءات المسيح نفسه، الذي أخبرنا أن أورشليم سوف تدوسها العامة حتى نهاية زمن العامة؛ أي حتى نهاية الزمن". كما أن البابا بيوس العاشر أكد في أثناء لقائه بـ"هرتزل" في اللقاء الذي حدث بينهما سنة ١٩٠٤ مواقف الكنيسة الكاثوليكية من الحركة الصهيونية، وذلك بقوله: "لا أستطيع أبداً أن أتعاطف مع هذه الحركة (الصهيونية)؛ فنحن لا نستطيع أن نمنع اليهود من التوجه إلى أورشليم، ولكن لا يمكننا أبداً أن نقره. إنني بصفتي قيماً على الكنيسة، لا أستطيع أن أجيبك بشكل آخر. فلم يعترف اليهود برينا، ولذلك لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودي. ومن ثم،

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

فإذا جئتم إلى فلسطين، وأقام شعبكم هناك، فإننا سنكون مستعدين كنائس ورهباناً لتعميدكم جميعاً". وفي هذا اللقاء قال هرتزل: "إن النكبات والاضطهادات لم تكن في اعتقادي خيراً وسيلة لإقناع قومي بما يكرهون"، فرد البابا: "إن الرب يسوع المسيح، أتى إلى هذا العالم ولا قوة له ولا سلاح... وهو لم يضطهد أحداً، وإنما هو الذي تعرض للاضطهاد وتخلّى عنه الناس... أما أن يظل اليهود محتفظين بمعتقدهم ينتظرون مجيء المسيح، والمسيح عندنا قد جاء وتمت بعثته للبشر، ففي هذه الحالة نعتبر اليهود منكرين للاهوت يسوع المسيح، ولا مجال هنا لمساعدتهم لا في فلسطين ولا في غيرها، وهذا هو الوجه الأول. أما الوجه الآخر فهو أن يذهبوا إلى فلسطين شعباً بلا دين بالإطلاق، وفي هذه الحالة نجد أنفسنا في مجال أضيق، وغير مستعدين لمؤازرتهم". وفي العام ١٩١٧ قال البابا بندكت الـ١٥ معلقاً على وعد بلفور: "لا لسيادة اليهود على الأرض المقدسة". وفي ١٥ أيار/مايو ١٩٢٢ وجه الفاتيكان مذكرة رسمية لعصبة الأمم تتنقد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وقال: "إن الحبر الأعظم لا يمكن أن يوافق على منح اليهود امتيازات على غيرهم من السكان". ولم يختلف الموقف كثيراً بالنسبة إلى البابا بيوس الـ١٢ الذي خلف بندكت الـ١٥.

قال أبراهام:

- أنا لم أدع أن الباباوات اليهود قد نجحوا في تغيير الكاثوليكية تماماً، بل قلت إنهم أوجدوا بعض المفاهيم التي تصب في مصلحة اليهود، وأن هذه التغييرات قيدت خلفاءهم فيما بعد، حتى أولئك الذين كانوا متشددين منهم إزاء اليهود. وبالنسبة إلى بيوس العاشر تحديداً، فهي هي ذي صورته إلى الآن في متحف ياد فاشيم وعليها تعليق بأنه: "امتتع عن توقيع إعلان الحلفاء الذي يدين إبادة اليهود". وقد امتعت إسرائيل عن إزالة ذلك التعليق حتى بعد أن أعلن البابا بندكت أنه لن يزورها ما دام موجوداً. وفي النهاية تراجع البابا عن موقفه وظلت إسرائيل ثابتة على موقفها!!! ثم لا تتس

أن ذلك الموقف من قبل البابا بيوس العاشر هو السبب الحقيقي وراء تعطيل محاولة الفاتيكان مؤخراً لاعتباره "قديساً"، فقد تعهد البابا بندكت السادس عشر لزعماء يهود بالتفكير بجدية بشأن تجميد عملية تطويب البابا بيوس^(١) كما صرح الحاخام "ديفيد روزين" الذي رأس الوفد اليهودي المكلف بهذا الأمر.

- هذا كلام فيه الكثير من المبالغة؛ فليس من شأن الحاخامات اليهود أن يفرضوا على الكنيسة من يجب ألا تعتبرهم من قديسيها!!! فهذا ابتزاز مفضوح.

- ولكن هذا ما حصل فعلاً؛ فالبابا بندكت إلى الآن لم يوقع على المرسوم الذي وافقت عليه الإدارة المعنية بالتطويب في الفاتيكان العام الماضي^(٢)، واختار بدلاً من ذلك ما أسماه الفاتيكان "فترة من التأمل"^(٣)، ومؤخراً صدر بيان للفاتيكان بأن فترة من العمل التحضيرية تتراوح بين ست سنوات وسبع قد تكون مطلوبة قبل فتح السجلات الخاصة لفترة بيوس للباحثين ودراسة مزيد من المعلومات حول فترة توليه للبابوية. ودعا الفاتيكان الكاثوليك واليهود إلى التوقف عن ممارسة "ضغوط" على البابا بندكت السادس عشر بشأن أن يُرفع البابا بيوس الثاني عشر الذي شغل كرسي البابوية في العهد النازي إلى مرتبة القديسين.

(١) التطويب هو آخر خطوة قبل الارتقاء إلى مرتبة القديسين في الكنيسة الكاثوليكية .

(٢) المرسوم هو توثيق فضائل البابا بيوس ، الذي يعتبر خطوة نهائية في عملية طويلة بدأت في عام ١٩٧٦ ولم يكن ينقصها إلا توقيع البابا الحالي .

(٣) في سينودس الأساقفة الثاني عشر الذي انعقد في روما من ٥ إلى ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨ ولأول مرة في تاريخ مثل هذه المجالس ضم السينودس حاخام حيفا شير ياشوف كوهين ، الذي فجر موقفاً لم يكن في الحسبان ، وكشف عن له الكلمة العليا في الأمور الكنسية الفاتيكانية : البابا أم الصهاينة! ففي المدخل التي ألقاها يوم ١٠ /٦ بدأ قائلاً : "نحن معترضون على إضفاء صفة القداسة على بيوس الـ١٢ فلا يمكننا أن ننسى صمته أيام المحرقة ، ولا يمكننا أن ننسى الواقعة الأليمة لعدة كبار من الشخصيات بمن فيهم كبار الزعامات الدينية ، صمتهم وعدم قيامهم بإنقاذ إخواننا وأثروا الصمت . . . لا يمكننا أن نغفر ولا أن ننسى ذلك ، ونرجو أن نتفهموا موقفنا . . . بل نأمل الحصول على معاونتكم كمسؤولين دينيين لحماية دولة إسرائيل والدفاع عنها من أيدي أعدائها ، فهي الدولة الوحيدة والمتمردة ذات السيادة من بين أهل الكتاب " .

- لم لا تفترض أن يكون التأخير لأسباب أخرى غير النفوذ اليهودي؟
 - لأن وكالة الأنباء الإيطالية أذاعت مقابلة مع الأب "بيتر جومبيل" (كبير القضاة في الفاتيكان) الذي يحقق في مسألة إعلان قداسة البابا بيوس، وهو من كبار مؤيدي الإعلان قال فيها: "إن البابا بندكت قد "جمد" عملية رفع البابا بيوس الثاني عشر إلى مرتبة القديسين لأنها ستضر بالعلاقات مع اليهود"^(١)!! وهذا ما بدأت بوادره من الآن؛ فقد صرح "أموس لوتساتو" الرئيس الفخري لاتحاد الجاليات اليهودية في إيطاليا هذا الشهر بأن: "رفع بيوس لمرتبة القديسين قد ينكأ جرحاً يصعب شفاؤه بين اليهود والكاثوليك". وصرح وزير الشؤون الاجتماعية الإسرائيلي "إسحاق هرتزوغ" في مقابلة صحفية أن تطويب البابا بيوس الثاني عشر سيكون أمراً غير مقبول. كما نشر موقع "يلا كاديفا"^(٢) صورة البابا بندكت السادس عشر وقد ركبت عليها صورة للصليب المعقوف إلى جانب مقال عن إجراءات رفع بيوس لرتبة القديسين.

- ربما كنت محقاً فعلاً.

- بالتأكيد، ولا تنس أنه بعد وفاة البابا بيوس العاشر صدرت وثيقة "نوسترا إيتاتي" التي أحدثت تحولاً جذرياً في رؤية الفاتيكان، فانتقلت بموجبه من "الرفض المبني على عقيدة دينية لقيام دولة إسرائيل"، إلى "التعامل مع الواقع المبني على المعطيات الدينية الجديدة" التي أسقطت على نحو تدريجي ومنتابح كل أشكال التحفظات التي كان يتمسك بها البابا الراحل بشكل شديد الوضوح. وهذا ما مكن البابا يوحنا بولس

(١) المصدر هو وكالة رويترز للأخبار. وقد أصدر كبير المتحدثين باسم الفاتيكان الأب "فريدريكو لومباردي" بياناً غير عادي في محاولة للتملص مما ورد في المقابلة.

(٢) موقع صهيوني شبه رسمي يصف نفسه بأنه بوابة نشاط ومؤيدي حزب كاديفا (معنى اسم الحزب حرفياً هو "قدماً" أي إلى الأمام)، وكان يدعم بقوة ترشيح تسيبي ليفني لرئاسة الوزراء أيام الانتخابات التي انتهت لاحقاً بفوز نتنياهو.

الثاني، الذي -بالمناسبة- تحوم الشكوك حول أصله اليهودي أيضاً^(١)، من إعلانه في ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٠ عن النقاط الثلاث التي تحدد مسؤولية الكاثوليك تجاه اليهود، وهي: تعليم التراث اليهودي للكاثوليك، دراسة معاداة السامية وما اقترفه المسيحيون من أعمال انتقامية على مر التاريخ، وزيادة التقارب الروحي بين اليهود والمسيحيين!!! وهو ما تبلور في إصداره لاحقاً ما عرف "بوثيقة ١٩٨٥"، التي كانت بمنزلة انقلاب كامل على مستوى العقيدة المسيحية، وموقف الكنيسة الكاثوليكية، بدعوتها إلى نمط تربوي جديد في الكنيسة، وإلى ما يشبه الاعتراف بالتقصير إزاء التعامل مع الظاهرة النازية، وموقفها المدعى من اليهود. وتقول الوثيقة: "لا يتوقف الأمر فقط على استئصال رواسب العداة للسامية، هذا العداة الذي مازال قائماً إلى الآن في نفوس المسيحيين الكاثوليك، بل أن يضمن لهم من خلال مجهود تربوي، فهماً صحيحاً للعلاقات "الفريدة" التي تربطنا بها كنيستنا بالعبرانيين والعبرية". وتقول الوثيقة أيضاً إنهم "يرثون للجهل المحزن لتاريخ اليهودية وتقاليدها، هذه التقاليد التي تظهر فقط الأوجه السلبية منها، والتي كثيراً ما تكون مضحكة، هي وحدها التي تظهر في الفهم العادي الشائع عند الكثيرين من المسيحيين"، وتشفع الوثيقة باليهود فتقول: "إنه لا يجوز أن يحسب شأن اليهود اليوم كشأن الذين عرفوا المسيح ولم يؤمنوا به"، ثم تقول: "إن المسيح كان عبرانياً وسيكون كذلك دائماً"، وتدعو كاثوليك العالم "ليفهموا

(١) هناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى الأصل اليهودي لأمه "إميلي كاتز" Emily Katz، وقد تبرأت عائلة أبيه منه بعد زواجه بها. وقد كان معظم أصدقاء الأسرة من اليهود، وكذلك أغلب أصدقاء كارول (البابا يوحنا بولس الثاني لاحقاً) في طفولته التعيسة. وكان أحدهم يدعى "جيرري كلوجر" Jerzy Kluger وهو الذي كان له في وقت لاحق دور مهم كوسيط بين المسؤولين الصهاينة، وبين البابا (صديق طفولته)، لاستصدار اعتراف الفاتيكان بالدبلوماسي بالكيان بعد طول انتظار. المصدر: جون كريستنسن في السي إن إن، السيرة الذاتية الخاصة للبابا، السنوات الأولى

J John Christensen at CNN SPECIAL BIOGRAPHY on the Pope's Early Years.

<http://www.cnn.com/SPECIALS/1999/pope/bio/early>

تمسك اليهود الديني بأرض أسلافهم! وتصل الوثيقة إلى ذروة هدفها بالقول: "إن الشعبين المسيحي واليهودي، مع أنهما ينطلقان من وجهات نظر مختلفة، غير أنهما يتجهان نحو أهداف متماثلة، تركز على مجيء المسيح أو عودة المسيح". وتقول الوثيقة: "إنه من الضروري أن نتقدم لحمل مسؤولية تهيئة العالم لذلك لحضور المنقذ". ورغم النقد الشديد الذي لاقته تلك الوثيقة من أوساط مسيحية متعددة، ولاسيما من الكنائس العربية المشرقية، إلا أنها أصبحت سياسة معتمدة لدى الفاتيكان، أدت إلى اعترافه بالدولة الإسرائيلية وإقامة علاقات رسمية معها. وتوجت بوثيقة الاعتذار والندم الأخيرة التي تتحدث عنها، والتي عجت بعبارات التذلل والتزلف والتباكي على معاناة اليهود في أثناء الحقبة النازية.

- حسناً، ولكن ولو سلمنا جدلاً بأثر اليهود وموروث الباباوات والكرادلة من أصل يهودي على ذلك التحول التدريجي في موقف الكنيسة الكاثوليكية بشكل عام، إلا أنه بالنسبة إلى وثيقة نوسترا إيتاتي بالذات، فإنني أظن أنها ترجع إلى تأثير البروتستانت أساساً؛ فهم من كان لهم الدور الأكبر في صياغتها، وليس ذلك الموروث اليهودي البابوي. ولا تنس أن فكرة إصدار الوثيقة قد أخذت طريقها للتنفيذ خلال مؤتمر عقد في روما^(١)، حيث قدم البابا يوحنا بولس وثيقة بهذا الخصوص لتتم مناقشتها وإقرارها من قبل ٦٠ خبيراً دينياً في اللاهوت الكاثوليكي والبروتستانتية. ويومها علق أحد أعضاء "لجنة العلاقات الدينية مع اليهود": "أن المؤتمر سيراجع ويعدل عدة نصوص دينية في العهد الجديد "الإنجيل" لتعاملها على اليهود، كما يتم تعديل إنجيل متى ورسائل بولس وقصة التلاميذ برمتها"!!!

- أنا لا أنكر تأثير البروتستانت، ولكنني قصدت أن ألفت نظرك إلى بدايات التغيير في الفاتيكان نفسه وجذوره، والتي أدت لاحقاً وبالتدرج إلى تغيير النصوص

(١) خلال الفترة من ٣٠/١٠ إلى ٢/١١/١٩٩٧ م.

الدينية وتحريفها لترضي اليهود وتتسجم مع الأوضاع السياسية الراهنة! فقد علق البابا يوحنا بولس الثاني على الوثيقة قائلاً: "أملي كبير في أن وثيقة "نحن نتذكر" ستشكل إعادة تفكير حول المحرقة، وتساعد حقاً على شفاء الجروح"، وأضاف: "إن الكنيسة تشجع أبناءها وبناتها على تطهير قلوبهم نادمين على أخطاء وكفر الماضي. الكنيسة تنادينا للوقوف بتواضع أمام الرب ومراجعة مسؤولياتنا عن الشر الذي وقع في أيامنا... في عدة مناسبات خلال بابويتي تذكرت وبشعور عميق بالأسف معاناة الشعب اليهودي خلال الحرب العالمية الثانية، الجريمة التي أصبحت معروفة باسم الشواه تبقى بقعة لن تمحى من ذاكرة هذا القرن الذي شارف على الانتهاء". ووثيقته لا تتورع عن وصف اليهود بأنهم "الأخ الأكبر" (أو البكر)، حيث تقول: "إن اليهود أعزائنا وأشقاؤنا المحبوبون، وهم بحق الأخ الأكبر (البكر) لنا". وتطالب الوثيقة أتباع الكنيسة الكاثوليكية بإبداء الأسف والندم على ما حصل لليهود: "لنأسف بعمق على الأخطاء والذنوب التي ارتكبتها أبناء وبنات الكنيسة. لنعمل ما يقوله لنا "المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني" الذي أكد، ودون أدنى شك، أن الكنيسة تتذكر إرثها المشترك مع اليهود، ومدفوعة بأسباب ليست سياسية ولكن دينية من وحي الإنجيل. نأسف للكراهية ومطاردة كل صور اللاسامية الموجهة ضد اليهود في كل زمان ومكان".

- ولكن الحديث هنا عن المحرقة، التي خدعت الكثيرين بالتضخيم والمبالغة التي زرعتها الدعاية الصهيونية في وجدان المسيحيين الأوروبيين، فقد قال البابا: "لا نستطيع أن نعترف كم عدد المسيحيين في الدول التي احتلتها أو حكمتها القوى النازية أو حلفاؤها، احتجوا بغضب على فقدان جيرانهم اليهود، ولم يكونوا شجعاناً بما فيه الكفاية ليسمعوا أصواتهم المعارضة، وللمسيحيين أقول: "إن هذا الحمل الثقيل الجاثم على ضمائرهم بخصوص إخوانهم وأخواتهم خلال الحرب العالمية الأخيرة، يجب أن

يكون مدعاة للندم"^(١).

- إذن لم تقراً الوثيقة جيداً؛ فهي تتهم المسيحية في إدانة، بل إساءة للذات، بارتكاب "خطايا" وليس خطيئة واحدة (السكوت عن المحرقة) تجاه اليهود على مر العصور: "تأمل أن يتحول اعترافنا بالخطايا التي وقعت في الماضي إلى موقف ثابت وعلاقة جديدة خالية من المشاعر المضادة لليهود".

- لقد تعمقت بدراسة تهويد المسيحية بناء على ظهور البروتستانتية فقط، وأعترف بكونك محقاً في أنني أغفلت دراسة دور الكاثوليكية نفسها في ذلك التهويد.
- ألا ترى معي أننا نعيش مرحلة تقارب غامض بين الأصوليتين الكاثوليكية والبروتستانتية؟

- يبدو أن الخيال قد ندَّ بك بعيداً؛ فكل منهما على النقيض من الآخر تماماً.
- ماذا لو أعدت النظر فيما بات يتردد كثيراً في الآونة الأخيرة باسم "الحرب الصليبية الجديدة"؟

- يا إلهي! إلى أين وصل تفكيرك. أوضح لي بالله عليك ما الذي تعنيه بالضبط؟!!!
- دعنا نجلس أولاً في أحد المقاهي. فقد تعبت من كثرة التجوال.

(١) وماذا عن الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش والمذابح العرقية الدينية التي قام بها الفاتيكان مباشرة؟!!! بل ماذا عن الحمل الحالي على ضمير البابا بالنسبة إلى جرائم الكيان الصهيوني في غزة وبقية الأراضي الفلسطينية دون أن يسمع صوت معارضته، أو على الأقل دون أن يكف عن مناصرة المعتدي كأضعف الإيمان؟!!!

◀ البابا والقيصر

ارتشف أبراهام رشفة كبيرة من فنجان "الكابوتشينو" غير عابئ بحرارته، وكأنه ينتقم من البرد الذي جمد أطرافه، ثم نظر بطرف عينيه بخبث إلى أحمد الذي كان ينتظر تمة حديثه على أحر من الجمر. كان أبراهام سعيداً بكونه قد انتقل من مرحلة التلقي إلى مرحلة التنظير؛ فهو لم يعد يسأل فقط، بل يجيب، ويناقد، ويفتح آفاقاً جديدة للحوار. وقد بدأ بملاحظة ذلك في أثناء حديثه مع مدام فيومي، ونقاشه مع القساوسة، وهو ما فسره بالاقتراب من الحقيقة ولا ريب، والتي أمضى جل حياته يفكر فيها، وأكثر من سنة ونصف السنة من عمره يبحث عنها بكل جد. ولما ضاق أحمد ذرعاً بصمت أبراهام وتلذذه المتصنع بكوبه، قال له مداعباً:

- لا داعي لإمساك الكوب بكلتا يديك. فهو لن يهرب منك.
- أنا أدفئ كفي فقط.
- تستطيع تدفئتهما وأنت تتابع حديثك.
- يبدو أنني قد أثرت فضولك فعلاً!
- كف عن الغرور وتابع حديثك.
- حسناً. لقد قابلت في مصر أحد مرتزقة بلاك ووتر التابعين للسلك العسكري لدولة فرسان مالطا، ومن ثم أحد القيايين فيها.
- "أوخ تيبببببب". يبدو أنك فعلاً لا تضيع وقتك سدى بتاتا. وكيف وصلت إليهم!

- عن طريق المصادفة البحتة. فقد أنقذت المرتزق الروسي من ورطة صغيرة، فدعاني على إثرها إلى تناول المشروب في فندقه. ولما كنت قد ساعدته في الغربية، وكنت فوق ذلك مسيحياً أرثوذكسياً مثله، كما اعتقد، فقد تبسط معي كثيراً في الكلام، خاصة أنه منتفع منهم مادياً فقط، والأمر برمته هو مجرد عمل بالنسبة إليه، ولا يعنيه إيديولوجياً (عقائدياً) من قريب أو بعيد.

- هذا شائق جداً. وماذا بعد؟

- لقد تعرفت عن طريقه شخصاً أكثر أهمية في التنظيم، وأكثر منه اقتناعاً بعقائده، مع أنه للأسف أكثر منه حذراً وتكتماً على طبيعة عمله. وقد جرت بيني وبينهما محادثتان طويلتان، عرفت من خلالهما معلومات كنت أجهلها تماماً، مما دفعني إلى التحري عنها جيداً فيما بعد. وهي معلومات متشعبة جداً، وما يهمنا منها الآن هو العلاقة التي تبنت لها بين الأصولية البروتستانتية الإنجيلية ممثلة بالمحافظين الجدد، وعلى رأسهم بوش من جهة. وبين الأصولية الكاثوليكية والبابا، ممثلة في فرسان مالطا والتنظيمات الكاثوليكية المشابهة، وعلى رأسهم مؤسس شركة بلاك ووتر "إيريك برينس" من جهة أخرى. وهذا الأخير عضو في مجلس إدارة مؤسسة "الحرية العالمية للمسيحيين"، التي يصفها موقعها الإلكتروني بأنها مؤسسة لا ربحية، تسعى إلى تقديم المساعدة للمسيحيين المضطهدين بسبب إيمانهم بالمسيح، ويكمل الوصف بأنها مؤسسة إنسانية لا طائفية توفر المساعدات والدفاع وكتب الإنجيل للمسيحيين المضطهدين في مناطق النزاع أو الاضطهاد الحاد في العالم. وهذا الكاثوليكي يتشارك مع بوش في معتقداته المسيحية الأصولية، وهو من عائلة جمهورية نافذة في ولاية ميتشيجان، ويمول حملاتهم الانتخابية بسخاء بالغ، وأبوه "إيدجار برينس" كان ساعد "جيرى بوير" في إنشاء "مركز أبحاث العائلة"^(١). وبوير سياسي محافظ معروف بعلاقاته مع كثير

(١) وهو معني بمواجهة الإجهاض والزواج المثلي.

من الجماعات المسيحية الإنجيلية، كما يعرف بتأييده اللامحدود لإسرائيل، وإيمانه بضرورة استخدام القوة العسكرية لحماية مصالح الولايات المتحدة. وبحسب تقرير الإعلامي "سكيل"، الذي نشرته مؤخراً مجلة "ذا نيشين" الأمريكية بعنوان "جيش بوش في الظل"، فإن الجنرال المتقاعد "جوزيف شميترز"، الذي عمل مفتشاً عاماً في وزارة الدفاع الأمريكية، ثم انتقل للعمل مستشاراً في مجموعة شركات برينس المالكة لبلاك ووتر، قد كتب في سيرته الذاتية أنه عضو في جماعة فرسان مالطة. بل إن عدداً متزايداً من مديري بلاك ووتر صاروا يتبجحون بعضويتهم فيها دون أي مواربة. وقد كشف الباحثان الأيرلندي "سيمون بيلز" والأمريكية "ماريسا سانتيرا" اللذان تخصصتا في بحث السياق الديني والاجتماعي والسياسي للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، عن أن أبرز أعضاء جماعة فرسان مالطة من السياسيين الأمريكيين كانا رئيسي الولايات المتحدة السابقين "رونالد ريجان" و"جورج بوش الأب". كما يشير موقع فرسان مالطة إلى أن من بين الأعضاء البارزين في الجماعة "بريسكوت بوش"، وهو الجد الأكبر للرئيس المنتهية ولايته جورج بوش الابن. ولا يمكن، بحسب الباحثين، انتزاع تصريحات الرئيس بوش الصغير عقب هجمات ١١ سبتمبر من هذا السياق حين أعلن شن حرب صليبية على الإرهاب وذلك قبيل غزوه لأفغانستان عام ٢٠٠١، ولم تكن الكلمة زلة لسان، كما روج لاحقاً.

- لقد قرأت عن هذا سابقاً، ولكن يبدو أنني لم أربط الخيوط بعضها ببعض كما يجب.

- أما أنا فأحاول ذلك، وبالذات فيما يتعلق بعلاقة الرئيس بوش الصغير نفسه بالكاثوليكية، وعلاقته المتميزة مع البابا بندكت.

تساءل أحمد:

- هل تقصد ما روي عن البابا أنه يرى بوجود المحافظين الجدد بخلفيتهم "الصهيونية المسيحية" أو ما يوصف بالمسيحية التوراتية على رأس السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية، نموذجاً صالحاً لأوروبا؛ أي عودة الكنيسة إلى صُلب توجيه صناعة القرار السياسي؟

- ليس ذلك فحسب، بل أعني أيضاً العلاقة الشخصية بين البابا وبوش؛ فالحفاوة البالغة التي استقبل بها الرئيس الأمريكي من طرف البابا في شهر نيسان/أبريل الماضي لم يحظ بها رئيس دولة سابق. إذ بدل تبادل التحية مع بوش كما يحدث مع كبار الزوار في المكتبة البابوية في القصر الرسولي، اصطحب البابا بوش لزيارة برج القديس يوحنا^(١)، ثم تجولا في حدائق الفاتيكان، حيث حضرا عرضاً موسيقياً في الهواء الطلق. كما تخلى البابا عن مقتضيات المراسم البروتوكولية، واستقبل بوش بنفسه عند مدخل البرج، وبمجرد وصول بوش سمع وهو يقول: "يا له من شرف، يا له من شرف"، ثم اختفى الرجلان لنصف ساعة لإجراء مباحثات رأساً لرأس لم تتسرب أي تفاصيل عنها. وعندما سأل صحفي كاثوليكي بوش ماذا ترى في عين البابا؟ رد بوش قائلاً: "الرب"!!! وكان البابا يرد بهذه الخطوة على الاستقبال الحار الذي خصه به بوش في البيت الأبيض لدى استقباله في ١٦ نيسان/أبريل الماضي. وقد قالت مسؤولة البروتوكول في البيت الأبيض "نانسي غودمان": "إن الرئيس معجب جداً بالبابا ويكنُّ له كل الاحترام". وقد دفع ذلك الإعجاب والاحترام، بعض الصحف إلى التكهّن باحتمال اعتناق الرئيس الأمريكي الكاثوليكية بعد انتهاء ولايته.

- لا يعقل هذا مطلقاً؟

- أنا أيضاً أستبعد ذلك. ولكن صحيفة "إل ميساجيرو" أشارت إلى أن شقيق بوش^(٢)

(١) مبنى أثري يعود تاريخه إلى القرون الوسطى .

(٢) "جيب" حاكم ولاية فلوريدا.

قد اعتنق الكاثوليكية فعلاً، ونقلت عن المدير السابق لمجلة "بانوراما" اليمينية "كارلو روسيلا" قوله أن: "لديه معلومات موثوقاً بها عن أن بوش يفكر في اعتناق الكاثوليكية، وأنه تكلم في الموضوع مع رئيس الوزراء البريطاني السابق توني بليير الذي اعتنق الكاثوليكية مؤخراً، وبعد انتهاء فترة رئاسته أيضاً". ولا تنس أن كلاً من بوش وبليير يعتنقان منذ البداية العقيدة الكاثوليكية المسماة بـ"الحرب الصليبية".

هز أحمد رأسه موافقاً وقال:

- صحيح! فقد شاهدت فيلماً وثائقياً أعدته هيئة الإذاعة البريطانية "بي بي سي" يدعى "سنوات بليير"، اعترف فيه رئيس الوزراء البريطاني السابق توني بليير بأن لدينه دوراً بالغ الأهمية في حياته خلال فترة توليه حكم بريطانيا التي امتدت لعشر سنوات، وانتهت باستقالته في شهر حزيران/يونيو ٢٠٠٧. وأضاف قائلاً: "أنا صادق في شأن ذلك لا داعي لإنكار أنه كان لدي إيمان راسخ، ولا أعتقد أن هناك أي خطأ في أن يكون لدى أي شخص إيمان راسخ. وعلى العكس، إن ذلك يمنح الناس قوة"^(١). وأشار الفيلم إلى أن للدين أهمية في الطريقة التي يفكر بها بليير ويتكلم ويتصرف. ومع أن بليير في سنوات حكمه كان يعتنق البروتستانتية الإنجليكانية رسمياً، إلا أنه كان مداوماً على حضور القداس مع زوجته الكاثوليكية في كنيستها. وحسب "صنداي تلغراف"، فإن بعض معارضي بليير يعتقدون أن الحماس الديني لديه أعماه عن عواقب أعماله، ويستدلون على ذلك بقوله: إن الرب هو من سيحكم على قراره بغزو العراق"^(٢). على أية حال ففي العشرين من الشهر الحالي"^(٣) سوف تنتهي ولاية بوش، ويسلم مكتبه الأبيض للرئيس المنتخب باراك أوباما، وبعدها سنرى مدى صدق تلك التكهات الصحافية.

(١) نذكر هنا الجنرال الإنجليزي "النبوي" عند دخوله القدس، وإعلانه من أمام كنيسة القيامة: "اليوم، انتهت الحروب الصليبية". كما نذكر القائد الفرنسي "غورو" الذي وضع قدمه على قبر صلاح الدين عندما احتل دمشق قائلاً: "ها نحن قد عُدننا يا صلاح الدين".

(٢) وللأسف فإن بعض الحكومات العربية تستعين حالياً بخبرته في "ترشيد" الحكم!!!!

(٣) كانون الثاني/يناير سنة ٢٠٠٩ م.

- ولو لم يعتق الكاثوليكية، فلا يمكن تفسير هذا الود بين بوش والبابا بغير اتحاد الأصوليتين والقفز عن الاختلافات العقائدية بينهما من أجل التفرغ للعدو المشترك. وفي إشارة ذات مغزى أوردت الصحيفة نفسها (إل ميساجيرو) خبر صلاتهما معاً يوم الجمعة، أمام صورة لمريم العذراء، التي ترفض الطائفة البروتستانتية عبادتها!

- لقد بدأت معالم الصورة تتضح أمامي أكثر فأكثر.

- ولتزداد وضوحاً، دعنا نستعرض تاريخ البابوية، ولكن من زاوية مختلفة عن المعتاد.

- أي زاوية تقصد؟

- زاوية علاقة الباباوات مع القياصرة.

- ماذا تقصد؟

- لقد مرت العلاقة بين الباباوات والقياصرة بتقلبات كثيرة في الماضي؛ فالقيصر "قسطنطين الكبير"، الذي تولى الحكم عام ٣٠٦م، جعل من المسيحية ديانة للإمبراطورية. وبمرور الوقت انقسمت الكنيسة بين الجناح الشرقي (الأرثوذكسي) والجناح الغربي (الكاثوليكي). وفي الغرب طلب أسقف رومه الذي أصبح بابا أن يعترف القيصر بسلطته العليا. وكان الصراع بين القيصر والبابا هو محور تاريخ أوروبا لسنوات عديدة. وقد شهد هذا الصراع فترات صعود وهبوط؛ فأحياناً كان القياصرة يقلبون أو يطردون البابا، وفي أحيان أخرى كان الباباوات يقلبون القيصر أو يحرمونه كنسياً^(١). ولكن في المقابل كانت هناك أيضاً فترات طويلة عاش فيها القياصرة والباباوات في سلام، مثل هذه الفترة التي نشهدها الآن؛ حيث يعيش البابا

(١) وهو ما حدث مثلاً مع القيصر الألماني "هينريخ الرابع" في عام ١٠٧٧ عندما حرّمه البابا كنسياً، فذهب القيصر إلى "كانوسا" الحصن الإيطالي الذي يقيم فيه البابا طالباً الصفح. ووقف حافياً في الثلج ثلاثة أيام متواصلة إلى أن أشار البابا بإلغاء الحرمان الذي فرضه عليه.

بندكت السادس عشر مع القيصر "جورج بوش الثاني" ليس في سلام فقط، وإنما في وئام وانسجام تامين.

- أذكر هذا النص جيداً. فهو مقدمة مقالة للكاتب الصحفي الإسرائيلي "أوري أفنييري"، نشرها في صحيفة "معاريف" تحت عنوان "سيف محمد". ويرد فيها على خطاب البابا المشؤوم ضد الإسلام في ١٢/٩/٢٠٠٦م.

شعر أبراهام بشيء من الحرج، لكون أحمد قد أحرق مفاجأته بمعرفته المسبقة بالمصدر الذي يستشهد به، وتمنى لو أنه غير بالكلمات قليلاً من باب التموه. ولما خمن أحمد ما يجول برأسه أردف مستدركاً:

- أنا أحترم جداً دقتك وأمانتك العلمية في نقل الآراء المختلفة بحذايفها، ومن مصادر شتى، لتصل في النهاية إلى تحليل موفق، لم يسبقك إليه أحد. فأنا شخصياً قد مررت على أغلب ما تحدثني به الآن، إلا أنني لم أنتبه إلى ما تتهبت إليه.

انفجرت أسارير أبراهام لإطراء أحمد الذي بدا له صادقاً، فتابع حديثه بثقة قائلاً:

- أنت تسهل علي الموضوع ما دمت قد قرأت تلك المقالة. وقد كانت رداً مناسباً على خطاب البابا الذي أثار عاصفة عالمية حينها، بتماشيه بصورة متناغمة مع الحملة الصليبية التي يشنها بوش الصغير ضد ما يسميه بـ"الفاشية الإسلامية" في إطار "صدام الحضارات". وذلك عندما خطب في إحدى الجامعات الألمانية، محاولاً أن يثبت بأن هناك فارقاً جوهرياً بين المسيحية والإسلام. فحسب وجهة نظره تقوم المسيحية على العقل والمنطق، في الوقت الذي يرفضهما الإسلام تماماً!!! وفي حين يرى المسيحيون منطقاً في أعمال الرب، فإن المسلمين يرفضون أي منطق في صنع الله، حسب تعبيره!!! وبعد ردود الفعل الفورية من جانب جهات إسلامية عديدة، شعبية

ورسمية، ادعى المدافعون عنه أن ما قاله كان "زلة لسان"^(١).

- لقد أصبحت زلات اللسان المزعومة بين "حرب صليبية" و"إسلام فاشي" على لسان جورج بوش الابن، أو "تفوق الثقافة الغربية" على لسان "سيلفيو برلسكوني"، من التوالي والكثرة ما جعل كلمة زلة لسان تفقد معناها تماماً، وخصوصاً عندما ترد على لسان مسؤول، فعندها تكبر المسؤولية عنها بقدر حجم مسؤولية المنصب الذي يشغله صاحبها في خريطة صناعة القرار والتأثير على عدد كبير من الناس. وصاحب زلة اللسان هنا يحمل درجة الأستاذية في علم الأديان (الكاثوليكي)، وهو لم يرتجل كلمة أو تصريحاً، بل ورد كلامه في محاضرة، مدروسة معدة من جانب رجل متخصص، قبل أن يكون رئيس دولة الفاتيكان وبابا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، الذي يوصف بالعصمة.

(١) تقول مجلة "دير شبيغل" الألمانية الشهيرة في تقرير تحت عنوان: "مغلوب على أمره في الفاتيكان . . . البابوية الفاشلة للبابا بندكت السادس عشر": "إن البابا يواجه الآن اتهامات من كافة أنحاء العالم، مصحوبة بنداءات عاجلة على نحو متزايد بأن يتنحى. فقضايا الاعتداءات الجنسية التي كانت تمثل في البداية مشكلة فقط بالنسبة إلى مؤتمرات الأساقفة الوطنية، وبخاصة في الولايات المتحدة، وأيرلندا، وألمانيا، قد اندمجت لتُشكّل أزمة بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية بأسرها، وهي الأزمة التي تتحدر الآن بانتقام على الفاتيكان وتضرب زعيمها الروحي بقوة. وفي الوقت نفسه، يبدو هذا الزعيم غافلاً عما وقع من أحداث بهذا الشكل المفاجئ للغاية. حيث لم يتحدث من قريب أو من بعيد عن الجرائم التي ارتكبتها الكهنة في بلده، ألمانيا". وهنا تنقل المجلة الألمانية عن كريستين ويزنر، العضو البارز في حركة الإصلاح، قولها: "نحن كنيسة، ويبدو أن البابا لم يفهم النطاق الحقيقي للمحنة". ثم تتختم دير شبيغل بلفتها الانتباه إلى أن كثيرين من المسلمين لم يغفروا لبندكت تلك المحاضرة التي ألقاها في روزنبرغ العام ٢٠٠٦، حيث بحث مسألة العنف والإسلام في خطوة جريئة لكنها كانت محمية بكفاءة، بيد أنها تسببت في وقوع سيل من الاحتجاجات في العالم الإسلامي. حتى معارضو الإصلاح المتشددون، مثل جمعية القديس بيوس العاشر، وغيرهم من التقليديين، لم يسارعوا بالعودة إلى روما، مع أن البابا قد فتح أمامهم كل الأبواب. وفي الوقت ذاته، جاءت إيماءة بندكت بالتصالح نحو هامش اليمين المتطرف لتثير غضب الأبرشيات الأكثر ليبرالية في كل من ألمانيا وفرنسا.

<http://www.elaph.com/Web/news/2010/4/549939.html>

- لذلك قال أفنيري في معرض رده عليه: "وأنا كيهودي لا أقصد أن أدخل رأسي في مثل هذا الجدل، فأنا أصغر من أن أعقب على منطق البابا. لكن لا يمكنني أن أصمت إزاء جزء معين ورد في كلامه يمسنياً أيضاً كإسرائيلي يعيش بجوار خط جبهة "حرب الحضارات". فلكي يثبت البابا انعدام المنطق في الإسلام، زعم أن النبي محمداً قد أمر رجاله بنشر الدعوة بقوة السيف! وهذا الأمر يتعارض مع المنطق على حد قول البابا، لأن الإيمان والعقيدة يأتیان من النفس وليس من الجسد، فكيف يمكن للسيف أن يؤثر في النفس؟ ولكي يضع البابا أساساً لكلامه، أورد كلمات جاءت على لسان قيصر بيزنطي، من الكنيسة الشرقية المناهضة له. ففي أواخر القرن الرابع عشر، كتب القيصر "مانويل الثاني" عن نقاش أجراه مع مثقف مسلم فارسي مجهول الاسم^(١)، وفي حمية النقاش قال القيصر لمحدثه: "أرني ما الجديد الذي أتى به محمد^(٢) فلن تجد إلا كل ما هو سيئ وغير إنساني، مثل أمره بنشر دعوته بحد السيف". يقول أفنيري: إن هذه الكلمات أثارت عنده ثلاثة أسئلة:

١ - لماذا قيلت على لسان القيصر؟

٢ - هل هي صحيحة؟

٣- لماذا يعيدها البابا الحالي^(٣)؟

(١) الأمر برمته موضع شك كبير. وقد كان هناك عداوة شديدة بين العثمانيين والفرس في الدولة الصفوية (مذهبية سياسية وعسكرية). فكيف وصل ذلك الفارسي إلى القسطنطينية وتناقش بالدين مع الإمبراطور؟!!!!

(٢) رد أحد المعلقين على ذلك الخبر في الإنترنت قائلاً: "آخر ما كنت أتوقعه عندما فغر البابا فاه ليتكلم عن سيد ولد آدم قائلاً: (ما الجديد الذي جاء به محمد إلى البشرية)، آخر ما كنت أتوقعه أن يكون الجديد الذي جاء (قداسته) به إلى البشرية هو مئات أو ربما آلاف الاعتداءات الجنسية. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

(٣) إن الاستشهاد الذي أورده بندكت السادس عشر على لسان القيصر البيزنطي مانويل بالالويوجوس الثاني (المتوفى عام ١٤٢٥م) مهاجماً فيه الإسلام بافتراءات واضحة، كان قد نقله عن "القرآن". ترجمة=

ويضيف: عندما سجل مانويل الثاني هذه الكلمات كان يحكم إمبراطورية تلفظ أنفاسها الأخيرة^(١)؛ فقد تولى الحكم عام ١٢٩١، عندما لم يبق من الإمبراطورية العظيمة سوى عدة أقاليم صغيرة، وهذه الأقاليم أيضاً كان الأتراك العثمانيون يهددون باحتلالها في كل لحظة. أجل: ففي تلك الأيام وصل الأتراك إلى الدانوب، واحتلوا بلغاريا وشمال اليونان، وهزموا الجيوش التي أرسلتها أوروبا لإنقاذ الإمبراطورية الشرقية. وفي ٢٩ أيار/مايو ١٤٥٣، أي بعد عدة سنوات فقط من وفاة مانويل، احتل الأتراك عاصمته القسطنطينية (إسطنبول حالياً) ووضعوا نهاية للإمبراطورية التي دامت أكثر من ألف عام. وهنا أصل إلى مغزى الموضوع: فإن أفنيري يربط بين ما كتبه القيصر مانويل الثاني، وبين الحملات الصليبية فيقول: "في أثناء حكمه، تحول القيصر مانويل الثاني في عواصم أوروبا طلباً للمساعدة، ووعده بإعادة توحيد الكنيسة. وليس هناك من شك في أنه كتب ما كتب عن نقاشاته الدينية، (في حال كتبها فعلاً)، لكي يثير أوروبا كلها ضد الأتراك، ويقنعها بالخروج في حملة صليبية جديدة. فالقصد هنا كان سياسياً والعقيدة خدمت السياسة. ويضيف أفنيري: "من هذه الناحية، فإن الكلمات التي ذكرها البابا نقلاً عن القيصر تتماشى تماماً مع ما يحتاجه القيصر الحالي، جورج بوش الثاني؛ فهو أيضاً يريد توحيد العالم المسيحي ضد "محور الشر" الإسلامي. أضف إلى ذلك أن الأتراك يطرقون أيضاً أبواب أوروبا، ولكن هذه المرة

=وتعليق " بقلم البروفيسور "عادل تيودور خوري" ، اللبناني الأصل، المقيم في ألمانيا، حيث درّس اللاهوت وعمل منذ عشرات السنين في ميداني التبشير والحوار، وقد صدرت آخر نسخة عن الترجمة مع التعليق عليها عام ٢٠٠٥ م. وجدير بالذكر أن الخوري أبدى استياءه الشديد من "اجتزاء" البابا الكاثوليكي لبعض ما أورده في الكتاب، ثم نشر انطباعاً خاطئاً. كما تساءل عن سبب امتناعه في "محاضرة علمية" عن الاستشهاد بمصادر إسلامية عند حديثه عن الإسلام، معتبراً ذلك خروجاً عن المنهج العلمي !!!

(١) في ذلك الوقت كانت القسطنطينية محاصرة من العثمانيين من كل الجهات. وفي إحدى رسائل السلطان "بايزيد" لمانويل الثاني قال عبارته الشهيرة: "إذا لم تكن راغباً في تنفيذ أوامري فأغلق عليك أبواب القسطنطينية، واحكم داخلها فقط؛ لأن جميع ما وراء أسوارها ملك لي".

بالوسائل السلمية. والمعروف عن البابا أنه يؤيد القوى المعارضة لانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي".

- لكن البابا مجرد ناقل لتلك المعلومة ولم يقل أنه يؤمن أن الإسلام هكذا.
- في الحقيقة فإن ما قام به البابا هو ما يقوم به "التلميذ اللئيم" من صبياننا في المدارس؛ فعندما يضعف تلميذ ما عن سب تلميذ آخر يخشى غضبه أو رد فعل إدارة المدرسة حيال ذلك، يقول له: سمعت شخصاً يقول عنك كذا وكذا. والشك يحوم حول موضوع محاوراة مانويل من أصلها.

- أي إنك لا تظن أن ثمة حقيقة فيما زعمه القيصر مانويل؟

- يجيب أفنيري عن هذا السؤال بقوله: "إن البابا نفسه تحفظ على كلامه. وهو كرجل دين جاد له اسمه، لا يمكن أن يسمح لنفسه بتزييف المكتوب. ولذلك ذكر أن القرآن منع محمداً صراحة من نشر الدين بحد السيف، واقتبس من القرآن ما ينص على أنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]"، وكما يقول أفنيري: "كيف نغمض أعيننا عن مثل هذه الآية البسيطة الواضحة!!! إن البابا يزعم ببساطة أن هذه الآية (كتبت) في أوائل دعوة محمد، عندما كان لا حول له ولا قوة، لكن بمرور الوقت أمر باستخدام السيف لأجل نشر الدين^(١)، ومثل هذا الأمر لم يرد ذكره في القرآن! صحيح أن محمداً دعا إلى استخدام السيف في حروبه ضد القبائل المعادية له، سواء كانت مسيحية أم يهودية، عندما أقام دولته في شبه الجزيرة العربية، لكن هذا في حقيقة الأمر كان عملاً سياسياً ولم يكن دينياً بأي حال؛ معركة على مناطق النفوذ على الأرض لا لفرض الدين بالقوة".

- هناك مغالطة في هذا الحديث ذكرني أن أبينها لك من وجهة نظر العقيدة

(١) إن هذه الآية مدنية، ونزلت والمسلمون أعزاء بالإسلام وبعد أن حققوا كثيراً من الانتصارات على أعدائهم. والحمد لله رد كثير من علماء المسلمين على مثل هذه الافتراءات الحاقدة وغيرها.

الإسلامية^(١)، ولكن تابع أرجوك.

- حسناً. لقد قال السيد المسيح في إنجيل متى: "من ثمارهم تعرفونهم"، وعلاقة الإسلام بباقي الأديان يمكن الحكم عليها باختبار بسيط: كيف تصرف زعماءه على امتداد أكثر من ألف عام، عندما كانت القوة في أيديهم وكان بإمكانهم "نشر دينهم بحد السيف" لكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا؟ فعلى امتداد مئات السنين، حكم المسلمون اليونان، فهل أسلم اليونانيون؟ هل حاول أي شخص إجبارهم على الإسلام؟ بالعكس، فقد تولى اليونانيون المسيحيون مناصب رفيعة للغاية في الإدارة العثمانية. كما أن البلغار والصرب والرومانيين والمجريين وبقية الشعوب الأوربية، التي عاشت لفترات طويلة تحت حكم الأتراك، ظلوا على ديانتهم المسيحية ولم يجبرهم أحد على الدخول في الإسلام^(٢)، وقد بقي المسيحيون حتى عام ١٨٦٠م يشكلون نصف سكان دمشق القديمة (مركز الخلافة الأموية)، والموارنة أكثر من نصف متصرفية جبل لبنان، وكان اليونان والأرمن الأرثوذكس واليهود، يساؤون نصف سكان إسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية. صحيح أن الألبان والبوسنيين أسلموا، لكن لا يمكن لأحد أن يدعي بأن الأمر قد فرض عليهم بالسيف.

- تحليل موفق.

- ويقارن أفنيري في مقاله بين احتلال الصليبيين للقدس إبان الفتح العربي^(٣) فيقول: "في عام ١٠٩٩، احتل الصليبيون القدس وذبحوا دونما تفرقة سكانها من

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) إن المدقق في التاريخ يلاحظ استمرار وجود أصحاب العقائد الأخرى في جميع البلاد التي فتحها المسلمون. وعلى النقيض من ذلك نجد أن البلاد التي دخلها المسيحيون تخلوا خلال سنوات معدودة عن أي عقيدة أخرى، نتيجة لسياسة التنصير بالقوة، أو الإبادة أو التهجير.

(٣) بل الإسلامي.

المسلمين واليهود. وكله باسم المسيح الرقيق حلو الطباع^(١)، وفي السياق نفسه، وبعد ٤٠٠ سنة، عندما قام المسلمون بدخول البلاد، كان أغلبية السكان لا يزالون من المسيحيين لكنهم قوبلوا بالتسامح. وطوال هذه الفترة لم تكن هناك أي محاولة لفرض دين محمد عليهم^(٢). وبعد طرد الصليبيين، بدأ أغلب السكان يتكلمون العربية، ثم دخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم. وهؤلاء هم أجداد أغلبية الفلسطينيين الموجودين الآن. لم تكن هناك محاولة من أي شخص لفرض دين محمد على اليهود بالقوة. وتحت ظلال الحكم الإسلامي، شهد يهود الأندلس ازدهاراً لم يشهدوا مثيلاً له حتى أيامنا هذه تقريباً. وشعراء مثل "يهودا هاليفي" كتبوا أشعارهم بالعربية، وكذلك "موسى بن ميمون" المعروف باسم (رمبم)^(٣). وفي إسبانيا الإسلامية كان اليهود وزراء وشعراء وعلماء، وفي "توليدو" (طليطلة) المسلمة عمل المسلمون واليهود والمسيحيون معاً في ترجمة كتب الفلسفة والعلوم من اليونانية القديمة، وكان ذلك بحق هو "العصر الذهبي". فكيف يمكن لكل هذا أن يتحقق فيما لو أمر محمد أتباعه "بنشر الدعوة

-
- (١) قام الصليبيون بتحويل المساجد إلى كنائس، وصار مسجد قبة الصخرة كنيسة "معبد السيد"، كما استخدموا المسجد الأقصى لمصالحهم وأطلقوا عليه اسم "معبد سليمان".
- (٢) ومن جهتنا نورد مقارنة أخرى، ومن أفواهم أيضاً. فقد كشف الدكتور "خوسيه غوميت سولينيو" في المؤتمر الثامن عشر للغة والأدب والمجتمع الإسباني الذي عقد مؤخراً في مدينة مالقة جنوب إسبانيا عن عثوره على وثيقة إنجليزية تؤكد أن سقوط غرناطة الإسلامية والحصار الذي عانت منه المدينة كان أكثر شراسة مما هو معروف حتى الآن. ومؤلف وثيقة سقوط غرناطة شخص إنجليزي متخصص بقوانين الكنيسة يدعى "ويليام ويدمونهام"، وكان أحد المدعويين لحضور الصلاة والاحتفال في كنيسة سان بابلو بمناسبة سقوط غرناطة الإسلامية. وتحدث الوثيقة عن تفاصيل الحصار الوحشي الذي فرضته القوات الإسبانية على أهالي مدينة غرناطة؛ مثل تحطيم الحقول المجاورة للمدينة وحرقتها مما تسبب بمجاعة كبيرة. وتعرض الوثيقة أيضاً إلى بناء كنيسة مكان مسجد غرناطة بعد سرقة كنوزه، حيث كان هناك ٣٠٠ مصباح من الذهب والفضة. كما لم يسمح الملك "فرناندو" للمسلمين بحمل أي شيء أكثر مما يستطيع أحدهم حمله على ظهره من حاجيات من غير الذهب والفضة والسلاح. منقول عن موقع صحيفة اللواء.
- (٣) وهي الحروف الأولى من اسمه ولقبه، بينما تجيء الراء اختصاراً لكلمة "رابي" أي الخاخام (الرابي) موسى بن ميمون.

بعد السيف"١؟ ولكن الأهم من هذا كله هو ما حدث بعد ذلك؛ فعندما استعاد الكاثوليك إسبانيا من يد المسلمين، فرضوا فيها نظاماً من الإرهاب الديني، وكان اليهود والمسلمون أمام خيارات قاسية: إما أن يدخلوا المسيحية، أو أن يقتلوا، أو أن يهربوا بجلدهم، فمن الذي استخدم السيف في نشر دينه؟!! وإلى أين فرمات الآلاف من اليهود الذين رفضوا التحول عن دينهم؟!! كلهم تقريباً تم استقبالهم بالترحاب في بلاد الإسلام^(١)، واستقروا في المنطقة الواقعة ما بين المغرب غرباً، حتى العراق شرقاً، وما بين بلغاريا^(٢) شمالاً حتى السودان جنوباً، ولم يطاردهم أو يضطهدهم أحد. لم يعرفوا هناك أي شيء يشبهه عذابات "محاكم التفتيش"^(٣) و"المذابح" و"المحارق"

(١) يهود إسبانيا الذين يعرفون بـ "السفارديم".

(٢) كانت بلغاريا آنذاك تحت الحكم الإسلامي (العثماني).

(٣) بدأت هذه المحاكم في القرن الثالث عشر لإرهاب "الهراطقة" الخارجين عن الكنيسة، وقد أشرت إلى موضوع محاكم التفتيش مراراً في هذه الرواية في معرض الحديث عن اضطهاد الكنيسة لليهود، وللمسيحيين المعارضين لها. ولكن أشنع فصول تلك المحاكم كانت باضطهاد المسلمين تحديداً، وبدأت بسقوط غرناطة ووقوع المسلمين فريسة لعدو خائن نقض كل العهود والمواثيق التي وقعت في عام ١٤٩١م بين "أبي عبد الله الصغير" والملكين "فرديناند" و"إزابيلا"، والتي اشترط المسلمون موافقة البابا وقسمه عليها، (وقد فعل، ويا لغباء من صدقه) وكانت بنود المعاهدة قد نصت على السماح لرعايا الملك بالاحتفاظ بمساجدهم ومعاهدهم الدينية، ولهم حق استخدام لغتهم والاستمرار بالالتزام بقوانينهم وعاداتهم، إلا أن بنود تلك المعاهدة سرعان ما نقضت، وبأشنع الوسائل خلال السنوات السبع التالية؛ فقد منع المسلمون أولاً من النطق بالعربية، ثم نشطت محاولات التنصير القسري بينهم. وفي عام ١٤٩٩ أجبر قادة الدين الإسلاميون في غرناطة على تسليم أكثر من ٥٠٠٠ كتاب، وتم حرقها ولم يستبقوا منها إلا بعض الكتب الطبية فقط. وزاد الكردينال "أكزيمينيس" على ذلك فأمر بجمع كل ما يستطيع من كتب المسلمين (قدرت بثمانين ألف كتاب) وفيها من العلوم ما لا يقدر بثمن، بل هي خلاصة ما تبقى من الفكر الإنساني، ثم أحرقتها. وفي عام ١٥٠١م أصدر الملكان المؤمنان مرسوماً خلاصته: "إنه لما كان الرب قد اختارهما لتطهير غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال"، لدرجة أن وصف المؤرخ الغربي "بروسكوت" كل ذلك بأنه أفضل مادة لتقدير الغدر الإسباني الكاثوليكي. وبعد عام ١٥٠٢ تم تخيير المسلمين في جنوب الأندلس، وبلنسية، وكاتالونيا، وأراغون بين التعميد أو النفي، وحرق الذي يشكون بحقيقة نصره، وبالذات إن وصل إلى =

و"عمليات الطرد" التي سادت كل البلدان المسيحية تقريباً إلى أن وقعت الكارثة النازية. لماذا؟ لأن محمداً منع صراحة أي مساس بـ"أهل الذمة". وفي المجتمع الإسلامي احتل اليهود والمسيحيون مكانة خاصة، لم يكونوا متساوين تماماً ولكن تقريباً؛ فقد كان عليهم دفع جزية خاصة، ولكن في مقابلها لم يكونوا يؤدون الخدمة العسكرية^(١). لذا فإن أفنيري يصف كلاً من بابا الفاتيكان والقيصر الأمريكي بالجهل بتاريخ الأديان الأخرى، ويقول: "كل يهودي يعرف تاريخ شعبه جيداً لا بد أن يشعر بالامتنان للإسلام الذي دافع عن اليهود وحماهم على امتداد خمسين جيلاً، في الوقت الذي كان فيه العالم المسيحي يضطهدهم ويطاردهم ويحاول المرة تلو المرة تحويلهم عن ديانتهم بحد السيف".

- إذن، أنت تتفق مع أفنيري في أن قصة "نشر الإسلام بحد السيف" هي مجرد أسطورة تهدف إلى إبراز هدف معين.

- تماماً، فهي شبيهة جداً بالأساطير التي راجت في أوروبا أيام الحروب الكبرى لاستعادة المسيحيين لإسبانيا من أيدي المسلمين، وأيام الحملات الصليبية، وأيام الحرب ضد الأتراك عندما احتلوا فيينا. وأوافق أفنيري أيضاً في اعتقاده بأن البابا

= مسامعهم أنه قد نطق بالعربية، أو تناول "الكوكس"، أو استخدم الحناء، أو رمى الحلوى خلال حفلات الزفاف، أو رقص على إيقاع الموسيقى الشرقية! فذلك كان يعتبر حسب نظرهم عادات ذات أصول إسلامية تستحق أشد العقاب. وجدير بالذكر أن محاكم التفتيش الكنسي قد قتلت أكثر من اثني عشر مليون شخص حسب كتاب "اعتذار لمحمد وللقرآن" لـ "جون دافنورت". وللقرائى أن يقارن هنا كيف عامل المسيحيون المسلمين رغم وجود معاهدة موقعة نقضوها وكيف عامل المسلمون المسيحيين عند فتح الأندلس، مع أنهم كانوا المنتصرين ولم يقيدوا بأي معاهدة إلا عهد الله الذي ألزموا أنفسهم به.

(١) كانت الجزية نوعاً من "الضرائب" في المفهوم الحديث نظير الخدمات التي تقدمها الدولة الإسلامية لهم، وهذا متعارف عليه الآن في كل الدول. كما أن المسلمين أنفسهم كانوا يدفعون أكثر من جزية أهل الذمة بكثير تحت بنود الزكاة والصدقة، والتبرع بتجهيز المقاتلين والخراج على من حصلوا على الأراضي، بالإضافة إلى التجنيد وهو الأهم. لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

الألماني أيضاً يؤمن بمثل هذه الخرافات والأساطير، وهو ما يعني أن زعيم العالم الكاثوليكي الذي هو أيضاً لاهوتي مسيحي مهم، لم يحاول التعمق أكثر في معرفة تاريخ الأديان الأخرى، أو على الأقل، وهو الأرجح، تجاهل حقائقه عمداً لغرض ما في نفسه. فيقول أفنيري في مقاله المهم: "لا بد أن نرى ما قاله البابا على خلفية الحملة الصليبية الجديدة التي يقودها حالياً بوش ومؤيدوه من الإنجيليين، وكلامه عن "الفاشية الإسلامية" و"الحرب العالمية ضد الإرهاب" (وكلمة الإرهاب هنا موجّهة فقط للمسلمين). ومن جانب من يقومون بتحريك بوش، فهذه محاولة لتبرير السيطرة على كنوز النفط. وليست هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يتم فيها تغطية مصالح اقتصادية عارية بغطاء ديني. ليست المرة الأولى التي تصبح فيها حملة سلب ونهب حملةً صليبية. وخطاب البابا يتناغم بصورة جيدة مع هذا الجهد"^(١).

- أنت أستاذي فيما نقلت إلي من معلومات اليوم، فقد كنت غافلاً فعلاً عن ذلك التقارب بين الأصوليتين، وكنت أظن أن الكاثوليكية والبروتستانتية لا تلتقيان. ابتسم أبراهام وهو يشعر بالرضا عن النفس، ثم أردف متابعاً إثبات وجهة نظره:

(١) كشف كتاب ترجم أخيراً إلى العربية وقائع وأحداثاً تاريخية عن العالم السري لجاسوسية الفاتيكان، ورأى أن الفاتيكان هي أقدم منظمة في العالم وصانعة الملوك والتاريخ، وأنها استعانت طوال خمسة قرون بجهاز تجسس سري يدعى "الحلف المقدس" أو "الكيان"، كما دعي في وقت لاحق، لينفذ ميثاقته. وجاء في الكتاب الذي ألفه المراسل التلفزيوني الأمريكي المقيم في إسبانيا "إريك فراتيني" أن أربعين من الباباوات اعتمدوا على هذا الجهاز لتنفيذ سياساتهم، وأنه كان له حتى الآن دور غير مرئي لمواجهة حالات الارتداد عن الدين المسيحي والانشقاقات والثورات والدكتاتوريات والاستعمار والترحيل والاضطهاد وشن الهجمات والحروب الأهلية والحروب العالمية والاعتقالات والاختطاف. وسبقت الطبعة الأولى للكتاب -واسمه "الكيان.. خمسة قرون من جاسوسية الفاتيكان السرية" - باللغة العربية طبعات إنجليزية وإسبانية وفرنسية لاقت رواجاً منقطع النظير. وأوردت دار النشر في تعريفها بالكتاب: "يروى فراتيني القصة الكاملة لجهاز المخابرات المقدس هذا، لقد تورط الكيان في قتل ملوك، ودس السم لدبلوماسيين، وتمويل دكتاتوريات أمريكا الجنوبية، وحماية مجرمي حرب، وتبييض أموال المافيا، والتلاعب بالسوق المالية، والتسبب بإفلاس مصارف، وتمويل مبيعات أسلحة لمقاتلين أدينوا بالحروب التي يشنونها".

- هل سمعت عن مركز "سيهل سيتي"؟

- مركز سيهل سيتي التجاري الضخم في زيورخ؟

- أجل.

- بالطبع سمعت عنه. لماذا؟

- لقد افتتحت به مؤخراً كنيسة مشتركة تعد تنويجاً لفترة طويلة من العمل المشترك بين الكنيستين، البروتستانتية والكاثوليكية الرومانية، وقد انضمت إليهما الكنيسة الكاثوليكية القديمة أيضاً. وقد أعرب القساوسة الثلاثة المسؤولون عنها، أن هذه الخطوة تصلح نموذجاً يمكن أن ينسج على منواله في المستقبل لمزيد من العمل المشترك.

- في مركز تجاري!!!؟

- أجل، ويقع هذا المعبد بالتحديد أعلى نادي "ستاربوكس"، ذي الموسيقى الصاخبة. ومع أنه الأول من نوعه في المراكز التجارية في سويسرا، إلا أنه هناك سوابق للكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة البروتستانتية هناك في إدارة أماكن للعبادة في مطار زيورخ وفي محطات القطار الكبرى، بالإضافة إلى مرافق مخصصة لتقديم المساعدة وبعض الخدمات كالإنترنت والرسائل الإلكترونية.

- بعد كل هذه المعلومات الجديدة، اسمح لي أن أعبر لك عن امتناني بدعوتك

إلى الغداء في أفخم مطعم في إيزرلون.

فرد أبراهام ضاحكاً:

- أخيراً بدأت أجنبي ثمار بحثي.

فأجابه أحمد مداعباً:

- ولكن لا تتعود على ذلك؛ فبقية الدعوات بيننا يجب أن تتناسب مع كوننا

عاطلين عن العمل حالياً.

- أنت وحدك العاطل عن العمل الآن، أما أنا فأعمل بجد على تأليف كتابي، وقد رصدت لذلك ميزانية عالية، لذا فتستطيع أن تتوقع مني دعوة أكثر بدخاً، في حال جئتي أنت في المرة القادمة بمعلومات قيمة.

- وهل تعتمز حقاُ تأليف كتاب عن الأديان؟!!!

- ولم لا؟ فقد أعجبتني الفكرة كثيراً، ولاسيما أن صفتي "ككاتب" أو باحث في الأديان بهدف تأليف كتاب، تسهل بحثي عن الحقيقة بشكل أكبر، بالإضافة إلى أنني قد جمعت معلومات مفيدة عن كثير من الأديان، ولا أرى ضيراً من مشاركتها مع الآخرين.

- وفقك الله في ذلك.

- آمين. إذن فيمكنني أن أتوقع منك معلومات قيمة عندما أزورك في آخن، أليس كذلك؟

- اتفقنا. وعندها سأكون قد حضرت لك تحليلاً مشابهاً لتحليلك هذا، وأنداك سأكون الرابع، فمطاعم آخن أشد فخامة وغلاء.

- إذا كان تحليلاً مشابهاً لتحليلي ذاك، فسنكون كلانا من الرابعين.

- يا للتواضع.

- طبعاً، فهذا النوع من التواضع هو من شيم كبار الكتاب أمثالي. هيا بنا نبحث عن أفخم مطعم في المدينة قبل أن تغير رأيك.

فقام أحمد ضاحكاً وهو يقول:

- وهل أجرؤ على أن أغير رأيي مع أحد كبار الكتاب.

◀ شهود زور

غادر أبراهام محطة القطارات حزيناً بعد وداعه لأحمد، وهو يتساءل عن السبب الذي جعله يتعلل بأوهى الحجج كي لا يرافقه، مع أن السبب الرئيسي في سفر كل منهما من أقصى الأرض إلى ألمانيا بالذات دون بقية الدول كان بسبب شوقهما للاجتماع ثانية! لم يكن لدى أبراهام في الحقيقة أية مشاغل خاصة تدفعه إلى البقاء بعض الوقت في إيزرلون كما ادعى، حتى إجراءات الحصول على الجنسية الألمانية كان يمكن مباشرتها من مدينة آخن أيضاً.

ربما كان السبب هو خشيته من أن حبه لأحمد واحترامه البالغ لشخصه وأفكاره قد تؤثر على الهدف الرئيسي الذي نذر نفسه له، ومن ثم فإن طول بقائه بقربه قد يشوش على مساره في البحث عن الحقيقة، خاصة أنه قد بدأ يكثر من تلميحاته بأن الإسلام هو عين الحقيقة التي يبحث عنها.

كان الدين الذي يؤمن به أحمد باقتناع كامل، هو أبعد ما يكون عما يظن أبراهام أنه يبحث عنه، فمع أنه، في دواخل ذاته، كان منجذباً إلى الإسلام لسبب جهله، ومع أنه اعترف لأحمد بوجود الكثير من الحق فيه، إلا أنه كان يعزو ذلك إلى عبقرية مؤسسه في اقتباس بعض نصوص الكتب المقدسة، ومن ثم إعادة صياغتها^(١)، ولذلك فقد كان يتضايق كثيراً من اعتقاد صديقه بأن اعترافه ذاك، وصدمة بمقدار إحداث وتحريف الطوائف التي أخضعها للبحث حتى الآن، ما هو إلا خطوات على طريق اهتدائه إلى الإسلام مستقبلاً. صحيح أن كلاً من جدله مع أحمد، وقراءة ما تيسر

(١) هذا بعض ما يتهم به رسولنا الأمين عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم. ولمعرفة الرد على ذلك راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

له عن دينه، قد جعلاه يغير فكرته عن الإسلام جذرياً، وأجبراه على احترام مبادئه وتعاليمه، إلا أن الإسلام يبقى بالنسبة إليه نتاجاً بشرياً خالصاً، وهو - وإن كان عبقرياً- بعيد عن الوحي الإلهي تماماً.

كان أبراهام يفسر تلك العبقرية بالظروف التي نشأ بها مؤسس ذلك الدين؛ فقد كانت شبه الجزيرة العربية في زمنه ممراً تجارياً، حملت قوافله، بالإضافة إلى البضائع، زخماً جديداً من الاتصال بغرباء على نحو غير متوقع، أدى إلى تعرف البدو متعددي الآلهة ديانات توحيدية كالمسيحية واليهودية، وتأثر بعضهم بأفكار كُتبهما المقدسة، وتعاليمهما الإلهية المتميزة عن دين عبادة الأصنام السائد في جزيرتهم. وفي هذا الخضم ظهر بعض العرب ليقولوا أن الرب ألهمهم لكي ينشروا هذه الأفكار الجديدة، ولم يكن محمد إلا أقواهم شخصية، وأكثرهم حظاً وذكاء. بالتأكيد لم يكن محمد نبياً دجالاً كما كان يظن سابقاً، وعلى الأرجح كان يظن بنفسه أنه يتلقى رسائل موحاة، يشعر بها في داخله، دون أن يكون قد فكر فيها أو حضرها مسبقاً. وربما كان يعتقد بنية صادقة أن الرب هو الذي يوحى بها، عن طريق ملاك يأتي ويضعها في قلبه، ليتسنى له نقلها فيما بعد إلى تلاميذه، فيبدو أن ما يشاع عن نيته الشريرة لإضلال الأمم، وتعاونيه مع الشيطان هو أمر مستبعد تماماً بعد ما عرفه عنه. إلا أن ذلك بالتأكيد لم يكن كافياً لأبراهام كي يصدق ادعاءات ذلك الرجل بأن الرب قد صنع معه عهداً آخر غير الذي صنعه مع أنبياء شعبه المختار، وأنه اختص غيرهم بالنبوة، فالرب لن يرجع عن قراره الذي أعلنه مراراً في كتبه المقدسة^(١).

ثم إن دوران المسلمين كالمجانين حول حجر كبير مكعب وفارغ في مسقط رأس نبيهم مدعين وجود الرب فيه وهو الذي لا يحتويه مكان، إنما هو إثبات آخر على تغلب

(١) لمعرفة الرد على ذلك راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

وثنية العرب القديمة على ذلك الدين، وبعده الشديد عن وحي الرب، خاصة أن أتباعه في بداية تبشير محمد كانوا يتوجهون بالصلاة إلى الهيكل في أورشليم، مقتنعين أن الرب الواحد، الذي اكتشفوه حديثاً، هو نفس رب بني إسرائيل في الكتب المقدسة. إلا أن العلاقات بين محمد ومعاصريه اليهود توترت في يثرب، مما أدى به إلى تحديهم، وتغيير قبلته إلى ذلك الحجر من باب التمييز والاستقلالية، خاصة بعد أن انتشرت مبادئه بسرعة البرق، وآمن به الكثيرون، وازدادت ثقته بأن أفكاره هي فعلاً وحي إلهي منزل.

لم يكن أبراهام يرغب في مصارحة أحمد بوجهة نظره عن دينه ونيبه، لأن ذلك، وإن كان سيحرره من وهمه بحتميته اعتناقه للإسلام في نهاية المطاف، إلا أنه، وفي الوقت نفسه، قد يتسبب أيضاً بخسارة صداقته إلى الأبد، وهو ما لا يتمناه بأي شكل من الأشكال، على الأقل في الوقت الراهن؛ فأحمد هو الشخص الوحيد الذي يثق به ويناقشه فيما يتوصل إليه، ويستتير برأيه من حين لآخر، ومن الأفضل فعلاً أن يحافظ على بقاء شيء من المسافة بينه وبينه، فلا ينساق إلى التواصل معه بشكل دائم، وبفلس الوقت لا ينقطع عنه تماماً.

أحس أبراهام وكأن حملاً ثقیلاً قد انزاح عن صدره، بعد أن ظن أنه نجح في وضع النقاط على الحروف في ذلك الموضوع الحساس، ثم تابع سيره بثقة وهو يفكر بكيفية الاستفادة من وجوده في إيزرلون بأقصى درجة من الحكمة، سواء من جهة زيادة تعرف عقائد بقية الطوائف المسيحية، أو حتى من جهة متابعة ردود أفعالهم عن المذبحة التي يقوم بها الإسرائيليون الآن في غزة، وبالتأكيد من جهة إتمام إجراءات اكتساب الجنسية الألمانية.

في أثناء سيره في مركز المدينة لمح أبراهام رجلين يحملان مجموعة من الكتب والمجلات، ويحاولان استيقاف المارة لتوزيعها عليهم والتحدث معهم عن طائفتهم، فتوقف ليراقبهما من بعيد، وعندما لاحظ صد العديدين لهما، استدار حول أحد



الأبنية متمعداً المرور بطريقتيها. وكما توقع، حاول أحدهما إيقافه هو الآخر، مستأذناً بالتحدث معه، فقال أبراهام كأنه لم يفهم ما قاله:

- عفواً، أنا لا أفهم الألمانية، فهل تستطيع التحدث بالروسية أو الإنجليزية.

- بل الإنجليزية، ولكن هل أنت روسي؟

- أجل.

- هذا رائع؛ ففي روسيا الكثيرون ممن قبلوا البشارة الحقيقية للمسيح.

- وهل هناك بشارة حقيقية وأخرى مزيفة للمسيح؟

- هذا صحيح للأسف. ولكننا بخلاف بقية الطوائف المسيحية الزائفة، فنحن

مسيحيون فعلاً، ونركز بالبشارة الحقيقية للمسيح.

- وبم تختلفون عن الطوائف المزيفة؟

- بأننا نؤمن بأن الله واحد لا ثلاثة، فالعقيدة المسماة بـ"الثالوث الأقدس" ليست

موجودة في الكتاب المقدس، بل إنها لا تتسجم مع تعاليمه، كما أنها تسيء تمثيل الله الحقيقي.

انفجرت أسرار أبراهام، فلنا أنه ربما قد اقترب إلى الحق فعلاً، فسأل مستفهماً:

- غريب أن أسمع ذلك من مسيحيين، فقد كنت أظن أن ذلك مناقض لما جاء في

العهد الجديد.

- وهل تظن أن إله العهد القديم هو غير إله العهد الجديد؟! كلا بالطبع، ولكن

العديد من التحريفات قد طالت الكتاب المقدس، والمسيحية الأولى كانت تؤمن بالإله الحقيقي الواحد، خالق هذا الكون.

- إذن أنتم تؤمنون بالمسيح ولكنكم تتكرون ألوهيته وألوهية الروح القدس؟!

- تماماً، فالله هو وحده صاحب السلطة، وليس له مساو. فالمسيح مخلوق وليس بخالق، وكذلك الروح القدس، الذي هو قوة الله الفاعلة التي جعلها تثبتق من ذاته لإتمام إرادته المقدسة.

- لكن إذا لم يكن المسيح رباً، ولا ابن الرب، فمن يكون إذن؟

قال أبراهام مستبشراً: فقد وجد فيما سمعه منهم إلى الآن صدى لما كان يؤمن به، ويميل إليه، إلا أن استبشاره بدأ بالتلاشي حين أجاب الرجل قائلاً:

- إنه ابن الله فعلاً، ولكن جميع الأرواح هي أبناء الله أيضاً، وما يميز يسوع هو أنه أول مولود في الخليقة، بل الكائن الوحيد الذي خلقه الله مباشرة، ومن ثم خلقت جميع الأشياء الأخرى من خلاله، لكونه وسيط الله الرئيسي، والوسيلة التي استعملها الخالق لإتمام عمله، فهو "الكلمة" في حالته قبل الإنسانية.

- تعني "اللوجوس"^(١)؟

- بالضبط.

- وما هو تصوركم عن الرب؟

- أنه كائن أحادي روحاني وغير منظور. وأهم صفاته هي المحبة والحكمة والعدالة والقوة. وهو ليس إلهاً من دون اسم، فقد أفصح لموسى عن اسمه في العهد القديم^(٢).

- أنتم من شهود...!!!

ثم صمت حرصاً على عدم التفوه بما يظن أنه الاسم الأعظم لله تعالى. فسأله المبشر مستغرباً:

- أجل من شهود يهوه. هل هناك مشكلة ما؟

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) يقصد "يهوه"، ولمعرفة معنى هذه الكلمة وأصلها راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- لا... لا بتاتاً. تابع أرجوك.

- أنا أفهم أنك لا بد قد سمعت كلاماً سيئاً بحقنا. لكن المجموعات الكاثوليكية والبروتستانتية التي تسمي نفسها زوراً وبهتاناً بـ"العالم المسيحي" هي تحريف شيطاني طراً على المسيحية في القرن الرابع على يد الإمبراطور الروماني غير المعمد "قسطنطين الكبير"^(١)، وهي لم تفتأ إلى الآن تضطهد المسيحيين الحقيقيين وتلفق لهم مختلف الاتهامات الكاذبة. وإذا كنت تريد الخلاص، فيجب أن تتسنى أكاذيبهم وتلفيقاتهم بشأننا، وأن تستمع إلينا، ثم تحكم بنفسك.

- كليّ أذان مصغية.

- إن من يسمون أنفسهم زوراً وبهتاناً بالمسيحيين، يقولون أن الخلاص هو قبول يسوع كرب ومخلص شخصي، ولكن الخلاص الحقيقي هو بالأعمال، حيث يكرس المؤمن حياته ليهوه.

- كيف ذلك؟

- بالعماد الحقيقي^(٢)، وبالترابط الفاعل مع "جمعية برج المراقبة"^(٣)، والسلوك المستقيم. أما الذين لا يعيشون وفقاً لهذه المتطلبات فلا أمل لهم بالخلاص.

- ماذا تعنون بالسلوك المستقيم؟

- هو محاربة شهوات الجسد، ومواجهة الذين يسعون إلى جر المرء إلى الفسوق، وتفادي الوقوع في فخ المادية والفلسفات المدمرة، وتقاليد البشر التي تتأى بالمرء عن

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) كل شخص يحصل على موافقة جمعية برج المراقبة يغطس كلياً بالماء. ويحدث ذلك غالباً خلال اجتماع علني.

(٣) الاسم الرسمي لجماعتهم، وهم يخضعون للسيطرة الصارمة لقادتهم، ويعتقدون أن الجمعية بكاملها تخضع بدورها لحكم يهوه المباشر. كما يؤمنون بأنه يتعين عليهم أداء خدمات ثيوقراطية.

الإيمان الحقيقي. والأهم من كل ذلك، التطلع إلى يسوع، المحرك الرئيسي لإيماننا ومضفي طابع المثالية عليه.

- والصوم؟

- لسنا مرغمين على الصوم ولكننا لسنا ممنوعين منه أيضاً.

- والخمر؟

- تعتبر المشروبات الكحولية هبة من يهوه، ولكن يجب استهلاكها باعتدال؛ فالكتاب المقدس يدين السكر الذي يتسبب، في حال أصبح عادةً، بالطرد من الرعية.

- إذا كان الخلاص بالأعمال والطاعة، فما فائدة تضحية المسيح إذن؟

- إن آدم كان إنساناً كاملاً قبل أن يخطئ، ولكن بسبب عصيانه، خسر هو وجميع أبنائه الحياة الكاملة في الجنة الأرضية. لكن يسوع الذي هو أيضاً مثله إنسان كامل، قدم حياته للتعويض عما خسره آدم سابقاً، ومن ثم، فإن موت يسوع الفدائي في سن الثالثة والثلاثين رجح كفة العدالة بين خطيئة آدم ومتطلبات الله الكاملة. وحتى اليوم، يمكن أن تفيدنا تضحية يسوع الفدائية.

- كيف؟

- من خلال الإيمان به يمكننا أن نقابل الله بنقاوة، وأن نعيش في ظل محبته وعنايته. كما يمكننا أن نسعى بحرية إلى التماس المغفرة من الله على قاعدة الفداء واثقين من أنه سوف يسمعنا. وعندها قد نعود إلى الحياة الخالدة على الفردوس الأرضي.

- الإيمان به بأي صفة؟

- بصفة أنه قد أصبح مسيح الرب "المسيا" بعد عماده في سن الثلاثين، وأنه فدانا بموته على "خشب التعذيب".

- خشبة التعذيب!!!؟

- أجل، فإن المصطلح اليوناني "Stauros" في اللغة اليونانية الكلاسيكية، وتلك المنتشرة في بلدان البحر الأبيض المتوسط الشرقية، لا تحمل في طياتها معنى صليب مؤلف من قطعتين خشبيتين متعامدتين، والمقصود به خشبة عامودية واحدة. أما الصليب المؤلف من قطعتين فهو إحدى علامات الكفر القديمة التي اعتمدها الوثنيون في القرن الثالث للميلاد من الحضارات الوثنية الشيطانية الأخرى^(١).

- وماذا حصل بعد قتل يسوع على خشبة التعذيب.

- لقد عاد مجدداً إلى الحياة في الروح.

- في الروح فقط!؟

- أجل.

- إذن أنتم تتكرون قيامة يسوع الجسدية من الموت أيضاً!؟

- بالطبع، وإننا لنعتبر هذا انحرافاً جذرياً عن التعاليم المسيحية التاريخية. فيهوه لم يترك يسوع ميتاً في القبر، بل أقامه إلى الحياة في اليوم الثالث، لكنه بالتأكيد لم يعطه حياة بشرية ثانية، وإلا لكان ذلك يعني أنه يستعيد ثمن الفداء.

- هذا منطقي فعلاً، كيف لم أفكر بذلك من قبل!؟ حسناً. وماذا حصل بعد

ذلك؟

(١) هذا حق أريد به باطل. وللمزيد من المعلومات حول اعتماد الصليب الروماني كرمز ديني راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- صعد إلى السماء بشخص "ميخائيل"، وجلس عن يمين يهوه بانتظار انتهاء "أزمان الوثيين"^(١).

تهد أبراهام بحسرة، فكلما وجد منطقية بطرحهم في ناحية، وجد شططاً في ناحية أخرى! وكأنهم يكشفون بعض الحقائق ليدسوا بينها المزيد من الأكاذيب. فسألهم باستخفاف قائلاً:

- تقصد أن يسوع تجسد في ميخائيل رئيس الملائكة؟!

- كلا، بل أقصد أن ميخائيل قد خضع لمشيئة الله طوعاً حين نقل الله حياته من السماوات إلى أحشاء عذراء يهودية مؤمنة تدعى مريم، فكانت المرحلة الثانية من مسار حياته هنا على الأرض باسم يسوع. وبعد أن أنهى مهمته عاد إلى السماء كميخائيل مرة أخرى.

- حسناً، فماذا قصدت بأزمان الوثيين؟

- أزمان الوثيين هي الفترة التي كان اليهود فيها محرومين من رضا الرب.

- اليهود مرة أخرى؟!!!

ردد أبراهام في نفسه، ملاحظاً أثر اليهود الواضح على عقائد شهود يهوه، الذي ربما كان أكثر مما هو على عقائد أغلب الطوائف المسيحية التي عرفها إلى الآن، إلا أنه أثر تأجيل الحديث في ذلك ريثما يعرفهم أكثر، فلم يقاطع محدثه الذي تابع قائلاً:

- واستناداً إلى "الأزمان السبعة" الواردة في نبوءة دانيال ٤: ١٦، ٢٣، فزمن

حرمان اليهود من رضا الرب هو ٢٥٢٠ عاماً. أي الفترة من عام ٦٠٧ قبل الميلاد، حين

(١) يلاحظ أن هناك طوائف مسيحية أخرى تؤمن بذلك مثل السبتيين المؤمنين بالثالوث، (هم غير أسلافهم السبتيين الموحديين).

أطاح البابليون بملك يهوذا الأخير "صدقيا"^(١) حتى عام ١٩١٤^(٢).

- هل هذا يعني أن يسوع، أو ميخائيل أو الكلمة، قد بدأ حكمه فعلاً؟
- أجل لقد ابتداءً يحكم كملك لحكومة الله السماوية قبل خمس وتسعين سنة.
- إذا كان الأمر كذلك، فأين هو؟
- إن حكم يسوع هو في السماء، وهو لن يظهر أبداً بشكل جسدي على الأرض مجدداً. وفي الوقت الحاضر، يسيطر الشيطان على هذا العالم وعلى مؤسساته، خاصة الكنائس المسيحية الحالية، غير أنه في المستقبل القريب، سيدمر المسيح من السماء العالم الذي نعرفه، وستبدأ الألفية أو الألف عام قبل "يوم الدينونة" (يوم القيامة).

- كيف سيحصل ذلك؟

- بواسطة "هرمجدون".

- حسناً. حدثني عن هرمجدون؟

- إن هذا الاسم يرتبط مباشرة بـ "حرب يوم الله العظيم الجبار". وينطبق هذا المصطلح بشكل خاص على الظرف أو الحالة التي يجتمع فيها ملوك المعمورة بأسرها لمواجهة يهوه وملكوته من خلال يسوع المسيح. وستمثل هرمجدون تدمير الله للنظام الشرير القائم بما في ذلك المسيحية المرتدة والإسلام وقيود الشيطان.

- هل تؤمنون بذلك حقاً؟

(١) خلافاً لعلماء الكتاب المقدس من شهود يهوه، فإن أغلب علماء الكتاب المقدس الآخرين، بالإضافة إلى علماء التاريخ، يحددون تاريخ سقوط مملكة يهوذا ومن ثم السبي البابلي سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، وهناك آراء متعددة ترجح تواريخ أخرى.

(٢) لقد تنبأ مؤسس شهود يهوه بأن سنة ١٩١٤ ستكون فاتحة العهد الألفي للمسيح السعيد، وعندما أثبت الله كذبه وقامت الحرب العالمية الأولى بكل كوارثها، لجأ أتباعه إلى تفسيرات جديدة لتلك النبوءة.

- ليس نحن فقط؛ ففي عام ١٩٨٤ أجرت مؤسسة "يانكلوفينش" استفتاء ظهر منه أن ٢٩٪ من الشعب الأمريكي، أي نحو ٨٥ مليون نسمة، يؤمنون بنبوءة الإنجيل عن تدمير الأرض بالنار، قبل قيام الساعة، بحرب نووية فاصلة بين الخير والشر.

- ومتى سيحصل ذلك؟

- كما قال يسوع في الإنجيل: إن ذلك سيحصل في "هذا الجيل" (متى ٢٤: ١٤، ٣٤).

- أي جيل قصد يسوع؟!!!

- قصد جيل الشعوب التي كانت تعيش في العام ١٩١٤.

- ولكن الأشخاص المتبقين من هذا الجيل أصبحوا اليوم متقدمين جداً في السن.

- إن بعضهم سيبقى على قيد الحياة ليشهدوا انتهاء هذا النظام الشرير^(١) ومن

ثم الألفية.

- وما الذي سيحصل في تلك الألفية؟

- سيعيد شعب يهوه الذي ظل على قيد الحياة بناء العالم على شكل بيئة مثالية

تحت حكمه لمدة ١٠٠٠ عام في الملك الألفي. وبعد انتهاء الملك الألفي، سيطلق الشيطان

لفترة وجيزة ليجرب الذين أقيموا من الموت أو الذين ولدوا في أثناء الملك الألفي، ثم

سيقوم معظم الناس من الموت ليدينهم يسوع في "يوم الحساب".

- كيف؟

- سيرمى بالذين لا يستحقون الحياة في "بحيرة النار" إلى جانب إبليس وشياطينه،

وسيزالون من الوجود، وهذا هو "الموت الثاني".

- أي لن يكون هناك عذاب في الآخرة.

(١) خلال السنوات الأخيرة، بدأ شهود يهوه بالتمهيد لتعديل وجهة النظر هذه لتضمنها كل الأشخاص الذين ولدوا في القرن العشرين.

- مطلقاً. فالعقاب هو الموت والحرمان من الحياة الأبدية.
- وإلى أين يذهب الأموات الآن؟
- إلى " شيؤل" ^(١) أي المقبرة الجماعية للبشرية والمخلصين. فالأموات لا يعون شيئاً، لا يتعذبون ولا يسعهم التأثير علينا بأي شكل من الأشكال.
- وأين شيؤل هذه؟
- إنها ميدان واسع تجتمع به أرواح الناس كالدخان.
- أين؟
- فنظر الرجل إلى رفيقه، ثم قال بحرج:
- بصراحة، أنا لا أدري.
- وإلى أين يذهب المخلصون بعد يوم الحساب.
- ستكون هناك فئتان من المخلصين: ١٤٤٠٠٠ مؤمن مختار يعرفون بـ "الفئة المسوحة بالزيت" ^(٢)، سينتقلون إلى السماوات عند الموت ليحكموا مع يسوع. أما بقية الذين يعتبرهم يهوه صالحين، فسيعيشون في "الجنة الأرضية" ^(٣) بعدما يتم تطهير العالم من إبليس وحلفائه عقب معركة "هرمجدون" والألفية. وهم يعرفون بـ "الخراف الأخر" أو "الجمع العظيم" ^(٤).
- أي جنة على هذه الأرض البائسة؟! ولماذا تعجز الجنة السماوية عن استقبال أكثر من ١٤٤٠٠٠ شخص فقط؟!!
-
- (١) مصطلح من العهد القديم يعني "الهاوية" (جهنم). راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.
- (٢) يفهم من أدبياتهم أن هؤلاء الـ ١٤٤٠٠٠ سيكونون من اليهود!!!
- (٣) يذكر أن إنكار عذاب الآخرة، واعتبار أن الجنة على الأرض هو موافق لاعتقاد فرقة الصدوقيين اليهودية الذين كانوا كهنة الهيكل.
- (٤) راجع إنجيل يوحنا ١٠ : ١٦ ؛ الرؤيا ٧ : ٩.

- أنت لا تفهم الموضوع، ولكني سأحاول أن أقربه لك. تصور أن لديك كرسيًا، وفوقه حشرات مؤذية، فهل ستحرق الكرسي لتتخلص من الحشرات؟
- كلا.
- بل تقتل الحشرات ويبقى الكرسي سليماً. أليس كذلك؟
- تابع.
- وهذا حال الأرض التي تعود سليمة بعد تطهيرها من الدنس والخطايا، وعندها ينتقل إليها الجمع العظيم.
- وهل ستكفي الناس جميعاً؟!
- بالطبع، فلو قسمت مساحة الأرض على عدد البشر، فسيكون لكل شخص مساحة توازي مساحة ملعب كرة قدم.
- وماذا عن بقية البشرية منذ زمن آدم؟!
- فقال الرجل محاولاً إخفاء حرجه:
- سوف تستغل كل مساحة الأرض التي تشغل الآن بالبحار والأنهار والصحاري والجبال.
- فقال أبراهام باستهزاء:
- أتصورها جنة مكتظة جداً.
- لا تظن أن عدد المخلصين سيكون كبيراً إلى ذلك الحد.
- تهد أبراهام بيأس، ثم قال مغيراً الموضوع:
- هل على كل الشعوب ممارسة التبشير؟

- كل مشارك فعال هو ناشر لتعاليم يهوه^(١).

- وهل هم كثيرون؟

هنا تدخل الرجل الأصغر سناً، فقال وهو يقرأ من أحد المنشورات التي بحوزته:

- في إحصائية عام ٢٠٠٥ كان عدد الناشرين في أنحاء العالم كافة: ٦٦١٣٨٢٩

في ٢٣٥ بلداً. وعدد الأعضاء الجدد المعمدين كان ٢٤٧٦٣١، أي بزيادة ١.٣ ٪ عن

العام ٢٠٠٤. أما مجموع ساعات التطوع التي تصرف على العمل التربوي الكتابي

للعام فكان ١.٣ مليار ساعة. وكان معدل حصص الكتاب المقدس الأسبوعية التي تعلم

في المنازل: ٦٠٦١٥٤٦ حصة. وهناك الكثير من المشاهير انضموا إلينا^(٢).

- يبدو أنكم نشيطون فعلاً.

- أشكرك.

ثم أخرج الشاب من حقيبته بعض المجلات والكتب قائلاً:

- هذه بعض منشوراتنا الرئيسية: مجلة "برج المراقبة"، مجلة "استيقظ"، وكتيبات

مثل: "بحث البشر عن الله"، "المعرفة التي تقود إلى الحياة الأبدية"، وبالطبع ترجمة

العالم الجديد للكتاب المقدس، ويعتبر هذا العمل أصح ترجمة للكتاب المقدس؛ لأن

الترجمين اقتربوا جداً مما ذكر في لغات الكتاب المقدس الأصلية.

(١) "الناشر" هو الاسم الذي يطلق على شهود يهوه المؤمنين الذي يقومون بتوزيع منشورات جمعية برج

المراقبة من خلال جولات على المنازل وغيرها. وهي أدنى مرتبة للأعضاء العاملين، تليها مرتبة "صف

جلعاد" أو "الرجاء الأرضي"، وتشمل الأعضاء الرواد والمعاونين ونظار المناطق، وهؤلاء هم أعضاء

الإدارة التنفيذية، ثم مرتبة "الرجاء السماوي": وهم أعضاء الإدارة العليا ويرأسهم العبد العظيم أو

"الحكيم"، ويعرف مقره ببيت "إيل" أي بيت الله.

(٢) أشهرهم هو المغني الأمريكي "جيرمان جاكسون" شقيق "مايكل جاكسون"، ولكن الله منّ عليه بترك

هذه العقيدة الفاسدة، واعتنق الإسلام.

أخذها أبراهام شاكرًا، ثم أخذ يقلب في صفحاتها. وأكثر ما لفت انتباهه هو كثرة الرموز والأحرف العبرية التي تملؤها، فسألها متشككًا:

- حدثوني عن جمعيتكم وكيف نشأت.

فعاد الرجل الأكبر سنًا للحديث^(١) قائلاً:

- لقد بدأ مؤسس الجماعة "تشارلز تايز راسل"^(٢) عام ١٨٧٠ في دراسة مستقلة للكتاب المقدس مركزاً على المجيء الثاني للمسيح، وعلى التسلسل الزمني الكتابي. وقد نشر آراءه ونبوءاته^(٣) في عدة كتب، وبدأ يحاضر عنها في عام ١٨٧٨. وفي سنة ١٨٧٩، أطلق راسل المنشورتين الشهيرتين "برج المراقبة لصهيون"^(٤)، و "الندير بحضور المسيح"، اللتين استعملتهما مجموعات الدراسة التي أسسها. وفي العام ١٩١٧ خلف راسل كرئيس مساعده القانوني "جوزيف فرانكلين روثرفورد"، الذي تابع نمط راسل^(٥)، وقد تم سجنه لفترة قصيرة عام ١٩١٨ بسبب عظاته المناهضة للخدمة العسكرية، ودعوته إلى السلام العالمي، وإلى انتزاع السلاح من أيدي جميع البشر.

- هذا أمر مشرف حقاً.

-
- (١) في العادة يكون هناك اثنان من شهود يهوه في حملات التبشير، أحدهما ناشر متمرس يتولى إدارة معظم الحوار، والآخر متدرب، يعاونه في أمور صغيرة بهدف اكتساب الخبرة العملية بالتدريج.
- (٢) وهو شخص منحرف أخلاقياً، وقد أقامت زوجته شكوى ضده في المحكمة بسبب فضائحه الجنسية.
- (٣) لقد تنبأ راسل أن سنة ١٩١٤ ستكون فاتحة العهد الألفي للمسيح، لكن نشوب الحرب العالمية أبطل نبوءته. وادعى أن سنة ١٩١٨ ستشهد انقراض البابوية، لكنه مات سنة ١٩١٦ في حادث قطار كان ينقله من لوس أنجلوس إلى بروكلين ولم تنقراض البابوية حتى الآن.
- (٤) هكذا كان اسمها أولاً، غير أنهم لاحظوا أن دعوتهم مكشوفة أكثر من اللازم فحذفوا كلمة (صهيون) لتمويه أهدافهم في الدول الإسلامية.
- (٥) تنبأ رذرفورد أن المسيح سيظهر في عهده ليقضي على المسيحية الزائفة. لكنه مات سنة ١٩٤٢ ولم تتحقق نبوءته.

- أشكرك. كما كان، كبقية زعمائنا الملهمين، خطيباً لامعاً طالما احتج على الكنائس المسيحية المرتدة، وطالما انتقد إخفاءهم لاسم الله الحقيقي من "الكتابات اليونانية"^(١) في ٢٢٧ موقِعاً^(٢)، ومن "الكتابات العبرية" في ٦٩٧٤ موقِعاً^(٣).

ثم أخرج كتاباً وقدمه لأبراهام كهديه وهو يقول:

- ولكن هذا الخطأ، وغيره من الأخطاء المتعددة الأخرى^(٤) قد صححت جميعاً في ترجمة العالم الجديد التي بين يديك الآن.

- أشكرك كثيراً على هذه الهدية. ولكن لِمَ أخفى بقية المسيحيين واليهود اسم الرب من الكتاب المقدس؟

- أخفى المسيحيون المرتدون اسم يهوه لضلالهم، أما اليهود فقد تعرضوا للاضطهاد، ولهذا كانوا يخفون اسم الله، كما أنهم كانوا بالأصل يتجنبون لفظه وكتابته، تبيحاً لهذا الاسم السماوي المقدس.

لاحظ أبراهام مدى تساهل شهود يهوه مع اليهود والتماسهم الأعذار لهم في إخفاء اسم الله الأعظم، مقابل الحقد في تفسير ذلك بالنسبة إلى إخوانهم المسيحيين من الطوائف الأخرى، فقال غامزاً:

(١) يسمون العهد القديم بـ "الكتابات العبرية"، والعهد الجديد بـ "الكتابات اليونانية".

(٢) يقوم شهود يهوه، على نحو غير مبرر، بترجمة الكلمتين اليونانيتين الشائعتين kurios التي تعني "السيد"، و Theos التي تعني "الله"، بـ "يهوه". مع أن كلمة kurios لم تترجم بـ "يهوه" ولو مرة واحدة في ترجمات العهد الجديد حيث تم الاستعانة بهذه الكلمة للإشارة إلى عيسى عليه السلام.

(٣) يعرض شهود يهوه حالة منطقية تدعو إلى استخدام هذه الكلمة في العهد القديم، ويتقدمون من لا يقوم بذلك. وفي الواقع، فقد قامت بعض الترجمات القديمة باستخدام كلمة "يهوه" فعلاً، مثل نسخة الملك جيمس. ولكن أغلبية المترجمين الحديثين، يفضلون استخدام كلمة "السيد" أو "الرب" مكتوبة بحروف كبيرة لمجاراة التقليد اليهودي القديم وتجنب لفظ (أو الخطأ في لفظ) ما يعتبرونه اسم الله المقدس. كما استخدمت أيضاً كلمة "إله الحرب"، أو "رب الجنود" في التعبير عن المعنى نفسه.

(٤) أعلن شهود يهوه عبر مجلتهم Awake "استيقظ"، في العدد الصادر في ٨ أيلول/سبتمبر ١٩٦٧ أن هناك خمسين ألف خطأ في الكتاب المقدس.

- أرى أنكم تحملون بقية الطوائف المسيحية دون غيرها وزر إخفاء اسم الرب الأقدس.
 - لأن هذه الطوائف ومعلميها وكتابها ومبشرها جزء من نظام عالم الشر الذي يتحكم به الشيطان. ولذلك يجب الرجوع إلى التفسيرات العبرية الأصيلة، وصرف النظر عن التفسيرات الدخيلة، لما تحمله من شوائب وفساد وتحريف^(١).

- فماذا تقولون بدولة إسرائيل؟

- إن قيامها هو بنعمة يهوه، التي أرسلها إلى شعبه الخاص والمختار إلى الأبد، ويشدد قادتنا على أن أورشليم عاصمة إسرائيل الأبدية^(٢).

- والصهيونية؟

- لطالما صرح قادتنا أن مؤسسها تيودور هرتزل هو "المحبوب من يهوه".

- وما رأيكم بالقتل والتدمير الذي يحصل حالياً في غزة؟

- إن كل ما تقوم به إسرائيل يمثل إرادة يهوه، ولا بد أن يكون راضياً عن كل ما يفعلونه لتتحقق النبوءات التوراتية حول مملكة إسرائيل الكبرى المباركة منه.

- ألم تقولوا قبل قليل أنكم تدعون إلى السلام العالمي، وإلى انتزاع السلاح من

أيدي جميع البشر!!!

(١) شهود يهوه يوافقون البروتستانت في استبعاد سبعة أسفار من الكتاب المقدس بذريعة أنها محرقة، ويزيدون عليهم بحذف بعض النصوص مثل (متى ١٧ : ٢١ . مرقس ٩ : ٤٤-٤٦ . لوقا ١٧ : ٣٦ . يوحنا ٥ : ٤ . الأعمال ٨ : ٣٧) بالذريعة نفسها، وهذا تسليم منهم ومن البروتستانت، ومن طوائف أخرى كالمورمن، أن الكتاب المقدس ليس معصوماً بحيث تزول الجبال ولا يزول منه حرف أو يزيد عليه كما ورد في متى ٥ : ١٧ - ١٨ .

(٢) شهود يهوه لا يعترفون بأي حكومة ولا أي شعار، ولكن ذلك لا ينطبق على حكومة الكيان الصهيوني، ولا على شعار "المينورا" وهو الشمعدان السباعي، ولا على النجمة السادسة، ولا على بقية رموز اليهود الدينية والوطنية، التي تحظى لديهم باحترام بالغ.

- بلى، ولكن يهوه أمر اليهود بإبادة كل من لم يخضع لهم من الأمم، فيقتلوا رجالهم ونساءهم وأطفالهم، حتى حيواناتهم ومواشيهم، وأن يحرقوا دورهم كما جاء في الكتاب المقدس^(١). ومثلما قتل داوود مئتي فلسطيني وقدمهم مهراً لزوجته، وقتل شمشون ست مئة فلسطيني بعظمة^(٢)؛ فإن الإسرائيليين سيتابعون ذلك إلى أن يستسلم الفلسطينيون ويكفوا عن الإرهاب.

- ولماذا هذا الاستثناء للفلسطينيين بالذات؟

- لأنهم أحفاد "الكنعانيين" الملعونين على لسان نوح، والمسخرين لخدمة الساميين^(٣).

- ولكن هذه الوحشية تتنافى مع وداعة المسيح الذي جاء بالسلام.

- السلام ليس مع الجميع. كما أن المسيح قال: "لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً"، وقال أيضاً: "جئت لألقي ناراً على الأرض"^(٤).

(١) ورد ذلك في: (عدد ٣١: ١) (حزقيا ٩: ٥) (٢ صمو ٨: ١) (يشوع ١٦: ١٠) (قضاة ٢١: ١٠) (تثنية ٢٠: ١٠) (قضاة ٢٠: ١٨-٢٠ و ٢١: ٢٠) (يشوع ٨: ٣).

(٢) ورد ذلك في (١ صموئيل الأول ١٨: ٢٥) (الأخبار الأول ١١: ٢٠) (٢ صمو ٢٣: ٨) (قضاة ٣: ٣١ و ٤: ١٥-١٥).

(٣) يقصد ما ورد في الإصحاح التاسع من سفر التكوين، حيث "شرب نوح من الخمر فسكر وتعربى في خيمته. فرأى حام أبو كنعان عورة أبيه"، مما استجلب عليه اللعنة وجعله عبداً لسام أبي اليهود. وكما هو واضح، فقد دس اسم كنعان على التوراة لاحقاً لإضفاء نوع من الشرعية على حق اليهود في أرض كنعان، مع أن الكنعانيين سكان فلسطين هم ساميون ولا ينحدرون من ابن حام المزعوم. ويرى كثيرون من ناقدى الكتاب المقدس أن التوراة تظهر شخصيتين متناقضتين لنوح؛ فمرة نرى نوحاً رجلاً زاهداً قريباً من (الخالق الأعظم) اختاره لإنقاذ البشرية من الطوفان، ومرة يوصف كأول فلاح في البشرية كان أول من زرع الكروم وأول من صنع النبيذ وأول من خلق العبودية تبريراً لاستخدام العبيد في الزراعة، وأنه كان يحتمي الكثير من النبيذ. وهم يرون أن هذا التناقض في وصف الشخصية قد يكون معناه أنه ربما حدث خطأ في أثناء نقل الروايات، وأن الشخصيتين هما لرجلين مختلفين فعلاً.

(٤) لوقا ١٢: ٤٩، ومتى ١٠: ٣٤.

- سؤال أخير.

- تفضل.

- كونكم تعتبرون أن اسم الرب الأعظم له قدسيته وخصوصيته، ولا تجوز ترجمته بكلمة أخرى، فأين تلك القداسة والخصوصية وأنتم تنطقونه بالإنجليزية "جاهوفا"^(١) وبالروسية "ياغفا"، وهو بالعبرية التي تتمسحون بها، اسم آخر تماماً^(٢)!!!
- فنظر كلاهما إلى الآخر باستغراب ولم ينبسا ببنت شفة، فمضى أبراهام في طريقه وهو يقول:
- وداعاً أيها السادة، فلم أعد أحتمل هذا البرد القارص، ويجب أن أبحث عن بعض ال... عن بعض الدفاء.

(١) في القرن الرابع عشر، هجأ أحد الكتاب المسيحيين الكلمة خطأً على أنها "يهوفاه"، وذلك بأن وضع الحروف المتحركة لكلمة (أدوناي Adonai) مع أحرف يهوه الأربعة YHWH لتصبح: Yahowai. وهذا هو أصل كلمة Jehovah جاهوفا الحالية.

(٢) يميل معظم العلماء إلى نطق الاسم على أنه "يَهَوَه"، وإن كانت التفسيرات بشأن ذلك ليست نهائية مطلقاً. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

◀ ضمير ليبرالي

لم يستطع أبراهام أن يتم إجراءات معاملة طلب الجنسية الألمانية، لافتقاده إلى بعض الوثائق المهمة التي يجب أن يحضرها من روسيا. ولما كان غير راغب في السفر إلى هناك في مثل هذه الظروف، فقد قرر السفر إلى الولايات المتحدة، حيث يسكن أحد أقرائه الذين يملكون كل الوثائق المطلوبة، ولا سيما أنه كان متشوقاً لزيارة أمريكا وتعرف طوائفها المختلفة عن قرب. ولما كان السفر عبر مطار مدينة دوسلدورف، فقد قرر أولاً زيارة أحمد في مدينة آخن.

- لقد وصلت اليوم فقط، وتحدث كأنك مودع!!!

قال أحمد بدهشة، فأجابه أبراهام موضحاً:

- أجل؛ فسأسافر يوم الاثنين إلى الولايات المتحدة، لأنني أحتاج إلى بعض الوثائق التي تساعدني على إثبات أصولي الألمانية، وهي كلها لدى خال لي يقيم في الحي اليهودي في نيويورك.

- ألا يستطيع أن يبعثها لك بالبريد؟

- هو لا يعلم أنني أحتاجها، وأنا لا أعرف عنوانه بالضبط، لذا سأسافر بنفسني كي أبحث عنه، حسب المعلومات القديمة المتوافرة لدي.

- وهل جمع خالك تلك الوثائق التي تثبت أصولكم الألمانية، ليهاجر بها إلى الولايات المتحدة؟

- كلا بالطبع، فقد هرب أولاً إلى ألمانيا في زمن الاتحاد السوفييتي السابق، حيث حصل على جنسيتها، ثم عمل بتجارة السيارات المستعملة بينها وبين الولايات المتحدة.

وقد علمت مؤخراً أنه استقر هناك نهائياً، بعد أن أنشأ صالة ناجحة لبيع السيارات في أوديسا الصغيرة^(١).

- ولكن ما حاجتك إلى الجنسية الألمانية؟

- لقد أعجبتني البلد، وأنوي الاستقرار فيه فعلاً لأبدأ حياة جديدة بعيداً عن اليهود. بالإضافة إلى أنني لا أزال أستشعر خطر مردخاي ورجاله، وملاحقتهم لي، ولا أظن أنني سأكون آمناً منهم في روسيا.

- آه، بمناسبة الحديث عن مردخاي؛ هل ستفضحه في كتابك فعلاً، كما خوفته

راحيل؟

- لا أدري بعد، فهو كتاب عن الأديان وليس عن أشخاص بعينهم، ولكنني بالتأكيد سأذكر فيه شيئاً عمن هم على شاكلته، وعن فسادهم في الأرض. وهذا سبب إضافي لرغبتني في الاستقرار بألمانيا؛ فلا أظن أن النفوذ اليهودي في روسيا قد يسمح لي بنشر كتاب كهذا، دون أن أتعرض إلى أنواع شتى من المضايقات.

- ولكنك تدرك حساسية ألمانيا بشأن كل ما يمكن أن يتهمها بمعاداة السامية مجدداً.

- لا تتس أنني يهودي، بل وحاخام لاوي أيضاً، ومن ثم سينظر إلى الأمر بمنظور بعيد عن موضوع معاداة الألمان للسامية.

- ومع ذلك كن حذراً.

- سأفعل. بالمناسبة أقدم لك تهانئ الحارة على كل من انتهاء حرب غزة، وانتهاء ولاية بوش الصغير رسمياً، وخروجه أخيراً من البيت الأبيض بعد طول انتظار.

(١) نسبة إلى مدينة أوديسا الأوكرانية التي بها أحد أشهر وأكبر التجمعات اليهودية في الاتحاد السوفيتي السابق.

- آه لو كنت تعرف حجم الدمار الذي تكشّف في الأيام الماضية عقب دخول الأطباء والإعلاميين إلى أرض المعركة.

- أتصور ذلك بعد تلك الصور التي أريتني إياها في إيزرلون.

- لا أظنك تتصور ذلك مطلقاً؛ فأنا نفسي ذهلت لما تكشف من همجية أولئك الجنود الإسرائيليين وخستهم.

- ألا يعزبك أنك شاركت، وما زلت تشارك، في كشف جانب من هذه الهمجية والخسة على العالم؟

- لن أشعر بأي نوع من العزاء إلا عندما ينتج عن ذلك تحرك قانوني عربي ودولي يؤدي إلى محاكمة قادة إسرائيل عن أعمالهم الإجرامية. فإفلاتهم المتكرر من العقاب هو ما شجعهم على الاستمرار في ارتكاب مثل هذه الجرائم^(١).

- وهل تظن فعلاً أن إسرائيل سترضى بمساءلة قادتها العسكريين في محكمة دولية^(٢)؟

- على الأقل سيؤدي رفضها إلى إحراج كبير أمام الرأي العالمي، وبقيد حركة مسؤوليها، ويكشف أكثر عن خروجها عن القانون الدولي. وإنه لمن سخرية القدر أن

(١) أظهر استطلاع شهري للرأي العام في الكيان الصهيوني نشره موقع يديعوت أحرونوت أن ٧٤٪ من الصهاينة يرون أنه يجب الصفح عن الجنود الذين نفذوا جرائم حرب في غزة، وأن ٥٨٪ يرون بأنه يجب الصفح عن قادتهم.

(٢) في اليوم الذي تلا الموافقة على تبني تقرير غولدستون (سيأتي الحديث عنه بعد قليل) في مجلس حقوق الإنسان، رغم كل العقبات التي وضعت في طريقه، كرست كبرى صحف الكيان "يديعوت أحرونوت" عنوانها الأبرز في الصفحة الأولى لصورة كبيرة لرئيس هيئة أركان الجيش الذي يتمتع بشعبية واسعة في أوساط الإسرائيليين (الجنرال "غابي أشكنازي") وإلى جانبها عنوان بدا كأنه نداء استغاثة من قادة الجيش للحكومة أن "لا تتخلوا عنا". ويستشف من ذلك ومن مواقف أخرى لجؤوا فيها إلى وسائل إعلام عبرية لحشد مزيد من التأييد والتعاطف، أن المحاكمة الدولية تؤرقهم فعلاً، مع أن "غابرييلا شاليف" ممثلة الكيان لدى الأمم المتحدة قد صرحت في إذاعة الكيان الصهيوني أن: "وزيرة الخارجية الأمريكية الجديدة "هيلاري كلينتون" تعهدت باستخدام الولايات المتحدة لحق الاعتراض "الفيديو" في حال رفع قرار إلى مجلس الأمن.

تكون إسرائيل هي أكثر دولة تتكرر للقانون الدولي ولمختلف قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة، مع أنها الدولة الوحيدة في العالم التي أنشئت بقانون دولي^(١)، وتدين بشرعية وجودها للأمم المتحدة^(٢)، وكما قال "بيريك امو" منظم التظاهرات الجماهيرية في المدن الفرنسية للتضامن مع ضحايا غزة: "إنه لا يمكن الاستمرار في السماح للإسرائيليين بأن يسخروا من الحقوق الدولية أكثر من ذلك".

- هل هناك أوروبيون ذوو شأن حقاً يطالبون بمحاكمة إسرائيل؟

- بالطبع، فقد قدم تحالف حقوقي دولي مكون من ٣٢٠ جمعية حقوقية دعوى إلى المدعي العام في "محكمة الجنايات الدولية في لاهاي" لمباشرة التحقيق في ارتكاب قوات الاحتلال الإسرائيلي جرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية خلال عدوانها على قطاع غزة ومحاكمة قادتها. وقال "جون بول بويتي" المحامي البلجيكي وأحد ممثلي التحالف: إننا لن نقبل بأن تمر الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل في قطاع غزة دون محاسبة؛ لأنها جرائم مرعبة، ويجب على العدالة أن تقول كلمتها. وقد وصلت إلى إسرائيل معلومات مؤكدة من نيويورك تفيد بأن مؤسسات حقوق الإنسان الدولية بشكل عام، و"مكتب التنسيق حول حقوق الإنسان" التابع للأمم المتحدة بشكل خاص، باشرت في إعداد لوائح اتهام ضد مسؤولين إسرائيليين سياسيين وعسكريين، بغية تقديمهم إلى المحكمة الجنائية الدولية التي تدير محاكمات جرائم الحرب.

- وهل كانت هناك سوابق لمحاولة محاكمة قادة إسرائيليين؟

(١) قرار التقسيم .

(٢) المفارقة المضحكة أن قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٩ بقبول إسرائيل عضواً في هيئة الأمم المتحدة تضمن الاشتراط الصريح بأن تلتزم الدولة الجديدة بما يقتضيه ميثاق الأمم المتحدة، وقرارات الجمعية العامة رقم (١٨١) لعام ١٩٤٧ الخاص بتقسيم فلسطين، والقرار رقم (١٩٤) لعام ١٩٤٨ الخاص بعودة اللاجئين إلى ديارهم التي طردتهم منها الدولة الجديدة .

- أجل، فقد سبق أن رفع "المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان" دعاوى بحق مسؤولين إسرائيليين في بلجيكا وبريطانيا وهولندا ونيوزيلندا وسويسرا، مستعيناً بخبراء دوليين لمحاكمة مجرمي الحرب الإسرائيليين. غير أنه تم إسقاط الملاحقات نتيجة للجهود الدبلوماسية الإسرائيلية وللضغوط الأمريكية، ولكن مع ذلك أصدرت "المحكمة الوطنية الإسبانية"^(١)، في إحدى المرات مذكرة اعتقال بحق سبعة من القادة السياسيين والعسكريين الإسرائيليين لضلوعهم في مقتل ١٦ مدنياً فلسطينياً بينهم أطفال^(٢)، وأبلغت المدعي العام الإسرائيلي بأن وزير الحرب الإسرائيلي الأسبق "بنيامين بن إيلعازر"، ومستشاره العسكري "مايكل هيرتسوغ"، ورئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق "موشيه يعالون"^(٣)، وقائد العملية قائد سلاح الجو وقتها "دان حالوتس"^(٤)، صدرت بحقهم مذكرة توقيف، وسيلقى القبض عليهم إن وطئت أقدامهم الأراضي الإسبانية. وقد أعلنت "بوليفيا" و"الاتحاد الدولي لحقوق الإنسان" و"جمعية المحامين" والمركز الفلسطيني لحقوق الإنسان أنهم سيرفعون قضايا جديدة إلى المحكمة الجنائية الدولية المخولة البت في جرائم الحرب والجرائم بحق الإنسانية.

- ولكن إسرائيل ليست من موقعي اتفاقية روما التي أرست هذه المحكمة.

(١) أعلى جهة قضائية في مملكة إسبانيا.

(٢) أصغرهم طفلة لم تتجاوز العامين وقت العملية التي اغتالوا فيها القائد العام لكتائب القسام "صلاح شحادة" في تموز/ يوليو ٢٠٠٢ م.

(٣) لاحقاً (في ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٩) كان من المقرر أن يشارك يعالون (حالياً نائب رئيس وزراء الكيان الصهيوني والمكلف بالشؤون الاستراتيجية في الحكومة) في حفل عشاء في لندن لجمع الأموال للجنود الصهاينة. وقال المتحدث باسم يعالون إن الدائرة القانونية في وزارة الخارجية للكيان الصهيوني نصحت يعالون بعدم التوجه إلى لندن خشية أن تصدر محكمة بريطانية أمراً بتوقيفه بتهمة القيام بجرائم حرب.

(٤) ذكر أنه تم الاستعانة بتسجيل صوتي له وهو يتحدث عن ذلك الموضوع قائلاً: "كانت مشاعري كجناح الطائرة حين قصفنا المنزل، لم تهتز أو تتأثر".

فبتسم أحمد بمرارة قائلاً:

- السودان أيضاً ليس من موقعي الاتفاقية، ومع ذلك فقد طلب مدعي عام محكمة الجنايات الدولية "لويس مورينو أوكامبو" في تموز/يوليو الماضي إصدار مذكرة توقيف بحق رئيسه "عمر البشير" بتهمة التورط في جرائم حرب بدارفور. ويقال إن المحكمة الجنائية الدولية قد أصدرت بالفعل مذكرة توقيف بحق الرئيس السوداني، لكن هيئة تلك المحكمة وقيادات الأمم المتحدة رأوا أن يتم تأجيل هذا الإعلان لعدة أيام ريثما تنتهي حرب غزة وتداعياتها^(١)؛ فجرائم الحرب الإسرائيلية اليومية بحق المدنيين هناك، جعلت مصداقية المحكمة في موقف لا تحسد عليه، خاصة مع عدم رغبة القائمين عليها في القيام بإجراء مماثل تجاه قادة إسرائيل^(٢).

- ولكن إذا لم تكن الخرطوم تعترف بالمحكمة الجنائية الدولية ولم توقع على ميثاقها، فعلى أي أساس رفعت قضيتها إلى المحكمة أصلاً؟

- إن مجلس الأمن الدولي يملك السلطة برفع القضية إلى المحكمة الجنائية الدولية أو تشكيل محكمة خاصة، كما شكلت من قبل في مسألة يوغسلافيا، إن رأى ضرورة لذلك.

(١) هذا ما حدث بالفعل، وقد تم الإعلان عن القرار حالما هدأت الأوضاع. ولكن رفض الشعوب لنسيان جرائم الكيان بسهولة هذه المرة، ومطالبة الكثيرين بتقديم قادته للمساءلة عنها لا يزال يعطل تنفيذ ذلك القرار إلى الآن حفاظاً على بقية من ماء الوجه.

(٢) صرحت "سارة ليا ويتسن"، المديرية التنفيذية لقسم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا في هيومن رايتس ووتش (منظمة مراقبة حقوق الإنسان) من واشنطن: "إن الإخفاق في المطالبة بإحقاق العدل إزاء الهجمات التي استهدفت المدنيين في غزة وجنوب إسرائيل من شأنه أن يكشف عن نفاق في السياسة الأمريكية". وتابعت قائلة: "لا يمكن لإدارة أوباما أن تطالب بالمساءلة على الانتهاكات الجسيمة في أماكن مثل السودان والكونغو، ثم تغض النظر عن حلفاء مثل إسرائيل وتدعمهم يفلتون بلا مساءلة. مثل هذا المنهج يدعم الحكومات المسيئة التي تتحدى جهود العدل الدولي... وإن على إدارة الرئيس أوباما أن تصدق بالكامل على تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق في نزاع غزة، بإشراف القاضي ريتشارد غولدستون، وأن تطالب بالعدالة لضحايا الانتهاكات الجسيمة لقوانين الحرب في سياق النزاع.

- هذا الاحتمال بعيد بالنسبة إلى إسرائيل؛ فلا تتسّر أن الولايات المتحدة، حليفها الأولى، تملك حق "الفيديو" (النقض) في ذلك المجلس.

- أعرف. وفي هذه الحالة نعود إلى مبدأ "الصلاحيات العالمية" الذي يسمح لمحاكم دولة ما بالنظر في قضايا جرائم حرب، ولو أنها لم تطل مصالح البلد الوطنية، كما حصل في إسبانيا مثلاً.

- وبأي شيء سيزعج هذا إسرائيل ما دامت تلك الدول لا تملك أي سلطة دولية للاعتقال؟

- كما قلت سابقاً؛ إخراجها وتقييد حركة مسؤوليها لكونهم مطلوبين في عدد من الدول المهمة. وهذا الخطر قد بدأ يقلق القيادات الإسرائيلية على ما يبدو؛ فقد بدأت مشاورات لتنظيم مساعدات قضائية لكل قائد إسرائيلي تقدم ضده لائحة اتهام، واستدعى الجيش رجال قانون لمرافقة كل فرقة في الجيش خلال العمليات الحربية. وفي هذا الإطار تم ابتداء فكرة الاتصال مع المواطنين الفلسطينيين هاتقياً ودعوتهم إلى إخلاء منازلهم قبل قصفها وتدميرها، لكي تبرئ القيادة العسكرية الإسرائيلية ذمتها من تهمة جرائم الحرب. وهي الخطوة التي جوبهت بالاستهتار من رجال القضاء الموضوعيين، إذ إن القوانين الدولية لا تجيز قصف المدنيين ولو تم تحذيرهم وتبئهم، ولو أتاحت لهم فرصة الهرب.

فقال أبراهام موافقاً:

- هذا إذا كان يوجد أصلاً مكان آمن يهربون إليه في غزة في أثناء العملية.

- تماماً. كما أقرت الحكومة الإسرائيلية خلال جلستها الأخيرة خطة لحماية مجرمي الحرب الذين أوغلوا في الدم الفلسطيني. فقال إيهود أولمرت^(١) أن إسرائيل

(١) رئيس الوزراء في الكيان آنذاك.

ستوفر الحماية الكاملة والدعم لقادة الجيش الإسرائيلي وجنوده الذين قاموا بالعملية العسكرية على قطاع غزة من أي محكمة، وعليهم أن يدركوا بأنهم في مأمن من أي محاكمة، وأنهم سيحصلون على الدعم الكامل. وقال إيهود باراك^(١) أن الحكومة ستحمي الجنود من أي اتهام خارجي أو داخلي، حسب تعبيره. وقد بدأ الجيش الإسرائيلي باتخاذ خطوات أولى من أجل حماية ضباط جيش الاحتلال الذين شاركوا في العدوان على قطاع غزة من الدعاوى القضائية التي قد ترفع ضدهم خارج إسرائيل.

- إذن فمن غير المرجح أن يفضي أي مسعى قضائي إلى ملاحظات فعلية.

- يجب ألا تئس من ذلك؛ فبعض المسؤولين الإسرائيليين أنفسهم ضجوا من تلك الجرائم، وآخرهم وزيرة التعليم الأسبق في الحكومة "شوليت ألوني"، التي أدلت بتصريحات اتهمت فيها الجيش بإعدام المدنيين الفلسطينيين بشكل متعمد. وقالت ألوني إن خطة الجيش الإسرائيلي وتنفيذها يدلان بوضوح على أنهم توقعوا أن تكون الإصابات مرتفعة في صفوف المدنيين، ولم يترددوا في مواصلة العمل بها حتى عندما زاد عدد الضحايا على التوقعات. لكن الأنكى من ذلك، حسب ألوني، هو أن الجيش قتل مدنيين فلسطينيين بشكل متعمد في عدة حالات. وقدمت مثلاً عن عائلة من شمال قطاع غزة^(٢)، تم حشر ٧٠ فرداً منها داخل بيت واحد لمدة يومين، وحين حاول اثنان من أفرادها الخروج لجلب طعام وماء أطلق الجنود عليهم الرصاص، مع أنهم يعرفون تماماً أنهم عزل من السلاح، ولا ينتمون إلى حركة حماس. ثم قامت طائرة من سلاح الجو الإسرائيلي بقصف المنزل، مما أدى إلى قتل ٢٣ شخصاً منهم وجرح

(١) وزير الحرب في الكيان آنذاك.

(٢) عائلة السموني. وقد رسم الجنود الصهيونية على جدران منزلهم قبراً كتبوا على شاهده: العرب ١٩٤٨ - ٢٠٠٩. كما كتبوا على الجدران عبارات أخرى مثل: "بإمكانكم أن تفروا لكن ليس بإمكانكم أن تختبئوا. يجب أن يموت العرب. نعم للحرب لا للسلام".

٢٧، وبعد ذلك اعتقلوا من تبقى منهم حياً من الذكور. كما وصف مقرر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في الأرض الفلسطينية المحتلة وأستاذ القانون الدولي في "جامعة برينستون" البروفيسور "ريتشارد فولك"^(١) أن العدوان هو "جريمة ضد الإنسانية". ولقد سبق للبروفيسور فولك، أن أدان العقوبات الجماعية التي أوقعتها إسرائيل على غزة من خلال الحصار وقال: إنها "خرق فاضح وجسيم للقانون الدولي الإنساني خلافاً للمادتين ٢٣ و ٥٥ من اتفاقية جنيف الرابعة". كما اعترف الجيش الإسرائيلي باستخدام قذائف فوسفورية في عدوانه على قطاع غزة، بعد احتجاجات وشكاوى عديدة فلسطينية ودولية منذ الأيام الأولى للعدوان، أوردت الصور والأدلة الحسية على ذلك.

هز أبراهام رأسه بأسى، وقال لأحمد محذراً من التعويل على كل ذلك:

- ولكن مع ذلك فلا يجب أن تتأمل كثيراً.

- لم لا وقد طالب عدد من النواب في البرلمان الأوروبي بتعليق اتفاقية الشراكة بين الاتحاد الأوروبي وإسرائيل بسبب الجرائم الوحشية التي ارتكبتها بحق المدنيين الفلسطينيين في قطاع غزة^(٢)؟ وفي هذا الإطار يسعى برلمانيون إندونيسيون إلى تجميد عضوية إسرائيل في الاتحاد البرلماني الدولي واتحاد البرلمانات الآسيوية،

(١) وهو يهودي . وعندما سافر إلى الكيان الصهيوني أوقفته سلطات الاحتلال في المطار ثم أعادته بطريقة مهينة مع أنه جاء بصفة رسمية كممثل للأمم المتحدة .

(٢) ذكرت قناة " الجزيرة " أن عدداً من النواب البريطانيين طالبوا خلال لقائهم مع رئيس البرلمان الأوروبي " هانز غيتر بوترينغ " باتخاذ عقوبات عملية تجاه دولة الكيان ، ورفع كامل للحصار الذي تفرضه على قطاع غزة ، وفتح جميع المعابر . كما دعا النواب الأوروبيون والفدرالية الدولية لحقوق الإنسان خلال جلسة استماع عقدها البرلمان الأوروبي حول الوضع الإنساني في غزة ، دعوا الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي إلى دعم إنشاء لجنة تحقيق مستقلة بشكل عاجل لتقصي حقائق المجازر التي ارتكبتها قوات الاحتلال الإسرائيلي في قطاع غزة . وقد تم بالفعل تشكيل لجنة برلمانية أوروبية مكونة من ٤١ نائباً من ١٥ دولة .

وأعلنوا أن لجنة إندونيسية فلسطينية ستعمل على محاصرة إسرائيل برلمانياً في عدة محافل وعلى كشف حقيقتها العنصرية الإجرامية. كما زار الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة "بان كي مون" قطاع غزة وعبر في مؤتمر صحفي بمقر الأمم المتحدة المحترق عن صدمته البالغة، مشيراً إلى أن إحساسه بالصدمة جاء بعد تفقده جزءاً بسيطاً من الدمار الذي حل بالقطاع. ووصف الوضع في القطاع بأنه يدمي القلوب، وشدد على أنه أستكر منذ بدء العدوان لجوء إسرائيل إلى الاستخدام المفرط للقوة^(١)، مشيراً إلى أن قوات الاحتلال قتلت الكثير من الفلسطينيين (معظمهم نساء وأطفال) في أثناء استهدافها العديد من المؤسسات التابعة للمنظمة الأممية^(٢)، من بينها أربع مدارس على الأقل تابعة للأونروا^(٣) كان قد لجأ إليها آلاف المواطنين بعدما دمر الجنود الغزاة منازلهم. كما لم يستثن جيش الاحتلال سيارات الإغاثة ونقل المعونات الأممية، بل إنه استهدف المخزن الخاص بالوكالة الدولية في أثناء زيارة بان كي مون للكيان^(٤).

- ولكن هل سيؤدي كل هذا إلى تحرك دولي فعلي ضد إسرائيل؟!

- كلي أمل في ذلك، ولا سيما أنه قد بدأت بعض البوادر المشجعة منذ الأيام الأولى للعدوان. فموقف الرئيس الفنزويلي "هوغو شافيز" كان قوياً عندما طرد

(١) كما أدان الصواريخ التي تطلقها فصائل المقاومة بالقطاع ضد أهداف إسرائيلية بعدما اشترط الكيان عليه بأن يتفقد بلدة سديروت أولاً قبل السماح له بدخول غزة!

(٢) طالب الأمين العام للأمم المتحدة الكيان الصهيوني بدفع تعويض مقداره ١١ مليون دولار للمنظمة الدولية بعد أن توصل تحقيق محدود قامت به المنظمة إلى أن الكيان استهدفت مقاراً لها كانت تؤوي مدنيين، وقدمت مبررات غير صحيحة.

(٣) وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين.

(٤) توصل التحقيق في لجنة هيئة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق في حرب غزة إلى أن الكيان مذنب في ست من الحالات التسع التي فحصها، والتي قتل وجرح فيها مدنيون يهتمون بمؤسسات للأمم المتحدة. ومع ذلك استبعد المحللون أن تؤدي تلك التحقيقات إلى أية محاكمة، خاصة بعد رفض الكيان التعاون معها.

السفير الإسرائيلي وأطلق تصريحات صريحة في وصف ما جرى في القطاع، ثم جاء الموقف البوليفي أيضاً على النسق نفسه^(١). أما الموقف الذي لا يقل أهمية، وأثار سخط الإسرائيليين على نحو استثنائي، فكان موقف رئيس الوزراء التركي "رجب طيب أردوغان" الذي تحدث بلهجة انتقادية لم يتحدث بها أي مسؤول تركي رفيع المستوى من قبل في سياق التعامل مع الإسرائيليين. هذا بالإضافة إلى موقفه الجريء في منتدى "دافوس" أمام الرئيس الإسرائيلي ومدير الحوار المتحيز، ثم انسحابه المشرف منه. وقد ذهب دبلوماسي نرويجي في حديث لقادة حماس إلى حد القول إنه لو علم الإسرائيليون بأن ما سيفعلونه سيفجر العالم على هذا النحو ويجدد التعاطف الاستثنائي مع الحركة لما شنوا عدوانهم على القطاع أصلاً. ولا تتس كذلك أن مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة قد شكل "اللجنة الأممية لتقصي الحقائق"^(٢) للتحقيق في وقوع "جرائم حرب" خلال العدوان الصهيوني على غزة.

-
- (١) للأسف لم يبدر أي موقف مشابه من أي من حكومات الدول العربية أو الإسلامية التي تقيم علاقات دبلوماسية مع الكيان الغاصب، رغم مطالبة شعوبها الملحة بذلك.
- (٢) وهي تضم خبراء قانونيين وعسكريين برئاسة القاضي "ريتشارد غولدستون" وهو قاضٍ من جنوب إفريقيا شارك في محاكمات لمتهمين من رواندا ويوغوسلافيا السابقة. وقد بدأت هذه اللجنة نشاطها رسمياً في مطلع حزيران/يونيو ٢٠٠٩ عن طريق جلسات استماع علنية للشهود من كلا الجانبين رغم مقاطعة الكيان لها. وكان من المتوقع أن ينشر التقرير في شهر أيلول/سبتمبر (٢٠٠٩) ولكن رُفِعَ التقرير تأخر مراراً، ثم تأجل تقديمه إلى مجلس حقوق الإنسان لمدة ٦ أشهر بطلب من رئاسة السلطة الفلسطينية التي خضعت للتهديد والابتزاز، مما أدى إلى عاصفة انتقادات شديدة للهيئة لمحمود عباس وزمرته واتهامهم بالتقصير (وبالحيانة) حتى من داخل السلطة نفسها. لكن نتيجة لمطالبة جهات عديدة (من بينها رئاسة السلطة نفسها بعد أن أحست بعظم ذنبها) تم عرضه للتصويت ثانية في مجلس حقوق الإنسان بعد أسبوعين، (يوم الخميس ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٩، وتواصلت يوم الجمعة) حيث أيدته ٢٥ دولة، وعارضته ست أخرى من بينها الولايات المتحدة، وامتنعت بقية الإحدى عشرة دولة الأعضاء في مجلس حقوق الإنسان عن التصويت. والتقرير يوصي بإحالة الموضوع إلى المحكمة الدولية إذا لم يتم كل من الكيان الصهيوني وحماس! بتحقيق بشأن جرائم الحرب ومعاقبة المتورطين بها.

- أعود وأكرر: لا تعول كثيراً على كل هذا^(١).

- لا داعي لكل هذا التشاؤم واليأس، فقد بدأت البشائر بالفعل، والتعاطف الشعبي العالمي يترجم حالياً إلى مظاهرات عارمة في أنحاء شتى من الكرة الأرضية^(٢)، وأدى

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن القاضي رئيس اللجنة الذي يفترض أن يكون محايداً تماماً وبعيداً عن أي طرف من أطراف النزاع، هو يهودي وعضو في الجامعة العبرية، وكان يقيم في مستوطنة، ويصف نفسه بأنه "صهوني" و"أنه يعمل من أجل إسرائيل طوال حياته"!!! وقد أقر غولدستون نفسه أنه شعر "بالصدمة" عند إعلان اختياره رئيساً للجنة التحقيق في غزة. وهو قد ساوى في تقريره بين الضحية والجلاد. فأمام جرائم الحرب الصهيونية التي اضطر إلى الاعتراف ببعضها (استخدام القوة بشكل غير متكافئ، إطلاق قذائف من الفوسفور الأبيض على منشآت لوكالة الأونروا، القصف المتعمد للمستشفيات بقذائف متفجرة وفوسفورية)، ادعى أن إطلاق صواريخ القسام على الكيان هو أيضاً "جرائم حرب ماثلة" وربما "جرائم ضد الإنسانية". ورغم اجتهاده في خدمة بني جلدته قدر استطاعته، إلا أن الكيان اعتبر ذلك غير كاف، وقابله بالتنديد والاستياء الشديد وتوعد قادته بإسقاط التقرير، وسعوا لتلقي التعهد تلو التعهد من دول الغرب بمنح إيصاله إلى المحكمة الجنائية الدولية التي قد تصدر مذكرات اعتقال دولية بحق مسؤولين صهاينة بارزين شاركوا في العدوان على غزة. يذكر أن المفكر السياسي اليهودي الأمريكي "نورمان فنكلشتين" صرح خلال لقاء صحافي مشحون بالتوتر في نيويورك في ٩/٤/٢٠١٠ بأن: "تقرير غولدستون كان متحفظاً ومتوازناً مقارنة بالتقارير الأخرى مثل تقرير المنظمة الدولية لحقوقية "هيومن رايتس ووتش" الذي أكد أن استعمال إسرائيل الفوسفور الأبيض كان جريمة حرب، في حين أن تقرير غولدستون أشار بحذر إلى أن إسرائيل ربما تكون قد ارتكبت جرائم ضد الإنسانية في غزة". وفي ذلك اللقاء سأله صحافي من "راديو إسرائيل" مستكراً: "أي الأعمال أكثر وحشية في رأيك، ما ارتكبه الألمان ضد اليهود خلال الحرب العالمية الثانية أم ما ارتكبه اليهود ضد العرب؟" فجاء رد فنكلشتين سريعاً قائلاً: "أنا لا أقارن لقاء فتاة عمرها ست سنوات في غرفة الغاز أو لقاء قتابل الفوسفور الأبيض عليها أيهما أسوأ... أعتقد أن المجانين والمختلين عقلياً وأدبياً فقط هم من يريدون الدخول في هذا النوع من المقارنات".

(٢) احتل عشرات النشطاء متجر "ويت روز" الشهير وسط برايتون جنوب لندن احتجاجاً على بيعه لمنتجات صهيونية، وارتدى النشطاء قمصاناً كتب عليها "الحرية لفلسطين"، و"لا تشتروا المنتجات الإسرائيلية"، ولم يغادر النشطاء المتجر إلا بعد مفاوضات مع إدارته التي أزالته جميع المنتجات الصهيونية من على الرفوف. وتشهد مدن بريطانية حملات متنامية بمشاركة مؤسسات أكاديمية وثقافية ورياضية وفنانين وكتاب تدعو إلى مقاطعة الكيان الصهيوني ومعاقبته. كما كشفت جمعية الأمن للجالية اليهودية أن الاعتداءات على اليهود في بريطانيا قد تضاغت في الأشهر الستة الأولى من هذا العام مقارنة بالفترة ذاتها من العام الماضي، إذ سجلت ٦٠٩ حوادث منفصلة هذا العام مقارنة بـ ٢٧٦ حادثاً في الفترة =

إلى توعمة مدن أوروبية كثيرة مع مدن فلسطينية، وإلى ثورة بعض طلاب الجامعات المتحمسين، الذين احتلوا ١٨ جامعة مطالبين بقطع العلاقات الأكاديمية مع إسرائيل، ونزع الدكتوراهات الفخرية من زعمائها الإرهائيين^(١). وأظهر استطلاع للرأي أجرته الكلية الأكاديمية في الجليل الغربي في مدينة عكا ونشرته صحيفة معاريف أن أغلبية الإسرائيليين يخفون هويتهم خلال رحلاتهم بالخارج من خلال عدم ارتداء ملابس عليها كتابة بالعبرية أو تقلد رموز يهودية مثل نجمة داوود، كما يمتنعون عن

=ذاتها من العام الماضي . وأشارت الجمعية إلى أن سبب زيادة مشاعر الغضب ضد اليهود هو الحرب التي خاضها الجيش الصهيوني على قطاع غزة . كما أعلنت " جمعية حماية الجالية اليهودية " بفرنسا أن الحرب على غزة زادت من " الأعمال العنيفة " ضد يهود فرنسا في النصف الأول من العام الحالي (٢٠٠٩) مقارنة بعام ٢٠٠٨ ، وقالت الجمعية أن هناك ٦٣١ حادثاً " معادياً للسامية " تم تسجيلها في الفترة من كانون الثاني/يناير إلى حزيران/يونيو الماضيين . وأظهرت نتائج استطلاع للرأي بألمانيا أن أكثر من نصف الألمان يعتبرون الكيان الصهيوني تهديداً خطيراً للأمن في العالم، مما أثار قلق اللوبي الصهيوني بألمانيا . وذكرت صحيفة " لو باريزيان " تحت عنوان (لظمة إلى البضائع الإسرائيلية) بأن سكان منطقة " فال دواز " الفرنسية وعدد من البرلمانيين المنتخبين قرروا مقاطعة منتجات الكيان تضامناً مع الفلسطينيين وإدانة للمجازر التي ترتكب بحقهم .

(١) تعرّض رئيس حكومة العدو السابق إيهود أولمرت إلى هجوم عنيف خلال إلقائه لمحاضرة بجامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الخميس ١٥/١٠/٢٠٠٩ ، وبحسب صحيفة يديعوت فإن الطلاب وصفوه بالمجرم والفاشي والقاتل ، كما هاجموا إدارة الجامعة قائلين : " الحزبي والعار للجامعة التي دعت هذا القاتل " . ورفعوا أسماء شهداء غزة ، وتمكن الطلاب من تصوير الحادثة ونشرها بالرغم من منع إدارة الجامعة للتصوير .

www.ynet.co.il/articles/0.7340.L-3791228.00.html.

وقام طلاب جامعة البحر الأسود التركية الأربعة برشق السفير الصهيوني بتركيا " غابي ليفي " بالببيض الفاسد في أثناء زيارته للجامعة ؛ احتجاجاً على العدوان الذي يمارسه الكيان الصهيوني ضد الفلسطينيين، وهتف الطلاب: " لا نريد قتلة الأطفال في جامعتنا "، ما أجبر السفير على إلغاء زيارته والمغادرة . وكشفت مصادر بجامعة " ساسيكس " البريطانية أن اتحاد طلاب الجامعة قرر مقاطعة المنتجات الصهيونية داخل مرافق الجامعة، وبلغت نسبة التصويت للقرار ٦٥ ٪، وذلك ضمن حملة التضامن مع الفلسطينيين والتنديد بالحرب الصهيونية الأخيرة على غزة واستمرار الحصار عليها .

التحدث بالعبرية بصوت مرتفع^(١)، ووصل الأمر إلى شن حرب إلكترونية على كل المواقع الإسرائيلية من قبل الكثير من الـ"الهكرز" (قراصنة الإنترنت) الأوربيين^(٢) وبالذات الحكومية والعسكرية.

- الهكرز؟؟؟

- أجل، فقد هاجم القراصنة المؤيدون للفلسطينيين عدة مواقع إسرائيلية حكومية وعسكرية وإخبارية بل حتى موقع مصرف "ديسكاونت"؛ محولين القراء إلى صفحة مكتوب عليها رسائل مناهضة لإسرائيل. كما قاموا بمحو المواقع، وإغلاق مجموعات في موقع الـ"فيس بوك" للتعارف واستبدالها بصفحات تحتوي على بيانات مؤيدة للجانب المناصرين له، أو تتأهض الجانب الآخر أو كليهما معاً. وفي إطار هذه الحملة استهدفت مواقع تابعة للجمعية البرلمانية لحلف "الناطو" (حلف شمال الأطلسي) وموقع تابع للجيش الأمريكي. وقد تمكن النشطاء المؤيدون للفلسطينيين من محو صفحات هذين الموقعين وتركوها بيضاء فارغة باستثناء صورة شهيرة لصبي يقذف دبابة إسرائيلية بالحجارة في غزة.

- وكيف رد الإسرائيليون وحلفاؤهم؟

- لقد أوعزوا إلى قراصنتهم بمهاجمة المواقع المؤيدة للفلسطينيين، ومواقع عرب إسرائيل، حيث تمكن القراصنة من محو ثلاثة مواقع، واستبدلوا بها صفحات عليها العلم الإسرائيلي ورمز المجموعة الإسرائيلية اليمينية المحظورة "كاش". وكان "اندرو سيلفيرا"، الذي يعتبر أحد النشطاء في العديد من المواقع المناصرة للفلسطينيين على

(١) يرى البعض أن اضطراب يهود الولايات المتحدة إلى إنشاء لوبي يهودي "معتدل" (جي ستريت)، إنما هو محاولة للتأقلم مع انخفاض التأييد للكيان في الغرب بعد حصاره ثم عدوانه على غزة.

(٢) ذكرت الجزيرة نت أن تقريراً صهيونياً توصل إلى أن معظم الهجوم على الكيان الصهيوني بعد الحرب على غزة لم يكن عربياً إسلامياً، وإنما أوربياً يسارياً. وأوصى التقرير بعدم محاربة ذلك الاتجاه، بل الدخول فيه واحتواؤه، ومن ثم تغيير اتجاهه. ويبدو أنهم قد لاقوا الكثير من النجاح في مسعاهم ذلك.

الفييس بوك، أحد ضحايا أعمال القرصنة^(١).

- يبدو أن التعاطف الشعبي العالمي وصل إلى شرائح لم تكن تهتم بالسياسة سابقاً.

- هذا صحيح. هل تعلم أن حرب غزة ضاعفت مشاهدي الجزيرة الإنجليزية ست مرات خلال العدوان على غزة؟

- ولكن شركات الكابل الكبرى قد أحجمت عن إضافة الجزيرة الإنجليزية إلى باقتها، منذ انطلاقتها قبل أكثر من عامين، بذريعة عدم اهتمام المشاهدين، ولذلك فإن انتشارها ليس واسعاً!

- لقد تابعوا القناة عبر الشبكة العنكبوتية^(٢) إبان العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، وكان ٦٠ ٪ من حجم الزيادة بالولايات المتحدة نفسها. وحسب شركة "أليكسا"، زاد أيضاً عدد متصفح الموقعين العربي والإنجليزي للجزيرة بنحو ٢٢ ٪ خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، وكانت أكبر زيادة خلال الحرب.

- كيف تفسر ذلك؟

- الإعلام الغربي بشكل عام منحاز بالكامل إلى إسرائيل كأنهم متحدثون باسمها بترتيب أولوياتها نفسه. وبعد حرب غزة ظل الموضوع على حاله، ولكن كان هناك بدائل أخرى وصلت إلى الجمهور الغربي هذه المرة، فظهر عليه بعض الاستياء بعدما اكتشف للمرة الأولى عدم تمتع إعلامه بالحياد، لدرجة امتناعه حتى عن إظهار الحد

(١) يقول اندرو أن حسابه على الإنترنت قد هوجم بعد أن استجاب لطلب على الفييس بوك من مستخدم آخر يدعوه ليكون مسؤولاً عن جماعة مشابهة. ويضيف أنه بمجرد ما ضغط على الرابط أدرك أن هناك شيئاً خطأ. فلم يكن الرابط يؤدي إلى مجموعة عادية من مجموعات الفييس بوك! وبضغطته تلك تبخر حسابه على الإنترنت. وقد حاول الاتصال بموقع فييس بوك للاستفسار عن الأمر لكنه لم يتلق إجابة إلى الآن.

(٢) تقدم الجزيرة هذه الخدمة مجاناً.

الأدنى من صور استهداف المدنيين الفلسطينيين بذريعة الحرص على مشاعر الناس (أو مشاعر الصهاينة بتعبير أدق). كما صُدم ذلك الجمهور برفض بعض مؤسساته الإعلامية العريقة بث طلب استغاثة وجمع تبرعات لضحايا غزة، مثل الـ بي بي سي التي تشاورت في ذلك مع مجلس الكنس اليهودي، فلم يأذن لها! وقد رد بعضهم على ذلك الانحياز السافر وغير الموضوعي، باعتصام حول مبنى المحطة، رافعين شعارات كتب عليها "لا للبي بي سي، نعم للجزيرة". وتلك المؤسسة العريقة تعرض حالياً برنامجاً موجهاً للمشاهدين العرب عن حرب غزة، ظاهره التعاطف مع الأطفال والمدنيين، ولكنهم يصرحون بأكثر من لقطة فيه أن تلك الحرب على كل مآسيها وتجاوزاتها كانت حرباً "عادلة" وضرورية لحماية المستوطنين من الصواريخ، ومنع تهريب الأسلحة! وأن حماس تتخذ من المدنيين درعاً بشرياً!! وأنه لا مجال للسلام الشامل مع الفلسطينيين لأن إيديولوجيتهم تركز على إبادة إسرائيل!!! وحتى لو أعطوهم حقوقهم فلن يكفوا عن حربها ومحاولة إنهاء وجودها، لأنهم لا يعتبرون أن فلسطين هي غزة والضفة فقط، ولا القدس الشرقية كذلك، ولكن كل إسرائيل.

- أليست البي بي سي محقة في ذلك؟

هزيمة أم نصر؟

لم يفهم أحمد سؤال أبراهام عن احتمال أن تكون بي بي سي محقة في برنامجها المشبوه، فسأله مستكراً:

- محقة في عدالة الحرب على غزة؟!!!

- كلا، بل في استخدام حماس للمدنيين؛ فقد أشارت المتحدثة باسم الجيش "أفيتال لبوفيتش" لوكالة فرانس برس عن ذلك موضحة: "لماذا قُتل مدنيون؟ لأن معسكرات التدريب وكل منشآت حماس أقيمت قرب مدارس أو مساجد أو منازل..."، إن حماس ترتكب جرائم حرب بوضعها مدنيين في الخطوط الأمامية، متعمدة بأن إسرائيل "سترد" على كل الاتهامات.

- لا تصدقها. فقصف المدارس طبيعة متأصلة لدى الجيش الإسرائيلي، يهدف منها إلى ملء قلوب أعدائه بالخوف وإفهامهم أنه خصم مجنون لا يعرف الرحمة ولا يتورع عن أي شيء إذا ما تعرض لأي نوع من التهديد. ولا أظنك تنسى قصف مدرسة "بحر البقر" في مصر. فكلهم كانوا تلاميذ ومدرسين، ولم يحتجّ الجيش الإسرائيلي وقتها بصواريخ المقاومة، ولم تكن هناك مقاومة أصلاً، ومع ذلك ضربت بحر البقر، وقتل الأطفال المصريون وهم في فصولهم الدراسية. ولذلك فإن الاحتجاج بأن قصف المدارس كان رداً على صواريخ المقاومة هو ادعاء عار من الصحة تماماً، فالعنف في إسرائيل أمر مستفحل في صلب أساسات المجتمع وجذوره، بل في كل ألياته ومحركاته، على الرغم من كل محاولات الإنكار والتبرير، وعلى الرغم من حرف الأنظار عنه والتركيز على الإشارة إلى العنف في المجتمع الفلسطيني. كما أن موظفي

الأونروا والأطباء الأجانب بغزة أثبتوا بأكثر من مناسبة أن مدارسهم ومستشفياتهم لا تحوي أي عناصر مسلحة، وأن أغلب من فيها هم من الأطفال والنساء، ومع ذلك قصفت مراراً وتكراراً بالحنة نفسها. وإذا كان هناك من يتخذ من المدنيين دروعاً بشرية فهم أعداء هؤلاء المدنيين وليست المقاومة التي رغم كل شيء إلا أنها من أبنائهم. وقد كُثِفَ مؤخراً أن الجنود الإسرائيليين كانوا يجمعون ما يقدرون عليه من المواطنين الفلسطينيين العزل في البيوت التي يتحصنون فيها، مستخدمينهم دروعاً بشرية، وفي بعض الحالات كانوا يقصفون تلك البيوت بمن فيها بعد انسحابهم، وقد وجد في أحدها أطفال فوق جثث أمهاتهم، ظلوا على ذلك الحال أياماً عدة قبل أن يستطيع المسعفون الوصول إليهم^(١).

- ما حجم الخسائر في تلك الحرب؟

- لم تكن حرباً متكافئة بل عدواناً جائراً. وقد كانت حصيلة ذلك العدوان الظالم

استشهاد أكثر من ١٣٣٥ شهيداً منهم: ٤٢٠ من الأطفال، و١٠٥ من النساء، و١١٠

(١) نشرت صحيفة "الإندبندنت" البريطانية، الأربعاء ١٥/٧/٢٠٠٩، تقريراً يتضمّن شهادات قدمها جنود صهيانية شاركوا في العمليات العسكرية التي شنها الكيان خلال العدوان الأخير على قطاع غزة. ونقلت الصحيفة عن وثيقة تضمّنت شهادات جنود ومجندين خدموا بصفوف قوات الاحتياط (شهود عيان على الوقائع) حول كيفية استخدام الجيش الصهيوني للمدنيين الفلسطينيين دروعاً بشرية، وقدموا وصفاً لمقتل مدنيين فلسطينيين على الأقل، كما وصفوا التدمير الجماعي لمنازل الفلسطينيين، وقدموا أيضاً وصفاً للاستخدام القاتل للفوسفور الأبيض. كما أثبتوا حصول الجنود على نصائح تحريضية دينية من حاخامات في الجيش، وتشمل الشهادات أقوالاً منسوبة إلى ٣٠ جندياً، وهي شهادات جمعتها منظمة من الكيان تحمل اسم "تخطيط الصمت"، وهي منظمة شكّلها جنود سابقون تهدف إلى إعطاء مواطني الكيان الصهيوني صورة عن مجريات الحياة اليومية في الأراضي المحتلة. وعلى الرغم من قيام المنظمة في مرات سابقة بتجميع شهادات جنود متقاعدین، إلا أنها المرة الأولى التي تقوم فيها بتوثيق شهادات جنود تحت الخدمة. وتعد هذه الشهادات، حسب صحيفة الإندبندنت، التحدي الأكبر لما يرذده الجيش الصهيوني بأن عملياته التزمّت بأحكام القانون الدولي، وأنها بذلت جهداً لتركيز عملياتها على الإرهابيين، حسب وصفه، وتجنب وقوع الضرر على المدنيين.

من الشيوخ، و١٦٨ من المجاهدين، و٢٣٢ من قوات الأمن، و١٤ من الأطباء والمسعفين، و٤ من الصحفيين، بالإضافة إلى ٥ ضحايا من الأجانب الموجودين في غزة. ومجمل عدد المصابين كان ٥٥٠٠ جريح؛ منهم ١٦٠٠ طفل أغلبهم مصابون بحروق وبترا للأطراف بسبب القنابل الفوسفورية المحرمة دولياً والتي استخدمت لأول مرة^(١). أما عن الأضرار المادية: فقد تم تدمير ٢٠ ألف منزل، منها ٤٠٠٠ منزل سُوي بالأرض تماماً، وتم التركيز على تدمير محولات الكهرباء وشبكات المياه والصرف الصحي، كما تم استهداف وتدمير أكثر من ٢٠ مسجداً وأكثر من ١٨ مدرسة، وإصابة البعض الآخر بأضرار جسيمة، وكذلك تم استهداف العديد من الجامعات ومراكز التعليم الأخرى، وتم استهداف مستشفيات كثيرة وقصفها، منها مستشفى الدرة للأطفال ومستشفى غزة الأوروبي، ومستشفى بيت حانون، ومستشفى الوفاء التي تخدم العجزة والمرضى المعاقين، وحرق جانب من مستشفى القدس التابع لجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، وأكثر من ٩ مراكز رعاية صحية أولية، ومخزن للأدوية، إضافة إلى الضرر البالغ الذي أصاب المستشفيات والمراكز الصحية قرب أماكن الاعتداء؛ كمستشفى النصر للأطفال، ومجمع الشفاء الطبي، ومستشفى العيون، ومستشفى الأمراض النفسية، وقطع الاتصالات بالكامل عن مستشفى الدرة وبيت حانون. وقصفت ١١ سيارة إسعاف، مما أعاق وصول الطواقم الطبية إلى أماكن عملها، ولا سيما أنه قد قام جيش الاحتلال بفصل أجزاء مختلفة من القطاع ومدينة غزة والشمال وتهديد حياتهم في أثناء التنقل، وهو ما أثر على أداء الخدمات الصحية، إضافة إلى تعمد تأخير

(١) أفادت معطيات صادرة عن دائرة الأحوال المدنية بمحافظة خان يونس - جنوب قطاع غزة - بأن عدد المواليد خلال الأشهر الستة التي أعقبت الحرب الصهيونية على غزة، تضاعف لأكثر من ٢٦ مرة عن عدد الشهداء في المحافظة خلال فترة الحرب، ويولد في محافظة خان يونس ما بين ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ مولود شهرياً، ٦٠٪ منهم ذكور.

طواقم الإسعاف ومنعهم من انتشارال الشهداء وإنقاذ الجرحى لساعات طويلة، ومنهم من بقي تحت الأنقاض لعدة أيام.

- وعلى الجانب الإسرائيلي؟

- قتل ١٣ إسرائيلياً فقط، عشرة جنود، منهم ٥ بنيران صديقة، وثلاثة مدنيين.

- هل هذه فقط هي حصيلة خسائر الجيش الإسرائيلي؟!!!

- هذا ما أعلنته إسرائيل. أما المجاهدون فقد أعلنوا أنهم قد كبدوا العدو

نحو ٩٠ قتيلاً من الجنود من بينهم العديد من الضباط ورؤساء مجموعات، و٤٢٠

جريحاً منهم نحو ١٥٠ جندياً بإعاقات دائمة وبتر للأطراف نتيجة العبوات الناسفة

والقنص. هذا غير قتل ٧ صهانية على الأقل وإصابة ١٢٠٠ آخرين من جراء قصفهم

للمناطق الجنوبية^(١)، بالإضافة إلى مقتل رئيس بلدية سديروت وناحل عوز، ومقتل

شقيقة وزير الداخلية الصهيوني. أما الخسائر المادية فقد قدرت في أول الحرب بـ

٢,٦ مليار دولار، ولا ريب أن هذه الخسائر قد ارتفعت بشكل ملحوظ في أواخر أيام

الحرب؛ فقد تم إصابة عشرات المنازل والمصانع والمنشآت العسكرية في المستوطنات

الصهيونية، كما تم إصابة العديد من القواعد الجوية العسكرية مثل "قاعدة تسيلم"،

وإصابة العديد من المواقع العسكرية مثل كرم أبو سالم، وتم إدخال أكثر من مليون

صهيوني في دائرة الاستهداف من قبل صواريخ المجاهدين واختبأهم بالملاجئ، كما تم

إدخال مدن جديدة في دائرة الاستهداف خلال هذه الحرب أهمها أسدود وبئر السبع.

(١) أعلن مستشفى سوروكا في مدينة بئر السبع المحتلة أنه قام في أثناء الحرب على غزة بمعالجة ٥٨٢ إصابة من بينها أكثر من ٢٠٠ جندي صهيوني، كما تم إجراء أكثر من ٥٠ عملية جراحية للمصابين بالحرب، وكان الجيش الصهيوني قد اعترف بمقتل ١٠ من جنوده فقط، وإصابة العشرات. كما فرضت الرقابة العسكرية تكتيماً إعلامياً على ما يتعلق بأخبار الحرب، في حين لم تعلن بقية المستشفيات التي عاجلت العديد من جرحى الجيش عما لديها من معلومات.

ووصلت الصواريخ الفلسطينية إلى أبعد من ٤٥ كم عن قطاع غزة، وتم إطلاق أكثر من ١٥٠٠ صاروخ، منها غراد وقسام وقدس وقذائف الهاون، فدمرت العشرات من الآليات بالإضافة إلى تدمير أكثر من دبابة خلال الاجتياح البري للقطاع، وإسقاط مروحية استطلاع، وإصابة أربع طائرات أخرى من الدفاعات الأرضية للمقاومة. بالإضافة إلى وقوع عمليتي أسر لجنود صهاينة، انتهتا بمقتل الجنود على أيدي طائرات الـ ١٦ اف الصهيونية. ولأول مرة في تاريخ الصهاينة تم استهلاك نصف سلاح الجو الصهيوني في الحرب على هذه البقعة الصغيرة من الأرض.

- إذا كان كل هذا صحيحاً فقد تكبدت إسرائيل خسائر جمة فعلاً.

- حتى وإن كان كل ذلك صحيحاً فعلاً، فإنه لا يقارن بما فعلته إسرائيل في غزة، نظراً لتفاوت الإمكانيات، وامتلاكها لتكنولوجيا متطورة وأسطول جوي من أحدث الطائرات الحربية في العالم. فحتى مدير عمليات "الأونروا" في غزة "جون غينغ" طالب -في اتصال هاتفي من غزة مع الصحافة في جنيف- بتحديد المسؤوليات حول الأسباب التي دفعت الجيش الإسرائيلي إلى التركيز على ضرب البنى التحتية للدولة الفلسطينية والنسيج الصناعي في قطاع غزة أكثر من البنى التحتية العسكرية لحماس وللمنازل!!!

- لماذا فعلوا ذلك؟

- لا أدرك مصلحتهم في هذا تماماً، لذا فلن أنجرف إلى تأويلات قد يكون ضررها أكبر من نفعها.

- هل تلمح إلى كونهم قد فعلوا الشيء ذاته في حرب تموز، عندما استهدفوا البنى التحتية للبنان أكثر بكثير مما استهدفوا البنى العسكرية لحزب الله نفسه!؟

- أجل، ولكنني لا أريد الخوض في مثل هذه المواضيع. هل تعلم أن الأطنان من القنابل التي ألقيت على المدنيين في غزة في ٢٢ يوماً كانت أكثر مما ألقى على لندن خلال سنوات الحرب العالمية الثانية كلها؟! وهل تعلم أنه كان بينها ٧٥ طناً من اليورانيوم المنضب؟! لم هذا الإفراط باستخدام القوة؟ لم هذا الحقد المبالغ فيه وغير المبرر من قبل الجنود الإسرائيليين الذين كانوا كالمعتوهين يتعمدون إحداث أكبر عدد من الخسائر بين المدنيين؟ هل تعلم أن محطات التلفزة قد صورت بعضهم وهم يرتدون "تي شيرتات" رسم عليها الفلسطينيون بطرائق مقززة، مع كتابات تدعو إلى قتلهم وإبادتهم نهائياً؟

- لا تتس أن الفلسطينيين والمسلمين بشكل عام يشعرون بالشيء ذاته تجاه اليهود، وأنهم يقتلون الأطفال أيضاً.

- على فرض صحة ذلك، فهناك فرق كبير بين أن يكون الحاقدون الموتورون وقتلة الأطفال أفراداً يفعلون ذلك نتيجة للإحباط ورد فعل على الظلم والقهر الذي يشعرون به، إذ ليس هناك شيء آخر بأيديهم للرد، وربما تم تشريدهم وقتل أطفالهم بوحشية؛ وبين أن يكون ذلك الحقد وقتل المدنيين والأطفال سياسة رسمية تنتهجها حكومة دولة بمؤسستها العسكرية المتطورة بأحدث أسلحة الفتك العالمية، وتحظى بدعم الجهات الرسمية والدينية فيها.

- إن المسلمين الآن ضعفاء وإسرائيل قوية، ولو انعكس الأمر فلربما فعل المسلمون باليهود أكثر مما يفعل اليهود حالياً.

- هذا ليس صحيحاً، فقبل ستين عاماً كان الأمر معكوساً فعلاً، وكذلك لمدة أربعة عشر قرناً قبل ذلك، ولم يقم المسلمون خلال كل ذلك الزمن، على قوتهم، بأعمال إجرامية ضد اليهود أو غيرهم.

- ربما كنت محقاً، ولكن بعد هذه السنوات الستين من الكراهية والظلم الذي يشعر به المسلمون، فأنا واثق من أنهم سيفعلون أكثر من اليهود فيما لو أصبحوا أقوىاء ثانية.

- أنت نفسك استشهدت بيوري أفنيري عندما تحدث عن الصليبيين في القدس، وقتلهم للمسلمين في مذبحه يندى لها جبين البشرية، وبأكثر مما فعل اليهود أنفسهم في هذا العصر. وأكثفي هنا بنقل ما ذكره المؤرخ "جيبون" عن هذه الحادثة: "إن الصليبيين خدام الرب يوم استولوا على بيت المقدس في ١٥/٧/١٠٩٩م أرادوا أن يكرموا الرب بذبح سبعين ألف مسلم، ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء... حطموا رؤوس الصبيان على الجدران، وألقوا بالأطفال الرضع من سطوح المنازل، وشووا الرجال والنساء بالنار". وكانت فظاعة المجازر الصليبية تتناسب طردياً مع قدسية المكان المحتل، فمجزرة القدس فاقت بقية المذابح التي ارتكبتها الصليبيون في الأرض المقدسة، نظراً لتفوق هذه المدينة بقدسيته لديهم. وقد تبارى الشعراء والمؤرخون في تخليد تلك المجزرة، وتباهوا بالمبالغة في وصفها^(١)، ولكن عندما حرر

(١) وصف أحد شهود العيان من الصليبيين فرسان الصليب وهم يخوضون في دم ضحاياهم الذي بلغ أنة الخيول في المسجد الأقصى!!! ولم ينبج من غضبهم المقدس حتى الخيول العربية الجميلة التي تناثرت جثتها في أزقة القدس، ولا حتى جرار الزيت وأكياس الحبوب التي كسرت ومزقت، كما بقرت بطون أصحابها. ووصف شاهد عيان أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام المبتورة على أنها "منظر رائع" يستحق المشاهدة. كما أرسل أحد القادة الصليبيين هدية إلى الإمبراطور البيزنطي، وهي عبارة عن شحنة كاملة من الأنوف والأصابع المقطوعة. هذه الحروب والمجازر اتسمت عندهم بصفتها التطهيرية؛ إذ إنها طهرت مقاتليها من ذنوبهم وكانت بمنزلة تعميم ثان، حتى صار الاشتراك بالحروب الصليبية على مدى قرون عديدة أهم وسيلة لغفران الذنوب والتقرب من الله. فبارتكاب الآثام نفسها التي سببت ذنوبهم (كالقتل والنهب والاعتصاب، ولكن هذه المرة بحق المسلمين) كان الصليبيون واثقين من الخلاص. ف"وليم الصوري" (أشهر مؤرخ في عصر الحروب الصليبية، ولد وترعرع في صور) يقول بأنه كان على المسلمين سفح دماثهم لتطهير الأماكن المقدسة التي دنسوها هم وآباؤهم. وحسب ما جاء في خطبة البابا "أوربان الثاني"، فإنه منح المشاركين في الحملة صكاً يغفران خطاياهم جميعها!!! وفي إحدى خطبه الدعائية للحملة الصليبية الثانية، يشرح القديس "برنارد" للمؤمنين الفوائد القريبة والبعيدة لهذه الحرب: "أليس ذلك مناسبة رائعة للخلاص؟ المجرمون، رجال العصابات، الزناة، وأصحاب الأيمان الكاذبة، كل من له صلة بالجريمة وكل الأقوياء يسرهم أن يلبوا دعوة الله. ما أسعد هذا الجيل الذي صادف هذا الوقت من الرحمة والغفران الإلهي".

المسلمون القدس بعد سبعة وتسعين عاماً، لم تعم تلك المذبحة بصيرتهم، بل تصرفوا وفق دينهم الحنيف وسمحوا للصليبيين بالمغادرة بسلام، بل وافقوا على بقاء من رضي منهم بالعيش تحت ظل الحكومة الإسلامية.

- لندع التاريخ جانبا؛ فالمسلمون اليوم غير ذلك تماماً، وأنا شاهدت في التلفزيون برامج عديدة أجريت فيها مقابلات مع مسلمين عبروا عن حقدهم على اليهود، ومنهم أطفال قالوا أنهم يكرهون اليهود لأنهم كلاب وأبناء قردة وخنازير كما علموهم في المدارس وفي البيت. ولو سنحت الفرصة لأي من هؤلاء بقتل طفل يهودي لما تردد لحظة.

- تريد الحكم عليهم فيما "لو سنحت لهم فرصة لقتل طفل"، بينما تسنح الفرص المتعددة للإسرائيليين لذلك ويستخدمونها دائماً دون أن يحاكموا على جرائمهم!!! دعني أروي لك طرفة: لقد تقابل مرة طفلان أحدهما فلسطيني والآخر إسرائيلي، فقال الطفل الإسرائيلي: لقد أخبرني والدي أن أباك وبقية العرب إرهابيون وأنجاس وأفاع وملعونون وكاذبون وكسالى وقذرون وو... فرد الطفل الفلسطيني: أما أبي فلم يتمكن من أن يقول لي أي شيء، لأن أباك كان قد قتله قبل أن أكبر.

- ولكن العرب أيضاً يقتلون الأبرياء، ويفجرون الباصات والمطاعم.

- قلة قليلة منهم، وهم يفعلون ذلك بأساليب بدائية ومحدودة الأثر، ثم يُطارَدون على إثر ذلك ويعذبون ويعدمون، ويضيق على أسرهم ويقضى على كل بادرة لتكرار أعمالهم، وإن كانت تغييراً لمناهج دراسية أو إغلاقاً لمدارس ومعاهد معينة، ويقومون بحرب دعائية شاملة لتشويه صورتهم. أما قتلة الأبرياء من الإسرائيليين فيكرمون بالنياشين ويُستقبلون استقبال الأبطال ويحتفى بهم عالمياً، لماذا!!! لأنهم يقومون بجرائمهم وهم يرتدون بزات عسكرية رسمية أنيقة! لأنهم يقودون طائرات أمريكية فاخرة! ويرمون منها آخر ما توصلت إليه مصانع الأسلحة العالمية! العرب الآن ليس

بيدهم أكثر من حزام ناسف أو سيارة ملغومة، ومع أن الأغلبية العظمى منهم تأنف من استخدام تلك الوسائل في الدفاع عن حقهم المشروع، إلا أنهم يعاقبون جماعياً بسبب تلك القلة منهم التي رفضت الخنوع واستخدمت الوسائل البدائية المتاحة لها كي لا تجعل الإسرائيليين يهنؤون بما سرقوه منهم^(١)، في حين يستغل معظم الإسرائيليين الوسائل المتطورة والفتاكة التي في أيديهم لسرقة المزيد تحت سمع العالم وبصره.

- هل تعلم أنني مندهش تماماً لصمود الفلسطينيين ومقاومتهم التي لم تنقطع مع كل المصاعب والخيانة والظروف السيئة التي أحاطت بهم؟ فعند الانتداب البريطاني و ظهور الأطماع الصهيونية لم يسلموا بل قاموا بثورة عام ١٩٢٠، ثم عام ٢١ ثم عام ٢٩ ثم الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦. وبعد قرار التقسيم الجائر جاهدوا ببسالة في حرب ٤٨ رغم تخاذل حلفائهم من قادة الجيوش العربية الذين كان أحدهم إنجليزياً^(٢)، والذين صادروا أسلحتهم بدعوى أنه لم تعد هناك حاجة إلى حرب عصابات تشوش على سبعة جيوش عربية نظامية! وبعد الاندحار المخجل لتلك الجيوش النظامية، استمر الفلسطينيون في جهادهم، ثم انتصروا بمعركة الكرامة وقاموا بعمليات نوعية في أنحاء شتى من الأرض، ذكرت بقضيتهم التي تأمر الجميع على نسيانها. ثم قاموا بانتفاضتين، والآن يصمدون صموداً أسطورياً رغم حصار مليون وسبع مئة ألف منهم في سجن مفتوح لا تتجاوز مساحته الـ ٣٦٠ كم، ويعتبر أكثر المناطق اكتظاظاً بالسكان في العالم، ولمدة امتدت إلى ١٩ شهراً قبل العدوان، منع فيها بشكل شبه تام انتقال البشر والبضائع إلى داخل قطاع غزة. والأنكى من ذلك أن أطرافاً مختلفة قد نجحت في شق وحدة صفهم في صراع تافه على الكراسي، وأتت بحكومة انقلابية مشبوهة

(١) في غضون عام ٢٠٠٨ سقط سبعة قتلى فقط من المدنيين الصهاينة نتيجة إطلاق هذه الصواريخ دون تمييز، وهي في معظمها صواريخ تصنع في المنازل، وكذلك في الهجمات الأخرى التي شنّها فلسطينيون من غزة. كما قتل ثلاثة مدنيين صهاينة فقط خلال رد المجاهدين في أثناء العدوان.

(٢) يقصد "غلوب باشا" قائد القوات الأردنية.

التوجهات والتمويل، أعطت مبرراً لتخلي أغلب الحكومات العربية عن مسؤولياتها تجاه غزة، وَحَدَّتْ من دعم الشعوب العربية نفسها؛ فاقتصر الدعم العربي على التصريحات الجوفاء، وبعض المعونات التي تحافظ على بقاء أهل غزة على قيد الحياة، دون أن تقوم أية خطوات فعالة لمساعدتهم عسكرياً أو حتى فتح المعابر على أقل تقدير، بل تجد بعض تلك الدول الشقيقة تتكالب على التواصل مع أعداء إخوانهم المستضعفين، وعلى التمسك بالاتفاقيات المبرمة معهم، في حين لا يحتقر هؤلاء الأعداء تلك الاتفاقيات فقط، بل وساطتهم وكرامة زعمائهم أيضاً، ويخترقون حدودهم ويقتلون حرسها "عن طريق الخطأ" كما حصل على الحدود المصرية في أثناء العدوان على غزة، وينتهكون أجواءهم، كما يحصل في الأجواء اللبنانية دائماً، وأحياناً في الأجواء السورية وغيرها من دول الطوق. وفي حين تمرر الحكومات العربية انتهاكات أعدائها الإسرائيليين، نجدهم لا يتساهلون بتاتاً مع أي انتهاك من قبل إخوانهم الفلسطينيين، ويهددون بـ"كسر أرجلهم" إن فكروا بالخروج من سجن غزة للحصول على بعض مقومات الحياة من غذاء ووقود. وحتى بعد تدمير البنى التحتية لأرضهم، لم يهرب أهل غزة ولم يشتكوا ولم يساوموا، بل عادوا إلى الخيام للسكن وأقاموا بها مدارس مؤقتة، وتابعوا حياتهم بأبسط الوسائل دون أن يركعوا أو يسلموا، مع أنهم يعلمون أنهم يقفون بوجه أكثر قوى الأرض وحشية وإجراماً، وأن قرار زعمائهم ليس بأيديهم.

- الحمد لله الذي ينصر من يشاء من عباده ولو كره الكارهون.
- فلنكن واقعيين، فأهل غزة لم ينتصروا، ومع إكباري لصمودهم الأسطوري وعدم استسلامهم على الرغم من كل الظروف السيئة المحيطة بهم، إلا أن هذا لا يعني أنهم قد هزموا الجيش الإسرائيلي.

- تفضل إذن، واقرأ بصوت مرتفع.

- ما هذه؟



- صحيفة روسية تصدر بأمريكا، وهي معروفة بتشددها للصهيونية العالمية وسيطرة اللوبي الصهيوني عليها. أي: شهد شاهدٌ من أهلها.
- أين تريدني أن أقرأ؟
- الصفحة السابعة بعنوان "هل هذا نصر؟"
فقرأ أبراهام بصوت مسموع:
- "إن كنا ذهبنا إلى غزة لإعادة شاليط"^(١)..... فقد عدنا بدونه!
- إن كنا ذهبنا إلى غزة لوقف الصواريخ..... فقد زاد مداها حتى آخر يوم وزادت رقعة تهديدها!
- إن كنا ذهبنا إلى غزة لإنهاء حماس..... فقد زدناها شعبية وأعطيناها شرعية!
- إن كنا ذهبنا إلى غزة لاحتلالها..... فقد اعترفنا بأن قوات النخبة لم تستطع التوغل متراً واحداً داخل غزة!
- إن كنا ذهبنا إلى غزة لنظهر أننا المسيطرون..... فقد توقفت الحرب عندما قررت المقاومة وليس عندما قررنا نحن!
- إن كنا ذهبنا إلى غزة لنستعرض قوتنا..... فقد كان يكفي إجراء عرض عسكري في تل أبيب!
- إن كنا ذهبنا إلى غزة لقتل قادة حماس..... فقد اغتلتنا اثنين من بين خمس مئة قائد في الحركة!

(١) جندي صهيوني أسير لدى حماس، وقد جيّش الكيان زعماء أمريكا وأوروبا للسعي لإطلاق سراحه. يذكر أن "منظمة أنصار الأسرى" قد وجهت رسالة إلى ساركوزي (أكبر الرؤساء المتحمسين لإطلاق سراحه) طالبت فيه بالعدل في التعاطي مع قضية الأسرى، جاء فيها: "إن كان تعاطفك مع شاليط بسبب مرور ٣ سنوات على أسرته، نؤكد لكم أن مئات من الأسرى الفلسطينيين اعتقلوا حينما كان شاليط في بطن أمه".

إن كنا ذهبنا إلى غزة لنكسب تعاطفاً عالمياً..... فقد انقلب الرأي العام العالمي ضدنا، ومن كان معنا صار ينتقدنا!

إن كنا ذهبنا إلى غزة لنعيد الثقة لجنودنا..... فقد زدناه جبناً كما زدنا مقاتل المقاومة ثقة بنفسه!

إن كنا ذهبنا إلى غزة لنثبت قوة الردع..... فقد تبين أن السلاح الذي بأيدينا لا نجيد استخدامه على الأرض.

ولا ننس أنه خلال جميع لقاءاتنا في أثناء الحرب بهدف التهذئة لم نسمع طلباً لحماس ولا مرة واحدة لإيقاف إطلاق النار حتى طلبناه نحن. فدعوني أسأل: من ردع من؟ يوجد الآن ثمان مئة ألف إسرائيلي هم سكان الجنوب، إذا ذكرت اسم حماس أمامهم ارتجفوا وذهبوا إلى الملاجئ؛ فَمَنْ ردع مَنْ؟

هذه الحرب كلفتنا مبلغ عشرة ترليونات ونصف ترليون دولار هي قيمة ما تم دفعه على الحملات الإعلانية على مدى ٤٠ عاماً لتجميل صورتنا في العالم^(١)، ففي خلال ٢٢ يوماً دمر الجيش الإسرائيلي كل هذه الحملات^(٢)، كما أن هذه الأرقام

(١) أفادت صحيفة "نيويورك تايمز الأمريكية" ١٩/٣/٢٠٠٩ أن وزارة الخارجية في الكيان الصهيوني قد رفعت ميزانيتها بنحو مليوني دولار أمريكي لتحسين صورة الكيان عالمياً بعد الجرائم التي نفذها جيش الاحتلال خلال حربه على غزة عبر نشاطات دبلوماسية وثقافية. ونقلت الصحيفة عن نائب وزير الثقافة الصهيوني قوله: إن "إسرائيل سترسل أحسن روايتها وكتابها، وتنظم عروضاً مسرحية ومعارض في الخارج". كما أنشأت منظمة "قف معنا" الصهيونية التي تأسست في الولايات المتحدة موقع "جنود يفصحون" الإلكتروني بهدف الترويج لحملة مضادة تهدف إلى تحسين صورة جيش الاحتلال من خلال مواقف إنسانية مزعومة خاضها الجنود في أثناء الحرب بعد الفضائح والجرائم التي ظهرت خلال العدوان الأخير على غزة. ولا يحوي الموقع سوى شهادات لسبعة جنود يسردون قصصاً لم يثبت وقوعها، ودون تقديم دلائل تؤكد صحة الروايات.

(٢) وصف موقع "فايتبك" الأمريكي الحكومة "الإسرائيلية" بأنها تمثل الوجه الأبرع للعنصرية، وبأنها امتداد للحكومات السابقة، وأضاف أنه بالرغم من أن الحكومة وقادتها متطرفون وإرهابيون وعنصريون، فإن المشكلة الأكبر هي في الصهيونية نفسها وفي مفهوم دولة "إسرائيل" التي تبني لليهود فقط وتقوم بتهمجير مئات الآلاف من السكان الأصليين، وتنتهك القوانين الإنسانية الدولية كل دقيقة، فهي دولة لا تملك الحق بالوجود والاستمرار.

لا تشمل تكلفة الحرب، كما لا تشمل الخسائر البشرية التي تكبدناها. خسائرنا البشرية بالحرب على غزة أنا أعرفها وأولرت وباراك يعرفانها، وجميعنا ممنوعون من التصريح عنها. هذه النتائج كلها تدعوننا إلى القول: كفانا كذباً؛ "نحن لم نتنصر". طوى أبراهام الصحيفة قائلاً:

- هذا كلام مهم فعلاً، وهو يثبت فعلاً فشل إسرائيل في تحقيق أهدافها، ولكن بالتأكيد لا يثبت انتصار أهل غزة.

- هل ترى هذا حقاً؟ إذن دعنا ننظر إلى الموضوع من جانبه الآخر. إن إسرائيل دولة متقدمة وتحظى بمساعدات يهودية وأمريكية ضخمة، وتتمتع بدعم عالمي غير محدود، ومنذ نشوئها صرفت على الدعاية ترليونات من الدولارات مكونة إمبراطوريات إعلامية وفنية عالمية تروج الأكاذيب التي تخدم مصالحها، كما أن متوسط دخل الفرد في إسرائيل ٢٥ ألف دولار سنوياً، أي يشابه الدول الأوربية، ولديها ميزانية ضخمة للصناعات العسكرية تستقطب ١٢٠ ألف موظف، منهم خمسة وعشرون ألف مهندس، وجيشها يحصل على أرقى تدريب في العالم، ويحظى بنسبة عالية من ميزانية الدولة^(١)، ولديه أقوى سلاح مدرعات على الأرض "ميركافا" التي لا تخترقها معظم المضادات المعروفة حتى الآن، كما أن لديه ٢٠٠ قنبلة نووية، ويعتبر خامس أقوى جيش في العالم، وهو يتكون من ٦٧٢ ألف مقاتل: ١٧٠ ألفاً منهم تحت السلاح، والباقي يمكن تجهيزه خلال ٩٦ ساعة. وقد تدرب هذا الجيش لمدة ٦ أشهر قبل العدوان على اجتياح المدن في أرضية جهزوها لتشابه ميدان قطاع غزة، ولكن ذلك لم يتم رغم كل هذا التدريب الراقى. القادة من الناحية الميدانية كانوا مستائين جداً؛

(١) كشف موقع الشؤون الاستراتيجية العبري أن الميزانية المتوقعة لوزارة الحرب الصهيونية خلال عام ٢٠٠٩م تقدر بنحو ١٢,٢ مليار دولار دون احتساب المعونة العسكرية الأمريكية، علماً بأن الميزانية العامة المقترحة للكيان الصهيوني خلال عام ٢٠٠٩م حسبما ذكرت صحيفة يديعوت أحرونوت العبرية تقدر بنحو ٦١,٢٥ مليار دولار وهذا يعني أن ميزانية وزارة الحرب تقدر بنحو ٢٠٪ تقريباً من إجمالي الميزانية.

فقد جهزوا حالة اختبارية رائعة بكل المقاييس ولم يتركوا وسيلة أو خبرة إلا وعلموها لذلك الجندي المرشح لافتحام مدن غزة وتحقيق عنصر المفاجأة، ولكن أوامر الاجتياح البري المقررة باليوم الرابع لم تنفذ رغم كل تلك الإعدادات، فالجندي الإسرائيلي لم تكن لديه أدنى رغبة بالالتحام المباشر. ومعظم الأيام الـ ٢٢ التي استغرقتها العملية، وبالذات في المرحلة الثانية كانت تقدماً محدوداً تحت تغطية كثيفة من نيران المدفعية، كي يحددوا نقاط رد المقاومة عليهم، ثم ينسحبوا بسرعة ليتولى الطيران قصف تلك النقاط، ثم يعاودوا الكرة وهم يدورون حول أنفسهم دون أن يحققوا تقدماً ملحوظاً. لم تكن الأمور كأيام حرب الـ ٦٧ حين احتلوا غزة بساعات محددة.

- لا أدري! فلربما كنت أنت وكاتب المقالة محقين فعلاً، أي انتصار فعلي حققوه على الأرض بعد كل هذا؟

- ليس ذلك فقط.

- ماذا أيضاً؟

- لقد كان الجنود مزودين بحفاضات للعجزة. بمعنى آخر كانوا خائفين أن "يعملوها تحتهم"، وهم داخل أقوى قلعة متحركة في العالم^(١).

- لم أفهم.

- لشدة خوفهم من القناصة الفلسطينيين، كانوا لا يجروؤون على مغادرة دباباتهم لقضاء الحاجة.

- هل يعقل أن يصل الجبن لديهم إلى هذه الدرجة؟

- راجع الصحف الإسرائيلية إن لم تصدقني. بل إن بعض الظرفاء تلاعب باسم تلك العملية العسكرية التي سماها الجيش "عملية الرصاص المسكوب" لتصبح "عملية البراز المسكوب".

(١) يقصد دبابة الميركافا.

ابتسم أبراهام بمرارة من الحال الذي وصل إليه اليهود وهو يقول:

- أتصور قيادة الجيش الإسرائيلي وهي توزع عدداً من الحفاضات على كل جندي ضمن عتاد الحرب.

- المضحك أكثر أن قيادة الجيش وزعت عليهم أساور إلكترونية أيضاً لتكشف مكانهم في حال تم أسرهم من قبل الفلسطينيين.

- وما المضحك في الأمر!!!

- بعد وقوع ثلاثة منهم في الأسر عرف الإسرائيليون الهدف من وراء تلك الأساور.

- أليس تحرير المختطفين؟

- بلى، ولكن بعد أن تعذر ذلك مع أولئك الثلاثة، تم قصف الموقع بناء على الإشارات المنبعثة من الأساور، وقتل الآسرون الفلسطينيون مع الجنود الصهاينة أنفسهم حتى لا يقع أحد منهم في الأسر مما سيتسبب في إحراج لا مثيل له للحكومة الإسرائيلية؛ فكما يعلم الجميع كان أحد أهدافها المرجوة من وراء هذه العملية هو تحرير جنديها الأسير "جلعاد شاليط" مع أنها لم تعلن عن ذلك. فتخيل معي ماذا سيحصل إن خرجوا من غزة وقد أصبح عدد أسراهم فيها أربعة بدل واحد.

- يا للعار!

- بالمقابل تأمل بالنموذج الفلسطيني. فرغم تلاعب الغرب والشرق بـ"حكومتيه" اللتين لا تملكان قرارهما، وتعملان وفق أجنداث أجنبية بالوكالة، ورغم الحصار المستمر إلى الآن^(١)، ورغم بقية المصاعب التي تحدثت عنها أنت بنفسك، إلا أننا نجد الطائفة

(١) أقر الكونغرس الأمريكي بمجلسيه النواب والشيوخ تخصيص ٥٠ مليون دولار لما سمي بتأمين الحدود مع قطاع غزة وزيادة فاعلية الإجراءات المصرية والصهيونية فيما يخص استمرار حصار قطاع غزة، ومنع تسلل السلاح للمقاومة، وجاء إقرار المبلغ ضمن برامج مكافحة ما يسمى "بالإرهاب"، وكانت مصر قد استلمت عام ٢٠٠٨م مبلغ ٢٣ مليون دولار من واشنطن قيمة معدات مراقبة متطورة لإحكام الرقابة على قطاع غزة.

المنصورة من الفلسطينيين مستمرين في الجهاد تحت كل الظروف لا يضرهم من خذلهم ولا من عاداهم. ومثال على ذلك هو الخلاف الذي حصل بين شبابهم وبين حماس في أثناء العدوان الأخير، فقد عيل صبرهم بعد أن توزعوا على حفر صغيرة جلسوا فيها لمدة خمسة عشر يوماً ومعهم قليل من الزاد ينتظرون الفرصة لصيد الجنود الإسرائيليين.

- طبعاً لهم الحق في ذلك، فخمسة عشر يوماً في حفرة مدة طويلة فعلاً.

- لم يكن ذلك هو سبب نفاذ صبر المجاهدين وخلافهم مع قادة حماس؛ ولكنهم ملوا الانتظار، ويشسوا من قدوم الإسرائيليين الجبناء الذين لم يجروؤوا على التوغل نحو العمق الذي تحسبوا له، فقرروا الذهاب إليهم بأنفسهم، والالتحام المباشر مع العدو حتى الشهادة. هل تعلم أن كثيراً من المجاهدين الجرحى قد تمردوا في المستشفيات على أطبائهم وحاولوا العودة إلى الميدان رغم جراحهم البليغة، ولكنهم أُجبروا على البقاء في أسرتهن حتى ينتهي علاجهم؟ هل تعلم أن ٥٠٠٠ طفل قد تخرجوا في العام الماضي فقط، كحفظة للقرآن رغم الحصار والفقر والظروف الصعبة. ذلك في الوقت الذي تخرج في أكبر العواصم العربية ١٨٠٠ حافظ فحسب، رغم الأمن والتشجيع وتوفير كل الظروف من الجوائز والحوافز المختلفة لحفظة القرآن هناك. هؤلاء مدرسة للصمود. الطفل فيها يدرّس أكبر أساتذة الجامعة دروساً في العزة والكرامة والإباء والتحدى. فقل لي بالله عليك من المنصورون إن لم يكونوا هم^(١)؟ ومن المهزومون إن لم يكونوا قادتهم المشبهين وزعماءهم المتخاذلين وأعداءهم المدحورين؟

(١) قال رسول الله ﷺ: لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك، وهم بالشام. رواه البخاري، وفي رواية أخرى قال: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين، قلنا: أين يا رسول الله؟ فقال: في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس.

◀ اغتسال الجسد والروح

خيم الصمت فترة من الزمن قبل أن يقطعه أبراهام وهو يقول بحرقة:

- لقد صرت أكره أنني يهودي، فأولئك الأفاعي لا خير فيهم.

- يجب ألا تتطرف يا بن العم؛ فقد أتى الله تعالى على بعض بني إسرائيل وفضلهم على العالمين بكثرة الأنبياء من بينهم.

- كان ذلك قبل أن يبدلوا في دين الرب.

- حتى بعد ذلك؛ فهم في النهاية أهل كتاب.

- اذكر لي شيئاً قاله قرآنكم في ذلك.

مع أن أحمد كان حافظاً للقرآن، إلا أنه حاول اعتصار ذهنه ليتذكر آية واحدة تنثي على بني إسرائيل تحت ذلك الشرط دون جدوى، إلا أنه كان مدركاً للحالة النفسية التي يمر بها صديقه حالياً، لذا فقد قرأ عليه إحدى الآيات التي تنثي على أهل الكتاب بشكل عام قائلاً:

- بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ فَايْمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

- أظن أن المسيحيين هم المعنيون بالصف الأول، أما اليهود فصفتهم في الصف الثاني دون أدنى شك.

- هذا ليس دقيقاً، فهناك مثل قديم مشهور في الأدب العربي يقول: "أَوْفَى مِنْ السَّمَوِّ"، والمضروب به المثل هو "السّموّء بن حيان بن عادياء" اليهودي. ويذكر

أبو الفضل الميداني" في كتابه "معجم الأمثال والحكم" من وفاء السموع أن امرأ القيس^(١) لما أراد الخروج إلى قيصر استودع السموع دروعاً وأحيحة بن الجلاح أيضاً، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام، فتحرز منه السموع، فأخذ الملك ابناً له، وكان خارجاً من الحصن، فصاح الملك بالسموع، فأشرف عليه، فقال: هذا ابنك في يدي، وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي ومن عشيرتي، وأنا أحق بميراثه، فإن دفعت إلي الدروع وإلا ذبحت ابنك. فقال: ليس إلى دفع الدروع سبيل، فاصنع ما أنت صانع. فذبح الملك ابنه وهو مشرف ينظر إليه، ثم انصرف بالخبيبة، فوافى السموع بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرئ القيس، وقال في ذلك قصيدة منها:

وَفِيْتْ بِأَذْرُعِ الْكِنْدِي

إِنِّي إِذَا مَا خَانَ أَقْوَامَ وَفِيْتْ

وَقَالُوا: إِنَّهُ كَنَزْرُ غَيْبٍ

وَلَا وَاللَّهِ أَغْدِرُ مَا مَشِيْتْ

ثم صمت أحمد متابعاً استرجاع آيات القرآن التي يحفظها، حتى قال:

- كما أن الله تعالى قد قال أيضاً: ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

[الأعراف: ١٥٩].

- ربما كان هذا في الماضي وقت موسى، أما الآن فلا خير فيهم.

- ليس زمن موسى عليه السلام وحسب، والله أعلم؛ فقد قال الله تعالى:

﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمُ فِي الْأَرْضِ أُمَّةً مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾

(١) وهو أمير وشاعر من مشاهير العرب في الجاهلية.

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ [الأعراف: ١٦٨] ^(١). ألم تقرأ عن دفاع المحامي اليهودي الفرنسي "لوران ليفي" عن حق ابنتيه المسلمتين في ارتداء الحجاب، ضد قرار فرنسا بتحريم لبس الفتيات المسلمات للحجاب في المدارس ^(٢)؟ ألم تسمع عن "ستانلي كوهين"، المحامي الذي دافع عن موسى "أبو مرزوق" أحد قادة حماس، و"إيلان هاليفي" المناضل الكبير، وممثل منظمة التحرير الفلسطينية في "الاشتراكية الدولية"، ومؤسس أول هيئة عالمية للدفاع عن الأسرى والمعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيلية بعد اجتياح ١٩٨٢، ومعه ليلى الفرنسية التي أسلمت وتحجبت؟ ألم تسمع بـ"نعوم تشومسكي" وآرائه الجريئة ضد إسرائيل؟ وكذلك "هنري كوريل" الذي اغتيل في باريس على يد "الموساد"؟ هل نسيت "لِنَ برينر"، الذي فضح تعاون الصهيونية مع النازية ^(٣)؟ أو "سيمور هيرش" وكتابه "الخيار شمشون"؟ أو "آفي شلاييم" و"إيلان بايه" و"يوجين روغان"، الذين فضحوا القصة الحقيقية لحرب ١٩٤٨ وأنها لم تكن في الواقع حرب "تحرير" و"استقلال"؟ وصولاً إلى "إسرائيل شاحاك" وكتابه "تاريخ إسرائيل والشعب اليهودي"، و"نورمان فنكلشتاين" وكتابه "صناعة الهولوكست" ^(٤)، و"آمنون كاپيلوك" الذي كشف الدور الإسرائيلي في مجزرة صبرا وشاتيلا وفضّحه، وغيرهم. وهل تعلم أن يهوداً مناضلين حملوا السلاح إلى جانب حركة "فتح" مطلع السبعينيات، وقاموا

(١) والآية التالية لها: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَىٰ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّهٗمُ عَرَضَ مِثْلِهٖ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ [الأعراف: ١٦٦].

(٢) وكالة رويتر للأخبار ١٧/١٠/٢٠٠٣ م.

(٣) نُشِرَ كِتَابُهٗ فِي بِيْرُوْت بِتَرْجَمَةِ مَحْجُوْبِ عَمْرٍ، ١٩٨٥ م.

(٤) وهو غير "إسرائيل فنكلشتاين" الرئيس السابق لمعهد الأركيولوجيا في جامعة تل أبيب وصاحب كتابي "لا أبواق أمام أريحا" ١٩٩٨، و"داوود وسليمان" ٢٠٠٦ والممنوع حالياً من دخول الكيان الصهيوني بسبب تشكيكه في الميثالوجيا والتاريخ العبريين، وآرائه ضد الأساطير المكونة للكيان الصهيوني.

بعمليات عسكرية واستخبارية ضد جيش الاحتلال دعماً لشعب فلسطين، فاعتقلوا وجرت محاكمتهم في محاكمة شهيرة عُرفَتْ باسم "محاكمة مجموعة حيفا"^(١) وأخيراً سأقرأ عليك ترجمة مقطع من قصيدة كتبها المحامي اليهودي "أنور شاول" حين جرت مضايقته على يد الحكومة العراقية:

إن كنتُ من موسى قبست عقيدتي

فأنا المقيم بظلم دين محمد

وسماحة الإسلام كانت مؤنلي

وبلاغة القرآن كانت مؤردي

مانال من حُبِّي لأمة أحمد

كوني على دين الكليم تعبدي

سأظل ذياًك السموءل في الوفا

أسعدتُ في بغداد أم لم أسعد

وكما ترى يا بن العم فأنتم أهل الكتاب، وهو مع كل ما فيه من التبديل، لا يزال يحوي كلام الله تعالى، ويميز من يتلوه عن سواهم.

- أشكرك يا بن العم على محاولتك النبيلة لرفع معنوياتي، ولكنني أدرى بقومي منك؛ فأغلب تلك الأمثلة لم تأت بدافع ديني نظراً لتلاوتهم كتاب الله كما تقول؛ بل جاءت من منطلقات ثورية اشتراكية أو ليبرالية أو حتى دعائية. فقومي قد نبذوا كلام الله وراء ظهورهم منذ زمن طويل، ولو عاد إليهم موسى نفسه الآن، وحاول تقويمهم، لاتهموه بأنه نبي كاذب، ولرموه بالكفر، ولربما قتلوه إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

(١) ٢٥ شباط/فبراير - ١٣ أيار/مايو ١٩٧٣. وقد خصَّص لهم محجوب عمر من حركة "فتح" كتاباً بعنوان: حوار في ظل البنادق (بيروت، ١٩٧٣)، وهم: رامي ليفني، دان فيريد، إيهود أديف، ميلي ليرمان، حزقيال كوهين، ودافيد كوبر.

ثم قال مغيراً الموضوع:

- حسناً، ما مشاريعنا لهذا اليوم؟

- هناك الكثير من المشاريع وليس لهذا اليوم فحسب، فما دمت ستبقى في آخن لخمسة أيام فقط، فإنني سأحاول أن أستغل كل لحظة فيها، كي أجعلها مفيدة وممتعة لك في آن واحد، وإلى أقصى درجة.

ابتسم أبراهام قائلاً:

- أستطيع تخمين الفائدة التي تعنيها، وهي لا ريب ساعات طويلة على الإنترنت كما حصل في المرة الماضية، وربما مظاهرات واحتجاجات على ما تكشف من نتائج العدوان على غزة، واستمرار الحصار عليها حتى الآن. ولكن ما الذي تعنيه بالمتعة؟

- لا تكن حقوداً، فلم يكن ذلك كل ما فعلناه في إيزرلون.

فأجاب ضاحكاً:

- أعلم يا بن العم، ولكن لا تنس أنني لم أتححر تماماً من أصلي اليهودي.

- دعك من هذا أيها المراوغ، وأنا أعترف بأنني أثقلت عليك آنذاك، ولكن الأمر مختلف حالياً. وأما عن المتعة فقد قصدت أن هذه المدينة تشتهر بمياهها الصحية النقية، وهو ما جعلها قبلة للنقاهة والاستشفاء في أوروبا.

- لقد سمعت فعلاً أن آخن هي جنة النقاهة والاستشفاء في أوروبا. هل صحيح

أن معنى اسمها في اللغة الألمانية القديمة هو "مدينة المياه"؟

- يمكنك قول ذلك، فاسم المدينة مشتق من المصطلح الجرمانى "ahha" أي مياه.

كما أنه يوجد هنا أكثر عيون المياه دفئاً في أوروبا، وأكثرها فائدة للصحة، وقد كان ذلك سبباً قوياً لتعميق الصلات بين المدينة وبين جيرانها الأوروبيين.

- لقد سمعت عن ذلك أيضاً، وهو ما أثار استغرابي؛ ففي أوروبا وبالذات في تلك العصور كان مفهوم "العداء للجسد" هو المهيمن على العقول^(١)، ومن ثم عدم المواظبة على الاستحمام.

- بل قل "العداء للنظافة"؛ فالأوروبيون دائماً ما يقدحون على الجسد مختلف أنواع المتع، ولكنهم يحرمونه من أبسط أساليب النظافة إلا فيما يتعلق بالمظهر الخارجي. وفي الماضي لم يلقوا بالأحتمى لذلك، وكان يقتصر الاستحمام عند الفقراء منهم على قشر طبقات الأوساخ عن جلودهم عند تراكمها بشكل مفرط.

- ليس الفقراء فقط؛ فكل قصور الأمراء والملوك العريقة التي نراها الآن، والتي تعد الغرف والصالونات والمطابخ بها بالعشرات، لم يكن بها أي حمام واحد.

- هذا صحيح تماماً. وأضيف إلى معلوماتك أن أغلبها لم يكن به حتى مرحاض.

- وكيف كانوا يقضون حوائجهم إذن، هل كانوا يلبسون حفاظات كالجنود

الإسرائيليين في غزة؟

ضحك أحمد طويلاً على تلك الدعابة، وأراد التعليق عليها، ولكنه عدل عن رأيه عندما لاحظ تعابير الأسى على وجه أبراهام وهو ينظر إلى الأرض بعدما تفوه بذلك، فعاد إلى حديثه قائلاً:

(١) كان يرجع ذلك إلى مفهوم خاطئ للدين، حيث يقول بولس: "لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله" (رومه ٨: ٧). والدكتور "حنين عبد المسيح" (كان شماساً، وواعظاً في الكنيسة القبطية، ثم تركها لما بها من أخطاء عقائدية من وجهة نظره، وذهب إلى الكنيسة الإنجيلية لأنها الأقرب - حسب اعتقاده - إلى المسيحية السلمية) تطرق في كتابه "بدعة الرهبنة" في الباب الثالث إلى تلك العقائد التي آمن بها الكثيرون، ومن بعض الأمثلة على ذلك أن الأنبا أنطونيوس اعتاد شرب الماء العكر وأوصى بتعجيز الجسد وإضعافه وإيلامه، والأنبا مكاريوس اعتاد شرب الماء النتن، والأنبا مقار الاسكندراني تعرى ستة أشهر ليعرض جسده للذغ الناموس حتى تورم بالكامل، والأب إسحاق قس القلاي كان يأكل رماد المنجرة مع الخبز، ويرفض الأكل الطبيعي حتى في مرضه، والأنبا أرسانيوس كان يضع الخوص النتن في فلاته، ويشمه ويهمل جسده حتى يمرض!!!

- كان الخدم يحضرون أوعية خاصة بذلك إلى غرفهم، وهذا أحد أهم الأسباب لاشتهار أوروبا، وخاصة باريس، بعطورها الفواحة، ومناديلها المعطرة التي صنعت بالأساس للاستخدام من قبل الأغنياء للتغطية على رائحة الغائط.

- أذكر أنني درست ذلك في المدرسة.

- وقد كان الملك "شارلمان الكبير" من أوائل الذين اخترقوا اعتقاد العدا للجد، جاعلاً الاستحمام في آخن من المحبذات. وربما كان استمتاع شارلمان الكبير بالمياه الدافئة في آخن، هو السبب الرئيسي وراء اتخاذه من تلك المدينة موطناً دائماً له، ومركزاً سياسياً لإمبراطوريته. وقد شجع ذلك الملك بقية ملوك أوروبا على شد الرحال إلى مدينته، كي ينهلوا من فوائد الاستحمام في عيونها، حتى صار هناك ما اصطلاح على تسميته بـ "حمام الملوك".

- حمام الملوك؟!

- أجل، ولكن عادة الاستحمام في عيون آخن تحولت فيما بعد إلى تقليد سائد، لا يحرص عليه الملوك فقط، بل عامة الشعب أيضاً، ليس للاستحمام فحسب، وإنما للاستشفاء أيضاً^(١).

- لقد شوقتني لتلك العيون التي كانت من أسباب اتجاه الأوربيين إلى النظافة أخيراً.

- ولكن جمال آخن لا يتوقف فقط عند تلك العيون الطبيعية، التي وهبها الله عز وجل لسكان المدينة، بل يضاف إليها جمال المساحات الخضراء الشاسعة المحيطة بالمدينة بسبب وقوعها في واد تحيط به الغابات والمزارع من كل جانب، فتزيدها جمالاً على جمال، ورونقاً على رونق.

(١) يتوافد على آخن سنوياً أكثر من ٨٠٠٠ مريض، من أجل النظافة والاستشفاء. حيث هناك العديد من العيادات المتخصصة في العلاج الطبيعي، ومن أشهرها "ريهه - كلينيك شفيرتباد".

- يبدو أنك أصبحت شاعراً هنا .

- كيف لا ، مع هذه الطبيعة الأخاذة؟ فسبحان الله على بديع صنعه!

- لقد لاحظت في أثناء قدومنا من المحطة أن الطراز المعماري هو الآخر فريد من نوعه هنا .

- هذا صحيح، وبشكل عام فإن الطراز المعماري القديم في ألمانيا هو غاية في الروعة. وتلك المناطق التي لم تطلها الحربان العالميتان، لا تزال تشهد على ذلك. واللافت للانتباه في مباني آخن بالذات، هو ذلك التمازج الغريب بين الفنون المعمارية المختلفة، ويبدو ذلك التمازج جلياً في منطقة "كاتشوف"، التي تجمع بين دار البلدية ذات الطابع "القوطي" من ناحية، وبين كاتدرائية المدينة، التي يرجع تاريخ إنشائها إلى العصور الوسطى، من ناحية أخرى. كما يأخذ التمازج منحى آخر بالفنون المعمارية الحديثة التي طعمت بها المدينة بمختلف أحيائها.

فوقف أبراهام قائلاً:

- يكفي هذا، وهيا بنا لنعاين عن كثب الجمال المعماري لأبنية آخن وحماماتها.

- أئن ترتاح أولاً من عناء السفر؟

- بعد وصفك هذا لن أرتاح إلا بعد أن أرتوي من التمتع بجمال هذه المدينة الجميلة، وعيونها الدافئة.

- إذن هيا بنا، وسنتناول الطعام في أحد مطاعمها الشهيرة.

- ليس قبل أن نستحم في عيونها الدافئة أولاً.

- كما تريد .

فقال أبراهام ضاحكاً وهو يجر أحمد من مقعده:

- إذن لماذا لا تزال جالساً؟ هل تنتظر أن تتراكم الأوساخ على جلودنا، حتى نضطر إلى قشرها مثل الأوربيين القدماء؟

قضى أبراهام في ربوع مدينة المياه خمسة من أجمل أيام حياته، متجولاً في ربوع المدينة، ومنتقلاً بين عيونها الدافئة. وقد لاحظ أن أحمد لم يعد يحدثه عن موضوع غزة، وصار يقوم بنشاطاته بعيداً عنه. ولكن في اليوم الأخير قبل سفره اصطحبه إلى "مسجد بلال"^(١) مستغلاً مصادفة أن ذلك اليوم كان "يوم المسجد المفتوح"^(٢)، الذي يدعى إليه الجميع، مسلمين وغير مسلمين.

ومن خلال احتكاكه بالحاضرين اكتشف أبراهام أن آخن لم تكن قبلة للنقاهة والاستشفاء فحسب، بل كانت أيضاً قبلة للثقافة والنشاط الإسلاميين أيضاً. فبالإضافة إلى المركز الإسلامي الذي يحضر فعالياته الآن، يوجد في مدينة آخن أيضاً مركز "جبهة الإنقاذ الجزائرية"^(٣)، ومقر منظمة "الأقصى"، ومركز "حركة الإخوان المسلمين" في أوروبا، ومقر المكتبة الإسلامية. كما اكتشف أن هناك من يضيق صدره بهذه التجمعات الإسلامية هنا، لدرجة أن إحدى الصحف الألمانية، قد بنت تخيلات حول ربطها بـ"الإرهاب" لمجرد أن أحد انتحاريي ١١ سبتمبر^(٤) قد زار مدينة آخن في يوم من الأيام! وهو ما أدى إلى تعرضهم لكثير من المضايقات والتشديد، مع حرصهم

(١) مقر "المركز الإسلامي" في آخن. وقد دشن في عام ١٩٥٨ من قبل مجموعة من الطلاب المسلمين، ولكن لم يتم وضع حجر الأساس فيه إلا في عام ١٩٦٤، حيث سجل المركز الإسلامي تحت اسم مسجد بلال، الذي اعتبر مفتوحاً لجميع مسلمي آخن البالغ عددهم قرابة ٢٠ ألف نسمة.

(٢) وهو أحد أنشطة مسجد بلال، الذي يزخر أيضاً بأنشطة أخرى عديدة، مثل عقد جلسات نقاش شهرية تلقى بالعربية وترجم إلى الألمانية، وعقد لقاءات نصف سنوية بين المسلمين الألمان، وتدریس قواعد الإسلام باللغة العربية للأطفال والشباب المسلمين. هذا بالإضافة إلى إقامة الجمعة. كما تضم مكتبة المسجد أكثر من ٣٠٠٠ مرجع إسلامي بمختلف اللغات.

(٣) بسبب قربها من فرنسا، كما أنها مقر سكن أبناء زعيمها "عباسي مدني".

(٤) زياد الجراح.

الشديد على احترام قوانين البلاد، ومع أن الطبيعة التربوية والثقافية البحتة هي سمة نشاطاتهم، التي تتمحور بمعظمها حول تنظيم أمور الجالية الإسلامية هناك وتقديم صورة مشرقة للألمان عن دينهم.

جاء وقت الصلاة فوقف أبراهام ينظر إلى المسلمين وهم يؤدون فرضهم وقد اصطفوا في صفوف منتظمة خلف الإمام، ركعوا وسجدوا كلهم في توحّد مثل الجنود. كان المكان يسوده الصمت، ولا يسمع المرء إلا صوت الإمام من أعماق المسجد يتلو آيات القرآن أو يكبر، وحين يركع أو يسجد يتبعه كل المصلين كرجل واحد. أدرك أبراهام في تلك اللحظة أن صلاتهم لا تنفصل عن حياتهم اليومية، بل كانت جزءاً منها، وهي لا تعينهم على نسيان الحياة بل تعمقها أكثر بذكرهم للرب. وبعد خروجهم من المصلى بانتظام وسكون، تظاهر أبراهام بقراءة أحد كتيبات المركز، ولكنه كان يراقبهم بحسرة وهم يتعانقون بحب ولهفة ويتبادلون الحديث كأنهم إخوة أشقاء تلاقوا أخيراً بعد عشرات السنين.

عرف أبراهام من خلال ذلك الكتيب أن عدد أفراد هذه الجالية الإسلامية التي تعيش في ألمانيا يصل إلى نحو ٢.٢ مليون شخص، معظمهم من الأتراك حلفائها السابقين في الحرب، الذين حضروا إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، بسبب حاجة ألمانيا (الغربية آنذاك) إلى العمالة الأجنبية (الرخيصة)، بعد أن أخذت الحرب زهرات شبابها^(١)، وخفضت من ثم من حجم القوى العاملة لديها. وقد أدى ذلك إلى فترة من النماء والازدهار، أعقبها مباشرة فترة ما يسمى بـ"المعجزة الاقتصادية الألمانية".

أما الباقون فهم من عمال العالم العربي الذين توافدوا لاحقاً، بالإضافة إلى الطلبة العرب الذين قرروا البقاء والعمل في ألمانيا بعد تخرجهم، وبعض الفارين بدينهم من اضطهاد دولهم التي تقمع أي نشاط إسلامي ذي صبغة سياسية. وحالياً فإن القسم الأكبر من هذا اللّيف هم من الجيل الجديد الذي ولد وتربى في ألمانيا،

(١) أكثر من ١٠ ملايين جندي ومواطن ألماني بالإضافة إلى تهجير نحو ١٥ مليوناً.

ولم تعد تربطه مع الأوطان الأصلية لأبائه، إلا بقية من الدين الإسلامي وحنين مبهم لقوميتهم، ولذلك فإن نشاط المراكز الإسلامية هنا هو محاولة لتعميق هذه الروابط وتأصيلها في نفوس ذلك الجيل، عن طريق تدريسهم للغة العربية والدين الإسلامي من جهة، وعن طريق حماية حقوقهم الفيدرالية لدى الحكومة الألمانية من جهة أخرى؛ وذلك بإثارة المناقشات في الأوساط السياسية والبرلمانية والبلدية والثقافية، عن حق إقامة مساجد ومقابر لهم في أمكنة إقامتهم، وعن حق الفتيات المسلمات في ارتداء الحجاب في المدارس الألمانية، وعن غيرها من الحقوق التي يكفلها الدستور الألماني، وبالذات المادة الرابعة التي تنص على "حرية المعتقدات الدينية وحرية التعبير عن الرأي"، كما تنص أيضاً على "المساواة بين الألمان والأجانب في الحقوق والواجبات كافة، واحترام كرامة الإنسان، وحرية الشخصية".

شكل ذلك اليوم المفتوح في المسجد أول احتكاك عملي عن قرب لأبراهام بالإسلام. وتعرف بعض نماذج تحمّل المسلمين للتفرقة والتمييز مقارنة ببقية الجاليات الأجنبية في ألمانيا، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر. كما لاحظ التزامهم الشديد بالأخلاق، وسلوكهم الإنساني، وسط ما يعانون من ظروف صعبة. كان يدرك أن لديهم دوراً في كل هذا، ولكي يعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء الرجال المثيرون للدهشة، عزم على أن يقرأ كتابهم.

بعد جهد كبير استطاع أبراهام الإفلات من أحمد، ثم ذهب إلى أحد القائمين على المسجد، مستفسراً عن توفر "قرآن باللغة الروسية" في مكتبته. فقاده إلى أمين المكتبة الذي كان مشغولاً وقتها بتصحيح نطق أحد الشباب لبعض حروف اللغة العربية، ولكنه ما إن علم باهتمام أحد الروس بالقرآن الكريم، حتى ترك ما بيديه، وقام مسرعاً لإحضار نسخة روسية من "ترجمة معاني القرآن". وبينما كان أبراهام ينتظر عودة الرجل قال له الشاب ناصحاً:

- إذا كنت مهتماً فعلاً بالقرآن، فالأفضل أن تبدأ بتعلم اللغة العربية.
- لماذا، ما دمت سأحصل عليه بعد قليل مترجماً إلى لغتي الأم؟
- لا أعرف ما الذي سيحضره لك الأستاذ، ولكنني أستطيع أن أؤكد لك أن أي محاولة لترجمة كلام الله إلى لغة أخرى هي بمنزلة تجديف.
- ماذا تعني؟
- لا توجد أي ترجمة للقرآن الذي أنزله الله تعالى عربياً.
- يبدو أنك متعصب جداً للغة آباءك.
- كلا، فأنا ألماني قح، ولا أمت إلى العروبة بأي صلة إلا صلة القرآن الكريم.
- تمعن أبراهام في وجه الفتى، الذي كانت ملامحه الأوربية واضحة حقاً، فسأله مستفسراً:
- ولكنني أعرف أن القرآن قد ترجم فعلاً إلى كل لغات العالم تقريباً.
- إن ما تظنه ترجمة للقرآن ليس إلا مجرد ترجمة للتفسير. وهو - وإن كان يعطي فكرة عن المعنى - لا يحيط به بشكل واف، وقد يجرده من مضمونه في بعض الأحيان.
- كيف ذلك؟
- إن اللغة العربية تشتمل على مفردات لا تدل على وقت محدد بعينه، وقد تشير إلى مستقبل مؤكد، ولكنها يمكن أن تدل أيضاً على أمر حدث في الماضي، فضلاً عن أن اللغة العربية تتضمن بعض ما يمكن للعربي أن يفهمه تلميحاً، وأن هناك كلمات تحتمل أكثر من معنى. ويفض النظر عن ذلك، فهناك المشكلة المعتادة التي تكمن في أن الكلمات التي تعبر عن المعنى ذاته في لغتين، لا تتطابق فيما يختص بتداعي الخواطر إلا نادراً. هذا غير إعجاز الرسم القرآني، ودلالة حذف بعض الحروف وإضافتها لإضفاء مزيد من المعاني على الكلمات.

- لا أرى داعياً لكل هذه التعقيدات؛ فالنسخ الأولى باللغات الأصلية للأسفار المقدسة قد فقدت فعلاً منذ زمن طويل، ومع هذا لا تزال كلمة الرب موجودة في ترجمات الكتاب المقدس في مختلف لغات العالم دون أي مشاكل تذكر.

- هل تظن ذلك حقاً؟

- بالطبع.

- إذن قل لي من فضلك لماذا تنص العقود والاتفاقيات الدولية المهمة على أن لغة صياغة الاتفاقية أو العقد هي اللغة الوحيدة التي يرجع إليها عند وجود أي اختلاف في الترجمات المختلفة؟! أليس لأن الاختلاف في ترجمة عبارة معينة، أو حتى كلمة، بل حتى حرف^(١)، قد ينشأ عنه التباسات قد تقود إلى مشاكل جمة؟

- أجل.

- فكيف إذن بكلمة الله وعهده مع عباده!!!

وفي هذه اللحظة عاد الأستاذ متهلل الوجه وهو يحمل النسخة الروسية كأنه قد وجد كنزاً. وعندما استفسر أبراهام عن شروط الاستعارة، أجابه الشيخ بأنها هدية من المركز، سائلاً الله أن تكون سبباً في هدايته إلى الحق.

(١) مثلما حصل في "أل التعريف" مثلاً فيما يعرف بالقرار رقم ٢٤٢ الذي صدر عن مجلس الأمن عام ١٩٦٧، والذي يفترض أن يكون أساس كل جهود السلام في المنطقة، مثل اتفاقيات أوسلو وكل أنواع العمليات واجتماعات القمة ومبادرات السلام وخارطات الطريق... إلخ. فالكيان الصهيوني يفسر القرار طبقاً للنسخة الإنجليزية (التي تعمد "اللورد كارادون" أن تخلو من أل التعريف) على أنه يقضي بالانسحاب من "أراض" محتلة في حرب ٦٧، ومن ثم يمكنهم القول إنهم قد انسحبوا من سيناء بموجب القرار ٢٤٢ لكنهم سيحتفظون بالقدس ومعظم الضفة الغربية لمستوطنيتهم. في حين يفسره العرب (طبقاً للترجمة التي أعطيت لهم في البداية عن مشروع القرار) على أنه يقضي بالانسحاب من "الأراضي" العربية المحتلة (كافة). وحتى بعد ظهور نص القرار المعتمد (بالإنجليزية) خالياً من أل التعريف، اعتمد العرب بحماسة - وبشكل نمطي - على تأكيدات كارادون على أن "كافة" المناطق هي ما كان قصدها القرار ٢٤٢، حتى لو أنه لم يقل ذلك!!!

شكر أبراهام الأستاذ على كرمه، ثم ابتعد قليلاً ليخفي ذلك الكتاب في ثيابه، حرصاً على عدم إعطاء أحمد أي دافع للتوهم بأنه قد بدأ يفكر في الإسلام جدياً. كان قد وطد العزم فعلاً على قراءة القرآن، ولكن ما قاله ذلك الشاب الألماني ظل يرن في أذنه باستمرار. وفي طريق العودة سأل أحمد قائلاً:

- كنت أظن أنكم أنتم المسلمين تترجمون كتابكم المقدس مثل المسيحيين، واليوم عرفت أن تلك الترجمات هي ترجمة لتفسير القرآن فحسب. فما السر في ذلك؟

- في كل لغة في العالم توجد تعابير يفهمها المتمكن منها بسهولة، ولكنها تفقد الكثير من معناها فيما لو ترجمت حرفياً إلى لغة أخرى. مثال ذلك في اللغة العربية قول "وكان الله غفوراً" وترجمتها الحرفية باللغة الروسية هي وكان الله غفوراً، أي بالسابق لأن كان هو فعل ماض، أما الآن فربما لا يغفر والعياذ بالله، لذلك يترجم المعنى فقط وهو "إن الله كان غفوراً". ومع أن هذا التفسير هو أقرب ترجمة للمعنى، إلا أنه لا يغطي المقصود من النص بشكل واف؛ فكلمة كان هنا تعني الاستمرار والدوام أي: "لم يزل على ذلك". واللغة العربية لغة غنية جداً، وهي -كأغلب لغات العالم- تحتمل كل كلمة فيها أكثر من معنى، بل وتزيد عن بقية اللغات بأنها تحوي أيضاً كلمات متعددة للمعنى الواحد، بحيث إن كلاً منها تختص بصفة معينة؛ فللسيف مثلاً أكثر من مئة اسم حسب شكله ومصدره والطريقة التي صنع لأجلها، وللأسد أكثر من ذلك.... إلخ. وعلاوة على كل هذا، زاد القرآن الكريم اللغة العربية ثراء بعد نزوله، وابتدع كلمات وتعابير لم تكن فيها قبل.

- ما وجه الإبداع في ذلك، أنا مثلاً أستطيع أن أبتدع الآن ألف كلمة جديدة في اللغة الروسية، ومثلها بالعبرية أو الإنجليزية.

- بالطبع تستطيع، وأنا أيضاً أستطيع ذلك عن طريق ترتيب بعض الحروف بشكل عشوائي، مثال كلمة "فتتدايكر". هذا سهل جداً، ولكن ماذا تعني هذه الكلمة،

وأى أصل لها وما هو تصريفها؟ الإجابة واحدة لكل هذه الأسئلة: لاشيء. ولكن وجه الإبداع القرآني أنه نحت كلمات لها أصل، أو أصول مختلفة لا تتعارض فيما بينها، ويمكن أن يفهمها السامع دون أن يكون قد سمعها قبلاً، مثال "ليلة القدر" الذي هو اسم ليلة مباركة في العشر الأواخر من شهر رمضان الذي نصومه نحن المسلمين كل سنة. كلمة "القدر" كلمة عربية، ولكنها لم تكن مستخدمة من قبل العرب قبل القرآن، ولم تستخدم فيما بعد خارج الإطار الذي جاءت فيه، يرجعها كثيرون إلى معنى القدر أي المكانة لعظم قدر تلك الليلة، مع أن تعبير "ليلة المكانة" غير مستساغ بتاتاً باللغة العربية. ويرجعها آخرون إلى معنى القدر(كـ"قدر عليه رزقه") أي الضيق. لأن السماء فيها تضيق بالملائكة، ويرجعها البعض إلى معنى القدرة.. إلخ. وجميع تلك المعاني تحتمل الصواب ولا تتعارض فيما بينها، ولا يجد القارئ أي صعوبة في فهم معناها حسب تمكنه من اللغة العربية. كما أنه من الممكن أن يتكشف لنا عن معلومات جديدة بالمستقبل تضيف أبعاداً أخرى لتلك الكلمة، ومن العسير، بل المستحيل، ترجمة كلمة كهذه بكلمة واحدة من لغة أخرى، وتحوي في الوقت نفسه كل المراد منها بالتفصيل. هذان مثالان بسيطان، تستطيع القياس عليهما بما هو أعقد من ذلك.

- هل حدث فعلاً أن معلومات جديدة تكشفت وأظهرت معاني أدق لكلمات القرآن؟

- أكثر مما يمكن عدها. فعلى سبيل المثال جاء في القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام أنه حرق العجل الذهبي ونسفه في اليوم.

- هل جاءت كلمة "نسف" في القرآن؟

- أجل، وفسرت وترجمت آنذاك حسب معلومات المفسرين والمترجمين. ولكن الكلمة بقيت كما هي دون تغير حتى تقدم العلم، فعرفنا معناها الحقيقي.

- وهل أثبت العلم أن موسى كان يمتلك ديناميت؟

قال أبراهام ساخراً، فرد أحمد بهدوء:

- كلا بالطبع؛ ولكنه أثبت أن الذهب إذا حرق ثم رمي في ماء متشبع بالملوحة كماء البحر الميت مثلاً، ينشأ عن ذلك قوة انفجارية هائلة.

- حقاً؟

- أجل، ولو أن الكلمة قد غيرت في العصور السابقة، لتقريب المعنى للمفاهيم السائدة آنذاك كما فعل أهل الكتاب حين ترجموا كلام الله، لما عرفنا حالياً المعنى الحقيقي لها. وكذلك كلمة "أدنى" الأرض التي جاءت في القرآن الكريم في وصف المنطقة التي حدثت فيها هزيمة الروم من قبل الفرس حين قال الله تعالى: ﴿عُلِبَتْ الرُّومُ﴾ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون ﴿ [الروم: ٢ - ٣]. فقد فسرت وترجمت بالأرض "الأكثر الأقرب" the nearest land باعتبار أن فلسطين هي أقرب الأراضي إلى جزيرة العرب، ولكن هناك معنى آخر، أثبت العلم الحديث أنه هو بالذات المقصود لهذه الكلمة، وهو الأرض "الأكثر انخفاضاً" the lowest land فقد ثبت علمياً أن منطقة البحر الميت، حيث جرت المعركة، هي أخفض أرض عن مستوى سطح البحر^(١). ومثال آخر هو كلمة "اتخذت" في وصف بيت العنكبوت؛ قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] صدق الله العظيم؛ فقد وردت في النسخة الروسية لترجمة معاني القرآن بصيغة المذكر "اتخذت" باعتبار أن الإشارة كما جرت العادة هي إلى ذكر العنكبوت، ويقصد بها الذكر والأنثى معاً، وترجمت في النسخة الإنجليزية بصيغة المحايد Who buids to it slelf وليس بصيغة المؤنث her self.

- ليس هناك كبير فرق في ذلك. فالمعنى لم يتغير.

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- هل تعلم أنه قد ثبت علمياً أن أنثى العنكبوت هي بالذات من تبني البيت؟
 - إن كان القرآن يتحرى الدقة إلى هذه الدرجة، فكيف تفسر قوله في هذه الآية
 أن بيت العنكبوت من أوهن البيوت، وقد ثبت علمياً أن خيوط العنكبوت المستخدمة في
 بناء ذلك البيت هي من أقوى أنواع الخيوط في العالم؟!

- لا أحد يستطيع المزايدة على دقة القرآن. فقد قال الله تعالى "أوهن البيوت"
 ولم يقل "أوهن الخيوط". وبالمعايير اللازمة للبيت فإن بيت العنكبوت يعتبر أوهن
 البيوت فعلاً بالنسبة إلى "بنيانه المادي" إذ إنه لا يحمي ساكنه من المطر ولا من البرد
 أو الشمس أو الريح. واتخاذ هذا البيت هو أبلغ مثل على من يتخذ ولياً يلجأ إليه من
 دون الله، يستعين به على إشباع لذاته (بيت العنكبوت يستخدم شبكة للصيد) ولكنه
 غير قادر على حمايته، ولن يجد فيه السكينة. ويتجلى جانب آخر في دقة هذا المثل،
 هو أن ذلك البيت أوهن البيوت بالنسبة إلى "بنيانه المعنوي" أيضاً؛ فقد أثبتت الدراسات
 العلمية في مراقبة العناكب أن الأنثى هي التي تختار الذكر، والعلاقة بينهما واهنة،
 حيث إنها تحاول أكله حالما ينتهي الجماع!

- غريب، كيف تستعين بالعلم لتفسير هذه الآية! فهل قصد القرآن كل ذلك
 فعلاً؟!!!

- وأكثر. فقد قال الله تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَصْرِهَا لِنَأْسٍ
 وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وهذه الأمثال لم تأت من بشر بحيث تنطبق
 على جانب محدد ولا تنطبق على الجوانب الأخرى؛ بل جاءت من لدن العليم الخبير.
 لذا فكيفما قلبتها تفهم منها شيئاً جديداً، وعلى قدر العلم الذي نتوصل إليه نتدبرها
 أكثر.

- ولكل هذه الأسباب ترفضون ترجمة القرآن، وتحفظون بكلماته الأصلية؟
- وبرسمه الخاص أيضاً، مع أنه يتعارض في بعض الأحيان مع طريقة كتابة اللغة العربية. ولكن قل لي: ما الذي خطر ببالك كي تسأل عن ترجمة معاني القرآن؟

مساجد وكنائس

أحس أبراهام بارتباك لسؤال أحمد، فرد قائلاً:

- لا شيء، مجرد سؤال، فقد سمعت أحدهم في المسجد يتكلم على نسخة ألمانية لتفسير معاني القرآن وليس لترجمة القرآن نفسه، فأردت أن توضح لي قصده من وراء ذلك.

وعندما فتح أحمد فمه ليستفسر عن ذلك أكثر، عاجله أبراهام بسؤال مختلف، ليغير به الموضوع تماماً:

- بالمناسبة، كم عدد المساجد كهذا في ألمانيا؟

- وفقاً لإحصاء "المعهد المركزي لأرشيف الإسلام في ألمانيا"، فإن عدد المساجد وأماكن العبادة الإسلامية الموجودة في ألمانيا يقدر حالياً بنحو ٢٢٠٠ مسجد ومكان عبادة مستقل، إلى جانب عدد كبير من أماكن العبادة الصغيرة الملحقة بأماكن عمل أفراد الجاليات الإسلامية، التي لا تعترف بها الجهات المحلية الألمانية باعتبارها مساجد رسمية. وما زال النقاش يدور حول وضعها القانوني، واعتراف بلديات المدن بها رسمياً.

- تعني أنه يوجد في ألمانيا ٢٢٠٠ مبنى وفق طابعكم المعماري الإسلامي المميز؟

- كلا، فالمساجد ذات المآذن والقباب التقليدية تبلغ نحو ٧٠ مسجداً فقط، أهمها تلك الموجودة في المدن الألمانية الكبيرة^(١)، أو في المدن والبلديات الصغيرة المنتشرة في المناطق الصناعية والإنتاجية المكتظة بالعمال الأجانب، خاصة الأتراك.

(١) مثل برلين وبون وفرانكفورت وكولونيا وهامبورج ومانهاين ودورتموند ودويسبورج.

كما تم توسيع أماكن الصلاة والعبادة الإسلامية وتطويرها وإضافة القبة والمآذن إليها في بعض المساجد الباقية، كما رأيت في إيزرلون مثلاً^(١)، الأمر الذي أضفى على ذلك المكان طابع الوجود والديمومة، والطابع الرسمي باعتباره تابعاً للهيئات والجمعيات الإسلامية المسجلة رسمياً لدى الجهات المختصة، والتي تنتشر فروعها في معظم أنحاء ألمانيا. وقد شهد بناء المساجد الرسمية في ألمانيا قفزة منذ عام ٢٠٠٤ ولا يزال ١٢٨ مسجداً طور الإنشاء. وفي الواقع فإن بناء المساجد حديث نسبياً في ألمانيا.

- لماذا؟

- يعود ذلك إلى حداثة وجود المسلمين أنفسهم بها، والذي تشكّل فعلياً عقب الحرب العالمية الثانية. والسبب الآخر لعدم وجود مساجد عديدة في ألمانيا قبل ذلك هو بقاء ألمانيا بعيدة عن آسيا وإفريقيا، على العكس من الدول الاستعمارية الأخرى كبريطانيا وفرنسا، لذا اقتصر المظاهر الإسلامية على مساجد قليلة^(٢)، لكن هذه الصورة تغيرت بصورة جذرية فيما بعد، عندما شرع أفراد الجالية التركية بتشديد مساجد، بدأت تتخذ في مطلع الثمانينيات الماضية، طابعاً تقليدياً، وتضم مآذن وقُبباً ومحارِب.

- الثمانينيات؟! وما سبب تأخرهم في ذلك؟

- لقد واجه تشييد المساجد الإسلامية في معظم المدن والبلديات الألمانية خلال الثلاثين عاماً الماضية مناقشات صعبة شارك فيها الرأي العام الألماني، ووسائل إعلامه المختلفة والسلطات الإدارية المختصة، بل إن بعضها وصل إلى ساحة القضاء الألماني بدرجاته المختلفة، وقد دار معظمها حول مكان المشروع والترخيص له، وشكل

(١) وكما هو الحال أيضاً في بولينجن ودبلنورج وهام ونورتسهام وسيلنج.

(٢) منها المسجد الموجود في منطقة "فليمسدورف" في برلين الذي شيد في عام ١٩٢٤.

البناء من الناحية المعمارية والهندسية، وارتفاع المآذن^(١)، والسماح باستخدام مكبرات للصوت فيها، ومدى استعداد السلطات المحلية للموافقة على بناء مساجد إسلامية، خاصة أن الهيئات الإسلامية الموجودة في ألمانيا لا تملك حتى الآن صفة الشخصية القانونية العامة، ومن ثم حق إقامة "مراكز مقدسة"، كما تنص عليه التشريعات الألمانية. يضاف إلى ذلك الأسباب التي تتمسك بها بعض البلديات الألمانية في رفضها الترخيص ببناء مساجد إسلامية في وسط المدن والمناطق المكتظة بالمواطنين وحركة المواصلات والمسكن، كعرقلة حركة المرور والازدحام خلال أوقات الصلاة والضجيج وإزعاج الجوار.

- وكيف فصل في تلك التي وصلت إلى القضاء؟

- بعد الكثير من الإخفاقات نجح المسلمون عام ١٩٩٢ في إقناع المحكمة الإدارية الألمانية الاتحادية، التي تعتبر من أعلى درجات القضاء الألماني، بإصدار حكم نموذجي بشأن تشييد المساجد في المناطق السكنية، عندما رفضت دعوى

(١) أقيم استفتاء في سويسرا في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٩ تقرر بموجبه حظر بناء المآذن في سويسرا. جريدة "لو سوار دو بلجيك" البلجيكية تنبأت بالنتيجة نفسها في بلجيكا لو تم استفتاء مماثل فيها. كما تلقف اليمين المتطرف الهولندي الخبز، ودعا إلى استفتاء مماثل عندهم، بل دعا إلى حظر المصاحف أيضاً! وتنبأ بالنتيجة نفسها في بلاده. وكذلك تلقفته الأحزاب شديدة التطرف في إيطاليا والدانمارك والنمسا ودعوا إلى إجراء مماثل عندهم. وقد سبق هذا الاستفتاء حملة في تموز/يوليو ٢٠٠٩ للحزب المسيحي الديمقراطي التشيكي - الذي كان رئيسه وزيراً للخارجية إبان أزمة الرسوم الدانماركية التي أهدأها- المناهضة لبناء المساجد في التشيك. بل إن الأمر تعدى أوروبا إلى أمريكا حيث صودرت مساجد في واشنطن ونيويورك وهيوستن وكاليفورنيا تابعة لمؤسسة خيرية إسلامية قبل أسبوعين فقط من الاستفتاء السويسري. وقد وصفت بعض الصحف (مثل "دي فيلت" الألمانية و"ليبراسيون" الفرنسية و"لو سوار دو بلجيك" البلجيكية) هذا بـ "كيل بمكيالين وعنصرية ونفاق وتمييز وعدم تسامح"، ولا سيما أنه قد رُفضت في السنوات الأخيرة كل طلبات بناء المآذن للمسلمين في سويسرا وهم يشكلون أكثر من ٥٪ من السكان (٤٠٠ ألف من أصل ٧,٧ مليون سويسري) في حين قبلت طلبات بناء معابد لبضعة أفراد من الشيخ www.arabic.euronews.net مع أن هذه المعابد مرتفعة وذات أبراج ضخمة لا تخفى على الناظر، في حين تعد مساجد المسلمين هناك شديدة البساطة والصغر في الحجم.

أقامها أصحاب المنازل والمتاجر المجاورة للمنطقة المراد إنشاء المسجد فيها. وطلبت من البلدية منح رخصة البناء في هذه المنطقة السكنية، أكدت فيه أن ضمان "الحرية الدينية" يفوق مصالح أصحاب العقارات المجاورة. وما زال موضوع مآذن المساجد المنوي إنشاؤها، وشكلها وارتفاعها والسماح بالأذان فيها، يثير مناقشات حادة ومشاكل إدارية وقضائية وأصداء إعلامية متباينة. وما يزال كذلك موضوع طلب هيئة إسلامية من مدينة دويسبورج السماح لها باستخدام مكبرات الصوت لبث الأذان من مئذنة مسجدها في هذه المدينة الألمانية عالقاً في الأذهان ويتردد صداه حتى الآن، بعد أن انتقل في منتصف التسعينيات الماضية إلى أجواء برلمان ولاية شمال الراين، فستفاليا الإقليمي والمجالس الإسلامية في ألمانيا، ولا سيما أن بعض مدن هذه الولاية الألمانية الكبيرة وبلدياتها، قد سمحت بالفعل بإذاعة الأذان من خلال مكبرات الصوت، بعد أن عمد البعض إلى المقارنة بين صوت المؤذن الذي ينطلق من مآذن المساجد الإسلامية عدة مرات في اليوم، بأصداء نواقيس الكنائس التي تنطلق في المناطق المأهولة والمكتظة بالسكان، مشيرين إلى أن منع الأذان هو حد واضح للحرية الشخصية والدينية.

- مقارنة منطقية فعلاً، وقد سمعت أصداء تلك النواقيس عندما كنت في مصر العربية المسلمة، مع أنها متهمه دائماً بقمع الحريات، وانعدام الديمقراطية فيها، في حين تفتخر ألمانيا بديمقراطيتها، ودفاعها عن الحريات^(١).

(١) لم يتسع صدر سويسرا بلد اتفاقيات جنيف والصليب الأحمر والحياد الدولي لأربع مآذن (قصيرة) تعلق أربعة مساجد في كل سويسرا من أصل مئتي مسجد لا يرفع فيها الأذان. ولا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الربط بين هذا العمل العدواني وبين مواقف مشابهة في عداة جهات عديدة في الغرب للإسلام. فانزعاج السويسريين من أربع مآذن قصار في كل سويسرا يذكرنا بالقانون الفرنسي الذي شُرِع من أجل ٣٦٧ فرنسية منقبة في كل فرنسا (حسب وصف جريدة "لوموند" الفرنسية نفسها)!!! كما لا نستطيع =

- ومع كل الصعوبات التي يواجهها المسلمون في بناء دور العبادة الخاصة بهم، إلا أن أعداد المساجد، حسب دراسة أجراها "المعهد المركزي للأرشيف الإسلامي بألمانيا" تتزايد، في الوقت نفسه الذي تنقلص فيه أعداد الكنائس داخل ألمانيا التي لا تتعوق بناء الكنائس كما هو حالها مع المساجد. وتشير الدراسة إلى أن المستقبل في ألمانيا ربما يكون للإسلام^(١)، وخاصة في ظل انخفاض أعداد المواليد الألمان. وقد نشرت صحيفة "دي فيلت" الألمانية دراسة مقارنة بين التيار الإسلامي والتيار المسيحي في ألمانيا كشفت أن الدين الإسلامي بات يفرض نفسه بقوة، وأن المسلمين في تزايد واضح.

- ولكنني قرأت أنه يوجد حالياً نحو ٣٥ ألف كنيسة في مدن وبلدات وقرى ألمانيا، وأن المسيحية هنا لا تزال شديدة التجذر.

= أن تأخذه خارج سياق قانون حظر الحجاب في المدارس الفرنسية، كما منعت إحدى المدن البلجيكية الموظفين من ارتداء الحجاب. ومنع بطله رياضية سويسرية من ارتداء الحجاب مما دفعها إلى الاعتزال ومنع لباس البحر الكاسي للجسم للسيدات (البوركيني) في فرنسا والسماح فقط لشبه العاريات. وكذلك تدينس ٥٠٠ ضريح لمسلمين في فرنسا في أيار/ مايو ٢٠٠٩. بل إن الأمر وصل إلى منع طفل مسلم من الظهور في قناة "جولي" الفرنسية لأنه يحمل اسم "إسلام"!!! . كما لا نستطيع أن تأخذه خارج سياق الإساءات للإسلام في تصريحات قادة الغرب من بوش الصغير إلى "برليسكوني" و"بندكت" و"أشكروفت"، ثم القساوسة الإنجليين؛ "بات روبرتسون"، "جيرى فالويل" وغيرهما، وصولاً إلى الرسوم الداعية وتدمير العراق وأفغانستان وفضائح معتقلات "جوانتانامو" و"باجرام" و"أبو غريب"، ومحاولات تفتيت السودان واليمن وباكستان، وبذر الفتن في سائر بلاد العرب والمسلمين. وأخيراً قصر المناصب الدولية المهمة عندهم على المعادين للإسلام؛ كوضع "راسموسن" رئيس وزراء الدانمارك إبان أزمة الرسوم المسيئة (كان قد دافع عنها) على رأس حلف الـ"ناتو"، وتعيين "رومبوي" الذي كان قد صرح قبل ذلك بأن تركيا ليست جزءاً من أوروبا ولن تكون، وأن القيم الأوربية في الأساس مسيحية وهو ما تفتقده تركيا، ليؤكد تصريح رئيس المفوضية الأوربية الأسبق "جاك ديلور" بأن للهوية الأوربية ثلاثة عناصر: ١- المسيحية. ٢- القانون الروماني. ٣- الفلسفة اليونانية. وبعد كل هذا التفريق والطائفية والعنصرية، يطالبوننا بكل صفاقة بتطبيق ما يدعونه من قيم المساواة والحرية والتعددية. يذكر أن تعداد المسلمين في سويسرا (أكثر من ٥٪) يقترب من تعداد الأقباط في مصر (٦٪).

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- هذه المعطيات تتغير بانتظام^(١)، كما أن أعداد المصلين الذين يرتادون هذه الكنائس تتراجع بشكل مذهل. وليس الأمر مجرد أن أعداد من يذهبون إلى الصلاة في الكنائس في تراجع، بل هو بسبب تفشي الإلحاد الضمني^(٢)، كما حذر كبير أساقفة كانتربري الذي يمثل رئاسة الكنيسة البروتستانتية الأنجليكانية في بريطانيا. والأخطر من ذلك حسب وجهة نظر الكنيسة، هو أن أعداداً متزايدة من المسيحيين صاروا يهجرون الكنائس لتفادي دفع الضريبة الكنسية^(٣)!! لهذا فإن الكنائس الآن تجد صعوبة شديدة في الإنفاق على نشاطاتها بعد تهوي عائدات الضرائب، فضلاً عن اضطرارها إلى دفع تعويضات متكررة عن الانتهاكات الجنسية لقساوستها. وتشير

(١) صرح المركز الصحفي لإدارة مدينة ميونيخ جنوب ألمانيا في ٣١/٣/٢٠١٠ أن أعداداً متزايدة من المتدينين الألمان بصدد إعلان خروجها عن الكنيسة بسبب الفضائح والاعتداءات الجنسية التي ارتكبتها كثير من رجال الكهنوت المسيحيين في الفترة الأخيرة. وأضاف المصدر نفسه أن الأعداد الأولية للذين أعلنوا خروجهم من الانضمام تحت لواء الكنيسة في ميونيخ وحدها بلغت منذ الأول إلى السادس والعشرين من الشهر الحالي (مارس) ١٣٣٩ شخصاً من الكاثوليك والبروتستانت، في حين كان عدد الخارجين عن الكنيسة في الشهر ذاته من العام الماضي ٩٤١ شخصاً في المدينة ذاتها. وقالت "دانيلا شليجل" المتحدثة باسم سلطات إدارة المدينة: "في الوقت الذي يصل فيه عدد الخارجين عن الكنيسة في مدينة ميونيخ يومياً ما بين عشرين شخصاً إلى أربعين في العادة، ارتفع العدد حالياً إلى ما بين خمسين حالة وسبعين". أما "فيلهلم فاينمان" رئيس مكتب التوثيق المدني في مدينة ريغنسبورغ القريبة من ميونيخ فيتحدث كذلك عن تجارب مشابهة في دائرة عمله حيث يقول: "من جهتنا لا نرغب مطلقاً في معرفة أسباب خروج الناس من الانتماء إلى الكنيسة إلا أن الكثيرين يقولون إنهم يرغبون في معاقبة هذه المؤسسة، ويعبرون بذلك عن استيائهم الشديد لما وقع مؤخراً، وتشير الآراء التي سجلها الناس لدينا، وتكررت كثيراً إلى ارتباط حالات الخروج الحالية من الكنيسة بحالات الاعتداء الجنسي التي وقعت مؤخراً". يذكر أن أعضاء الكنيستين الرئيسيتين في ألمانيا بلغ في عام ١٩٩٠ ٢٨ مليوناً، لكن الرقم في ٢٠٠٧ كان يقل عن ٢٢ مليوناً، حيث سجلت الكنيسة الكاثوليكية تراجع عدد أعضائها بأكثر من مليونين، وانخفض عدد أعضاء الكنيسة البروتستانتية بأكثر من أربعة ملايين عضو.

(٢) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٣) تتمتع الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية في ألمانيا منذ مطلع القرن الـ١٩ بالحق الدستوري في فرض الضرائب، وهي ميزة ساعدتها ذات يوم على أن تكون ثرية نسبياً.

الدراسات إلى أن نحو ٣٠ في المئة من كنائسها ربما يتعين بيعها لأغراض تجارية.

- الكنائس لديها صعوبات مادية!٩

- أجل، ففي هذه المدينة بالذات تكافح أبرشية آخن، وهي واحدة من أكبر أبرشيات ألمانيا، لتغطية احتياجاتها. وقد تم الاستغناء عن ثلث موظفي الأبرشية في خطة لتقليص العمالة تستهدف توفير ٦٠ مليون يورو^(١).

- لقد قرأت أن عدد موظفي الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية في ألمانيا يبلغ نحو ١,٣ مليون شخص.

- هذا صحيح. وهما أكبر صاحب عمل غير حكومي في ألمانيا، لكن هذا أيضاً عرضة للتغير، فقد أصيبت الكنائس بالشلل على غرار بعض الشركات الألمانية بفعل ارتفاع النفقات، وانخفاض المدخول، الأمر الذي يضطرهم أيضاً إلى التخلص من العاملين توفيراً للمال. وتشير صحيفة "شتوتجارت" إلى أن الكنيسة الإنجيلية تبحث في أمر إغلاق نصف كنائسها البالغ عددها عشرون ألفاً حتى نهاية السنة الحالية. وفي برلين تقلل من عدد كنائسها بنسبة الربع! وقد أصبح شيئاً معتاداً تحويل كنائس إلى مصارف ومحلات بيع أثاث الحدائق وسوبر ماركت. هذه كانت نتيجة عدم إمكانية توفير المال لاستمرار عمل الكنيسة مع أنها حاولت عن طريق السماح بعمل حفلات زواج وحفلات ديسكو من أجل جمع المال للبقاء بلا طائل! وفي مدينة "بيلفيلد" غرب ألمانيا جرى قبل ثلاث سنوات تحويل كنيسة "مارتيني" المشيدة عام ١٨٩٧ إلى مطعم أطلق عليه اسم "الحظ والسعادة"، وذلك على يد رجل الأعمال المحلي "آخيم فيولكا". ومما لا شك فيه أنه ليس من السهل على أبرشية أن تتخلى عن كنيسة أثرية، ولا سيما عندما يعني ذلك استخدامها للأغراض التجارية، لكنها رياح الواقع المر اليوم التي تجعل مسؤولي الكنيسة في غاية السعادة عندما يجدون مشترياً مناسباً مفضلين ذلك

(١) ٩٣ مليون دولار.

على رؤية الكنيسة وقد صارت أثراً بعد عين^(١).

- ماذا تعني بذلك؟

- إن مكاتب العقارات التي تعرض الكنائس للبيع، لا تستطيع الحصول على أسعار جيدة نظراً لارتفاع أسعار الترميم، الأمر الذي تسبب في هدم كثير من الكنائس، ثم بيع أرضها كما حدث مؤخراً في مدينة "فريدنبك"، وقبلها هدمت كنيسة في مدينة كولونيا الغنية، مع أن عمر تلك الكنيسة التاريخية يتجاوز المئة سنة. وسيتم إبقاء جدار الكنيسة الشرقي ليس من باب الذكرى، بل من أجل استغلالها من أجل توفير بناء جدار من المجمع السكني الذي سيتم تشييده. وهناك مدونة ألمانية على الإنترنت تهتم بتحول الكنائس إلى مراقص وملاه وخمارات وصلات احتفالات.

- لماذا لا يشتريها المسلمون لتحويلها إلى مساجد؟

- إن الكنيسة تحرم بيع الكنائس المغلقة للمسلمين^(٢)، ولكن مع ذلك، فإن ست كنائس إلى الآن قد تحولت إلى مساجد أو مراكز إسلامية، وهذا التحول قد صار ظاهرة في ألمانيا باعتراف تلك المدونة.

- هل تعاني الكنائس الألمانية فقط من هذه الضائقة المالية؟

- لا أظن ذلك؛ فعوضاً عن الأزمة المالية الخائقة في مختلف أرجاء أوروبا وأمريكا، وانخفاض نسبة التبرعات، فقد تسببت التسويات القضائية لفضائح الاعتداءات الجنسية على الأطفال من قبل القساوسة في إجبار العديد من الكنائس في مختلف

(١) في إنجلترا عُدَّت ١٦٠٠ من كنائسها (١٠٪) لا نشاط لها وعرض بعضها للبيع، منها ما حول إلى مطاعم مثل مطعم "زيزي" للبيتزا حيث يوجد فرن البيتزا مكان مذبح الكنيسة القديم! وفي هولندا تحولت إحدى أعرق كنائسها إلى ملهى ليلي غنت فيه نجمة الإغراء "مادونا"! أما فرنسا والتشيك فلا يدخل كنائس الأولى إلا ٥٪ من المسيحيين والثانية ٣٪! في أيرلندا انخفضت نسبة الحضور في الكنائس إلى النصف خلال ٢٥ عاماً. مستخلص من مقال في النيوزويك بعنوان: وظائف أخرى للكنائس Remodeling the churches, by William Underhill عام ٢٠٠٧م.

(٢) في الدانمارك مثلاً يسمح للكنائس المغلقة أن تتحول إلى أي نشاط (وإن كان ملهى ليلياً) شرط ألا تتحول إلى مساجد!

أرجاء أوروبا وأمريكا على بيع ممتلكاتها^(١). وفي الولايات المتحدة فقط، وصل عدد القسس الذين ارتكبوا جرائم جنسية (أي الذين اكتشف أمرهم، ووصل إلى القضاء) إلى ١٦٠٨ قسيسين^(٢). واضطرت الكنيسة عام ٢٠٠٨ إلى دفع تعويضات بقيمة ٤٣٦ مليون دولار لضحايا الانتهاكات الجنسية. وقد تناقلت الصحف الألمانية مؤخراً خبر كنيسة بوسطن، التي تعد رابع أكبر أسقفية في الولايات المتحدة، بعد أن أجبرت على

(١) جاء على لسان رئيس أساقفة الكنيسة الكاثوليكية أن "المسيحية لم تعد مصدرًا من مصادر التوجيه الأخلاقي في حياة الناس" وذلك على موقع BBC ARABIC NEWS بتاريخ ٦/٩/٢٠٠١م تحت عنوان: "كنائس بريطانيا تشكو من العزوف". وهذا التصريح الذي يكتسب أهمية كبيرة لصدوره عن المرجعية الدينية للكاثوليك البريطانيين التي عزت ذلك إلى "عدة أسباب؛ أبرزها الفضائح الجنسية للقسيسين، ولجوء الناس إلى وسائل للسعادة الآتية عبر الخمور والمخدرات والإباحية. وفي رسالة اعتذار البابا بندكت السادس عشر (التي سيأتي ذكرها بعد قليل) في ٢٠/٣/٢٠١٠م صرح قائلاً: "إن الفضائح الجنسية من جانب رجال الدين زعزعت إيمان الناس وأبعدتهم عن الكنيسة وحجبت الضوء عن الإنجيل أكثر مما فعلته قرون من الاضطهاد الذي تعرضت له المسيحية في أول عهدها".

(٢) لمعرفة التفاصيل يمكن الرجوع إلى مواقع الدفاع عن ضحايا الاعتداءات الجنسية لرجال الكنيسة مثل:

<http://www.snapnetwork.org> أو

<http://www.thelinkup.org> أو

<http://www.survivorsfirst.org>

والكثير غيرها، وأحدثها هو دليل الـ"ياهو" لأخبار وتقارير فضائح القساوسة الجنسية، وهذه هي طريقة الوصول إليه:

Directory > Society and Culture > Crime > Types of Crime > Sex Crimes >

Sexual Abuse in the Catholic Church.

كما أنتجت البي بي سي فيلماً وثائقياً عن فضائح الفاتيكان وقساوسته واغتصاب الأطفال، يمكن مشاهدته على الرابط التالي:

<http://news.bbc.co.uk/1/hi/programme...ma/5389684.stm>.

وهناك فيلم وثائقي آخر عن تحرش القساوسة بالأطفال حول العالم، حصل على جائزة "أفضل فيلم وثائقي" في مهرجان لوس أنجلوس للسنة ٢٠٠٦م، وهو على هذا الرابط:

<http://www.mcgilltribune.com/media/s...illtribune.com>.

حتى الكنيسة الأرثوذكسية لم تسلم من ذلك، فقد ذكرت النيوزويك (عدد ٢٧/٥/٢٠٠٨) في مقال بعنوان: إغلاق باب الكنيسة، أن فضائح الجنس والمخدرات والتدخل في القضاء من الكنيسة اليونانية أطلقت دعوات إعادة النظر في مكانة الدين في الحكومة.

بيع أملاكها بمبلغ خمسة وستين مليون دولار، ستدفع كلها فوراً لتسويات مرتبطة بالفضيحة التي تفجرت منذ العام ٢٠٠٢^(١)، كما نقلت مركزها الإداري من حي "بريفتون" في بوسطن بالطرف الغربي للمدينة إلى ضاحية "برينتري"، حيث اضطرت لاستئجار مكتب لأكثر من مئتي عضو في سلك الكهنوت سيحشرون فيه كسمك السردين بعد بحبوحه العيش والبخذ الذي كانوا يتمتعون به في السابق. بالإضافة إلى إغلاقها لأكثر من ٦٠ كنيسة في ولاية ماساتشوستس من أجل توفير بقية الأموال لضحايا الاعتداءات الجنسية على الأطفال من قبل قساوستها. ومع أن بابا الفاتيكان بندكت السادس عشر حاول منذ البداية التستر على تلك الفضائح^(٢) إلا أن وسائل الإعلام كان لها الكلمة الفصل. لذا سرعان ما صب جل اهتمامه على التحذير من خطر الإسلام للفت انتباه مرتادي الكنيسة بعيداً عن فضائح القساوسة^(٣) من ناحية،

(١) تواجه أبرشية بوسطن فاتورة قيمتها ٩٣ مليون دولار لتسوية قضايا أقامها نحو ألف شخص من ضحايا الاعتداءات الجنسية على الأطفال.

(٢) مثال على ذلك ما تناقلته الصحف عن تستره على القس الأمريكي "لورانس ميرفي" بعد ثبوت اعتدائه جنسياً على ما يصل إلى ٢٠٠ طفل من الصبية الصم الذين كانوا تحت رعاية الكنيسة في أبرشية ميلووكي. وذلك بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٧٤ أيام كان البابا رئيساً لمجمع عقيدة الإيمان في الفاتيكان. وكانت عدة صحف قد اتهمت بندكت السادس عشر بالتستر على قس اعتدى على أطفال قُصّر سنة ١٩٨٠م، ووفق الربي بي سي: "لا يزال ذلك الوحش الكاسر يمارس الدجل الكنسي بولاية بافاريا، في ثيابه البيضاء وصلبيه المتدلي على صدره والذي أصبح رمزاً للدعارة". كما ثبت تورط موظف كبير وعضو أركسترا الفاتيكان في إدارة شبكة دعارة. وقد تعالت الأصوات المطالبة بالتحقيق مع البابا شخصياً بشأن تستره على مثل تلك الحوادث، إلا أن وكالة "آكي" الإيطالية قد نقلت عن صحيفة "لاريوبليكا" أن الفاتيكان "سيلجأ إلى الحصانة الدبلوماسية على اعتبار أن البابا بندكت هو رئيس دولة !!!"

(٣) اعترف أسقف رغنيسبورغ (جنوبي ألمانيا)، بأن تجاوزات جنسية قد حصلت في جوفته الذائعة الصيت والمؤلفة من الصبيان، عندما كان شقيق البابا بندكت السادس عشر قائدها، كما جاء في "رسالة إلى الأهل" نشر نصها على موقعه في شبكة الإنترنت. وتأتي هذه القضية الجديدة في وقت كلف فيه المؤتمر الأسقفي الألماني أواخر شباط/فبراير، أسقف تريف ستيفان أكرمان؛ بكشف ملابس هذه الفضيحة التي تعصف بالكنيسة الكاثوليكية الألمانية، وأدت حتى الآن إلى استقالة عدد من المسؤولين الكنسيين. وكان شقيق البابا "يورغ راتسينغر" (٨٦ عاماً)، من ١٩٦٤ حتى ١٩٩٣ رئيساً للجوقة التي تتمتع بسمعة دولية وتأسست عام ٩٧٥.

وللحد من اعتناقهم للإسلام من ناحية أخرى، ولعل هذا ما ظهر واضحاً في المقابلة التي نشرتها أيضاً صحيفة "لاريببليكا" مع بطيريك البندقية الكاردينال "أنجلو سكولا" الذي قال بكل صراحة وهو يعلق على الفضائح الجنسية: "إن الحرب على الإسلام تنصدر أعمال أجندة البابا" مؤكداً أن هذا الموضوع يعد بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية وأوروبا أهم قضية في القرن الحادي والعشرين^(١).

في تلك الليلة حدث أبراهام أحمد بأمر شهود يهوه، وأراه ترجمة العالم الجديد

(١) لاحقاً أدرك الفاتيكان خطر تكتمه على تلك الفضائح المتكشفة باستمرار، وعقم تستره على فاعليها مع وجود ذلك الكم الهائل من الحرية في صحافة الغرب. ففي ٢٠ آذار/ مارس من سنة ٢٠١٠ فاجأ البابا بندكت السادس عشر العالم بتقديم اعتذار علني صريح إلى ضحايا عقود من الاستغلال الجنسي والاعتداءات من جانب قساوسة ورجال دين كاثوليك في أيرلندا. ووجه انتقادات حادة للكنيسة الأيرلندية التي تكتمت على تلك القضايا لسنوات، قائلاً: "لقد شعرت بانزعاج شديد جراء الأنباء التي أشارت إلى انتهاكات بحق أطفال وقصر من قبل أعضاء في الكنيسة بأيرلندا خاصة رهباناً وكهنة، لقد ختمت الأمانة والثقة التي وضعها الأطفال بكم، وعليكم مواجهة آثار ذلك أمام الله وأمام القضاء". ولكن رسالة البابا اعتبرت مخيبة لآمال الضحايا لأنها حسب تعبير "مايف لويس" (المديرة التنفيذية لجماعة "وان إن فور" لضحايا التحرش): "لم تتناول مخاوف الضحايا بالشكل الكافي"، و"ركزت كثيراً على أساقفة أيرلنديين أقل شأنًا دون أن تقر بمسؤولية الفاتيكان". كما اعتبر الاعتذار ناقصاً لكونه قد تجاهل الجرائم الجنسية الكنسية المتفشية في بقية الدول مثل ألمانيا التي جاء منها البابا (في ٨ شباط/ فبراير ٢٠١٠، نشرت مجلة "دير شبيجيل" الألمانية تقريراً مثيراً تناول الاعتداءات الجنسية في المدارس والكليات اليسوعية في ألمانيا، مؤكداً انتشارها في أربع وعشرين أبرشية من أصل سبع وعشرين) والنمسا وهولندا وسويسرا والولايات المتحدة، والفاتيكان ذاته. فقد كشفت قناة "راي ٢٤" التلفزيونية الإيطالية مؤخراً أن الفاتيكان يواجه أزمة داخلية منذ سنوات على خلفية تورط عدد من رجال الكنيسة في جرائم اغتصاب لعشرات الأطفال والقصر، مشيرة إلى أن هناك تحقيقات علنية وسرية بدأت بالفعل منذ نحو عامين ضد المتورطين في تلك الفضائح، وأبرزهم القس جاميلي، المقرب من بابا الفاتيكان والمعروف عنه نشاطاته التبشيرية، حيث يشرف على نحو ٢٦٧ جمعية تبشيرية في العالم. وفي السياق ذاته، ذكرت صحيفة "لاريببليكا" الإيطالية أن الاعتداءات الجنسية التي تورط فيها نحو ٤ آلاف كاهن وقسيس وكردينال لم تعد تقتصر على الأطفال والقصر من النساء فقط، بل شملت أيضاً الرهبان. حيث قام بعض القساوسة والأساقفة في الكنائس الكاثوليكية بالاعتداء الجنسي على الرهبان و اغتصابهن وإجبارهن بعد ذلك على الإحساس لمنع الفضيحة، وشمل ذلك ٢٣ دولة؛ منها: الولايات المتحدة، البرازيل، الفلبين، الهند، إيطاليا، بالإضافة إلى الفاتيكان نفسه.

للكتاب المقدس، ومجالاتهم المختلفة التي أهدوها له، ثم استأذنه بعدم السهر معه هذا اليوم لأنه يريد إتمام قراءتها. وعندما أوى إلى غرفته، وضع ترجمة القرآن بين دفتي إحدى مجلات شهود يهوه زيادة في الحيلة، وتحسباً من احتمال دخول أحمد المفاجئ، ثم أخذ يقرأها بروية.

كان يتوقع أن يجد القرآن الذي كتب منذ أكثر من أربعة عشر قرناً كتاباً بدائياً يغلب عليه الطابع الصحراوي ويتحدث عن القبائل وما إلى ذلك، ولكنه ذهل عندما وجد فيه معلومات كثيرة في المجالات المختلفة، ولا توجد في أي كتاب آخر. كما كان يتوقع أن يجد فيه ذكراً لبعض الأحداث العصبية التي مر بها النبي، مثل وفاة زوجته^(١) في الوقت الذي كان في أشد الحاجة إليها، ومثل وفاة أغلب أطفاله في حياته^(٢)، ولكنه لم يجد شيئاً من ذلك. وحراراً عندما وجد أن القرآن قد ذكر بني إسرائيل وأنبياءهم في أغلب سورته، وفي المقابل، لم يتحدث عن ملوك العرب وحكمائهم وأمجادهم. وحراراً أكثر عندما وجد سورة كاملة تسمى سورة مريم، وفيها تشریف لها، لا يوجد له مثيل في كتب المسيحيين أنفسهم وأناجيلهم. وفي المقابل لم يجد سورة واحدة باسم زوجة النبي الأثرية^(٣)، ولا باسم ابنته المقربة^(٤)! وازدادت حيرته أكثر عندما لاحظ التكرار الكبير لاسم موسى في القرآن^(٥)، وأن اسم عيسى تكرر أكثر من اسم محمد نفسه^(٦).

وأخذ يقرأ القرآن بتمعن أكثر، عله يجد عليه مأخذاً، فاستوقفته آية عجيبة

(١) خديجة رضي الله عنها.

(٢) القاسم وعبد الله وإبراهيم ورقية وأم كلثوم وزينب رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) يقصد عائشة رضي الله عنها.

(٤) يقصد فاطمة رضي الله عنها.

(٥) ١٣٦ مرة.

(٦) عليهما الصلاة والسلام، وقد ورد اسم عيسى خمساً وعشرين مرة في حين ورد اسم الرسول الأعظم

أربع مرات فقط.

تقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. تأمل أبراهام في تلك الآية طويلاً، فلا يوجد أي كاتب في العالم يكتب كتاباً ثم يقول: هذا الكتاب خال من الأخطاء، علاوة على أن يتحداهم لإيجاد خطأ ويعلن بثقة أنهم لن يجدوا!!! بل يتحدى المستقبل بأشياء لا يمكن أن يتبأ بها الإنسان وهي خاضعة للاختبار السابق نفسه: أي مبدأ إيجاد الأخطاء حتى تتبين صحة الشيء المراد اختباره (falsification tests) ثم توقف عند قول القرآن: ﴿وَمَا تَنزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وما يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿[الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، و: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. فلو كان القرآن قد تنزلت به الشياطين على محمّد كما يقولون، فهل من المعقول أن تجعل فيه عبارات مثل: ﴿وَمَا تَنزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾! بل أغرب من ذلك تطلب منه ومن بقية المسلمين أن يتعوذوا بالله منها قبل أن يقرأ هذا الكتاب، وتصف نفسها بأنها ملعونة!

كما أدهشه أيضاً أسلوب القرآن في سرد الأحداث الغيبية؛ فهو يسرد الحدث ثم يعقب عليه قائلاً: لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُهُ مِنْ قَبْلُ^(١)، ولا يوجد سفر في الكتاب المقدس يتكلم بهذا الأسلوب. فعندما يسرد قصص القدامى يقول الكتاب المقدس: الملكُ فلان عاش هنا، والقائد فلان خاض المعركة الفلانية هناك، وفلان كان له عدد كذا من الأبناء، أسماؤهم فلان وفلان، إلخ، ويخبرك إذا كنت تريد المزيد من المعلومات يمكنك أن تقرأ الكتاب الفلاني أو الكتاب الفلاني لأن هذه المعلومات أتت منه. أما القرآن

(١) من أمثلة ذلك قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقوله في قصة النبي نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]. وقوله تعالى في قصة النبي يوسف عليه السلام: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

فيسرد المعلومة، ثم يقول لك بثقة: "إنها معلومة جديدة" بل يطلب منك أن تتأكد من صحتها بنفسك إن كنت في شك من ذلك. وقد كان قوم محمد يسمعون هذا التحدي وقت نزوله، ولم يحدث قط أن قالوا إنهم يعرفون هذه المعلومات أو أنهم يعرفون مصدرها^(١).

كان من الممكن أن يؤدي كل ما حصل معه في ذلك اليوم الحافل إلى اتجاهه للتفكير الجدي بكون الإسلام قد يكون فعلاً هو الحقيقة التي يبحث عنها، إلا أن الشيطان ظل له بالمرصاد، يوسوس له ويشككه ويصرف انتباهه عن الحق بوسائل شتى. وحتى عندما عقد مقارنة بين المتشابهات من الكتاب المقدس والقرآن، ووجد بوناً شاسعاً في كفة القرآن. أرجع الشيطان ذلك إلى عبقرية محمد التي لم تقف عند حد نقل بعض نصوص الكتاب وقصصه، بل ابتدع لها تكملات منطقية، أضفت عليها بعداً أخلاقياً يكاد يخيل للقارئ أنه هو الأصل، وأن ما ورد في التوراة وبقية الكتب المقدسة هو النسخة المشوهة عنها لاحقاً، مع أن القرآن جاء بعد التوراة بنحو ثلاثة آلاف عام^(٢).

وبينما كان أبراهام يتأمل في ذلك، سمع صوت منبه، أتبعه صوت ديبب أحمد وهو يتوضأ ليصلي الفجر. فأخذ الشيطان يشككه بالوحدانية التي أعجب بها في القرآن قبل قليل، متسائلاً عن مغزى الصلاة باتجاه صندوق أسود فارغ في قلب الصحراء، ثم صور له أنه قد صار مسلماً يصارع سلطان النوم ليستيقظ في آخر الليل، ويفادر فراشه الدافئ في مثل هذا الصقيع، كي يغتسل وهو يرتجف من البرد،

(١) جاء كل هذا على لسان مبشر كندي كبير اسمه "د. غاري ميللر" وهو يصف النتيجة التي توصل إليها بعدما قرأ القرآن الكريم، عَلمَهُ يَجِدُ فِيهِ بَعْضَ الْأَخْطَاءِ (التي تُعزِّزُ موقفه عند دَعْوَتِهِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ)، ولكن عوضاً عنها وجد الحق الذي هداه إلى الإسلام ولله الحمد والمنة.

(٢) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

لا لشيء إلا ليقوم ببعض الحركات الوثنية المنكرة، والخالية من أي معنى إلا إهانة النفس. فالانحناء كالبهائم إهانة لإنسانيته، خاصة إن وصل لدرجة إلصاق الوجه في الأرض وتعفيره بالتراب^(١). ظل أبراهام يستعيد حجج الشيطان واعتراضاته في قلبه دون وعي وهو يندس في فراشه الدافئ مستسلماً لنوم عميق.

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

◀ للذي ببكة

- استيقظ أبراهام متأخراً، وعندما خرج من غرفته كان أحمد قد انتهى لتوه من صلاة الظهر، فحياه قائلاً:
- عمت صباحاً.
 - بل عمت ظهراً، كنت سأوقظك الآن. فيبدو أنك قد نسيت أنه يجب أن تسافر أولاً إلى مدينة دوسلدورف، حيث يوجد المطار الذي ستسافر منه إلى الولايات المتحدة.
 - لم أنس ذلك، ولكنني أويت البارحة إلى الفراش متأخراً.
 - لقد لاحظت ذلك عندما قمت لصلاة الفجر. فقد كانت غرفتك ما تزال مضاءة وقتها.
 - صمت قليلاً، ثم أردف قائلاً:
 - يبدو أنك قد استمتعت كثيراً بقراءة ترجمة العالم الجديد للكتاب المقدس، حتى إنك نسيت أنك ستسافر اليوم.
 - ليس الموضوع موضوع استمتاع، ولكنه محاولة لفهم تفكير أتباع دين معين عن طريق قراءة كتابهم المقدس... بالمناسبة لقد كان البرد قارساً ليلة أمس، فكيف تحملت الاغتسال والصلاة في مثل ذلك الصقيع.
 - إن كل المصاعب تهون في سبيل عبادة الواحد القهار، والصلاة هي عماد دينه، وهي مفروضة على اليهود والمسيحيين أيضاً.
 - ولكن ليس بهذه الحركات التي تؤديها.
 - إن حركات الصلاة منتظمة تفيد الجسم والروح معاً.

فسأله باسمًا:

- وما شأن الجسم هنا؟! ألا تكفيك ممارسة الرياضة الروحية حتى تضيف إليها رياضة جسدية! ثم هل تعتقد حقاً أن الله ينتظر منك أن تظهر له إيمانك بغسل أعضائك وتكرار حركات آلية؟! ألا يكون من الأفضل أن تنظر إلى داخلك وتصلي إلى ربك بقلبك وأنت ساكن؟

- بأي وسيلة أخرى تعتقد أننا يمكن أن نعبد الله؟ ألم يخلق الروح والجسد معاً؟ ولما كان قد خلقنا جسداً وروحاً، ألا يجب أن نصلي له بالجسد والروح؟ فوجئ أبراهام بذلك الجواب المفحم، وغير المتوقع، فلاذ بالصمت. ومضى أحمد يشرح له المعنى من حركات الصلاة والوضوء. ثم أجرى مقارنة بينهم وبين ما روي عن محافظة الأولين من بني إسرائيل على نوع من الغسل قبل الصلاة. وأن الصلاة ذاتها كانت تتضمن الركوع والسجود في تلك الفترة، قبل أن تعطل هذه الفرائض بمرور الزمن^(١).

أطرق أبراهام ساهماً بتلك المقارنة، فقد مر عليه شيء كهذا فعلاً في أثناء دراسته التلمودية، ثم ما لبث أن قال مكابراً:

- ربما كانت تلك بعض العادات في ذلك الزمان، ولكن لم تكن العبرة بحركاتهم أو اغتسالهم، بل باتجاههم إلى هيكل أورشليم.

- لقد ورد في إنجيل يوحنا ٤: ١٩- ٢١: "قالت له المرأة (السامرية): يا سيد أرى أنك نبي. أباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون أن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه. قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

الجبل ولا في اورشليم تسجدون للأب"^(١).

- أنا لست مسيحياً لتكلمني بالإنجيل.

- مع أن قبلة بني إسرائيل وحجهم كان باتجاه المسجد الأقصى، أو الهيكل كما تسمونه، إلا أنه لا يوجد أمر واحد في التوراة باستقبالهم لتلك القبلة. ولو قرأتها جيداً، وأنا واثق أنك فعلت ذلك، لوجدت أن حج الأنبياء منهم بالذات كان إلى قبلة أبيهم إبراهيم عليه السلام، أي إلى بيت الله الحرام في صحراء فاران^(٢). ولعلمك الخاص فإن الكعبة هي أول بيت بني لله على الأرض، ومن ثم كان قبلة حج جميع الأنبياء، حتى من قبل أن يعيد إبراهيم عليه السلام بناءها.

- ما الذي يجعلك تظن أن أنبياء إسرائيل كانوا يحجون إليها؟

- في زيور داوود مثلاً، حيث ورد في المزمور ٨٤ نشيد الحجاج: "٢ ما أحب مساكنك يا ربنا القدير (بيت الله الحرام) ٣ تذوب نفسي شوقاً إلى^(٣) ديار الرب..٧٠

(١) جاء في إنجيل برنابا أنه قال لها: "أيتها المرأة إنكم أنتم السامريون تسجدون لما لا تعرفون، أما نحن العبرانيون فنسجد لمن نعرف، الحق أقول لك أن الله روح وحق ويجب أن يسجد له بالروح والحق، لأن عهد الله إنما أخذ في اورشليم في هيكل سليمان لا في موضع آخر، ولكن صدقيني أنه يأتي وقت يعطي الله فيه رحمته في مدينة أخرى (مكة) ويمكن السجود له في كل مكان بالحق ويقبل الله الصلاة الحقيقية في كل مكان رحمته".

(٢) رغم إنكار بعض اللاهوتيين المعاصرين فإن الأدلة التاريخية الدامغة تؤكد أن فاران هي الحجاز، حيث بنى إسماعيل وأبوه الكعبة وتفجر زمزم تحت قدميه. وهو ما اعترف به عدد من المؤرخين كما نقل عنهم المؤرخ الهندي "عبد الحق فديراتي" في كتابه "محمد في الأسفار الدينية العالمية"، ومن هؤلاء المؤرخين المؤرخ جيروم واللاهوتي أوسابيوس فقالا بأن فاران هي مكة. وجاء في قاموس Strong's Hebrew Bible Dictionary أن فاران في صحراء العرب، حيث يقول: "Paran, a desert of Arabia" بل إن أسقف قورش كان يسمى أسقف فاران أو أسقف أرابيا (شبه الجزيرة العربية).

(٣) كلمة الحج حذفت من أغلب النسخ المتوافرة حالياً، ولكنها لا تزال موجودة في كثير من النسخ، وأهمها ترجمة الملك جيمس التي لم تحذف كلمة الحج "Pilgrimage" منها.

يعبرون في بكا، (وهذا الاسم ورد بالقرآن الكريم في سورة آل عمران: (٩٦^(١)). ينطلقون من جبل إلى جبل^(٢)... ١١٠٠٠ يوم واحد في ديارك خير لي من ألف^(٣). ونحن في الإسلام نؤمن أن ما من نبي إلا وحج إلى البيت الحرام، وما من قوم عذبهم الله إلا وهاجر نبيهم بمن آمن إلى مكة. وأن قبور أكثر من سبعين نبياً في منى، وأن بعضهم مدفون بجانب الكعبة، مثل نوح وصالح وشعيب عليهم السلام.

أطرق أبراهام ثانية، فقد تذكر كتاب "راينهارد دوزي" الذي ألفه سنة ١٨٦٤ بعنوان "الإسرائيليون (يقصد بني إسرائيل) في مكة"، كما تذكر أنه قد قرأ فعلاً في شروحات التوراة المختلفة ما يؤكد سفر بعض الأنبياء إلى برية فاران، وأن فاران في التوراة هي المكان الذي قاد إليه أبراهام جاريته هاجر وابنها إسماعيل^(٤) الذي لجأ إليه داوود مثلاً بعد وفاة النبي صموئيل (صموئيل الأول ٢٥:١). وأن سبط شمعون استوطنوا أرض الحجاز في زمنه^(٥)، وتذكر أيضاً أن التلمود بالذات يؤكد أن ثمانين ألفاً من فتيان اللاويين^(٦) رحلوا إلى شبه الجزيرة العربية زمن نبوخذ نصر^(٧)، والأهم أنه تذكر أن اسم "بكا" قد ورد فعلاً في مزامير داوود، وأنه فسر على أنه مكان ممتلئ

(١) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا عَنِتُّوا وَإِبْرَاهِيمَ مِمَّنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، ووادي بكا، أو بكة بالعربية، هو اسم قديم لمكة. ومع أن كلمة بكا لا تزال موجودة في كثير من النسخ، إلا أن بعض النسخ الحديثة، وبالذات العربية، حولت "وادي بكة" بقدره عجائبية إلى "وادي البكاء"!!!

(٢) ربما السعي بين الصفا والمروة. والله أعلم.

(٣) الصلاة في مسجد النبي * بألف صلاة في غيره من المساجد، كما أن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة. وقد وردت بذلك جملة من الأحاديث الصحيحة والحسنة.

(٤) سفر التكوين الإصحاح ٢١ الآيات ١٩ - ٢١. وقد جاء في معجم البلدان الجزء الثالث باب حرف الفاء: وفاران كلمة عبرانية معربة، وهي من أسماء مكة المكرمة.

(٥) تقريباً ١٠٠٠ ق.م بناء على الحسابات التوراتية.

(٦) سبط الكهنة والأنبياء.

(٧) ٦٥٥ - ٦٦٢ ق.م.

بالبركات، ﴿لَّذِي بِيكَةِ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] صدق الله العظيم)، مع أن المفسرين قالوا بأن موقعه غير معروف اليوم، وربما يكون مكاناً يمر به الحجاج^(١)، ولكنه استجمع شتات أفكاره وقال معانداً:

- ولكن لماذا استعمل القرآن في تلك السورة بالذات تسمية بكة بدلاً من تسمية مكة الشائعة عند العرب؟

- لأن هذه السورة، وكما تستنتج من اسمها (سورة آل عمران)، تتكلم على أنبياء أهل الكتاب، وجاءت تلك الآية في وسط الخطاب الإلهي لبني إسرائيل وطلبه جل جلاله منهم أن يأتوا بالتوراة فيتلوها إن كانوا صادقين. ثم ينذر الله جل جلاله بوعيد منه لكل من يحاول أن يفترى عليه الكذب، ويصفهم بالظالمين، ليدل بذلك على محاولاتهم الدائمة لمثل هذه الأعمال المشينة. ثم بعد ذلك يذكر الله عز وجل الآية المحورية رقم ٩٦ التي يذكر فيها تسمية مكة القديمة كما وردت في الكتاب باللسان العبري. كما يوجد معلومة لطيفة نشرتها وكالة ناسا الأمريكية على الإنترنت لمدة ٢١ يوماً، قبل أن يتقرر حذفها.

- عن مكة؟

- أجل، فقد قامت الناسا بتصوير الأرض فوجدت شعاعاً لا ينتهي ينبعث من الأرض، وعند تتبعه في الأرض وجد أنه آت من مكة، وبعد التعمق في التتبع وجد أنه ينبعث من بيت الله الحرام (الكعبة)، أما نهايته فقد تتبعوها حتى المريخ دون أن يصلوا إلى نهايتها. وقد قال الدكتور "عبد الباسط سيد" عضو "هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة" بمكة: إن هذا الشعاع يربط الكعبة بالبيت المعمور في السماء.

- عجيب.

(١) ورد ذلك في تاموس الكتاب المقدس.

- كما ثبت علمياً أن قواعد الكعبة تأخذ شكل "مختلف الأضلاع" وهو ما يعني أنه لا يوجد ضلع من أضلاع الكعبة الأصلية يساوي أياً من الأضلاع الأخرى، كما أنه لا يوجد ضلع يوازي الضلع المقابل، وهي من الأشكال نادرة الاستعمال في المساقط الأفقية بصفة عامة، مقارنة بالأشكال الهندسية الأخرى كالمربع أو المستطيل أو شبه المنحرف وغيرها. والتحليل الهندسي للمقاسات الأصلية للكعبة المشرفة يوضح دقة نسبتها الهندسية بصفة عامة، ومن جانب آخر يوضح تميزاً في اختيار النسبة الهندسية الأصلية ما بين الحائط الجنوبي الغربي والحائط الشمالي الشرقي^(١)، إذ إن النسبة الحقيقية بينهما هي Φ فاي^(٢) المسماة بـ "النسبة الذهبية أو المقدسة"^(٣) Golden(Divine) Proporation وضع وتوجيه الكعبة المشرفة يمكن الاهتداء إليها في الصلاة، هو وضع مقصود يتماشى مع وظيفتها الأساسية كقبة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. وقد أدى توجيه الكعبة بهذا الأسلوب إلى أن ترتبط ببعض الظواهر الفلكية المعينة، فالشمس في فصل الصيف تشرق من أمام الحائط الشمالي الشرقي الذي به باب الكعبة، أما شتاء فتغرب الشمس من أمام الحائط الشمالي

(١) هما الحائطان المتقيان عند ركن الحجر الأسود.

(٢) تتحقق هذه النسبة إذا كان هناك قيمتان عدديتان وكانت النسبة بين مجموعهما والأكثر منهما تساوي

النسبة بين الأكبر والأصغر بينهما. وهي عبارة عن ثابت رياضي معروف تبلغ قيمته ١,٦١٨٠٣٣٩٨٨٧.

وتقريباً يشار إليها بالنسبة فاي $\Phi = 1,618$.

(٣) يذكر أن نسبة بُعد مدينة مكة المكرمة عن نقطة القطب الشمالي وعن نقطة القطب الجنوبي هي ١,٦١٨

تماماً؛ أي النسبة الذهبية. أما نسبة بُعد مدينة مكة المكرمة عن نقطة القطب الجنوبي فهي نسبة البُعد بين

القطبين نفسها. وحسب خارطة الطول والعرض التي يحدد البشر من خلالها الأماكن، فإن نقطة النسبة

الذهبية توجد في مدينة مكة. كما أن نسبة البُعد من مكة المكرمة نحو البُعد الشرقي والبُعد الغربي لحدود

خط التحول اليومي، هي ١,٦١٨. وبشكل يبعث على الاندهاش نرى أن الرقم ١,٦١٨ أي النسبة

الذهبية هي نفس بُعد مكة من الجهة الغربية لخط التحول اليومي مع البُعد المحيطي لخط عرض الكرة

الأرضية. ورغم الانحرافات الصغيرة بعدة كيلومترات في كل أنظمة الخرائط، لا تخرج نقطة النسبة

الذهبية خارج مدينة مكة إطلاقاً، وتظل داخل المنطقة المقدسة التي تضم الكعبة المشرفة.

الغربي مابين الركنين اليماني والشامي. أما الاتجاه المتعامد على الضلع الواصل بين ركن الحجر الأسود والركن اليماني فيأخذ اتجاه شروق الشمس في فصل الشتاء، وفي الوقت نفسه يأخذ اتجاه النجم "سهيل"^(١) عند شروقه في الجهة الشرقية الجنوبية، أما الضلع الواقع بين الركن العراقي والركن الشامي فيأخذ اتجاه ثلاثة نجوم في يد المحرث في "مجموعة الدب الأكبر"^(٢). وكان الفلكيون المسلمون في العصور الوسطى يحددون اتجاه القبلة بواسطة المعلومات الجغرافية واستخدام معادلات دقيقة لحل المثلثات. وعلى سبيل المثال فقد استطاع "ابن حبيب" فيلسوف قرطبة بالأندلس في القرن التاسع أن يحدد القبلة عن طريق اتجاه شروق النجم ألفاسكو^(٣) لأن هذا النجم يشرق في اتجاه ركن الحجر الأسود بالكمبة المشرفة.

- كما فهمت من حديثك، فإن المسلمين قد استطاعوا تحديد القبلة في البلاد التي فتحوها بعد تطور علم الفلك، ولكن ماذا عن عصورهم الأولى.

- إن المسلمين الأوائل قد استفادوا أيضاً من ارتباط بعض الظواهر الفلكية السابقة بالكمبة المشرفة من أجل تحديد اتجاه القبلة ولو بطريقة تقريبية. فقد أورد الباحثان الغريبان "ديفيد كنج" و"هاوكنجز" في بحثهما المنشور عام ١٩٨٢م في مجلة "تاريخ الفلك": "أن المسلمين الأوائل من ذوي الأصول المكية كانوا يعرفون حين يقفون أمام حوائط الكمبة أو أركانها، أنهم سوف يرون بعض الظواهر الفلكية؛ كشروق أو غروب الشمس، أو بعض نجوم السماء الثابتة كسهيل اليمن، ومجموعة نجوم بنات نعش". ودللاً على ذلك بأن مسجد عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط بمصر تتجه قبلته إلى حيث موضع شروق الشمس شتاء، أما مساجد العراق الأولى فتتجه قبلتها

(١) سهيل اليمن . وهذا النجم يعتبر ألمع نجوم السماء بعد نجم "الشعرى اليمانية" .

(٢) كان يسميها العرب "نجوم بنات نعش" .

(٣) ألمع نجم في مجموعة العقرب .

حيث موضع غروب الشمس شتاء، مما يعني أن المسلمين الأوائل، وخاصة من ذوي الأصول المكية كانوا يستعينون بالظواهر الفلكية المرتبطة بالكعبة المشرفة، للاستدلال على اتجاه القبلة في العقود الإسلامية الأولى قبل تقدم علم المساحة. ومن هذه الطرائق ملاحظة تعامد الشمس على مكة المكرمة، مرتين في العام وقت منتصف النهار تماماً. فقد أدى وقوع مكة المكرمة في المنطقة المدارية الاستوائية، أي في المنطقة التي تقع بين مداري السرطان والجدي، وتحديداً عند خط عرض ٢١ درجة و٢٥ دقيقة شمالاً، وخط طول ٣٩.٥ درجة شرق غرينتش تقريباً، إلى ارتباط مبانيها ومن ثم الكعبة المشرفة بظاهرة فلكية مهمة، وهي تعامد الشمس عليها مرتين كل عام وقت صلاة الظهر (الزوال)، وذلك يومي ٢٩ أيار/مايو و١٦ تموز/يوليو. ويمكن الاستفادة من هذه الظاهرة الطبيعية لتحديد أو تصحيح اتجاه القبلة من كل البلاد والأماكن بنصف الكرة الأرضية المضاء بالشمس في هذين اليومين، وتحديداً لحظة الزوال (الظهر الشرعي) في الساعة ١٢ و١٨ دقيقة حسب التوقيت المحلي لمدينة مكة المكرمة يوم ٢٩ أيار/مايو، وكذلك في الساعة ١٢ و٢٧ دقيقة في يوم ١٦ تموز/يوليو من كل عام، حيث تكون الشمس عمودية تماماً على مكة المكرمة وينعدم ظل الشاخص فيها آنذاك. وفي هذين التوقيتين بالضبط يمكن لكل بلد مقابلة التوقيت المحلي لها معهما، وعن طريق مراقبة ظل شاخص موضوع عمودياً على الأرض، فإن اتجاه القبلة يكون في الجهة العاكسة لظل ذلك الشاخص آنذاك، حيث يشير امتداد ظل الشاخص إلى موقع القبلة التي تتعامد عليها الشمس في هذين الوقتين كدليل ومرشد عليها. إن أسلوب تحديد اتجاه القبلة عن طريق الظلال، يعتبر أدق طريقة معروفة لتحديد اتجاه القبلة من أي مكان أو موقع بالكرة الأرضية، وهو ما يوضح أن اختيار موقع الكعبة المشرفة في مدينة مكة المكرمة، يتناسب تماماً مع وظيفتها كقبلة يتم التوجه إليها في الصلاة، لأن التوجه إلى القبلة يستلزم معرفة طرائق علمية دقيقة تساعد على التوجه

إليها من أي موقع أو مدينة بالكرة الأرضية. وحالياً يحاول بعض علماء الفلك الأثري بالغرب فهم الدلالات الفلكية للكعبة المشرفة وحل ألغازها.

- وهل هناك دلالات وألغاز أخرى؟

- أجل وهي كثيرة؛ فالطيور لا تحلق فوق الكعبة تحديداً، بل تطوف حولها. ونحن عندما نطوف بالبيت نشحن بالطاقة لأننا بعيدون عن تأثير القوى المغناطيسية، ومن ثم فإن المقيمين في مكة أطول عمراً وأكثر صحة من الباقين لأنهم يعيشون في منطقة تعادل قوى مغناطيسية. كما أن خط الطول الذي تقع عليه مكة هو خط الطول الوحيد الذي ليس به انحراف مغناطيسي، لذا يجب أن يكون هو خط الطول الأساسي بدلاً من غرينتش المائل بمقدار ثماني درجات، ومن ثم يجب أن يكون توقيت مكة هو التوقيت العالمي وليس توقيت غرينتش. فموقع مكة المكرمة الفريد من نوعه أدى إلى أن يطالب أحد الباحثين الغربيين، واسمه "أرنولد كيسرلنج" Arnold Keysrling، بأن يكون خط طول مكة المكرمة ٣٩ درجة و٤٩ دقيقة شرقاً هو خط الطول الأساسي، بدلاً من خط طول غرينتش بإنجلترا والذي تم فرضه على العالم سنة ١٨٨٢م، وقت كانت الإمبراطورية البريطانية هي أكبر قوة موجودة في العالم. وإن حركة الطواف تتوافق مع فطرة الكون والإنسان، وهو نفس اتجاه دوران الكواكب حول الشمس، والإلكترونات في الذرة! وأن تركيبة المدينة الجيولوجية، معجزة في حد ذاتها، وبالذات بئر زمزم الذي لم ينفذ إلى الآن منذ آلاف السنين. بالإضافة إلى بعض حقائق تكوينه العجيبة، التي جعلته يستحق أن يكون خير ماء على الأرض.

- وهل ورد ذكر الكعبة في الإنجيل؟

- ربما؛ ففي رؤيا يوحنا وصف لأورشليم الجديدة التي سينزلها الله من السماء، وبه الكثير من التفاصيل التي لا تدخل العقل والتي قد تكون من الإضافات المتأخرة، ولكنه يذكر من بين تلك التفاصيل أن الأمم ستمشي في نورها، ولا تغلق أبوابها طوال

اليوم، ولا يدخلها نجس، ولا الذين يعملون القبائح ويفترون الكذب (٢٤ : ٢١ - ٢٧)، وهذا يذكر بقوله تعالى: ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٧] ، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة: ٢٨] ونحوه، وتشير الرؤيا في الخاتمة إلى ماء زمزم حيث جاء في (٢٢ : ١٧): "ومن كان له الرغبة فليستق ماء الحياة مجاناً"^(١).

- الآن بدأت بالشطط. فالحديث هنا عن مدينة لا مبنئ واحد بعينه، كما أن بقية الأوصاف بعيدة جداً عن كعبتكم.

- لا أنكر هذا، وأنا لا أؤكد أن المقصود هنا هو الكعبة، بل قلت "ربما"، ولكن تأمل معي فقط. فقد جاء في الرؤيا أن تلك المدينة مكعبة: "يتساوى فيها الطول والعرض والعلو" (٢١ : ١٦)، وقد نفهم أن مدينة ما يتساوى طولها وعرضها ولكن كيف يمكن أن يتساوى "علوها" أيضاً مع الطول والعرض؟!!! إلا أن يكون المقصود هو مبنى فعلاً؟ ولا سيما أن الذي سينزل من السماء كما هو متعارف بينكم هو المسجد أو الهيكل حسب تعريفكم، وليس مدينة كاملة بكل مرافقها.

- أرجوك. فلنبتعد عن التخمين ما أمكن.

- كما تريد؛ فأنا أعترف أن هذه النقطة بالذات ينقصها البرهان الكامل.

- بل ينقص البرهان كثيراً مما قلته قبل ذلك أيضاً. فأنا لا أتصور أن أيأ من أنبياء بني إسرائيل قد يفكر في السفر لبرية فاران كي "يقبل" حجراً أسوداً كما تفعلون اليوم؛ فهذه وثنية واضحة لا أظنك، مهما اجتهدت، تستطيع الدفاع عنها إلا من باب التخمين المفتقد لأية مصداقية.

(١) جاء في تفسير حزقيال/ فكري ص ٤٦٣: "عند مدخل البيت مياه تخرج". تأمل، فإن زمزم تلقاء باب البيت الحرام. وقال في التفسير في وصف تلك المياه: "فيها شفاء"، وفي الحديث الصحيح في صفة ماء زمزم أنه: "شفاء سقم" (السلسلة الصحيحة).

- لقد قلت لي سابقاً إنك قبلت أرض الميعاد عندما وصلت إليها لأنها أرض أجدادك وموطنهم الأصلي. فهل كان ذلك وثنية؟
- كلا بالطبع، ولكن ما علاقة ذلك بتقبيل الحجر الأسود.
- إن الحجر الأسود من الجنة، والجنة موطن جدنا آدم، ويتشوق المؤمنون للعودة إليها، لذا فمن الطبيعي تقبيل الحجر الأسود شوقاً إلى الجنة التي يأمل الإنسان بالعودة إليها.
- معك كل الحق، لو كان الحجر الأسود من تربة الجنة فعلاً، ولكن هذا أمر لا يمكن إثباته أبداً، علاوة على أنه غير منطقي البتة.
- ربما ستغير رأيك لو رويت لك قصة، على غرابتها إلا أنها واقعية تماماً، وتستطيع التأكد منها بكل سهولة.
- تفضل.
- في منتصف القرن الثامن عشر قام العالم البريطاني "ريتشارد ديبرتون"، أحد علماء الجمعية البريطانية التابعة لجامعة كامبردج، برحلة إلى مصر ومنها إلى الحجاز متخفياً في زي مغربي، ومدعياً أنه مسلم بعد أن درس العربية لمدة ثماني سنوات في المغرب. فاندس بين الحجاج ومعه مشرط من ماس، واستطاع أن يحصل على قطعة من الحجر الأسود بحجم حبة الحمص. وقد ذهب بها إلى جدة، حيث احتفل به سفير بريطانيا في السعودية احتفال الأبطال، ثم أرسلها إلى معامل لندن الجيولوجية، وهناك ثبت أن الحجر الأسود لم يكن حجراً أرضياً كما توقعوا، بل هو من السماء^(١)، فسجل هذا في كتاب له بعنوان "الحج إلى مكة والمدينة" الذي صدر بالإنجليزية في لندن سنة ١٨٥٦م ثم أسلم لاحقاً. وتلك القطعة توجد حالياً في "متحف التاريخ

(١) آنذاك فسروا ذلك بأنه نيزك من نوع فريد.

الطبيعي" في لندن. وفيما بعد أجرت عليها "وكالة ناسا"^(١) أبحاثاً أكثر دقة لإثبات أنها من تربة مكة فعلاً، ولكن نتيجة الأبحاث كانت على غير ما يشتهون.

- دعني أضمن. لقد وجدوا هم أيضاً أنها من غير تربة الأرض أصلاً.

- أجل.

- ولكن هذا لا يعني أن الحجر الأسود من الجنة فقد يكون نيزكاً سقط من السماء، فلجأ الناس إلى تقديسه ونسج الأساطير من حوله.

- لو صبرت علي لكان خيراً لك، فبنية الحجر الأسود ليست خارج بنية مكونات الأرض فحسب، بل خارج مكونات المجموعة الشمسية بأسرها.

- حقاً!!!

- أجل، وليس هذا فحسب، فقد قال أحد صحابة الرسول ﷺ^(٢) عن الحجر الأسود: "والله أنني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك"، فقال صحابي جليل آخر عندما سمع ذلك^(٣): "والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن هذا الحجر ليشهد يوم القيامة على من قبله"، كما قال أحد أئمة المسلمين الكبار^(٤): "إن الحجر الأسود يسجل اسم من قبله أو استلمه أو أشار إليه".

- لم أفهم المغزى من ذلك.

- لقد عقد مؤتمر في الكابيتول بأمريكا، فخرج أحد العلماء الأمريكيين وقال أنهم حصلوا على جزء من الحجر الذي يقبله المسلمون واختبروه ك"أشياء موصلات".

(١) وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية.

(٢) عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(٤) الإمام الشافعي رحمه الله.

وقدم عالم آخر من وكالة ناسا شرحاً تفصيلاً حول القطعة التي حصلوا عليها قائلاً إنها أشباه موصلات مثل "الفيبر جلاس" الذي نضع منه خطوطاً للهاتف مع الفارق، فإذا كان خرطوم في حجم خرطوم المطافئ ينقل مليون خط هاتف، فإن هذه القطعة التي في حجم حبة الحمص من الحجر الأسود تزيد في طاقتها وكفاءتها أكثر من عشر مرات عن طاقة خرطوم الفيبر جلاس من حيث قدرتها على النقل والتوصيل، فهذا الحجر ليس له شبيهه على وجه الأرض حتى بين مادة "أشباه الموصلات" (Semiconductor)، وإن كان هو من مجموعتها. وأنت تعلم أن كل التقدم والنقلة الحضارية التي حدثت في العالم جاءت نتيجة اكتشاف أشباه الموصلات التي حولت الأجهزة الضخمة إلى لعب صغيرة. والذي اكتشف هذه المادة لم يخترعها أو يوجدها، وإنما اكتشفها وصنعها فقط. وهذا هو ما مكن اليابان من أن تقلب موازين الصناعة في العالم، فقد نجحت في تحويل الصمام الثنائي والثلاثي في أجهزة الراديو، والذي على هيئة مصباح (لمبة)، إلى بلورات صغيرة هي أشباه الموصلات. وهذه المادة لا تغرق ولا تسخن. ومن الطريف هنا أن أحد علمائنا (جلال السيوطي) قد ذكر أن المسلمين تأكدوا من أن الحجر الذي أعاده القرامطة، بعد أن سرقوه لأكثر من ٢١ سنة^(١)، هو

(١) وقعت حادثة القرامطة في المسجد الحرام سنة ٣١٧هـ، بقيادة ملك البحرين (اسم الإحساء سابقاً) "أبو طاهر القرمطي سليمان بن أبي سعيد" في تسع مئة من أصحابه، فدخلوا المسجد الحرام وأسرف هو وأصحابه في قتل الحجاج في الحرم، وردم بهم بئر زمزم أحياء، وفعل أفعالاً منكرة، ثم جاء إلى الحجر الأسود، فضربه بدبوس فكسره، ثم قلعه بعد صلاة العصر من يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، وانصرف إلى بلده "هجر"، وحمل معه الحجر، يريد أن يجعل الحج عنده، لكنه خاب وخسر كما خاب قبله أبرهة الأشرم. وقد قيل إنه هلك في نقل الحجر الأسود تحته أربعون رجلاً، فلما أُعيد كان على قعود ضعيف فسمن. وبقي موضع الحجر الأسود من الكعبة المعظمة خالياً، يضع الناس فيه أيديهم للتبرك، إلى حين رد إلى موضعه من الكعبة المشرفة، وذلك يوم الثلاثاء يوم النحر من سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة، وذلك بعد أن هلك أبو طاهر القرمطي سنة ٣٣٢هـ، فرده سنبر بن الحسن القرمطي. وقيل إنه قد حصل في بلادهم قحط وجذب لم يتنه إلا بإعادتهم الحجر. وكانت مدة كينونته عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام.

نفسه الحجر الأسود الحقيقي عن طريق اختبار بسيط بحديث ورد عن رسول الله ﷺ: "الحجر الأسود يمين الله في أرضه يأتي يوم القيامة له لسان يشهد لمن قبله بحق أو باطل لا يفرق في الماء ولا يحمى بالنار"^(١). فوضعه بحوض كبير من الماء فطفأ، ثم جعلوه بالنار فلم يسخن. تماماً كأشباه الموصلات.

- يا إلهي.

ثم لمعت عيناه كأنه تنبه لأمر غاب عن باله، فقال مشككاً:

- حتى وإن كان هناك شيء غير مفهوم بشأن ذلك الحجر الأسود، فإن العقدة ليست فيه، بل في المعبد الذي يحويه.

- ألا يكفيك حج أنبياء بني إسرائيل إليه؟

- زيارتهم لبرية فاران شيء، وادعاء حجهم لمعبد معين هناك شيء آخر تماماً. ولا تنس أن أخا إسحاق^(٢) ونسله كانوا يسكنون هناك، وربما كان ذهاب الأنبياء إلى هناك من باب زيارة الأقارب. فهات إثباتاً على أهمية قبلتكم من خارج بعض النصوص المبهمة في التوراة والتلمود، ومن خارج القرآن بالطبع، إن كنت تود أن تستمر بطرحك بأكاديمية علمية.

- ما ذكرته قبل قليل عن تصوير وكالة ناسا الأمريكية للكعبة الأرضية، والشعاع

(١) هذا حديث قد وضعه المحققون للأسف؛ فقد قال ابن الجوزي في "العلل المتناهية": "حديث لا يصح". وكذلك في "العلل لابن الجوزي" (٢ / ٥٧٥)، وانظر "تلخيص العلل" للذهبي (ص ١٩١)، وقال ابن العربي: "حديث باطل فلا يلتفت إليه"، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "روي عن النبي # بإسناد لا يثبت، وعلى هذا فلا حاجة للخوض في معناه". "مجموع الفتاوى" (٦ / ٣٩٧). ولكن عدم إثبات الحديث لا ينفي احتمال صحة نسبه، أو على الأقل نسبة بعض ما فيه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ولو صحت قصة السيوطي، فهي ولا ريب دليل (يقره العلم ومكتشفاته الحديثة) على صحة هذا الحديث، والله أعلم.

(٢) يقصد إسماعيل عليهما السلام.

الذي وجدته ينبعث من الكعبة إلى السماء، وليس له نهاية. وعن أن مكة هي "منطقة تعادل قوى مغناطيسية"، وأن الطيور لا تحلق فوقها، وأن الطواف بالبيت يشحن بالطاقة لأن المتطوف بعيد عن تأثير القوى المغناطيسية، وأن أهل مكة أطول عمراً وأكثر صحة من المعدل العام.

- هذا كله رائع، ولكنه ليس كافياً لاعتبارها قبلة للحج والصلاة.

- ما رأيك بحقيقة علمية أكاديمية تثبت ذلك فعلاً؟

- حقيقة علمية تثبت أن ذلك المعبد الصحراوي قبلة؟!!!

- سأشرحها لك بإيجاز ثم استنتج أنت ما يحلو لك.

- تفضل.

- استعد إذن للمفاجأة، ولكن قبل ذلك أود أن أذكرك بأن الإنسان يتعرض خلال

اليوم لكثير من الشحنات الإلكترونية (الكهربائية الساكنة) من الغلاف الجوي، وهي تتركز على الجهاز العصبي المركزي، وأي زيادة فيها تسبب تشويشاً في لغة الخلايا وتفسد عملها مما يصيب الإنسان بما يعرف بأمراض العصر؛ مثل الشعور بالصداع والتقلصات العضلية والتهابات العنق والتعب والإرهاق إلى جانب النسيان والشروود الذهني. ويتفاقم الأمر إذا زادت كمية هذه الموجات دون تفريفها، فتسبب أوراماً سرطانية ويمكنها تشويه الأجنة أحياناً. وقد زاد الأمر حالياً مع استخدام الهواتف النقالة واللاسلكي وأجهزة الكمبيوتر وغيرها من الأدوات العصرية التي لم يعد بمقدور الإنسان التخلي عنها. وفي إحدى التجارب الموثقة والمثبتة عالمياً، قام باحثون بوضع جهازي محمول يفصل بينهما ٣٠ سنتيمتراً، ووضعوا بيضة بينهما، وأجروا اتصالاً من أحد الجهازين للآخر، فكانت النتيجة سلق البيضة تماماً فيما بين ٣٠ و٤٠ دقيقة! ومن ثم يمكننا تخيل ما يحدث في مخنا، من التلفزيون والمصابيح

والأشعة الصادرة عن الأجهزة حولنا. بالإضافة إلى استخدامنا للملابس المصنوعة بنسبة كبيرة من مادة البولبيستر والألياف الصناعية، واحتكاك أجسامنا بها على مدار اليوم وفي أثناء النوم، بما في ذلك الوسائد والمرتبات والأغطية، بكل ما تحتويه من مواد صناعية مثل الفايبر، ونستيقظ ونحن محملون بشحنات كهرباء عالية.

- أجل أجل، أعرف كل هذا، وهناك نماذج موجودة بالأسواق للحماية من تلك الشحنات عبارة عن سوار يوضع على رصغ اليد. ولكن ما دخل ذلك بموضوعنا!!!

- ولكن الدراسات العلمية قد أثبتت أنه مميت، لأنه يسبب غطاء من أكاسيد النحاس والزرنيخ.

- ربما، ولكن يوجد أيضاً جهاز يساعد على ترطيب الجو المحيط بالأسطح لتخفيف الجفاف الذي يساعد على تكون الشحنات، كما أنه يوجد وسيلة رخيصة وسهلة وهي عبارة عن عبوات مزيلة للشحنات الساكنة تدعى antistatic spray. ولكن أعود وأكرر: ما شأن موضوعنا بكل هذا!!!

- على مهلك علي يا بن العم. لقد تبين من خلال الدراسات أن تفريغ تلك الشحنات الضارة يكون عن طريق التأريض أو ما يسمى grounding، ويتم بأفضل شكل وأكثره فعالية ومثالية، عندما يلامس الإنسان سطح الأرض (أكبر سطح سالب كهربائياً) بمنطقة الرأس (مركز تجمع الشحنات الكهربائية)، ولعدة مرات في اليوم، لأن ذلك بمنزلة توصيل متتابع للجسم بالأرض التي تبدد تلك الشحنات وتمتصها تماماً، وبهذا ينخفض الضغط الإلكترونيستاتيكي على المخ.

- أي كما تفعلون بالصلاة!

- تماماً.. ففي السجود تبدأ عملية التفريغ بوصول الجبهة بالأرض حيث تنتقل الشحنات الموجبة من جسم الإنسان إلى الأرض السالبة الشحنة، والسجود كما تعلم يكون على سبعة الأعضاء (الجبهة والأنف والكفان والركبتان والقدمان) ومن ثم هناك سهولة في عملية التفريغ. وكما ترى يا بن العم فإن الله سبحانه وتعالى لم يأمرنا بالسجود عبثاً. وعليه؛ فإن تعطيل اليهود للسجود الذي كان في فجر شريعة موسى عليه السلام، لم يكن تركاً لعادة شاعت في ذلك الزمان، بل تعطيل لشعيرة فرضها الواحد الأحد^(١).

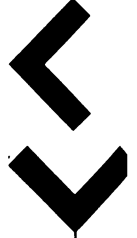
- يا إلهي.

- ليست هذه هي المفاجأة التي أثبتتها الدراسات.

(١) ليس هذا فقط، فالفوائد التي يجنيها الإنسان من السجود أكثر من أن تعد أو تحصى، ونكتفي هنا ببعض الأمثلة التي اكتشفت حديثاً: يؤدي السجود إلى خفض ضغط الدم ويقي الإنسان من الإصابة بالمرض الذي يسمى حالياً "القاتل الصامت" وهو "مرض ارتفاع ضغط الدم". كما تعتبر كثرة السجود التمرين اليومي المنتظم والمتكرر لمراكز التحكم ومنتجاتها الموجودة بالشريان الأورطي والشريان الباطني الأيمن ونظيره الأيسر، فيؤدي إلى زيادة كفاءتها في تنظيم الدورة. ويساعد السجود على نظافة الجيوب الأنفية بسحب إفرازاتها أولاً بأول، ومن ثم تقل فرصة التهاب هذه الجيوب. كما يصفى من السائل الزائد في الجيوب الفكية أولاً بأول. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجيوب الإسفينية والتصفوية والجبهية. ويزداد توارد الدم إلى المخ في أثناء السجود فيصّل ما يلزمه من مواد غذائية وأكسجين ويؤدي وظيفته على أحسن وجه. كما يعتبر السجود من أنسب الأوضاع لعلاج سقوط الرحم الخلقي لدى الإناث. وقد أكتشفت فوائد هذا الوضع مؤخراً ولهذا ينصح به أطباء النساء والتوليد في علاج بعض الأعراض. وقد أطلقوا عليه اسم وضعية "الركبتين والصدر". كما تساعد الصلاة على مرونة مفاصل الجسم خاصة في العمود الفقري وتحميها من الخشونة والتيبس، ورفع السبابة في التشهد يساعد على إعادة الدم الوريدي إلى القلب ومن ثم ينشط الدورة الدموية. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: "عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَمَقْرُبَةٌ لَكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَكْفَرَةٌ لِلْسَيِّئَاتِ، وَمَنْهَةٌ عَنِ الْإِثْمِ، وَمَطْرَدَةٌ الدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ". (المعجم الكبير للطبراني).

- وماذا أيضاً؟
- إنه كلما توجه الإنسان بجبهته نحو مركز الأرض، زاد تفريغ الشحنات الموجبة.
- وماذا في ذلك؟؟؟
- لقد ثبت علمياً، وقبل ذلك بكثير، أن الكعبة تقع في مركز الأرض تماماً، ومركز دورانها أيضاً.

العلو الكبير



وتشمل:

تسامح ووقاحة

رجال خلف الستار

أصدقاء، ولكن

كنائس أمريكا

من الليبرالية إلى الأصولية

الأزمة المالية

غروب شمس الولايات المتحدة

حقده ما يبرره

من يجروا على الاعتراف؟

بين الحقيقة والوهم

مبشرة مورمونية

العلو الكبير



◀ تسامح ووقاحة

- أبراهام أليس كذلك.

قال "أفيغدور سراتوي" صاحب صالة السيارات التي دخلها أبراهام. فأجابه
باسماً:

- أجل يا خالي.

- لقد حزرت ذلك من كثرة من اتصلوا بي، مخبرين عن سؤالك عني.

ثم فتح ذراعيه واسعاً وهو يقول:

- إلي يا بن أختي.

وبعد تبادل العناق والقبل، وفيما كان أفيغدور يستفسر بلهفة عن أخبار إخوته

وبقية الأهل في روسيا، لاحظ أن أحد موظفيه يرمقهم بفضول، فسأله بجفاء:

- هيه أنت. إلامَ تنظر؟!

- لا شيء. أنا فقط متأثر بالمشاعر الإنسانية التي أراها.



- حسناً يكفيك تأثراً، وعد إلى عملك فوراً.
 - إن الصالة فارغة الآن، فما الذي يجب علي أن أفعله؟
 - إذن اجلس في مكان آخر.
 - أألن تعرّفني بالقادم الجديد؟
 - إنه ابن أختي أبراهام.
 - تشرفنا سيد أبراهام.
 - أشكرك.
 - وهل تتوي أنت أيضاً الإقامة في أمريكا؟
 - وماذا يعنيك أنت يا بن الـ...؟
- أجابه أفيغدور بغضب، فقال أبراهام محاولاً تهدئة سَورة غضب خاله في وجه ذلك العجوز المسكين:
- خالي إن الرجل يسأل فقط.
 - ثم قال موجهاً كلامه إلى العجوز:
 - كلا يا سيدي. أنا هنا في زيارة فقط.
 - ولماذا زيارة فقط، فاليهود هنا يشكلون أغنى طبقات المجتمع، وهم يسيطرون على الإعلام والفن والقضاء والطب والمصارف وتجارة الذهب والألماس، حتى المخدرات. بإمكانك أن تصبح هنا مواطناً من الدرجة الأولى وأن تحظى بكل شيء تريده. خذ خالك مثلاً، فمع أنه مواطن عالمي، أعني روسي وألماني في الوقت نفسه، إلا أنه اختار الولايات المتحدة بالذات ليعمل فيها، بعد أن خبر حظوة اليهود هنا.

- أجل أنا مواطن عالمي، ولكنني لست أمريكياً ولا ألمانياً ولا حتى روسياً، بل أنا ككل اليهود في كل بقاع الأرض، يهودي فقط، نحن يهود بلا قيد أو شرط، ونحن يهود بلا تحفظ. نحن ببساطة غرباء في وسطكم ونؤكد بأننا نرغب أن نظل كذلك. إن بيننا وبينكم فرقاً شاسعاً لا يمكن أن يمد عليه جسر؛ لأن روحيتكم وأساطيركم وقصصكم وعاداتكم وتقاليديكم كلها غريبة عنا، وتراثكم القومي ومقدساتكم الدينية والقومية والوطنية، وكذلك آحادكم وأعيادكم أيضاً غريبة عنا. تاريخ انتصاراتكم وهزائمكم وأغانيتكم الحربية وأشعار معارككم وأبطالكم وأعمالهم العظيمة وطموحاتكم القومية وأمانيتكم وآمالكم، كلها غريبة عنا. وحدود بلدانكم لا يمكن أن تحد من تحركنا، ونزاعاتكم الحدودية ليست من اهتماماتنا، لأن وحدتنا اليهودية تقف شامخة عالية فوق حدودكم وتقسيمات بلدانكم.

- ربما تقول ذلك لأنك مهاجر جديد نسبياً. ولكن كثيراً من اليهود الذين ولدوا هنا لا يوافقونك على هذا الرأي، ويعتبرون الولايات المتحدة أرض آبائهم، وبعضهم أبطال خاضوا الحروب في سبيل رفعتها وتقدمها.

- كل يهودي يسمي الأرض التي يعيش فيها أرض الآباء فهو خائن لليهود، وكل الأبطال اليهود الذين خاضوا حروباً مع غير اليهود لا يعنون شيئاً لنا. وعلى اليهود ألا يعلقوا على صدورهم النياشين والميداليات فهؤلاء ليسوا أبطالاً يهوداً، لأن اليهودي المخلص لا يمكن أن يكون غير يهودي. نحن نؤمن بالوحدة القومية لليهود في أي أرض نعيش فيها، ولذلك فإنه ليس هناك حدود تمنعنا من اتباع سياستنا اليهودية الخاصة بنا.

- أفيغدور، لا أحد ينكر خصوصية اليهود هنا كمجموعة دينية، ولكنني أتكلم على مواطنيتهم. أي تأثيرهم بنمط الحياة الأمريكي، والتزامهم بقوانين الولايات المتحدة.

- إن ديننا اليهودي غني بالوقاية التي تجعل شعبنا ذا مناعة ضد التأثيرات الأجنبية. وعلى العكس من الأديان الأخرى التي هي عبارة عن مجرد مجموعة من التعاليم والمعتقدات، فإن ديننا هو مجموعة قوانين منظمة، وبحفاظنا على هذه القوانين، فإننا نبرهن على حقنا في تقرير المصير، أي إن الذي يحكمنا هو قوانيننا فقط. إن الحقيقة اليهودية هي سر الدين اليهودي، وهي التي جعلتنا ينشدُ بعضنا إلى بعض في وحدة لأنفسنا، ليس فقط في إسرائيل، بل حتى في الدياسبورا (دول الشتات)، فإنها أبقتنا فيها شعباً داخل شعب ودولة داخل دولة. نحن لم نكن قط مجموعة دينية فحسب، إن هناك سوراً قوياً محكم البناء بنيناه بأنفسنا، وهذا السور هو الذي يفصلنا عن الشعب الذي نعيش فيما بينه، وخلف هذا السور تعيش دولة يهودية مصغرة.

- تقصد أن اليهود الأمريكيين لا يعتبرون أنفسهم من الشعب الأمريكي؟

- إن الفرق لعظيم بين اليهود والشعوب الأخرى، وإنه لا توجد ذرة من الشعور في ضمير اليهودي للتعلم بالقومية الأمريكية أو الروسية أو غيرها. نحن من الممكن فقط أن نعيش أحراراً في الشتات بين تلك الشعوب التي لم تنضج عندها بعد روح الوطنية، ولذلك فإذا بلغتم في الولايات المتحدة مرحلة النضج، فإننا عندئذ سنفقد إحدى أهم مستعمراتنا.

- الولايات المتحدة مستعمرة لليهود؟ يبدو أنك قد أصبت بالجنون.

- ويبدو أن الوقت قد حان لتقاعدك، فقد كبرت كثيراً وصرت بحاجة إلى الراحة في بيتك مع زوجتك الشمطاء. الوداع.

- أطرمني بعد كل هذه الخدمة؟

- لم تخدمني بلا مقابل، وقد استوفيت أجرك.

- لا يحق لك ذلك . سوف أشتكي عليك .
- لا أنصحك بذلك، فأنت نفسك قد قلت قبل قليل إننا نسيطر على القضاء والحكومة، فحافظ على ما اكتسبته حتى الآن ولا داعي لأن تجر على نفسك وأسرتك المتاعب في أواخر أيام حياتك البائسة .
- أفينغدور أرجوك، ما الذي فعلته لأستحق ذلك؟!؟
- يكفيك الحسد ومعاداة السامية .
- أنا؟!؟ معاد للسامية!!! سيد سراتوي أرجوك، لقد فهمتني خطأ .
- كان أبراهام يستمع إلى الحديث بذهول غير مصدق أذنيه، وعندما رأى ذلك العجوز يتوسل لخاله ويتذلل له، لم يستطع أن يمنع نفسه من التدخل، فقال لخاله مستعظفاً:
- خالي أرجوك، لا تحمل الأمر فوق طاقته، فهذا الرجل لم يقصد سوءاً .
- أنت لا تفهم نوعية هؤلاء الأوباش .
- خالي أرجوك، من أجلي على الأقل، فأنا لا أريد أن تكون زيارتي الأولى لك، سبباً في فصل أحد الموظفين .
- وما دخلك أنت؟ إن حسده وضيق عينه ووقاحته هي ما تسببت بفصله .
- أرجوك يا خالي من أجلي فقط .
- حسناً . هذه المرة من أجلك فقط، وأما أنت يا جيمي فلا تتدخل ثانية فيما لا يعنيك .
- حاضر سيدي شكراً جزيلاً لك . وشكراً لك أنت أيضاً أيها الرجل الطيب، وآسف على إزعاجي وتطفلي .
- لا عليك يا سيدي .



- هيا انصرف الآن.

قال أفيغدور بعصبية، ثم رافق العجوز بنظره حتى توارى خلف الباب، وعندها التفت بعنف إلى أبراهام قائلاً:

- لماذا ناديتَه بسيدي؟

- احتراماً لكبر سنه.

- يا لك من غرٍ ساذج! إنه مجرد موظف تافه عندي فلا تتس ذلك ثانية، ثم لا تتدخل مرة أخرى فيما بيني وبين موظفي، لقد كنت أعاقبه على وقاحتِه.

- اعذرني يا خالي، ولكن الوقاحة في ذلك الحديث لم تكن من جهته هو.

- ماذا؟!!!

- لقد تكلمت أمام مواطن أمريكي قح، وكأنك وبقية اليهود تملكون بلاده، مع أنك أنت نفسك مهاجر جديد إليها، ولا أدري من أين وانتك الجرأة على ذلك القول!
- أنت لا تزال جديداً هنا ولا تعرف أي شيء. إن اليهود يتحكمون فعلاً بأمريكا، وليس هذا بسر يخفى على أحد.

- ولكن ليس إلى هذه الدرجة.

- إلى هذه الدرجة وأكثر.

- كما تريد، ولكن لا تتس أن الولايات المتحدة دولة مسيحية في واقع الأمر.

- لعلمك الخاص فقد وصف وزير الخارجية السابق "كولن باول" الولايات المتحدة بأنها دولة "يهودية - مسيحية" (يهومسيحية) لاحظ أنه لم يقل مسيحية، ولا حتى مسيحية- يهودية، بل قدم اليهودية على المسيحية مع أنه مسيحي.

- وكيف كان ذلك ومتى؟

- كان ذلك في شهر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢م وقد صرح بهذا الوصف في مقابلة مع برنامج "شارلي روز" الشهير من على شاشة التلفاز العام في معرض حديثه عن رؤية واشنطن لطبيعة الحكومة التي ينبغي أن تكون في العراق؛ فقال إنه يتوقع أن يكون العراق "دولة إسلامية المعتد، مثلما نحن بلد يهودي - مسيحي". ثم أردف مسرعاً: "ومن الصعب التكهن بأكثر من ذلك، لكننا الآن دولة ذات ديانات عديدة".

- وهل كان هناك ردود فعل على ذلك.

- إن هذه هي حقيقة الأمر التي يعلمها الجميع، وإن كان لا يصرح بها أحد، ولذلك فقد تلقى باول بعض الانتقادات البسيطة على زلة لسانه التي فضحت حقيقة ما يراه. وعلى كل الأحوال فإن الولايات المتحدة ليست دولة مسيحية، وإن كان الناس هنا على المستوى الفردي مسيحيين، فإن هذا يعتبر مجرد "ثقافة روحية" مشبعة بالبذأة الدينية المسيحية^(١).

- لكن هناك أمثلة عديدة من سياسة الولايات المتحدة في بعض المجالات تدل على تضامنها المطلق مع الموقف المسيحي-الديني.

- لقد كتب الحاخام شلومو أفينير^(٢) يقول: "عدونا الرئيسي هو الديانة المسيحية. صحيح أن عددهم في العالم لا يصل إلى مليار، ولكن كل العالم الغربي متشبع بالديانة المسيحية. حتى الملحدون الأوروبيون مفعمون بروح مسيحية دون أن يدركوا ذلك"، ثم يضيف: "ما هي تلك "الروح المسيحية"؟ إنها تنسى أن الرب هو الذي خلق إسرائيل، وأن تاريخ العالم بأسره يمر عبر الشعب الإسرائيلي". وكتاباته تتشر هنا في أمريكا دون أي اعتراض، أو حتى تحفظ.

(١) هذا رأي كثير من اليهود (بعضهم حاخامات) وينشرونه صراحة في وسائل إعلامهم دون أي اعتراض يذكر من قبل المسيحيين الأمريكيين.

(٢) من التيار القومي الديني. وهو أحد المشار إليهم في الهامش السابق.

- ولكن لا يجب الاعتماد كثيراً على تسامح المسيحيين ومساعدتهم فهما لن يستمرا إلى الأبد.

- عن أي تسامح وأي مساعدة تتحدث!!! إنهم ضدنا، مثل المحمدين، بل إنهم أكثر سوءاً من المحمدين أنفسهم. فقد كان "عيسو" يكره يعقوب^(١) ويحقد عليه، إن العداة بيننا وبين المسيحية مستفحل، وكل أفعالهم الحسنة هي من أجل مصلحتهم فحسب.

- ومع ذلك، فإن ٨٨ ٪ من الأمريكيين هم من المسيحيين^(٢)، والأمريكيون بشكل عام يعتبرون من أكثر الناس تديناً في العالم^(٣)، ولا أرى داعياً لتحدي شعورهم الديني، واستثارة عداثهم على هذا النحو السافر.

- أنا لا أنكر أن للدين تأثيراً كبيراً على الأمريكيين، يفوق تأثيره على الكثيرين من الشعوب الأخرى^(٤)، ولكن دينهم نفسه قد خضع بطريقة أو بأخرى لتأثير حكماننا^(٥).

- ألا ترى أنك تبالغ قليلاً؟

(١) عيسو أو "أدوم" (معناه الأحمر كما يقول الكتايبون أو الأصفر كما يقول المسلمون) هو أخو يعقوب عليه السلام، وحسب الرواية التوراتية فهو أبو الأدوميين أو الرومان لاحقاً، والذين صاروا العنصر الغالب من عموم المسيحيين فيما بعد. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) بقية الطوائف هي: اليهودية ٢ ٪، الإسلام ١ ٪ (في الحقيقة هم أكثر من ذلك بكثير. فنسبتهم ثابتة في الإحصاءات التقديرية مع أن الارتفاع المتصاعد بأعدادهم في السنوات الأخيرة لا يستطيع أن ينكره أحد. الملحدون ٢ ٪، محايدون ٣ ٪، أديان أخرى ٤ ٪.

(٣) ٨٢ ٪ من الشعب الأمريكي يعتبرون أنفسهم متدينين.

(٤) تنوع مظاهر الدين في المجتمع الأمريكي من تعميم الأطفال (بالنسبة إلى الكاثوليك وبعض الطوائف البروتستانتية) وتنشئتهم على الأخلاق المسيحية، إلى الحرص على الذهاب إلى الكنيسة بصورة منتظمة. ومن تسمية المدن في مختلف الولايات بأسماء مدن مستقاة من الكتاب المقدس، إلى المشاركة في الأنشطة الاجتماعية التي تنظمها وتشرف عليها الكنائس. ومن الصلاة عند البدء في تناول الطعام، إلى حضور عشرات الآلاف لقداس أو محاضرة في سناد كرة قدم أو بيسبول في المدن الكبرى. ومن وضع رمز أو شعار ديني على السيارة الخاصة، إلى اتخاذ مواقف سياسية لتحقيق معتقدات دينية.

(٥) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

قال أبراهام مستفزاً، ليحثه على إثبات ادعاءاته بمعطيات من أرض الواقع، خاصة أن خاله، كما عرف مؤخراً، ليس بعيداً عن بعض دوائر صنع القرار هنا في الولايات المتحدة. فأجاب أفيغدمور مفاخراً:

- هناك أمثلة كثيرة تثبت أنني أبعد ما أكون عن المبالغة في هذا الموضوع بالذات. وأنا لن أتكلم هنا على التاريخ، فأظنك تعلم جيداً مدى تأثيرنا في قيام البروتستانتية، بل أغلب الانشقاقات المعاصرة في المسيحية بشكل عام، ولكنني سأتكلم على الواقع الحالي، مكتفياً بمثال صغير جداً رغم دلالاته العظيمة: وهو منظمة "مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل" التي يرأسها القس الأصولي الشهير "جون هاغي". فمع أنها منظمة مسيحية أصولية، إلا أن مديرها التنفيذي يهودي^(١)، وهو مؤلف الكتاب الصادر مؤخراً بعنوان "الوقوف مع إسرائيل: لماذا يساند المسيحيون الدولة اليهودية؟" كما يوجد هناك الكثير من المنظمات المسيحية المتنفذة الأخرى التي تتمتع بنفوذ كبير في مراكز صنع القرار هنا، وينشط فيها رموز وكوادر يهود، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، بل تحت قناع الدخول في الدين المسيحي أحياناً.

- ومع ذلك أراك مبالغاً.

- حسناً. سأعطيك مثلاً آخر. هل تذكر فيلم "The Last Temptation of Christ"

آخر وسوسة للمسيح" (يترجم أيضاً إلى "الإغواء الأخير للمسيح")؟

- أجل.

- ممتاز. لقد ظهر ربهم في ذلك الفيلم مجرد إنسان ضعيف مشوش الذهن، يلتمس هداية الرب الأب في بيت دعارة، وهناك تهينه مومس بطريقة شنيعة ثم تبصق في وجهه. وفي نهاية الفيلم يوبخه يهودا بعنف على ضعفه وضلاله، ويكشف له أنه

(١) وهو "ديفيد بروج" من المحافظين الجدد. وكان يعمل سابقاً مديراً لمكتب السيناتور الجمهوري عن ولاية بنسلفانيا "أرلين سبكر".

كان مخدوعاً من قبل الشيطان الذي كان يظنه طوال الوقت ملاكاً من الرب. وبعد افتضاح أمر ذلك الشيطان المتكرر، يعود إلى شكله الذي ظهر فيه عندما حاول إغواءه في الصحراء، يسخر منه بصفاقة قائلاً: "ألم أقل لك إنني سأضلك، لقد نجحت في إغوائك"، ثم يقهقه عالياً ويرحل! ومع ذلك لم تكن المعارضة التي واجهت الفيلم كافية لحذف مشهد واحد من المظاهر المهينة بحق ربهم المصلوب.

- أذكر ذلك جيداً. ولكن ذلك كان بسبب مسالة الأوربيين وتساهلهم بشأن النقد، وحرية الإبداع، ولا أرى علاقة لذلك في موضوعنا.

- اصبر علي قليلاً يا بن أختي، وستعرف ما الذي أرمي إليه.

- أنا آسف.

- لا عليك، وهل تذكر فيلم "آلام المسيح" لـ "ميل جيبسون"؟

- أجل.

- حسناً. لقد خضع هذا الفيلم لحذف المشهد الأكثر إشكالية فيه، حيث يقول الكاهن الأعظم "كيافا" للشعب اليهودي: إن "دم يسوع في أعناقنا وأعناق أولادنا". وكان الحذف نتيجة النقد الكبير الموجه له من جانب عدد من المنظمات اليهودية. ومع أن تلك العبارة مأخوذة من إنجيلهم المقدس نفسه^(١)، إلا أن ذلك لم يمنع "إياب فوكسمان" أمين عام "منظمة مكافحة التشهير"، من انتقادها في معرض مهاجمته لتلك اللقطة من الفيلم، باعتبارها: "المصدر التاريخي لجزء كبير من أعمال معاداة السامية على مر الأجيال". هل بت تتصور الآن مقدار علونا؟

- هل حدث هذا فعلاً؟!

(١) سفر متى ٢٧: ٢٥.

- بالطبع، وكما ترى فإن من يهين رب المسيحيين هنا يحتمي بحرية الإبداع الفكري، ولكن من يتعرض لليهود بجزء مما فعلوه فعلاً، فلن يستطيع الإفلات، ولو احتفى بكل حريات الأرض، بل تظل "تهمة معاداة السامية" تلاحقه إلى ما لانهاية، ولن يتخلص من آثارها بسهولة، حتى إن تراجع عن إساءته وأذل نفسه في سبيل التكفير عنها، ولذلك لم يكتف جيبسون بتعديل اللقطة، بل إنه علق على الخطاب الذي أرسله إليه فوكسمان قائلاً: "إنني أصلي وآمل أن تنضموا إلي، ونمثل معاً نموذجاً للبشر جميعاً يسير على طريق واحد هو طريق السلام والكرامة والحب، رغم اختلاف الآراء". ومع ذلك لم يكن موقف فوكسمان إيجابياً، فقد كتب إلى جيبسون قائلاً: "إن كلماتك لا تقلل من مخاوف النتائج المحتملة الخطيرة لعرض فيلمك فيما لو بقيت به اللقطة، التي تعتبر إشعاعاً جديداً لمعاداة السامية في جميع أنحاء العالم المسيحي". ثم حاول جيبسون إصلاح الأمر بإنتاج فيلم جديد عن عيد "حانوكا"^(١) وبطولات اليهود زمن المكابيين، وقال في حديث لأحد البرامج الحوارية التلفزيونية: "لقد افتعلت عائلة المكابيين الحرب. لقد بدؤوا القتال وخرجوا من المعركة منتصرين، إنهم يشبهون في ذلك سكان الغرب الأمريكي قديماً". فرد عليه أبراهام فوكسمان في حديث لصحيفة "صنداي تايمز": "شكراً لتوضيح الأمر، لكننا لا نرغب فيه. إن آخر شيء نحتاجه هو تحويل التاريخ اليهودي إلى تاريخ يشبه حياة الغرب الأمريكي قديماً".

- يبدو أن جيبسون قد ذل فعلاً.

- أكثر مما تتصور، فقد تناولت وسائل الإعلام قصص سكره، وكتبت بحقه عبارات كثيرة قاسية مثل: "بسبب أشخاص مثلك يا جيبسون تم قتل ملايين اليهود. فلتركننا، ولتذهب للبحث عن فاشلين.... في إفريقيا"، ومثل: "لنشاهد ميل جيبسون

(١) احتفال اليهود السنوي بانتصار يهودا المكابي على الملك الإغريقي أنتيوكوس الرابع في عام ١٦٥ قبل الميلاد.

وهو مصلوب... إنه لمشهد جميل". و: "إن الكارثة النازية نتاج للكراهية الكاثوليكية التي ينتمي إليها جيبسون". كما هدد البعض بمنعه من زيارة إسرائيل باعتباره "معادياً للسامية"، مثل المغني "كات ستيفنس" الذي اعتنق الإسلام، وتم إبعاده بعد ذلك مرتين عند وصوله إلى المطار هناك. وهناك من قالوا إن يسوع كان حاخاماً منشقاً، وغيرهم لم يعترف حتى بكونه حاخاماً أصلاً، بل اعتبروه مجرد واعظ يهودي متمرد، وبعد ٣٠٠ عام من صلبه، صنع منه أسطورة وقصص مثيرة حتى تسود ديانته الجديدة، بل أعاد بعض المنتقدين إلى السطح موضوع حقيقة وجود المسيح نفسه، وأن يسوع هو مجرد أسطورة خرافية مجمعة من عدة أساطير قديمة، وليس شخصية واقعية مطلقاً. أحس أبراهام بالانزعاج للطريقة التي يتحدث بها اليهود عن المسيح، خاصة أن حُماَتهم المسيحيين يعتبرونه ربهم، فقال محاولاً إبراز مكانته:

- ولكن لا تتس أنه بعد ألفي عام، كما أشار "كينيث ل. وودوارد" في مجلة "نيوزويك"، "تحسب القرون نفسها من وقت ميلاد يسوع المسيح. وبنهاية هذا العام (قال ذلك سنة ١٩٩٩) سوف تسجل التقاويم في الهند والصين ومثيلاتها في أوروبا وأمريكا والشرق الأوسط فجر ألفية جديدة".

لاحت على وجه أفيغدور ابتسامة ساخرة مما اعتبره سذاجة ابن أخته الغر، وقال محاولاً إعطاءه درساً في التاريخ:

- هل تقصد ميلاد يسوع لإنجيل متى أم إنجيل لوقا؟! لأنه في الأول (متى ٢: ١) ولد أيام الملك هيروودوس (الذي مات في العام الرابع قبل الميلاد) أي عام ٦ ق.م تقريباً، أما في الثاني (لوقا ٢: ٧-١) فقد ولد في عام الإحصاء الروماني حينما كان كيرنيوس والياً على سورية، أي قرابة عام ٧ ميلادية! أو بقول آخر: يسوع وفقاً لإنجيل متى كان في الحادية عشرة حينما وُلد يسوع وفقاً لإنجيل لوقا في الظروف والملابسات نفسها، فأيهما تعني بالضبط!

- أعني التقويم الميلادي المتفق عليه، بغض النظر عن الأناجيل.

- إن التقويم الميلادي نفسه هو حديث العهد، ولم يقرّه الفاتيكان رسمياً إلا عام ١٤٤٣م بعد جدل دار في "مؤتمر بازل المسكوني" الكنسي، عام ١٣٣٢م ودعوات كونزانونس الذي أصبح بابا فيما بعد، لاعتماد تقويم ميلادي "كي لا نظل أضحوكة للوثنيين المسلمين" كما صرح في المؤتمر. وهناك الكثير من المؤرخين الذين يشككون بدقة التقويم المسيحي لأن حسابات كونزانونس تمت بـ "عمليات ارتجاعية"، اعتمدت التقويم العربي أساساً في حسابها.

- هل يعني هذا أن التاريخ الميلادي بني على أساس التقويم الهجري!!!؟

- لقد بني أولاً على تاريخ "الإسكندر المقدوني" ثم تاريخ النبي العربي، وكان يسمى هذا التقويم في الوثائق المسيحية "سنة ما بعد العرب"! بالإضافة إلى أن النموذج الرسمي للتاريخ المسيحي نفسه بما فيه من حقب وسلالات وأزمنة هو تاريخ مشكوك فيه أساساً، وأولئك المؤرخون يعتقدون أن تاريخ نشوء المسيحية قد حدث متأخراً بعملية إسقاط ارتجاعي، وصياغة لأحداث ضبابية مؤسطرة (من كلمة أسطورة) تتلاءم مع مصالح سياسلطوية سادت في عصور لاحقة. بل إن هناك بعض المؤرخين ممن برهنوا على وجود "زمن شبحي" في التقويم المسيحي قدره بـ ٢٩٧ سنة، يفترضون أنها بين (٦١٤/٩١١م). ولعل أهم العلامات المميزة لهذه المدرسة النقدية كان "كامماير"^(١) بنقده لتاريخ المسيحية، أعقبه صمت لتعود الأسئلة مطلع التسعينيات بسيل من البحوث والكتب والدراسات التي حاولت هز أعمدة التاريخ الميلادي، وتسفيه المنهج الأكاديمي الرسمي ونظام اليقينيات الذي تم ترسيخه خلال أربعة القرون المنصرمة. ولعل دراسة "هيربرت إليغ" (H. Illig) هي الأكثر إثارة وجدلاً لأنها كانت محاولة ممنهجة اعتمدت دراسة تطور بناء الكنائس والمسكوكات وغيرها من الدلائل التاريخية.

(١) Kammeier توفي ١٩٥٩م.

- هذا كلام خطير.

- رغم فساد بعض الاستنتاجات التي بنيت على هذه الأبحاث، وبالذات ربط بدايات الإسلام مع بدايات المسيحية، إلا أن الأساس الذي اعتمد لتلك الأبحاث لا يخرج مطلقاً عن مبادئ الأركيولوجية العلمية الأكاديمية.

- أي استنتاجات فاسدة تلك؟

- أقصد ما ذهب إليه توبر (Topper) من أنه لو أضفنا "السنوات الشبعية ٢٩٧" إلى تاريخ مجمع نيقية سنة ٣٢٥ الذي أرسى دعائم المسيحية الحالية، فيكون الناتج هو ٦٢٢، وهو بالضبط تاريخ هجرة النبي العربي. أي إن المجمع ربما لم يكن رداً على هرطقة "أريوس" بل رداً على الإسلام^(١).

- من هو أريوس؟

- أريوس (٢٧٠ - ٣٣٦) هو قس مسيحي أنكر ألوهية يسوع. ويشير توبر إلى أن مصادرنا عن الأريوسية لا تعرف إلا بعض الكتابات المشوهة، لكن اللافت أن القدا

(١) هذه الاستنتاجات فاسدة فعلاً وثبت خطؤها، ولكن موضوع عدم دقة التاريخ الميلادي مثبت من أكثر من جانب. على كل الأحوال فقد كان أكثر ما اعتمد عليه مناصرو تلك النظرية هو محاولة تفسير اتساع رقعة الدولة الإسلامية الناشئة وتمدها السريع على حساب أراضي الإمبراطورية الرومانية (أقوى قوة في ذلك العصر بلا منازع)، دون أن تبدي أي محاولة جادة لمواجهةهم. وأن الإسلام في بدايته كان فرقة مسيحية منشقة قبل أن تتبلور أفكارها من أتباعها اللاحقين الذين قرروا الانكفاء وتكذيب الماضي المسيحي للإسلام والتاريخ المسيحي للقرآن والإسلام وطمس معاملة الأولية كي يحافظوا على المكتسبات والاستقلالية الدينية السياسية، مما أحدث فراغاً تاريخياً تم حشوه فيما بعد بحوادث وهمية لم تحدث أصلاً،!!! ورغم خيالية استنتاجهم، إلا أن بعض الحقائق التي اعتمدوا عليها واقعية فعلاً. فتفسير غياب الصراع مع الإسلام الناشئ، وتفسير اندفاع جيوش الإسلام عبر الحدود الرومانية، والغموض المصاحب لأحداث تلك الفترة، بالإضافة إلى قرون خلت من كتابات "مسيحية" مضادة، هو موضوع حير ويحير جميع المؤرخين الذين تناولوا تلك الفترة ولا يزال يحيرهم. والتفسير الصحيح لذلك اللغز تجردونه إن شاء الله تعالى في رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

الأرثوذكسي لا يزال إلى يومنا هذا يكرر لعن "الزنديق أريوس" ثلاث مرات بموافقة المؤمنين الخاشعين، وهذه اللعنة الأبدية تنصبُّ على عقيدته التي انتشرت لتصبح عقيدة الأغلبية المسيحية، مما استدعى انعقاد مؤتمر نيقية عام ٣٢٥م برعاية القيصر قسطنطين، وبموجبه تم لعن أريوس ووضع قانون الإيمان المسيحي، لكن قسطنطين مال إلى جانب الأريوسيين فأعيد اعتبارهم. وبعد جدل وشجار وحروب استطاع المؤتمر الكنسي في القسطنطينية عام ٣٨١م لعن الأريوسية وتكفيرها نهائياً. ومع مرور الزمن استتب الأمر واستطاعت الأرثوذكسية تثبيت أقدامها^(١). وهكذا فيرى توبر أن هذا اللعن اليومي للأريوسية في القديس لا بد أنه تذكير بعدو قوي يتلظى، عدو مازال يشكل خطراً محدقاً. ومن يكون هذا العدو الشرس الذي لا يؤمن بأن المسيح هو الله؟ اليهود ليسوا بصدد السؤال لأنهم ينكرون المسيح من حيث المبدأ، أما في الإسلام فإن للمسيح معنى، فهو النبي الذي سيعود آخر الزمان محملاً بالقوة الإلهية لإقامة محكمة الله، بل إن المضمون الدوغمائي للمسيح في الإسلام يجعله أهم من محمد^(٢)، ويضيف قائلاً: إذا كان الأمر كذلك فعلاً، فإن كثيراً من الغموض الذي أحاط بتاريخ الكنيسة سوف يرفع، ويمكننا تفسير غياب الصراع مع الإسلام الناشئ، وتفسير اندفاع جيوش الإسلام عبر الحدود الرومانية، وفهم رسائل محمد إلى هرقل ودعوته إلى اعتناق الإسلام^(٣)، وكثير من الأمور التي بقيت قروناً بدون كتابات "مسيحية" مضادة. لقد اكتفت الكنيسة فقط باللعنات الثلاث التي كالتها لهذه "الحركة" الجبارة! أي إن ما يسمى مؤتمرا نيقية والقسطنطينية كانا إجابة عن خطر متريص.

- هل تصدق هذا؟

(١) لمعرفة تفاصيل هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) عليهما الصلاة والسلام. وهذا حسب تعبير توبر.

(٣) التفسير الحقيقي لذلك، كما أسلفنا، تجدونه إنشاء الله في رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- كلا بالطبع، فالربط بين مجمع نيقية ونشوء الإسلام هو مجرد فانتازيا متأخرة تؤكد بوضوح كمّ العبث الذي أحاط بالحساب الزمني الميلادي، ثم إن مجمع نيقية نفسه لا تؤكد إلا بعض الرسائل المتأخرة، أي بدون وثائق حقيقية^(١).

- ما دام الأمر كذلك فمن الطبيعي ألا يكون التاريخ الميلادي دقيقاً، ولربما كان فيه زمن شبحي فعلاً، ولكن هذا لا ينفي وجود يسوع التاريخي بأي حال من الأحوال. ابتمسم أفيغدور وهو يقول غامزاً:

- هل سمعت بـ "ديونيسيوس الأريوباغي"؟

- أليس هذا الذي اعتنق المسيحية على يد بولس، فكرّسه مطراناً على أثينا^(٢).
- أجل.

- بالطبع سمعت عنه، فكتاباته يمكن مقارنتها بكتابات أرسطو، والقديس أوغسطين، وهي بدون شك من أهم ثلاث كتابات عرفتها المسيحية الأوربية.

- لقد سببت الأبحاث والمكتشفات الأخيرة إزعاجاً كبيراً للكنيسة بشأن الفترة التي عاشها ديونيسيوس. فبعد أن وضعته أول الأمر في القرن الأول، عادت لترميته إلى القرن الخامس ثم إلى التاسع، لهذا علق "لورنسو دي فالّا"^(٣) عام ١٤٥٧م قائلاً: "لا أحد يمكنه معرفة من يكون هذا الديونيسيوس"، بل إن توبر يزعم أن ديونيسيوس هو كاتب من القرن ١٣، فكتاباته الصوفية تعكس عالماً آخر، بعيداً كل البعد عن عصر

(١) للمزيد من المعلومات حول اختفاء محاضر جلسات المجمع الأولى راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) أعمال الرسل ١٧ : ٣٤. وأريوباغي حسب قاموس الكتاب المقدس تعني عضو المجلس، وذكر سفر الأعمال أنه أحد أعضاء مجلس المدينة (برلمان أثينا).

(٣) مكتشف أكبر عملية احتيال في تاريخ الكنيسة عام ١٤٤٠م، والمسماة: هبة قسطنطين (Constantin's Donation) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

المسيح. وهنا يستشهد باللاهوتي والمستشرق الإسباني الكبير "آسين بالاثيو" الذي عرف أن أعمال ديونيسيوس مأخوذة من أعمال الصوفي المسلم "محيي الدين ابن عربي"!!! إلى درجة أنه لم يكتف بنقل أفكار عوالمه الصوفية، بل أحاسيسه العامة، واصطلاحاته. بل إنهما يصفان (وهذا من الندرة) وصال المرأة، كتجربة إيروتيكية إلهية. وهكذا فالوجود التاريخي لديونيسيوس المذكور في العهد الجديد هو عرضة للشك، تماماً كصاحبه المزعوم.

- هل يعني ذلك أنك لا تعتقد بالوجود التاريخي للمسيح!!!؟

◀ رجال خلف الستار

هز أفيغدور كتفيه بلامبالاة قائلاً:

- حتى إن كان ليسوعهم وجود تاريخي فعلاً، فهو بالتأكيد ليس كما يظنون. فأنا أميل إلى رأي "بول فيرهوفن"^(١) مؤلف كتاب "مسيح الناصرة: صورة واقعية" الذي يؤكد فيه أن المسيح هو ابن جندي روماني اغتصب مريم في أثناء انتفاضة لليهود ضد الحكم الروماني في العام الرابع قبل الميلاد!!!

- هذا يذكرني بما قرأته عنه في التلمود^(٢)، فهل يسمح بنشر مثل ذلك هنا؟!

- أجل، وبكل بساطة. ومع أن الكتاب لم يصل إلى هنا بعد، إلا أن المتحدثة باسم دار النشر الهولندية أعلنت من أمستردام، أن الكتاب ستم ترجمته إلى الإنجليزية في العام القادم، وأكدت أيضاً أن المخرج فيرهوفن ينوي أن يكون الكتاب تمهيداً لفيلم سينمائي عن يسوع انطلاقاً من الأفكار نفسها الواردة في الكتاب.

- والإمام استند فيرهوفن في كتابه؟!

- سأخبرك بالتفصيل عندما أقرأ ترجمته الإنجليزية، ولكنني قرأت في المقالة المطولة التي تحدثت عنه، أنه خلاصة أبحاث قام بها المؤلف لأكثر من عشرين عاماً

(١) باحث ومخرج هولندي لعدة أفلام شهيرة .

(٢) افتري التلمود على السيدة مريم العذراء أنها قد حملت بعيسى عليهما السلام سفاحاً من جندي روماني يدعى "بندارا" . وهو يضم فضلاً عن ذلك، أجزاء من محاكمة المسيح في السنهدرين، ويتباهى بأن اليهود هم الذين صلبوه . وصدق الله العظيم إذ قال في سورة النساء: ﴿ وَبُكَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٦ - ١٥٨] .

في " حلقة النقاش حول يسوع" ^(١).

- أمر مثير للاهتمام والدهشة في آن واحد .

- ولماذا الدهشة؟! أنت -لا ريب- تعرف أن يسوع يفسر في التلمود بـ: "فليمحُ

الله اسمه وذكراه". حتى إن اسمه أصبح عبارة قده في اللغة العبرية الحديثة؛ فعندما

كان يُشتم "عرفات" ^(٢) مثلاً كان يقال: "عرفات يشوع"، وهي تساوي "ليمحُ الله اسم

عرفات وذكراه"، وهكذا.

- أجل لقد سمعت هذا من أحد عبدة الشيطان.

- عبدة الشيطان!!!

- تلك قصة قديمة. ولكنني أظن أن الأمر لا يعدو مجرد مصادفة لتجمع أحرف

كلمة يشوع بالعبرية بنفس ترتيب أحرف الكلمات الأولى من تلك اللعنة ^(٣).

- إن الأمر أكبر من مجرد مصادفة، ونحن لا نقول عبثاً في صلاتنا: "إننا نسجد

ملك الملوك وهم يسجدون لباطل الأباطيل" (الجامعة ٢٠١). ويتمثل باطل الأباطيل في

شخص يشوع المصلوب.

- لا تتس أن يشوع يهودي.

- وأنت لا تتس أنه لذلك، فهو المقصود بآية: "هادموك ومخربوك منك

يخرجون" (إشعياء ١٧ . ٤٩). وقد ورد ذكر أعمال ذلك اليهودي الضال المضل في

(١) وهي جمعية من العلماء والكتاب المهتمين بالبحث عن حقائق تاريخية عن عيسى عليه السلام .

(٢) ياسر عرفات، وهو الاسم الحركي لرئيس منظمة التحرير، ورئيس السلطة الراحل رحمه الله . واسمه

الحقيقي هو "محمد عبد الرؤوف القدوة الحسيني" .

(٣) في الحقيقة فإن اسم يشوع أو يسوع ليس هو اسم عيسى عليه السلام . وللمزيد من الإيضاح راجع رواية

كهولة قبل البلوغ للمؤلف .

نسختي التلمود و"رمبام" إصدار "فرانكل" اللتين لم تخضعا للرقابة^(١)، ولا تنس كذلك أن اليهودية قد عانت كثيراً من أعماله.

- لم يعان اليهود بسبب أعماله، بل بسبب تسببهم بقتله.

- ألم يقتل يسوع تكفيراً عن العالم كما يدّعون؟! فلماذا عاقبوا اليهود على تلك

النعمة؟! ألم يصلب تكفيراً لذنوبهم بأمر الرب الأب؟؟ فماذا يريدون منا إذن؟^(٢)!!!

ثم ضحك مستهزئاً وقال بسخرية:

- لقد قتلوا يهوداً... ويظنون أن المصلوب سيكفر عنهم. إن المسيحيين مسؤولون

عن موت ملايين اليهود باسم مظاهرمهم الصليبية الملعونة. كأنهم يقولون: " فلنقتل ولنسرق، وسيكفر المخلص عنا جميعاً".

- أنت تتجنى على المسيحية هكذا.

- إن الديانة المسيحية تعتبر ديانة التبشير بالقوة، وقد قتلت وذبحت باسم

مخلصها، وهي تعتبر أكثر الديانات غير المتسامحة في العالم، أكثر من الإسلام نفسه

بكثير. فباسم الرب نهبوا، وذبحوا وأحرقوا ملايين الأشخاص في المحرقة، وقالوا إن

النساء ساحرات وقتلوا كل امرأة مسكينة ووحيدة، وحرفوا كل فقرة في التناخ، العهد

القديم كما يسمونه بوقاحة، للتدليل على مسيحتهم. وبدلاً من أن يجلبوا الخلاص

للشعب اليهودي كما ادعوا، فقد جلبوا فقط الخراب والقتل له وللعالم كله. يا بني...

مهما حقرت ديانة محاكم التفتيش، التي لا تعرف التسامح، فكن واثقاً تماماً أنك لا

تتجنى عليها.

(١) أي لم يستعض فيهما عن الكلمات التي تناول عيسى عليه السلام بالنقاط، كذلك التي طبعت أيام اضطهاد اليهود. وكانوا وقتها يطبعون ملاحق توزع سراً، وتحتوي على العبارات المحذوفة.

(٢) ورد هذا أيضاً في ردود الأفعال اليهودية على فيلم ميل جيبسون في متدياتهم على الشبكة العنكبوتية، وبشكل عام فإن أغلب ما يرد على لسان أفيغدور حول هذا الموضوع مقبوس من تلك التعليقات.

- إن محاكم التفتيش كانت نتاج عمل الباباوات الفاسدين، وليست نتاج تعاليم المسيح.

فابتسم أفيغدور باستهزاء قائلاً:

- إنك متحمس للدفاع عن شخص بسببه تم ذبح الكثير من اليهود على مدار ٢٠٠٠ عام؟. وهذا يدل على ثقافتك الواسعة.

ثم تغيرت معالم وجهه كلية، وقال بغضب:

- لقد كان يسوع مخرباً، ومجرماً حُض على التمرد والإثارة، وأنا كأبي يهودي مخلص، أهنأ بالذات من قضية أن أسلافي اليهود ساهموا في صلبه، وأتخيله مشهداً مبهجاً للنفس.

- خالي أرجوك، لقد سمعت هذا مراراً في إسرائيل، ولكن لا داعي لترديده هنا، على الأقل احتراماً لمشاعر المسيحيين الذين يستضيفونك في بلادهم.

- أولئك الأغبياء لا يستحقون احتراماً.

ثم تنهد بحسرة قائلاً:

- آه. لقد مرت علي فترة هنا، حسبت فيها أن الناس قد أفاقوا من الإيمان الأحمق بذلك المسيح الكذاب.

- حسناً. أنت تعتبره مسيحاً كذاباً، وقد صلبه أسلافنا لذلك، أي إنه قد نال جزاءه وانتهى الأمر، فلم تتحدث عنه بهذا الحنق؟

- لأننا صلبنا مسيحياً واحداً، فماذا جرى؟؟؟؟. لقد حرقوا، وصلبوا، وذبحوا، ونكلوا، وأهانوا الملايين من اليهود المقدسين وقتما أرادوا. ولكن أتدري... أنت محق، دعنا من سيرة ذلك النبي الكاذب، فقد نال جزاءه في الدنيا، وهو الآن يحترق في بركة من البراز المغلي في جهنم، فلتنس أمره الآن، ولنعد إلى موضوعنا.

- تقصد تأثير اليهود على البروتستانتية؟

- بل تأثير حكماننا على المسيحية بشكل عام، بما فيها الكاثوليكية، بل على الفاتيكان تحديداً.

- أعرف ما ستقوله عن دور حكماء صهيون في دس باباوات يهود في الفاتيكان، وتهويد المسيحية، وتبرئة اليهود من دم يسوع^(١)، واعترافهم بإسرائيل، وإزكاء الحرب الصليبية ضد المسلمين من جديد، وما ماثل ذلك، ولكن لا تنس أن هذا كله ما كان ليحصل لولا الكم الهائل من حقوق المساواة والديمقراطية والتسامح التي أنعم بها العالم المسيحي، ومن ضمنه الفاتيكان، على أولئك الحكماء الطفيليين المستغلين، وليس نتيجة لقوتهم ونفوذهم كما تظن.

- يبدو أنك فعلاً لا تعرف على من تتكلم يا بن أختي، كما يبدو أنك لا تريد أن تفهم! إن الموضوع ليس مجرد استغلال للتسامح والمساواة والديمقراطية، بل سيطرة

(١) لا يزال يحتوي التلمود وبقية كتابات اليهود "المقدسة" على سخرية لاذعة ضد الأنجيل وضد من يطلقون عليه: "الابن المزعوم لله، غير الظاهر المولد، إذن والدته عاهرة يهودية اسمها مريم، وجندي روماني من جنود الاحتلال اسمه بانتيره". ويصف التلمود المعجزات التي قام بها المسيح "بأعمال من السحر مأخوذة من عبادة الشياطين ولذلك حُكم عليه بالموت لمحاولته إغراء الشعب اليهودي وحثه على الثورة". ووفقاً للتلمود فإن المسيح لم يُصلب وإنما تم رجمه ثم عُلق على شجرة. ويورد بيير دي جرانمزيون Pierre de Grandmaison في كتابه عن "يسوع المسيح" نصاً آخر يقول: "وأخيراً تمت محاكمته في ليذا واتهامه بالسحر والارتداد. وقد وُضع على عمود التشهد طوال الأربعين يوماً التي سبقت موته، وكان المنادي يعلن بصوت عال: هذا الشخص سيُرجم لأنه مارس السحر وأضل إسرائيل، وأي شخص يعرف شيئاً لتبرئته ليتقدم بشهادته وعلنها. لكن أحداً لم يتقدم، وتم إعدامه يوم الاستعداد لعيد الفصح. ويقول آخرون أنه تم رجمه"! . وهنا لا بد من الإشارة إلى موقف اليهود من المسيحية، فمع كل ما قدمه الفاتيكان من تنازلات تخرجه تماماً عن نصوص الأنجيل وعقائد المسيحيين بتبرئة اليهود من دم المسيح في مجمع الفاتيكان الثاني، وذلك رغم ٣٥ إشارة في إنجيل يوحنا وحده تتهم اليهود بقتل المسيح، فإن اليهود لم يغيروا من موقفهم ولا من نصوصهم التي تتهم مولد السيد المسيح بالسفاح والعياذ بالله.

ونفوذ وتسلط فعلي، وكل من يخرج عن السرب يلقي مصيراً محتوماً، وإن كان البابا نفسه. وكون أغلبية الناس هنا لا يشعرون أننا نعيش على غنائم الإمبراطورية السرية، فلأن هذا بالضبط هو المقصود.

تذكر أبراهام حديثه مع العجوز الإسرائيلية عن النظام العالمي الحالي، وكيف يسير وفق مخطط تآمري مرسوم بدقة. وقد قالت أنها كانت جزءاً من المؤامرة، واستخدمت التعبير نفسه الذي استخدمه خاله حرفياً^(١)، كما تذكر حديثه مع أفرام عن بروتوكولات حكماء صهيون، وما عرفه عن ذلك الموضوع بعد تحريره عنه^(٢)، عندها فقط بدأ أبراهام يفهم، وأدرك أن خاله جاد فعلاً، ويعي ما يقوله تماماً، فسأله مستدرجاً:

- لو كانت هذه إمبراطورية، فمن الإمبراطور؟ رؤساء الولايات المتحدة؟

- الإمبراطور هو شخص لا يُنتخب، لا يخدم لأجل محدود، لا يطيع أمر أحد في الأساس.

- من إذن؟

- احزر. من هم الذين يتصرفون بوصفهم الأباطرة الحقيقيين لهذه الإمبراطورية؟ من يسيطرون على وسائل الإعلام الأمريكي سواء بالملكية المباشرة أم عبر الإعلانات؟ من يسيطرون على معظم السياسيين، لأنهم يمولون حملاتهم الانتخابية؟ احزر من هم أولئك الذين: كل من تسول له نفسه بالوقوف بوجههم أو حتى الخروج عن نظامهم، يزاح بظروف غامضة؟!!!

- هل حدث أن قتل بابا خرج عن السرب؟!!!

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) المرجع السابق.



- بابا واحد؟! بل قل باباوات وكرادلة ورؤساء دول، وأي مسؤول يحيد عن المخطط المرسوم بدقة للنظام العالمي الحالي".

ابتلع أبراهام ريقه بصعوبة، فقد سمع هذه العبارة أيضاً من العجوز الإسرائيلية، وأحس أن أكثر ظنونه خيالية وجموحاً كانت مجرد جزء صغير من الواقع، فسأله بصوت مخنوق:

- من تحديداً؟

- كثيرون. ما رأيك أن نبدأ بالرئيس جون كيندي؟ فهو الأكثر شهرة بينهم.

- أقصد من الباباوات.

- هل سمعت بالبابا بولس السادس؟

- جيوفاني باتيستا مونيتي، ولد في كونشيزيو قرب بريشيا في سهل البو، شرقي ميلانو، سنة ١٨٩٧م. وزار الأراضي المقدسة ١٩٦٤م، وأنحاء عديدة في العالم في محاولات لتوطيد العدالة والسلام.

- يبدو أنك مهتم جداً بأولئك الحثالة. حسناً. بعد اكتشاف مخطوطات البحر الميت^(١) والعثور على ما اعتبر آنذاك "النص الكامل لسفر إشعيا" الذي فسره البعض بالتنبؤ بالنبي العربي^(٢)، تأثر البابا بذلك وصدرت عن الفاتيكان سنة ١٩٦٥ وثيقة كانت اعترافاً رسمياً مسيحياً بالدين الإسلامي، ولأول مرة، جاء فيها: "إن كل من

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) تجردون القصة الكاملة لسفر إشعيا والحوار الفاتيكاني الإسلامي في كتاب "الحوار دائماً" للدكتور شوقي أبو خليل. وفي مجلة العالم الإسلامي، العدد ١٢٢٩، الاثنين ١ ربيع الأول ١٤١٢هـ - الموافق ل ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩١م صفحة ٥، وعنوان الصفحة: الدكتور معروف الدواليبي الذي كان عضواً في الحوار يروي قصة الحوار بين الإسلام والمسيحية، كيف بدأ وعلام انتهى.

آمن بعد اليوم بالله خالق السماوات والأرض، ورب إبراهيم وموسى، فهو ناج عند الله وداخل في سلامه، وفي مقدمتهم المسلمون!"

- أيعقل هذا!!!

- ليس هذا فحسب، بل أمر إذاعة الفاتيكان أن تهنى المسلمين وملك ديارهم المقدسة^(١) في موسم حجهم لذلك العام، ثم وجه الفاتيكان دعوة رسمية لعلمائهم كي يبدؤوا حواراً وتعاوناً لا يُقصد منه البحث في أصول الدين، وإنما التعاون على ما يأمر به الدين بحقوق الإنسان.

- وهل بدأ الحوار فعلاً؟

- أجل، فقد كلف وزيره الكاردينال "بيمونوللي" برعاية الحوار وتحسين العلاقات بين الإسلام والكاثوليكية. وقبل بدء الحوار صدر عن مجمع الفاتيكان الثاني كتيب يقع في نحو (١٥٠) صفحة تحت عنوان "توجيهات للمسيحيين من أجل الحوار بينهم وبين المسلمين"، يثني فيه على الإسلام كدين، ويأسف لما سبق من خلاف بين الديانتين، ويطلب نسيان الماضي، ويذكر بأن المسلمين ناجون عند الله، عملاً بما اتخذته أعلى سلطة في الفاتيكان!!!

- هل بلغ تصديق البابا لنبوءة ذلك السفر المكتشف هذه الدرجة!!!؟

- بل غباؤه هو الذي بلغ تلك الدرجة العالية؛ فذلك الأحمق كاد يهدم بهية إيمانه الساذجة كل ما بنيناه لسنوات طويلة. فما إن بدأت اجتماعات الحوار الإسلامي المسيحي في الفاتيكان، حتى تلقى الوفد الإسلامي^(٢) دعوة

(١) الملك فيصل رحمه الله.

(٢) الوفد كان برئاسة أمين رابطة العالم الإسلامي آنذاك الشيخ محمد علي الحركان، وضم أيضاً مع الدكتور الدواليبي، الدكتور منير العجلاني، ومحمد المبارك، ومصطفى الزرقا.

من "مجلس الوحدة الأوروبية" في "نسترابورغ"، كما دعاهم "مجلس الكنائس العالمي" (البروتستانتية) في جنيف الذي يقابل الفاتيكان عند الكاثوليك، وأيضاً وزارة العدل الفرنسية، وكانت كل تلك اللقاءات^(١) تتم وفقاً لتلك الروح التي أعلنها الفاتيكان، والتي أحدثت دويّاً وتأثيراً عظيماً؛ فقد كانت تلك هي المرة الأولى في التاريخ التي يخرج فيها وفد من المملكة العربية السعودية، بناء على دعوة الغرب المسيحي، للقاء البابا.

- وهل قابلهم البابا بنفسه أيضاً؟!!!

- لم يكتف بذلك فحسب، بل طلب منهم الصلاة بمكتبه، ووقف ينظر إليهم كالأبله^(٢).

- وما الذي تمخض عنه الحوار؟

(١) قام الوفد بتقديم خمس ندوات حملت كلها عنوان: (حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام)، اختلف مضمونها حسب المحاضر من أعضاء الوفد، وطبعتها بالعربية الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. وكانت حسب تسلسلها الزمني كالتالي: ١- في باريس: في ٧ شوال ١٣٩٤ هجري - ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٤ ميلادي. ٢- في الفاتيكان: في ٩ شوال ١٣٩٤ هجري - ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٤ ميلادي. ٣- في مجلس الكنائس العالمي في جنيف: في ١٣ شوال ١٣٩٤ هجري - ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٤ ميلادي. ٤- في باريس (ثانية): في ١٧ شوال ١٣٩٤ هجري - ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٤ ميلادي. ٥- في المجلس الأوروبي في استراسبورغ: في ١٩ شوال ١٣٩٤ هجري - ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٤ ميلادي.

(٢) بعد مقابلة الوفد لقداسة البابا بولس السادس، نصحهم ألا يغادروا مقر البابوية، لوجود مظاهرة يسارية حاشدة وعنيفة في شوارع رومه. وعندما تذرعوا بقدم موعد صلاة المغرب وخوفهم من تفويتها، سألتهم قداسة البابا بطيبته وذوقه المعروفين: ألا يصلى هنا؟! فصلوا في مكتب البابا ممتنين لاهتمامه بسلامتهم، والبابا ينظر إليهم. وجدير بالذكر أن الدكتور مازن المبارك (أستاذ في "الجامعة الكاثوليكية" في باريس) يحتفظ بصورة للوفد وهو يصلي، والبابا ظاهر فيها.

- هه. كاد ينتهي إلى وقف التنصير الكاثوليكي في العالم الإسلامي، وبدء التخطيط لاستكمال عمل يسوع بتنصير اليهود^(١).

- ألم ينصحه أحد؟!

- بلى، فقد طلب السفير الإسرائيلي في روما مقابلة الكاردينال بيمونولي مع أنه لم يكن بين إسرائيل والفايكان تمثيل دبلوماسي بعد، وكان طلبه الزيارة باسم حكومة إسرائيل. وقد قال السفير الإسرائيلي للكاردينال بوضوح لا لبس فيه: "تطلب منكم وقف أي حوار بين الفايكان وبين المملكة العربية السعودية"، فرفض الأحمق!

- ألم يعط فرصة ثانية؟!

(١) في مقابلة مجلة العالم الإسلامي المشار إليها أعلاه قال د. معروف الدواليبي (مختصراً): "لقد قلت للكاردينال بيمونولي في جلسة خاصة في أثناء الحوار: إنني أحمل شهادة دبلوم في الحقوق الكنسية من جامعة باريس كدبلوم اختصاص، وإنني في أثناء قراءتي للكتاب المقدس بشكل متعمق لم أستطع أن أفهم بعض النصوص التي جاءت في الإنجيل وهي عميقة الإشكال عندي، ولم أجد حتى الآن من أ طرح عليه هذا السؤال، لأنه سؤال عميق، ويجب أن يكون المسؤول الذي سيتولى الإجابة عنه يتمتع بأعلى سلطة في الكنيسة، وهذه هي المرة الأولى التي أجمع فيها مع الرجل الثاني في الفايكان، فهل تسمح لي بأن أ طرح سؤالي؟ قال: تفضل. قلت: لمن أرسل المسيح؟ قال: يا دكتور، تقول إنك تحمل شهادة في الحقوق الكنسية، وأول شروط الحصول على هذه الشهادة أن يكون حاملها متعمقاً بدراسة الإنجيل، فكيف تسأل مثل هذا السؤال، وفي الإنجيل الجواب الصريح والواضح الذي يقفز في العيون؟ قلت: قول المسيح: "إنما أرسلت لخراف بني إسرائيل الضالة"؟! إشكالي هو هذا، وهي تعني أن مهمة المسيح كانت محصورة بالتبشير بين اليهود، فما معنى أنكم ترسلون المنصرين إلى المسلمين ولا ترسلون منصرًا واحداً إلى اليهود؟ وأضفت: إن اليهود يتهمون السيد المسيح بأنه ابن زنى، وأن السيدة العذراء زانية، ويؤكدون ذلك، وإنهم بالنسبة إلى المعتقد: يؤكدون بأنها ولادة من غير زواج. إلا أن الإسلام قد طهرها ودافع عن المسيح، وأنها عذراء، وبمعجزة ولدت، وأن المسيح ابن صحيح وليس ابن زنى، فكيف يكون ذلك وكيف يقول المسيح إنما أرسلت لخراف بني إسرائيل الضالة، ثم يرسل المنصرون إلى المسلمين وليس إلى اليهود؟! قال: غدا سوف أجيبك. وفي اليوم التالي، أعلن قرار مجمع الفايكان الثاني، أن الفايكان قرر وقف التنصير المسيحي الكاثوليكي في العالم الإسلامي، وكان ذلك في يوم وداعنا لهم، وعودتنا إلى الرياض".

- لا تظن أننا لا نعرف الرحمة، فقد عاد السفير وكرر الطلب، ورفض طلبه على مدى خمسة أيام متوالية!!! ليس هذا فحسب، بل بعث البابا بولس السادس برسالة إجلال واحترام إلى الملك فيصل رايماً له فيها ماذا جرى بين السفير الإسرائيلي في روما والكاردينال بيمونولي من إصرار على عدم تحقق لقاء الحوار بين الإسلام والمسيحية.

- غريب؛ فليس من التقاليد البابوية أن يبدأ البابا الكتابة لأي رئيس دولة! فقد جرت العادة، منذ القدم أن يتولى البابا الإجابة عن رسائل رؤساء الدول، لا أن يكون هو البادئ بكتابة الرسائل!!!

- أعرف، فقد أحدث ذلك ضجة كبرى في الفاتيكان. ألم أقل لك إنه كان أحمقاً!
- وما الذي حصل بعد ذلك؟

- لا شيء. فقط مات البابا بولس السادس فجأة، ودفن بلا تقرير طبي، ولا مراسم تشييع، وبعد أسبوع واحد فقط، مات أيضاً الكردينال بيمونولي الذي كان صلة الوصل مع الوفد الإسلامي. وبوفاتهما، توقف الحوار بين الإسلام والمسيحية^(١).

(١) في المقابلة المشار إليها أعلاه، والتي أجراها فيصل السماك مع د. معروف الدواليبي سأله قائلاً: ألا تعتقدون بأن موت البابا بولس السادس الفجائي، ومن بعده بقليل الكردينال بيمونولي كان من تدبير اليهود؟ أجاب: عندما انفصلنا، تواعدنا على أن تكون الندوة الثانية في الرياض، وفي هذه الفترة ذهب البابا وذهب الكردينال. . . ولا أريد أن أزيد على ذلك!! فألح عليه قائلاً: يتحدثون عن مواجهة حتمية ستحصل بين الإسلام والغرب يكون وراءها اليهود؟ فأجاب د. الدواليبي: الأب مبارك اللبناني الأصل، والمعروف بمشاعره الطيبة، وهو من كبار رجال الكنيسة والأستاذ في "الجامعة الكاثوليكية" في باريس، نشر مقالة في إحدى المجلات اللبنانية - وأنا أحتفظ بنسخة منها- في السنة ذاتها التي لبينا فيها دعوة الفاتيكان إلى الحوار، يحذر فيها من تأثير الصهيونية في الفاتيكان، ويؤكد بأن "عناصر" داخل الفاتيكان ترده عن سياسته الجديدة. ثم أضاف قائلاً: لا أريد أن يُقال على لساني، وإنما على لسان "أب" مسيحي كاثوليكي، وأستاذ في الجامعة الكاثوليكية في باريس، وأعتقد أنه ما زال على قيد الحياة، على ما أعلم. وعندما ألح عليه أكثر قال د. الدواليبي: لقد قلت إن الأب مبارك هو الذي أعلن أن هناك تأثيراً صهيونياً في الفاتيكان، وهو يتحمل مسؤولية ما قال ونشر علناً سنة ١٩٧٤ .

والآن دعنا من كل هذه التفاهات، فهذان المسيحيان قد نالا جزاءهما كriebهما المصلوب، ولا داعي لإضاعة مزيد من الوقت في التحدث عنهم، ولنتحدث بما هو أهم، فقد سمعت أنك بعث شقة أمني بمبلغ محترم، ما رأيك أن أستثمره لك في بيع السيارات؟ إنها تجارة مربحة جداً.

نطق أفينغدور عباراته الأخيرة بحسد وغيره لم يستطع إخفاءهما، لكون أبراهام دون بقية العائلة هو من حصل على الشقة، التي كان ينبغي أن تكون من نصيبه هو وإخوته، فقال أبراهام متهرياً:

- ولم لا؟ سأفكر بالأمر.

- إذن هيا بنا إلى المنزل، فزوجتي متشوقة جداً لرؤية أحد أقاربي، كما أنه لدينا مأدبة كبيرة اليوم، وهذا من حسن طالعك.

- وما المناسبة؟

- لقد دعونا "آل آدمز" إلى العشاء، وهما من عليا المجتمع هنا.

- خالي، أنا لا أريد أن أكون متطفلاً، أو أن أسبب لكما أي نوع من الإزعاج. استقبلوا ضيوفكما اليوم كما خططتما سابقاً، وسأتعرف زوجتك غداً.

- ليس هناك أي إزعاج في الموضوع، فالمأدبة ستقام على أية حال، ولن يؤثر فيها كون الحضور أربعة أو خمسة. ثم إنني أريدك أن ترى عن قرب تأثير اليهودية على أولئك الأوباش.

- وهل تهود السيد آدمز وزوجته؟

- بل ألعن؛ فإن "فيكتور" و"نانسي" لا يزالان مسيحيان، ولكنهما يمارسان طقوس

الكابالا^(١).

- تقصد مثل "بريتي سبيرز"^(٢)!

- تماماً، بل هما من أصدقائها وأصدقاء "باريس هيلتون"^(٣)، والزوجان الشهيران "ديفيد وفكتوريا بيكهام"^(٤)، و"ديمي مور" و"جون ترافولتا" و"هيو جاكمان" و"ينونا رايدر"، وكثيرين آخرين ممن يعتقدون الكابالا من مشاهير المجتمع.

فهز أبراهام رأسه بأسى قائلاً:

- ولكن الكابالا هي قمة التصوف، وواحدة من أعقد الفلسفات الدينية! فهي تتعمق برموز غامضة وباطنية طبيعة الرب والكون، وهي معقدة لدرجة أنه طيلة قرون لم يسمح بدراستها إلا للرجال اليهود المتدينين جداً ممن تعدوا الأربعين وكرسوا حياتهم في خدمة الدين اليهودي ودراسة الشريعة^(٥).

(١) مذهب صوفي في تفسير الكتاب المقدس، يقوم على افتراض أن لكل كلمة ولكل حرف فيه معنى خفياً. وأن مصدر كل شيء هو الله، وأن الشر هو نتيجة البعد عن الله، وأن الروح الإنسانية أزلية، وإذا كانت طاهرة تفوقت على الشر، وأن لأسماء الله قوة خفية. ومصدر هذا المذهب هو "كتاب الخلق" عند اليهود مع دخول بعض تعاليم "فيثاغورس" العددية بما يعرف بمذهب عبادة الأعداد، وأفكار "أفلاطون" الميتافيزيقية، وحالياً بعض تعاليم المسيحية. وأتباع هذا المذهب يؤمنون بتناسخ الأرواح. والمذهب يرسم طريقة عددية في التفسير والتأويل وبعض فنون السحر والتنجيم والشعوذة. وقد نشأ المذهب في القرن السابع، واستمر بسرية حتى القرن الثامن عشر الميلادي. وهو محاولة ترمي إلى إدخال روح مستحدثة في اليهودية، وقد اضطلع أنصاره بشده في العصور السابقة.

(٢) مطربة البوب المشهورة، وهي من أكبر الدعاة إلى الكابالا.

(٣) الفتاة المدللة الخليعة وريثة صاحب سلسلة الفنادق الشهيرة "هيلتون".

(٤) لاعب كرة القدم وفتى الإعلانات المشهور، وزوجته المغنية السابقة بفرقة "سبايس جيرلز".

(٥) آخر صرعة للكابالين اليهود هو ما أثاروه عقب زيارة "جو بايدن" نائب الرئيس الأمريكي باراك أوباما إلى المنطقة، حيث اعتبروا أن زيارته أتت في وقت "توجد فيه طاقة هائلة"، قبل عطلة عيد الفصح التي تبدأ في وقت لاحق من ذلك الشهر (آذار/مارس ٢٠١٠)، وأن "الرموز" التي رافقت تلك الزيارة هي إشارات سلبية أو "نذر شؤم"! فأولاً ألغى الرئيس المصري حسني مبارك محادثات في القاهرة وسافر =

- أنت تتحدث عن الماضي يا بني، فقد أصبحت الكابالا عند هؤلاء "صرعة" جديدة يتنافس فيها المشاهير المسيحيون.

- ولكن ألا يثير ذلك حنق الكنائس المسيحية؟

- إف. بيدو أنك لم تستوعب حقيقة التأثير اليهودي هنا بعد. ففي صيف ٢٠٠٦ أي بعد سنتين من "حجها" إلى إسرائيل، ظهرت "مادونا"^(١) خلال عرضها الأول في لوس أنجلوس الذي كان ضمن جولة تحمل اسم "اعترافات"، وهي مصلوبة على صليب عملاق معلق، ومغطى بالمرايا، وكان على رأسها تاج من الشوك، فيما أظهرت شاشات الفيديو صوراً تعبر عن الفقر الذي يعيشه العالم الثالث، وعرضت إحصاءات تبعث على الكآبة. وحينها قال رئيس الرابطة الكاثوليكية في الولايات المتحدة "بيل دونوهي" في معرض انتقاد الكنيسة التي يمثلها لتلك الإهانة: "إن مادونا كانت تعد العدة منذ فترة طويلة لعرضها بتخييلات مسيحية غير لائقة. أظن أنه يصعب عليك فعلاً تعليم مغني بوب قديم خدعاً جديدة. فمادونا المسكينة تواصل محاولة إحداث صدمة، إلا أن ما تتجح في تحقيقه فعلاً هو تأكيد أنها متعصبة بشكل مضجر"، ولم يجروء على انتقاد الكابالا، بل إنه مدحها قائلاً: "ظننت أن اعتناق المغنية عقيدة الكابالا قد يزرع فيها احتراماً جديداً للدين". تصور! هذا ما قاله فعلاً "احترام جديد للدين"!! مع أن مادونا كانت ترتدي في ذلك العرض نفسه ملابس جلدية سوداء، مرتبطة بالممارسات الجنسية "المازوشية" و"السادية"، وممسكة بسوط منشدة أغنياتها الجديدة "أحباب

= لإجراء جراحة لاستئصال الحوصلة المرارية، وبعدها كسر رئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو هديته إلى بايدن دون قصد، ثم انقطعت الكهرباء بشكل غريب في أثناء زيارته لمتحف المحرقة النازية، وبعد توجهه إلى الأردن حيث كان مقرراً أن يزور مدينة البتراء، حذرت الأرصاد الجوية من عاصفة رملية قد تهب على المنطقة.

(١) أشهر من يجاهر بعقيدة الكابالا في العالم وقد ضمنت الرموز الكابالية والأحرف العبرية في بعض كليباتها.

المستقبل". وظهر حولها أربعة راقصين لا يغطي صدورهم إلا النزر اليسير من الملابس، ويضعون على أفواههم ما يشبه لجام الخيل، مباشرة قبل مشهد الصلب المثير للجدل. ولم تكتف مادونا بتحقيق المسحوق، بل حققت رئيس الولايات المتحدة آنذاك بوش الابن؛ فخلال أداء أغنيتهما "أحب نيويورك" في ذلك العرض، خرجت مادونا عن النص، ووجهت إشارة نابية إلى الرئيس الأمريكي مع بعض الحركات ذات الإيحاءات الجنسية.

- غريب!

- ولو تمعت بصور أصدقاء فيكتور ونانسي من المشاهير الذين ذكرتهم لك، وبصور كثير من بقية المشاهير، لوجدت خيطاً أحمر^(١) يلفونه حول المعصم الأيسر.

- يبدو الأمر مثيراً فعلاً، ولكنني مع ذلك لا أربح بالتطفل عليكم.

- صدقني ليس هناك أي تطفل في الموضوع.

ثم غمز به طرف عينه قائلاً:

- كما أنك بذلك توفر علينا إقامة مأدبة خاصة للترحيب بك، لا تتس أننا يهود

ونحسبها جيداً.

- إذا كان الأمر كذلك فأنا موافق.

رد أبراهام ضاحكاً.

(١) الخيط الأحمر يعتبر من أهم رموز الكابالا.

أصدقاء، ولكن

رحبت "غيلا" بأبراهام أجمل ترحيب، وسرعان ما اكتشف قوة شخصيتها والتزامها الديني، اللذين كانا ولا ريب من الأسباب المهمة وراء انتقال خاله إلى مذهبها الذي يعرف بـ "الأرثوذكسية الجديدة"^(١). كما اكتشف أنها ربة منزل ممتازة أيضاً، فرائحة طهيها الشهية قد أسالت لعابه، وعادت به إلى ذكريات الوطن وطهي أمه المميز. ولكن مع ذلك كله، ومع أنها قد بدت له مضيافة مرحة ولطيفة المعشر، إلا أن أبراهام، ولسبب خفي مبهم، لم يرتح لها تماماً.

وبعد قليل وصل آل آدمز. كانا محدثين لبقين، وذوي شخصيتين جذابتين محببتين، ولم يجد أبراهام صعوبة في التواصل والتأقلم مع تلك الصحبة المثيرة، التي لم تكف عن تبادل الأحاديث الممتعة، والفكاهة طوال تناول الطعام. ولكن عندما جلس الجميع حول المدفأة وهم يحتسون الشراب، بدأ الحديث يأخذ منحى آخر بعد تلميح خاله حول تأثير اليهودية على المسيحية، ليثبت لابن أخته الفرصحة زعمه. إلا أن ذلك التلميح لم يعجب فيكتور كثيراً، فقال مدافعاً:

- على العكس من ذلك تماماً يا عزيزي أفيفدور، فأنا أرى أن هناك في الحقيقة تنصييراً واضحاً لليهودية.

- ماذا؟ وكيف ذلك.

(١) مصطلح يطلق على الفرق اليهودية الأرثوذكسية المعتدلة، والتي تقبل مقولات اليهودية الأرثوذكسية الدينية والأخلاقية، ولكنها تأخذ موقفاً وسطاً في بعض المسائل التفصيلية مثل ارتداء الأزياء الحديثة وحلاقة الذقن وقص السوالمف وحرية المرأة.

ردت غيلا باستهجان مشوب بالسخرية التي لم تحاول إخفاءها. فقال فيكتور بشيء من الضيق:

- منذ القرن الرابع عشر، عاشت أغلبية يهود العالم الغربي في تربة مسيحية، وتأثروا بها، ويعد يهود "المارانو"^(١) هم أهم العناصر التي ساعدت على تصير اليهودية حيث أشاعوا الكابالا، وخصوصاً الكابالا اللورانية، التي استوعبت كثيراً من الأفكار المسيحية لدرجة أن أتباع المفكر الكابالي "أبو العافية" تصوروا بشكل جماعي لاكتشافهم الشبه بين نسقه الفكري وبين المسيحية.

- إن يهود المارانو قد فرضت عليهم المسيحية كثمن للنجاة من اضطهاد محاكم التفتيش التي أقامها المسيحيون، وقد ظلوا مخلصين لدينهم اليهودي سراً. وعندما يشيعون الكابالا، فهم يساهمون في الواقع في تهويد المسيحية وليس العكس.

- بل الحقيقة هي أن كثيراً من المارانو كانوا مسيحيين صادقين في إيمانهم، وفرضت عليهم اليهودية فرضاً بسبب غياب محاكم التفتيش وعنصريتها. ولذا، فإنهم كانوا يفكرون من خلال إطار مسيحي كاثوليكي في الواقع. حتى أولئك اليهود المتخفون الذين احتفظوا بيهوديتهم سراً، فقد أصبح إطارهم المفاهيمي كاثوليكياً. فهم، على سبيل المثال، كانوا يؤمنون بالقديسة "سانت إستير"، بل إن بعض شعائرتهم تأثرت بالشعائر المسيحية وتأثرت رؤيتهم للمسيح برؤية المسيحيين للمسيح.

- ربما كان هناك شيء من هذا القبيل، ولكنه لم يتعد ذلك الحد بأي حال من الأحوال.

(١) أي المتخفون، والمارانو من كلمة "مراني". وهم يهود شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال) أي السفارديم، وتحديدًا الذين أبطنوا اليهودية وادعوا الكاثوليكية، كي لا يقتلوا أو يهجرُوا بعد سقوط الإمارات الأندلسية الإسلامية.

- لا أظن أن الأمر قد توقف عند تلك الفئة من السفارديم، بل استمر التأثير بالمسيحية بين كثير من الأشكنازيم أنفسهم، فقد كانت مراكز اليهودية الحاخامية في أوروبا الشرقية في المدن الكبرى، أما أغلبية اليهود فكانوا يعيشون مع الفلاحين "السلاف"^(١) جنباً إلى جنب، بعيداً عن قبضة المؤسسة الحاخامية، فاصطبغ فكرهم الديني بصبغة فلكلورية سلافية أرثوذكسية مسيحية، كما أن عناصر مسيحية عديدة تداخلت بالنسق الديني اليهودي.

- وكيف ذلك!!!

- بزعم الحاخامات الحسيديم أن المشنا مثلاً هو تجسيد لـ"اللوجوس"، تماماً بالمسيح عندنا. ولعل تفسير "راشي"^(٢) للاختيار بأنه سر من الأسرار، هو أيضاً تأثر بالمفاهيم المسيحية الخاصة بحادثة الصلب باعتبارها سرّاً من الأسرار الإلهية التي يؤمن بها الإنسان دون أن يتساءل عنها.

- لكن مثل هذه الأفكار يمكن أن تولد داخل أي نسق ديني إيماني دون أي تأثر بأنساق دينية أخرى! فتعيين بعض الأفكار التي لا يمكن التساؤل عنها أو عن سببها مسألة أساسية في كل دين، بل في كل العقائد وضمن ذلك العقائد العلمانية أيضاً.

- هذا صحيح. ولكن يصعب أن نقول الشيء نفسه عن قول الحاخامات إن المشنا هي لوجوس خلق قبل الخلق.

- إن هذا الأمر مبهم في اليهودية.

(١) الروس وبقية الأوربيين الشرقيين.

(٢) من أبرز شراح المشنا.

- إذا كان هناك إبهام ما في حالة اليهودية الحاخامية في بدايات العصور الوسطى، فإن الأمر يختلف تماماً بعد هيمنة الكابالا. ويمكننا الآن أن نلاحظ بوضوح العديد من نقاط التلاقي بين الكابالا وبعض العقائد المسيحية.

- أنت واهم.

- لا أظن ذلك، لأن أهم مفاهيم الكابالا، "التجليات النورانية العشرة"، هو صدى لفكرة الثالوث الأقدس عندنا (الآب والابن والروح القدس) وكذلك إذا كانت المسيحية ترى أن الكنيسة جسد المسيح، وأن المسيحي يشكل جزءاً من هذا الجسد، فإن الكابالا جعلت التجلي العاشر للإله هو "كنيسة إسرائيل" نفسها (جماعة إسرائيل) وفي هذه التجليات، نجد أن التجلي الثالث هو "الآب العلوي" أو السماوي. أما التجلي الثاني، فهو "الأم العلوية" أو السماوية، وهما يتزاوجان وينجبان التجلي السادس، وهذا صدى لفكرة ابن الإله وابن الإنسان. والتجلي السادس هو "الملك والعريس"، وتربطه علاقة بالتجلي العاشر "شخيانه"^(١) التعبير الأنثوي عن الإله والملكة

(١) شخيانه Shekhinah تعني حرفياً "السكون"، وترجمها الفيلسوف والمفكر الديني "هرمان كوهين" بتعبير "الراحة الأزلية" وقد جاءت في العهد القديم في (خروج ٢٥ : ٨، ولاويين ١٦ : ١٦) للدلالة على أن الإله "يسكن" وسط شعبه، وأنها تكفر عن نجاسة بني إسرائيل. ويؤكد التلمود أنها كانت تحل في خيمة الاجتماع ثم في الهيكل ثم حلت في وسط الشعب بعد هدمه، وهي تتلبس اليهودي حينما ينفذ التعاليم الإلهية، وتتحول إلى حقيقة فعلية، أي تتجسد في الأشخاص والأماكن والأشياء ذات القداسة، وخصوصاً في ساعات الدروس الدينية والصلاة؛ أي إنها تتجلى داخل الزمان والمكان وفي الشعب اليهودي بأسره. وللأسف فهي تتجسد في الكابالا بشكل أنثوي تمارس الجنس وتشتهي الابن (الملك الشمس) "سوف" وتغتصب من قبل الشيطان وتدغدغ أئدها... إلى آخره من الشذوذ والدعارة التي يندى منها الجينين. ورغم تحفظي على المفاهيم الجنسية الفاضحة التي يضيفها الكاباليون على الرموز الدينية، إلا أنني أظن - والله أعلم - أن الشخيانه في التوراة هي نفسها "السكينة" في القرآن الكريم، والتي ينزلها الله تعالى على الأنبياء والمؤمنين الذين يتدارسون أمور الدين، ولكن أهل الكتاب مع تراكم المحدثات والتبديل، أسأوا فهمها وغلوا في ذلك كشأنهم مع الكثير من عقائدهم الأخرى.

والعروس^(١)، وفي حادث "تهشم الأوعية"، ونفي الشخيناة نجد صدى لحادثة الصلب، كما أن إصلاح الخلل الكوني "تيقون" فيه أيضاً صدى لبعث المسيح بعد الصلب. وهناك من يذهب إلى أن الشخيناة هي أم الشعب اليهودي التي تشفع له عند الإله، وأنها الوسيط بين الإله والكون، فهي إذن تشبه العذراء مريم في اللاهوت الكاثوليكي. كما أن الشخيناة هي أيضاً جماعة يسرائيل وجزء من جسد الإله، وهذا يشبه المفهوم المسيحي التقليدي (الكاثوليكي والأرثوذكسي) للكنيسة.

- أعترف أن مقارنتك لمفاهيم الكابالا بالمفاهيم المسيحية أمر مثير فعلاً، ولكن ليس الأمر كما تحاول التلميح إليه.

(١) يذكر البروفيسور "إسرائيل شاحك" رئيس رابطة حقوق الإنسان في فلسطين المحتلة، في صفحة ٥٥ من كتابه "التاريخ اليهودي والديانة اليهودية... وطأة ثلاثة آلاف سنة" حول موضوع الممارسة الجنسية بين أولئك الإلهين المزعومين عند الكابالين: "أن الصلوات والتصرفات الدينية الأخرى، كما تؤول كبايلاً، يقصد بها خداع الملائكة الذين يصورون كآلهة من درجة أدنى ويملكون بعض الاستقلال، أو لاسترضاء الشيطان. وفي جزء محدد من صلاة الصبح تتلى بعض الآيات بالأرامية بدلاً من العبرية ويفترض أن القصد هو خداع الملائكة الذين يحرسون البوابات التي تدخل صلوات الأتقياء (الحاخامات) عبرها إلى السماء، لأنهم لا يستطيعون منعها من الدخول، فالملائكة لا تفهم إلا العبرية، والآيات الأرامية تربكها. لذلك تفتح الصلوات ودعوات الحاخامين الكابالين الأرامية البوابات حيث يكون الإلهان لإتمام الاتحاد الجنسي المقدس بين الابن والابنة الزوجين (الشقيقين الإلهين) ليتمكنوا من ممارسة الجنس فيما بينهما". وعن استرضاء الشيطان يذكر شاحك: "في المناسبة الأخرى (في الصلاة والأدعية اليهودية) يمجّد الشيطان الذي يحب الصلوات والطقوس اليهودية كثيراً، ولذا فهو ينشغل (أي الشيطان) بها عند تلاوتها أو أدائها وينسى لبرهه مضايقة الابنة المقدسة بممارسة الجنس معها (مع ابنة الله). ويعتقد الكاباليون اليهود الأرثوذكس المتشددون، وما أكثرهم في الكيان الصهيوني المصطنع، ومعظمهم كاباليون متطرفون من كل الأحزاب تقريباً، والكثير من السياسيين والعسكريين والحاخامات أيضاً، يعتقدون أن بعض الأضاحي (القرابين) التي تحرق في المعبد كانت في الأصل قربان للشيطان. مثلاً السبعون عجلًا (المخضيات) التي يضحي بها خلال أيام الخيمة (العريش) السبعة، يفترض أنها قربان للشيطان باعتباره حاكم غير اليهود لإبقائه مشغولاً، فلا يتدخل (جنسياً مع ابنة الله زوجة شقيقها ابن الله) في اليوم الثامن عندما تقدم القرابين. وفي الكابالا اللورانية، نجد أن هناك أباً وأماً يكونان النمط الأعلى للزواج المقدس. ثم يذكر المؤلف بما قاله أحد الحاخامات المعارضين للكابالا: "إذا كان المسيحيون يؤمنون بثلاثة آلهة فالكاباليون يؤمنون بعشرة".

- أنا لا ألمح بل أصرح. حتى إن بعض الباحثين يرون أن ثمة تأثيراً في الفكر الشبتائي^(١) بالتراث المسيحي، يتبدى في شخصية المشيخ. فالمسيح يسوع هو تجسد الإله في ابنه الذي يصلب، والمشيخ عند الشبتائيين، هو أنه ابن الإله البكر الذي ينزل إلى الظلمات والدنس فيرتد عن اليهودية ويتحول إلى الإسلام أو يتظاهر بذلك، وتحوله شكل من أشكال الصلب، فكأن المشيخ المرتد هو المسيح المصلوب، ولكن تحوله، مثل الصلب، مسألة غير حقيقية، فالمؤمنون يرون أن هذا هو عالم الظاهر والحس كل ما فيه زائف، ويظل الباطن (القيام والطهر) هو الحقيقة. والفارق بين الشبتائيين المعتدلين والشبتائيين المتطرفين يتمثل في موقفهم من هذه الفكرة؛ فالمعتدلون منهم يرون أن عليهم الإيمان حتى يظهر المشيخ المتحول (المرتد)، أما المتطرفون فيرون أن الإيمان لا يكفي وعليهم أن يتشبهوا به وأن يتحولوا هم أيضاً^(٢)؛ أي يدخلوا في الإسلام، وبذلك ينزلون إلى عالم الدنس مثل المشيخ المرتد المدنس. بل يرى بعض الباحثين أن الشبتائية نفسها تؤمن بالوث هو: الإله الخفي (النور غير العاقل)، وإله جماعة يسرائيل (النور العاقل)، والشخيانه (جماعة يسرائيل). وهذا التثليث هو صورة سوقية مشوهة للثالوث الأقدس عندنا.

- إن الشبتائية حركة مرتدة عن اليهودية ولا تصلح للقياس عليها.

- حسناً وماذا عن الفرانكيين^(٣) وثالوثهم: "الأب الطيب" و"الأخ الأكبر" والأم "علماء" أو العذراء "بتولاه"، التي هي خليط من الشخيانه والأم العلوية يشبه مريم

(١) نسبة إلى "شبتاي زيفي" وهو مدع للمشيخانية، تبعه الكثير من اليهود، ثم أسلم بعد اعتقاله من قبل العثمانيين، فتخلت عنه الأغلبية، وظلت قلة على ولائها له، وتبعته في إسلامه الظاهر. وهم من صاروا يعرفون بـ "يهود الدوئمة" (دوئما في التركية تعني متحول).

(٢) "متحول" بالتركية تلفظ: "دوئما".

(٣) نسبة إلى "جيكوب فرانك"، وتعود نشأة الحركة الفرانكية إلى عام ١٧٥٩ وهي حركة شعبية باطنية ترفض سلطة التلمود.

العذراء. والثالوث الفرانكي يضم كثيراً من عناصر الثالوث المسيحي بعد تشويهاها تماماً.

- والحركة الفرانكية أيضاً لا تصلح للقياس عليها، وللسبب نفسه^(١).
- قد يمكنك قول ذلك دون معارضة تذكر، ولكن ماذا عن الأرثوذكسية اليهودية؟ فمجرد تسمية "الأرثوذكسية" هي تأثر واضح بالمسيحية.
- هذه مجرد تسمية متعارف عليها (تعني الرأي القويم) للمذاهب التقليدية وليست مقصورة على المسيحية.
- ولكنك لا تستطيعين إنكار أصلها اللاتيني، ونكهتها المسيحية الخالصة. ثم ماذا عن الحركة الحسيدية التي يعتقد الكثيرون أنها جوهر اليهودية، أو اليهودية الخالصة؟
- هل ستعود إلى الحديث عن اللوجوس ثانية؟!
- لن أحتاج التكرار، فهناك مجالات عديدة أخرى من تأثر الحسيدية الواضح بالمسيحية الأرثوذكسية السلافية، وخصوصاً بعض الجماعات المتفرعة منها مثل "الدوخوبور" و"الخليستي"^(٢)، وتعد الجماعة الأخيرة أقرب الفرق المسيحية الأرثوذكسية إلى الحسيدية، فقد كان قادتها يعتقدون أن الروح القدس تحل في قائد الجماعة (التساديك عند الحسيديم)، لذا فهو مسيح قادر على الإتيان بالمعجزات. وكان التساديك يشبه القديس المسيحي في مقدرته على الشفاء والإتيان بالمعجزات، كما كان أحد أبرزهم، وهو "نحمان البرتسلافي"، يستمع إلى "اعترافات" تابعيه، ويقوم بالإجراءات اللازمة ليحصلوا على "صكوك الغفران"، والتي كان يسميها التساديك

(١) تنصر فرانك هو مجموعة من أتباعه على الطريقة المارانية وأبطنوا اليهودية.

(٢) الأولى تعني "المتصارعين مع الروح" والثانية تعني "من يضربون أنفسهم بالسياط"، وهما جماعتان مسيحيان قديمتان، نشطتا في الإمبراطورية الروسية.

"فدية النفس"^(١)، وكل تساديك أصبح مسيحاً، له أرضه المقدسة التي لا ينافسه فيها أحد. بل إن مصطلحاً مثل "الحمل بلا دنس" وهو مصطلح يتضمن مفهوماً مسيحياً بعيداً كل البعد عن روح اليهودية الحاخامية، وجد طريقه إلى الحسيدية من خلال الخليستي. فكان الخليستي يعيشون بعيداً عن زوجاتهم باعتبار أن الإله شاء أن تحمل العذراء فحملت، وكذا الأمر معهم. وهذا ما فعله مؤسس الحسيدية نفسه (بعل شيم طوف)، فعندما ماتت زوجته، وعرض عليه أن يتزوج من امرأة أخرى احتج ورفض قائلاً إنه لم يعاشر زوجته قط، وأن ابنه هرشل قد ولد من خلال الكلمة "اللوجوس" دون دنس. وتظهر الفكرة نفسها في "عذراء لادومير"^(٢).

هنا تدخل أفيغدور قائلاً:

- أنا نفسي كنت حسيدياً، ولأجل هذه الأمور وغيرها تركت الحسيدية. ولكنني أجد نفسي مضطراً إلى القول أن معجزات بعض التساديك، وادعاء بعل شيم طوف أن ابنه ولد دون تدخل بشري لا علاقة له بالمسيحية من قريب أو بعيد. وعلى كل الأحوال، فقد حصلت هذه الأمور في عصور التصوف والجهل والتخلف ولا مكان لها اليوم.

- وماذا عن عصرنا هذا، حيث تأثر "مارتن بوبر"^(٣) بالفكر المسيحي البروتستانتي عن طريق مسألة تجسد الإله بشكل شخصي للمؤمن؟ كما يظهر تنصر الخطاب الديني اليهودي تماماً في خطاب الفيلسوف الصهيوني البرغماتي "هوراس كالن"، الذي يرى أن اليهود أمة روحية، وأن ذكرياتهم وآمالهم ومخاوفهم وعقائدهم ومواثيقهم، تضيء

(١) بالعبرية "فيديون نيفيش". راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) وهي تساديك أنثى امتنعت عن الزواج وكان لها أتباعها، لكنهم انفضوا عنها بعد زواجها.

(٣) مفكر ألماني يهودي متطرف في حلوليته ووجودي النزعة، كان لا يؤمن باليهودية الحاخامية أو بضرورة تطبيق الشريعة، ولم يقرأ التلمود على الإطلاق. ومع هذا، فإنه يعد من أهم المفكرين الدينيين اليهود في القرن العشرين وأحد كبار مفسري العهد القديم. وهو من دعاة التصوف اليهودي، ويعتبر أحد أهم مفكري الصهيونية ذات الدياجات الثقافية.

على نضالهم القومي وأعمالهم ووسائلهم قداسة خاصة. ويحول هذا البعد الصوفي المقدس "المادة الفظة" التي تتكون منها حياة اليهود اليومية تحويلاً كاملاً، يوافق ما تفعله العقيدة المسيحية الخاصة بالوجود الحق حين تحول العشاء الرياني في فم المؤمن الحقيقي إلى "جسد المسيح".

كان أبراهام مدهوشاً من عمق تحليلات فيكتور ومنطقية إسقاطاته، التي لم يتنبه لها سابقاً. وسرح رغباً عنه في استشهاد أحمد من القرآن: "بعضهم أولياء بعض"، ولكنه ما لبث أن أفاق على صوت غيلا الغاضب بعد أن عادت لاستلام دفعة الحديث قائلة:

- أنت تخلط الأمور بعضها ببعض في سبيل إثبات نظرية عارية من الصحة تماماً.

- لماذا؟ ألم يظهر مؤخراً ما يسمى "لاهوت موت الله" أو "لاهوت ما بعد أوشفيتس"^(١) الذي كان الرد على كفر بعض اليهود بوجود الله الذي سمح بالإبادة النازية لشعبه المختار! ألم يفسر ذلك عن طريق القول بأن حادثة الهولوكست هي "حدث مطلق يتجاوز الفهم الإنساني"، لذا فعلى المرء تقبله دون تساؤل باعتباره "سراً من الأسرار" أو "بارادوكسا"^(٢)؟

- إن هذا هو مجرد رد من البعض على تزايد معدلات العلمنة والإلحاد داخل العقيدة اليهودية.

- وأوافقك على ذلك يا عزيزتي، ولكن يمكننا أن نلاحظ أيضاً أن هذا اللاهوت هو تعبير عن تنصير النسق الديني اليهودي. فحادثة الصلب في الرؤية المسيحية هي اللحظة التي ينزل فيها الإله إلى الأرض متجسداً في شكل ابنه فيصلب فداء للبشر،

(١) أشهر معسكرات المحرقة المزعومة.

(٢) وهي فكرة مبنية على أمور متناقضة عصية على الفهم الإنساني.

وهي حادثة تتجاوز الفهم الإنساني، وعلى الإنسان تقبلها بكل تناقضاتها دون تساؤل! أي كسرٌ من الأسرار، وهي التي تعطي مغزى للتاريخ. وستجدون أن ما حدث داخل عقل المفكرين الدينيين اليهود هو أن "الابن" أصبح الشعب اليهودي المقدس الذي جاء إلى هذا العالم فاضطهده الأغيار (الغوييم)، إلى أن تمت حادثة "الصلب" على يد النازيين، فنظروا إلى هذه الحادثة التاريخية باعتبارها الواقعة الأساسية في تاريخ اليهود الحديث، بل في تاريخ اليهود بأسره، ويشكل هذا استمراراً للنمط التصيري القديم نفسه، وقد أخذ المفهوم المسيحي (نزول الابن وصلبه وقيامه)، وقام بتحويلها إلى شيء مستمر عبر التاريخ. وفي هذه الحالة، يكون ظهور الشعب اليهودي في التاريخ هو "النزول"، وتكون الكوارث التي لحقت به (ابتداء بالخروج من مصر وانتهاء بالإبادة) هي "الصلب"، أما "القيام" فهو عودة الشعب اليهودي إلى أرض إسرائيل، وقيام الدولة اليهودية.

- هذه مجرد فلسفة مزاجية، وتلاعب بالألفاظ.

- حسناً. فكيف تفسرين تزايد أعداد اليهود الذين يؤمنون بالمسيحية، ولكنهم يحتفظون بيهوديتهم؟ وأبرزهم حالياً جماعة "يهود من أجل المسيح".

- إنهم لا يؤمنون بيسوع الناصري كإله، بل كواحد من أنبياء إسرائيل. ولو راجعت التاريخ لوجدت أنه منذ البداية كانت هناك بعض الجماعات المرتدة من اليهود التي آمنت بتعاليم يسوع، ولكنهم رفضوا دعوة بولس للتأليه والتثليث، وظلوا متمسكين بالنواميس اليهودية التوحيدية، مثل "الأبيونيين" أو "الأسينيين"^(١)، وقد ظلت هذه الفرق قائمة إلى أن انفصلت تماماً عن اليهودية، وخصوصاً بعد أن أدخل الحاخامات

(١) الأبيونيون هم أنفسهم الأسينيون أو العيسويون في مرحلة تاريخية لاحقة. ولزيد من المعلومات عنهم وعن غيرهم من المسيحيين الموحدين راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

في "الثمانية عشر دعاء"^(١) الدعاء الثاني عشر الذي يشير إلى المينيم، أي المرتدين، ويلعنهم. وكان الهدف من إدخال هذا الدعاء منع المسيحيين اليهود من المشاركة في الصلاة، وهؤلاء لم يعودوا يهوداً ولكنهم لم يصبحوا مسيحيين^(٢)، وعليه فالاستشهاد بهم باطل أيضاً.

- ليس ذلك ما أعنيه. ولكن لنسلم جدلاً بصحة ما ذهب إليه، فكيف تفسرين إذن نقصان عدد اليهود في العالم من سبعة ملايين في القرن الأول الميلادي، إلى أقل من مليون في بداية العصور الوسطى (في الغرب)، إلا بدخول أعداد هائلة منهم في المسيحية؟

فقال غيلا بعصبية والشرر يتطاير من عينيها:

- أفسره بالمذابح وبالاضطهاد المسيحي الغاشم لليهود.

كان أفيغدور قلقاً جداً من تطور الجدل إلى ذلك الحد الذي لم يخطط له مع شخص بأهمية فيكتور ومنصبه السياسي الحساس، وكان يعرف زوجته جيداً، لذا ما إن رأى أنها قد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها حتى تدخل بشكل مسرحي فكاهي ليغير الموضوع، منهيماً ذلك الجدل العقيم بشكل تام. وقد كان له ما أراد، فبعد عدة نكات أطلقها من هنا وهناك، عاد الجميع إلى الضحك، ومن ثم إلى أحاديثهم المسلية السابقة، كأن شيئاً لم يكن. ولكن أبراهام الذي بقي صامتاً طوال المجادلة، يتابعها باهتمام زائد، لم يستطع مشاركتهم في الضحك والتسلية، إلا في الحدود الدنيا، ومن باب المجاملة فحسب، فبقي ساهماً فيما سمعه منهم. وما إن سنحت له الفرصة

(١) "شمونة عسرية" وهي أهم أجزاء الصلاة اليهودية.

(٢) في الحقيقة كان هؤلاء ضمن نسيج النصراني الأوائل قبل إقرار ألوهية المسيح في المجمع الرسمية المسيحية كما سيمر بالفصل (الموقف) الذي أشرنا إليه سابقاً واللذين يليانه.

بالتحدث على انفراد مع فيكتور، حتى أعرب له عن إعجابه الشديد بطرحه، وطلب موعداً لمقابلته بعيداً عن خاله وزوجته.

ودّع أفيغدور وغيلا ضيفيهما بالابتسام، وهما يثيان على الوقت الرائع الذي حظيا به الليلة برفقتهم. وما إن غادرت سيارة فيكتور، حتى دخلت غيلا المنزل وهي تسبه وتلغنه، فدخل أفيغدور خلفها ثم صفق الباب بعنف وهو يهز رأسه أسفاً، وهو يقول:

- لقد تهادى ذلك المسيحي النجس كثيراً، ولولا مركزه الرفيع وحاجتنا إليه، لكنت لفتته درساً لن ينساه في حياته.

- لولا ذلك لصفيت دمه وصنعت منه فطيراً لعيد الفصح.

- آه، كدت أنسى. ألا يزال عندنا بعض من "الفطير المقدس" الذي وصلنا من إسرائيل؟

- أجل، ولكن كم كنت أتمنى لو أعد ذلك الفطير بدم فيكتور المسيحي، بدل دم السجناء المسلمين^(١).

ظل أبراهام صامتاً دون أي اعتراض أو استفسار، حتى لا يعمق من مقدار الهوة بينه وبينهما، خاصة بعدما باحا به أمامه باعتباره من العائلة، إلا أنه صعق تماماً لما سمعه، فرغم علمه بأن السحرة اليهود في قديم الزمان، كانوا يستخدمون دم الإنسان من أجل إتمام بعض طقوس شعوذتهم^(٢)، باعتراف العديد من المؤرخين اليهود

(١) في الممارسات الشاذة لبعض المتدينين اليهود، يجب أن يكون القربان من الغويم بشكل عام. ولكن من الأفضل أن يكون دم مسيحي بالذات، وإن كان طفلاً، والأفضل على الإطلاق أن يكون دم قس، أو دم رجل ذي مكانة مرموقة في الدين المسيحي.

(٢) يتم استنزاف دم الضحية بوضعها في برميل تثبت في جوانبه إبر حادة تغرس في الجثة بعد ذبحها. أو يقطع الشرايين في مواضع محددة ليتدفق منها الدم، ثم يجمع في وعاء، ليعطى إلى الحاخام الذي يقوم بإعداد الفطير المقدس.

أنفسهم مثل "برنراد لافرار" في كتابه "اللاسامية"، ومع أنه كان يعلم من دراسته أن هذه الممارسة قد وجدت طريقها إلى الطقوس الدينية لبعض الجماعات المتشددة في مناسبات معينة كعيد البوريم وعيد الفصح، إلا أنه ظن أن الأمر قد تم تجاوزه وأصبح من الماضي ولم يبق منه حالياً إلا طقوس بسيطة عند البعض، كمناسبات الزواج، حيث يقدم الحاخام للزوجين بيضة مسلوقة مغموسة في رماد مشرب بدم إنسان، أو في مناسبات الختان، حيث يضع الحاخام أصبعه في كأس مملوءة بالخمر الممزوج بالدم، ثم يدخله في فم الطفل مرتين وهو يقول: "إن حياتك بدمك"، ولكنه لم يكن ليتصور أن تلك الممارسة الدموية البشعة لا تزال حية إلى الآن! كما لم يكن ليتخيل أن يشارك بعض الموظفين الحكوميين في إسرائيل في ذلك. تذكر إعلانات التلفزيون الروسي عن وصول الفطير من إسرائيل، وكيف كانت تباع بأسعار مرتفعة نسبياً، وبدأ يدرك السبب وراء عدم الكشف عن أية جريمة لأولئك المتشددین منذ عقود كثيرة؛ فالدم الآن أصبح متوافراً، وبسرية تامة، عن طريق المعتقلين الفلسطينيين الذين يعلن عن وفاتهم بين الفينة والأخرى^(١)، وترسله إسرائيل إلى جميع اليهود في العالم، دون أية حاجة

(١) ليت الأمر يقف عند حد سرقة دمايهم فقط؛ ففي ١٧ آب/أغسطس ٢٠٠٩ اهتز الكيان الصهيوني بكامل أركانه حينما نشر الصحفي السويدي "دونالد بوستروم" تحقيقاً صحفياً في صحيفة "أفتوم بلاديت" السويدية واسعة الانتشار قال فيه إن إسرائيل متورطة في قتل مئات الفلسطينيين وسرقة أعضاء من أجسادهم، بعد قتلهم، والمتاجرة فيها عبر أسواق تجارة الأعضاء الرابحة التي لا ترجمها قوانين الكيان الصهيوني. وربط التقرير هذه العمليات بالشبكة اليهودية التي اعتقلت بنوجيرسي الأمريكية، وأشار إلى تورط السلطات الرسمية وكبار الأطباء هناك. وأثار التقرير ردود فعل غاضبة في الأوساط السياسية الصهيونية، وقررت وزارة الداخلية وقف إصدار تأشيرات دخول الصحفيين السويديين. وكانت بدايات القضية عبر قصة الشاب الفلسطيني المطلوب لقوات الاحتلال "بلال غانم" حيث تمكنت وحدة صهيونية من إطلاق النار عليه، ثم جاء عناصر من جيش الدفاع الصهيوني، ووضعوه في مركبة، ومن ثم جاءت طائرة مروحية وأخذته منهم إلى منطقة مجهولة في الكيان، وتم إعلان وفاته لاحقاً. وبعد خمسة أيام في ١٨ أيار/مايو أعيدت الجثة من "أبو كبير" (مركز الأدلة الجنائية والتشريح الطبي، وهو في ضواحي تل أبيب) إلى قريته، وكان الصحفي موجوداً آنذاك ومعه كاميرته. وعندما وصلت الجثة، قطعت الكهرباء عن القرية وفرض حظر التجول (كما يبدو أنهم فعلوا ذلك مع بقية أولئك الموجودين على القائمة =

إلى المخاطرة التي تستجلب بالعادة النكبات على كل اليهود، سواء المتورطون في تلك الممارسات الشنيعة، أو الأبرياء منهم على حد سواء.

=التي جمعها الصحفي لاحقاً وحقق بها وهي تضم ١٣٣ اسماً) وفتحوا باب السيارة وأخرجوها وغيروا الملابس الخضراء التي هي ملابس المستشفى التي كان يرتديها، ثم وضعوه في القبر سريعاً. وقد استطاع الصحفي أن يلتقط خمس صور له. وبعد فحص الصور تبين أن جسد الشهيد قد فتح من الذقن حتى أسفل البطن وأن بطنه كان يبدو خاوياً، فاستغرب الصحفي، وبدأ تحقيقه الذي قاد إلى أن القصة نفسها تكررت مع كل هؤلاء الشبان الموجودة أسماؤهم في القائمة، وأن بعض أعضائهم قد انتزعت من جثثهم بعمليات جراحية!!! كما عرضت "الحركة الشعبية لنصرة الأسرى والحقوق الفلسطينية" بغزة شريط فيديو يعرض تفاصيل جريمة صهيونية ماثلة ارتكبت في تاريخ ٨ / ٢ / ١٩٨٨ م بحق الشهيد الفلسطيني المسيحي "خضر ترزي" من سكان حي الزيتون.

◀ كنائس أمريكا

في الموعد المحدد توجه أبراهام إلى مكتب وزارة الخارجية الأمريكية، حيث يعمل فيكتور، وقدم نفسه للاستعلامات. وبعد هنيهة وجيزة اقتاده حارس إلى أحد الأروقة، حيث وجد فيكتور ينتظره مرحباً عند باب مكتبه. وبعد مصافحته وتبادل المجاملات الاجتماعية المعتادة، دعاه إلى الجلوس على أحد المقاعد الوثيرة، وعضواً عن أن يجلس خلف مكتبه، جلس فيكتور قبالة أبراهام لإضفاء مزيد من الألفة على لقائه معه، ثم بادره قائلاً:

- إن أصدقاء أفيغدور هم أصدقائي، فكيف بأقربائه.
- أشكرك سيد آدمز.
- دعك من التكلف ونادني فيكتور.
- شكراً فيكتور.
- لقد لحظت فيك اهتماماً بالمسيحية، فهل أنا محق في ذلك؟
- كل الحق. فأنا أعد حالياً كتاباً عن الأديان.
- ومؤلف أيضاً!!!
- ليس تماماً، فهذه محاولتي الأولى.
- ما الذي دفعك إلى اختيار هذا الموضوع بالذات؟
- لا شيء معين؛ فقط لأن موضوع الدين يشغل بال الكثيرين، وربما يساعد كتابي بعضهم على الإحاطة بملاساته وتأثيره على الشعوب.

- رغم صغر سني النسبي، إلا أنني أملك خبرة كبيرة في مثل هذه الأمور، وأكاد أجزم أن دافعك ليس عاماً، بل شخصي محض.
- ماذا تعني؟
- هل تفكر في التحول عن دينك؟
- في الحقيقة....
- لا داعي للارتباك. فمن حق أي شخص تغيير دين آبائه المفروض عليه، واختيار دين يرضى عنه. وكما قال الرئيس السابق بوش الابن، فقد خاضت الولايات المتحدة حروباً كثيرة مؤخراً لحماية هذا الحق.
- لا أنكر أنني لم أعد مقتنعاً باليهودية بكل فرقتها، ولكنني لا أزال أتخبط بين طوائف المسيحية أيضاً، ولم أعر للآن على ما يقنعني تماماً.
- إذن فأنا محق في تحليلي.
- كل الحق.
- لك العذر في الحيرة والتخبط يا صديقي، فالطائفية ظاهرة أمريكية عريقة، حيث ابتدع المهاجرون الذين جاؤوا بمعتقدات كنائس بلدانهم القديمة وطقوسها، العديد من الطوائف الجديدة، وتنامت أعداد تلك الطوائف الفرعية بسرعة كبيرة، ولكن لا تنس أن للكثير منها جذوراً متأصلة.
- والكابالا إحداها.
- كلا، إن الكابالا مجرد فلسفة روحانية فقط.
- إذن إلى أي طائفة تنتمي أنت؟

- إلى طائفة "المعمدانيين"^(١)، وهي جزء من الإصلاح الراديكالي، حيث إننا نرفض الأسرار المقدسة وتعميد الأطفال الذي هو من التقليد غير المبرر كتابياً، فالأنجيل قالت "من آمن واعتمد" أي الإيمان شرط للتعميد، ومعنى ذلك أنه لا يصح للأطفال أنفسهم، فما بالك بالصرعة الجديدة بتعميد الجنين الذي لم يولد بعد^(٢)!!! كما نرفض اتحاد الكنيسة والدولة أيضاً. ولقد أنشئت أول كنيسة معمدانية في إنكلترا في عام ١٦١١، لدى عودة أتباع "جون سمايث" من هولندا. وكان المعمدانون متأثرين بـ"اللاهوت الأرميني"(المعمداني العام) و"اللاهوت الكاليفيني"(المعمداني الخاص). وأنشئت الجمعية الإرسالية الوطنية المعمدانية الأمريكية في عام ١٨٢٢، وشهد عام ١٨٤٥ انقسام المعمدانيين في شمال أمريكا وجنوبها بسبب مسألة العبيد^(٣).

- ما مصدر التشريع عندهم؟

- الكتاب المقدس بالطبع، وهو المصدر الوحيد.

- وهل تختلف طقوسكم كثيراً عن غيركم من الطوائف؟

- نحن نمارس طقسين كنسيين: معمودية المؤمن بالمياه، والطقس الثاني هو

(١) انبثقت أساساً عن حركة "تجديد المعمودية" (أنابابتيست) التي نشأت في القرن السابع عشر بدورها كاتجاه بروتستانتي راديكالي عن الكنيسة الأنجليكانية، والتي كانت تعيد المعمدين المنتسبين إليها. ويركز المعمدانون على المعمودية، ولكنهم يمنعون معمودية الصغار. وهم ينتشرون حالياً في أماكن عديدة من العالم خارج الولايات المتحدة. ولهم نشاط تبشيري ملحوظ في العالم العربي.

(٢) نشأت بدعة تعميد الجنين بذريعة أنه إذا مات قبل أن يولد، مات محروماً من الخلاص. ولتفادي ذلك يقوم القس بتعميده مبكراً عن طريق إدخال أداة في مهبل المرأة الحامل! وقد حدثت حالات كثيرة من انتقال العدوى والمشاكل الصحية، التي انتهى بعضها إلى إسقاط الأجنة، حتى طالب بعض الأطباء بأن يجروا هم ذلك التعميد المبكر بدلاً من القساوسة، وذلك حفاظاً على صحة الأم والجنين وحياتهما. ولكن أولئك القساوسة رفضوا ذلك من منطلق أنه تعد على اختصاصهم.

(٣) بقايا هذا الانقسام يمثله اليوم: الليبراليون تحت مظلة "المجلس الوطني للكنائس" ويمثل ٤٠ مليون مسيحي، واليمين المتشدد، أي "المحافظون الإنجيليون الأصوليون" وهم يمثلون عدداً مماثلاً.

العشاء السري. وللمعمدانيين شكل جماعي للسلطة الكنسية، إذ يتخذ أعضاء كل كنيسة محلية القرارات الخاصة بكنيستهم عبر تصويت ديمقراطي، وتعتبر كل كنيسة مستقلة بذاتها.

- على أي أسس تقوم معتقداتكم الدينية؟

- لا ينتمي إلى المعمدانية إلا من اتخذ قراراً واعياً باتباع الرب يسوع من خلال الإيمان والتوبة. ولما كان الكتاب المقدس مصدر السلطة، فإن المعمدانيين يرفضون المعتقدات السلطوية، ويؤكدون عدم تدخل الحكومة في شؤون المؤسسة الدينية. وقد اتخذ المعمدانيون تقليدياً مواقف رافضة لاستهلاك الكحول والتبغ والمخدرات غير الشرعية، كما اتخذوا في الأعوام الأخيرة مواقف مناهضة للإجهاض.

- وهل تعتقد أن المعمدانيين وحدهم يمثلون الحقيقة؟

- أنا لست متعصباً بطبعي. وما دامت بقية الطوائف لا تمثل شططاً صريحاً عن الدين المسيحي، فأنا لست ضدها، ولا أشهد للمعمدانية فقط، بل لكل الكنائس المسيحية الأصيلة. وإن رغبت حدثتك عن أهم الكنائس الأمريكية بشكل عام.

- إذا كان ذلك لا يعيقك عن عملك.

- مطلقاً؛ فقد تعمدت دعوتك في هذا الوقت بالذات لأنني أكون قد أنهيت فيه جميع أعماله لليوم.

- أقدر لك هذا، وكلني آذان مصغية.

- هناك طائفة "كنائس المسيح"؛ وقد ولدت من رحم "حركة تلاميذ المسيح" التي أبصرت النور في أوائل القرن التاسع عشر. وهذه الكنائس جزء من الحركة التجديدية التي كان في أساسها "توماس كامبل" ونجله "ألكسندر". وفي عام ١٨٣٢، اندمج أتباع هذه الحركة مع أتباع "بارتون ستون" وباتوا يعرفون فيما بعد بتلاميذ المسيح. وفي

بداية القرن العشرين، شعر بعض أتباع تلاميذ المسيح بأن حركتهم قد انحرفت عن غايتها الأساسية، فطلبت مجموعة على رأسها "دايفد لبيسكومب" في عام ١٩٠٦ من المسؤولين عن الإحصاء الفدرالي عدم إدراج كنائس المسيح ضمن تلاميذ المسيح، وشكل ذلك انطلاقة كنائس المسيح كجماعة مستقلة عن تلاميذ المسيح. وكنائس المسيح أيضاً تعتبر الكتاب المقدس مصدراً وحيداً للسلطة، وقول أتباعها المتداول هو: "عندما يتكلم الكتاب نتكلم، وعندما يصمت الكتاب نصمت".

- وبم تختلف عنكم؟

- لا تختلف عنا جوهرياً، لكن التبشير أحد العناصر الثلاثة الرئيسية في طقوسها. أما العنصران الآخران فهما العشاء السري وعميد المؤمن بالمياه في إحدى كنائس المسيح. ويحيي أتباع كنائس المسيح العشاء السري كل أسبوع، وهم لا يعتبرون أنفسهم طائفة، بل يدعون إلى عدم ممارسة أية شعائر لم تكن الكنيسة الأولى تمارسها، ولذلك فهم يرفضون استعمال الآلات الموسيقية في طقوس العبادة.

- ولاهوتهم أرمني أيضاً؟

- أجل، فهم يؤمنون بحرية الإنسان في قبول عرض الله الخلاصي أو رفضه، ويتعين على كل شخص التعاون مع عرض الله من خلال إجابته أو إيجابتها الخاصة بالإيمان والتوبة والمعمودية. ويعتبر الكثيرون الإيمان قبولاً فكرياً للوقائع الإنجيلية عن يسوع. وتعلم كنائس المسيح أيضاً أن عميد المؤمنين بالمياه لا بد منه لغفران الخطايا، وأنه ضروري لنيل الخلاص، كما تعتقد بأن المسيحيين قد يخطئون بطريقة تُفقدُهم الخلاص.

- وماذا عن الكنائس المصلحة؟

- أهمهم طائفة المشايخيون (برسبيتاريان)، وقد وضع "جون كالفن" الأسس اللاهوتية للكنائس المشايخية. ويرى المشايخيون أن المشايخ (جمع شيخ، والمقصود هنا الكاهن) في الكنيسة المسيحية القديمة لم يكن لهم سيد أو ملك غير المسيح، وهم بذلك ضد النظام الأسقفي في بريطانيا مثلاً (الكنيسة الإنجليكانية)، حيث الملكة أو الملك بشكل عام هو "رأس الكنيسة". وكان كالفن قد ركز على سيادة الله وحده في جميع المسائل. والمشايخية هي الاسم الذي أُعطي للكنيسة التي أنشأها أتباع كالفن في "اسكوتلندا"، وتحت إمرة "جون نوكس" أصبحت الكنيسة المشايخية الكنيسة الرسمية لاسكوتلندا. وأبصرت الكنيسة المشايخية النور في أمريكا مع وصول المهاجرين الاسكتلنديين والاسكتلنديين - الأيرلنديين إلى المستعمرات البريطانية. ومصدر السلطة الوحيد عندهم هو الكتاب المقدس أيضاً، ولكنهم يمارسون المعمودية بما في ذلك المعمودية الأطفال، بالإضافة إلى العشاء السري الذي ترمز عناصره إلى حضور المسيح الروحي، وتتضمن طقوس العبادة لديهم القليل من الليتورجيا، وتعتبر "العظة" هي الجزء الأهم من الطقوس. ويلخص المعتقدات المشايخية اعترافاً ويسمنستر" بالإيمان. كما يتلخص اللاهوت الكالفيني تقليدياً بالشعار الآتي: "الفساد الكامل للطبيعة البشرية، والانتخاب غير المشروط، والكفارة المحدودة، والنعمة التي لا تقاوم، ومواظبة القديسين".

- حسناً. هذا عن الكنائس البروتستانتية الكالفينية في الولايات المتحدة، فماذا عن اللوثريين عندكم؟

- مثلهم مثل بقية اللوثريين في العالم، يرون المعمودية ضرورية للتجدد الروحي. وتحافظ الكنيسة اللوثرية على النظرة السرية إلى العشاء السري، لكنها ترفض المفهوم الكاثوليكي لتحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، وتؤمن عوضاً عن ذلك باتحاد جسد المسيح ودمه بالخبز والخمر. وتتعدد أشكال السلطة الكنسية عند اللوثريين،

وتتراوح بين السلطة الجماعية المحلية والسلطة الأبرشية، ولا توجد ليتورجيا موحدة عندهم. وقد قاوموا الإبقاء على المذابح والألبسة المأخوذة من الكنيسة الكاثوليكية. ويعتبر التبشير بالكلمة الجزء الأهم في إحياء طقوس العبادة.

- والأسقفون؟

- أبصرت "الكنيسة الأنجليكانية" النور عندما فصل الملك هنري الثامن كنيسة إنكلترا عن رومه، ثم نشأت "الكنيسة الأسقفية" بعد اندلاع الثورة الأمريكية، مستقلة عن كنيسة إنكلترا. وفي عام ١٩٧٦، بدأت الكنيسة الأسقفية بترقية النساء إلى الدرجة الكهنوتية، وفي عام ١٩٩٨ رسمت هذه الكنيسة أول أسقف امرأة فيها. وتتألف الكنيسة الأسقفية من اتحاد أبرشيات مستقلة، وتنتخب كل أبرشية أسقفها رئيساً روحياً لها. وتنتخب كل رعية قسيساً يشرف على الجماعة المحلية.

- وهل يعتبرون الكتاب المقدس المصدر الوحيد للسلطة أيضاً؟

- مع أن الكنيسة الأسقفية تؤمن بأن الكتاب المقدس موحى به إلهياً، إلا أنها تمنح أعضائها هامشاً واسعاً من الحرية لتفسير معتقداتها. كما تعتمد قانون الإيمان "النيقاوي" و"الرسولي"^(١)، وتعتبر المعمودية و"الإفخارستيا" (العشاء السري) سرين رئيسيين في طقوسها، وتُجري تعمييد الأطفال، وتعتمد العديد من الأنماط في هذا الإطار، ولكن يجري التشديد فيها على اعتماد كتاب الصلاة المشترك في إحياء طقوس العبادة، والذي يشكل سرُّ الإفخارستيا الجزء الأهم فيه^(٢)، لذلك تمتاز الكنائس

(١) راجع عقيدة الحواريين في رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) الغريب أن إنجيل يوحنا ذكر العشاء الأخير في خمسة إصحاحات كاملة من ١٣ - ١٧ مستعملاً ١٥٤ آية ولكنه لا يذكر شيئاً عن القربان المقدس أي الخبز الذي يمثل جسد المسيح والنبذ الذي يمثل دمه (سر الإفخارستيا) كما جاء في بقية الأناجيل، والغريب أيضاً أن إنجيل لوقا ذكر كأسين؛ واحداً قبل العشاء، وآخر بعده! لا كأساً واحداً فقط!!!

الأسقفية بتنوع كبير في طقوسها، إذ يتمسك بعضها بالليتورجيا فيحيون طقوساً مركبة، فيما يحيي بعضها الآخر طقوساً ذات طابع أكثر عامية.

- وهل يمثل الأنجليكانيون في الولايات المتحدة الكنيسة الأسقفية وحدها؟

- لا، فهناك أتباع الطائفة المنهجية (الميثودية) أيضاً. وتعود أصولهم إلى عام ١٧٢٩، حيث بدأت مجموعة من الطلاب في جامعة أكسفورد في إنكلترا بالاجتماع لتلاوة الصلوات المنهجية، وقراءة الكتاب المقدس. وأطلقت عليهم تسمية المنهجيين نظراً إلى مقاربتهم المنهجية للصلاة ودراسة الكتاب المقدس، وبدأت المنهجية كحركة دينية شعبية في عام ١٧٣٨ عندما بدأ "جون" و"تشارلز ويسلي" بالتبشير الإنجيلي، وجرت سيامتتهما كاهني كنيسة إنكلترا. ولكن أصبح أتباعهما في أمريكا طائفة مستقلة بعد الثورة الأمريكية. ومصدر المعتقدات المنهجية هو الكتاب المقدس، كما يبرزها التقليد والخبرة الشخصية والعقل. وهم يمارسون سري المعمودية والمشاركة (أي العشاء السري أو الإفخارستيا)، ويمارسون معمودية الأطفال، ويعتمدون شكلاً أسقفياً للسلطة الكنسية، شبيهاً في العديد من أوجهه بتنظيم الحكومة الفدرالية. فكنيسة "المنهجيون المتحدون"، على سبيل المثال، يعتبرون "المؤتمر العام" هيئتهم التشريعية العليا، فيما يتخذ أعضاء "المجلس القضائي" التسعة صفة المحكمة العليا، ويعمل "مجلس الأساقفة" في الكنيسة كفرع تنفيذي. وهذه هي أعرق الطوائف البروتستانتية في الولايات المتحدة، بشقيها الكاليفيني واللوثري.

- وماذا عن الطوائف البروتستانتية الحديثة نسبياً؟

- هناك طائفة "الخمسينيون"^(١) وقد نشأت في عام ١٩٠١ في "توبيكا" في ولاية "كانتاكلي" كجماعة على رأسها الكاهن "تشارلز بارهام". وفي عام ١٩٠٦، انتشر الخمسينيون وسط أتباع "ج. سايمور" في "لوس إنجليس" في "كاليفورنيا"، حيث

(١) وهي الطائفة التي يتهم القمص القبطي المشلوخ "زكريا بطرس" أنه قد تحول إليها.

استأجروا بناء في شارع "آسوزا" فعفرؤا نموأ سريعا، مستقطبين المزيد من الاهتمام. ومن هذه المجموعة انتشرت ممارسة "النطق بالألسن" العصرية في أرجاء العالم المختلفة. وتشير عبارة الخمسينية إلى حركة واسعة من المجموعات التي تمارس طقس النطق بالألسن والقداسة. ومصدر السلطة لديهم هو الكتاب المقدس، وفي بعض الأحيان "الإيحاءات الجديدة التي يمنحها الروح القدس" كما يزعمون، وهم يؤمنون بالمعمودية بالروح القدس كما يثبتها النطق بالألسن، وتحيي أغلبية جماعات الخمسينيين المعمودية (بالتغطيس بالمياه عادة) والعشاء السري. وتتووع أشكال السلطة الكنسية لدى الجماعات الخمسينية، لكن العديد منها يتبع الأسلوب الجماعي. أما أسلوب العبادة عففوي وغير رسمي إلى حد بعيد، كما يتم النطق بالألسن في معظم الأوقات خلال إحياء طقوس العبادة الخمسينية^(١)، وهم يؤمنون بأن جميع عطايا الروح القدس المذكورة في الكتاب المقدس لا تزال فاعلة وحاضرة في الكنيسة اليوم. كما يؤمنون بأن المعمودية بالروح القدس تتمثل من خلال النطق بالألسن. ويميل الخمسينيون إلى اللاهوت ذي الطابع الأمريكي مع تركيز على الكمال والقداسة. ويؤمن كثيرون منهم بعقيدة الثالوث، فيما يرفضها البعض الآخر.

(١) روى الطبري في تاريخه أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات غداة، فقال لهم: إني بعثت رحمة وكافة، فأدوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم. قالوا: يا رسول الله، وكيف كان اختلافهم؟ قال: دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه، فأما من قرب به فأحب وسلم، وأما من بعد به فكره وأبى؛ فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عز وجل، فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم، فقال عيسى: هذا أمرٌ قد عزم الله لكم عليه؛ فامضوا. ثم فرق رسول الله ﷺ بين أصحابه وبعثهم بكتبه إلى ملوك العرب والعجم. وقد روى الطبراني هذا الحديث أيضاً في المعجم الكبير عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه. أي إن أصل قصة الألسن كانت للدعوة وليست للدجل والتسليية بالحديث بكلام غير مفهوم كما يحدث الآن. وقد قام أحد الصحفيين بتسجيل النطق بالألسن لأحد القساوسة في أحد الاجتماعات الدينية، وعندما تمكن من مقابلته بعد مدة طويلة، عرض عليه التسجيل وطلب الترجمة، فأفاض القس بالحديث، وعندما انتهى عرض عليه الصحفي القسم الآخر من التسجيل بصوته وفيه ترجمة بلسانه ولكنها مغايرة تماماً!!!

- وهل هناك طوائف جديدة غيرها؟

- أكثر مما تتصور، ولكن أشهرها "كنيسة المسيح المتحدة"، وهي وليدة اندماج أربع طوائف مختلفة، وقد حصل الاندماج الأخير في عام ١٩٥٧. أما الطوائف الأربع التي تألفت منها هذه الكنيسة الجديدة فهي: "الطائفة الجماعية" و"الطائفة المسيحية" و"السينودس الإنجيلي" و"الكنيسة المصلحة". ومصدر السلطة لديهم جميعاً هو الكتاب المقدس أيضاً، لكن أعضائها أحرار في اعتماد مقاربتهم الخاصة لله. وهم يمارسون المعمودية (بما في ذلك معمودية الأطفال) والعشاء السري، وتميل إلى طقوس العبادة البسيطة التي تشكل العظة فيها الجزء الأهم. وللكنائس الحرية في العمل على أساس القرار الجماعي لأعضائها. وقد اعتمدت كنيسة المسيح المتحدة بياناً إيمانياً غير ملزم في "أوبرلين" في "أوهايو" عام ١٩٥٩، وهي تشدد على كهنوت جميع المؤمنين وحرية الأعضاء في الإيمان والعمل على أساس مفهومهم الخاص لمشيئة الله، كما تشجع أعضائها على العمل من أجل العدالة وحرية جميع الشعوب.

- وماذا عن الكاثوليك؟

- هناك الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ومصادر السلطة المرجعية عندهم هي الكتاب المقدس والتقليد وتعليم الكنيسة. ولهم سبعة أسرار هي: المعمودية (بما في ذلك معمودية الأطفال)، والتثبيت والإفخارستيا (القداس) والتوبة (الاعتراف) والزواج والكهنوت ومسحة المرضى. أما الطقوس الدينية الكاثوليكية فليتورجية الطابع، ولكن إحياءها بات يتم اعتباراً من المجمع الفاتيكاني الثاني باللغة التي يتكلم بها المؤمنون، وليست اللاتينية حصراً كما كان في السابق. ويرأس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أسقف رومه (بابا الفاتيكاني). ويؤكد الكاثوليك على الطبيعة الثالوثية لإله الكتاب المقدس، كما يؤمنون بأن البابا معصوم عن الخطأ في المسائل الإيمانية، وبأن العذراء

مريم ولدت من دون خطيئة أصلية، أي عقيدة "الحمل بلا دنس"^(١)، وبقيت عذراء طوال حياتها، وانتقلت إلى السماء بالنفس والجسد بعد موتها^(٢). ويؤمن الكاثوليك بشفاة العذراء مريم والقديسين الآخرين. كما يميزون بين الخطيئة المميتة والخطيئة العرضية، وتقضي الخطيئة المميتة على نعمة الله المقدسة على الفرد، وتفترض المسامحة من خلال التوبة(الاعتراف)، أما الخطيئة العرضية فهي خطيئة غير خطيرة، أو خطيئة لا تستلزم معرفة كاملة أو إدراكاً تاماً، وعلى عكس الخطيئة المميتة، لا تقضي الخطيئة العرضية على نعمة الله المقدسة على الفرد.

- وهل في الولايات المتحدة أرثوذكس^(٣)؟

- أجل، ولكنهم قلة، وهم من أصل روسي أو صربي أو يوناني أو حتى قبطي (أرثوذكس لاخلقيديونيين). ومصادر السلطة عندهم هي الكتاب المقدس والتقليد الشريف، خصوصاً المدون منه في كتابات آباء الكنيسة. كما يعترفون بالأسرار السبعة نفسها كالكاثوليك، لكنهم يستخدمون الأيقونات فحسب، لأنهم يرفضون اعتبار التماثيل رموزاً دينية. وفي إمكان رجال الدين الأرثوذكس أن يتزوجوا قبل سيامتهم

(١) وهي عقيدة حديثة نسبياً، إذ أعلنها البابا "بيوس التاسع" في ٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٥٤ بنص بابوي، وهي تلخص في "تبرئة العذراء من أي علاقة بالخطيئة؛ أي أنها طاهرة تماماً ليس لها خطيئة أصلية أو شخصية منذ اللحظة الأولى التي حمل بها وحتى وجودها كإنسان، نظراً للمكانة التي ستحتلها مريم بأن تكون أم الله".

(٢) في سنة ٧٤٠م أجمل القديس "أندراوس الكريتي" الاعتقاد الذي يجب أن يكون في مريم العذراء في أربع نقاط: ١- الحبل بأم الله وميلادها مقدسان، وإن جرى كلاهما بحسب التاموس الطبيعي. ٢- هي ابنة الله على وجه خاص فهي من الله بوجه خاص على الحبل بها. ٣- هي باكورة البشرية المجددة فزيناها الله بالجمال الأول. ٤- سبب وفاتها هو غير السبب (اللعنة) الذي يحتم الموت على جميع الناس.

(٣) تعتبر الكنيسة الأرثوذكسية في الولايات المتحدة معارضة للصهيونية المسيحية الأصولية، حيث اعتبرتها بمنزلة زرع رؤية لاهوتية غريبة عن المسيحية. وهي تؤمن بأن الصهيونية المسيحية لا تمت بصله إلى المسيحية لأنها تشويه مشبوه الغايات لبعض ما جاء في أسفار الكتب المقدسة، وأن أهدافها سياسية وليست دينية، وتخدم في محصلتها الختامية مصالح دولة بعينها.

الكهنوتية. والكنيسة الأرثوذكسية ترفض تفوق أسقف رومه وعصمته البابوية، كما ترفض عقيدة الحبل بلا دنس نظراً إلى عدم إقرارها بعقيدة الخطيئة الأصلية، ولكنها تؤكد البتولية الدائمة للعدراء مريم، وانتقالها بالنفس والجسد، كما تطلق عليها لقب "والدة الله" أيضاً. وترفض الكنيسة الأرثوذكسية عقيدة الانبثاق من الابن التي تقول إن الروح القدس منبثق من الآب والابن، وتعتبر بدلاً من ذلك أن الروح القدس منبثق من الآب فحسب.

- مع أنني أعرف أغلب تلك الطوائف، إلا أن عرضك لها كان المختصر المفيد فعلاً، فهل لك أن تتحدث ببعض التفصيل عن بعض الطوائف التي لا أعرفها جيداً؟
- مثل من؟
- السبتيون مثلاً.

- إن اسمهم الرسمي هنا هو "الأدفنتست السبتيون"^(١)، وحالياً يطلقون على أنفسهم لقب "كنيسة الحياة الفياضة". وهم يعترفون بالعقيدة المسيحية الخاصة بإلهام الكتاب المقدس وسلطته، كما يعترفون حالياً بالطبيعة الثالوثية لله. ويعلمون أن الإنسان خلق على صورة الله، ولكنه في حالة سقوط بفعل الخطيئة، وهو بحاجة إلى الخلاص منها. ويعترفون أيضاً بأن يسوع ولد من عدراء، وعاش حياة منزهة عن الخطيئة، وصلب ومات ودفن، وقام ثانية بالجسد من القبر، وفي ذلك تتفق معتقدات السبتيين اتفاقاً أساسياً مع الديانة المسيحية التاريخية والكتابية، ولكنهم يملكون في الوقت نفسه عدداً من العقائد المميزة غير المتوافقة مع الاتجاه السائد للإيمان المسيحي التاريخي.

(١) كلمة أدفنتست Adventist تعني مجيئون، حيث إنهم يؤمنون بقرع المجيء الثاني للمسيح. وقد عرفوا سابقاً بـ "الميلريين" نسبة إلى وليم ميلر مؤسس هذه الطائفة وهو واعظ معمداني (١٧٨٢ - ١٨٤٩) عمل سابقاً كضابط في الجيش الأمريكي.

- مثل ماذا؟

- هم يعتقدون أن مؤسسة الكنيسة، التي هي "إلين ج. وايت"، كانت تمتلك "روح نبوءة" عصرية. وتؤكد الكنيسة أن رؤاها وكتاباتاتها كانت تفسيرات للكتاب المقدس ملهمة بطريقة إلهية. وفي الواقع، إن حركة الأدفنتست السبتيين نشأت من عدة حركات سابقة، وكانت تتضمن تلك الحركات حركة "الملريت"، التي تنبأت بمجيء المسيح في العام ١٨٤٤، وحركة "سبتية اليوم السابع" الذي أدخل فكرتها التعليمية "جوزيف باتس"، وقد جمعت رؤى السيدة وايت هذه الأفكار اللاهوتية الاستثنائية في نظام ديني فريد، فأبست حركة الأدفنتست السبتيين في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وتم تنظيم الكنيسة رسمياً في العام ١٨٦٢ في "باتل كريك" في ولاية "ميشيغان". كما يعتقدون أن المسيحية في شكلها الأساسي انحرقت في القرون اللاحقة لعصر العهد الجديد مع ارتداد باباوات كاثوليك عن العقيدة، وكانت علامة هذا الارتداد في تبديل يوم السبت من اليوم السابع إلى اليوم الأول من أيام الأسبوع^(١)، وأنه على مر التاريخ حافظت مجموعات مؤمنة صغيرة من المسيحيين على العبادة الحقيقية، وأما أولئك المسيحيون الذين يؤدون العبادة يوم الأحد فمخطنون. وفي الأيام الأخيرة سيتحملون "سمة الوحش"، التي تعتبر عبادة يوم الأحد.

- وأنت، ما رأيك في يوم الأحد؟

- إن يوم الأحد هو "يوم الرب" كتذكارة لقيامة المسيح. ولا أرى مبرراً لإصرار كنيسة الأدفنتست السبتيين على أن التقيد بيوم السبت الوارد في العهد القديم كأمر إلزامي بالنسبة إلى المسيحيين؛ حيث لا يظهر الخلاص والالتزام بالمسيح عبر التقيد بالالتزامات المفروضة الخارجية سواء بالسبت أو الأحد.

- وبماذا يختلفون أيضاً مع الاتجاه السائد في المسيحية؟

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- مع أنهم يعلنون أن الخلاص يأتي من النعمة بفضل الإيمان بيسوع المسيح، إلا أن تعليمهم غالباً ما يدل ضمناً على أن بعض أعمال الصلاح الظاهرية، ضرورة للمحافظة على ضمان خلاص الإنسان، ولاسيما التقيد بيوم السبت، والتقيد بالقواعد الغذائية الصارمة والامتناع عن الكحول والتبغ.

- وما الضير في ذلك؟

- يعتبر تشديد كنيسة الأدفنتست السبتيين على اتباع أسلوب حياة صحي أمراً جيداً بالثناء، غير أن الخلاص بكليته نتيجة للنعمة بفضل الإيمان بيسوع المسيح كمخلص وإله للإنسان، وأما الأعمال الصالحة فهي تنتج عن ضمان الأمن الأبدي للإنسان بفضل عمل المسيح الخلاصي المنجز.

- وماذا أيضاً.

- تعلم كنيسة الأدفنتست السبتيين أن مقدس الله "قدس الأقداس" الحقيقي موجود في السماء حيث بدأ يسوع المرحلة الثانية من كفارته النهائية عن الخطيئة في العام ١٨٤٤. وتتضمن المرحلة الثانية هذه، المسماة "يوم الحساب الحقيقي"، امتحاناً للموتى لتحديد استحقاقهم أن يكونوا جزءاً من القيامة الأولى، ولتحديد مَنْ مِنْ بين الأحياء ثابتون في المسيح ويحفظون وصايا الله! مع أن الكتاب المقدس لا يشير بتاتا إلى فكرة وجود مرحلتين في مخطط الله الخلاصي، لذا يعتبر جزم الأدفنتست السبتيين بأن المسيح دخل المقدس في العام ١٨٤٤ أيضاً هو أمر لا مبرر له، فقد أتم المسيح عمله التكفيرى إتماماً كاملاً على الصليب وبقيامته، ولذلك، فالخلاص أكيد بواسطة نعمة الله بفضل الإيمان بالمسيح.

- هل هناك اختلافات أخرى؟

- أجل، فالموت عندهم هو حالة "رقاد" لاواع.

- كيف ذلك؟

- تعلم كنيسة الأدفنتست السبتيين أن الأشخاص الذين ماتوا هم في حالة شبيهة بالرقاد اللاواعي، وينتظر المؤمنون ظهور المسيح عندما سيقومون وسيخطفون في السحب لملاقاة الرب، وأما الشرير الأثم فسيقوم وسيحاكم بعد الألفية.

- وأنتم ماذا تعتقدون في ذلك؟

- إن الكتاب المقدس يدل ضمناً على أن أرواح المسيحيين تنتقل لتكون في جوار المسيح عند الموت؛ فيقيم المؤمنون في حالة وعي مؤقتة في جوار الرب، في انتظار اليوم الذي سيرافقونه عند عودته، وفي ذلك الوقت سيتوحدون مع أجسادهم المجددة القائمة.

- لقد سمعت أن كنيسة الأدفنتست السبتيين تعلم أننا في الأيام الأخيرة!

- أجل، ومع أنها لا تحدد موعد المجيء الثاني، ولكنها تدل ضمناً على أنه بات قريباً جداً، طبقاً لفهم نبوءة الكتاب المقدس كما فسرتها السيدة آيت. لذا تطلق كنيسة الحياة الفياضة للأدفنتست السبتيين النداء الأخير لكل الناس من أجل الاستعداد لمجيء المسيح. كما تؤمن بأن بعض العلامات المحددة ستسبق النهاية، لاسيما مطلباً قانونياً عالمياً لعبادة يوم الأحد، التي هي سمة الوحش.

- ولكن ألا تعتقد أنت بقرب عودته؟

- أنا أوؤمن بأنه على المؤمنين أن يكونوا مستعدين في أي وقت لعودة الرب، وربما كان ذلك أقرب مما نظن؛ ففي إنجيل لوقا نص يقول إن المسيح رأى اليهود وهم يقدمون القرابين في دور العبادة بالهيكل، ورأى بينهم سيدة عجوزاً مسكينة كان كل ما قدمته قطعتي نقود من فئة الفلس لا غير، فقال: "بالحق أقول لكم، إن هذه الأرملة الفقيرة ألت أكثر من الجميع، لأن هؤلاء من فضلهم ألقوا في قرابين الله، وأما هذه

فمن إعوازاها، أُلقت كل المعيشة التي لها " لوقا ٢١: ٤-٣. ولقد فسر بعض علماء المسيحية هذا بأن الأرملة رمز للدنيا، والفلسين رمز لألفين من الأعوام هما بالنسبة إلى الدنيا إلى أن يعود المسيح "كل المعيشة التي لها". ولقد كانت بشارة المسيح من سن ٣٠ إلى ٣٣، أي إنه بذلك سيعود بين العامين ٢٠٣٠ - ٢٠٣٣ م^(١)!! ولكن مع ذلك تبقى تفسيرات السيدة وايت موضع شك كبير، ولا أساس لها من الصحة.

- وماذا عن محاكمة الآثمين بعد الألفية عندهم؟

- تعلم كنيسة الأدفنتست السبتيين أنه بعد ألف سنة من حكم المسيح، ستحدث قيامة ثانية لأولئك الذين لم يخلصوا، وأولئك الذين لم تذكر أسماؤهم في "سفر الحياة"، أي "غير المخلصين"، سيلقون في بحيرة النار وسيفنون من الوجود. أما عقيدة جهنم الأبدية فهي مرفوضة عندهم، وهذا اعتقاد فاسد، لأن عقيدة جهنم الأبدية مثبتة في الإنجيل، فالأبرار سينعمون بالحياة الأبدية في جوار المسيح، وأما الهالكون فيسيذهبون إلى العقاب الأبدي. وهكذا فربما يكون أعضاء كنيسة الأدفنتست السبتيين مسيحيين مخلصين فعلياً، استناداً إلى الإيمان الشخصي بيسوع المسيح، ولكن تملك كنيسة الأدفنتست السبتيين بعض التعاليم التي تتحرف عن العقيدة المسيحية التاريخية. أما المعمدانيون، فهم يلتزمون بالإصغاء إلى تعاليم الكتاب المقدس ويرفضون الإلهامات أو التفسيرات الخارجة عنه.

- يبدو أنك موسوعة فعلاً.

- ليس إلى هذه الدرجة، ولكن أشكرك على أي حال.

- بل أنا الذي أشكرك على هذه المعلومات القيمة، وأشكرك أيضاً على الزمن

(١) ملحوظة جميلة منهم، وهي مقارنة لحساب الأعداد في القرآن الكريم، التي نستنتج منها أن نزول المسيح عليه السلام قد يكون سنة ١٤٤٤ هـ أي سنة ٢٠٢٣ م. والله أعلم. (راجع كتابات الأستاذ بسام جرار للاطلاع على ذلك).

- الذي اقتطعته من وقتك الثمين من أجل الإجابة عن أسئلتني.
- كان ذلك من دواعي سروري، ومستعد للإجابة عن أي أسئلة أخرى.
 - هناك أسئلة أخرى فعلاً، ولكنني لن أسمح لنفسي باستغلال كرمك ووقت عملك لأكثر من ذلك.
 - إذن ما رأيك لو التقينا غداً بعد العمل؟
 - هذا شرف لي. أين ومتى؟
 - في مقهى "الصخرة" الساعة السادسة مساءً.
 - سأكون هناك. شكراً.

◀ من الليبرالية إلى الأصولية

لما كان فيكتور ذا ثقافة عالية، ميالاً إلى الإسهاب في الشرح، ولديه الكثير ليقوله، وكان أبراهام مستمعاً متعطشاً للمعرفة، ولديه الكثير ليسأل عنه، فقد توصلت الصداقة بينهما سريعاً. خاصة أن فيكتور كان متبسطاً معه كثيراً، رغم الفارق الكبير بينهما في السن والمركز، ولم يبخل عليه بالوقت ولا بالجهد لشرح ما يستعصي على فهمه. وصارت نقاشاتهم المتكررة خبز أبراهام اليومي في دراسته لمختلف الطوائف الدينية الأمريكية، وبوابته لتعرف المجتمع الأمريكي وبنيته، والتأثير المعقد للدين عليه^(١).

كان أبراهام يعلم أن البروتستانتية تشكل الطائفة الأكبر في الولايات المتحدة (٧٥٪ من الأمريكيين)، وكان يلاحظ تنامي شعبية التيار البروتستانتية الأصولية خلال الفترة الأخيرة، (وبالذات في الحقتين الريغانية والبوشية)، وذلك على حساب التيار البروتستانتية الليبرالية^(٢)، مع أن الليبراليين كانوا يشكلون الأغلبية الفعالة، ومع أن النخبة الثقافية في الولايات المتحدة لا تزال حتى الآن تخرج من بين صفوفهم بالذات. ولكن ما لم يكن يعلمه، واكتشفه من خلال حديثه مع فيكتور أنه كالكثيرين من دازسي

(١) الصفحات التالية هي عرض (مع بعض التصرف في الترتيب والإيضاح) لمقالة (الدين والسياسة الخارجية الأمريكية) من مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية، والتي تعد واحدة من أهم الدوريات الأمريكية التي يتخاطب على صفحاتها الأكاديميون وصانعو القرار، وتتلور على صفحاتها السياسات المستقبلية للولايات المتحدة. وكتب المقالة هو "Walter Russel Mead" أحد الباحثين المعروفين في مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية، أما ترجمتها فهو الأستاذ الدكتور "يوسف خليفة اليوسف".

(٢) يجدر التنبيه هنا إلى أن الليبراليين البروتستانت هم مجرد جزء من المسيحية الليبرالية بشكل عام، والتي تضم طوائف غير بروتستانتية أيضاً.

السياسة الخارجية الأمريكية، كان يجهل تفاصيل الطبيعة المعقدة للتيار البروتستانتي الأمريكي، ويخلط بين تيارات الأصولية المتباينة، بشقيها التقليدي والإنجيلي، اللذين كان يحسبهما في السابق اتجاهًا واحدًا. وقد ضرب له فيكتور مثلاً بالتباين بين تأثير التيار الأصولي الإنجيلي، كتأثير "بيلي غراهام"^(١) مثلاً، على السياسة الخارجية الأمريكية، وبين تأثير التيار الأصولي التقليدي، كجامعة "بوب جونز".

أوضح له فيكتور أثر التغييرات الدينية على السياسة الخارجية الأمريكية، وكيف أن ذلك يتطلب نظرة فاحصة لـ"خيمة الانبعاث البروتستانتي الأمريكي الكبيرة" حسب تعبيره^(٢)، وأكد ضرورة دراسة الدور التاريخي الذي قام به الدين في الحياة العامة الأمريكية كشرط لفهم الكيفية التي تؤثر بها التحولات الدينية المعاصرة على السياسة الخارجية للولايات المتحدة. فهناك ثلاث مدارس كان لها دور رئيسي في هذا الصدد، وهي -كما يسميها- المسيحية الليبرالية، والأصولية (التقليدية)، والتراث الإنجيلي (الأصولية الإنجيلية). وكلها تتدرج تحت مظلة التيار البروتستانتي الأمريكي الرئيسي، وكلها تأثرت بالخلاف بين الأصولية و"المعاصرة" الذي حصل في بداية القرن العشرين. فخلال أغلب فترة القرن التاسع عشر كانت أغلبية البروتستانت تؤمن

(١) من أبرز نجوم التبشير الإنجيلي، ونظراً للتصاعد الكبير لشعبيته، فقد دعاه الرئيس ترومان إلى البيت الأبيض سنة ١٩٥٠، ثم تابعت زيارته للرؤساء المتعاقبين مثل أيزنهاور وجونسون ونيكسون.

(٢) كاتب المقالة يهمل تماماً صور الانبعاث الديني لبقية الطوائف المسيحية الأخرى بما فيها الكاثوليكية التي تعتبر أكبر طائفة مسيحية في العالم، وثاني أكبر وأهم طائفة مسيحية في الولايات، وهو يبرر ذلك بهامشية تأثيرها على السياسة الخارجية الأمريكية. ويبدو أنه كالكثيرين غيره من المحللين، يصف الكاثوليكية الأمريكية بشكل عام ضمن الليبرالية المسيحية في الولايات المتحدة، إلا أن هذه الرحلة قد حاولت جلاء ذلك الغموض، وتطرق إلى الكاثوليكية في مواقف (فصول) عديدة من هذه الرواية، كما تطرقت إلى الكاثوليكية القديمة، ولم تهمل تنسيق البابوية الكاثوليكية مع السياسة الأمريكية المحافظة)، ولا التأثير المتبادل مع نهجها، ومحاولة تعميم نمط السياسة الأمريكية المحافظة على بقية الدول المسيحية (مثل رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف).

بأن العلم يؤكد التعاليم أو النصوص الكتابية، ولكن عندما بدأت النظريات العلمية كالدرائونية وغيرها تشكك في أصالة نصوص الكتاب المقدس ودقتها^(١)، انقسمت الحركة البروتستانتية على نفسها إلى مدرسة الحداثة (المعاصرة) ومدرسة الأصالة.

مدرسة المعاصرة رأت أن أفضل طريقة لحماية المسيحية في عصر العلم هي استيعاب المعارف الحديثة في اللاهوت، وقد بنى هذا الرأي الجزء الغالب من الطوائف البروتستانتية. أما المدرسة الأصولية فكان رأيها أن على الكنيسة أن تبقى متمسكة بأصول العقيدة البروتستانتية كحقيقة النص الكتابي المقدس. ثم انقسمت الأصولية على نفسها إلى أصولية انفصالية (تقليدية) التي تعتقد بأن المؤمن الفعلي يتحتم عليه مقاطعة الكنيسة التي تتعامل أو تتسامح مع الحداثة، مبتعدة عن السياسة والثقافة، في حين كان رأي المدرسة الأصولية الأخرى التي أطلق عليها "الإنجيلية الجديدة"^(٢)

(١) يقول د. محمد عارف زكاء الله في كتابه "الدين والسياسة في أمريكا: صعود المسيحيين الإنجيليين وأثرهم" ترجمة: أمل عيتاني: "حاول الأصوليون المسيحيون تقديم أمريكا باعتبارها أمة تقف في مواجهة باقي العالم، حيث يرونها "مدينة مُشعة فوق التلة"، أو "الإمبراطورية الصالحة"، أو "الأمل الأفضل الأخير" للبشرية، وأنها أمة المخلص. وقدموا أنفسهم باعتبارهم امتداداً للبيوريتانيين الذي يسعون إلى استعادة صفاء الكنيسة الأولى، وبناء أمريكا كأمة مسيحية. غير أن التطورات والاكتشافات العلمية، ونشوء الدولة العلمانية الحديثة، وانتشار قيم المنفعة واللذة، والأفكار الداروينية، أضعف دور الكنيسة، ودور الدين في حياة الناس". كما أن المكتشفات الأثرية الجديدة وفك شيفرة ألواح بابل وأشور وأوغاريت واكتشاف اللغة السامرية، ومخطوطات أقدم للأسفار ساهم كثيراً في التشكيك بقضية الكتاب المقدس وتاريخه وأصالته. راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) يسميها الدكتور الباكستاني الأمريكي زكاء الله بـ "الاجتماعية"، ويوضح تغلبها على الأصولية التقليدية (يسميتها "المحافظة") كالتالي: "ولقد أدى ذلك إلى أن عدداً من رجال الدين البروتستانت طوروا استجابتهم للتحديات، من خلال بلورة مذهب "الإنجيلية الاجتماعية" الذي تشكل في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، والتزم بتحسين الواقع الاجتماعي والتوفيق بين العلم والدين. وبينما كانت الإنجيلية الاجتماعية تزداد انتشاراً واتساعاً، حيث انضم إليها أغلب القساوسة وعلماء اللاهوت، فقد شهدت البروتستانتية المحافظة تراجعاً كبيراً".

أن تتفاعل مع بقية شرائح المجتمع. ومع مرور الوقت أصبحت الأصولية الانفصالية (التقليدية) تسمى بـ"الأصولية" فقط، وأصبحت الأصولية الإنجيلية الجديدة تسمى بـ"الإنجيلية" فقط.

وجد أبراهام أن الطوائف البروتستانتية المعاصرة الثلاث (الليبرالية، الأصولية، والإنجيلية) تختلف في رؤيتها لدور الولايات المتحدة الأمريكية في العالم. فالطائفة الأصولية مثلاً تميل إلى التشاؤم: ففيما يتعلق بإمكانية استقرار العالم وانسجامه، فهي ترى فجوة غير قابلة للردم بين المؤمنين وغير المؤمنين. أما الليبراليون، فإنهم أكثر تفاؤلاً، إذ إنهم يقللون من الفوارق بين المسيحيين وغير المؤمنين. في حين تقف الطائفة الإنجيلية بين كل من الطائفة الأصولية والطائفة الليبرالية حول إمكانية الانسجام بين المسيحيين وغيرهم من ديانات العالم.

لاحظ أبراهام من حديثه مع فيكتور أنه، وعلى الرغم من غياب التعريف المحدد للأصولية البروتستانتية، يوجد ثلاثة مكونات أساسية لمعتقداتها؛ وهي تتلخص في تقديس النص الكتابي واعتباره مصدر إحاء، والإصرار على الدفاع عن المعتقدات البروتستانتية في مواجهة الكاثوليكية والعلمانية والتأثير غير المسيحي (المسلم بوجه خاص)، وأخيراً التأكيد على أن يفصل المسيحيون أنفسهم عن العالم غير المسيحي. ومع أن الطائفة المسيحية الأصولية أقل حجماً من الطائفتين الليبرالية والإنجيلية، إلا أنها تتصف بالتركيز على النوعية والنقاء والنشاط الديني. ومقارنة بالإنجيليين، يعتبر الأصوليون أكثر حرصاً على تطوير رؤية مسيحية للعالم^(١)، ومن ثم تطبيقها بصورة منهجية في عالم الواقع. ففي حين يرفض الإنجيليون نظرية دارون لأنهم

(١) أشار استطلاع لشبكة التلفزة "فوكس نيوز" إلى أن ٧٧٪ من الأمريكيين يشعرون بأن المحاكم تبادت كثيراً في إبعاد الدين عن الحياة العامة، كما أوضح الاستطلاع السابق نفسه أن ٦٦٪ يؤيدون عرض الوصايا العشر في المدارس العامة، وصوت ٧٦٪ لعرضها في المباني الحكومية. وطالبت بعض الجماعات الدينية بعودة الشعائر الدينية إلى المدارس، رغم حظر المحكمة العليا لهذا الأمر منذ أكثر من ٤٠ عاماً مضت.

يؤمنون بنظرية الخلق الواردة في الكتاب المقدس، يتجاوز الأصوليون الرفض هذا إلى تطوير نظرية علمية للخلق، وتأليف كتب حولها، والإصرار على تعليمها في المدارس^(١)، وسحب الأطفال من المدارس التي ترفض تدريس نظرية الخلق هذه.

أوضح فيكتور لأبراهام أن الطائفة الأصولية أكثر تشاؤماً من بقية الطوائف في إمكانية إنقاذ الولايات المتحدة، علاوة عن العالم ككل، من جحيم النار كما يعتقدون، إذ إنهم معادون لعالم قائم على الأخلاقيات العلمانية^(٢)، وعلى المنظمات الدولية كالأمم المتحدة، فهم يعتقدون أن هذه المنظمة وغيرها تتعاون مع أنظمة خاصة في العالم الإسلامي تضطهد المسيحيين وتعاقب التصير. وهم يخاطبون المنظمات التي تعترف بهذه الدول بقول النبي إسحاق: "لقد عقدنا ميثاقاً مع الموت ولكننا مع الجحيم متفقون"، لذا نجدهم في بعض رواياتهم عن نهاية العالم يشيرون إلى أن المسيح الدجال يظهر على شكل الأمين العام للأمم المتحدة! وهم يعتقدون أن الشيطان وأعوانه من البشر سيقومون بتمرد أخير على الخالق والفئة المصطفاة (أي الأصوليين المسيحيين)، وسيعرض المؤمنون لكثير من الاضطهاد، ولكن المسيح سيقوم بإخماد هذا التمرد وسيحكم جنة وأرضاً جديدتين.

(١) في عام ٢٠٠٦ رفض قاض فدرالي أمريكي في ولاية بنسلفانيا طلب تدريس نظرية "التصميم الذكي" للكون باعتبارها بديلاً لنظرية التطور والارتقاء لعالم الأحياء البريطاني تشارلز دارون، واعتبر القاضي أنها نظرية غير علمية.

(٢) في استطلاع لقياس اتجاهات الرأي العام حول الدين ودوره في الحياة العامة أجرته مجموعة "مارتيللا" في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥، أظهرت النتائج أن ٧٦٪ من الأصوليين يعتقدون أن المسيحية تتعرض للهجوم والاستهداف داخل الولايات المتحدة، وذلك مقابل ٤٨٪ من بقية المسيحيين العاديين (الذين يترددون على الكنيسة بصورة غير منتظمة). ويوافق ٨٩٪ من الأصوليين على ضرورة وضع لوحات في المؤسسات الحكومية والعامة تحتوي على الوصايا العشر، وتصل نسبة الموافقة بين المسيحيين الذين يترددون على الكنيسة بصورة غير منتظمة إلى ٥١٪، وكانت النتيجة تقريباً متطابقة في قضايا مثل تنظيم صلوات في المدارس العامة وغيرها.

أما المسيحية الليبرالية فتتظر إلى الدين كتعاليم أخلاقية أكثر منها كمعتقدات تقليدية، ولديهم تحفظات كثيرة على روايات الكتاب المقدس المتعلقة بطبيعة المسيح وعقيدة التثليث التي تطورت في القرون الأولى من تاريخ الكنيسة، كما أنهم متشككون في قضايا أخرى كخلق الكون في سبعة أيام، وجنات عدن وفيضان نوح. وتمتد شكوكهم إلى قيامة المسيح من الموت، وإلى كثير من المعجزات التي تتسبب إليه. فبدل أن يعتبروا المسيح إلهاً ينظرون إليه كمعلم أخلاقي يقتدى به في الحياة، خاصة تجاه التعامل مع الفقراء. ومع أنه لا يعتبر البروتستانت الأصوليون والإنجيليون، وبقية المسيحيين المحافظين هذه الفئة ممثلة للخط العام للمسيحية، إلا أن أفراد هذه الفئة يعتبرون أنفسهم ممثلين لجوهر المسيحية؛ فهم يعتقدون أنهم بمعارضتهم لمعتقدات الكنيسة كالتثليث والخطيئة الأصلية ووجود النار، فهم في الواقع يتبعون المبادئ الحقيقية في المسيحية، وينقونها من الشوائب التي اختلطت بها على مر الأزمان.

إضافة إلى ذلك فإن هذه الطائفة هي أقل الطوائف البروتستانتية تركيزاً على الفوارق بين المسيحيين وغير المسيحيين، فهم يؤمنون بأن الأخلاق هي نفسها في العالم أجمع؛ إذ إنهم يعتقدون بأن البوذيين والمسلمين والمسيحيين واليهود، حتى غير المتدينين، يمكنهم أن يتفوقوا على ما هو حق وما هو باطل. كما أن هذه الطائفة لا تؤمن بمكانة خاصة أو متميزة للكنيسة أو رجالها. ولما كانت أغلبية هذه الطائفة لا يؤمنون بالخطيئة الأصلية، فإن أفرادها يعتبرون أكثر تفاعلاً بـ"السلام العالمي" وبأهمية دور المنظمات الدولية كالأمم المتحدة. بل إن الدعوة إلى مملكة الله تعني عندهم تعاون القوى السياسية "التقدمية"، وتشجيعها لقيام العدل على الأرض، ويعترضون على الدعوة التشاؤمية للمسيحية المحافظة، وبالذات الأصولية البروتستانتية بشقيها التقليدي والإنجيلي.

وقد نبه فيكتور أبراهام إلى أن نظرة هذه الطائفة كانت هي القوة التي اصطبغت بها النظرة الكونية للولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة التي انتهت بانهيار المعسكر الاشتراكي؛ فالقيادات الأمريكية كروزفلت وترومان وأتشييسون وأيزنهاور ودالاس كانوا كبقية النخبة الأمريكية متشبعين بمفاهيم المسيحية الليبرالية، ولقد ساعدت رؤية هذه الطائفة على مد جسور التعاون مع كل من الطائفة الكاثوليكية، وبشكل أكبر مع الطائفة اليهودية نفسها، اللتين كان نفوذهما في تصاعد خلال تلك الفترة. غير أن هذه الفئة المسيحية تعرضت إلى الكثير من التحديات في السنوات الأخيرة، منها ابتعاد أتباعها عن الكنيسة بسبب خلافاتهم الكثيرة معها، وخلافاتهم مع الكنيسة الكاثوليكية حول الإجهاض وحقوق أصحاب العلاقات الجنسية المثلية، وخلافاتهم مع اليهود بتراجع درجة تأييدهم لإسرائيل، ذلك بالإضافة إلى التفتت الداخلي لهذه الفئة نفسها حول كثير من القضايا.

أما ثلاثة الطوائف المسيحية ذات التأثير الهام في السياسة الأمريكية فهي الطائفة الإنجيلية التي تشترك مع المسيحية الأصولية في المعتقدات، ولكن رؤيتها العالمية أكثر تأثراً بالتفاؤل الذي يتصف به أغلب الأمريكيين الليبراليين. فالإنجيليون يتفقون مع الأصوليين في تأكيدهم أهمية المعتقدات المسيحية، وليس فقط تعاليمها الأخلاقية، ويختلفون مع الليبراليين في زعمهم بأن الأخلاق وحدها تؤدي إلى الله، بل يرون في ذلك خيانة لتعاليم الرب المسيح.

كما أن جوهر رسالة المسيحية عند كل من الأصوليين والإنجيليين هي الخطيئة الأصلية، وأن الإنسانية غير قادرة على تحقيق قانون أخلاقي؛ أي إن الجهود التي يبذلها الإنسان بالتزامه بالقيم مصيرها الفشل ولا ينقذ الإنسان إلا صلب المسيح وقيامته، وبذلك فإن اعتراف هذا الإنسان بخطيئته وقبوله بتضحية المسيح هو ما يطلق عليه من قبل الأصوليين والإنجيليين مفهوم "الولادة من جديد"؛ أي العودة إلى الإيمان. وهذا

يدفع هاتين الطائفتين إلى التشكيك في فهم المسيحية الليبرالية للتعاليم المسيحية. ومن ثم فإن الإنجيليين يتفقون مع الأصوليين على مفهوم "الناجين" (المخلصين) وغير الناجين. فهما تتفقان على أن الأفراد الذين لم يقبلوا المسيح منقذاً محكوم عليهم بالبعد عن الله، أي غير ناجين (غير مخلصين)؛ لأنهم غير قادرين على القيام بعمل نافع وحدهم من دون المسيح. وبالإضافة إلى وجوه التشابه السابقة، تتفق الطائفة الإنجيلية مع الطائفة الأصولية فيما يتعلق بنهاية العالم؛ إذ إن عودة المسيح ستسبق قيام حكم الألف سنة من السلم، أي إن أية جهود لتحقيق السلام العالمي التي سيبدلها البشر قبل ذلك، سيكون مصيرها الفشل المحقق.

تبه أبراهام إلى سطحه السابقة عندما كان يخلط، ككثير من المراقبين، بين الإنجيليين والأصوليين، معتبراً أن الطائفة الأولى هي صورة معدلة للثانية. ومع أنه وجد بعض العذر لنفسه بعدما أدرك مقدار التشابه بين الطائفتين، إلا أن ذلك لم يثته عن المحاولة بشكل أعمق لتعرف طبيعة الفوارق بين الطائفتين فيما يتعلق بنظرتيهما إلى العالم. وقد أوضح له فيكتور أن الإنجيليين يعتقدون أن تضحية المسيح هي فقط للقلة المنتقاة من البشر، أما البقية فليس لهم أمل في الإنقاذ، غير أن نظرتهم هي أقل تشاؤمية من الأصوليين؛ فهم يؤكدون باستمرار مسؤولية المسيحيين في إنقاذ البشرية من العذاب، وهم بذلك أكثر تفاعلاً من الأصوليين مع غيرهم من الديانات والطوائف لتحسين مستوى الرفاه الدنيوي، مع اعتقادهم بأن من يرفض المسيح لا أمل له في لقاء الله بعد الموت. والإنجيليون لديهم القدرة للتعاون مع الآخرين كما فعلوا مع الكاثوليك واليهود والليبراليين. ومع أن موقف بعضهم عدائي تجاه المسلمين؛ كاتهام أحد أبرز قساوستهم "جيري فارويل" لرسول المسلمين بالإرهاب، إلا أن تعاونهم مع المسلمين في بعض القضايا، كالعمل الخيري وما شابه ذلك، وارد أيضاً. كما أنهم لا يعترضون، كالأصوليين، على التناقض بين ما يدرّس في المؤسسات التعليمية من نظريات دارون

وغيره، وبين ما يؤمنون به من نظرية الخلق، ويتفنون في التوفيق بين هذه المتناقضات، ولكنهم وفي الوقت ذاته يعترضون على من يرفض إمكانية وجود خالق لهذا الكون.

كان أبراهام يدرك أن المسيحية الليبرالية مثلت الخط العام للسياسة الأمريكية حتى حقبة الستينيات، قبل أن يحصل تحول لمصلحة الإنجيليين على الليبراليين، لذا رغب في التوسع أكثر في موضوع تحول موازين القوى لمصلحة الأصوليين بشكل عام، وأثر ذلك على السياسة الخارجية. وقد روى له فيكتور كيف انخفض نصيب الفئة الأولى ما بين ١٩٦٠ و ٢٠٠٣ بنحو ٢٤٪^(١)، أما الإنجيليون فقد ارتفعت نسبتهم من ٤١٪ عام ١٩٨٨ إلى ٥٤٪ عام ٢٠٠٣. وكيف مثلت هذه الفئة نحو ٤٠٪ من الأصوات التي حصل عليها بوش الابن في الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤. وأوضح له أن ٧٨٪ من هذه النسبة هي من البيض. أما في الكونغرس فقد ارتفعت نسبة الإنجيليين من ١٠٪ عام ١٩٧٠ إلى أكثر من ٢٥٪ عام ٢٠٠٤. أما الأصوليون فمع زيادة أعدادهم، إلا أن تأثيرهم السياسي لا يزال محدوداً.

وجد أبراهام أن هذا الدور المتزايد للإنجيليين كان له انعكاسان هامان على السياسة الخارجية الأمريكية؛ أولهما تزايد التركيز على المساعدات الخارجية، والمطالبة بالدفاع عن حقوق الإنسان، ولكن بالطبع بصورة تختلف كثيراً عن الصيغة التي كان يطرحها الليبراليون؛ فالإنجيليون قد طالبوا بتحرر الأقليات المسيحية^(٢)، وهم يعطون أهمية خاصة لحرية التحول من دين إلى آخر^(٣)، كما أنهم يفضلون إعطاء

(١) حسب المعطيات التي وردت في المقال، فقد كان عدد الليبراليين ٢٩ مليوناً، وانخفض عددهم بعد التراجع إلى ٢٢ مليون شخص! غير أن أغلب المعطيات الأخرى المتوافرة لدينا تؤكد أن عددهم حالياً يتجاوز الـ ٤٠ مليوناً.

(٢) ليس هذا جديداً على الإنجيليين، فهم أكثر من طالب سابقاً بتحرر الأقليات المسيحية الأوربية من الحكم العثماني في القرن التاسع عشر.

(٣) أي التنصير بمعنى أدق.

المساعدات إلى المنظمات الدينية بدل المؤسسات الدولية. وثاني تلك الانعكاسات هو أن الإنجليين يؤيدون تعميق التأييد لإسرائيل. وهم يعتبرون أن الصهيونية البروتستانتية أقدم من الصهيونية اليهودية، ويذهب بعضهم إلى أنها أقدم من اليهودية المعاصرة نفسها. ففي القرن التاسع عشر طالبت الطائفة الإنجيلية ولعدة مرات السياسيين الأمريكيين بالمساعدة على قيام وطن قومي لليهود المضطهدين في أوروبا وفي ظل الحكم العثماني.

والإنجلييون بشكل عام ينظرون إلى اليهود نظرة توارثية خاصة. فبالإضافة إلى كونهم -كبقية الطوائف المسيحية- يؤمنون بأنهم يمثلون أبناء إسرائيل الجدد والحقيقيين، وأنهم هم ورثة الوعود الربانية في الكتاب المقدس، إلا أن الإنجليين يعتقدون كذلك، وعلى عكس بقية المسيحيين، بأن لليهود دوراً في الخطة الإلهية للبشرية^(١)، فعلى أساس دراسات للنبوءات الكتابية، التي أجريت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، تكوّن لدى الإنجليين قناعة راسخة بأن اليهود يجب أن يعودوا إلى الأرض المقدسة (ويشكلوا هناك "أمة" كما في السابق) كشرط لعودة المسيح منتصراً. كان فيكتور يعتقد، كبقية الإنجليين، أن كثيراً من اليهود سيتصرفون في الفترة السابقة لعودة المسيح، إلا أنه يعتقد كذلك أنه من الطبيعي أن أغلب اليهود لن يقبلوا بالمسيح قبل عودته، وهذا يجعل الإنجليين أكثر قرباً من اليهود. ورغم استنكاره بأن مارتن لوثر كان يتوقع إقبال اليهود على المسيحية بصورة كاملة، وأنه صار معادياً لهم عندما لم يحدث ذلك، إلا أن فيكتور اعتبر أن هذا الشعور غير متوقع أن يكون لدى الإنجليين بسبب رؤيتهم السابقة للبعد الزمني لتحول اليهود إلى المسيحية، أي إنهم

(١) هذا الاعتقاد بدأ بالانتشار بين كثير من المسيحيين الآخرين، بمن فيهم بعض التقليديين أنفسهم. لمزيد من المعلومات راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

يعولون على تتصرهم فقط مع عودة المسيح^(١).

ويرى الإنجيليون أن رضا الله عن الولايات المتحدة مرتبط بوقوفها مع إسرائيل، ويؤكدون أن انتصاراتها على العرب خلال الفترة السابقة تؤكد أن غضب الله يحل بمن يغضب إسرائيل. ويرجع تزايد التأييد الأمريكي لإسرائيل في السنوات الماضية إلى تزايد قوة الطائفة الإنجيلية في مؤسسات صنع القرار الأمريكية في تلك الفترة. أما الليبراليون المسيحيون، فمع عدم إنكارهم للبعد الديني في تأييدهم لإسرائيل، إلا أن ذلك التأييد ينطلق أكثر من مفهوم حضاري إنساني لما تعرضوا له من اضطهاد، ومن ثم فإن هذا التأييد بدأ بالتراجع في السنوات الأخيرة لمصلحة الفلسطينيين لما تعرضوا له من ظلم أوقعته عليهم إسرائيل^(٢).

روى فيكتور لأبراهام كيف كانت الكنائس الأسقفية وكنائس الطريقة المتحدة

(١) لا أدري من أين جاء كاتب المقال بهذه الفكرة التي لا تنطبق بتاتا على فكر أغلبية الإنجيليين، خاصة بعد سعة معلوماته وقوة إدراكه وعمق تحليلاته، كما يظهر واضحاً من مقالته هذه. ويرجع ادعاؤه (باعقادي) إلى أحد ثلاثة أسباب لا رابع لها؛ فإما أن يكون يهودياً، وأن ذلك يدخل ضمن الإيحاء والتوجيه غير المباشر للإنجيليين، وإما أن يكون هو نفسه موجهاً في هذه النقطة بالذات، فالإنجيليون في واقع الأمر يؤمنون أن أغلب اليهود سيقتلون في آخر الأيام، وأن من سيخلصون منهم ويقبلون المسيح هم قلة ضئيلة (١٤٤ ألفاً) أي أقل من ١٠٪ من مجمل عدد اليهود في العالم حالياً. والاحتمال الأخير هو أن كاتب المقالة من غير المهتمين بإشكالية "تحديد عدد الناجين اليهود"، وينظر إلى الموضوع بشكله العام فحسب، فاليهود في الفكر الإنجيلي هم وحدهم من سيسمح لهم بالخلاص في فترة "الضيقة العظيمة" (تسمى أيضاً "ضيق يعقوب")، وهي الفترة الممتدة من "الاختطاف" (قبل المجيء الثاني للمسيح سوف يخطف إلى السماء كل المسيحيين "المؤمنين"، هذا اللقب له عدة دلالات في الفكر الإنجيلي وهي تتعدى مجرد قبول المسيح) وحتى عودة المسيح وبدء "الملك الألفي". وفي الضيقة العظيمة لن يكون هناك شخص يستحق دخول السماء موجود على الأرض، (كلهم قد اختطفوا أصلاً) وهي فترة كوارث عظيمة، ولن يُسمح لأي شخص فيها بالتوبة. والفكر الإنجيلي يرى أن اليهود فقط سيُسمح لهم بذلك لأن أصلهم مقدس، كما أن المسيح سيملك الألف سنة على الأرض وسيكون مقره في عاصمتهم أورشليم.

(٢) هنا ينتهي الاقتباس.

"ميثودست" هي الأولى التي شملت كتبها الدينية منذ الأربعينيات من القرن العشرين دراسات حول اللاسامية، وأنهم هم بالذات الذين دعموا مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة، وتوفير مجال أوسع لليهود للمشاركة في الحياة السياسية. كما أنهم تفاعلوا من أجل قيام إسرائيل، باعتبار أنها الدولة التي ستشتر القيم اليهودية والديمقراطية والحرية في الشرق الأوسط، وتوفر العدالة الاجتماعية لجميع مواطنيها اليهود والعرب (مسيحيين ومسلمين). وفي خلال العام ١٩٤٨م حتى ١٩٦٧م كان هناك تنسيق كامل ودؤوب بين القادة اليهود وقادة "المجلس الوطني للكنائس"^(١)، لدرجة أن الحاخام "مارك تانينبوم" كان يفاخر بأن المجلس لا يذيع أي بيان من دون موافقته!

كما روى له فيكتور كيف بدأت الأمور بالتغير بعد حرب ١٩٦٧م تحديداً، وكيف أصبح المسيحيون الليبراليون ينظرون إلى إسرائيل نظرة مختلفة. فحتى ذلك العام كانوا يرون في إسرائيل "داوود الصغير" الذي تستهدفه قوى عربية متفوقة عليه، وفجأة هاجم الإسرائيليون جيرانهم! ضربوا الطيران المصري على حين غرة، ودمروه على الأرض بهجوم مماثل لهجوم بيرل هاربور، ودخلوا إلى سيناء، وسيطروا على الضفة الغربية وأورشليم العربية، وكل قطاع غزة ومرتفعات الجولان^(٢)، عند ذلك دعا

(١) ممثل الليبراليين المسيحيين . وهو يضم ٣٤ طائفة يمثلون نحو ٤٠ مليون عضو من المسيحيين الذين يرفضون التفسير الحرفي للكتاب المقدس ، ومفهومهم للصهيونية يتعارض مع المفهوم اللاهوتي الأصولي . ومن مطبوعاته التي تعبر عن آرائه : مجلات "القرن المسيحي" ، و"المسيحية والأزمات" ، و"القيمون" ، و"المصلح" .

(٢) هذا التحليل ورد على لسان د. "فرانك ماريا" عضو مجلس إدارة الوطن للكنائس . ويضيف قائلاً : "كنت أشاهد على التلفزيون كل يوم من أيام حرب ١٩٦٧ الإسرائيليون يقتلون المصريين وكأنهم غل . وشاهدت إسرائيليين في مرتفعات الجولان يقتلون سوريين يشبهون أمي وأبي (والدا الدكتور ماريا من سورية) وشاهدت جنوداً إسرائيليين يحملون الحراب ، وهم يدفعون بالنساء الفلسطينيات والأطفال عبر "جسر اللمبي" إلى الأردن ، لقد رأيت في هؤلاء النسوة أمي وشقيقتي . ومع ذلك كنت أعرف أنه في الوقت الذي كان العرب يضطهدون ، ويقتلون على أيدي الإسرائيليون . كان الكثير من الأمريكيين من المسيحيين واليهود يشاهدون التلفزيون مصفحين ! " .

قادة المسيحيين الليبراليين إلى مؤتمر في بوسطن ووجهوا نداءً إلى الرئيس "جونسون" ليأمر إسرائيل بالانسحاب من الأراضي التي احتلتها في حزيران/يونيو ١٩٦٧م^(١)، فقد كانوا يعتقدون بأن إسرائيل واجهت بعد حرب ١٩٦٧م خيارين: أولهما العيش بسلام مع جيرانها بعد انسحابها من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧م، والثاني أن تواصل اعتمادها على القوة العسكرية... وقد اختار الإسرائيليون الخيار العسكري، وواصلوا تضخمهم.

بعد ذلك دعا المجلس الوطني للكنائس إلى إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، وافتتح مكاتب له في واشنطن، وتحدث أعضاؤه مع أعضاء مجلس الشيوخ، وممثلين من قضايا الشرق الأوسط، وأدلووا بشهادتهم أمام لجان الكونغرس حول ظروف الفلسطينيين الصعبة في غزة والضفة^(٢)، وقد أرسل مجلس الشيوخ وفداً إلى الضفة الغربية لدراسة اتهامات الكنيسة الأسقفية بشأن انتهاك إسرائيل لحقوق الإنسان هناك، ثم أصدر بياناً عام ١٩٨٠م انتقد فيه سياسات الاحتلال الإسرائيلي، وأيد إقامة دولة فلسطينية منفصلة في غزة والضفة الغربية.

أدرك اليهود أنهم خسروا دعم المجلس الوطني للكنائس، واعترفوا بذلك على لسان الحاخام تانينبوم قائلاً: "منذ حرب ١٩٦٧م شعرت المجموعة اليهودية أن البروتستانت^(٣) تخلوا عنها، كما شعرت أنه تخلى عنها أيضاً جماعات متعلقة حول المجلس الوطني للكنائس، الذي -بسبب تعاطفه مع قضايا العالم الثالث- أعطى

(١) بالطبع لم يستجيب جونسون لمثل هذه النداءات، وقد علق د. ماريا على ذلك بقوله: "إن الانسحاب لم يحدث ولكننا على الأقل استطعنا أن نجعل بعض الأمريكيين يدركون أن هناك ظلماً تؤيده حكومتنا".

(٢) للأسف لم يستغل العرب هذه المواقف لمصلحتهم. وكعادتهم دوماً، لا يقرؤون.

(٣) يقصد التيار الليبرالي الذي كان يشكل الأغلبية الظاهرة آنذاك.

الانطباع بأنه يدعم منظمة التحرير الفلسطينية^(١).

في واقع الأمر، لم تكن خسارة اليهود فادحة؛ فقد كانوا على ثقة أن الصف الأمامي من قادة المجلس الوطني للكنائس لن يحتجوا بشدة على احتلالهم للأراضي العربية، وأنهم يشعرون باطمئنان إلى أنه مع أن بعض القادة الليبراليين من البروتستانت والكاثوليك استهجنوا معاناة الفلسطينيين، وذكروا ذلك في مناسبات نادرة، فإن القضية بالنسبة إليهم لم تكن أكثر أهمية من قضايا أخرى مثل: التمييز العنصري في جنوب إفريقيا وسباق التسلح وانتهاك حقوق الإنسان في أمريكا الوسطى. كما أن قادة المجلس الوطني للكنائس، وقادة كنائس ليبرالية أخرى، يحتفظون بأوثق روابط الصداقة مع مؤيدي إسرائيل من اليهود في معظم المدن الأمريكية. ولا يزال يلتقي قساوسة مسيحيون وكهنة يهود بصفة مستمرة لتطوير التفاهم بين المسيحيين واليهود في أمريكا، متجاهلين أي التزام جاد بالمسيحيين العرب في الأراضي التي يحتلها اليهود.

كانت إسرائيل آنذاك قد رسخت نفسها تماماً على أرض الميعاد، وأثبتت أنها موجودة لتبقى، وذلك ما قطع دابر كل الشكوك لدى الأصوليين، سواء من المسيحيين

(١) نفى أعضاء المجلس الوطني للكنائس هذه الاتهامات، فقد قال د. "تراس جونز": "إن المجلس في سياساته ومواقفه الحقيقية بقي بقرار منه موالياً لإسرائيل". وقال القس "هافري والتس" معتذراً: "إن عدداً من القادة البروتستانت تورطوا في معاناة الشعب الفلسطيني المشردين وشمولهم في نداءهم حول العالم للحصول على الدعم". وحقيقة الموقف اليهودي بينه د. فرانك ماريا حين قال: "قبل حرب ١٩٦٧م كان الحاخام تونينتهام يفاخر بأن المجلس كان لا يذيع أي بيان من دون موافقته. إنني لا أريد أن أقول إن هيئة المجلس كانت مجرد أداة ختم بيد إسرائيل، وكأنها كانت تتجاوب مع ضغوط ومع حماقات اليهودية الأمريكية، كما كانت أقل تكراراً مع استغاثات المسيحيين والمسلمين في الشرق الأوسط"، وأضاف: "إن المجلس لم يتخل عن الحاخام تونينتهام وعن غيره من مؤيدي إسرائيل، غير أن إسرائيل ومؤيديها في هذه البلاد قرروا أن باستطاعتهم الحصول على مساعدة أخرى من الإنجلييين الأصوليين معتقدين أنها ستكون ذات قيمة أكثر".

أو اليهود أنفسهم، والتي كانت تقف حائلاً بينهم وبين مساندة إسرائيل. فالأصوليون اليهود الذين كانوا يصرخون بأعلى صوت لهم بأن كل دولة تنشأ باسم اليهود وتقوم قبل العصر المشيخاني هي دولة مزيفة وفاقدة للشرعية، ويحذرون من العواقب الوخيمة التي ستجرها تلك الدولة الكافرة على كل يهود العالم، صاروا يعدون انتصارات إسرائيل المتتالية معجزة إلهية! وإشارة ربانية إلى الخلاص المشيخاني!! وأن إسرائيل، وإن لم تكن مملكة الرب، إلا أن أرض إسرائيل تحت السيادة اليهودية لها معان دينية مهمة!!! وصاروا يعطون لذلك تبريرات كاذبة باسم التوراة، وفي النهاية رفض أغلب الأصوليين اليهود فكرة انتظار المشيخ، وقاموا بتكييفها لتتفق مع أفكارهم الجديدة، معلنين أن المشيخ سوف يأتي إذا استحق اليهود الخلاص في الأماكن المقدسة، ومن ثم ينبغي على اليهود العمل لإثبات أنهم يستحقون ذلك فعلاً^(١)!

أما الأصوليون الإنجيليون فقد صاروا يرون في إسرائيل القوة امتداداً أيديولوجياً للحروب الصليبية، وتحضيراً أكيداً للنهاية السعيدة لها بعودة الرب يسوع بين أمته وعلى أرضه. وأنها بانتصارها وبقائها، أثبتت بالفعل أنها إشارة ربانية مؤكدة إلى قرب عودة المسيح، الذي يسبقه تحقق وعد الرب بجمع اليهود وهلاكهم في الأيام الأخيرة عبر معركة هرمجدون، حيث سيقتل بها أغلبهم ويتصر الباقون. ولتسريع ذلك، قدموا لإسرائيل دعماً أشد حرارة من دعم الليبراليين.

وبالطبع تخلى اليهود عن أصدقائهم القدماء بمنتهى السهولة، ونقلوا بندقيتهم بطيب خاطر من كتف المسيحية الليبرالي إلى كتفها الأصولي الإنجيلي، خاصة أن الليبراليين لم يعد لهم ذلك التأثير الكبير كما كان في الماضي. وفي هذا كتب "كريستول"^(٢) في صحيفة "كومنتري" في تموز/يوليو ١٩٨٤: "الليبرالية هي في موقع

(١) لمتابعة تلك المراحل في تحول الفكر الأصولي اليهودي، راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) أستاذ جامعي للفكر الاجتماعي في كلية إدارة الأعمال بجامعة نيويورك.

دفاعي^(١) وعلى اليهود أن يبتعدوا عنها. إننا مكرهون على اختبار حلفائنا حيث نجدهم، وكيفما نجدهم". ويعتقد كريستول أن أمام اليهود الأمريكيين أولوية مطلقة هي إسرائيل. ولما كان "فولويل" و"الأغلبية الأخلاقية"^(٢) تدعم إسرائيل، فإن على اليهود الأمريكيين بالمقابل، أن يؤيدوا المحافظين الجدد تأييداً ساحقاً. وي طرح كريستول سؤالاً على اليهود: "كيف يكون الأمر لو كانت "الأغلبية الأخلاقية" ضد إسرائيل؟"، ويجب أن الجواب سهل، ولا يمكن التهرب منه، وهو: "أن الفارق سيكون كبيراً جداً، وسيكون الأمر بالنسبة إلى اليهود مرعباً حقاً". ويؤيد "إليك رسيشنيك"^(٣) التحالف اليهودي مع المحافظين الإنجيليين، مع أنه يدرك حقيقة أهدافهم، فيقول في "مؤتمر رؤساء القيادات" الذي عقد في لندن حزيران/يونيو ١٩٨٤م: "نحن نرحب ونوافق ونحیی مثل هذا الدعم المسيحي لإسرائيل دون أن نورط أنفسنا في قضاياهم المحلية". وهكذا، فبعد عام ١٩٦٧م ارتمت إسرائيل تماماً في أحضان اليمين الأمريكي المتشدد. وفي كتابه: "اللاسامية الحقيقية في أمريكا" يقول "بير لمتر": "إن اليهود يستطيعون أن

(١) مرت المسيحية الليبرالية بمرحلة ضعف كبير اعتباراً من ستينيات القرن الماضي، وتدهورت أكثر خلال عهد المحافظين الجدد، ولكنها بدأت بالتعافي مؤخراً. ويقول القس البروتستانتي الليبرالي الأمريكي "جيم بيركل" إن سياسات المحافظين الجدد، وتحالفهم مع الكنيسة الإنجيلية الأصولية، أدى إلى ردة فعل في أوساط دينية أمريكية، وبشكل خاص بروتستانتية، فقاموا بتشكيل حركة دينية نشيطة ضد بوش والمحافظين. وظهرت هذه الحركة، بوضوح شديد، في "تجمع الكنائس الليبرالية البروتستانتية"، وفيما يعرف بـ"مركز المسيحيين التقدميين". ومع أن بيركلو اعترف أن حركته لا تمثل الأكثرية المسيحية، إلا أنه يؤكد أن الليبراليين قد نشطوا كثيراً في الفترة الأخيرة، وبدؤوا يتوحدون، ويعبرون عن آرائهم في المنتديات ومن خلال الكتب ومواقع الإنترنت. وتزايد دورهم في التواصل مع الناس، وتنظيم حالة المعارضة الدينية لسياسة بوش والمحافظين الجدد والكنائس المحافظة. وهو يعيد الفضل إلى بوش في توحيد الكنائس والقوى الدينية المعارضة، ضد سياساته ورؤاه الدينية والسياسية.

(٢) يقصد الإنجيليين، أو اليمين المسيحي بتعبير سياسي. وبعد قليل سوف يأتي الحديث بتفصيل أوسع عن الأغلبية الأخلاقية بالذات.

(٣) رئيس المنظمة الصهيونية في أمريكا.

يتعايشوا مع كل الأولويات المحلية لليمين المسيحي (الإنجيليين تحديداً) التي يختلف معهم حولها اليهود الليبراليون^(١)، لأنه ليس بين هذه الشؤون ما هو في أهمية إسرائيل". وهكذا أيضاً ارتمت إسرائيل داخلياً بحضن اليمين الإسرائيلي المتشدد.

وباكتمال تشكل الدعم الأصولي صارت إسرائيل تحاول جاهدة إصلاح خطأ الماضي، فعند قيامها كانت مدعومة خارجياً وداخلياً من قبل الليبراليين، ولم يكن الأصوليون متحمسين لها، ولذلك فقد أسست، وإن شكلياً، بصورة دولة ديمقراطية (لا تفرق بين مواطنيها حسب الدين أو العرق) علمانية (تفصل بين الدين والدولة)، وهذا يفسر إبقاء بعض العرب فيها. أما الآن فالوضع يأخذ اتجاهاً مختلفاً تماماً؛ فإسرائيل قد أصبحت مدعومة أساساً من قبل الأصوليين، وبالذات في مرحلة المحافظين الجدد، وبشكل أكثر حرارة في الحقبة البوشية الصغيرة. وبدأت المطالبة بصوت عالٍ بالاعتراف بـ"يهودية إسرائيل" التي صرنا نسمع عنها مؤخراً^(٢)، وهذا يعني أن إسرائيل دولة دينية يهودية، أي لليهود فقط.

عاد أبراهام إلى فيكتور لمعرفة كيفية حدوث تلك التطورات لدى الأصوليين، فشرح له كيف كان الأصوليون، المتمركزون أساساً في الجنوب الأمريكي^(٣)، يعارضون منذ البداية الثقافة العلمانية الليبرالية التي تروجها وسائل الإعلام والترفيه، ويسعون إلى إعداد جيل شاب من المسيحيين المحافظين لمحاربتها^(٤)، ولكنهم ظلوا حتى ستينيات

(١) التنويريون، وهم أغلبية اليهود الأمريكيين. راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) الأصوليون (على عكس الليبراليين) يربطون بين سفر الرؤية وبين نهاية التاريخ، ويؤمنون بأن المسيح لن يعود قبل القيام بتحضيرات وأحداث سياسية معينة لخلق دولة يهودية خالصة في فلسطين، حيث ستعيد الأمة اليهودية بناء هيكل سليمان.

(٣) يذكر أن أكثر قادة الجيش الأمريكي من الجنوبيين، مع أن سكان الجنوب الأمريكي لا يتعدون نسبة ثلث سكان الولايات المتحدة.

(٤) وذلك عن طريق مدارسهم الدينية ومدارس الآحاد، التي يعوضون من خلالها ما يطلقون عليه اسم "تغيب الرب" في مناهج المدارس الحكومية.

القرن العشرين متمسكين بمبدأ عدم التدخل في الشؤون السياسية. غير أن عدداً من التطورات دفعتهم إلى تغيير هذه السياسة، مثل منع المحكمة العليا إقامة الصلوات في المدارس سنة ١٩٦٢، وتشريع الإجهاض سنة ١٩٧٣، بالإضافة إلى الفوضى الجنسية، وانتشار المخدرات، والفضائح السياسية (مثل ووترجيت)، وحرب فيتنام؛ كل ذلك أفنec الأصوليين بأن الوقت قد حان للنهوض وتصويب الأمور. وقد خلص الأصوليون إلى أن الليبرالية هي نفسها مصدر كل هذه المشاكل، وأن الوضع لن يتحسن إلا إذا أعيد للقيم التقليدية والأخلاقية مكانتها. وبالطبع كان التيار الأصولي الأقدم على إحداث التغيير هو التيار الإنجيلي لكونه أكثر ديناميكية وانفتاحاً من التيار التقليدي (الأصولي) المنعزل. وتبنوا بالفعل استراتيجية الاندماج في النظام السياسي واستغلاله لمصلحتهم.

كان الإنجيليون يعلمون أن عليهم قبل ذلك أن يعالجوا مشاكلهم الكبيرة، المتمثلة في الصورة السلبية التي يحملها الناس عنهم، لدرجة أن أصبحوا مثاراً للسخرية في غيابهم عن أروقة السلطة، وفي افتقارهم للإمكانات الفكرية، وفي تضائل عدد مؤيديهم. وقد ركز الأصوليون على الأطفال، وعلى تنظيم البرامج الشعبية الجذابة والمسلية، ولبسوا بدلات ملونة وملابس رياضية، وقدموا برامج ترفيهية، وقدموا شعارات مناسبة تحمل رسالتهم مثل: "حقيقة قديمة من أجل شباب عصري"، كما أظهروا حماسة وعاطفة وطنية كبيرة زادت من إعجاب الناس بهم، كما اهتموا بالجانب الفكري وشجعوا القراءة وإصدار الكتب والصحف وإنشاء المؤسسات والمعاهد اللاهوتية مثل "إنجيل مودي"، و"مؤسسة لوس أنجلوس للإنجيل" و"معهد فوللر". وقدم الإنجيليون أنفسهم بوصفهم المدافعين عن أمريكا المسيحية والرأسمالية، ونجحوا في جعل الأصولية الإنجيلية مرادفة للوطنية. ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين كان الإنجيليون قد نجحوا في ترميم صورتهم، وفي بناء العلاقات مع المتنفذين والسياسيين.

وفي أواخر السبعينيات بدأت أولى خطواتهم العملية في الدخول إلى مرحلة التأثير السياسي على شكل حركة منظمة تفرض أجندتها الدينية على الحياة السياسية الأمريكية. فقد قام المبشر الإنجيلي الشهير "دجيري فالويل" بتأسيس "الأغلبية الأخلاقية" Moral Majority Movement، كما أسس "جامعة ليبرتي" التي تهدف إلى إيصال خريجها إلى مناصب سياسية مؤثرة. وفي عام ١٩٧٦م دعم هو وبقية القادة الإنجيليين مثل "بيلي جراهام" و"بايلي سميث" و"بات روبرتسون" انتخاب "جيمي كارتر" الذي أعلن نفسه مسيحياً "ولد من جديد"^(١)، ومع انتخابات العام ١٩٨٠م^(٢) كان لهذه المجموعة دور رائد في هزيمة ١٢ سياسياً ترشحوا لعضوية مجلس الشيوخ الأمريكي نتيجة لأسباب "أخلاقية مسيحية"^(٣). وقالويل هذا كان يدعو أتباعه إلى تأييد إسرائيل بشكل مطلق^(٤)، إذ إنه يؤكد لهم أنه: "لأنهم مؤيدون للصهيونية،

(١) يجمع الإحساس بالذنب والتوبة هؤلاء "المولودين"، ويشترون في "المعركة ضد الخطيئة" في المجتمع وحول العالم. وقد أعلنت مجلة نيوزويك عام ١٩٧٦ "عام الإنجيليين"، الذين قدّر استطلاع معهد جالوب أعدادهم بنحو خمسين مليوناً.

(٢) تنكّر كارتر (الذي فاز في الانتخابات بفضل تأييد الإنجيليين) لعوده لهم، وبالذات في الجانب الخارجي، حيث أعلن عن ترحيبه بفكرة إقامة دولة فلسطينية مستقلة، فقامت المنظمات الإنجيلية (واليهودية) بإدانة تلك الفكرة بصرامة. وتم الرد بواسطة إقامة تحالف استراتيجي بينهم وبين حزب المحافظين، وكانوا عنصراً أساسياً في نجاح رونالد ريغان في الانتخابات سنة ١٩٨٠. يذكر أنه في سبيل جمع المؤيدين لريغان سافر فالويل مثلاً ما مجموعه ثلاث مئة ألف ميل، كما استخدم هو ورفاقه الوسائل الإعلامية والتلفزيون بمهارة وتصميم.

(٣) نتيجة تحالفه مع الإنجيليين، تحول الحزب الجمهوري من حزب الأثرياء إلى حزب الأخلاق المسيحية، وبدأ يدعي أنه المحافظ الرئيسي على الأخلاقيات المسيحية الأصيلة التي فقدت في المجتمع نتيجة صعود التيارات الليبرالية، وظهرت على السطح مصطلحات جديدة مثل "المبادئ المسيحية" أو "المبادئ الأسرية" Family Values.

(٤) قدم رئيس الوزراء الصهيوني السابق مناحم بيغن جائزة جابوتنسكي Jabotinsky لفالويل عام ١٩٨١ تقديراً لدعمه للكيان. وقد شهد عام ١٩٨٠ تأسيس منظمة السفارة المسيحية العالمية بالقدس بهدف تقوية الدعم المسيحي العالمي للكيان الصهيوني. وكانت القدس شهدت عام ١٩٧٦ تأسيس منظمة جسور للسلام أو Bridges for Peace التي تصف مهمتها في تحقيق السلام على النحو التالي: "نعطي من خلال برامجنا فرصة للمسيحيين، سواء داخل إسرائيل أو خارجها، للتعبير عن مسؤوليتهم الكتابية أمام الرب كأولياء لإسرائيل وللمجتمع اليهودي".

فهم على الطريق الصحيح، وفي الجانب الرابع دوماً، إذ إن "الإسرائيليين ما كانوا لينتصروا لو لم يكن هناك تدخل من الله"^(١). وهكذا فقيادة مسيحيون مثله هم الذين يوفرون للإسرائيليين الدافع للتوسع ومصادرة المزيد من الأراضي، ولاضطهاد مزيد من الشعوب؛ لأنهم يدعون أن "الله إلى جانب إسرائيل، وأن "العم سام" راغب في التوقيع على الفاتورة".

كان الإسرائيليون يعرفون كل هذا ويستغلونه حق الاستغلال. ففي عام ١٩٨١م، عندما قصفت إسرائيل المفاعل النووي قرب بغداد، تخوّف "مناحيم بيغن" من رد فعل سيئ في الولايات المتحدة، ومن أجل الحصول على الدعم لم يتصل بسياناتور أو حاخام يهودي، إنما اتصل بفالويل^(٢)؛ فأى عمل عسكري قامت أو ستقوم به إسرائيل، تستطيع أن تعتمد فيه على دعم الأصوليين الإنجيليين. ويتواصل التأثير السياسي لمناهج هؤلاء القادة الأصوليين على صناع القرار حتى بعد وفاتهم؛ فلا يزال الطامحون إلى الرئاسة

(١) جاء في كتاب "النبوءة والسياسة" للكاتبة الأمريكية غريس هالسيل: "لقد أغرقنا إسرائيل بالأسلحة، جعلنا من دولة الثلاثة ملايين يهودي مارداً عسكرياً أكبر من أي دولة منفردة مثل ألمانيا أو إنكلترا أو فرنسا. وأقوى من ٢١ دولة عربية مجتمعة عدد سكانها ١٥٠ مليون نسمة. . . إن إسرائيل هي المستفيد الأول بلا منازع من برنامج مساعداتنا. فهي تحصل على ثلث مجمل المساعدات الأمريكية الخارجية". وتقول الكاتبة تعقيباً على انتصار الكيان الصهيوني في حرب ١٩٦٧: "لم يعط أحد أي فضل للولايات المتحدة لأنها زودت إسرائيل بالأسلحة والتكنولوجيا والدولارات، وبالعناصر العسكرية الأمريكية أيضاً التي ساعدت الإسرائيليين في تلك الحرب. لقد ربحت إسرائيل لأن الولايات المتحدة كانت تؤيدها بلا حدود". وتقول أيضاً على لسان الأستاذ في الجامعة العبرية "إسرائيل شاحك": "إن دافع الضرائب الأمريكي أرسل إلى إسرائيل في عام ١٩٨٥ خمسة مليارات دولار"، واستمرت أمريكا بدفع هذه القيمة سنوياً لعاية الآن، فضلاً عن المساعدات المادية والعينية الأخرى".

(٢) قبل أن يغلق سماعة الهاتف، قال فالويل لبيغن: "السيد رئيس الوزراء، أريد أن أهنئك على المهمة التي جعلتنا فخورين جداً بإنتاج طائرات ف ١٦". وبالفعل نجح فالويل في إقناع الرئيس السابق للجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ جيسي هيلمز ليصبح مؤيداً للضربة الإسرائيلية بعدما كان من أكبر منتقديها.

يحرصون على التعبير عن تقديرهم لفالويل حتى الآن، من خلال زيارة جامعة ليبرتي، والإعلان عن وفائهم وإعجابهم بذلك المؤمن الكبير.

لاحظ أبراهام أن قادة مثل هذه الحركات الإنجيلية صاروا يعتبرون أن التراث التاريخي والثقافي الأمريكي قائم على ما يطلق عليه "التراث اليهودي المسيحي" (اليهوميسية)، وبشكل أكبر مما كان يؤمن الليبراليون أنفسهم. وتطرق الإنجيليون كثيراً إلى المصير المشترك لليهود والمسيحيين، وضرورة استمرارية التحالف الاستراتيجي بينهما. فالمبشر الإنجيلي التلفزيوني "كينين كوبلاند" مثلاً^(١) يقول: "إن الله أقام إسرائيل. إننا نشاهد الله يتحرك من أجل إسرائيل. إنه لوقت رائع أن نبدأ في دعم حكومتنا، ما دامت تدعم إسرائيل. إنه لوقت رائع أن نُشعر الله مدى تقديرنا لجذور إبراهيم".

لاحظ أبراهام أيضاً أن هؤلاء القادة الإنجيليين هم الذين يوجهون أتباعهم، والوعي الأمريكي بشكل عام، نحو ما يرونه الأصح أو الأكثر صواباً، وإن كان ذلك لا يخدم مصلحة المواطن الأمريكي العادي. وأبرز مثال على ذلك هو فوز جورج بوش الابن في انتخابات الرئاسة الأمريكية سنة ٢٠٠٠، مع أن الديمقراطيين خلال حكم كلينتون ونائبه "آل جور" قد حققوا نجاحات كبيرة على المستوى الاقتصادي! فقد اختار أولئك القادة الموجهون لوعي الشعب أن يتجاهلوا سجل النمو والازدهار للاقتصاد، ويطالبوا بالتصويت للشخص الذي استطاع أن يحول الأنظار باتجاه الخلاف القائم حول أخلاقيات الحكم. وبالفعل فإن الناخبين الأمريكيين الذين يتركزون في الجنوب في الولايات التي تعرف "بحزام الكتاب المقدس" هم الذين أعطوا قوة الدفع التي مكنت بوش من الفوز. ومع أن الاقتصاد الأمريكي شهد تراجعاً خلال ولاية بوش الأولى،

(١) يشاهد برامجه ٩، ٤ مليون منزل.

وانضم إلى نادي الفقراء في أثنائها أربعة ملايين وثلاث مئة ألف أمريكي^(١)، إلا أنه عاد وفاز بولاية ثانية وبأغلبية أفضل^(٢) وأولئك القادة الإنجيليون قد فعلوا الشيء ذاته بالنسبة إلى توجيه أتباعهم والوعي الأمريكي نحو التأييد الفعال لإسرائيل والانحياز الكامل وغير المشروط لسياساتها، رغم الولايات التي جرها ذلك الانحياز على الولايات المتحدة ومصالحها في الخارج وزيادة مشاعر العداء والكره تجاهها^(٣).

الغريب أن أبراهام من خلال حواراته مع الأمريكيين العاديين، وجد أنهم يجهلون تماماً حقيقة ما يدور خارج حدودهم، ويسيروا كقطيع من الأغنام وراء رعاتهم (سواء

(١) سعى بوش للالتزام بأجندة الأصولية الإنجيلية، والتي كانت تتضمن في الجانب المحلي قضايا حظر الإجهاض، وقراءة الإنجيل في المدارس العامة. أما الأجندة الخارجية فكانت مبنية على أساس إيمان هؤلاء الإنجيليين بأن نهاية العالم ستكون قريبة، وأن الشرق الأوسط سيدخل سلسلة حروب تمهيداً لمعركة هرمجدون والتي يجب أن يفوز الكيان الصهيوني فيها، ليسهلوا على المسيح بناء مملكة الله في فلسطين عند مجيئه الثاني. كما كان هناك توافق في معتقدات هؤلاء الإنجيليين مع غزو بابل (العراق حالياً) باعتباره ممهداً لهمجدون حسب سفر الرؤيا. وهذه الأفكار الأسطورية قد أصبح لها شعبية كبيرة متزايدة بين الأمريكيين، ويشير القس الليبرالي "جيم بيركلو" إلى رواية Left Behind، التي طبعت على مستوى واسع، وأخذت شهرة شعبية هائلة، على الرغم من ضعفها الفني والأدبي، وذلك لأنها تعكس، بدرجة كبيرة، رؤية المسيحيين المحافظين للسياسة ولنهاية العالم. وعندما بدأ الحديث عن انسحاب القوات الأمريكية من العراق، أكد كثير من الصهاينة، مثل "يورام انتغر" المنسق السابق للعلاقات الصهيونية مع الكونغرس الأمريكي: "أن الانسحاب الأمريكي من العراق يهدد بمحو "إسرائيل" من على خارطة المنطقة"، وربما كان ذلك من أسباب تأجيل موعد الانسحاب، لتوفير فرصة أكبر لحماية الكيان وتأمين حدوده.

(٢) السياسات الاقتصادية لبوش وللجمهوريين بشكل عام تضر الطبقات نفسها التي تؤيدها، حيث إن الحزب متمسك بمبادئ الاقتصاد الحر؛ ما يقلص من البرامج الحكومية التي تدعم الطبقات المتوسطة والمنخفضة الدخل.

(٣) أكدت دراسة حديثة للباحثين الأمريكيين "ستيفين والت" و "جون مريشيمر" أنه بعد نهاية الحرب الباردة لم يعد هناك مبرر منطقي لاستمرار العلاقات الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل بشكلها الحالي، كما أن مبرر "المبادئ الديمقراطية المشتركة" لا يتماشى مع السياسات الإسرائيلية؛ لما فيها من انتهاكات لحقوق الإنسان وللقوانين الدولية. وتوحي الدراسة بأن جذور خطر الإرهاب التي تواجه الولايات المتحدة اليوم متعلقة باستمرار الدعم الأمريكي لإسرائيل، وإن إسرائيل لم تعد "دولة بلا حيلة" نظراً لصعودها إلى مرتبة القوة العسكرية الأولى بلا منازع في المنطقة. وهذا ما يفرض البحث عن الأسباب الأخرى التي تعتمد عليها الولايات المتحدة في تقديم الدعم لإسرائيل.

من قادتهم الروحيين أو أساطين الدعاية والإعلام) دون أن يكلفوا أنفسهم محاولة تقصي الحقائق لتشكيل قناعاتهم الخاصة. في البداية ظن أن المصادفة وحدها هي من أوقفت في طريقه قوماً جهلة، ولكن مع تشابه وجهات نظر جميع الأمريكيين العاديين الذين قابلهم، وتكرارها بحذافيرها كالبغاء دون أن يعوا تفاصيلها أو يقدرها على مناقشتها، بدأ أبراهام بافتراض أن الموضوع قد يكون خارجاً عن مجرد مصادفة، وقد تأكد من ذلك بعد رجوعه إلى الإحصاءات المتعددة التي أصابته بالصدمة فعلاً؛ فـ ٦٠٪ من الشعب الأمريكي لم يستطع تحديد موقع إسرائيل على الخريطة، بل تساءل بعضهم: أهي دولة عربية! كما أن النسبة نفسها لم تستطع تحديد موقع العراق أيضاً، مع أن أخبار الحرب الأمريكية الدائرة هناك منذ ست سنوات تملأ كل وسائل الإعلام الأمريكية^(١).

أدرك أبراهام حقيقة هيمنة اليهود على المجتمع الأمريكي، وتبته للشراكة الأيديولوجية، أو حالة التوهم الفكرية ما بين النظرة الحديثة للأمريكيين، بمختلف شرائحهم، إلى العالم، وبين رؤيتهم له من منظور يهودي، وهي التي أدت إلى كونهم منحازين بطبيعتهم وبنيتهم إلى إسرائيل؛ فالبروتستانتية (بتقسيماتها الثلاثة الحالية) هي في حقيقة الأمر انقلاب يهودي على الدين المسيحي التقليدي، وذلك الانقلاب كان له أثره الواضح لا على تاريخ المسيحية فحسب، بل على تاريخ الغرب الحديث بشكل

(١) نشرت شبكة CNN الأمريكية في موقعها على الإنترنت الاستبيان تفصيلاً تحت عنوان (الشباب الأمريكي لا يعرف أين العراق!!) وقد جاء فيه أن ستة من كل ٧ أمريكيين (قراءة ٨٧٪) من فئة الشباب، لا يستطيعون تحديد موقع العراق على الخريطة، و(٨٣٪) لم يستطيعوا تحديد موقع أفغانستان. وأوضحت نتائج البحث أيضاً أن (١١٪) من الشباب الأمريكي لم يستطيع تحديد دولته "الولايات المتحدة" على خريطة العالم!!! وللتدليل أكثر على مدى جهل الأمريكيين نورد حادثة ذكرها الكاتب "يوسف معاطي" في كتابه "تعب تكره أمريكا" وهي أن قائداً حاضر في وحدة أمريكية قبل توجهها إلى العراق قائلاً: "أيها الجنود.. اعلموا أنكم ذاهبون إلى بلد ذي حضارة عريقة.. لذا حاربوا الجيوش والشعوب ولكن لا تحاربوا الحضارة". وبعد الغزو والاحتلال تساءل أحد أولئك الجنود متعجباً: "لقد قلتم لنا إنا ذاهبون إلى بلد ذي حضارة، فأين هي تلك الحضارة؟.. لقد مشينا من الموصل إلى بغداد ولم نجد في طريقنا ماكدونالدز واحداً!.. ويقولون حضارة عريقة!!!!".

عام، خاصة أن "الرأسمالية الغربية الحديثة ما هي إلا نتاج للأخلاقية البروتستانتية" وفق تعبير عالم الاجتماع الألماني "ماكس فيبر"، الذي رأى أن الرأسمالية تناهض سلطان الكنيسة (بأخلاقيات المسيحية التقليدية)، وكل القوانين التي تحد من الملكية الخاصة، وتدعو إلى الحرية، وتتبنى الدفاع عنها. ومع أن كالفن كان صارماً جداً في مختلف المسائل الدينية، إلا أنه أقر "الفائدة الربوية"^(١) على نقيض النظرة اللاهوتية المسيحية الشائعة^(٢)، وهذه الحالة من التداخل العضوي بين مكونات الحداثة الغربية

(١) كان لدخول المبادئ اليهودية الاقتصادية إلى المسيحية، بالإضافة إلى تغير قواعد السوق والتطور في النظام المالي أكبر الأثر على تنامي نفوذ اليهود وخروجهم من الظل. وقد كتب هرتزل في مؤلفه الشهير "الدولة اليهودية": "لقد كانت مجوهراتنا في الماضي تصادر، ولكن كيف يمكن الوصول إلى ممتلكاتنا المنقولة الآن، إنها تتألف من أوراق مطبوعة مغلقة عليها في مكان ما بالعالم، ربما في صناديق المسيحيين. طبعاً من الممكن الوصول إلى السندات والأسهم في السكك الحديدية والمصارف والمشروعات الصناعية من كل نوع، وذلك من خلال الضرائب، فحيثما يطبق نظام متقدم للضرائب فإن ممتلكاتنا المنقولة يمكن في النهاية الوصول إليها، ولكن لا يمكن قسرها على اليهود وحدهم. ومهما يكن الأمر فإنها حيثما وجدت، فإن أثرها المباشر سيكون كارثة اقتصادية حادة لن يقتصر أثرها على اليهود... هذه الاستحالة في الوصول إلى اليهود هي نفسها التي تغذي الكراهية ضد اليهود وتجعلها أكثر مرارة، إن العداء للسامية بين الشعوب يتعاظم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة، وهي حرية بأن تعاضم حقاً لأن أسباب نموها مستمرة في الوجود، ولا يمكن إزالتها... أما سببها الراهن فيرجع إلى ظهور أنصاف المثقفين بيننا بأعداد كبيرة، وهؤلاء لا يجدون متنفساً أسفلهم أو من فوقهم، أعني لا يجدون متنفساً صحيحاً في أي اتجاه، ونحن عندما نغرق نصبح بروليتارياً نائرة من أتباع جميع الأحزاب الثورية، وفي الوقت نفسه عندما نرتفع، ترتفع معنا القوة الرهيبة للمال".

(٢) استفاد الصيارفة اليهود إلى أبعد الحدود من انتشار الثورات البروتستانتية في أوروبا، وفيما بين ١٥٤٠ و١٥٦٠م تمكنوا من دعم نظام جديد في هولندا من خلال ما سمي بثورة الأراضي المنخفضة بهولندا وبلجيكا ضد العرش الإسباني الكاثوليكي، حيث تم الاتفاق على أنه يسمح لليهود بالتجمع في تلك البلد التي اتخذت نظاماً جمهورياً، وتمكنوا من تشكيل شركات تجارية ومصرفية كبرى عبر البحار وصلت جهودها ونشاطها حتى جنوب آسيا. ولم تمض عقود قليلة حتى تطورت المؤامرة شمالاً؛ فمن ألمانيا ١٥٢٠م، إلى هولندا عام ١٥٤٠م، إلى إنجلترا عام ١٦٢٠م حتى عام ١٦٤٠م حين قبض على الملك الإنجليزي من أسرة آل ستيوارت وسجن ثم أعدم وأعلنت أول جمهورية في إنجلترا على يد أحد النواب غير معروف الأصل "كرومويل" الذي أعطى اليهود كل الحرية التي لم يتمكنوا من الحصول عليها من أسرة آل ستيوارت، حتى إنه أول من أعلن أن العالم بدأ يشهد تغييرات حاسمه، وأن شعب إنجلترا سيكون أول من ينقل أبناء إسرائيل نحو الأراضي المقدسة.

والأمريكية بشكل خاص، وبين الفكر اليهودي الصهيوني، هي التي أنتجت أغرب ظاهرة سياسية واجتماعية هجينة في الزمن الحاضر متمثلة بدولة إسرائيل التي كانت حتى وقت قريب مشروعاً مستحيلاً للأغلبية العظمى من اليهود أنفسهم.

رجع أبراهام بذاكرته إلى حديثه مع أحمد في ألمانيا، ووجد نفسه متفقاً معه في كون اليهود، الذين كانوا في الوعي المسيحي الغربي هم قتلة الرب الملعونين، قد تحولوا بفضل البروتستانتية بالذات، إلى الأمة المضطهدة المظلومة التي حان الوقت لإنصافها وإعادةها إلى أرض الميعاد!!! وأنهم تحولوا أيضاً من المرابين مصاصي دماء الشعوب المسيحية، إلى قدوة في السياسات المصرفية الربوية المتحررة من أي قيد أخلاقي!!! ثم رجع بذاكرته إلى الوراثة أكثر، إلى حديثه مع أحمد في إسرائيل^(١) عن الفرق التنويرية الليبرالية ودورها المحوري في ظهور الصهيونية التي كانت مرفوضة تماماً من قبل الأصوليين، ووجد أن الأمر نفسه ينطبق على المسيحية!!! إذ إن الطوائف المسيحية الليبرالية كان لها أكبر الأثر في ظهور مفهوم الشراكة الأيديولوجية اليهودمسيحية، وساهمت بذلك عملياً، سواء من جهة التعاليم الدينية المتحررة لتهيئة الظروف لمشاركة اليهود بفعالية في مختلف جوانب الحياة دون تفرقة، أو من جهة السياسة، عن طريق اتخاذ خطوات عملية في سبيل إقامة دولة إسرائيل، أو حتى من جهة الاقتصاد، عن طريق إرساء "النظام اليهودمسيحي الرأسمالي". كما أن الأمر نفسه قد تكرر مع الطوائف الأصولية المسيحية، التي لم تتحمس لكل ذلك في البداية، ثم ما لبثت أن دخلت اللعبة بحماس يفوق حماس اللاعبين السابقين.

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف .

◀ الأزمة المالية

لاحظ أبراهام أن قواعد اللعبة مستمرة بالتغير، فعصر المحافظين الجدد قد بدأ بالانحدار، كما أن كثيراً من أقنعة التجميل قد سقطت عن وجه إسرائيل التي كانوا يتشددون بدورها ضمن الخطة الإلهية، ونصرة الرب لها، خاصة بعد عدوانها الأخير على غزة. وكذلك كانت البروتستانتية نفسها لا تمر بأزهى عصورها حالياً، والرأسمالية تعاني في الوقت الراهن أسوأ أزماتها على الإطلاق، إلا أنه كان يدرك أيضاً أن الحضارة الأمريكية، أو الغربية بتعبير أشمل، لا تزال مع كل ذلك تنظر إلى العالم حتى الآن عبر المنظار اليهودمسيحي الرأسمالي بشكل أساسي.

وفي محاولة لاستشفاف مدى تأثير الأزمة المالية على اقتناع فيكتور نفسه بالنظام العالمي الحالي، ابتدره أبراهام ذات مرة سائلاً:

- لقد قرأت في صحف اليوم أن قمة باريس تطالب بعقد قمة دولية في أسرع وقت ممكن لإعادة النظر في قواعد الرأسمالية، فما رأيك في ذلك؟

- هذا ما أعلنه الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي^(١) بصفته الرئيس الحالي للاتحاد الأوروبي، داعياً إلى إعادة تشكيل النظام العالمي. وربما كان محقاً في ذلك، فقد حذر "سايمون جونسون" كبير الخبراء الاقتصاديين في "صندوق النقد الدولي"

(١) وفقاً لتقرير نشرته صحيفة "بيلد" الألمانية فإن الرئيس ساركوزي ينفق ٢٨٠ ألف يورو سنوياً على الورود التي يجب أن تكون في قصر الإليزيه يانعة باستمرار. وعندما يسافر بشكل شخصي فإن طائرة ترافقه بشكل دائم، ليتمكن من العودة في أي لحظة إلى باريس حال حدوث مسألة طائرة. وهو يمتلك ٦١ سيارة خدمة وثمانية طائرات، وينفق سنوياً مليون يورو على المشروبات، كما أن لديه نحو ألف موظف بينهم ٤٤ سائقاً و٨٧ طباًخاً.

سابقاً من حدوث ركود عالمي جراء الأزمة المالية المدمرة التي ضربت الولايات المتحدة وأوروبا^(١)، وامتدت حتى معظم أسواق المال في العالم. ولعل العالم إن لم يسقط بين براثن كارثة الركود والانكماش الكامل، فعلى الأقل سيمر بفترة صعوبات لا يقدر أحد اليوم على قياس مداها، لا الفعلي ولا الزمني. ولعلنا اليوم في مواجهة أوضاع صعبة فعلاً، وعالم ليس البتة كعالم أمس، تحكمه مقاييس جديدة وموازين قوى غير تلك التي عرفنا. وأخشى أن سنوات الرخاء قد ولت إلى وقت غير معلوم.

رغم النبرة التشاؤمية التي طغت على حديث فيكتور، إلا أن أبراهام ارتاح للواقعية فيها، ولعدم مكابرتة على الباطل كما كان يخشى، فسأله مستوضحاً:

- كيف بدأت هذه الأزمة؟

- بدأت أولاً بما يسمى فقاعة الرهونات العقارية؛ فقد تم استحداث سوق الإقراض العقاري الأمريكي المعروف باسم "ساب برايم" الذي يمنح قروضاً للراغبين في السكنى من دون الاشتراط بأن يكون للمقترض سجل مالي قوي، وهكذا يتمكن أي مواطن من شراء منزله المستأجر بقرض مصرفي ليس له ضمان إلا رهن المنزل نفسه لدى المصرف، على أن يلتزم بدفع قيمة الإيجار الشهري نفسها تقريباً للمصرف كسداد طويل الأمد للقرض، إلى أن يصبح المنزل ملكاً له في النهاية.

(١) مع كل هذه الصعوبات المالية، فقد أعلنت تلك الدول أن ذلك لن يؤثر على دعمها للكيان الصهيوني. وقد انتقد تقرير أكاديمي أوروبي نشرته مجموعة الأبحاث والمعلومات عن السلام والأمن في العاصمة البلجيكية بروكسل، الدور الكبير للاتحاد الأوروبي في تسليح "إسرائيل" بمعدات ضخمة لاستخدامها بحروبها في "الشرق الأوسط". وأوضح التقرير أن الاتحاد الأوروبي يحتل المركز الثاني بعد الولايات المتحدة في تسليح "إسرائيل" بمختلف أنواع الأسلحة بما فيها الأسلحة الممنوعة دولياً. ومع أن اتفاق دول الاتحاد الأوروبي الـ ٢٧ فيما بينها على ما يسمى بالميثاق الأخلاقي لبيع الأسلحة يحرم تصديرها إلى مناطق النزاع التي يحتمل أن تستخدم فيها ضد المدنيين، غير أن الاتحاد يستثنى الكيان الصهيوني من هذا الميثاق، وتحتل فرنسا المركز الأول بين الدول الأوروبية التي تمدّه بالأسلحة تليها ألمانيا ثم بريطانيا ثم بلجيكا.

- هذا أمر رائع. فكيف ساءت الأمور إذن؟!!!

- حدث هذا لأن المصارف لم تكتف بالفائدة على هذه القروض، بل استخدمت "المشتقات المالية" لتوليد مصادر جديدة للتمويل، ومن ثم للتوسع في الإقراض؛ فلجأت إلى شركات التوريق (securitization التسييد أو التصكيك) مستخدمة محفظتها من الرهونات العقارية لإصدار سندات مالية جديدة تقترض بموجبها من المؤسسات المالية الأخرى.

- أي إن المصرف لم يكتف بالإقراض الأولي بضمان تلك العقارات، بل أصدر موجة ثانية من الأصول المالية بضمان الرهون العقارية ذاتها.

- تماماً. وهكذا فإن العقار الواحد يعطي مالكة الحق في الاقتراض من المصرف، ولكن المصرف يعيد استخدام العقار نفسه ضمن محفظة أكبر، للاقتراض بموجبها من جديد من المؤسسات المالية الأخرى.

- ما الذي جعل تلك المؤسسات المالية ترضى بذلك؟

- هي لم ترض فحسب، بل رحبت بذلك نظراً إلى أن تلك السندات مضمونة بعقار، ولأن سعر الفائدة عليها يصل إلى ١٥ أو ٢٠٪ أحياناً، مع أن النسبة الرسمية هي من ٤ إلى ٥٪. ولزيادة الأمان تم ضمان تلك السندات بواسطة شركات التأمين، أي إنها أصبحت سندات ذهبية (مضمونة ١٠٠٪) مما وسع من نطاق التداول أكثر.

- هذا يعني أنه إذا لم يدفع الدائن يتعهد المصرف بالتسييد ويحجز على العقار، وإن لم يستطع المصرف تحصيل النقود، تلتزم شركات التأمين بالتعويض.

- تماماً.

فتساءل أبراهام مستغرباً:

- إذن أين المشكلة؟!

- صارت هناك طلبات كثيرة للقروض العقارية بهذا النظام، وازدادت أسعار العقارات. بعد ذلك لجأ المدين إلى الحصول على قرض جديد نتيجة ارتفاع سعر عقاره، وذلك مقابل رهن جديد من "الدرجة الثانية" في مصرف آخر^(١) قام بتلك الإجراءات. أما المدين فقد صرف الفائض المتحصل على الإجازات أو شراء سيارة جديدة (بالتقسيط أيضاً)، أو شراء أدوات منزلية مثل الشاشات التلفزيونية الحديثة وغيرها، باعتباره ربحاً لم يكن في الحسبان. كما أن أصحاب السندات لم يكتفوا بالفائدة، وإنما لجؤوا بدورهم إلى بيعها لجني أرباح ارتفاع سعرها، مما أدى إلى تداولها من قبل أكثر من مالك، حسب سعر السوق الافتراضي صعوداً أو هبوطاً، مع أن أغلبهم لا يعرفون موقع العقارات التي يملكون سندات رهنها ويضاربون عليها.

- بالتأكيد هذا يشي بحجم الجشع عند الجميع، والسعي المحموم إلى جني أرباح هائلة وسريعة من خلال المجازفة، وليس على أساس إنتاج حقيقي. ولكنني لا أفهم حتى الآن كيف أدى هذا إلى انهيار ذلك العدد الكبير من المصارف والشركات؟ وكيف تم تشريد الكثيرين من بيوتهم؟

- أما الذين شردوا، فقد كانت هناك شروط بخط صغير في عقود الرهونات بأن المصرف له الحق بزيادة الفائدة حسب زيادة الفائدة الرسمية، وأنه في حال عدم السداد في شهر ما، تتضاعف الفائدة ويكون التسديد للفوائد المضاعفة قبل الفوائد المستحقة في الشهر القادم، وهو ما ساهم في تراكم الفوائد ومضاعفاتها، وعندما لم يستطع الدائن الوفاء بهذه الشروط توقف عن الدفع، وهنا ظهرت حقيقة الأزمة المعاصرة بالنسبة إلى المصارف والشركات التي أعلنت إفلاسها. وكذلك فعلت شركات التأمين لاحقاً، بعد أن أدركت حجم الأزمة، فكفت عن دفع التعويضات.

(١) جاءت تسمية "رهون درجة ثانية" من كونها رهوناً أقل جودة، ومن ثم فإنها معرضة أكثر للمخاطر إذا انخفضت قيمة العقارات.

- لماذا؟! ألم يضمنوا ذلك منذ البداية؟

- أجل، ولكن توسعهم الكبير في الأصول المالية على نحو مستقل إلى حد كبير عن الأصول العينية تمخض عنه زيادة عدد المدينين، ومن ثم زيادة حجم المخاطر إذا عجز أحدهم عن السداد. وعندما لجأ أصحاب السندات إلى المصارف حاولت حجز المنازل التي لم يتمكن أصحابها من تسديد الأقساط. ولكن بعد كل ذلك التداول ادعت أكثر من جهة بأن لها حقاً في العقارات نفسها، وبعد تزايد حدة قلق المتعاملين في أسواق المال بشأن الظروف التي يمر بها سوق الإقراض العقاري، تدهورت أسعار الأسهم بشكل ملحوظ؛ لأن المستثمرين في البورصة لا يعرفون أي المصارف معرضة لمشكلات الائتمان العقاري ولا مدى خسائرها المحتملة، فبدأ الجميع في البيع بشكل هستيري. كما أن كبار المدعين أحسوا ببوادر الأزمة، فسحبوا إيداعاتهم، مما أدى إلى نقص السيولة، وعجز المصارف عن الإيفاء بالتزاماتها، فأعلنت إفلاسها.

- لم أفهم ما قلته عن أن توسعهم في الأصول المالية كان على نحو مستقل عن

الأصول العينية!

- لقد بدأت الأزمة العقارية بنحو ١٢ ترليون دولار، ثم صارت هي نفسها تقريباً

بعد التداول بين هؤلاء أكثر من ٦٢ ترليون دولار.

- أي إن الاقتصاد المالي انفصل تماماً عن الاقتصاد العيني؟

- تماماً.

بدأت أمارات التعجب على وجه أبراهام فسأل:

- فأين رقابة الدولة أو المصرف المركزي؟

- ما من رقابة على حرية السوق في النظام الرأسمالي، وبالذات هنا في الولايات

المتحدة.

- ولكن ليس هناك حدود لما يمكن إصداره من أصول للملكية؟
 - بالطبع يوجد. فصحيح أنه يمكن إصدار أسهم بقيمة مالية مبالغ فيها عن القيمة الحقيقية للأصول التي تمثلها، إلا أن الأمر يظل محدوداً، لأنه يرتبط بوجود هذه الأصول العينية. إلا أن هذا لا ينطبق على "المديونية" التي هي شكل آخر للأصول المالية، حيث لا تكاد توجد حدود على التوسع فيها. وقد بالغت المؤسسات المالية في التوسع في هذه الأصول للمديونية بشكل هستيري طلباً للربح السريع دون جهد، وهو ما أنتج هذه الأزمة التي نراها اليوم.

- إذن فهي ليست أزمة عقار أو إفلاس، بل أزمة نظام ربوي؟
 - ربما كنت محقاً. فقد تم حساب عدد الأزمات الاقتصادية في النظام الرأسمالي منذ ١٩٦٨ إلى ٢٠٠٣ فوجد أنها كانت ١٠٠ أزمة، أي بمعدل ٣ أزمات سنوياً. وأزمة الرهونات العقارية كان قبلها انفجار فقاعة "الدوت كوم"^(١) التي هي أيضاً مثال آخر على الانفصال بين الاقتصاد المالي والعيني، وكلاهما ضربا النظام المالي الأمريكي في السنوات الأخيرة، وأديا إلى الأزمة المالية الراهنة بإفلاس مصارف كبرى كانت معتمدة على مثل تلك القطاعات. وإذا كانت هذه بوادرها، فإن جوهرها يكمن في طبيعة النظام المصرفي الأمريكي، الذي وفر لأباطرة المال فرصة لإشباع جشعهم، باللجوء إلى عمليات مضاربة اقتصادية لا يحكمها سوى قانون "حرية السوق"، وقاعدة "البقاء للأقوى".

- حسناً، هذا عن الولايات المتحدة، ولكن كيف أثر ذلك على الاقتصاد العالمي بالشكل المريع الذي نراه حالياً؟

- إن العولمة الاقتصادية ربطت العالم كله في حفرة هذه الأزمة بواسطة تشابك

(١) أي انهيار قيمة الأسهم لشركات الإنترنت الكبرى في السوق الافتراضية كـ "ياهو دوت كوم" مثلاً.

الاقتصاد الرأسمالي العالمي. فمن المعروف أن مؤسسات المال العالمية سواء كانت أمريكية أم أوروبية أم غيرها، تحرص على تنوع محافظها المالية عن طريق الاستثمار في بورصات الأوراق المالية كافة بما فيها البورصات الناشئة؛ وذلك لتقليل درجة المخاطر المترتبة على تراجع الأسهم في أي من البورصات العالمية. كما أن السوق الأمريكية ترتبط ارتباطاً عضوياً بالاقتصاد الأوربي والآسيوي، بمعنى أن الشركات الصناعية في هذه الدول تعتمد بنسبة تتعدى ٧٠ ٪ على ترويج منتجاتها داخل السوق الأمريكية^(١)، وفي حالة تراجع نشاط الاقتصاد الأمريكي تعاني هذه الشركات انخفاضاً حجم مبيعاتها وتراجع ربحيتها، وعندما تظهر مؤشرات على هذا التراجع، مثلما حدث خلال الأسابيع الماضية، تبدأ البورصات العالمية في الانحدار والتقهقر، نظراً لأن صناديق الاستثمار ومؤسسات رأس المال تبدأ بالتخلص مما بحوزتها من أسهم، فتزداد عمليات البيع في أسواق المال كافة، مما يؤدي إلى تراجع القيمة السوقية للأسهم، وانخفاض أسعارها على المستوى العالمي. وهكذا فمن المخاطر التي قد تتجم عن الأزمة المالية الحالية احتمال حصول تباطؤ اقتصادي عالمي.

- كيف؟

- إن الهبوط الذي سجل أخيراً في أسعار العقارات السكنية في أمريكا وغيرها من الأصول، والذي صاحبه ضغوط إضافية على عملية التسليف، سيكون له أثر سلبي على المستهلك الأمريكي المثقل أصلاً بأعباء الديون، مما قد يؤدي لاحقاً إلى ظهور أزمة في قطاع التسليف عن طريق "بطاقات الائتمان"، وارتفاع في معدلات تخلف الشركات عن سداد ديونها. وهذه كلها بوادر لعملية تباطؤ اقتصادي قد تطول

(١) تعتبر الولايات المتحدة أكثر البلدان المستوردة من معظم البلدان الأوربية والآسيوية، إذ تبلغ وارداتها من تلك الدول ١٩١٩ مليار دولار؛ أي بنسبة ١٥ ٪ من واردات العالم، لذا فإن أي خلل في اقتصاد الولايات المتحدة يؤدي إلى كساد اقتصادي في تلك الدول، وينعكس سلباً على مقدراتها الزراعية، الصناعية والتجارية.

أو تقصر بحسب السياسة المالية والنقدية للولايات المتحدة. وسيشعر القائمون على السياسة النقدية في بقية دول العالم أنهم مضطرون إلى مجاراة السياسة النقدية التوسعية التي أخذت الولايات المتحدة باتباعها مؤخراً، وهذا سيؤدي إلى انخفاض أسعار الفائدة المحلية وأسعار صرف العملات المرتبطة بالدولار، وسيزيد من الضغوط التضخمية التي ظهرت مؤخراً في عدد من دول العالم، ويبقى الباب مفتوحاً أمام مزيد من التداعيات لأزمة الرهن العقاري على أسواقها دون استثناء؛ فقد توقع رئيس صندوق النقد الدولي "دومينيك سترأوس" حصول مزيد من المتاعب، ووصف وزير الخزانة الأمريكي السابق "روبرت روبن" تلك الأزمة بأنها الأسوأ من بين الأزمات التي مر بها الاقتصاد العالمي منذ الكساد العظيم في ثلاثينيات القرن الماضي.

- وما الحل لضمان عدم تكرار مثل هذه الأزمات؟

- يقترح كثير من الاقتصاديين أن الحل هو: جعل الضريبة ٢,٥%^(١) وجعل الفائدة صفرًا^(٢).

- ولكن كيف ستعمل المصارف من دون فوائد!!!

- إن هذا سيجبرها على الإقراض لمشاريع خيرية، أو كاستثمار تشارك فيه بالريح والخسارة^(٣).

- وأنت ما رأيك في ذلك؟

تنهد فيكتور بحسرة قائلاً:

(١) يذكر أن هذا بالضبط هو مقدار "الزكاة" في التشريع الإسلامي.

(٢) وهذا هو تحريم الربا في التشريع الإسلامي. وننبه هنا بأن أولئك الخبراء الاقتصاديين الذين يقترحون ذلك هم من غير المسلمين.

(٣) وهذا ما يطلق عليه اسم "المرابحة" في الاقتصاد الإسلامي.

- أرى ذلك خيالياً؛ فلا اقتصاد من دون مصارف، ولا مصارف بلا ربا. ولا أعتقد أن الرفاهية يمكن أن تكون من دون الرأسمالية، والرأسمالية لا يمكن أن تقوم بغير الربا والاحتكار. ثم إننا ننظر إلى الخاسرين فقط وننسى الرابحين؛ فهناك رابحون أكثر من وراء هذه الأزمة.

- حقاً!!!

- بالتأكيد، فالرأسمالية لا تزال تضمن الريح الوفير لمن يستطيع استغلالها جيداً، وأكبر مثال على ذلك هو "مورغان"^(١) الذي استطاع اقتناص الفرصة وشراء "إيمال بروذر" بأبخس الأثمان. كما يمكنك استنتاج الباقي من خسارة قسم الوساطة المالية بالمصرف لمبلغ ٤٠٠ مليار دولار قبيل ساعات من إعلان إفلاسه، والشائعات التي راجت عن تحويل ذلك المبلغ إلى ثلاثة من مصارفهم الإسرائيلية^(٢).

- أي إنك لم تفقد إيمانك بالرأسمالية بعد.

- كلا؛ فالرأسمالية نظام اقتصادي حضاري ذو فلسفة اجتماعية وسياسية يقوم على أساس تنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعاً في مفهوم الحرية. وقد أجمع كتاب الاقتصاد حتى المعادون منهم للرأسمالية، وعلى رأسهم "كارل ماركس" نفسه، على أن الرأسمالية في نشأتها كانت خطوة تقدمية جبارة، وأنها أدت خدمات هائلة للبشرية في مختلف مناحي الحياة؛ فقد زادت الإنتاج، وأصلحت وسائل المواصلات، واستغلت موارد الطبيعة على نطاق واسع لم يكن متاحاً من قبل، ورفعت مستوى الحياة لطبقة العمال عما كانوا عليه في عهد الاعتماد الكلي أو الرئيسي على الزراعة.

(١) من أشهر المصرفيين اليهود حالياً.

(٢) اعترفت بذلك بعض المصادر الصهيونية ذاتها، وورد ذلك في صحيفة يديعوت أحرونوت، وهو ما يثير تساؤلات عديدة؛ إذ كيف تسمح حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لهذا المصرف أن يسقط، ثم تقدم مساعدة لمن هو أقل منه تأثيراً على الاقتصاد الأمريكي؟ وفي استطلاع للرأي على الإنترنت صرح ٣١٪ من الغربيين أنهم يظنون أن اليهود هم السبب وراء الأزمة المالية.

- ولكن مؤرخي الاقتصاد يقولون أيضاً إن الرأسمالية في أثناء تطورها من صورتها البسيطة الخيرة التي كانت عليها في بادئ الأمر، إلى صورتها الفاحشة التي وصلت إليها اليوم، أخذت تعتمد رويداً رويداً على الديون الأهلية، ومن هذه نشأ نظام المصارف التي تنظم العمليات الرأسمالية الكبرى، وتقرضها ما تحتاج إليه من الأموال لتشغيلها، وذلك في مقابل ما تأخذه من الفوائد والأرباح. كما أن المنافسة الرأسمالية العنيفة تؤدي في النهاية إلى تحطيم الشركات الصغيرة، أو اندماجها بعضها في بعض لتأسيس شركة كبيرة، وهذا وذاك يؤديان حتماً إلى الاحتكار في نهاية المطاف. كما تعتمد الرأسمالية إلى حرق البضائع الفائضة، أو قذفها في البحر خوفاً من تدني الأسعار لكثرة العرض، وإذ تُقدِّم هي على هذا الأمر تكون كثير من الشعوب في حالة شكوى من المجاعات التي تجتاحها، وهو ما أدى إلى تكديس الثروات في أيدي أصحاب رؤوس الأموال، وتضاؤلها النسبي المتزايد في أيدي العمال^(١)، فصار صاحب رأس المال يشغل العامل لإنتاج أكبر قدر من المنتجات، ويعطيه أجراً ضئيلاً لا يفي بالحياة الكريمة لجمهور العمال مستخلصاً "فائض القيمة" لنفسه في صورة أرباح فاحشة يعيش بها حياة ترف فاجرة لا تقف عند حد. هذا فضلاً عن حقيقة أخرى وهي أن ضالة أجر العامل تمنعه من استهلاك كل إنتاج المصانع في البلاد الرأسمالية، لأنه لو أخذ من

(١) نشير هنا في المقابل إلى نظام الإرث الإسلامي وتفتيته للثروة على رأس كل جيل، وإلى نظام الزكاة واقطاعه واحداً من أربعين من رأس المال وربحه في كل عام، وإلى نظام التكافل الذي يبيع في بعض الحالات التوظيف في رؤوس الأموال بالقدر الذي يحتاج إليه بيت المال للضرورات، وإلى تحريم كثر المال وتحريم الربا الذي هو العامل الأول والأساسي لتضخم رؤوس الأموال. كما نشير إلى الدور المناط ببيت المال لكفالة العاجزين عن العمل لسبب من الأسباب (كالمرض أو الشيخوخة أو الطفولة واليتيم... إلخ) وإكمال الحاجات الأساسية لمن تقصر بهم مواردهم الخاصة عن بلوغها، وكل ذلك يدل دلالة واضحة على مسؤولية الدولة في أن تكفل لعمال المصانع هذه المطالب الأساسية التي ذكرها الرسول في أحاديثه عن حقوق العمال. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [المحشر: ٧]. دُولَةٌ تعني متداولاً.

الأجر ما يكفي لاستهلاك الناتج كله أو معظمه لانتنفى ربح رأس المال أو لتضائل إلى أقصى حد^(١)، وهذا ما لا تسمح به الرأسمالية لأنها تنتج للربح أولاً وقبل كل شيء، ومن هنا تتكسد البضائع سنة بعد سنة، فتبحث الدول الرأسمالية عن أسواق جديدة لتصريف بضائعها، وينشأ الاستعمار، وما يتلوه من تطاحن على الأسواق، وعلى موارد المواد الخام ينتهي بالحروب المدمرة.

- التاريخ يشهد أن الاستعمار نزعة قديمة في البشرية، ولم ينتج من الرأسمالية. وقد كان في عهد الرومان مثلاً أكثر بشاعة مما هو اليوم من حيث المبدأ، ومن حيث استغلال الغالب للمغلوب^(٢).

- ولكن الرأسمالية زادت حدة في العصر الحديث بما تملك من وسائل وتقنيات حديثة.

- عزيزي أبراهام، يكفيك همك في مقارنة الأديان، فلا تشتت فكرك في السياسة والاقتصاد أيضاً.

- ولكنني أرى كل ذلك وحدة متكاملة.

- أبراهام، هذا هو رأي المسلمين، وهو خاطئ تماماً؛ فالدين وأمور الحياة شيان منفصلان تماماً، لا تنس ذلك أبداً. والآن قل لي أين وصلت في دراستك لحياة الرب يسوع؟

(١) المبدأ التشريعي الذي وضعه الفقه الإسلامي في هذا الباب هو اعتبار العامل شريكاً في الربح مع صاحب رأس المال، حتى ذهب بعض فقهاء المذهب المالكي في فهم ذلك إلى تحديد الشراكة بالنصف، على أن يدفع صاحب المال جميع التكاليف، ويستقل العامل بعمل يده، فجعل جهد صاحب المال في إنتاج المال مساوياً لجهد العامل في صناعة الإنتاج، وسأوى بين نصيبيهما في الربح على هذا الأساس.

(٢) يشهد التاريخ كذلك أن أنظف نظام في هذا الباب هو النظام الإسلامي، لأن حروبه وفتوحاته كانت بريئة من الاستغلال والاستغلال.

◀ غروب شمس الولايات المتحدة

أراد أبراهام أن يتحرى عن الأزمة المالية من مصادر أخرى، لذا ما إن عاد إلى المنزل حتى جمع كل الصحف الروسية التي يحتفظ بها خاله أفيدور، وأخذ يبحث عن كل ما يتعلق بهذا الموضوع. وبينما هو كذلك، لفت انتباهه مقالة مثيرة في صحيفة "إزفستيا" بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨، تتحدث عن موضوع لم يكن ليخطر بباله أبداً؛ ففي أحد المؤتمرات الدولية عام ١٩٨٨م^(١) توقع أحد أكبر خبراء الاقتصاد السياسي في روسيا^(٢) أن الولايات المتحدة ستواجه أزمة مالية حادة في غضون الأعوام العشرة المقبلة، وتكون بداية انهيار الهرم الكبير. والأكثر من ذلك أنه توقع أيضاً أن الولايات المتحدة ستلقى نفس مصير الاتحاد السوفييتي، وستفكك إلى أجزاء!!! والآن، وبعد عشرة أعوام، ظهر جلياً أنه كان محقاً في الشق الأول من توقعاته. وقد ناقشته الصحيفة في احتمالية تحقق الشق الآخر أيضاً.

تمن أبراهام في المعطيات التي اعتمد عليها الخبير الروسي في توقعاته، فوجدها مقنعة، خاصة أنها كانت موافقة لما لاحظته شخصياً من عدم التجانس في المشهد الاجتماعي العام في أمريكا، والذي يقوم على منظومة من الثنائيات المختلفة، مثل ثنائية المتدينين/ العلمانيين، المسيحيين الأصوليين/ المسيحيين الليبراليين، المحافظين/ الديمقراطيين، الولايات الحمراء (الجنوب والغرب الأوسط)/ الولايات

(١) مؤتمر "الحرب المعلوماتية" الذي عقد في العاصمة النمساوية فيينا، وحضره أربع مئة مندوب من مختلف دول العالم، من بينهم مئة وخمسون مندوباً من الولايات المتحدة وحدها.

(٢) البروفيسور "إيغور بنارين" عميد كلية العلاقات الدولية في الأكاديمية الدبلوماسية التابعة لوزارة الخارجية الروسية.

الزرقاء (الشمال والمدن الكبرى)، البيض/ السود، السكان الأصليين(الهنود الحمر)/ المستوطنين، الرواد القدماء(البروتستانت)/ القادمين الجدد(الكاثوليك)، الأمريكيين/ المتأمركين^(١) التي كان بعضها متداخلاً بشكل مربك، وبعضها الآخر متنافراً بشكل تصادمي، بعضها واضح معترف به، وبعضها خفي يعتمد التعتيم عليه، بعضها يقوم على أسس عقائدية والآخر على أسس قومية. لذا أخذ حاسوبه المحمول، ومضى مسرعاً إلى أحد مقاهي الإنترنت ليتحرى عن تلك المعلومات التي أصابته بالدهشة.

- ماذا تقول في ذلك؟

قال أبراهام بعد أن قرأ على فيكتور ترجمة المقال.

- أقول إن خيال الروس خصب جداً. صحيح أننا في مأزق كبير حالياً، ولكنه ليس بالحدة التي قد تؤدي بنا إلى الانهيار أو التفكك، وسترى أننا سنخرج منه حتماً خلال سنة أو سنتين على الأكثر.

- ولكن هذا المأزق ليس أزمة عابرة، بل هو نتيجة حتمية لنظام مالي فاسد وسياسات خاطئة. وعندما توقع البروفسور بنارين تضاعف ديون الولايات إلى عشرة ترليونات دولار خلال عشر سنوات القادمة، اعتباراً من عام ١٩٨٨، كانت الديون وقتها ترليونين فقط، بل لم تكن موجودة أصلاً عام ١٩٨٠. أما اليوم فهي تتعدى عشرة ترليونين بالتأكيد، وترفعها بعض التقديرات غير الرسمية إلى قرابة أربعة عشر ترليوناً. كما أن مستوى البطالة عندكم قد ارتفع بشكل خيالي، والشركات الكبيرة تنهار الواحدة تلو الأخرى، وقد بدأت بالفعل بعمالقة السيارات "جنرال موتورز" و"فورد" والبقية ستأتي قريباً. وهذه الشركات العملاقة كما تعلم، تشكل مدناً كبيرة بمئات الآلاف من العاملين فيها مع عائلاتهم والمؤسسات المعيشية والاجتماعية التابعة لهم، وهذا يعني أن مدناً كبيرة ستقطع عنها وسائل المعيشة وتتوقف فيها

(١) الوافدون الجدد وبالذات حاملو الجنسية الأمريكية من ذوي الأصول الآسيوية.

الحياة، ولا يملك المركز الفيدرالي ما يقدمه لها. وقد مررت البارحة في إحدى المناطق الصناعية الشهيرة، فوجدت أن شركات كثيرة قد أعلنت إفلاسها، وأن أكثر المباني والعقارات معروضة إما للبيع أو للإيجار.

- مع ذلك فإن الولايات المتحدة لا تزال قوة عظمى.

- أعرف هذا. ولكن ماذا لو تفتتت هذه القوة العظمى كما حصل سابقاً مع الاتحاد

السوفييتي الذي كان أيضاً قوة عظمى، بل منافساً كفوّاً للولايات المتحدة نفسها؟

- حتى لو انهارت أمريكا اقتصادياً، فلا أظن أن مصيرها سيكون هو التقسيم؛ فالولايات المتحدة لا تشبه الاتحاد السوفييتي في شيء، ولكل منهما نظامه الخاص.

- صحيح أن تفكك الكونفدرالية أبسط من تفكك الفيدرالية، لكن صحيح أيضاً أن الحقيقة الحتمية الباقية للأبد هي أنه: "إذا تشظى ما يجمع الناس، تناثرت الأمة". أي حينما يتحطم المبدأ يليه مباشرة تحطم البناء المبني على أساسه.

- لكن ولاياتنا لا تقوم على مبدأ عقيدة سياسية يفترض أن تجمع بين مجتمعات مختلفة عرقياً كجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق.

- ربما، ولكن بذور الفرقة العرقية موجودة هنا كما كانت موجودة هناك، وربما بشكل أكثر حدة، مع أنها ليست بالوضوح نفسه.

- وكيف ذلك؟

- أنت تعرف أن الولايات المتحدة تتكون من ستة أجزاء كبيرة، منها أجزاء غنية بثرواتها الطبيعية الهائلة، وأجزاء أخرى فقيرة، تسكنها تجمعات سكانية كبيرة، وتعيش عالية على تلك الأجزاء الغنية. كما أن هناك جزءاً على ساحل المحيط الهادئ يسيطر عليه الصينيون، وخصوصاً في سان فرانسيسكو التي يسمونها بوابة الصين إلى أمريكا، وهناك جزء في الجنوب يسيطر عليه المكسيكيون، وتسود فيه اللغة الإسبانية، ويعتبره

المكسيكيون خاضعاً للاحتلال الأمريكي^(١)، وهناك ولاية تكساس الكبيرة الغنية^(٢) التي تنتشر فيها الجماعات والتنظيمات المسلحة^(٣) التي تطالب وتتاضل من أجل استقلالها عن الولايات المتحدة منذ سنوات طويلة مضت، وكثيراً ما هددت بالزحف إلى واشنطن

(١) اللغة الإسبانية هي ثانية اللغات انتشاراً في الولايات المتحدة. وبتنشر تعليمها كلفة ثانية في البلاد لدى كثير من المدارس. وبالرجوع إلى الأرقام التي أوردها هانتغتون في كتابه المعنون: "من نحن؟" نجد أن خمسة وثلاثين مليون نسمة في الولايات المتحدة لا يتكلمون الإنكليزية، بل الإسبانية، وتربطهم روابط اللغة الواحدة والدين الواحد (الكاثوليكي) والمشرّب التاريخي الواحد، بأمريكا اللاتينية، والأزمة التاريخية المستفحلة بين الأمريكي المسيطر والمتلاعب بمصائر الشعوب، وخاصة المحتل لنيومكسيكو التي تعود للمكسيك. ولا يتركز الناطقون باللغة الإسبانية في الولايات الجنوبية فحسب، بل نجد لهم أحياء كاملة في مدن شمالية كبرى كالنيوي ونيويورك ونيو جيرسي، لا يتحدث فيها إلا بالإسبانية، وهو ما يجعل الولايات المتحدة خامسة دول العالم من حيث عدد الناطقين فيها بالإسبانية بعد المكسيك وإسبانيا وكولومبيا والأرجنتين على الترتيب.

(٢) ألح "ريك بيري" حاكم ولاية تكساس في كلمة له ألقاها أمام المشاركين في مظاهرة الاحتجاج على زيادة الضرائب في مدينة أوستين إحدى مدن ولاية تكساس، إلى احتمال انفصال ولايته عن باقي الولايات المتحدة في شمال أمريكا إذا استمرت واشنطن في التدخل في شؤون لا تدخل في مجال اختصاصاتها. وكانت تكساس قد هددت سابقاً بالانفصال إذا لم تسحب الولايات المتحدة جيشها من العراق. كما أن المجلس التشريعي في ولاية نيوهامبشير قد لفت نظر الحكومة المركزية للولايات المتحدة إلى أن محاولاتها لانتهاك ما تم عقده من اتفاقات في القرن ١٨ لتحديد صلاحيات الحكومة المركزية بخصوص جباية الضرائب يمكن أن تؤدي إلى فسخ اتفاقية توحيد الولايات!

(٣) ليس فقط في ولاية تكساس، فمن بين الأخطار الكبرى على حكومة الولايات المتحدة ما يسميه "اشتري كارتر" المستشار للأمن القومي في إدارة كلنتون سابقاً، ويدرس حالياً العلوم السياسية في جامعة هارفارد بـ"الإرهاب المرعب داخل الولايات المتحدة"، وأوضح أن هناك ما يزيد على ٣٠٠ ألف مليشيا بيضاء تتبع حركات عنصرية تنادي بضرب الحكومة الفدرالية في واشنطن، وأنها تمتلك مخازن للحبوب حولتها إلى مخازن للسلاح. وأن قيادات من هذه الميليشيات تفكر حتى بتدمير مفاعلات نووية داخل الولايات المتحدة الأمريكية، ولديها مشاريع لتدمير المفاعل النووي على شواطئ بحيرة ميتشجن، وهو مفاعل خطير يغذي الشمال بالكهرباء. وجدير بالذكر أن المصادر الأمنية الأمريكية تؤكد أن هناك ما يزيد على تسع مليشيات منها مسلحة تسليحاً متطوراً، وقادرة على القيام بهجمات إرهابية نوعية، وإدارة حرب صغيرة مع أي جيش كان، وأشارت تلك المصادر إلى أن بعض مسؤوليها هم ضباط سابقون في الجيش الأمريكي نفسه. جدير بالذكر أن مفجر مركز التجارة في ولاية متشجان في مدينة أوكلاهوما (ماكلايند) هو أحد أعضاء الميليشيات الصغيرة في ولاية أريزونا (منظمة أبناء الحرية) لذا فلنا أن نخيل ما يمكن أن تقوم به الميليشيات الكبرى.

واحتلال البيت الأبيض. وفي الساحل الأطلسي ووسط أمريكا توجد خمس ولايات فقيرة^(١) تسكنها أغلبية من الهنود الحمر الذين سبق لهم أن أعلنوا استقلالهم أكثر من مرة، وكان يتعامل مع هذا الأمر بسخرية وعدم اهتمام. وهناك شمال الولايات المتحدة الذي يخضع للنفوذ الكندي، وتسوده قوانين كندية. وهذه التقسيمات والأجزاء كانت تبدو من بعيد هادئة، لكن تفاقم الأزمة المالية والانهايار الاقتصادي سيفجر قضايا الاستقلال في هذه الأجزاء مرة واحدة، وعندها ربما سترحب ولاية ألاسكا بالعودة إلى الوطن الأم (روسيا) باعتبارها أرضاً مستأجرة بعقد امتياز منتهي المدة.

- هه. تلك أمانهم، لكن هذا السيناريو الذي يطرحه البروفيسور الروسي الحاقق يبدو خيالياً جداً.

- ولكنه يجد أنصاراً كثيرين يؤيدونه في روسيا والصين وأوروبا، بل الولايات المتحدة نفسها؛ فيقول الخبير القانوني الأمريكي "ستيفان كارغانوفيتش" من شيكاغو: "إنه من المبكر الحديث عن تفكك فوري للولايات المتحدة، ولكن قد لاح في الأفق ما ينذر بذلك". كما يقول المحلل السياسي الروسي "دميتري يفستافيفيف": "إن قسماً من الأمريكيين فسر انتخاب باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة بأنه ضعف للسلطة الفدرالية"، ويرى أن: "النخب الحاكمة في بعض الولايات قد تنفذ لعبة الخروج على الطاعة في ظروف الأزمة المالية، وهي لعبة خطيرة قد تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه"^(٢). كما حذر مركز أبحاث بريطاني بارز من "تهديد بالغ" بحدوث اضطرابات اجتماعية في الكثير من بلدان العالم بسبب حالة الكساد العالمي على مدار العامين المقبلين، نتيجة لمضاعفات الأزمة المالية العالمية المتفاقمة. وقالت "وحدة الاستخبارات الاقتصادية"، في ورقة بحثية نشرتها مؤخراً أن خطر الثورة التي يمكن أن تسبب

(١) نبراسكا، ساوث داكوتا، نورث داكوتا، مونتانا ويومنج.

(٢) ر ب ك دبليو ١٧ / ٤ / ٢٠٠٩ - وكالة نوفوستي.

"اضطراباً للاقتصاديات وتطيح بالحكومات مرتفع أو مرتفع جداً في ٩٥ دولة. وهو ما يهدد بانتشار ما سمته وباء الاضطراب العالمي. أما عن الدول المصنعة فإن الولايات المتحدة هي من أكثر الدول المهددة باضطرابات اجتماعية. كما يتوقع كبار الخبراء الاقتصاديين ألا تخرج الولايات المتحدة من هذه الأزمة المالية سالمة، ولا بعد أعوام. والجميع الآن ينفذون عنها، ويطالبون بتغيير النظام المالي العالمي الذي اعتمد على الدولار، وعلى الاقتصاد الأمريكي لأكثر من نصف قرن مضى، وكل الدول تريد أن تفلت من الانهيار بأن تفك ارتباطاتها بالدولار الأمريكي الذي سينهار، كي تقطع حبالها بـ"تيتانيك"^(١) وتتجو بنفسها قبل أن تغرق معها.

- أياً كان عدد مؤيدي مثل هذه التوقعات الخيالية العارية من الصحة والمنطق، وأياً كان المركز العلمي لأصحابها، ومدى صحة المعطيات التي اعتمدها، فإن توقعاتهم لا تخرج عن كونها ضرباً من التنبؤ والتنجيم، فهي لا تستحق الأخذ على محمل الجد.

- وماذا عن إعلان ٢٥ مصرفاً أمريكياً إفلاسهم خلال العام الفائت، وتوقع خبراء الاقتصاد الأمريكيين أنفسهم تواصل تساقط المصارف الأمريكية هذا العام أيضاً وبوتيرة أعلى؛ ألا يؤخذ هذا على محمل الجد؟! أليس ذلك دليلاً على انهيار واضح وصريح لدعائم الاقتصاد الأمريكي^(٢)؟

(١) سفينة بنيت كي لا تغرق كما قال مصنوعها، ووصلت ثقتهم بذلك إلى حد ادعائهم بأنه: "حتى لو أراد الله نفسه أن يغرقها، فلن يستطيع". تعالى الله عما يصفون. وقد جاء الرد الإلهي سريعاً، فقد غرقت في رحلتها الأولى، وأراد الله تعالى ألا ينسى مصير تلك السفينة بالذات، فصارت موضوعاً لكثير من الكتب والأفلام، رغم غرق العديد من السفن قبلها وبعدها.

(٢) ذكرت صحيفة وول ستريت جورنال الأمريكية أن ستة مصارف أعلنت إفلاسها، ليصل عدد المصارف الأمريكية المنهارة خلال العام الحالي (٢٠١٠) إلى ١٢٥ مصرفاً. وأن المصارف الأمريكية بدأت تنهار بعد أزمة الرهن العقاري الأمريكية التي أصابت المصارف الأمريكية بنقص في السيولة وأدت إلى انهيار كبرى المؤسسات المالية، وكساد الاقتصاد العالمي وخفض الاستثمار ورفع نسبة البطالة عالمياً، ما كلف =

- وفي عام ١٩٩٣ تساقط ٤٢ مصرفاً، ثم خرجنا من تلك الأزمة! إن قوتنا ليست مرهونة بالمعطيات الاقتصادية فحسب.

- أعرف هذا؛ فالولايات المتحدة تعتمد في سياساتها الدولية على مفهوم "حضارة القوة" المتمثلة في بوارجها وغواصاتها الحربية التي تجوب البحار والمحيطات، ووجود قواعد عسكرية لها في مختلف أنحاء العالم، وفرض هيمنة دولارها ومشاريعها الاقتصادية والسياسية على العالم. ولكن ماذا لو أجبرتها الأزمة المالية على أن تعود إلى حدودها، أي أن تخلي العالم من بوارجها وغواصاتها، وتعيد جنودها إلى ثكناتهم في أمريكا! ألا يعني هذا انهيار جميع مشاريعها السياسية على الصعيد العالمي؟ ألن يلقي ذلك بظلاله على الداخل الأمريكي، لكونها اعتمدت حجماً هائلاً لمصرفاتها بما يتناسب مع حجم سيطرتها على مقدرات العالم، ولكنه لا يتناسب مطلقاً مع حجم مواردها ومقدراتها الفعلية داخل أراضيها؟ ألن يؤدي ذلك إلى انخفاض حاد في حجم المصروفات لانعدام الدخل؟ ونتيجة تلك الحتمية هي تراجع حاد في الصناعات والخدمات التي تقدمها الدولة لرعاياها، مما يولد ارتفاعاً كبيراً في نسبة البطالة التي ستولد الفقر والجوع والتشرد والجريمة، فضلاً عن الضعف والترهل الذي سيصيب الحكومة الفدرالية المركزية، وهو ما سيثبغ أصحاب النوايا الانفصالية على رفع أصواتهم أكثر مطالبين بالانفصال والاستقلال، وقد تصل الأمور إلى ما هو أبعد من ذلك بنشوب حروب أهلية بين الولايات الأمريكية ليخوضوا صراعات دموية على الثروة والحدود.

=القطاع المصرفي خسائر هائلة. وقد توقع محللون اقتصاديون إفلاس أكثر من ١٠٠٠ مصرف بالولايات المتحدة خلال السنوات الثلاث المقبلة، متوقعين أن يصل عدد المصارف المنهارة في الولايات المتحدة هذا العام إلى أكثر من ١٤٠، وهو الرقم الذي سجل في العام السابق (٢٠٠٩). يشار إلى أن العدد الإجمالي للمصارف الأمريكية المنهارة بسبب الأزمة المالية منذ ٢٠٠٧ وصل إلى ٢٩٣ مصرفاً، بحسب إحصائيات المؤسسة الاتحادية للتأمين على الودائع.

http://www.syria-news.com/readnews.php?sy - seq=121832 سيريانيز

- رويدك يا صديقي، فهذا على فرض أن الولايات المتحدة ستتهار اقتصادياً، وهو أمر بعيد الاحتمال، بسبب أزمة عابرة، مهما كانت ضخامتها.
- حين تتفحص البيانات المالية والنقدية للاقتصاد المادي الفعلي للولايات المتحدة، تجد أن الانهيار ليس وليد هذه الأزمة فقط، بل قد بدأت بوادره قبلها بكثير، وتحديدًا منذ السبعينيات، عندما بدأ العجز في الميزانية، وستجد أنه كان يزداد دون توقف إلى يومنا هذا، فيما كان يتم نفخ الولايات المتحدة سياسياً بوهم خيالي.
- أنت تهمل أن كبر سوقنا الداخلي هو ضمان كاف لعدم انهيار اقتصادنا.
- لكن الولايات المتحدة تستورد أكثر وتنتج أقل، فهي تباع ثروتها غير القابلة للاستبدال ومصانعها المنتجة وأصولها المالية الأخرى لتدفع ثمن المستوردات وتسديد فوائد الديون، وبذلك تخسر الملكية، ومن ثم السيطرة على اقتصادها الداخلي الكبير الذي تتحدث عنه، خاصة فيما يتعلق بعجز الميزان التجاري^(١).
- لمعلوماتك الخاصة، فإن الناتج المحلي الإجمالي ينمو سنوياً بنسبة ٤ ٪ منذ ١٠ سنوات.
- ولكن قرابة ٧٠ ٪ من هذه النسبة في النمو تذهب في شق النفقات الاستهلاكية سواء عبر استيراد السلع الاستهلاكية أو إنتاج بعضها محلياً عبر الشركات المملوكة من قبل غير الأمريكيين^(٢)، وهو ما يعني بدوره أنه كلما زاد الناتج المحلي الإجمالي وفق هذه الصيغة، زاد العجز في الميزان التجاري! وبمعنى آخر فإنه كلما نما الاقتصاد، زاد الدين! لأن الناتج المحلي الإجمالي لا يتطرق إلى مسألة خسارة الأصول المالية
-
- (١) تشير الأرقام الرسمية إلى أن الولايات المتحدة قد خسرت في السنوات العشر الأخيرة قرابة ٣ ترليون دولار فقط في مسألة الميزان التجاري. صحيح أن ١,٣ ترليون من هذه الأموال عادت إليها عبر الدول التي تمتلكها، ولكن هذه المرة لشراء مصانع الإنتاج في الولايات المتحدة نفسها التي بلغت ما يزيد على ٨٦٠٠ من أفضل وأكبر الشركات الأمريكية في هذه الفترة ذاتها.
- (٢) ٢٥ إلى ٨٠ ٪ منها (حسب مجالاتها) تعود للأجانب.

التي تمتلكها أمريكا، أو عملية دفع الديون أو فوائدها، أو غيرها من هذه الأمور. وقد تصاعد العجز التجاري بنسبة تقدر بـ ٢٥٪ سنوياً خلال عشر السنوات الأخيرة التي نتحدث عنها.

لاح شيء من الإحراج على وجه فيكتور، ولكنه سرعان ما قال معانداً:

- مع ذلك فلا يزال الدولار الأمريكي مهيمناً على ثلثي سلة الاحتياطات الدولية للعملات الحرة، بحيث يمكننا ذلك من سد العجز الداخلي والخارجي في الموازنة العامة للدولة، فدولارنا يحتل موقع الريادة بين العملات العالمية منذ نحو ٦٠ سنة، وذلك يوفر لنا استيراد ما نشاء من أي بلد في العالم، وتسديد قيمته بعملتنا الوطنية وتمويل استثمارات محلية أكبر كثيراً من قدرة المجتمع الأمريكي على الادخار، بحيث أصبح معدل الاستثمار لدينا أعلى بكثير من معدل الادخار، دون أن نضطر إلى الاقتراض من الخارج.

- هذا صحيح، وصحيح أيضاً أن سياسة الدولار القوي قد ولت من دون رجعة، وأن سياسة طبع الدولار الورقي الذي لا غطاء ذهبي له^(١) وشراء ما يتم استيراده به أو بيعه للدول الأجنبية كسندات خزينة في سبيل تمويل العجز لم تعد تجدي حالياً؛ فالمشكلة أنه لم يعد هناك انتعاش اقتصادي، فلماذا تزيد كمية النقود، ومقابلها لا تزداد البضائع والخدمات؟ ففي هذه الحالة يدخل المصرف المركزي في حالة النقيض! لأن الغاية من وجوده هي المحافظة على نمو الاقتصاد والمحافظة على ثبات الأسعار، ومن ثم ستنشأ "Stagflation"^(٢)، كما أن أمريكا مضطرة إلى إبقاء سعر الدولار

(١) وهي أكبر عملية نهب في التاريخ، حيث قام المصرف المركزي الفدرالي الأمريكي بإيقاف إبدال الدولار بالذهب إثر نقص احتياطي الذهب فيه سنة ١٩٧١م بعد العجز الذي لحق بميزانية المدفوعات. وحالياً يُعتبر Ron Paul (أحد أعضاء الحزب الجمهوري في الكونغرس الأمريكي) أهم الشخصيات في العالم التي تنتقد التحلي عن الذهب، وألد أعداء سياسة المصرف المركزي الأمريكي.

(٢) أي عندما يجد المصرف المركزي نفسه في حالة توقف نمو الاقتصاد (لا انتعاش اقتصادي) وتزايد التضخم.

ضعيفاً لزيادة صادراتها، وإلا ازداد معدل العجز التجاري لديها أكثر. كما أن هذا الضعف، والذي سيستمر مستقبلاً بلا شك، يدفع الدول الأخرى إلى التخلي عن الدولار مخافة سقوطه وانهيائه^(١).

- حكومتنا لن تسمح بهذا، ولذلك فهي تضغط على جميع الدول بضرورة الاستمرار بربط عملتها بالدولار مع رفع أسعارها مقابلها، وذلك لأن أمريكا تعلم أنه بهذه الطريقة، فإن الدول لن يكون بمصلحتها انهيار الاقتصاد الأمريكي، وستسعى رغماً عنها إلى دعمه، خوفاً من أن تسقط وتنهار معه في حال انهياره^(٢).

- لن تتجح الحكومة الأمريكية بهذا إلى ما لا نهاية؛ فهي مثقلة بالديون وفوائدها^(٣)، كما أنها تتبع أصولها المالية ومصانعها وشركاتها المنتجة التي لا يمكن استبدالها وذلك مقابل استيراد المواد والسلع الاستهلاكية. فأنتم (الأمريكيين) تعتمدون ببساطة على الاستدانة (داخلياً وخارجياً) لتغطية نفقاتكم الاستهلاكية. ولا ثروة أو فائض مالياً لديكم تقومون عبره بتمويل هذا الدين أو تغطية النفقات، فتكون النتيجة مزيداً من الاستهلاك ومزيداً من الاستدانة ومزيداً من بيع الأصول ومرافق الإنتاج! ومن ثم ارتفاعاً في العجز الاقتصادي والدين إلى حين الانهيار الكامل. وكخلاصة، فإنكم تدمرون أنفسكم بشكل منتظم، وانهياركم للأسف هو مسألة وقت.

- اطمئن يا صديقي؛ فمع أن تلك المعطيات والأرقام التي قدمتها تبدو صحيحة وكارثية، ويمكن أن تؤدي إلى انهيار وشيك لأمريكا، إلا أن ذلك محال تماماً، على الأقل

(١) يتوقع البروفيسور بنارين أن تصدر الإدارة الأمريكية الحالية مع تفاقم الأزمة قرارات عشوائية منها قرار بإلغاء ورقة الـ 'مئة دولار' قبل أن تنهار قيمتها بشكل حاد.

(٢) للأسف فهذا ما يحصل فعلاً، وبالذات من قبل الدول العربية النفطية.

(٣) يزداد الدين الأمريكي قرابة ٤٠٠ مليار سنوياً فيما يخص الموازنة الداخلية، و ٦٠٠ مليار سنوياً تقريباً فيما يخص التجارة الخارجية، فضلاً عن الديون الأخرى الكلية الداخلية والخارجية وفوائدها.

في الوقت الراهن؛ فالاقتصاد العالمي، شاء من شاء وأبى من أبى، مرتبط بنا عضويًا، ومن ثم فانهارنا ليس من مصلحة حلفائنا، ولا أعني هنا الدول القوية فقط، بل الدول الضعيفة أيضاً، فهي بالذات التي تساعد على بقائنا في القمة رغماً عنها .

- هل أنت متأكد أن الأزمة الحالية لن تغير هذه الفرضية لكفة قوة أخرى؟

- بالطبع، فمع كل شيء لا تزال الولايات المتحدة الأمريكية هي التجربة الأكثر تقدماً في تاريخ البشرية جمعاء. كما أنها قطب العالم الأوحده، ولن تستطيع أي قوة أخرى هزيمتها فضلاً عن منافستها.

- دروس التاريخ تقول إن الإمبراطورية البريطانية التي "لا تغيب عنها الشمس" كانت تمسك بزمام العالم بشكل أفضل، وتسيطر سيطرة مباشرة على ثلثه تقريباً، ومع أنها خرجت منتصرة في الحرب العالمية الأولى، إلا أن الاجتماع الأول للحكومة البريطانية بعد نهاية الحرب الذي كُرس لتقييم النتائج السياسية والاقتصادية، أظهر أن الخزينة كانت فارغة، مما استدعى إعادة مليون جندي، من أصل مليون وثلاث مئة ألف جندي كانوا منتشرين ما بين الهند ومصر مروراً بكل المستعمرات العربية والإفريقية وغيرها، وذلك لكي يساهموا في إعادة الدورة الاقتصادية وللتخفيف من العبء الاقتصادي لانتشارهم، فالحروب تحتاج إلى مال ومن دون مال لا يمكن شن الحروب أو استمرارها. كما تخلت بريطانيا عن مشروع تقسيم تركيا إلى ثلاث دول كما كانت قد خططت لو قدر لها إمكانية احتلال تركيا، وتراجعت عن مشروع احتلال أفغانستان الذي أظهر أيضاً أنه مكلف بالأرواح والأموال. وهكذا تراجع الاستعمار القديم المفلس لتحل محله هيمنة الولايات المتحدة. بريطانيا لم تعد عظمى بغياب الشمس عنها بالتدرج، ولو لم تستسلم لذلك، لكان مصيرها المحتوم هو الانقسام إلى

أربعة أقسام على الأقل^(١)، وإذا لم تستوعب الولايات المتحدة الدرس جيداً، ولم تتراجع عن هيمنتها ومشاريعها الاستعمارية في العراق وأفغانستان، فلن يكون مصيرها في ظل أزمتهما الراهنة هو خسارة مركزها كقوة عظمى فحسب، كما حصل مع الإمبراطورية البريطانية، بل قد يؤدي إلى تفكك الكيان إلى كيانات متعددة.

- إن الولايات المتحدة ليست مجرد قوة عظمى بجانب قوى مماثلة كما كان الحال مع الإمبراطورية البريطانية، بل هي قطب أوحده للعالم، خاصة بعد سقوط دولة الشيوعيين الذين تستشهد بأقوالهم، وحتى النور الآسيوية مع كل تقدمهم وصناعاتهم لا يمكن أن يقارنوا بنا.

- هذا صحيح. ولكن قد جاء نص في الكتاب المقدس يمثل كل تلك القوى التي استشهدت بها، وأرى أنه يتبأ أيضاً بزوال الولايات المتحدة.

- حقاً؟ وأين هو؟

- في سفر دانيال حيث يقول في الرؤيا: "كنت أرى في رؤياي ليلاً، وإذا بأربع رياح السماء هجمت على البحر الكبير، وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة، هذا مخالف ذلك. الأول كالأسد (رمز الإمبراطورية البريطانية) وله جناحا نسر، وكنت أنظر حتى انتفج جناحاه (عندما أخلت مستعمراتها الواحدة تلو الأخرى) وانتصب على الأرض وأوقف على رجلين كإنسان وأعطي قلب إنسان (لم تعد قوة عظمى). وإذا بحيوان آخر ثان شبيه بالدب (رمز الاتحاد السوفييتي) فارتفع على جنب واحد (أخذ الدنيا دون الدين أي المادة دون الروح) وفي فمه ثلاثة أضلع بين أسنانه فقالوا له هكذا: قم كل لحماً كثيراً (رمز للمذابح والحروب التي خاضها). وبعد هذا كنت أرى وإذا بآخر مثل النمر (النمور الآسيوية) وله على ظهره أربعة أجنحة طائر. وكان

(١) يقصد إنجلترا وويلز، واسكتلندا، وأيرلندا الشمالية.

للحيوان أربعة رؤوس (اليابان والصين وتايوان وكوريا)، وأعطى سلطاناً. بعد هذا كنت أرى في رؤى الليل وإذا بحيوان رابع هائل وقوي وشديد جداً وله أسنان من حديد كبيرة، أكل وسحق وداس الباقي برجليه (يرمز للولايات المتحدة). وكان مخالفاً لكل الحيوانات الذين قبله، وله عشرة قرون". دانيال ٧: ٧-٢، وأن ذلك الحيوان هو الوحش في رؤيا يوحنا الذي يحصل على قوى الحيوانات الأربعة كما ورد في رؤيا يوحنا ١٣: ٢ ويجعل الناس كلهم خاضعين له، وسيسيطر على الاقتصاد بحيث لا يشتري أو يبيع إلا من يحالفه، كما ورد في ١٣: ١٧، "وأن لا يقدر أحد أن يشتري أو يبيع، إلا من له سمة الوحش أو اسم الوحش أو عدد اسمه"^(١).

- لقد قرأت عن هذا. ولكن ذلك التفسير ليس بمصلحتك كيهودي، لأنه إن صح، فهو يتنبأ أيضاً بزوال دولتك.

- كيف ذلك؟

(١) رمز الوحش في الرؤيا هو ٦٦٦، وهو حساب الجمل ل WWW كما رأى بعض علماء الكتاب المقدس بعد أن وصف بها جورج دبليو بوش نفسه. وهو ما مر معنا في رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف. وفي سورة النجم ورد في الآية الخمسين: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠]، ثم بعد آيات قليلة في المصحف نجد سورة القمر والآية الـ ١٨ التي تتحدث عن هلاك عاد (الثانية)! وهي والله أعلم... أمريكا! ورقم الآية (١٨) هو الرقم ٦ المكرر ٣ مرات هو رمزها ٦٦٦. والقرآن ينهنا إلى التكرار الثلاثي، والله أعلم. فرقم السورة في المصحف هو ٥٤ أي ٣×١٨!!، ورقم الجزء هو ٢٧ = ٣×٣×٣، ورقم الجزء ناقص رقم الآية هو ٩ الذي هو ٣×٣!!، والأهم من ذلك أن القارئ لسورة القمر سيجد أنها تحكي عقاب العديد من الأمم الكافرة، وأنه كل عدة آيات تتكرر كلمة "نذر"، والعجيب أنها في الآية المقصودة يكون ترتيبها... الثالثة!! وإذا كان الأمر كذلك فيمكن تحديد تاريخ نهاية أمريكا من هذه الآية ونصها هو ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: ١٨]. فعدد حروف "كذبت عاد" + جمّل "فكيف كان عذابي ونذر" هو ٢٠٠٠+٧ = ٢٠٠٧!! وهذا تاريخ بداية انهيار أمريكا، والله أعلم. وأنا شخصياً أستأنس بهذه الحسابات، إلا أنني لا أتبتها، ولا أرفضها في الوقت ذاته. ولن يربد التبحر في تفاصيلها، فيمكنه مراجعة مقالات الدكتور "مصطفى محمود"، وكتب الأستاذ "بسام جزار"، وكتابات غيرهما من اهتماموا بالإعجاز العددي في القرآن الكريم.

- لأن إسرائيل بناء على ذلك التفسير تخرج من ذلك الوحش نفسه وتنتهي معه. اقرأ بقية النص: "كنت متأملاً بالقرون وإذا بقرن آخر صغير (يرمز إلى إسرائيل) طلع بينها، وقلعت ثلاثة من القرون الأولى من قدامه وإذا بعيون كعيون الإنسان في هذا القرن، وفم متكلم بعظائم (في سفر رؤيا يوحنا ١٣: ٥-٦ نرى أن تلك العظائم هي كلام الكبرياء والتجديف على الرب) كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام (وهو الرب يسوع) لباسه أبيض كالثلج، وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار، وبكراته نار متقدة، نهر نار جرى وخرج من قدامه، ألوف ألوف تخدمه، وربوات ربوات وقوف قدامه، فجلس الدين وفتحت الأسفار. كنت أنظر حينئذ من أجل صوت الكلمات العظيمة التي تكلم بها القرن، كنت أرى إلى أن قتل الحيوان وهلك جسمه ودفع لوقيد النار (الولايات المتحدة وإسرائيل حسب تفسيرك) أما باقي الحيوانات فنزع عنهم سلطانهم، ولكن أعطوا طول حياة إلى زمان ووقت (تظل الدول الباقية ولكن دون سلطة)، كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام، فقربوه قدامه^(١)". دانيال ٧: ١٣-٨. ولكن كل ذلك غير مؤكد، فتنبؤات دانيال تحتمل معاني أخرى كثيرة، ولا أظنها تقصد فعلاً زوال أمريكا وإسرائيل؛ فكلاهما قاما على أساس الدين.

- بالنسبة إلى إسرائيل فإن قيامها كان تحدياً للدين، والفضائح التي ارتكبتها وما زالت ترتكبها ضد العرب منافية له تماماً. وكذلك الحال معكم، فالتاريخ يشهد أنكم لم تكونوا أكثر التزاماً بالدين من الإسرائيليين، في فضائلكم مع سكان أمريكا الأصليين.

(١) وهذا المشهد يذكرنا بأحد أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، فيما رواه جابر رضي الله عنه: " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة، ثم ينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم: تقدم فصل لنا، فيقول: لا. إن بعضكم لبعض أمير، ليكرم الله هذه الأمة". (المعجم الأوسط للطبراني).

ففي عام ١٧٢٠م أصدر برلمانكم تشريعاً يبيح عملية الإبادة لمن تبقى من الهنود الحمر، بتقديم مكافأة مقدارها ٤٠ جنيهاً مقابل كل فروة مسلوخة من رأس هندي أحمر، و ٤٠ جنيهاً مقابل أسر كل واحد منهم، فكان سلخ الرأس أوفر لهم، وبعد خمسة عشر عاماً ارتفعت المكافأة إلى ١٠٠ جنيه، و ٥٠ جنيهاً مقابل فروة رأس امرأة أو فروة رأس طفل. وحتى في موضوع استخدامات أسلحة الدمار الشامل التي احتلتم العراق بذريعتها، فلا يسعك أن تتكر أن أمريكا أكثر من استخدم أسلحة الدمار الشامل في العالم؛ فهي استخدمت الأسلحة الجرثومية بشكلها الواسع وقتلت أكثر من سبعة ملايين هندي أحمر في عام ١٧٦٣م^(١).

- لقد كنا في حالة حرب معهم، وكما يقولون: "في الحرب وفي الحب كل شيء مباح"، أليس كذلك؟

- حسناً، ماذا عن تجارة الرقيق الأسود؟ فبعد شبه فراغ القارة الأمريكية من الهنود الحمر، اضطر الأمريكيون الأوائل إلى البحث عن عمالة رخيصة لدفع عجلة الاقتصاد في تلك الأراضي الواسعة^(٢).

(١) أمر القائد الأمريكي "جفري أهرست" برمي بطانيات كانت تستخدم في مصحات علاج الجدري إلى الهنود الحمر بهدف نشر المرض بينهم، مما أدى إلى انتشار الوباء بين الهنود، ونتج عن ذلك إفناء ثلثي السكان الأصليين في القارة الأمريكية. وصرح حاكم مستعمرة ماساشوستس في ١٦٣٤: "لقد قارب السكان المحليون على الفناء، وتقريباً ماتوا جميعاً نتيجة لمرض الجدري، وبذلك أزاح الرب كل العقبات أمام الاستيلاء على الأرض". فمع مطلع القرن السابع عشر كان عدد الهنود الحمر في عموم القارتين الأمريكيتين أقل من ثمانية ملايين، بعد أن كانوا أكثر من خمسين مليوناً.

(٢) اتجهوا أولاً إلى المسلمين العرب في شمال إفريقيا، ولكن حملاتهم فشلت فشلاً ذريعاً، وقتل زعمائهم ودفنت أحلامهم في معارك "وادي المخازن" في المغرب، فاتجهوا إلى إفريقيا السوداء لاصطياد سكانها كالحيونات وأسره كالعبيد. وقد أدت هذه العملية التي استمرت طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى مأس طالت خمسين مليون إفريقي أسود تم شحنهم من أنحاء القارة الإفريقية، وقد هلك معظمهم قبل أن يصلوا إلى العالم الجديد، لما لقوا من العذاب والجوع والقهر، حيث تم رمي عدد منهم في الماء عند ظهور بوادر المرض عليهم للتخلص من تكاليف علاجهم، كما تم قتل عدد آخر لمجرد نشوة القتل والتسلي.

- لقد بدأت أشك بكونك يهودياً فعلاً.
- لماذا!!! لأنني أتحدث معك من الكتاب!!!
- بل لأنك تحاول ليّ عنق ذلك النص، وتسقطه على الواقع بطريقة مستهجنة.
- فلنترك هذا النص إذن. ففي التوراة نبوءات أخرى على خراب الولايات المتحدة.
- مثل ماذا؟
- في الإصحاحات (٢٦، ٢٧، ٢٨) من سفر حزقيال، تجد وصفاً تفصيلياً لمدينة سماها كتبة التوراة "صور" ألخصه بالآتي: "مُسيطرَة هي وسُكَّانها على البحر. تُرعب جميع جيرانها. تاجرة الشعوب وكاملة الجمال. تقبع في قلب البحار. تأتيها السفن التجارية من كل مكان. شعبها وجيشها خليط من أمم أخرى. تتمتع بكونها مركزاً للتجارة العالمية"، وهذه الأوصاف لا تنطبق إلا على أمريكا كدولة، أو نيويورك كمدينة. وأما صفة عقابها فهي كما يلي: "دمارها سيتحصل بريح شرقية (أي من الشرق). اندلاع النيران في وسطها. تحولها إلى رماد. مصيرها الفرق ولن يبقى منها أثر. القائمون على خرابها غرباء من أعتى الأمم". وأما أسباب الغضب الإلهي عليها وعلى ملكها فهي: "تنصيب ملكها لنفسه كإله للبشر. تربعه في مجلس الآلهة في قلب البحار. الادعاء بامتلاكه حكمة الآلهة. الاستحواذ على الذهب والفضة وادخارها. مضاعفة الثروة بمهارتها في التجارة الظالمة. البهاء والجلال والتكبر والاستعلاء لفرط الغنى".
- إن صور بنيت على جزيرة وكانت أعظم مدينة تجارية في ذلك الزمان كما يقول قاموس الكتاب المقدس، وليس لها علاقة بأمريكا.
- إذا كان الأمر كذلك وكانت بهذه العظمة وكان خرابها بهذا الدوي، فلم لم نسمع عن ذلك شيئاً في كتب التاريخ!!! إن تسمية صور رمزية كما هي تسمية مصر في الآيات التالية من السفر نفسه، وهي تتحدث أيضاً عن أمريكا.

ففتح فيكتور الكتاب المقدس وقرأ الإصحاح التاسع والعشرين من سفر حزقيال بصوت عال:

- "ها أنا أنقلب عليك يا فرعون ملك مصر، أيها التمساح الكامن في وسط أنهاره، ... وأخرجك قسراً من أنهارك، وأسماكها ما برحت عالقة بحراشفك، وأهجرك في البرية، مع جميع سمك أنهارك، فتتهاوى على سطح أرض الصحراء، فلا تجمع ولا تلم، بل تكون قوتاً لوحوش البر وطيور السماء. فيدرك كل أهل مصر أنني أنا الرب، لأنهم كانوا عكاز قصب هشة لبني إسرائيل، ما إن اعتمدوا عليك بكفهم، حتى انكسرت ومزقت أكتافهم، وعندما توكؤوا عليك، تحطمت وقصفت كل متونهم. لذلك ها أنا أجلب سيفاً، وأستأصل منك الإنسان والحيوان، وأجعل ديار مصر، الأكثر وحشة بين الأراضي المقفرة، وتظل مدنها الأكثر خراباً بين المدن الخربة... وأجعلهم أقلية لئلا يتسلطوا على الشعوب، فلا تكون بعد، موضع اعتماد لبني إسرائيل، بل تذكرهم بإثمهم حين ضلوا وراءهم" (٣ - ١٦).

- كما ترى فقد يتبادر إلى الذهن أن هذا النص يتبأ بخراب مصر، ولكن بعد إمعان النظر في العلاقة ما بين هذا الفرعون وبين اليهود ستجد أن المقصود بهذا النص هم فراعنة هذا العصر في أمريكا، وعلى ما يبدو أن المقصود بالتمساح هو الأسطول، والمقصود بالأسماك هو السفن الحربية، والمقصود بالأنهار هي البحار التي تنشر فيها القوات البحرية الأمريكية. وهناك تسميات أخرى استخدمها كتبة التوراة والإنجيل للمدينة نفسها كبابل الجديدة، وبابل العظمى، كناية عن دولة عظمى سيتزامن وجودها مع ظهور الدولة اليهودية في أرض إسرائيل.

- لم أعد قادراً على فهمك. فإسرائيل هي تحقيق لوعده الرب لإبراهيم، ولا يمكن أن يجازى من يساعدها في استرداد ميراثها بذلك.

- تابع القراءة إذن في الإصحاح ٣٣: ٢٩-٢٤.

- آمن كما تشاء بالنسبة إلى دولة إسرائيل والصهيونية، ولكن لا تحاول أنت الآخر أن تفسر كلام الرب على مزاجك، وبالذات بالنسبة إلى الولايات المتحدة؛ فهي تسيير على درب الرب والرب يحفظها. أما ما حصل مع الهنود الحمر والسود فقد كان ذلك من الماضي، وتم تجاوزه بعد أن طويت صفحته نهائياً وبلا رجعة، فالسود اليوم يتمتعون بحقوقهم كاملة في الولايات المتحدة، وأبلغ دليل على ذلك أن أحدهم هو رئيسها حالياً.

- إذا كانوا يتمتعون بحقوقهم كاملة، فلم أحبطتم في "مؤتمر دوربان" عام ٢٠٠١م مطالب الأفارقة بالتعويض عما حدث لهم؟! بل رفضتم إلى الآن أن يقدم لهم مجرد اعتذار!!! في حين تصرون دائماً وأبداً على تعويض ضحايا الهولوكوست!!! وإذا كان ما حدث مع الهنود الحمر والسود هو من الماضي الذي طويت صفحته تماماً كما تقول، فما بال القبلتين النوويتين اللتين ألقيتموهما على "هيروشيما" و"نجازاكي"^(١) في عصرنا هذا؟

- ما بالهما؟! لقد كان ذلك ضرورياً لإيقاف حرب كانت ستحصد المزيد من الأرواح والدمار لو استمرت.

- لقد أثبت الكثير من الباحثين أن اليابان كانت قد وافقت على شروط الاستسلام، قبل استخدام أمريكا للأسلحة النووية ضد الشعب الياباني، ومع ذلك أصرت حكومة الولايات المتحدة على استخدامها. ثم ماذا عن الأسلحة الهايدروبينية والأسلحة النيوترونية التي كانت أمريكا أول من صنعها؛ هل كانت لإيقاف الحروب

(١) كانت القنبلة الأولى المسماة "الولد الصغير" قد أُلقيت في ٦ آب/أغسطس ١٩٤٥، على مدينة هيروشيما، أما القنبلة الثانية المسماة بـ "الولد السمين" فقد أُلقيت في ٩ آب/أغسطس ١٩٤٥ على مدينة ناغازاكي الأمر الذي أدى إلى مقتل أكثر من مئتي ألف قتيل في كلتا المدينتين.

أيضاً؟! وماذا عن كوريا التي تدخلتم لعزل الحكومة الشعبية فيها، وأغرقتم البلاد في حروب طاحنة سقط خلالها ما يزيد على مئة ألف قتيل؟ وماذا عن فيتنام التي أدى التدخل الأمريكي فيها إلى قتل أكثر من مليون شخص فيها^(١)، بل تؤكد مجلة نيويورك تايمز^(٢) أن العدد الحقيقي للضحايا الفيتناميين بلغ ٢.٦ مليون قتيل؟ وفي بعض التقارير تم إثبات أنه بين عامي: ١٩٧٣-١٩٥٢م قتل الأمريكيون زهاء عشرة ملايين صيني وكوري وفيتنامي وروسي وكمبودي، وفي غواتيمالا قتل الجيش الأمريكي أكثر من ١٥٠ ألف مزارع في الفترة ما بين ١٩٨٦-١٩٦٦م.

- لم تنظر إلى السلبات فحسب؟ ماذا عن العراق وتخليصها من نظامها الدكتاتوري الفاشم؟

نظر أبراهام بدهشة إلى فيكتور غير مصدق أذنيه، وقال باستهجان:

- لقد حولتم بلداً اشتهر بالتعايش السلمي بين أبنائه والتقدم العلمي وانعدام الأمية ومجانبة الصحة والتعليم فيه، إلى بلد ممزق متخلف مخيف، قتل الاحتلال والمليشيات الطائفية ٤٪ من شعبه، ورملوا ٨٪ من نسائه، ويتموا ١٦٪ من أبنائه، وهجروا ١٥٪ من أهله، واعتقلوا ما يزيد على ٢٪ من شبابه، وهرب أكثر من ٤٠٪ من كفاءاته العلمية وأساتذة جامعاته خارج البلد، وتعرضت ٨٤٪ من جامعاته للسلب والنهب، ووصلت نسبة الأمية فيه إلى ٣٠٪. هذا بالإضافة إلى أن ٧٦٪ من العراقيين لا يحصلون على مياه صحية، و٥٤٪ من الأسر تعاني الفقر، وتخطت نسبة البطالة الـ ٥٠٪، مع فساد مؤسسي، يؤهل العراق ليكون المنافس الأبرز للفوز بالمرتبة الأولى للفساد الإداري في العالم. وتم تدمير البيئة وتحويل العراق إلى بلد مستورد لا ينتج شيئاً، وانتشرت المخدرات في الشوارع زمن "ديمقراطية بوش" بعد أن كان العراق خالياً

(١) راجع الفصل (الموقف) نفسه المشار إليه في الحاشية السابقة.

(٢) في مقالة نشرت في ٨/١٠/١٩٩٧م.

منها، وتردى الوضع الأمني، وتفشت عمليات الخطف والابتزاز، وعمل على تمزيق نسيجه الاجتماعي وتغيير منظومته الديموغرافية والنسب السكانية^(١) تعميقاً لإثارة النعرات وتأجيج الاقتتال الطائفي.

- لقد قمنا بكل هذا من أجلكم. أيها اليهودي الناصر للجميل.

(١) نسبة السنة العرب لا تقل عن ٤٢٪ لكن قامت مراكز دراسات مشبوهة بتمرير كذبة مفادها أن نسبة السنة العرب ٢٠٪ بينما حصرت نسبتهم في مؤسسات الدولة بـ ٦٪ فقط!!! علماً بأن نسبة السنة من العرب والأكراد والتركماني في العراق أكثر من ٦٠٪.

◀ حقد له ما يببره

قرع الباب قاطعاً حديث أبراهام وفكتور، فنظر الأخير بامتعاض نحو الباب، ولكن ما إن رأى الطارق الذي مد رأسه من شق الباب حتى قام مرحباً وهو يقول:

- أي رياح طيبة تلك التي أتت بك يا عزيزي "ديفيد"!

فرد الرجل معتذراً:

- لم أكن أعرف أن عندك ضيوفاً، اعذرني.

- لا عليك، إن الموضوع ليس رسمياً؛ فأبراهام هو قريب لصديق قديم مشترك،

إنه ابن أخت أفيغدور.

- أفيغدور سراتوي؟!

- هو بعينه، غريمك اللدود. عزيزي أبراهام اسمح لي أن أعرفك بالدكتور

"كويد"^(١) وقد كان من أعز أصدقاء خالك قبل أن تفرقهما السياسة واختلاف وجهات النظر.

- مرحباً سيدي. تشرفت بمعرفتك.

(١) لقد قمت بعكس ترتيب أحرف الاسم من "ديفيد ديوك" إلى "ديفيد كويد" لابتداع هذه الشخصية الخيالية. فالسيناتور السابق د. ديفيد ديوك هو شخصية واقعية، وقد كان من أشرس المدافعين عن سياسات أمريكا وإسرائيل قبل أن يكتشف الحقيقة، التي حاول جاهداً أن يوضحها لمواطنيه من خلال كتبه ومقالاته. ومع أن شخصيته الخيالية في هذه الرواية (ديفيد كويد) لا تمت بصلة إلى شخصية ديفيد ديوك الواقعية، إلا أن الحديث الذي سيأتي على لسان الشخصيات الروائية في هذا الفصل (الموقف) يستند إلى آرائه الواقعية فعلاً كما سنرى بعد قليل.

- مرحباً بك يا بني. أشكرك على مشاعرك الطيبة.

ثم قال موجهاً حديثه إلى فيكتور:

- حسناً. يبدو أنك مشغول، سوف أمرُّ عليك لاحقاً.

- كلا يا عزيزي، فالأمر ليس كما تظن؛ إن أبراهام مختلف عن خاله تماماً، بل ومع كونه يهودياً، إلا أن أفكاره شديدة الشبه بأفكارك إلى حد بعيد، وانتقاده لما يسميه تسلط اليهود الصهاينة والمحافظين الجدد على الولايات المتحدة ربما يفوق انتقادك حدة، لذا فإن اشتراكك معنا في النقاش سيكون ممتعاً.

ثم أردف غامزاً:

- ولكنني أحذرك، فقد اكتشفت للتو أنه يحقد على أمريكا أيضاً.

- ومنذا الذي لا يحقد على أمريكا في هذه الأيام؟

قال ديفيد وهو يجلس على الكرسي الوثير الذي قاده فيكتور إليه، فقال أبراهام مدافعاً عن نفسه:

- الموضوع ليس موضوع حقد.

فأجاب فيكتور على الفور:

- بل هو كذلك، فأمریکا مكروهة في كثير من بلدان العالم، ومحسودة من قبل الكثير من شعوبه، بسبب التقدم الذي أحرزته، والذي فاق تقدم كل الآخرين، وبالذات ووطنك روسيا.

- إن الدولة ليست سيدة حلوة طروباً تقف بين سيدات قبيحات يحسدنها على ما أنعم الرب عليها من جمال شد إليها أنظار الرجال ذوي البأس والنفوذ والمال والشباب؛ فالدول ليست كالأشخاص الذين يحبون ويكرهون، والدولة لا تحب ولا

تكره، الدولة كيان عناصره أرض وشعب وسلطة؛ فكيف يمكن لأرض أن تحب أرضاً أخرى أو تكرهها أو تحسدها، إلا في خيال حالم يستعمل تعبيرات مجازية؟ ومن المفارقات العجيبة، أن نظرية الكره والحسد لم تطرح أيام عز الإمبراطورية اليونانية أو الرومانية أو البرتغالية أو الإسبانية أو البريطانية أو النابوليونية! ومن المفارقات الأَعْجَب أن هذه النظرية لم تطرح أيام جورج واشنطن أو روزفلت أو أيزنهاور أو نيكسون أو ريجان أو حتى في زمن غراميات كلينتون. ومن المفارقات الأكثر عجباً أنها لم تطرح حتى في فترة حكم الرئيس بوش الأب، فقد بدأت تطرح فقط في زمن الرئيس الابن!!!

- أنا أفهم ما تلمح إليه، ولكن أي من الفترات السابقة أو الإمبراطوريات السابقة التي أشرت إليها تعرضت إلى شبيهه لما تعرضت إليه أمريكا في ١١ سبتمبر؟!!!

- رغم جسامه أحداث ١١ سبتمبر، إلا أن المسألة هي مسألة نسبية تعتمد على الحال والزمان والمكان ومنظومة المفاهيم. فالقنابل الذرية الأمريكية على هيروشيما ونجازاكي لم تبرر بالحسد والكره، ولم نسمع مسؤولاً يابانياً واحداً برر تلك القنابل بالحسد والكره، رغم وجود ما يبرر ذلك الادعاء كما رأينا قبل قليل، ولكن الولايات المتحدة قررت أن تختبئ وراء أحداث الحادي عشر من سبتمبر كي تعلن أن حربها العالمية تهدف إلى القضاء على الإرهاب، ثم جمعت حربها بشعارات نشر الديمقراطية، إلا أن الحقائق الموثقة بكتابات المحافظين الجدد وما كشف من أسرار عن الإعداد المسبق للحرب على العراق، وأهداف الهيمنة على الطاقة في العالم وإخافة دول الجوار لاستسلامها أو إسقاطها، كل ذلك يدل على أن الولايات المتحدة كانت تخفي أهدافاً

أخرى حقيقية لهذه الحروب تتجاوز ما أعلنته^(١).

- بل أناس معينون في الحكومة هم من خطط لذلك دون أن يكون للولايات المتحدة أي مصلحة حقيقية في حربها على العراق أو حتى على أفغانستان نفسها.

عقب ديفيد موافقاً أبراهام، فرد فيكتور مدافعاً:

- نشر الديمقراطية ليس شعارات تجميلية يا عزيزي أبراهام، فذلك هو الهدف الأسمى للعالم الحر. وما دامت الولايات المتحدة هي زعيمة هذا العالم، فنشر الديمقراطية هو أكبر مصلحة لها يا عزيزي ديفيد.

- دعك من هذا فيكتور، فالديمقراطية هي سلعة قد كسدت لدينا فيما تسميه العالم الحر، بدليل أن أنظمة الغرب كافة تتبارى في التملص من مبادئها تحت ذرائع شتى، ولكنهم وجدوا أنه من الأربح لهم تصديرها للآخرين، فرفعوا شعاراً شبيهاً بشعار الدعاية الإعلانية الشهيرة لترويج أحد مساحيق الغسيل في أسواق الشرق:

(١) آخر ما كشف في هذا الموضوع هو ما ذكرته صحيفة "التايمز" البريطانية في عددها الصادر في ٤/٦/٢٠١٠، عن وثيقة وجهها العقيد "لورنس ويلكرسون" (أحد أبرز مساعدي وزير الخارجية السابق كولن باول)، دعماً لقضية مرفوعة في المحاكم لأحد معتقلي جونتنامو. ويقول ويلكرسون إن نائب الرئيس السابق تشيني ووزير الدفاع السابق رامسفيلد، كانا يعلمان أن "معظم" معتقلي الوجبة الأولى في جونتنامو، وعددهم نحو ٧٤٢ معتقلاً، في عام ٢٠٠٢ كانوا أبرياء، لكنهما اعتقدا أنه "من المستحيل سياسياً الإفراج عنهم"، خشية أن يضر ذلك بالحماسة نحو غزو العراق واحتلاله، والحرب على الإرهاب على النطاق الأوسع. وأضاف ويلكرسون أن تشيني ورامسفيلد رفضا الإفراج عن السجناء، "حتى لا تتكشف الفوضى غير العادية التي صاحبت اعتقال المئات وهو أمر غير مقبول، ويضر قيادتهم بشدة". وقالت الصحيفة إن وزير الخارجية السابق كولن باول قد دعم كل ما جاء في البيان. جدير بالذكر أن باول يقول أنه غادر الصفوف القيادية الأولى من الإدارة الأمريكية في عام ٢٠٠٥ بسبب غضبه من التضليل الذي اضطر إلى ممارسته عندما خرج إلى العالم مدافعاً عن أسباب غزو العراق واحتلاله.

"ليس لديكم ديمقراطية بعد؟!!! إذن نحن قادمون إليكم"^(١).

ضحك فيكتور من كل قلبه قائلاً:

- مثال موفق للغاية يا ديفيد. فأولئك القذرون ليس لديهم مسحوق غسيل جيد فعلاً، وأمريكا هي تماماً كفتى الإعلانات الذي يتنقل وفريقه في سيارة كبيرة تابعة لمصنع ذلك المسحوق، ليجره على ملابسهم ويريهم الفرق، كي يشتروا مسحوقه ويرموا مساحيقهم المحلية الرخيصة.

- ولكن فتى الدعاية لا يفرض مسحوقه بالدبابات والصواريخ كما تفعل أمريكا في حروبها لفرض الديمقراطية.

- حسناً، سأكون أكثر صراحة. إن تغير الأنظمة في تلك البلاد بالقوة وفرض النمط الغربي عليها ضروري لتجفيف منابع الإرهاب كي نعيش بأمان ونمنع تكرار أحداث مثل مأساة الحادي عشر من سبتمبر، وكفى بهذه من مصلحة كبرى.

- أذكرك أنه وفقاً للمركز القومي لمكافحة الإرهاب، فإن نحو ٢٠٠٠ شخص في العالم لقوا مصرعهم بسبب الأعمال الإرهابية المفترضة في عام ٢٠٠٤، من هذا العدد ٧٠ كانوا أمريكيين. وباستخدام هذا العدد كمتوسط سنوي، من المثير للاهتمام ملاحظة أن ضعف هذا العدد يموتون في السنة بسبب الحساسية للقول السوداني!!! وبالتزامن مع ذلك فإن السبب الرئيسي للوفاة في أمريكا هو أمراض شرايين القلب التاجية، مما يسفر عن مقتل ما يقرب من ٤٥٠.٠٠٠ في كل عام. وفي عام ٢٠٠٧ بلغ ما خصصته الحكومة من أموال للبحوث بشأن هذه المسألة نحو ثلاثة بلايين دولار، وهذا يعني أن حكومة الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٧ صرفت ٥٤ ضعفاً من المال لمكافحة الإرهاب، أي أكثر مما أنفقت لمنع لهذا المرض الذي يتسبب بقتل ٦٦٠٠ ضعف ما يقتله الإرهاب سنوياً.

(١) جاءت هذه المقارنة الطريفة على لسان الأديب "ألكسندر جاردون" في برنامج "بوزنر" على القناة الروسية الأولى بتاريخ ٧/٩/٢٠١٠.

- يبدو أنك أنت أيضاً تظن أن أحداث ١١ سبتمبر مسألة نسبية تعتمد على الحال والزمان والمكان ومنظومة المفاهيم.

قال فيكتور مستهجناً، وهو ينظر بطرف عينه إلى أبراهام، ففتح أبراهام فمه ليوضح وجهة نظره حيال هذا الموضوع، إلا أنه ما لبث أن عدل عن ذلك، مفضلاً سماع إجابة السيناتور كويد الذي بدا له شخصاً مثيراً للاهتمام فعلاً^(١).

- كلا؛ فأحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ ضاهت بفضاعتها حتى مشاهد أفلام هوليوود الخيالية، وأدت إلى مقتل وجرح الآلاف من الأمريكيين، وإلحاق خسائر وأضرار فادحة وصلت إلى ألف مليار دولار. وكنت أدعو إلى رد الحكومة بحزم شديد على هذه الأعمال الإرهابية الوحشية، ومعاقبة منفذيها بأشد العقوبات، كي لا يتكرر ذلك داخل الأراضي الأمريكية ثانية. لكن بعد أن اتضح الأمر، طرح السؤال التالي بقوة: كيف يمكن أن نصون ونحفظ أنفسنا في المستقبل من شر الإرهاب؟ إن التطور العلمي والتكنولوجي الذي يشهده عالم اليوم، قد يجعل العمليات الإرهابية القادمة أكثر دماراً من العمليات التي شهدناها في الحادي عشر من سبتمبر، فالحدث الإرهابي الوحشي القادم قد لا يسمع منه صوت أي انفجار، وقد يكون هجوماً بيولوجياً أو هجوماً نووياً يؤدي إلى قتل أعداد أكبر من دون إثارة أي صوت.

- ولهذا بالضبط أرسلت حكومتنا خيرة قواتها لتستأصل الإرهاب في عقرباره مهما كلف ذلك.

- الذي يبعث على الأسف يا عزيزي فيكتور هو أن حكومتنا رغم إنفاقها مليارات الدولارات، وإلقائها أعداداً كبيرة من القنابل، من المستحيل أن تتمكن من حفظ أرواحنا وأموالنا من هذا الخطر الكبير.

(١) بقية الفصل (الموقف) هي نقل حرفي لمقال للسيناتور ديفيد ديوك بعنوان: "من يجرؤ على السؤال"، ولكن مع إضافة أسئلة وتعليقات على لسان فيكتور، وإعادة ترتيب عباراته بما يتناسب وسياق هذه الرحلة.

- ماذا تقصد؟

- في الحقيقة، كلما ألقينا كميات أكبر من القنابل، وكلما تسببنا في دمار وتخريب أكثر، تضاعفت احتمالات أن نكون ضحايا رد إرهابي آخر في المستقبل. لقد دخلنا مرحلة بات فيه التفوق العسكري المطلق عاجزاً عن ضمان أمننا.

- لماذا؟

- لقد انتهت ومنذ مدة طويلة تلك الفترة التي كانت فيها القوى الكبرى تعاقب الشعوب الضعيفة في العالم كيفما تشاء، فالיום باتت أبسط الحكومات والتشكيلات السياسية وأصغرها قادرة على الانتقام، وبكل سهولة، من خلال تنفيذ العمليات الإرهابية. وبعبارة أخرى لم يعد هناك أي شعب يعيش حالة أمان، ولا حتى أقوى الشعوب على الأرض.

- هل معنى هذا أن نستسلم للإرهاب؟

- كلا بالطبع، ولكننا مادمننا عاجزين عن فهم وإدراك الأسباب والأهداف الخفية من وراء تنفيذ هذه العمليات الإرهابية، فإننا سنعجز أيضاً عن الحيلولة دون تكرارها مستقبلاً. وقد حان الوقت لنا نحن الأمريكيين أن نسأل أنفسنا لم نعاني من مثل هذه العمليات الإرهابية؟

- ماذا تقصد؟

- عندما تتوقف عقارب ساعة جدارية عن العمل مثلاً، نسأل لماذا توقفت؟ ونقول: لربما خرج السلك الكهربائي من مكانه، أو لربما نفدت بطايرتها، أو لربما حدث فيها خلل آخر. وإن كان ذلك، فلماذا حدث؟ وعندما تواجه مشكلة في حياتك، فإنك إن لم تطلب من الآخرين المساعدة، ولم تتحرك لحلها، فإن هذه المشكلة ستتواصل وقد تتعد أكثر فأكثر.

- غريب ما تقوله؛ فوسائل الإعلام الأمريكية لم تهتم بشيء قدر اهتمامها بتحليل أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

- صحيح أن وسائل الإعلام الأمريكية غطت بشكل كامل ومباشر تفاصيل العمليات الإرهابية الدموية في يوم الحادي عشر من سبتمبر، وبذلت قصارى جهدها لنقل صورة الحدث إلى الشعب الأمريكي، حتى إنها أخبرتنا عن الذي يمكن أن يكون وراءها، إلا أن وسائل الإعلام تلك، التي تخضع لإشراف الصهاينة^(١) ما زالت حتى الآن تمتنع عن إبداء أي دليل مقبول ومقنع بخصوص السبب الذي أدى إلى وقوع هذا الحادث.

- لأنهم حفنة من المجانين الحاقدين، وفوق هذا "كاميكازي"^(٢) جبناء.

- أنت تردد ما وصفهم الإعلام به، ولكن هذا خلاف الواقع. صحيح أن الإرهابيين ارتكبوا عملاً وحشياً وإرهابياً ضد الشعب الأمريكي، إلا أنني مطمئن إلى القول بأنهم ليسوا جبناء، وليس من الصحيح إطلاق لفظة كاميكازي عليهم؛ فكل من يضحي بحياته من أجل تحقيق أهدافه وتطلعاته لا يعد جباناً ولا انتحارياً. إضافة إلى ذلك فإن إطلاق كلمة جبان ومجنون على منفذي هذه العمليات لا يعد جواباً عن هذا السؤال، وهو: لماذا وقعت هذه الأعمال الإرهابية؟ إلا إذا اعتقدت أن كل جبان ومجنون

(١) وسائل الإعلام تلك تعتم أيضاً على بعض الأخبار كنزلة البرد الفجائية التي أصابت الأربعة آلاف يهودي في ذلك اليوم ولم يذهبوا إلى مكاتبهم، أو خبر البرج الثالث الذي انهار في ثمانين ثوان دون أن تمسه أي طائرة أو أي صاروخ، بل ودون أن تحدث أية تلفيات في المباني المجاورة نتيجة لانهيائه!!! والغريب أن تقرير لجنة التحقيق الأمريكية لسنة ٢٠٠٤ لم تنطرق إلى ذلك أيضاً. يذكر أن البرج الثالث قد سقط في الساعة الخامسة والثلاث، أي بعد سبع ساعات من انهيار البرجين. وهذا البرج الثالث المكون من ٤٧ طابقاً كان يضم مكاتب المخابرات المركزية الأمريكية، السي آي إيه، وعدة مكاتب خدمات أخرى إضافة إلى بعض مراكز للقيادة العسكرية!

(٢) الطيارون اليابانيون انتحاريون.

يطمح في تفجير مبنى مركز التجارة العالمي ومبنى البنتاغون!!! إن إطلاق مثل هذه الصفات يؤدي إلى عجز الناس عن إعطاء تحليلات وتفسيرات صحيحة عن أسباب وقوع هذا الحادث. وإذا أردنا الحيلولة دون وقوع هذه الحوادث مستقبلاً، فعلينا إدراك أسباب وقوعها وفهمها.

- السبب واضح ولا يحتاج كل هذه الفلسفة؛ إنه الكره والحقد الإسلامي العربي على الحضارة المسيحية الغربية.

- ربما يكون أول سؤال مناسب يجب أن تطرحه على نفسك هو: لماذا لم يهاجموا نيوزيلندا أو السويد؟ فماذا تفعل هذه الدول حتى لا يهاجمها أحد، في حين نتعرض نحن للهجمات من فترة لأخرى!!! اسمح لي أن أقول لكما ويكل صراحة، إن السبب الرئيسي الكامن وراء تنفيذ هذه العمليات الإرهابية ضدنا هو دعمنا المباشر للممارسات الإجرامية الإسرائيلية^(١).

(١) هذه الفكرة تتنامى حالياً في الولايات المتحدة، خاصة بعد شهادة "ديفيد باتريوس" (جنرال أمريكي كثير الإنجازات وذو تأثير كبير في واشنطن . وهو يعمل منذ ٢٠٠٨ قائداً لمنطقة المركز، ومسؤولاً عما يسمى بـ"الشرق الأوسط" (الدول العربية بالإضافة إلى الكيان الصهيوني) وهو يعد من أصدقاء الكيان) أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، قال فيها: "إن العداوة بين إسرائيل وعدد من جاراتها يقيم تحدياً لمصالح الولايات المتحدة في المنطقة . فهذا النزاع يوجب مشاعر عربية معادية لأمريكا، لأن الولايات المتحدة ترى معاضدة لإسرائيل . والغضب العربي، ومنشؤه المشكلة الفلسطينية، يحد من الشراكة مع حكومات في المنطقة، ويضعف شرعية نظم الحكم العربية المعتدلة ويساعد القاعدة على تجنيد التأييد. بالطبع سخر اليهود مختلف إمكانياتهم الإعلامية لنفي ذلك أو حتى التقليل من شأنه. (مثل قولهم: إن "التعاون الاستخباراتي بين الكيان وأمريكا ينقذ حياة أمريكيين أكثر"، و: "كراهية الإسلام المتطرف للغرب لا تتبع من أعمال إسرائيل بل إنه يكره إسرائيل بسبب الغرب"، و: "عندما تقاتل إسرائيل أعداءها فإنها في الواقع تقاتل أعداء أمريكا"، و: "جنودنا وجنودكم يقاتلون ضد أعداء متطرفين يفتنون قيمنا المشتركة" . . . إلى آخره) ولكن صدور هذا الكلام في العلن، ومن شخصية بحجم باتريوس لا بد يحمل معاني كثيرة، خاصة بعد أن تلقفه عدد كبير من المثقفين الذين يتفقون مع تلك الرؤية، ولكنهم لم يكونوا يجروون على الكلام قبل ذلك.

- مهلاً، فهذا تطرف كبير. يبدو أن أفيغدور كان محقاً عندما اتهمك بمعاداة السامية.

- لست معادياً للسامية يا عزيزي، وأنت بالذات تعرف ذلك جيداً، ولكن الإرهاب جواب الإرهاب. الفلسطينيون وإخوانهم العرب كانوا -وعلى مدى نصف قرن من الزمن- عرضة للإرهاب الإسرائيلي. ففي أواخر عقد الأربعينيات احتل الصهاينة أرض فلسطين من خلال تنفيذ عمليات إرهابية واسعة، وأجبروا أكثر من ٧٠٠ ألف فلسطيني على ترك ديارهم ووطنهم، ومن بين العمليات الإرهابية التي نفذت في تلك الفترة يمكن الإشارة إلى "مجزرة دير ياسين" التي أدت إلى استشهاد ٢٥٤ فلسطينياً أغلبهم من النساء والأطفال والرجال الطاعنين في السن، ومن أبرز المعالم الإجرامية لهذه المجزرة المروعة هو بقر بطون النساء الحوامل في تلك القرية من قبل اليهود.

- هذا بجانب للصحة بشكل سافر؛ فمثل هذه الإشاعات هي من صنع المسلمين الحاقدين على اليهود وترويجهم.

- محال. فما تقوله أنت هو الجانب للصحة، وتستطيع أن تتأكد من كلامي عن طريق ضيفك الكريم القادم من إسرائيل.

فنظر فيكتور إلى أبراهام، الذي لم ينبس ببنت شفة، ولكنه أوماً برأسه موافقاً وهو يحاول أن يداري خجله. فتابع ديفيد حديثه قائلاً:

- وللتدليل على ذلك أكثر، أستشهد هنا بكتاب "الثورة، قصة الأرغون" لرئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق "مناحيم بيغن"، الذي كان أحد المشاركين في ارتكاب تلك المجزرة الرهيبة والمروعة. حيث تحدث فيه، وبفخر، عن أهمية مجزرة دير ياسين قائلاً: "لم يكن بالإمكان إقامة دولة إسرائيل ما لم يتم فتح دير ياسين"، وذكر في مقطع آخر في كتابه: "إن الهاغانا نفذت هي الأخرى "عمليات مظفرة" في جبهات أخرى، وأوجدت حالة من الرعب في أوساط العرب، وأجبرتهم على الهرب وهم يبكون".

وبعد ارتكاب مثل تلك المجازر المروعة، تعمد القتل نشر أخبارها المساوية وبثها لزرع حالة الرعب في أوساط بقية الفلسطينيين، لإجبارهم على مغادرة منازلهم ومحلاتهم التجارية وديارهم. وحتى اليوم لم يسمح لأي فلسطيني بالعودة إلى منزله أو إلى محله التجاري.

- ربما كان ذلك ضرورياً فعلاً لإقامة إسرائيل، ولا تنس أن أجدادنا المستوطنين فعلوا شيئاً مشابهاً مع الهنود الحمر.

- أجل، ولكن الملاحظة الجديرة بالذكر هي أن مسلسل المجازر تواصل حتى بعد تأسيس الدولة اليهودية!!! هذه المجازر وقعت وتواصلت في فترتي السلام والحرب.

- مجازر قامت بها دولة إسرائيل بعد أن رسخت وجودها!!!

- بالطبع، وإن كنت تستغرب ذلك فأليك أسماء بعض هذه المجازر حتى تتحرى عنها لاحقاً: "مجزرة شرفات"، "مجزرة كيبيا"، "مجزرة كفر قاسم"، "مجزرة السمو"، "مجزرة صبرا وشاتيلا"، "مجزرة عيون قرا"، "مجزرة المسجد الأقصى"، "مجزرة الحرم الإبراهيمي"، "مجزرة جباليا"، وغيرها من المجازر الممنهجة في إطار سياسة "التطهير العرقي"^(١). كما رفضت الحكومة الإسرائيلية عودة اللاجئين والنازحين الفلسطينيين إلى فلسطين، مع أنهم ولدوا فيها، وأباؤهم يسكنونها منذ قرون طويلة، وتزامناً مع هذا الإجراء عمدت إلى تشجيع يهود الشتات على الهجرة إلى فلسطين مع أنهم لم يعيشوا فيها من قبل ولا للحظة واحدة، بل قدمت لمن هاجر منهم مختلف أشكال الدعم المادي! إن اليهود لم يكتفوا بإقامة دولة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية وإنما عمدوا إلى مصادرة الأملاك الشخصية والخاصة بالفلسطينيين من أراض ومزارع ومنازل إلى المحال التجارية. وبعد أن أجبر اليهود أغلب الفلسطينيين على ترك ديارهم واللجوء إلى الدول الأخرى، ومنعهم من العودة، أصدرت الحكومة الإسرائيلية قانوناً عرف

(١) هذه المقالة كانت قبل أحداث غزة.

باسم "الأموال المتروكة" تم بموجبه مصادرة جميع الأموال والممتلكات الفلسطينية، ومنحها للمهاجرين اليهود^(١)، واحتوى هذا القانون على مادة تحظر إلى الأبد بيع الأراضي المغتصبة إلى الفلسطينيين.

- من الطبيعي أن تحاول إسرائيل جمع شمل اليهود في أرض أجدادهم، ومن الطبيعي أن تعطيتهم أملاك الغائبين، خاصة أن اليهود الذين فروا من الدول العربية تركوا أموالهم أيضاً^(٢)، ومن الطبيعي أكثر ألا توافق في سبيل ذلك على عودة الفلسطينيين الجبناء الذين فروا من الحرب ولجؤوا إلى إخوتهم العرب، ثم فضلوا، بعد أن جربوا تخاذلهم وخيانتهم، وعانوا من ديكتاتورياتهم وقمعهم، أن يستظلوا بالديمقراطية الإسرائيلية، فهل تنكر أن إسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، وأن سكانها من الفلسطينيين يتمتعون بحرية أكبر من الحرية التي يحظى بها أقرانهم في أي من دول الجوار؟ فالفلسطينيون في لبنان مثلاً يعيشون في مخيمات عفنة، وتمنعهم الحكومة من العمل بالوظائف الفكرية كالطب والهندسة وغيرها من المهن المحترمة^(٣)، ولا تسمح لهم إلا بأعمال الحدادة والنجارة وجمع القمامة، وغيرها من الوظائف المهينة! وفي مصر لا يستطيع الفلسطيني الحامل لوثيقة سفر مصرية من الدخول إلى مصر إلا بتأشيرة! ولا يسمح له بحرية الإقامة فيها!!! وفي سورية يحظر على الفلسطيني المقيم فيها أن يمتلك هو وجميع أسرته أكثر من منزل واحد، وإذا تزوج أحدهم وكوّن أسرة جديدة فيجب عليه الحصول على موافقات أمنية، وأن يثبت أن

(١) في عام ١٩٤٨ كان الفلسطينيون يمتلكون أكثر من ٩٠٪ من أرض فلسطين.

(٢) أموال اليهود وممتلكاتهم في الدول العربية محفوظة، وتدار من قبل المحامين الذين أوكلوهم بذلك، كما أن تعويضهم عن ممتلكاتهم المصادرة سابقاً يجري على قدم وساق حتى الآن.

(٣) تم مؤخراً السماح لفلسطينيي لبنان بالعمل، ولا يزال اللاجئون الفلسطينيون، الذين ولد وترعرع القسم الأكبر منهم هناك، يناضلون للحصول على بقية حقوقهم، كالضمان الاجتماعي والتأمين الصحي وحق التملك وغيرها من الحقوق المشروعة، مشددين على أن حصولهم على الحدود الدنيا للحياة الكريمة، لا يتعارض مع كونهم ضيوفاً على لبنان، وأن ذلك لا يعني توطينهم، كما يخشى البعض.

زوجته أو أبناءه لا يملكون منزلاً آخر حتى يستطيع تسجيل منزل باسمه. حتى الأردن دولة الجوار العربية الوحيدة التي أعطت الفلسطينيين المقيمين فيها جواز سفر أسوة بمواطنيها الأردنيين، (وليس وثيقة سفر للاجئين كبقية دول الطوق) فإنها جعلت فيها إشارات لتمييز مواطنيها الأصليين عن "مواطنيها المزيفين"، أو المواطنين من الدرجة الثانية، حتى يتمكن موظفو الدولة من معرفتهم ومنعهم من بعض المميزات التي يتمتع بها المواطن الأردني الأصلي؛ كالانتساب إلى كلية "مؤتة" العسكرية مثلاً، أو الحصول على وظيفة حساسة في الدولة. كما أن مواطني تلك الدول ينظرون بازدراء تجاه إخوانهم الفلسطينيين، ويتهمونهم بالخيانة وبيع فلسطين، رغم معرفتهم بأن حكام دولهم آنذاك هم المسؤولون عن ذلك. أما إسرائيل فتعطي مواطنيها العرب واليهود جوازات السفر نفسها، ويتمتعون بالحقوق والواجبات نفسها. وأولئك الذين لا يحصلون منهم على حقوقهم كاملة، هم فقط الذين لم يؤدوا واجباتهم كاملة نحو الدولة، وأهم تلك الواجبات هي الدفاع عن الوطن. فالعرب في إسرائيل، باستثناء الدروز وبعض بدو النقب، يرفضون بشكل قاطع أن يخدموا في جيش الدفاع الإسرائيلي؛ لذا فمن الطبيعي أن يحرموا من بعض إعانات الدولة التي تخصصها لمن ساهم في الدفاع عنها، ولكن بقية حقوقهم تكفلها الديمقراطية الإسرائيلية بغض النظر عن دينهم أو قوميتهم أو حتى آرائهم ما داموا لم يقوموا بأعمال عدائية تجاه الدولة.

- ربما كنت محقاً بشأن سوء معاملة الفلسطينيين من قبل إخوانهم العرب وأنظمتهم المتقدمة إلى الديمقراطية، ولكن ألا تعلم أن معدل السجناء والمعتقلين في السجون الإسرائيلية لا نظير له في أي من تلك الدول الدكتاتورية المجاورة أو في أي بلد آخر من بلدان العالم؟! ولا حتى في الاتحاد السوفييتي السابق في أثناء العهد الستاليني، ولا حتى في الصين الشعبية في أثناء حكم "ماو تسي تونغ"!!! كما أن الحكومة الإسرائيلية تعذب أولئك السجناء الفلسطينيين بشكل منظم. وفي واقع

الأمر، فإن الشعب الفلسطيني يعد الشعب الوحيد في عالم اليوم الذي يعذب بشكل قانوني! وقد أكد تقرير نشرته منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان في إسرائيل ويقع في ٦٠ صفحة أن ٨٥ ٪ من الفلسطينيين المعتقلين يتعرضون للتعذيب، حتى إن "جول غرين برغ"، وهو يهودي، نشر مقالة مهمة في صحيفة نيويورك تايمز، شدد فيها على أن إسرائيل تعذب شهرياً ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ فلسطيني، وأن جيشها وأجهزتها الأمنية اغتالت آلاف الفلسطينيين الذين بينهم المفكرون وعلماء الدين والتجار والفلاسفة والشعراء وغيرهم من الوطنيين، وبعض عمليات الاغتيال والتصفية وقعت داخل الأراضي الأمريكية نفسها. وقد شملت عمليات القتل والاغتيال هذه آلاف النساء والأطفال، كما أن الإسرائيليين قصفوا مرات عديدة مخيمات اللاجئين المكتظة بالنساء والأطفال الفلسطينيين. علاوة على ذلك هاجمت إسرائيل الجنوب اللبناني في عام ١٩٨٢، وطوال فترة الهجوم، و١٨ عاماً من احتلال تلك المنطقة من قبل القوات الإسرائيلية، قتل ٤٠ ألف مدني!!! فأسرائيل واصلت طوال هذه الفترة قصف المدن والقرى وكذلك الكثير من المستشفيات وملاجئ الأيتام المسجلة لدى الصليب الأحمر الدولي النرويجي. هل تعلم أن رئيس الوزراء الإسرائيلي "السابق"^(١) آرييل شارون، لم يتجرأ أن يضع قدمه في الأراضي البلجيكية أو الهولندية، لأن محاكمها اعتبرته مجرم حرب، وسفره إلى هناك قد يؤدي إلى اعتقاله؟ فشارون يتحمل مسؤولية قتل ألفي لاجئ فلسطيني في مخيمي صبرا وشاتيلا بلبنان. ولا تنس أن إسرائيل أسقطت طائرة ركاب مدنية في أجواء شبه جزيرة سيناء، الأمر الذي أدى إلى مقتل كل ركابها البالغ عددهم ١١١ شخصاً. ومن هنا يتضح لنا أن الإرهاب الإسرائيلي لم يطل الشعب الفلسطيني وحده، وكل هذا يجب أن يغير رأيك عما تدعوه الديمقراطية الإسرائيلية.

(١) عندما نشر السيناتور د. ديفيد ديوك هذا المقال كتب "الحالي"، حيث كان سبي-الذكر شارون هو رئيس وزراء الكيان الصهيوني آنذاك.

- هذا الإرهاب كما تسميه موجه ضد أناس يستحقونه فعلاً، فهم لا يفهمون لغة غيره.

- وماذا عن البريطانيين إذن؟ فهم أيضاً عانوا بدورهم الإرهاب الإسرائيلي. ويكفيك نموذج تفجير "فندق الملك داوود" في القدس على ذلك. ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم تواصل ماكنة الإرهاب تحركها ضد الجميع بدون أي توقف. الولايات المتحدة هي الأخرى طالها الإرهاب الإسرائيلي، وكان أول شرارة مباشرة تصيبنا منه في عام ١٩٥٤. ففي ذلك العام قررت دولة إسرائيل تفجير منشآت أمريكية في القاهرة والإسكندرية، وتحميل القوميين المصريين مسؤولية ذلك^(١) إلا أن المصادفة كان لها دور في كشف هذه المؤامرة وإحيائها.

- أعترف أن ذلك كان خطأً غيباً من إسرائيل، ولكنه لم يتكرر ولن يتكرر.

- هل تظن ذلك فعلاً!!! وماذا عما حدث في عام ١٩٦٧ حين هاجمت الطائرات الحربية الإسرائيلية، وعن عمد، السفينة الحربية الأمريكية "ليبرتي" وهي راسية في البحر المتوسط على بعد ١٥ ميلاً من الساحل الشمالي لشبة جزيرة سيناء، كما فتحت نيران أسلحتها الرشاشة على قوارب الإنقاذ الصغيرة الموجودة على سطح هذه السفينة؟ وقد أدى الهجوم إلى مقتل ٣١ بحاراً أمريكياً وإصابة ١٧٠ آخرين بجروح؟ إن الإسرائيليين كانوا بصدد إغراق السفينة الحربية الأمريكية وقتل أفراد طاقمها، ومن ثم تحميل المصريين (في محاولة أخرى) مسؤولية الحادث، وذلك من أجل كسب دعم أمريكي أكبر يساعدهم في احتلال مساحات أوسع ومناطق عربية أكثر. مهاجمة السفينة الحربية الأمريكية لم يكن سوى إجراء حربي إسرائيلي ضد أمريكا، ومع أن وزير الخارجية "دين راسك" وقائد القوة البحرية الأمريكية الأدميرال "مورر" أعلنوا أن الهجوم الإسرائيلي على السفينة الحربية لبرتي كان متعمداً، إلا أن اللوبي الصهيوني

(١) يقصد عملية سوزانا أو فضيحة لافون. راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

المتنفذ في أمريكا حال دون أن يتخذ الكونغرس الأمريكي قراراً رسمياً يدعو إلى مجرد التحقيق في الحادث!!! وبعد العدوان الإسرائيلي على السفينة الحربية الأمريكية ليبرتي، لم تكتف الإدارة الأمريكية بمواصلة تقديم الدعم العسكري والمالي لإسرائيل فحسب، بل عمدت بعد عدة أيام من وقوع الحادث إلى حذف الأخبار المتعلقة بالحادث من وسائلها الإعلامية كافة!

- أنت محق؛ فالصمت المطبق بشأن ذلك الموضوع أدى إلى نسيانه فعلاً.

- في واقع الأمر فإن الإعلام الموجه هو المسؤول أولاً وأخيراً عن توجيه ذاكرة الأمريكيين ووعيهم، وتضخيم بعض الأمور وتجاهل بعضها الآخر والتقليل من شأنه، حسب رغبة القائمين عليه، وبناء على مصالحهم وحساباتهم الخاصة. ولهذا قلة من شعبنا لا يزالون يذكرون أن إسرائيل كانت سبباً لإثارة حروب عديدة خضناها دون أي حاجة بنا إليها؛ ففي عام ١٩٨٦ مثلاً، تسببت إسرائيل في أن نهاجم شعباً آخر خطأ؛ وذلك عندما نصبت المוסاد مرسلة في طرابلس عاصمة ليبيا، وأخذت تبث من تلك المرسلة رسائل إرهابية بشفرات ليبية، وهذه الرسائل حملت عناصر المخابرات الليبية مسؤولية تفجير مرقص في ألمانيا، والذي أدى إلى مقتل أمريكيين، وفيما بعد ثبت أنه لم يكن لليبيا أي دور في حادث تفجير المرقص المذكور. إن استخدام إسرائيل لمثل هذه الأساليب أدى إلى أن تتعرض ليبيا لقصف أمريكي خلف وراءه المزيد من الخراب والدمار، وإحدى ضحايا هذا القصف، كانت طفلة الرئيس الليبي العقيد معمر القذافي. ومما لاشك فيه أن دفع شعب أو تشجيعه لمهاجمة شعب آخر، يعد إجراء حربياً جباناً، هذا الإجراء لن ينفذ إلا من قبل عدو شيطاني في واقع الأمر.

- إن لم يكن الليبيون مذنبين بذلك، فهم بالتأكيد مذنبون بأشياء أخرى.

- قولك هذا هو نتيجة الدعاية الصهيونية، وإن كل فلسطيني وكل عربي واع ويقظ يدرك جيداً بأن الإرهاب الإسرائيلي على مدى نصف قرن لم يكن ليستمر لولا الدعم

المالي والعسكري والسياسي الأمريكي. ويعلمون جيداً أن اللوبي اليهودي هو الذي يوجه السياسة الأمريكية حيال منطقة الشرق الأوسط، وأن الصهاينة باستطاعتهم أن يحصلوا على كل ما يحتاجونه من الكونغرس الأمريكي. إن الدعم الأمريكي الشامل لإسرائيل في الثمانينيات شجع الإسرائيليين على مهاجمة الأراضي اللبنانية، واحتلال مساحات واسعة منها، الأمر الذي أدى فيما بعد إلى تفجير مقر مشاة البحرية الأمريكية، وقتل ٢٠٠ من خيرة الشباب الأمريكي. وكما ترى، فقد تورطت أمريكا حتى أذنيها في الإجرام الإسرائيلي.

- لا تخف، فالعرب يثقون بنا بشكل أعْمى، ولا يزالون يلجؤون إلينا إلى الآن بصفتنا "وسيطاً نزيهاً" و"راعياً للسلام في الشرق الأوسط".

- لا تراهن كثيراً على قلة وعي العرب، وضعف حيلتهم، وهوانهم على زعمائهم، ورضوخهم للأمر الواقع، فهم في قرارة أنفسهم يدركون جيداً أن كل قنبلة تسقط عليهم إنما هي مصدرة من أمريكا، وأن كل رصاصة، وكل دبابة، وكل طائرة حربية إنما صنعت بدولارات أمريكية، أو دفعت أمريكا نفقاتها، فمليارات الدولارات الأمريكية هي التي مكنت الحكومة الإسرائيلية من إرعاب العرب واغتيال كوادرهم على مدى نصف قرن من الزمن.

- لا تتس أننا أنقذنا العرب من كوارث محققة، ولولانا لظلت الكويت محتلة من قبل الجيش العراقي حتى الآن^(١).

- هذا المثال عليك لا معك.

- كيف ذلك؟

(١) ولولاهم (عن طريق تشجيعهم للرئيس العراقي الراحل على لسان سفيرتهم في العراق) لما احتل الجيش العراقي الكويت أصلاً.

- لقد هاجمت إسرائيل لبنان، وقتلت آلاف الأبرياء من أبناء شعبه، ولم تهدد حكومتنا على الإطلاق بقصف تل أبيب في حال امتناعها عن تنفيذ قرارات منظمة الأمم المتحدة، في حين أنها هددت بل قامت بذلك ضد العراق. والمقارنة بين رد الفعل الأمريكي حيال الهجوم العراقي على الكويت والهجوم الإسرائيلي على لبنان توضح ذلك بشكل جيد، وتبين الانحياز الأمريكي التام إلى جانب إسرائيل؛ ففي المراحل الأولى من الهجوم العراقي على الكويت قتل، وعلى أكبر التقديرات مبالغه، ثلاثة آلاف مواطن كويتي، في حين أن إسرائيل قتلت أربعين ألف لبناني منذ بدء هجومها ولحين احتلال لبنان^(١)! العراق رفض تنفيذ قرارات منظمة الأمم المتحدة الداعية إلى سحب قواته من الأراضي الكويتية، وكذلك فعلت إسرائيل، ولكن لمدة ١٨ عاماً دون أي تحرك أمريكي أو دولي فعلي، إلى أن غادرت لبنان عندما اقتضت مصالحها ذلك. العراق انتهك الاتفاقيات والمعاهدات الدولية الخاصة بالأسلحة الكيماوية والبيولوجية، وكذلك إسرائيل وبشكل أوسع؛ فقد امتلكت ترسانات كيماوية وبيولوجية ضخمة بل نووية. العراق رفض السماح للمنظمة الدولية بتفتيش منشآته (النووية) والبيولوجية والكيماوية^(٢) وقصف لمرات عديدة بسبب ذلك، وفي المقابل فإن إسرائيل كانت ترفض السماح لمفتشي المنظمة الدولية بتفتيش منشآتها ومازالت! وكيف كان الرد الأمريكي على هذه الانتهاكات والجرائم؟ لقد تمثل بإرسال مزيد من مليارات الدولارات الإضافية إلى تل أبيب!!! فالسياسة الخارجية الأمريكية كانت السياسة الإسرائيلية

(١) قتل في حرب "تحرير" الكويت أكثر من خمسين ألف عراقي وهم ينسحبون في اتجاه العراق. المخزي في الأمر هو أن كثيراً منهم "أبيدوا" بواسطة القوات المتحالفة بعد أن استسلموا لها فعلاً.
(٢) لاحقاً خضع العراق فعلاً لشروط التفتيش المذلة، ولم يجد المفتشون شيئاً. ولكن ذلك لم ينقذه من مصيره الذي خططت له إسرائيل وأساطين الصهيونية العالمية.

نفسها، وما زالت. الإدارة الأمريكية لم تقطع مساعداتها عن إسرائيل عندما كانت تقتل آلاف الأبرياء اللبنانيين، في حين فرضت الحظر الاقتصادي على العراق الذي كان في يوم من الأيام من حلفاء أمريكا الأقوياء. في واقع الأمر إن أمريكا كانت تدعم صدام حسين في حربه ضد إيران^(١)، وإن العراق لم يقم بأي عمل ضد الولايات المتحدة، إلا أنه بعد أن تحول إلى عدو لإسرائيل، يكون قد ارتكب خطأ كبيراً وخطيراً، وعلى هذا الأساس جعل اليهود ووسائل الإعلام والبيروقراطيون الخاضعون لهيمنة اليهود، صديقنا وحليفنا السابق صدام حسين عدواً لدوداً لنا! وخلال عدة أسابيع، ألقينا على العراق كميات كبيرة من القنابل تفوق ما استخدم خلال الحرب العالمية الثانية، وقتلنا مئات الآلاف من العراقيين بينهم عشرات الآلاف من المدنيين، ثم فرضنا حظراً اقتصادياً على العراق صادقت عليه المنظمة الدولية أيضاً، وأدى حتى الآن^(٢) إلى وفاة مليون و٢٠٠ ألف طفل والآلاف من المسنين. فلتفكر أنت وبقية أولئك الأمريكيين الذين لم يفهموا بعد في هذا السؤال وهو لماذا الإرهاب؟؟ ولماذا يكرهنا الآخرون؟؟ فلتفكروا بعمق في هذه الحقيقة المروعة: مليون و٢٠٠ ألف ماتوا حتى الآن من جراء سياساتنا ضد العراق.

- ربما كنت محقاً، ولكن لن ينظر أحد إلى الموضوع من هذه الجهة.

- بعض الأمريكيين الذين يقرؤون مقالاتي لا يصدقون ذلك، لا يصدقون أن أمريكا تعمدت قتل مئات آلاف من الأطفال.

- لأن الأمر ليس تماماً كما تصفه.

(١) هذا في العلن. أما ما تكشف لاحقاً في فضيحة "إيران غيت" وغيرها، فهو أن الولايات المتحدة وإسرائيل كانتا تدعمان إيران بنفس الوقت.

(٢) وقت كتابته للمقال.

- إذن فلأستشهد بمقطع مما قالته وزيرة خارجيتنا، التي اكتشفت فجأة أنها منحدره من أصل يهودي^(١)، الآنسة^(٢) "مادلين أولبرايت" لمراسلة سي-بي-إس السيدة "لزلي أستال" في الحادي عشر من أيار/مايو عام ١٩٩٦. فقد وجهت تلك المراسلة السؤال التالي للسيدة أولبرايت: "سمعنا أن نصف مليون طفل عراقي توفوا حتى الآن، وهذا العدد يفوق بكثير عدد الأطفال الذين ماتوا في هيروشيما، وأنت تعلمين بذلك، فهل يستحقون هذا؟" فأجابت مادلين أولبرايت: "أنا أعتقد أن الخيار صعب للغاية، ولكن هل يستحقون ذلك أم لا، نعم أنا أعتقد أنهم يستحقون ذلك". وبعد كل هذا، فهل يتعجب الأمريكيون من كره الآخرين لهم إلى هذا الحد!!!!

أطرق فيكتور مفكراً برد مناسب على منطوق ديفيد، إلا أنه ما لبث أن قال مستسلماً وهو يشعر بالعجز:

- أنا مشوش فعلاً، فلم أنظر إلى هذا الأمر من ذلك الجانب مطلقاً.

- إن اللوبي اليهودي ووسائل الإعلام العاملة تحت إشراف اليهود، تبذل قصارى جهدها لتحويل دون أن تدرك أنت أو أي أحد من الشعب الأمريكي، وبشكل كامل، السبب الحقيقي لحربنا ضد العراق، أو حتى واقع القضية الفلسطينية. إنهم حقاً لا يرغبون بأن يعرف الشعب الأمريكي لماذا الملايين من أبناء الشعوب العربية يكرهوننا وحاقدون علينا، ولماذا يزداد عدد الحاقدين علينا يوماً بعد آخر. إنهم لا يريدون أن ندرك الأسباب الحقيقية وراء كراهية الأمريكيين في الشرق الأوسط لأن مسؤولي السياسة الخارجية الأمريكية المنحدرين من أصل يهودي وربائبهم يتحملون مسؤولية تزايد الحقد على أمريكا. تصوروا إلى أي حد وصل حجم الحقد والغضب على

(١) جاء هذا الاكتشاف المثير بعد توليها لمنصب وزيرة الخارجية، وصرحت أنها أطلعت الرئيس كليتتون على ذلك، وأنه "شجعها" على مواصلة البحث في أصول شجرة عائلتها!!!

(٢) مادلين أولبرايت غير متزوجة، وكثيراً ما انتقدت الصحافة (الغربية طبعاً، فصحافتنا لا تجرؤ أصلاً) التي تلقيها بالآنسة، مطالبة بالاستعاضة عن آنسة بدكتورة.

الولايات المتحدة، بحيث يتطوع البعض للتضحية بنفسه من أجل الانتقام منا. الزعماء الصهاينة يعلمون جيداً أن دعم أمريكا للسياسات العدوانية الإسرائيلية هو سبب ظهور الغضب والحقد على أمريكا وتناميهما، وهم يدركون جيداً بأن القصف وإثارة الحروب ضد الشعوب من أجل حفظ مصالح إسرائيل، يؤدي إلى إيجاد أعداء متطرفين لأمريكا، أعداء يسعون إلى الانتقام وإراقة دماء الأمريكيين^(١).

(١) إلى هنا ينتهي مقال السيناتور الأمريكي السابق الدكتور ديفيد ديوك، وما يتبع ذلك على لسان ديفيد كويد ليس له أي علاقة مباشرة بأراء ديفيد ديوك الحقيقي.

◀ من يجرو على الاعتراف؟

كان أبراهام ينصت بانبهار شديد إلى د.كويد. فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى بها سيناتوراً أمريكياً رفيعاً غير منخدع بالدعاية الصهيونية، ويتحدث بمثل هذه الجرأة عن اللوبي اليهودي. وخيل إليه أن لديه أكثر من ذلك بكثير ليضيفه حول خطر اليهودية العالمية، فيما لو أتاحت له الفرصة المناسبة ليعبر عما يجول بخاطره دون موارد أو تلميح، فتدخل بالحوار ممهداً الجو لذلك:

- ربما كان د.كويد محقاً فيما ذهب إليه، وما يؤكد ذلك أيضاً أن الولايات المتحدة لم تحقق على أرض الواقع أي مصلحة تذكر من تلك الحروب؛ فهي لم تثبت قدرة حقيقية على فرض النفوذ، ولم تحقق الأمن التام لسكانها، ولم تستطع حتى أن تدخل نفط العراق ضمن خانة الممتلكات للشركات الأمريكية، بل إن تكاليف هذه المغامرات أثقلت كاهلها بمزيد من الأعباء، والأخطر من هذا كله أنها أدخلتها في حلقة الاستقراض، والتي ستفوق بها أكثر في ظل الأزمة المالية الحالية التي أثرت على قدرتها الإنتاجية والإنفاقية، مما يدفعها إلى المزيد من القروض في ظل ركود اقتصادي، ومن ثم تحدُّ من استقلال قرارها.

- أي هذيان هذا؟ فلا شيء في العالم يمكنه أن يحد من استقلالية قرار الولايات المتحدة.

رد فيكتور معترضاً، فأجابه أبراهام بهدوء:

- كيف ذلك وقد أصبحت الصين، بالإضافة إلى أرباب المال اليهود، شريكاً أساسياً في قيادة اقتصاد الولايات المتحدة وتحديد مستقبلها، تماماً كما كانت الولايات المتحدة

بالنسبة إلى بريطانيا بعد نهاية الحربين العالميتين وبالذات بعد "مشروع مارشال"؟ فالاستثمارات الصينية في الولايات المتحدة يصل حجمها إلى ست مئة مليار دولار، وللصين أيضاً مبلغ مماثل في سندات الخزينة الأمريكية. ومن ثم فإن هذه الشراكة الصينية الأمريكية تعني نهاية استقلال القرار الأمريكي على المدى القصير لا المتوسط أو البعيد، إذ إن الولايات المتحدة اليوم أمام الصين، هي كبريطانيا العظمى أمام الولايات المتحدة بعد الحربين العالميتين^(١)، ولا تتس أن أكثر من مسؤول أوروبي وغير أوروبي قد صرح جهاراً أنه لا يجوز بعد اليوم ترك قيادة الاقتصاد العالمي بيد الولايات المتحدة؛ فقد باتت نهاية الإمبراطورية المالية وشيكة.

- أنت تبالغ كثيراً.

(١) كتب أستاذ تاريخ الاقتصاد البريطاني المعروف بجامعة هارفرد "نيال فيرجسون" في آب/أغسطس ٢٠٠٩ مقالاً بعنوان "تشايركا نتجه للطلاق" ومصطلح تشايركا قام كل من فيرجسون وموريتز شولاريك بنحته للدلالة على العلاقة الخاصة التي جمعت بين كل من الصين والولايات المتحدة، حيث يجمع المصطلح بين لفظي الصين وأمريكا باللغة الإنجليزية. الصين التي تملك احتياطات أجنبية تقدر بنحو ترليون دولار وضعت ما يقارب من ٧٠٪ من هذه الاحتياطات في سندات وأوراق مالية أمريكية ذات أسعار فائدة متدنية وعلى مدى طويل. ويرى فيرجسون أن هذا التمويل الصيني الرخيص للعجز الأمريكي هو ما تسبب في بروز فقاعة سوق العقار الأمريكي وما نراه من أزمة مالية عالمية، ولكنه في المقابل يرى وجود مؤشرات على نهاية شهر العسل بين الصين وأمريكا وربما توجه الاثنان نحو الطلاق نظراً لبدايات بناء استراتيجية تنافس بين الاثنین عوضاً عن التعاون. ومن ثم يطرح فيرجسون فكرة الخيار الآخر للصين وهو ما أسماه "خيار الإمبراطورية" وهو أن تقوم الصين بالتحول إلى قوة عالمية معتمدة على اقتصادها الذاتي، وقد بدأت إرهابات هذا الأمر في بروز القوة البحرية الصينية ودخول الصين للاستثمار بقوة في إفريقيا، وهو ما اعتبره فيرجسون حملة للقيام بشراء أصول أجنبية كالمناجم بدلاً من "الدولار المراوغ"، ولكن التحول الأهم الذي يجب أن تشهده الصين هو تحول اقتصادها نحو الاستهلاك فتستعيز بسوقها عن سوق الولايات المتحدة، وهذا الأمر بحد ذاته هو ما سوف يؤكد الطلاق بين الاثنین بلا رجعة. ويرى فيرجسون أن تأثير هذا الأمر على ساحة العلاقات الدولية كبير جداً، فهو يسترجع حقبة الخصومة والعداء والتنافس بين بريطانيا وألمانيا في مطلع القرن العشرين بوجود أمريكا في موقع بريطانيا والصين في موقع ألمانيا.



- كلا، بتاتاً، وسترى أن هذا الضعف الاقتصادي والعجز في المداخل سيؤديان إلى انسحاب سريع، وغير منظم، من العراق، تتبعه هزيمة مدوية في أفغانستان. والقرار هنا وفي كلتا الجبهتين لا يعود إلى مزاج الولايات المتحدة وفضنتها وإدراكها لوضعها الصعب، بل إلى وجود قرارات إقليمية ودولية ومصالح استراتيجية لدول عدة قررت إخراج الولايات المتحدة مطرودة من العراق ومهزومة في أفغانستان.

- هذه صورة قاتمة للأوضاع، لا أظن أنها ستجد طريقها للتظهير.

فرد ديفيد بحسرة:

- أخشى أنك متفائل أكثر من اللازم يا صديقي. فالإفلاس الداخلي في الولايات المتحدة لن ينتظر تظهير هذه الصورة، بل بدأ اليوم يقرع الأبواب، والأزمة انتقلت من المصارف والعقارات وسوق الأسهم إلى سوق العمل والقدرة الإنتاجية وحجم الضرائب الجببة من الأفراد والشركات. ألا تعلم أن العديد من الولايات قد قدمت لموظفيها عروضاً بالقبول بدفع رواتب بنسبة أقل مما يستحقون بسبب العجز، على أن تسحب هذه الحسومات من مرتباتهم ساعات عمل إضافية تحسب لمصلحتهم عند التقاعد؟ وهذا يذكرنا بأوضاع الاتحاد السوفييتي عندما عجز عن دفع رواتب موظفي الدولة. كما كتب حاكم ولاية كاليفورنيا الممثل الشهير "أرنولد شوارزنيغر" مدير الاحتياط الفدرالي يطلب المساعدة والإنقاذ، لأن خزانة الولاية الأغنى في الولايات المتحدة خالية، والولاية غير قادرة على دفع مرتبات الموظفين لهذا الشهر، ولو تأخر الاحتياط الفدرالي عن نجدة هذه الولاية التي دقت ناقوس الخطر قبل مثيلاتها التي تعيش الضائقة نفسها، فالنتيجة ستكون أن الملايين من الموظفين سيصبحون عاطلين عن العمل وبدون مداخل، كما ذكرت صحيفة "يو إس نيوز"^(١).

(١) في الثاني عشر من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨ م.

- هذا نتيجة الكوارث الطبيعية التي لحقت بكاليفورنيا مؤخراً، وليس لذلك علاقة بموضوعنا .

- بل له كل العلاقة: فكل دولار يدفع من الطبقة الغنية ومن الولاية الغنية يحصل على أقل من أربعين سنتاً من الحكومة الفدرالية والحكومة المحلية. وفي المقابل فإن كل فقير يدفع دولاراً واحداً للضرائب يأخذ مقابله أربعة عشر دولاراً كمساعدات! وهذا يؤكد بالمحصلة أن بعض الولايات المتحدة تدفع للحكومة الفدرالية ضرائب تساعد في دفع عجلة الإنفاق الفدرالي، في حين أن ولايات ضعيفة تأخذ مساعدات مضاعفة نتيجة ضعفها الضريبي.

- لكن الأمور تسير بهذا الشكل في كثير من دول العالم.

- هذا في حال الرخاء والاسترخاء، أما في حال الضائقة والعسر كما يحدث حالياً مع كاليفورنيا مثلاً، فإن بعض الولايات ستطالب بالاحتفاظ بكمية أكبر من الضرائب المجبية في أسواقها لحاجتها إليها كأولوية، في حين أن الولايات الفقيرة ستقع في العجز والعوز^(١)، والتاريخ مليء بالأمثلة عن تفكك الدول نتيجة ضعف المركز والتفاوت الاقتصادي بين الأطراف المكونة للوحدة السياسية لأي دولة. نتيجة تلك الحتمية هي طلب الاستقلال، أو بالحد الأدنى تغيير قواعد اللعبة الذي يؤدي أيضاً وحتماً إلى أزمات سياسية اجتماعية تجر الأزمات الأمنية الكبيرة وتخرج جغرافية سياسية جديدة.

- كل هذا لأننا نمر بأزمة مالية!!! أنت تعلم أننا قد مررنا سنة ١٩٢٩ بأزمة اقتصادية أكثر شراسة من الأزمة الحالية، ابتدأت بانهيار بورصة وول ستريت^(٢) وتواصلت الانهيارات للمصارف والشركات الكبرى بشكل كارثي. ومع كل ذلك، فبمجرد

(١) يعد اقتصاد كاليفورنيا هو السابع في العالم من حيث القوة، ولكنها تعاني حالياً عجزاً هائلاً لأسباب كثيرة، من أهمها أن الحكومة المركزية تستولي على الكثير من عائداتها. وبعبارة أخرى فإن كاليفورنيا يمكن أن تكون دولة غنية جداً فيما لو كانت دولة مستقلة.

(٢) وهي ما يعرف بـ"الخميس الأسود".

وصول الرئيس "روزفلت" إلى سدة الحكم^(١) استطاع أن يضع سياسة أخرجت البلاد من الأزمة واستطاع القضاء على الكساد الاقتصادي. إذن فلننتظر ونتريث بعض الوقت حتى نرى ماذا سيفعل أوباما .

- أنا أريد فعلاً أن أكون متفائلاً بنيات أوباما وقدراته، غير أن أحداثاً في واشنطن خلال الفترة الأخيرة، وأخباراً وتطورات جعلتني أرجح أنه سيفشل للأسف^(٢)، فهو ليس عنصر أمان في هذه الأزمة، بل ربما على العكس تماماً، وقد رصدت أجهزة الأمن الأمريكية منذ انتخابه تزايداً ملحوظاً في نشاطات الجماعات العنصرية^(٣)،

(١) سنة ١٩٣٢ م .

(٢) لا ينطبق هذا الأمر على الاقتصاد فحسب، بل على السياسة أيضاً، وبالذات تجاه الوعود التي أسرف أوباما بتوزيعها على العالم الإسلامي . ففي برنامج أجندة مفتوحة بتاريخ ٤ حزيران/ يونيو ٢٠١٠ على قناة ال"بي بي سي" ، تناول تقييم أول عام على حكم أوباما للولايات المتحدة وخطابه في القاهرة، قال الكاتب الصحفي "فهمي هويدي" أن الرئيس الأمريكي باراك أوباما، "عبر عن مشاعر طيبة ولكنه لا يملك قراراً وليس أمامه إلا أن ينصاع لإسرائيل" ، مضيفاً: "أنا أتعاطف معه كرجل طيب، ولكنني أستخفه كرئيس دولة" . ومن جانبها، دافعت المتحدثة باسم الخارجية الأمريكية ومديرة مركز التواصل الإعلامي بالسفارة الأمريكية في لندن "كاترين فان دي فيت" عن رئيسها قائلة: "أعتقد أننا بدأنا بداية جيدة وجديدة، وأوباما لم يعد بأنه سيحل مشاكل العالم وإنما قال لابد أن نتعاون معاً، وهناك إنجازات تحققت خلال هذا العام" ، واعترفت بأن "الولايات المتحدة لا تمسك بعضاً سحرية لحل المشكلة بين طرفي الصراع، ولكننا أكدنا أن الاستيطان الإسرائيلي غير مقبول" . فما كان من هويدي إلا أن رد عليها قائلاً: "أنا متعاطف معها لأنها مضطرة أن تدافع عن أكبر فشل شديد في عهد الرئيس أوباما، وما حدث هو أن أخرجت إسرائيل لسانها لأوباما ونائبه وأعلنت في ثاني يوم اعترامها بناء ١٦٠٠ وحدة استيطانية جديدة، ومنذ أيام لم تستطع الوقوف ضد جريمة (أسطول الحرية) ارتكبت في المياه الدولية" .

(٣) في ولاية كارولينا الشمالية كتب أربعة طلاب عبارة: "لنطلق الرصاص على هذا الزنجي في رأسه" ، وعبارة: "علقوا أوباما من أنفه" . وفي ماين، تم تعليق مجسمات لشخصيات أمريكية من أصل إفريقي من أنوفها في شجرة، كما لجأ بعض التلاميذ إلى استخدام لغة عنصرية في الصف احتجاجاً على انتخاب أول رئيس من أصل إفريقي . كما قام بعض الموظفين بتعليق العلم الأمريكي بالمقلوب فوق شركاتهم، كتعبير عن الأسى على وصول "هذا الزنجي" إلى البيت الأبيض، على حد تعبيرهم . وآخرون قاموا برسم صلبان معقوفة وتعابير عنصرية على عدد من المنازل والسيارات التي يملكها أمريكيون سود، ومنها عبارة "عد إلى إفريقيا" .

وتعالت أصوات منظمات كثيرة مطالبة بانفصال الولايات الجنوبية، وهو مطلب قديم تم إحياءه، وانتقل بالعدوى إلى ولايات أخرى تقول بعض التقارير بأن عددها يصل إلى ٣١ ولاية^(١)، والمواقع الإلكترونية لتلك المنظمات، وإعلاناتها في الصحف المحلية كذلك تدعو إلى تجنيد الجنود الأمريكيين الذين تركوا الخدمة بعد عودتهم من العراق وأفغانستان في حملتهم^(٢)، وبعد تزايد الحوادث العنصرية في عدد من الولايات، وبشكل خاص ميتشيغان وبنسلفانيا وآلاباما وماين وكاليفورنيا، بات التحريض على الكراهية ضمن اختصاص مكتب التحقيقات الفيدرالي "إف.بي.أي" باعتباره أصبح "جريمة فيدرالية".

- بغض النظر عن هؤلاء الفوغاء، فإن آخر استطلاعات الرأي تظهر أن ٥٩ في المئة من الشعب الأمريكي راضون عن أداء الرئيس أوباما^(٣)، وأنا شخصياً أعتقد أنه

(١) بالنسبة إلى الكثيرين "لا تبدو فكرة الانفصال أمراً جنونياً"، بحسب "مايكل توجلي"، وهو مدون في "حلف الجنوب"، وهي جماعة عنصرية من البيض تدعو إلى الانفصال عن الولايات الشمالية. وأضاف توجلي: إن "الناس يتحدثون عن كيفية شعورهم بالخسارة. إنهم يشعرون أن شيئاً غريباً ومتطرفاً استولى على بلادهم". وتقول الجماعة: إن "أعداد من سجلوا أنفسهم في موقع الجماعة على شبكة الإنترنت ارتفعت من ٥٠ ألفاً إلى ٣٠٠ ألف بعد انتخاب أوباما".

(٢) هؤلاء الجنود بمهاراتهم القتالية وخبرتهم في مجال استخدام السلاح، قد يقعون فريسة للجماعات التي تسعى لتنفيذ "هجمات إرهابية" على الحكومة الفدرالية. وبالذات في حال فشل هؤلاء الجنود في إيجاد وظيفة أو الاندماج في المجتمع المدني، وهو ما يحدث فعلاً. حيث كشفت تقارير متعلقة بوضع هؤلاء الجنود، أن نسبة ٤٠ في المئة منهم، إما انضموا إلى ملايين المشردين في مختلف الولايات الأمريكية، أو أصبحوا جزءاً مهماً في تشكيلات العصابات العاملة في مجال المخدرات والجريمة المنظمة، خاصة أن الكثيرين منهم، مدمنون على المخدرات، ولا يرون ضيراً في ممارسة العنف المبالغ فيه بعد اشتراكهم في تلك الحروب القذرة التي فاحت رائحة فضائحتها (كصور سجن أبو غريب مثلاً) في كل مكان.

(٣) ذلك حسب مركز أبحاث "بيو" للشعوب والصحافة. ولكن هذا يدل على أن شعبية الرئيس باراك أوباما قد انخفضت مقارنة بنسبة ٦٧٪ فور تسلمه مهام منصبه في شباط/فبراير. ولاحقاً كشف استطلاع للرأي أجرته شبكة "سي. إن. إن." الإخبارية الأمريكية ومعهد "ريسرس كوربوريشن" في ١١ / ٧ / ٢٠٠٩ =

سينجح في تجاوز الأزمة المالية كما نجح روزفلت من قبله.

- لكن هذه الأزمة تختلف تماماً عن سابقتها في التاريخ، لأنها أزمة جيوسياسية تأتي في ظل العولمة ونظام مالي واقتصادي عالمي غاية في الشعب، ولا يمكن حصر ثغراته وأمراضه المستعصية بسهولة، وهي أخطر من سابقتها وتتعدى حتى أزمة ١٩٢٩ بكل المقاييس؛ ففي ذلك الوقت كانت اقتصاديات أوروبا والولايات المتحدة اقتصاديات صناعية زراعية قوية، أما اليوم فإن الولايات المتحدة تقود أوروبا في عملية تحول انتحارية نحو المجتمع "ما بعد الصناعي" الذي تتم المحافظة عليه بوسائل السيطرة الاجتماعية عن طريق الترفيه الذي يوصف بـ"الخبز والسيرك". في الثلاثينيات هرب مواطنونا إلى مزارعهم العائلية للحصول على الغذاء، وقام الرئيس روزفلت وقتها بإعادة فتح المرافق الصناعية المغلقة التي كانت لا تزال موجودة. لكن صمامات الأمان الاقتصادية الفيزيائية (المادية المحسوسة) غير موجودة اليوم بالمستوى السابق نفسه.

فتدخل أبراهام مرة أخرى قائلاً:

- أتفق مع د. كيود في هذه النقطة أيضاً، وأضيف إليها أن اندلاع الحرب العالمية الثانية كان طوق النجاة الذي انتشل أمريكا من هاوية الانهيار والركود زمن روزفلت.

= عن تراجع شعبية الرئيس إلى ١٦ ٪. ولم يكذب ينتهي النصف الأول من أولى سنوات ولايته، وعلقت صحيفة "يو إس إي توداي" أن شعبية الرئيس الأمريكي باراك أوباما بعد مرور ستة أشهر على بدء ولايته الرئاسية، هي أقل من شعبية سلفه جورج بوش في الفترة نفسها أي بعد ستة أشهر على بدء ولايته الأولى. ثم تراجع مؤشرات دعم الرئيس الأمريكي باراك أوباما إلى أقل من ٥٠ بالمئة من نحو ٧٠ بالمئة وفق استطلاعات للرأي، وذلك بعد ١٥ شهراً من توليه منصب الرئاسة، مع أن ٩٠ ٪ من الناخبين السود ما زالوا يوافقون على سجله كما قالت مؤسسة غالوب. حتى بعد إقرار الكونغرس الأمريكي لمشروع أوباما في إصلاح التأمين الصحي، أفاد استطلاع للرأي نشرت نتائجه الخميس، ٢٥ آذار/ مارس ٢٠١٠ أن ذلك لم يؤدِّ إلى وقف المنحى الانحداري في شعبية الرئيس باراك أوباما، التي بلغت أدنى مستوياتها بحصوله على تأييد ٤٥ ٪ من الأمريكيين مقابل ٤٦ ٪ من المعارضين له.

فمع نشوب الحرب تزايد الطلب على الأسلحة الأمريكية من معسكر الحلفاء، ولكن الأمر معكوس الآن؛ فالولايات المتحدة نفسها متورطة في حروب على جبهات متعددة، والرئيس الجديد أوباما لا يملك عصا سحرية، وربما سيعلن في العام المقبل، أو الذي يليه، عدم قدرة إدارته على مواجهة الأزمة الكارثية^(١).

(١) في ١٩/١١/٢٠٠٩ كتب "جيسون ديبارل" من واشنطن قائلاً: لقد أعلنت وزارة الزراعة الأمريكية يوم الاثنين ارتفاع عدد الأمريكيين الذين لا يحصلون على ما يكفيهم من الطعام إلى ٤٩ مليون شخص، وهو أعلى معدل منذ أن بدأت الحكومة رصد ما أطلقت عليه "الافتقار إلى الأمن الغذائي" قبل ١٤ عاماً. وجاءت تلك الزيادة التي تبلغ نحو ١٣ مليون أمريكي أكبر بكثير من تقديرات أكثر المراقبين تشاؤماً فيما يتعلق بمعدلات الجوع. كما ألفت تلك التقديرات الضوء على المصاعب اليومية التي نتجت عن تأثير الأزمة المالية على الوظائف والأجور. ويعاني نحو ثلث هذه الأسر ما يطلق عليه الباحثون "الأمن الغذائي المنخفض للغاية"، مما يعني أن أفراد تلك الأسر ليس لديها ما يكفي من المال، مما يضطرها إلى التخلي عن تناول بعض الوجبات أو تقليل كمية الوجبة أو الامتناع عن الطعام في بعض الفترات خلال العام. أما الثلثان المتبقيان فلديهما ما يكفيهما من الطعام، ولكن من خلال تناول أطعمة أرخص وأقل تنوعاً، أو من خلال الاعتماد على المساعدات الحكومية مثل برنامج طوابع الغذاء (البطاقات التموينية)، أو زيارة مصارف الطعام، أو مقرات المنظمات التي تقدم الطعام للفقراء مجاناً. ويقول "توم فلساك" وزير الزراعة: "إن هذه الأرقام تمثل صيحة تحذيرية للدولة". وقد أثار عدد الأسر، الذي يبلغ ٥٠٦ آلاف أسرة يواجه فيها الأطفال "انخفاضاً شديداً للأمن الغذائي"، انتباه المسؤولين مقارنة بعددهم في العام الماضي، الذي كان يبلغ ٣٢٣ ألفاً. وقد أصدر الرئيس أوباما الذي تعهد بإنهاء معاناة الأطفال من الجوع بنهاية ٢٠١٥ تصريحاً خلال سفره إلى آسيا وصف فيه تلك النتائج بأنها "مزعجة للغاية". ومع أن الباحثين في وزارة الزراعة الأمريكية لا يستخدمون كلمة "جوع"، فإن أوباما قد استخدمها حيث قال: "لقد ارتفعت معدلات الجوع إلى حد كبير خلال العام الماضي". . . . وقد تزايد الاعتماد على طوابع الطعام حتى وصل إلى مستويات قياسية؛ حيث يحصل حالياً نحو ٣٦ مليون أمريكي على المعونات بزيادة قدرها ٤٠ في المئة على عددهم قبل عامين. وكان قانون التعافي الاقتصادي وإعادة الاستثمار الذي تمت الموافقة عليه خلال الشتاء الماضي قد سمح بزيادة قيمة طوابع الطعام الشهرية لكل شخص بنسبة ١٧٪ لتصل إلى ما قيمته ١٣٣ دولاراً أمريكياً. وقد حاولت العديد من الولايات الأمريكية تسهيل إجراءات التسجيل للحصول على تلك المعونة، ولكن تزايد عدد الطلبات المقدمة، بالإضافة إلى تخفيض أجور العاملين، أدى إلى تأخير حصول البعض على الإعانة.

- لماذا تظن ذلك^(١)؟

- لأن أوباما يفتقر إلى المعرفة والإصرار الاستراتيجي الذي يمكن أن يأتي فقط من تفهم للاقتصاد، وهو فهم يفتقر إليه افتقاراً شديداً، ومن ثم سيكون أسيراً لشبكة مستشاريه الماليين حالياً. وفي مثل هذه الظروف سيتحول أوباما إلى "ساعي مكتب" (أذن أو فراش) في الرئاسة تحت سيطرة جناح من الأوليغاركيين الماليين الذين يمثلون اليوم أولئك الأوليغاركيين الذين جاؤوا بالفاشية إلى أوروبا في الأعوام ١٩٢٢-١٩٤٥ وأنتجوا الحرب العالمية الثانية.

(١) رغم ما أوردناه في الهامش السابق عن الجوعى في الولايات المتحدة، فإنه من المضحك المبكي أن تعلن الصحف الأمريكية أن تكاليف تربية الحيوانات الأليفة عام ٢٠٠٩ قد بلغت نحو ٤٠ بليون دولار (مقارنة بـ ١٧ بليون دولار سنة ١٩٩٥)، فالقط الأمريكي المدلل يكلف صاحبه أو صاحبه قرابة ٥٠٠٠ دولار في الشهر، أي ما يزيد على دخل الفرد في نحو ١٥٠ بلداً في العالم (الحد الأدنى ١٢٥٠ دولاراً) تشمل الطعام والطبابة والتزيين والتدريب واللباس والهدايا! وهو ما لا يحصل عليه مواطنون كثيرون، (بعض سكان نيويورك لا يزال ينفق ١٥ ألف دولار في السنة) هذا غير أجور مرافقي القطة أو الكلاب في الزهات اليومية بمعدل ١٥ دولاراً في اليوم خمس مرات في الأسبوع ١٥٠ أسبوعاً في السنة. كما تكلف الطبابة لها قرابة ٧ بلايين دولار في السنة، يضاف إليها علاجها من الأمراض المزمنة والجراحة واستبدال المفاصل وطب الأسنان والقلع وحفر قنوات الأسنان وتركيب أسنان صناعية، وعمليات إزالة المياه الزرقاء. هذا غير "تثقيف" القطة أو الكلاب على أيدي علماء نفس مختصين!! وأعجب من ذلك وأحزنه الأموال التي تصرف على مواسم الأزياء للحيوانات الأليفة، (ذكرت صحيفة "شيكاغو تريبيون" أن مخازن "ول-مارت" التي تعد أكبر شركات البيع بالتجزئة حققت أرباحاً كبيرة من وراء بيع ملابس الحيوانات المنزلية ومنها ثوب "الكلب دراكولا"، وملابس تظهرها على شكل الشياطين والساحرات والأميرات وما شابه) والمعارض وتبادل بطاقات المعايدة، والمقابر ومراسيم الدفن الخاصة. (قد يكلف مثلاً دفن قطة في هوليوود نحو ٢٠٠٠ دولار، ويختار لها أصحابها الركن الهادئ في المقبرة بـ ١٠٠٠ دولار إضافية، وهناك نعوش خاصة لها أسعار مختلفة). والأمر لا يقتصر على القطة والكلاب، ففي إحصائية ١٩٩٦م عن الحيوانات الأليفة أحصى ٦٣ مليون قطة، و٥٧ مليون كلب، و٧٠ مليون سمكة في نحو ١٢ مليون حوض سمك منزلي، و٨ ملايين طائر، و٧ ملايين من الزواحف مثل الأفاعي، و٧ ملايين من القوارض مثل جردان الزينة.

- إلام تلمح؟

- إلى سبب آخر لانهايار أمريكا، وهو التسلط الكامل لأولئك الأوليجاركيين عليها. فبسبب طمعهم وجشعهم اللامتاهي انهارت الكثير من الإمبراطوريات السابقة وقامت الكثير من الحروب.

لمعت عينا د.كويد بدهشة، فقال فيكتور موضحاً:

- لقد كان أبراهام يحدثني قبل قدومك عن تبتؤ بعض المتوهمين بتفكك الولايات المتحدة، وهو الآن يتابع سرد أدلته على ذلك، ولكن ما يدهشني فعلاً هو ترديده لتلك الأسطوانة المشروخة عن الأوليجاركيين وتسلطهم على مجريات الأمور حسب زعم المؤمنين بنظرية المؤامرة. ولو لم يكن يهودياً، لظننته يعني أرباب المال اليهود وما يقال عن اليد الخفية أو الحكومة اليهودية العالمية.

تهدد أبراهام بارتياح، لنجاح خطته، ثم قال بلامبالاة:

- ربما كنت أعني ذلك فعلاً في حقيقة الأمر. ولكن بغض النظر عن أسماء هذه المجموعة المصرفية الدولية أو هويتها، فإنها موجودة بشكل لا يحتمل الشك أو التأويل، والبعض ينسبها حالياً إلى بقايا النازيين.

- يبدو أن الخيال قد شطَّ بك بعيداً واختلطت عليك الأمور. فما علاقة بقايا

النازيين بالولايات المتحدة!!!

- علاقة قديمة ابتدأت مع شخصيات أمريكية شهيرة مثل "ألان دالس"^(١)، وأخوه "جون فوستر دالس"^(٢)، و"جيمس جيسوس أنجلتون"^(٣)؛ الذين أحضروا خلال الفترة بين عامي ١٩٤٥-١٩٤٤ بعض العناصر المختارة من جهاز الإس إس النازي، وذلك كي

(١) كان رئيس المخابرات الأمريكية.

(٢) كان وزير الخارجية.

(٣) كان مسؤول الاستخبارات المضادة في المخابرات الأمريكية.

تصبح جزءاً من منظومة المخابرات البريطانية الأمريكية التي بنيت بعد الحرب العالمية الثانية حول الجناح المسمى بالجناح الطوباوي الأنجلوأمريكي.

- من تعني؟

- "يامار شاخت" وزير مالية هتلر، و"جورينج" وزير الدفاع والطيران النازي، والجنرال النازي "والتر شيللينبيرج" و"أوتو سكورتسيني" الذين أرسوا دعائم الاقتصاد الرأسمالي الحديث في الولايات المتحدة وأوروبا.

- كان ذلك بهدف مناهضة الشيوعية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

- ولكن ذلك "النظام العالمي الجديد" استمر حتى بعد انهيار الشيوعية، وازدهر أيضاً، خاصة في الحقتين البوشيتين. فلو تمعن في خلفيات أعضاء إدارتي الرئيسين السابقين بوش الأب والابن لوجدتهم في واقع الأمر نتوءات منحلة بشدة لتلك المنظومة العالمية التي تم إدخالها إلى مؤسسة الاستخبارات الأنجلوأمريكية في تلك الفترة. وهم ليسوا أذكفاء، بل هم، كما رأينا في العراق، أغبياء متهورون وجاهلون متخبطون بشكل وحشي.

- كف عن ترديد تفاهات ذلك الشيوعي الحاقد.

- إن مصدري فيما قلته الآن ليس من ذلك البروفسور الروسي أو من سياسي أجنبي آخر، بل من سياسي أمريكي عريق، كان مرشحاً سابقاً لرئاسة الولايات المتحدة عن الحزب الديمقراطي لسنة ٢٠٠٤.

- هل تقصد عضو مجلس الشيوخ "جون كيري"؟!!!

فتدخل د. كويد قائلاً:

- كلا، بل يقصد منافسه من حزبه الديمقراطي "ليندون لاروش" الذي اضطر

في النهاية إلى الانسحاب من سباق الرئاسة لمصلحة كيري^(١)، وهو يقول: "إن مصدر الخطر للحضارة يكمن في تردد الأمم في التوحد لتحطيم هذه الأفعى النازية في جحرها. وإذا تمكنا من الاتفاق على الإجراءات اللازمة لعملية إعادة التنظيم الإفلاسية التي ستفرضها حكومات الدول القومية ذات السيادة على الدوائر المالية الأوليجاركية، فإن الحضارة الإنسانية ستتجو من أسوأ آثار الخطر الحالي لتتحرك نحو الانتعاش الاقتصادي العام. لهذا السبب يعتبر أن التردد في الاتحاد حول مثل هذه الإجراءات هو أكبر مصادر الخطر الفتاك على الحضارة العالمية اليوم، وأن مجرد البدء بمناقشة مثل هذه الحقائق علانية، حتى في هذه المرحلة المتأخرة الخطرة نسبياً، سيكون بحد ذاته خطوة مهمة إلى الأمام".

- هذا تشويه للواقع، فلا شيء اسمه الأفعى النازية في الولايات المتحدة.

- أنا أعرف لاروش جيداً، وهذا ما يدفعني إلى التخمين بأنه ربما كان يعني اليهود فعلاً، ولكن خوفه على مستقبله السياسي جعله يركز على بقايا النازيين الذين استعان بهم اليهود دون غيرهم. ولا تتس سيطرة لوبي إسرائيل، أو عصابة الحرب والشر والجريمة على أجهزة الحكم الأمريكية، خصوصاً الكونغرس.

شعر أبراهام آنذاك أنه قد وصل إلى مبتغاه، ولكن فيكتور عطل عليه فرحته قائلاً للدكتور كويد:

- كف عن ترديد هذه السخافات، فقد مللت من سماعها.

- أعرف أن هذا الكلام يتردد كل يوم، إلا أن تكراره حتى الملل لا يلغي مصداقيته

(١) حدث ذلك مع أنه كان أوفر حظاً من كيري، ولكنه وللأسف كان أطول لساناً. وكما نعرف فقد خسر كيري في مواجهة بوش الابن. وموقع لاروش الإلكتروني (www.larouchepub.com) يحوي بعض الأعداد من مجلة "إكزكتيف إنتلجنس ريفيو" (Executive Intelligence Review) التي خصت الحد الأدنى من الخلفية الضرورية لفهم طبيعة التهديد الموجه من قبل المنظومة المالية العالمية.

الكاملة، وفي كل يوم دليل جديد .

- هات ما عندك؟

- السيناتور "جو ليبرمان" يمثل إسرائيل في مجلس الشيوخ قبل أن يمثل ولاية كونتكت. وقد انتقل هو والسيناتور "أرلن سبكتر" من الحزب الجمهوري إلى الحزب الديمقراطي ليخدم إسرائيل بشكل أفضل بعد سقوط حزب جورج بوش.

- أنت محق بشأن هذين المنافقين.

- ليسا هما فقط؛ فهناك عضو الكونغرس "جين هارمان"، وهي ديمقراطية من كاليفورنيا وإسرائيلية حتى النخاع.

- وأنت محق بشأنها أيضاً؛ فقد سبق التحقيق معها قبل ثلاث سنوات^(١) من قبل مكتب التحقيق الفدرالي ووزارة العدل بعد التنصت على مخابراتها هي واللوبي اليهودي. وخلصتها أن هارمان تريد أن تكون الديمقراطية الأولى في لجنة الاستخبارات في مجلس النواب، وإذا دعمها اللوبي فإنها ستستغل نفوذها مع الإدارة (السابقة) لمساعدة "ستيفن روزن" و"كيث وايسمان" اللذين كانا متهمين بالتجسس في أثناء عملهما في إيباك، وقد وعدها اللوبي بالضغط على رئيسة مجلس النواب "نانسي بيلوسي" لترشيحها، وبتهديد الرئيسة وبعض الأعضاء بقطع التبرعات اليهودية لهم، وذكر تحديداً تبرع جماعات ضغط ديمقراطية والثري اليهودي "حايم سابان" الذي يمول مركز سابان في مؤسسة بروكنغز^(٢).

- هل تعلم لم أوقف وزير العدل "ألبرتو غونزاليس" التحقيق مع هارمان؟

- بسبب الضجة التي ثارت حول موضوع تنصت إدارة بوش على مكالمات

(١) يقصد عام ٢٠٠٦ م.

(٢) وهو الآن برئاسة مارتن إنديك، الذي يحاول القيام بدور في بعض بلادنا العربية.

المواطنين بطريقة غير شرعية.

- ولكن التتصت على هارمان نفسها وجواسيس إسرائيل كان شرعياً، لأن الـ إف بي آي حصلت على إذن من المحكمة لمراقبة المشتبه بهم.

- أجل للأسف. أعرف هذا.

- وذانك الجاسوسان روزن وفايسمان كانا قد تلقيا معلومات سرية من "لاري فرانكلن" الذي كان في حينه محلل سياسة في وزارة الدفاع يعمل لـ"بول وولفوفيتز" و"دوغلاس فايت". وتبين أن فرانكلن سرق من الوزارة ٨٠ وثيقة مصنفة "سرية للغاية". وأعطى معلومات لرجلي إيباك اللذين نقلهاها بدورهما إلى "ناعور غيلون"، رئيس الشؤون السياسية في السفارة الإسرائيلية. وشملت المعلومات تفاصيل عن القوات الأمريكية في العراق والقاعدة، ونشاطاً تخريبياً إيرانياً في كردستان العراق.

- أجل، ولكن عندما ووجه فرانكلن بالتسجيلات اعترف مقابل تخفيف الحكم عليه، وتعاون مع الدولة، وهو يقضي الآن حكماً بسجنه ١٢ سنة وسبعة أشهر، بعد أن أوقع برجلي إيباك فسلمهما معلومات ملفقة أعدها المحققون، وعندما حولا المعلومات إلى الإسرائيليين وقعا في الفخ.

- ومع ذلك فإن أحدهم (روزن) قاد حملة على الدبلوماسي "تشارلز فريمان" لمنعه من رئاسة مجلس المخابرات ونجح مع لوبيه في حمله على سحب ترشيحه، والسبب أن له علاقات طيبة مع المملكة العربية السعودية حيث عمل سفيراً. وقد فعل روزن ذلك وهو نفسه متهم، ليس بعلاقات طيبة مع دولة أخرى، ولكن بالتجسس لحسابها وبالذليل الدامغ.

- أعرف هذا أيضاً.

- وهل تعرف أن محاكمة الجاسوسين أرجئت تسع مرات إلى الآن، وكان يفترض

أن تبدأ في الثاني من الشهر المقبل (تموز/ يوليو ٢٠٠٩)، كآخر موعد لها، إلا أن الادعاء سحب التهم بعد أن قرر القاضي "تي. إس ايليس" أن على الادعاء أن يثبت أن المعلومات التي نقلها الرجلان تضر بالأمن القومي الأمريكي، وهو طلب مستحيل التنفيذ لشموليته البلاد كلها، ما يمنع تقديم أدلة كلها محاط بسرية كاملة. ومرة أخرى، هناك جواسيس وتسجيلات وأدلة دامغة... ثم لا محاكمة، هل تريد زيادة؟ حسناً. ناعور غيلون هو الآن مسؤول كبير في وزارة الخارجية الإسرائيلية أي وزارة افيغور لبيرمان، ومثله "عوزي أرأد" الذي ورد اسمه في التحقيق.

- عزيزي ديفيد، أنت تعرف أنني أتفق معك بشأن سيطرة كثير من اليهود على السياسة هنا، وأن ولاء بعضهم لإسرائيل قبل الولايات المتحدة، وأن قلة منهم يهددون الأمن القومي الأمريكي فعلاً، ويتجسسون على أسرار أمريكا لإسرائيل. ولكن لا تتسبب أننا وإسرائيل نقف في النهاية في خندق واحد، وأن مصالحنا مشتركة.

فقال أبراهام معترضاً:

- لا أظن ذلك؛ فـ "الدكتور لومسكي" قال: "إن سلاح إسرائيل السري ضد الولايات المتحدة بصورة خاصة، وضد العرب بصورة عامة، هو أنها يمكن أن تتصرف كدولة متوحشة خطيرة على جيرانها، قادرة على إحراق حقول النفط أو حتى البدء بحرب نووية". وعندما هددت إسرائيل باستخدام الأسلحة النووية إبان هزيمتها في حرب الـ٧٣ قال البروفسور اليهودي الأمريكي "نعوم تشومسكي" في كتابه "المثلث القدري: الولايات المتحدة وإسرائيل والفلسطينيون": "التهديد كان موجهاً إلى الولايات المتحدة"^(١)، والإشارات الإسرائيلية ستجعل الأمر واضحاً أمام صانعي القرار في البيت الأبيض والبنتاغون ووزارة الخارجية، من أن الضغوط على إسرائيل للرضوخ لتسوية سياسية، يمكن أن تؤدي إلى رد فعل عنيف، وإمكانية حرب نووية عالمية. ويمكن الظن

(١) أمر وقتها الرئيس نيكسون بالاستنفار النووي من الدرجة الثالثة في كل أنحاء العالم.

أيضاً أن الصواريخ الإسرائيلية ذات الرؤوس النووية والتي يمكن أن تصل إلى جنوب روسيا ليس الهدف منها ردع الاتحاد السوفييتي، كما أعلن وقت انكشاف أمرها، وإنما تتببه المخططين الأمريكيين مرة أخرى إلى أن بلادهم تحت أنياب إسرائيل النووية في واقع الأمر. وهناك الكثير من المنظرين الإسرائيليين ممن يجاهرون بأن شهر العسل مع الولايات المتحدة لن يدوم إلى ما لانهاية، وأن على إسرائيل أن تكون مستعدة لذلك^(١)!!

- أنتما لا تفهمان الموضوع جيداً. إن الولايات المتحدة وإسرائيل حليفان استراتيجيان لمكافحة إرهاب الإسلام، ولولا تحالفهما وإحباطهما لمخططات الإرهابيين التي تحاك في الظلام، لعانى العالم أجمع ويلات لا تخطر لكما على بال. فهز الدكتور رأسه بأسى قائلاً:

- بل أنت الذي لا تفهم الموضوع جيداً يا عزيزي ديفيد. إن الإرهابيين الحقيقيين في عالمنا لا يجتمعون في ظلمات منتصف الليل، أو يصرخون "الله أكبر" قبل الاعتداء. الإرهابيون الحقيقيون في عالمنا يرتدون سترات قيمتها ٥٠٠٠ دولار، ويعملون في أعلى المناصب المالية الحكومية والتجارية.

- هذا يكفي. فالنقاش في مثل هذه المواضيع عقيم ولا يؤدي إلى نتيجة. ثم أردف غامزاً:

- كما أنني أعترف أنكما تشكلان ثنائياً يصعب مواجهته من قبل فرد مسكين مثلي. والآن ما رأيكما بأن ننسى كل هذه المواضيع المملة، ونتحدث عن موضوع أكثر تشويقاً وإثارة.

- وماذا تقترح؟

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

قال د. كويد مبتسماً بخبث، فأجابه فيكتور بابتسامة أوسع:

- لا تدع الخيال يجمع بك بعيداً، فقد قصدت التحدث عن المسيحية، فأبراهام، كما لاحظت، ولا ريب، لم يعد يؤمن باليهودية تماماً، وهو يبحث عن الحقيقة.
- أوه. هذا يفسر الكثير مما حيرني بشخصيته.



◀ بين الحقيقة والوهم

كان فيكتور يعرف جيداً أن د.كويد ليس من المغرمين بالحديث عن الدين. وكما توقع تماماً، فما إن أخذ الحديث ذلك المنحى حتى قام د.كويد مغادراً، وهو يتمنى لهما التوفيق، وهو ما ولد شعوراً بالأسى لدى أبراهام، خاصة بعد كل الذي بذله من جهد في توجيه دفة الحوار حول الموضوع الذي يشغله. وبعد فترة تردد قصيرة حسم أمره بالالحاق بالدكتور كويد، فقد كان خائفاً من عدم تكرار مثل هذه الفرصة لاحقاً، ولكن فيكتور، الذي لم تغب عن باله نظرات الانبهار والإعجاب بديفيد من قبل صديقه أبراهام، حاول استيقاظه بالحاح، وهو يتذرع متلعثماً، بضرورة استكمال الحديث الذي بدأه عن المسيحية للتو! خيل لأبراهام أن هناك شيئاً من الغيرة في نبرته، ولكنه عزاها إلى التنافسية الأكاديمية، فظمأنه أنه لا يزال تلميذه الذي لن يتأثر بأستاذ آخر، وعضاً عن أن يسر فيكتور بذلك كما توقع، ازداد امتعاضه أكثر، فودعه أبراهام بمنتهى اللباقة طالباً الإذن لزيارته غداً لاستكمال الحديث عن المسيحية، ثم خرج مسرعاً يريد اللحاق بالدكتور كويد، الذي كان لحسن الحظ لا يزال ينتظر وصول المصعد.

- د. كويد. أود التعبير عن إعجابي الشديد بطرحك.

- شكراً لك يا بني.

- هل أنت مشغول حالياً؟

- ليس تماماً. لماذا؟

في هذه اللحظة فتح باب المصعد، وبينما كان أبراهام يفسح الطريق للدكتور كويد، لاحظ لدهشته الكبيرة، أن فيكتور يراقبهما من خلف باب مكتبه، ولكنه لم يبالي بذلك كثيراً، وولج إلى المصعد قائلاً:



- كنت أتساءل: أمن الممكن أن تتكرم علي بالمزيد من التحليلات التي تفضلت بها قبل قليل؟

فقال د. كويد مازحاً:

- أتود ذلك من باب حب المعرفة فحسب، أم لاستكمال التقرير الذي سترفضه بي؟
ابتسم أبراهام بمرارة دون أن يرد، فقد أحس أن د. كويد لم يكن يمزح كما يحاول أن يظهر. وعندما فتح باب المصعد غادره قائلاً:

- سررت بمعرفتك يا سيدي، واعدرنني إن كنت قد تطفلت عليك.

فناداه د. كويد معاتباً:

- لا تأخذ الأمور بهذه الحساسية يا بني، فقد كنت أمازحك فقط.

ثم توجه نحوه مردفاً:

- أنا ليس لدي ما أخاف منه، وآرائي علنية، أحاول نشرها في أوسع مجال ممكن، ويسعدني دائماً أن أتناقش حولها مع كل من يرغب في ذلك.

- أقدر لك هذا سيدي.

- هيا لنجلس في ذلك المقهى آخر الشارع.

جلس أبراهام قبالة د. كويد بصمت كطالب مجد يتلهف لسماع محاضرة مهمة من أستاذ قدير سمع عنه مراراً، وهو ما أربك د. كويد^(١) قليلاً، فتناول فنجانه، ورشف منه رشفة صغيرة، ثم بادره قائلاً:

- ما الهدف الذي تسعى إليه يا بني؟

(١) بقية الفصل (الموقف) لا علاقة لها بالسيناتور ديفيد ديوك من قريب أو بعيد، بل هي ترجمة للجزء الثالث من الفيلم الوثائقي الشهير "ZEITGEIST" "روح العصر"، مع بعض التصرف في تسليط الضوء على الحق الذي فيه، رغم الباطل الذي أريد من ورائه.

- البحث عن الحقيقة والتحرر من الأوهام.

- أنا لست الشخص المناسب للتحدث عن الأمور الدينية؛ فذلك من اختصاص صاحبك فيكتور.

- أريد أن أميز بين الحقيقة والوهم، ليس فقط فيما تدعوه بالأمور الدينية، بل في كل أمور الحياة بشكل عام.

- هذا موضوع شائك؛ فالكثير من الحقائق من حولنا قد أخفيت أو شكك بها، واعتبرت أوهاماً، في حين تم صناعة الكثير من الأوهام وروجت دعائياً لتعتبر من الحقائق المسلم بها، وأنا شخصياً قضيت الجزء الأكبر من حياتي مبرمجاً على ذلك. كنت أحاول أن أصبح شيئاً ما، أردتُ أنْ أصبحَ جيداً في المدرسة والتس والعلم، ونوعاً ما، رأيت كل ذلك فقط من المنظور المفروض علي؛ فقد علموني القصة الكاملة حول من أنا، وكيف ينبغي أن أكون، متى أعتبر جيداً أو سيئاً، محقاً أم مخطئاً، ناجحاً أم فاشلاً، وحققت أشياء كثيرة فعلاً على هذا الأساس، ولكنني أدركت وأنا في قمة جودتي وأحقيتي ونجاحي أنني كنت موجهاً ومخدوعاً.

رشف رشفة أخرى من فنجانه، ثم أزدف متابعاً:

- لقد اعتاد مقدم البرامج الشهير "بيل هيكس" إنهاء برنامجه بهذه العبارة: "الحياة مثل جولة في مدينة ملاء، وعندما تستمر بها، تعتقد بأنها حقيقية"، وهذا صحيح، لأن عقولنا برمجت على قلب الوهم إلى حقيقة. عندما نركب قطار حديقة الملاهي المحلزن، تقودنا الجولة إلى الأعلى والأسفل، نتعطف بنا ذات اليمين وذات الشمال، ويكون لها رعشاتها وقشعيراتها، وألوانها الساطعة. تكون صاخبة جداً، ومرحة، ومخيفة لبعض الوقت، فنشعر بأنها حقيقة، ونتجاهل أولئك الذين يحاولون إيقاظنا قائلين: "لا داعي لكل هذا التوتر والتشنج... إنها مجرد جولة قطار (It's just a ride)". أحياناً نسكتهم بالقوة: "لقد استثمرت الكثير في هذه الجولة، انظر

إلى تجمعتي من القلق، انظر إلى حسابي الكبير في المصرف، إلى مركزي وعائلي، يجب أن يكون هذا حقيقياً، فيأتينا التنبيه ثانية: "إنها مجرد جولة قطار" هل لاحظت أننا دائماً نقتل الأشخاص الذين يحاولون قول هذا لنا... ثم نعود ونستسلم للقائمين على مدينة الملاهي... للرجال خلف الستار الذين يسيطرون علينا بالمؤثرات الضوئية والخدع البصرية لسلب ما في جيوبنا؟

- وتقول أنك لست الشخص المناسب للحديث عن الأمور الدينية!!! إن ما تفوهت به الآن هو أمور دينية بحتة؛ فحياتنا على هذه الأرض مجرد جولة تنطلق بنا بشكل حلزوني ثم ما تلبث أن تعود ثانية إلى المكان نفسه الذي سنقضي فيه حياتنا الحقيقية، بناء على النقاط التي سجلت، لنا أو علينا، في تلك الرحلة المتشعبة. وللأسف يفتر أكثرنا بزينة تلك الجولة وبمقدار التسلية المتوافر فيها، فينشغل باللهو بها، عن المعنى الاختباري التجريبي المقصود من ورائها. ونحن بالفعل نتجاهل أقوال الأنبياء والمصلحين الذين يحاولون تنبيهنا لذلك، بل نقتلهم أحياناً. إننا في واقع الأمر نسلم زماننا للشيطان وأتباعه، يديرونه كيفما شاؤوا.

- أنا لم أقصد العبر الدينية التي استخلصتها أنت من كلامي، بل كنت أتحدث عن الواقع الملموس الذي خبرته بنفسي بعد جهد وبحت طويلين.

- إن أولئك الذين تتكلم عليهم، وتحاول كشف تزييفهم للحقائق وترويجهم للأوهام وإفسادهم للسياسات والاقتصاديات، هم ذاتهم من فعل ذلك في الأديان، وبالطريقة نفسها تماماً، لذا فإن ما أريده هو الاستفادة من خبرتك في شؤونهم، كي أستطيع استخلاص العبر منها أنا أيضاً.

- كما تشاء. هل لديك سؤال محدد؟

لم يغب عن بال أبراهام أن شخصاً بذكاء د. كويد وفطنته قد يكون متبهاً فعلاً على محاولة ما لاستدراجه في الحديث، وأنه ربما كان يشك بحسن نيته لكونه يهودياً.

بل لم يستبعد أبراهام أن يكون د. كويد قد ربط ذلك بشكل أو بآخر بتدبير من خاله أفيغدور، خصمه اللدود، لذا فقد فضل ترك الحرية الكاملة له في تناول الموضوع، دون أن يحدد نقاطاً معينة، وقال بلهجة حاول أن توحى بالثقة أكثر ما يمكن:

- لدي الكثير من الأسئلة يا سيدي، ولكنني أفضل أن تتكلم أنت على سجيتك.
- ولكن خلاصة تجربتي تركز على الشأن الأمريكي، الذي ربما لا تهتم أنت بكثير من تفاصيله، وأعتبرها أنا غاية في الأهمية.

- لا تقلق من هذه الناحية يا سيدي؛ فأنا، كمعظم الناس، مجبر على الاهتمام بالشأن الأمريكي، لكونه لا يزال يؤثر بقوة على الشأن العالمي حتى هذه اللحظة، ولكونه سيظل كذلك لفترة معتبرة. كما أنني على تمام الثقة بأن كل ما يعتبره شخص مثلك بأنه مهم، سيكون مفيداً فعلاً بالنسبة إلى شخص مثلي.

- هذا إطرأ أعترض به، وتواضع أغبطك عليه. حسناً. سوف أحاول أن أقدم لك صورة وافية عن نفوذ الرجال خلف الستار، والخلط الذي قاموا به هنا بين الحقيقة والوهم، محاولاً في الوقت ذاته أن أركز، قدر الإمكان، على الجانب العام، وألا أغوص كثيراً في التفاصيل الأمريكية الخاصة.

- كلي أذان مصغية.

- في عام ١٧٧٥م بدأت حروب الثورة الأمريكية، حيث سعت المستعمرات إلى الانفصال عن إنجلترا وعن حكمها الملكي المستبد. ومع تعدد الأسباب للثورة؛ يبرز أحدها بشكل خاص كالسبب الأساسي؛ وهو أن ملك إنجلترا "جورج الثالث" منع عملة المستعمرات المستقلة الخالية من الفائدة، وكان بذلك يجبرهم تبعاً لاستعارة المال بفائدة من "مصرف إنجلترا المركزي"، واضعاً مباشرة المستعمرات في الدين. وكما كتب

"بنجامين فرانكلين" لاحقاً: "إن رفض الملك جورج الثالث السماح للمستعمرات بتشكيل نظام مالي فاضل، وهو ما يحرر الرجل العادي من قبضات المتلاعبين الماليين، كان على الأرجح هو السبب الأساسي للثورة". في عام ١٧٨٢ حصلت أمريكا على استقلالها من إنجلترا، ولكن معركتها ضد مفهوم "المصرف المركزي" والرجال الفاسدين الممثلين جشعاً كانت قد بدأت للتو.

- ولكن ما هو المصرف المركزي؟

- إن المصرف المركزي هو مؤسسة تتج عملةً كامل الأمة. واستناداً إلى السوابق التاريخية، فهناك سلطتان معيّنتان متأصلتان في العرف المصرفي المركزي: التحكم بـ "معدل الفائدة" Interest Rates، والتحكم بـ "التضخم" (العرض المالي) (Inflation Money Supply). فلا يقوم المصرف المركزي ببساطة بتزويد اقتصاد الحكومة بالمال، بل يقرضها ذلك المال on loan بفائدة Interest. ثم، ومن خلال استعمال زيادة ونقص تزويد النقود، يُنظم المصرف المركزي قيمة العملة التي يتم صكّها. إن هذا الأمر معقد جداً، ولكن أهم ما ينبغي أن تفهمه منه هو أن الهيكل الكامل لهذا النظام يُمْكِنُ أَنْ يُنتَجَ في المدى البعيد شيئاً واحداً فقط: "...الدين" DEPT.

- كيف ذلك؟

- بالاحتيايل. ولا يحتاج الأمر الكثير من الذكاء لاكتشاف ذلك. فكل دولار يتم صكّه في المصرف المركزي، يُقرض بفائدة! ذلك يعني أن كل دولار تم صكه، هو في الحقيقة الدولار زائداً قيمة مئوية معينة من الدين مستندة إلى ذلك الدولار. أي إن القائمين على المصرف المركزي يُقرضون كل دولار بدين فوري مرتبط به.

- ولكن من أين يأتي المال اللازم لدفع الدين الفوري المرتبط بالعملة النقدية

نفسها؟

- لأنَّ المصرف المركزي يحتكر صك العملة لكامل البلاد، فإن ذلك المال يمكن أن يأتي فقط من المصرف المركزي ثانية! مما يعني أن المصرف المركزي يجب أن يرفع تزويده النقدي بشكل دائم لتغطية الدين القائم مؤقتاً. وتباعاً، وباعتبار أن ذلك المال الجديد يقرض بفائدة أيضاً، فإن ذلك يخلق المزيد من الدين المركب! إن النتيجة الحتمية لهذا النظام بكل تأكيد هي: "العبودية" لأنه يستحيل للحكومة، وكذلك للشعب، الخروج من دين ذاتي التوالد أبداً. لقد كان الآباء المؤسسون لهذه البلاد مدركين لهذا جيداً؛ فقد قال الرئيس "توماس جيفرسون" (١٨٢٦-١٧٤٣): "أعتقد بأن المؤسسات المصرفية أكثر خطورة من الجيوش القائمة. وإذا سمح الشعب الأمريكي للمصارف الخاصة بالسيطرة على صك العملة، فسوف تحرم تلك المصارف، والشركات التي تكبر حولها، الناس من ملكيتهم، حتى يستيقظ أطفالهم مشردين على قارة فتحها آباؤهم"^(١). وقال السير "جوزيا ستامب" (١٨٨٠ - ١٩٤١): "إذا أردت البقاء عبداً للمصرفيين، دافعاً ثمن عبوديتك، فدعهم يواصلون صك النقود والسيطرة على دين الأمة".

- ألم تتمكن الولايات المتحدة من الاستمرار بصك نقد وطني خالٍ من الفائدة؟
- لقد حاولت، ولكن ذلك لم يكن سهلاً مع وجود رجال دولة فاسدين، ومصرفيين متنفذين. فقامت وانهارت أنظمة مصرفية مركزية عديدة عانت خلالها أمريكا من فوائد مصرفية عديمة الرحمة، واستمر الصراع حتى انتصر المصرفيون في بدايات القرن الماضي.

كان أبراهام متأكداً أن معظم أولئك المصرفيين، إن لم يكن كلهم، كانوا من اليهود، ولكنه رغب أن يتأكد من ذلك دون أن يثير ريبة د. ديوك بسؤاله عن دينهم مباشرة، فسأله بشكل اعتيادي:

- أي العائلات المصرفية كانت متنفذة في ذلك الوقت؟

(١) معرفة المزيد عن تحذيرات أولئك الآباء من خطر اليهود، راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.



- "روكفلر"، "مورغان"، "واب بورغ" و"روتشيلد". وهؤلاء هم من سعى مجدداً إلى الضغط لإقرار تشريع لمصرف مركزي آخر.

عاد أبراهام للسؤال مجدداً بعد أن تأكد ظنه:

- ولكن كيف استطاعوا ذلك؟ وأنت تقول أن الحكومة والشعب الأمريكيين كانا مرهقين من مؤسسة كهذه؟

- لقد خلقوا أزمة كبيرة للتأثير على الرأي العام.

- كيف؟

- لقد استغل "جّي. بي مورغان" J.P. Morgan الذي كان نجماً مالياً لامعاً في ذلك الوقت، استغل تأثيره الكبير بنشر إشاعات تفيد أن مصرفاً بارزاً في نيويورك كان عاجزاً أو مفلساً. كان يدرك أن تلك الشائعة ستسبب هستيريا جماعية، وستؤثر أيضاً على المصارف الأخرى، وهذا ما حصل فعلاً، ففي خوف من خسارة إيداعاتهم، بدأ العامة فوراً بسحوبات ضخمة، وبذلك أُجبرت المصارف على طلب استحقاق قروضها، مما أجبر المقترضين على بيع ممتلكاتهم. وهكذا ظهرت دوامة من حالات الإفلاس، والاستحواذات، والاضطرابات. بعد سنوات قليلة تالية، تم تجميع الحقائق، وكتب "فردريك آلين" Fredrik Allen في مجلة لايف: "لقد عملت مصالح مورغان المستغلة على تعجيل أزمة عام ١٩٠٧ ووجهتها بدهاء منذ بدايتها".

- ألم تجر الحكومة الأمريكية تحقيقاً رسمياً؟

- بلى. فقد أمر الكونغرس بتشكيل لجنة تحقيق بالفعل، ولكن من ترأس تلك اللجنة كان السيناتور "نيلسن ألدريتش" Nelson Aldrich ذا الروابط العميقة مع الكارتل الاحتكارية المصرفية، والذي أصبح لاحقاً، من خلال الزواج، جزءاً من عائلة روكفلر. وعلى غير ما هو متوقع من تلك اللجنة، أوصت تحت قيادة ألدريتش بإنشاء

مصرف مركزي لكي لا تحدث أزمة مثل أزمة الـ ١٩٠٧ ثانية!!! هذه كانت الشرارة التي احتاجها المصرفيون الدوليون لبدء خطتهم.

- منطقياً، فإن المصرف المركزي الذي أوصت به لجنة الكونغرس يجب أن يكون وفق مصالح الدولة، ويضمن فعلاً عدم تكرار الأزمة.

- عن أي منطق تتحدث يا بني؟ ففي عام ١٩١٠ عُقد اجتماع سري في عقار مملوك من قبل "جي.بي.مورغان" خارج ساحل جورجيا على جزيرة جركيل Jekyll. كان هذا الاجتماع سرياً جداً، لذا أخفي عن الحكومة والعامّة، بل غيرت الشخصيات التي حضرت أسماءها في أثناء مناداة بعضها لبعض. وهناك كتبت الوثيقة المصرفية المركزية التي دعيت "وثيقة الاحتياطي الفدرالي" Federal Reserve Act.

- تقصد أن ذلك التشريع صيغ من قبل مصرفيين، وليس من قبل نواب الكونغرس؟
- تماماً. وبعد تركيب تلك الوثيقة، تم تسليمها إلى ممثلهم السياسي السيناتور نيلسن ألدريتش لتمريرها في الكونغرس. وفي عام ١٩١٣ وبالرعاية السياسية الضخمة من قبل المصرفيين، أصبح المرشح "ودرو ويلسون" رئيساً، بعد موافقته المسبقة على توقيع "وثيقة الاحتياطي الفدرالي" مقابل دعم حملته الانتخابية.

- هل يستطيع فرد واحد، وإن كان الرئيس نفسه، أن يمرر تشريعاً بهذه الأهمية؟
- بقليل من الدهاء وكثير من المال كل شيء ممكن للأسف. فقبل يومين من عيد الميلاد، عندما كان أغلب أعضاء الكونغرس في بيوتهم مع عائلاتهم، تم التصويت بالإيجاب على "وثيقة الاحتياطي الفدرالي"، وحولها ويلسون إلى قانون. وبعد سنوات عديدة، كتب "ودرو ويلسون" نفسه نادماً: "أمتنا الصناعية العظيمة مسيطر عليها بواسطة نظام دينها. إن نظام ديننا متركز بشكل خاص (1) Privately، وهكذا فإن نمو

(١) من مصطلح قطاع خاص.

الأمة، وكل نشاطاتنا، في أيدي رجال قليلين، وهم وإن كانوا أمناء، ويقصدون المصلحة العامة، فبالضرورة، وبسبب محدودياتهم الخاصة، يرعشون ويفحصون ويخربون حرية اقتصادية أصيلة. لقد أصبحنا أحد أسوأ الحكام، أكثر حكومة متحكماً بها ومسيطرأً عليها في العالم المتحضر. لسنا حكومة رأياً حر بعد الآن، لسنا حكومة إقناع وانتخاب من الأغلبية بعد الآن، ولكن حكومة رأياً وإخضاع من قبل مجموعات صغيرة من الرجال المسيطرين". عضو الكونغرس "لويس ماكفادن" Louis McFadden عبر أيضاً عن الحقيقة بعد تمرير المشروع قائلاً: "لقد بني هنا نظام مصرفي عالمي، دولة كبرى تحت سيطرة المصرفيين الدوليين، الذين يتعاونون لاستعباد العالم وإخضاعه للذتهم الخاصة. إن المصرف الاحتياطي الفدرالي قد اغتصب الحكومة".

- اعدرتني سيدي. ولكن مع قلة خبرتي في الشؤون الاقتصادية، إلا أن ما قرأته يفيد أن النظام الاحتياطي الفدرالي هو موازن اقتصادي؛ أي إنه صمام الأمان ضد التضخم والأزمات الاقتصادية.

- حسناً. كما أرانا التاريخ، فلا شيء أبعد عن الحقيقة من هذا. إن حقيقة الأمر، أن لدى المصرفيين الدوليين الآن آلة متدفقة تخدم لتوسيع طموحاتهم الشخصية. على سبيل المثال: من ١٩١٤ إلى ١٩١٩ زاد المصرف الاحتياطي الفدرالي العرض النقدي ١٠٠٪ تقريباً، مما أدى إلى قروض مكثفة إلى المصارف الصغيرة. ثم في عام ١٩٢٠، سحب المصرف الاحتياطي الفدرالي النسب المثوية الهائلة من العرض النقدي المكثف، فأجبرت المصارف على طلب استحقاق قروضها.

- أي مثل ما حدث في عام ١٩٠٧؟

- أجل، ولكنه ممنهج بشكل علمي هذه المرة، فأفلست المصارف وحصل الانهيار الكبير. لقد انهار أكثر من ٥٤٠٠ مصرف تنافسي خارج النظام الاحتياطي الفدرالي، مما أدى إلى تكثيف الاحتكار أكثر في يد مجموعة صغيرة من المصرفيين الدوليين،

وقد تبه البعض لذلك مبكراً؛ ففي عام ١٩٢١ قال عضو الكونغرس "ليندبيرغ" Lindbergh: "تحت إدارة الاحتياطي الفدرالي، خلقت الأزمة بشكل علمي. إن الأزمة الحالية هي أول أزمة مخلوقة علمياً، تعمل كما نشكل نحن معادلة رياضية". على أية حال، كانت أزمة ١٩٢٠ مجرد إحماء؛ فمن عام ١٩٢١ إلى ١٩٢٩ زاد المصرف الاحتياطي الفدرالي العرض النقدي ثانية، بتضخم وصل إلى ٦٢ ٪، مما أدى إلى قروض مكثفة إلى المصارف والعوام. كان هناك أيضاً نوع جديد جداً من القروض في سوق الأسهم المالية دعي بـ "القرض الهامشي" Margin Loan. ببساطة شديدة، سمح القرض الهامشي للمستثمر بتنزيل قيمة الأسهم بـ ١٠ ٪ فقط، وتقرض الـ ٩٠ ٪ الأخرى عبر سمسار وسيطاً!

- اعذرنى: لم أفهم ذلك.

- حسناً. وبكلمات أخرى، يمكن أن يمتلك شخص ما قيمة ١٠٠٠ دولار من الأسهم بدفع ١٠٠ دولار فقط. هذه الطريقة كانت شعبية جداً في العشرينيات الصاخبة، حيث بدأ أن كل شخص يربح المال في السوق. على أية حال، كان هناك فخ مرتبط بهذا القرض؛ وهو أن القرض يمكن أن يطلب في أي وقت كان، وكان لزاماً أن يسدد خلال ٢٤ ساعة. لقد أُطلق على هذا اسم "النداء الهامشي"، والنتيجة الطبيعية للنداء الهامشي هي بيع الأسهم التي اشتريت بالقرض. لذا، قبل شهور قليلة من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩ غادر كبار الصيارفة السوق بشكل هادئ. وفي الرابع والعشرين من ذلك الشهر، طلب خبراء نيويورك المليون (الذين أسسوا القروض الهامشية) قروضهم بكميات كبيرة، وهو ما أشعل تصفية هائلة آتية في السوق. كان لابد للكل أن يقوموا بتغطية قروضهم الهامشية، وهو ما أدى إلى انهيار الكثير من المصارف للسبب نفسه. لقد انهار أكثر من ١٦,٠٠٠ مصرف، مما مكن المصرفيين الدوليين المتآمرين ليس

فقط من شراء مصارف منافسة بأسعار مخفضة، ولكن أيضاً من شراء شركات كاملة بينسات معدودة من الدولار. لقد كانت السرقة الأعظم في التاريخ الأمريكي.

- يا إلهي!

- لكن هذا لم يتوقف هنا.

- ماذا حصل أيضاً؟

- بدلاً من زيادة العرض النقدي للتعافي من هذا الانهيار الاقتصادي الضخم، قام المصرف الاحتياطي الفدرالي بتقليصه، وهو ما أثار واحدة من أكبر حالات الكساد في التاريخ.

- ألم يجرؤ أي أحد على إيقاف تلك المهزلة؟

- إيقاف؟!!! لا تكن متفائلاً إلى هذه الدرجة يا بني، ومن الأفضل أن تعيد صياغة سؤالك ليكون: ألم يجرؤ أحد على مجرد الكلام؟ والإجابة هي نعم، ولكن الثمن في الغالب كان حياتهم. ومثال على ذلك ما حصل لعضو الكونغرس الذي تحدثنا عنه قبل قليل لويس ماكفادن، الذي انتقد المجلس الاحتياطي الفدرالي قائلاً عن الانهيار والكساد: "لقد تم بعناية تدبير حدوثه. أراد المصرفيون الدوليون تئيسنا، كي يبدوا وكأنهم حكامنا"، وبدأ فعلاً بإجراءات عقابية ضد ذلك المجلس. ومع أنه نجا من محاولتين لاغتياله، إلا أنه قتل أخيراً بواسطة السم في مأدبة حضرها، وذلك قبل أن يضغط^(١) لإقرار المعاقبة التي قاد حملتها.

- هل هم متفدون إلى هذه الدرجة؟ وأين؟ في أكثر البلاد حرية وديمقراطية

وشفافية في العالم!!!

(١) يقوم نواب الكونغرس الأمريكي بالتصويت بواسطة لوحات أزرار بجانب مقاعدهم.

- إن تنفيذهم يصل إلى أبعد من ذلك؛ فقد قرروا ذات مرة إزالة معيار الذهب نهائياً كي لا يعد من طمعهم أي حاجز. ولفعل ذلك، احتاجوا إلى الاستيلاء على الذهب الباقي في النظام، لذا، وتحت التظاهر بالمساعدة في إنهاء الكساد، تم حجز الذهب عام ١٩٣٣. وتحت تهديد بالسجن لمدة ١٠ سنوات، كان لزاماً على كل شخص في أمريكا إعادة كل السبائك الذهبية إلى الخزانة، وتمكنوا بذلك من نهب ما تبقى من ثروات الشعب. وعند نهاية عام ١٩٣٣ تم لهم ما أرادوا، وألغى معيار الذهب في أمريكا. وإذا نظرت إلى ورقة الدولار قبل عام ١٩٣٣، فستجد مكتوباً أسفلها بخط كبير أنه دولار قابل للاسترداد كذهب IN GOLD، ولكن إذا نظرت إلى ورقة الدولار اليوم فستجد مكتوباً في ذلك المكان فئة الدولار فحسب، وتجد في القسم الأيمن الأعلى بخط صغير: "هذه القصاصه هي طلب تزويد رسمية لكل الديون، العامة منها والخاصة" THIS NOTE IS LEGAL TENDER FOR ALL DEBTS, PUBLIC AND BRIVET، مما يعني بأنها مدعومة من قبل لا شيء على الإطلاق؛ إنها قصاصة ورق عديمة القيمة. إن الشيء الوحيد الذي يقيم نقدنا هو كم يوجد منه في التداول! لذلك فإن القوة المنظمة للعرض النقدي هي أيضاً القوة التي تضبط قيمته، وهي أيضاً القوة التي تستطيع تركيع كامل الاقتصاديات والمجتمعات. وكما قال مؤسس سلالة روتشيلد المصرفية "م.أ. روتشيلد" M. A. Rothschild: "أعطني سيطرة على عرض الأمة النقدي، وأنا لن أبالي بمن يسن القوانين".

- أنا لا أزال غير مستوعب للموضوع. أليس المصرف الاحتياطي الفدرالي هو

مؤسسة حكومية!!!



- كلا، إنه، واقعياً، شركة خاصة Private Corporation، أما فدراليته فهي كفدرالية "البريد الفدرالي" الذي يصنع سياساته الخاصة بنفسه!! فالمصرف الفدرالي الاحتياطي، عملياً، لا يخضع للتنظيم من قبل الحكومة الأمريكية؛ بل هو مصرف خاص يقرضها كل نقدها بالفائدة. إنه متسق بشكل كامل مع النموذج المصرفي المركزي الاحتياطي الذي أسست حكومة الولايات المتحدة للتخلص منه، عندما أعلنت الاستقلال في الحرب الثورية الأمريكية.

- ولكن كيف يمكن السكوت على ذلك؟! خصوصاً أن تمرير قانون الاحتياطي الفدرالي لم يكن دستورياً كما قلت قبل قليل!!

- لم يكن الفعل الاحتياطي الفدرالي هو الوثيقة غير الدستورية الوحيدة التي أقرت عبر الكونغرس. فقد مروروا أيضاً "ضريبة الدخل الفدرالية" Federal Income Tax. والجمهور الأمريكي على جهل مطبق بحقيقة تلك الضريبة، وهي للأسف شهادة بحقيقة كوننا شعباً مستغلاً.

- كيف ذلك؟

- أولاً: إن ضريبة الدخل الاتحادية هي غير دستورية بالكامل، لأنها ضريبة مباشرة وغير مقسمة. ووفقاً للدستور يجب أن تقسم كل الضرائب المباشرة لكي تكون قانونية.

ثانياً: لم يستحق العدد المطلوب من الولايات للتصديق على التعديل الذي يسمح بضريبة الدخل. وسنة ٢٠٠٣ عندما رفع الأمر إلى القضاء، صرح قاضي محكمة المقاطعة للولايات المتحدة "جيمس سي فوكس" James C. Fox حرفياً: "إذا فحّصت التعديل السادس عشر بعناية، فسوف تجد أنه لم يصدق عدد كافٍ من الولايات عليه".

ثالثاً: في الوقت الحاضر، يقتطع تقريباً من ٢٥ إلى ٣٥ ٪ من متوسط دخل العامل من خلال هذه الضريبة. ذلك يعني أنك تعمل أكثر من ثلاثة شهور إلى أربعة في السنة فقط لتسديد هذه الضريبة!!!

- ولكن الشعب يدفع ذلك المال كضريبة لحكومته! فلماذا يضايقك هذا؟

- خمن أين يذهب ذلك المال؟

- أخبرني؟

- إنه يذهب لدفع الفائدة على العملة التي تصك في المصرف الاحتياطي الفدرالي الاحتياطي، وهو نظام لم يكن ثمة داع لوجوده أصلاً. هل تدرك معنى أن يذهب المال الذي تعمل ثلاثة شهور أو أربعة في السنة من أجله حرفياً إلى جيوب المصرفيين البنكيين العالميين؟!!! وهم من يمتلك المصرف الخاص الاحتياطي الفدرالي؟ إن ضريبة الدخل ليست سوى استعباد لكامل البلاد.

- يصعب علي تصديق كل ذلك.

- فماذا إن عرفت الباقي إذن؟ فالسيطرة على الاقتصاد والسرقة المستمرة للثروة مجرد وجه واحد لمكعب يحمله المصرفيون بأيديهم. إن الحرب هي الأداة التالية للربح والسيطرة، فمنذ استهلال الاحتياطي الفدرالي في عام ١٩١٣ اختلق عدد من الحروب الكبيرة والصغيرة لخدمة أطماعهم، كانت الثلاث الأكثر بروزاً هي: الحرب العالمية الأولى، الحرب العالمية الثانية، وفيتنام.

- ولكن ما علاقة المصرفيين بتلك الحروب؟!!!

- كل العلاقة. فالحرب العالمية الأولى كانت حرباً أوروبية اندلعت في ١٩١٤

متركة حول إنجلترا وألمانيا وبتوجيه من المصرفيين الدوليين هناك، ولكن هذا ليس

موضوعنا حالياً^(١)؛ إن موضوعنا الآن هو تورط الولايات المتحدة بتلك الحرب، فلم يرد الشعب الأمريكي أن تكون له أية علاقة بها، وأعلن الرئيس "ويلسون" حيادنا بصراحة لا لبس فيها. ولكن تحت السطح، كان بعض أفراد إدارته يبحثون عن أي عذر لدخولها. وفي ملاحظة موثقة من وزير الدولة "ويليام جينينغز" William Jennings: "كانت المصالح المصرفية الكبيرة مهتمة جداً بالحرب العالمية بسبب الفرص العظيمة للأرباح الضخمة"، فمن المهم الفهم أن الحرب هي الشيء الأكثر ربحاً للمصرفيين الدوليين، لأنها تجبر البلاد على اقتراض مال أكثر من المصرف الاحتياطي الفدرالي بفائدة^(٢).

- اعذرني سيدي، ولكن ألا ترى أنك قد بالغت فعلاً في هذه النقطة؟

- مطلقاً. فأحد كبار مستشاري وناصري "ودرو ويلسون" كان الكولونيل "إدوارد هاوس" Edward House صاحب العلاقات الحميمة مع المصرفيين الدوليين، وكان يسعى نحو الحرب بشكل محموم. وفي نقاش موثق بين الكولونيل هاوس ومستشار ويلسون، ووزير خارجية إنجلترا السير "إدوارد جراي" Edward Grey استعلم جراي عما سيفعل الأمريكيون إذا أغرق الألمان باخرة فيها مسافرون أمريكيون؟ فأجاب هاوس: "أعتقد أن لهيباً من الامتعاض سيكتسح الولايات المتحدة، وهو ما سيكون كافياً

(١) من المعروف أن المصانع الكبرى والمصالح الاقتصادية في أمريكا وأوروبا كانت متركة إلى درجة كبيرة بيد اليهود كراسماليين وشركات كبرى، ومنها شركات الأسلحة، ولعل المؤرخ البريطاني فيشر ناقش هذه القضية بإيجاز (مستبعداً جزءاً منها ومقراً بالجزء الآخر) حين قال: "أما الفكرة بأن الحرب العظمى أثارها الرأسماليون، فهي هراء ولغو، فإنه في كل مكان - ربما ما خلا بعض دوائر صنع الأسلحة - ارتاع كبار رجال الأعمال أيما ارتاع لفكرة انهيار السلم... ومع ذلك فإنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون أن يوقفوا أدوات الحرب الجبارة الهائلة عن التحرك والسير". ويذكر فيشر كيف أن الحرب قدمت خدمة كبيرة لليهود إذ عملت بريطانيا على كسب رضاهم فقدمت لهم وعد بلفور: "وبذلك ضمنت إلى جانبها جماعات اليهود القوية العالمية التي تبسط سيطرتها على أسواق المال، لا في نيويورك فقط، بل في نواح عديدة أخرى من أنحاء العالم، وحملتها على مناصرة قضية الحلفاء".

(٢) التركيز هنا على السياسة من وجهة نظر اقتصادية أساساً، ولكن بقية المصالح السياسية الأخرى لتلك الفئة التي توقد نار الحرب، هي أخطر بكثير.

وحده لدخولنا في الحرب". وهكذا، وفي السابع من أيار/مايو ١٩١٥، اقترح السير إدوارد غراي إرسال سفينة تدعى "اللوزيتانا"، وعرفت القوات الألمانية بذلك، فوضعت السفارة الألمانية إعلانات تحذيرية في صحيفة النيويورك تايمز، مخبرة الناس أنهم إذا استقلوا سفينة "اللوزيتانا" فإنهم سيفعلون ذلك على مسؤوليتهم الخاصة، لأن إبحار سفينة إلى إنجلترا خلال منطقة الحرب، سيعرضها للتدمير. وبالطبع قُتل من شأن ذلك الإعلان، وأبحرت السفينة إلى إنجلترا، وعن طريق المياه الإقليمية الألمانية. وكما هو متوقع، نسفتها الغواصات الألمانية، مفجرة الذخيرة المخزونة، وقاتلة ١٢٠٠ شخص. وبالطبع سبب غرق اللوزيتانا موجة من الغضب بين الشعب الأمريكي، أزكت نيرانه الدعاية الإعلامية، فدخلت أمريكا الحرب بعد وقت قصير لاحق؛ هذه الحرب التي أدت إلى قتل ٣٢٣.٠٠٠ أمريكي، قدمت لـ "جي.دي.روكفلر" وحده عائدات بلغت ٢٠٠ مليون دولار، وهو ما يساوي ١.٩ ترليون دولار بالمعايير الحالية. بالإضافة إلى الخسائر البشرية للحرب، بلغت خسائر أمريكا المالية نحو ٣٠ بليون دولار، افترض معظمها من المصرف الاحتياطي الفدرالي بفائدة، وارتفعت أكثر أرباح المصرفيين الدوليين.

- حسناً. وماذا عن الحرب العالمية الثانية؟ فقد شاركتم فيها بسبب قصف اليابانيين لأسطولكم في بيرل هاربور، ولم يكن للمصرفيين أي يد في ذلك.
- بعد كشف الحقائق الاستخباراتية، بات من الواضح أن الهجوم على بيرل هاربور لم يكن فقط معروفاً مسبقاً منذ أسابيع، بل كان بكل وضوح، مرغوباً فيه، وموقراً له الاستفزازات اللازمة. روزفلت، الذي كانت عائلته من مصرفيي نيويورك منذ القرن الثامن عشر، وكان عمه "فردريك" من المجلس الأصلي للاحتياطي الفدرالي، كان نصيراً كبيراً لمصالح المصرفيين الدوليين، وكانت المصلحة بدخول الحرب. وكما رأينا، لا شيء أكثر ربحاً للمصرفيين الدوليين من الحرب. وفي مذكرة لسكرتير روزفلت

للحرب "هنري ستيمسون" Henry Stimson، أُرخت في الخامس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١، وتقت محادثة له مع روزفلت قال فيها: "المسألة هي كيف يمكن أن نناورهم ليطلقوا الرصاص الأولى... من المفضل التأكد من كون اليابانيين من سيفعل هذا، لكي لا يَبْقَى أي شك حول من كان المعتدي"، في الشهور التي سبقت الهجوم على بيرل هاربور فعل روزفلت كل ما بوسعها لإغضاب اليابانيين، وأظهر موقفاً عدائياً سافراً؛ فقد أوقف كل الاستيراد الياباني من النفط الأمريكي، وجمد كل الأصول اليابانية في الولايات المتحدة، وقدم قروضاً غلنية للصين الوطنية، وقدم مساعدات عسكرية للبريطانيين، وهو ما يعتبر انتهاكاً كاملاً لقواعد الحرب الدولية. في ٤ كانون الأول/ديسمبر، أي قبل ٣ أيام من الهجوم، أخبرت المخابرات الأسترالية روزفلت عن قوة يابانية تتحرك نحو بيرل هاربور، وبالطبع تجاهل روزفلت تلك المعلومة المؤكدة. لذا، وكما تمنى وسمح، هاجمت اليابان بيرل هاربور في ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١، مما أدى إلى قتل ٢٤٠٠ جندي. قبل بيرل هاربور، لم يُرد ٨٣٪ من الشعب الأمريكي التدخل بالحرب. بعد بيرل هاربور والضجة الإعلامية الحماسية، تطوع مليون رجل للحرب عن طيب خاطر.

- ربما كنت محقاً فعلاً في ذلك، فبالإضافة إلى المكاسب المادية، فإنني أظن أن المصرفيين كان لهم مصلحة سياسية في القضاء على ألمانيا النازية.
- إن هؤلاء المصرفيين بالذات هم من ساهم مباشرة في صعود النازية في ألمانيا. وأحد أهم الأمثلة التي فضحت آنذاك هي "شركة الاتحاد المصرفية لمدينة نيويورك"، التي لم تقم فقط بتمويل سمات عديدة من ارتقاء هتلر لسلم السلطة، مع مواد فعلية في أثناء الحرب، ولكنها كانت أيضاً مصرفاً لفسيل الأموال النازية. وقد تم الاستحواذ على شركة الاتحاد المصرفية لنيويورك، بعد انكشاف أمرها في انتهاك "قانون التعامل مع العدو". واحزر من كان المدير ونائب رئيس مصرف الاتحاد آنذاك.

- من؟

- "بريسكوت بوش"، والد الرئيس السابق بوش الأب، وبالطبع جد الرئيس بوش الابن الذي انتهت ولايته مؤخراً.

- لقد سمعت الكثير عن ذلك الرجل المثير للجدل، ولكن ماذا عن دور المصرفيين في حرب فيتنام؟

- لقد جاء الإعلان الرسمي الأمريكي للحرب على فيتنام الشمالية سنة ١٩٦٤ بعد قصة مزعومة تتضمن الهجوم على مدمرات أمريكية من قبل مراكب الفيتناميين الشماليين في خليج تونكين، وقد دعت آنذاك بـ"حادثة خليج تونكين"، وكانت ذريعة للانتشار الهائل للقوات ولكامل الحرب. ولكن الحقيقة أن الهجوم على مدمرات الولايات المتحدة الأمريكية بالمراكب "بي تي" التي تحدثوا عنها لم تحدث قط!!! لقد مثلت بالكامل للحصول على عذر لدخول الحرب، وقد اعترف وزير الدفاع السابق "روبرت مكنمارا" بعد سنوات أن حادثة خليج تونكين كانت خطأ، واعترف العديد من المطلعين والضباط أنها كانت مهزلة مدبرة، خدعة هوليودية كاملة، ولم يكن مقصوداً انتصارنا بتلك الحرب، ففي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٦ رفع الرئيس "ليندن جونسون"^(١) القيود التجارية على الحظر السوفييتي. عرف تماماً أن السوفييت كانوا يزودون أكثر من ٨٠٪ من تجهيزات حرب شمال فيتنام، وبذلك مول المصرفيون الأمريكيون مصانع في الاتحاد السوفييتي، في الوقت الذي كانت فيه تصنع أجهزة عسكرية لإرسالها إلى فيتنام الشمالية!!! على أية حال، تمويل كلا جانبي النزاع كان جانباً واحداً من هذا الموضوع.

- ما الجوانب الأخرى؟

(١) يتهم هذا الرئيس بعلاقة ما بمقتل الرئيس جون كينيدي، ومن شبه المؤكد أنه قد أصبح رئيساً بعد تعهده باستمرار حرب فيتنام وتصعيدها.

- كثيرة، ولكن أكثرها غرابة هو ما كشف عنه سنة ١٩٨٥، من "قواعد الاشتباك في فيتنام" والتي كانت تفصّل ما يسمح ويمنع على القوات الأمريكية أن تفعله فيها. ومن بين تلك القواعد الغريبة سخافات مثل: لا يمكن أن تقصف أنظمة الصاروخ الفيتنامية الشمالية المضادة للطائرات حتى يثبت أنها وظيفية بالكامل! لا يلاحق أي عدو بعد عبوره حدود لاووس أو كمبوديا! وأكثرها انفضاحاً: لا يسمح بمهاجمة الأهداف الحرجة الأكثر استراتيجية ما لم تحصل الموافقة المؤكدة من قبل كبار المسؤولين العسكريين فقط^(١). وفضلاً عن هذه القيود السخيفة المفروضة على قواتنا، أعلمت فيتنام الشمالية بهذه القيود حرفياً. وهكذا مكنها ذلك من خلق استراتيجيات كاملة حولها، ما أطال عمر الحرب أكثر من اللازم. بكلمات أخرى: لم تكن النية مطلقاً ربح حرب فيتنام، بل فقط أن يستمر جني الأرباح لأطول وقت ممكن. تلك الأرباح أسفرت بالمقابل عن موت ٥٨٠٠٠ أمريكي، وثلاثة ملايين فيتنامي.

- هل جني الأرباح هو السبب الرئيسي للحروب؟

- خذ أفغانستان كمثال واضح جداً على ذلك.

- كيف؟

- قبل عام ١٩٨٠، كانت أفغانستان لا تنتج الأفيون على نطاق عالمي، وبعد أن فاز المجاهدون المدعومون في الحرب السوفييتية/ الأفغانية، كان رد الجميل لدعم الولايات المتحدة/ وكالة المخابرات المركزية هو إطلاق الأيدي الخفية للعمل بحُرِّية في تلك المنطقة المثالية لزراعة الأفيون. وفعلاً بحلول عام ١٩٨٦ كانت أفغانستان تنتج ٤٠٪ من هيروين العالم. وبحلول عام ١٩٨٨ كانت تنتج ٨٠٪ من إجمالي السوق العالمية. ولكن بعد ذلك حدث شيء غير متوقع؛ فقد وصلت حركة طالبان إلى السلطة، ودمرت عام ٢٠٠٠ معظم حقول الأفيون، فانخفض الإنتاج من ٢.٠٠٠ طن إلى ١٨٥

(١) أي ليس القادة الميدانيين.

طناً فقط، أي انخفاض بنسبة ٩٤ ٪. في ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ كان المخطط الكامل لغزو أفغانستان على مكتب الرئيس بوش، وبعد يومين كانت لديهم الذريعة. اليوم، إنتاج الأفيون في أفغانستان التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، يوفر أكثر من ٩٠ ٪ من الهيروين في العالم، ويحطم معدلات قياسية للإنتاج كل عام تقريباً.

- هل يعقل أن تتحكم تلك المجموعات الصغيرة بمقدرات الشعوب وحياة الناس إلى هذه الدرجة؟

- كان الأمر كذلك دائماً؛ فكما اعترف الرئيس "فرانكلين روزفلت" في عام ١٩٣٣: "إن الحقيقة الحقيقية هي أن العناصر المالية في المراكز الكبيرة قد امتلكت الحكومة منذ أيام الرئيس أندرو جاكسون". وقبله قال السياسي "بنجامين ديسلالي" في عام ١٨٤٤: "يتحكم بالعالم أشخاص مختلفون جداً عما يظنه هؤلاء غير الموجودين خلف الكواليس". وقبلهما قال السير" وليام بيت" عضو مجلس اللوردات البريطاني في عام ١٧٧٠: "هناك شيء أعظم من الملك نفسه". وكذلك قال قبلهم مثل ما قالوا^(١) ولكن تحكم أولئك الرجال خلف الستار قد وصل إلى ذروته في هذا الزمن بالذات.

- ما الذي يميز هذا الزمن عن غيره؟!!!

(١) كان "مارك سايكس" المندوب البريطاني في اتفاقية سايكس بيكو، و"فيتزموريس" المستشار في السفارة البريطانية في إستانبول يعتقدون بوجود أسرة يهودية عالمية متماسكة تتحرك بطرائق خفية للسيطرة على العالم. كما كان "جون بوتشان" ذو الصلة بالمشروعات البريطانية في جنوب إفريقيا، وسكرتير "اللورد ميلنز" في جنوب إفريقيا وأحد رجالات "حرب البوير" في عام ١٨٩٨م، ومدير الخدمات الإعلامية في حكومة "لويد جورج" قد كتب رواية كلاسيكية في عام ١٩١٥م بعنوان "الخطوات التسع والثلاثون" يقول: "بعيداً وراء كل الحكومات والجيوش هنالك حركة سرية جارية، دبرها شعب خطر جداً... إن هذا يفسر أشياء كثيرة... وكيف صعّدت دولة ما فجأة إلى القمة؟ وكيف قامت تحالفات وانهارت؟ ولماذا اختفى رجال معينون؟ ومن أين جاءت مصادر القوة للحرب؟ إن الهدف... هو الإيقاع بين روسيا وألمانيا وجعلهما في حالة خصام، اليهودي وراء كل ذلك، واليهودي يكره روسيا أكثر من كرهه للجحيم". إن ذكر هذه الإشارات يلقي الضوء على أن هناك شخصيات عالمية فاعلة في القرار السياسي في بلدانها، يؤمنون بمثل هذه الأفكار، وكانوا هم أنفسهم وراء كثير من القرارات التي خدمت الجاليات اليهودية.

- غفلة الناس وجهلهم.

- كيف تقول ذلك ونحن نعيش عصر التقدم العلمي والتقني، وبالذات في مجال توافر المعلومات بشكل لم يكن يحلم به أحد من قبل؟

- بل هو عصر الوهم، ورفع العلم، وانتشار صناعة المعلومات السهلة، شيوع التسلية والتكالب عليها. إنه عصر سيطرة وسائل الإعلام والترفيه: برامج فضائية، أفلام، خلاعة، أخبار موجهة. وكل ذلك لإبقاء الإنسان واهماً متسلياً ومنشغلاً بجمع المال بأي طريق في سبيل الحصول على قدر أكبر من الترفيه، ولا يفكر في الوقوف في طريق الأشخاص المهمين، بتفكيره الزائد. لقد أصبحت المعلومات الجاهزة تصل إلى منزله على طبق من الفضة لتوجيهه والتأثير عليه بما يخدم مصالح الرجال وراء الستار. من الأفضل أن نستيقظ ونفهم أن هناك أناساً يتحكمون بكل ذلك، ونحن حتى لا نراهم!!! نحن في مشكلة كبيرة، فالولايات المتحدة التي تعتبر أكثر الدول تقدماً وتحضراً، لا يقرأ الصحف من شعبها أكثر من ١٥ ٪، ولا يقرأ الكتب أكثر من ٣ ٪، والحقيقة الوحيدة التي يعرفونها هي ما تصل إليهم عبر الشاشة!!! هناك جيل كامل لا يعرف شيئاً لم يظهر على الشاشة. أصبحت الشاشة هي الإنجيل، هي الوحي المطلق. يمكن لهذه الشاشة أن تصنع أو تحطم رؤساء، باباوات، رؤساء وزارات. هذه الشاشة هي أقوى قوة إعلامية في هذا العالم. وبامصيبتنا أن يكون أولئك الرجال خلف الستار هم من يسيطرون عليها، إنهم يتحكمون بالقوة الدعائية الأكثر إذهالاً في هذا العالم الكافر الذي لا رب له، ولا أحد يدرك ما نوع البراز الذي نقايشه بالحقيقة عبر تلك الآلة الدعائية المشكلة للوعي. بدأ بالشاشة كمجرد تسلية، مدينة ملاءم ملعونة، سيرك، مدربو أسود، كرنفال، حشود من البهلوانيين، حكواتيون، راقصون، مغنون، مشعوذون، غريبو أطوار يؤدون عروضاً جانبية، ولاعبو كرة قدم، وعاهرات يعرضن أجسادهن. كنا نُمضي بجانب الشاشة بعض أوقات الفراغ، ولكن حياتنا بسببها تحولت كلها إلى

فراغ. صرنا نجلس بجانبها يوماً بعد يوم، ليلة بعد ليلة، كل العمر، إلى أن صارت مبلغ علمنا، وأكبر همنا؛ فصدقنا الأوهام التي تحاك بها، حتى بتنا نعتقد أن الشاشة هي الحقيقة وأن حياتنا هي الوهم. نعمل كل ما تمليه علينا الشاشة، نلبس كما نرى في الشاشة، نأكل كما نرى في الشاشة، نربي أولادنا كما تعلمنا الشاشة، نمارس الجنس بنفس الطريقة التي تظهر في الشاشة، نصوت كما تقنعنا الشاشة، نخوض الحروب عندما تحمسنا الشاشة، نقبل أن نسرق ونخدع بكل رحابة صدر إذا بررت الشاشة لنا ذلك، نحترق كل من تسخر منه الشاشة، ونمجد كل من تعلي من شأنه الشاشة، نرضى بالجريمة وبالعهز وبالخيانة إن أظهرتهم الشاشة بشكل مثير ومحبيب. نعادي ونكره ونحقد على من تظهرهم الشاشة بأنهم همجيون وإرهابيون ومتخلفون، نتحالف ونحب ونبجل من تظهرهم الشاشة بأنهم حضاريون وأبطال وعابرة. وفي النهاية صرنا ننظر إلى العالم كله من خلال الشاشة، ونفكر أيضاً كما يريدنا القائمون على الشاشة. باختصار شديد لقد أصبحنا محاطين بأوهام الشاشة من كل جانب.

◀ مبشرة مورمونية

أمضى أبراهام أياماً طويلة وهو يتحرى عما سمعه من د.كويد، ولكن ذلك لم يكن سهلاً كما كان يتوقع؛ فهذا النوع من المعلومات كان نادراً جداً، نتيجة التعتيم والإخفاء المتعمد من قبل اليهود. وحتى ما استطاع النجاة منهم، فقد خضع إلى عملية تسفيه مُحكّمة من قبل وسائل الإعلام؛ سواء عن طريق النقد الجارح المتهم، أو التلاعب بالنص والدس والمبالغة، لإفقاده قيمته العلمية، وتصويره على أنه مجرد تنفيس أخرق حاق، ولا يخرج عن "نظرية المؤامرة" الساذجة. عندئذ أدرك أبراهام السبب الحقيقي وراء عدم تأثر الدكتور ديوك بالدعاية الصهيونية كالأخرين؛ فهو لم يكن يستقي معلوماته من الشاشة، بل من الكتب والتقارير، والمشاهدات الواقعية المجردة، وغير الخاضعة للتميق التحليلي أو التزويق الدعائي، أو المؤثرات البصرية الباهرة. ومن ثم كان خضوعه للتوجيه والبرمجة أقل بكثير من غيره.

لم يكن أبراهام بطبيعة الحال من المغرمين أصلاً بالشاشة الفضية الصغيرة (التلفاز) وبتحليلاتها الإخبارية عبر قنواتها الفضائية، وبالتأكيد لم يكن ممن يستقون معلوماتهم عن طريق ما تقدمه حكايات الشاشة الكبيرة (السينما) من إيجاءات ومواقف؛ ولكنه كان يستقي الجزء الأكبر من معلوماته فعلاً عن طريق الشاشة الإلكترونية الحاسوبية (الكومبيوتر)؛ صحيح أنه كان يشعر بأن لديه القدرة الكافية على التمييز بين الغث والسمين من بين الكميات الهائلة من المعلومات الضخمة الموجودة عبر الشبكة العنكبوتية، وأنه كان يتمتع بقدرة استثنائية بوجه خاص، على استخلاص الحقيقة المجردة، حتى من تلك "المنتجات الدعائية الفكرية" التي تظهر بعض الحقائق المغيبة، في سبيل إعادة تشكيلها وتمرير وهم معين، وفق مبدأ خلط السم بالعسل، إلا

أنه هذه المرة بالذات قرر عدم الاستعانة بأي نوع من الشاشات في بحثه.

بعد جهد كبير، استطاع أبراهام الحصول على بعض المراجع والتقارير المهمة التي نجت من الإبادة أو التحريف، واكتشف عن طريقها أن كثيراً من المسيحيين المخلصين قد تنهبوا للخطر اليهودي وزيف الشراكة "الأخوية" الواهمة التي استحدثت بين اليهودية والمسيحية، وحقيقة الأهداف من ورائها، وهوية المستفيدين منها، والتمن الذي يدفعه العامة بسبب ذلك. وما أعظم سعادته عندما تمكن أخيراً من الحصول على نسخة نادرة من كتاب "الأخوة الزائفة"^(١).

دخل أبراهام إلى منزل خاله الذي كان لحسن الحظ فارغاً، وولج إلى غرفته عازماً على ألا يخرج منها قبل إنهاء ذلك الكتاب النادر. وبينما هو على هذا الحال، رن جرس الباب، فقام ساخطاً ليفتحه ظناً منه أن أحد أبناء خاله قد نسي مفتاحه مجدداً، ولكنه وجد فتاة ذات ملامح شرقية، تستأذنه في الدخول لإطلاعها على "بشرى الله السارة". فأجابها متلعثماً:

- كنت سأذن لك بكل سرور لو كان هذا بيتي، ولكنني مجرد ضيف هنا فاعذريني.

فردت الفتاة بلطف مبالغ فيه قائلة:

(١) تأليف عضو مجلس الشيوخ الأمريكي "جاك تيني"، الذي أعده على أثر تكليف حكومة كاليفورنيا له بقيادة فريق عمل للتحري عن قوة خفية تسيطر على اقتصاد الولاية. وقد نشر التقرير بعد ذلك في كتاب خرج إلى الأسواق، إلا أن اليهود سارعوا إلى خنقه في مهده باستثناء نسخ نادرة تسربت إلى بعض المهتمين القلائل. وقد تعرض المؤلف إلى محاولة اغتيال خرج منها مشلولاً. ولكن عباراته التي صدرها مقدمته، تظل أحد أهم الإنذارات الصريحة للعالم، حيث قدم كتابه قائلاً: "إن هذا الكتاب ليس إلا صرخة لأبناء الولايات المتحدة والغرب والعالم أجمع يحذروهم من الصهيونية التي تسعى إلى السيطرة على البلاد وتغيير معالمها وتدمير الأمم والقضاء على الأديان كافة". مما قاله: "إنها القوى الصهيونية الخفية التي ورطت أمريكا في الحروب العالمية والحروب الفرعية الأخرى!! والقوى الصهيونية هي التي ستكون السبب في حرب عالمية ثالثة لإخضاع الدول العربية لإسرائيل وجعلها دويلات قزمه تدور في فلكتها".

- أنا مستعدة لأن أتكلم معك على الباب، دون الحاجة إلى الدخول.
فكر أبراهام في موقفه فيما لو جاء أحد أفراد عائلة خاله، ووجدوه يتكلم مع
مبشرة مسيحية، فقال مقترحاً:
- ما رأيك أن تنتظريني في تلك الحديقة المقابلة؟ سأبدل ملابسني وألحق بك
خلال خمس دقائق.
- لا بأس، ستجديني في انتظارك حالما تجهز.
- وجد أبراهام الفتاة تنتظره فعلاً عند أحد مقاعد الحديقة، ملوَّحة له بيديها،
فتوجه صوبها، وحيها مرة أخرى، ثم جلس بجوارها على المقعد. هنا قدمت الفتاة
لحديثها قائلة:
- إن الرب يحبك و...
- كان أبراهام متلهفاً لمعرفة كل ما يمكن عن جميع الطوائف المسيحية من فم
أصحابها، ولكنه كان متلهفاً أيضاً للعودة إلى الكتاب الذي لم يتم قراءته بعد، فقاطعها
قائلاً:
- أنا آسف جداً للمقاطعة، ولكن ربما لاحظت أن الجو ليس دافئاً تماماً، لذا
فلا داعي لأن تضيعي وقتي ووقتك في الكلام الإنشائي، ولندخل في صلب الموضوع
مباشرة. من أنتم وبم تختلفون عن بقية الطوائف المسيحية الأخرى؟
- نحن كنيسة يسوع المسيح كما أعيدت إلى أصلها في هذه الأيام الأخيرة. وهذا
هو ما يميزنا عن بقية الطوائف المسيحية الأخرى، كما أننا نبشر بإنجيل المسيح كاملاً.
- ماذا تقصدين بذلك؟
- أولاً نحن نؤمن بالعهد القديم والعهد الجديد، ولكن من دون التحريف. فنحن
نرى أن كل الترجمات الحالية، حتى "ترجمة الملك جيمس"، التي هي فعلاً من أصدق

الترجمات، تحتوي بعض المقاطع التي أسيئت ترجمتها بشكل كبير، وقد أجرى "جوزيف سميث" نفسه أكثر من ٦٠٠ تصحيح على ترجمة الملك جيمس نفسها، فما بالك ببقية الترجمات التي هي دونها؟ كما أنها تغفل للأسف عن كثير من الأجزاء البسيطة والقيمة^(١)، وتلك الأجزاء توجد في ثلاثة كتب تحوي كثيراً من الحقائق أخرى، لتشكل بالإضافة إلى الترجمة الصحيحة للعهد القديم والجديد، الكتاب المقدس ذا الأجزاء الأربعة، والذي يحوي "كلمة الله الكاملة". أحدهم هو هذا الكتاب الذي يسمى أيضاً "ملء الإنجيل" أو "كتاب المورمون".

- وما الكتابان الآخران؟

- كتاب "المبادئ والعهد": وهو مجموعة من الرؤى الحديثة التي توضح تنظيم الكنيسة وأعمالها ووظائفها، وفيه تعاليم الكتاب المقدس، ونبوءات عن حوادث ستأتي، ومعلومات كانت مفقودة لمئات السنين. وكتاب "اللؤلؤة النفيسة" الذي يحتوي على: "سفر موسى"، وفيه بعض رؤياه وكتاباتهما كما كشفت لسميث في عام ١٨٣٠م. وأيضاً "سفر إبراهيم" الذي ترجمه سميث من درج بردي مأخوذ من مقابر المصريين القدماء، وكتابات جوزيف سميث ذاته، التي تحتوي على جزء من ترجمة الكتب المقدسة، ومختارات من تاريخ الكنيسة المورمونية، وبنود الإيمان ورؤية الملكة السماوية. وفيه أيضاً "رؤية فداء الأموات"، وهي تروي زيارة يسوع المسيح للعالم الروحي، وقد أعطيت للرئيس جوزيف سميث في ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨م.

- من جوزيف سميث؟

- ألم تسمع به؟ إنه نبينا الأول!

- آه بالتأكيد، اعذريني.

(١) جاء هذا حرفياً في "كتاب المورمون" (١ نيفي ١٣ : ٢٦).

فضطرت إليه الفتاة نظرة متشككة، ثم بدأت تعرفه بنبيها قائلة:

- نحن نؤمن بالتنظيم نفسه الذي قامت عليه الكنيسة القديمة؛ أي: الرسل والأنبياء والرعاة والمعلمون والمبشرون. ونبينا الحالي هو "توماس مونسون" الذي هو الرابع عشر من أنبيائنا في الأيام الأخيرة. أما النبي الأول للأيام الأخيرة، جوزيف سميث، فقد ولد في ٢٣/١٢/١٨٠٥م في مدينة شارون بمقاطعة وندسور التابعة لولاية فرمونت. ولما بلغ الخامسة عشرة وجد الناس حوله منقسمين إلى طوائف مختلفة فشعر بحيرة واضطراب وقلق. وفي ربيع عام ١٨٢٠م ذهب إلى غابة، وأخذ يصلي منفرداً طالباً من الله الهداية. وبينما هو كذلك، شاهد نوراً فوق رأسه، تمثل في شخصين سماويين هما الله، وابنه يسوع، وقد نهاه عن الانضمام إلى أي من هذه الفرق، لأن رجال الدين فيها يحارب بعضهم بعضاً، والأهم من ذلك أن الوثنية قد دخلت إلى العقيدة المسيحية نفسها، وهو ما استوجب نزولهما عليه بغية إعادتها إلى الأرض، في هذه الأيام الأخيرة، مرة أخرى كما كانت في الأصل^(١).

- هذا مثير.

(١) الغريب أن أغلب الفرق المنشقة عن الديانات السماوية الثلاث يدعون رؤية الله جل جلاله أو أحد أوليائه في مكان منعزل، وأنه يختصم بكشف حقائق لم تكن معروفة من قبلهم، أو بتكليف شرعي جديد. ويصل الأمر عند بعضهم إلى درجة ادعاء التجسد النبوي أو حتى الحلول الإلهي. بعض المؤسسين يصرحون بذلك علناً إن كانوا في بيئة متحررة، وبعضهم، في البيئات الأكثر محافظة، يصرح بقسم مقبول، ويخفي عن العامة أفساساً أقل قبولاً. ومنهم من يخفي كل شيء، ويخص أتباعه الرجال البالغين فقط بتلك الأسرار الخطيرة، ويمنع عليهم البوح بها خارج الطائفة منعاً باتاً. والأغرب أن كل انشقاق منهم يعترض على بعض المحدثات في الدين، ويعيد إبراز بعض الحقائق المغيبة، ولكنه وفي المقابل يتدع محدثات أكثر من تلك التي انتقدها، ويعيد تأويل الحقائق بشكل يخرجها أصلاً عن معناها الحقيقي! وما لاشك فيه أن من يرويه هو إبليس نفسه، أو أحد أتباعه من الشياطين الذين ما فتوا يضلون الناس وينشئون الانشقاق على الانشقاق كي تختلط الأمور أكثر، وتضيع الحقيقة في خضم كم هائل من "أشباه الحقائق" (أو هام تشبه الحقائق ولكنها زائفة) فيتشكك الناس في أصول دينهم، وتلتبس عليهم الأمور.

- ولكنه للأسف خضع للسخرية، ولاضطهاد عنيف من جراء جهره برؤيته تلك. وزاد الأمر سوءاً، أن الوحي قد انقطع عنه لفترة، تورط خلالها بزلات طائشة.
- هه.

تضايقت الفتاة لتعبير السخرية الذي أفلتت من أبراهام، فسارعت إلى التوضيح قائلة:

- أرجو ألا تدع الخيال يجمع بك بعيداً. فقد كتب سميث في شهادته^(١): "وكثيراً ما أدت مخالطتي لشتى البيئات إلى اعتراف زلات طائشة، وإلى الاتسام بما للشباب من نزق، وما للطبيعة البشرية من قصور. وقد ورطني ذلك للأسف في ألوان من التجارب والآثام المبغضة إلى الله. ولا يتبادر إلى الذهن بسبب هذا الاعتراف أنني ارتكبت إثماً فظيلاً أو وزراً منكرًا، فما كان بي نزوع قط إلى مثل هذه الأوزار أو تلك الآثام".

- ومتى عاد إليه الوحي ثانية؟

- في مساء ٢١ أيلول/سبتمبر ١٨٢٢م نزل عليه ملاك من السماء اسمه "موروني"، وأخبره بأنه قد أعده لمهمة ينبغي عليه إنجازها، وأخبره عن كتاب نقشته كلماته على صحائف من الذهب، فيها الإنجيل الحقيقي، وتروي أخبار القوم الذين استوطنوا القارة الأمريكية في الأزمنة الغابرة، وتاريخ السلف الذين انحدروا منهم. وأنبأه عن حجرين في قوسين من الفضة لترجمة الكتاب، ثم غادره الملاك بعد أن نهاه عن إطلاع أحد من الناس على هذه الصحف. وبالفعل قام "يوسف سميث بالحفر" في هذا المكان ووجد اللوائح الذهبية.

- وما دخل شعوب القارة الأمريكية بالموضوع؟

- لقد زار يسوع المسيح شعب القارة الأمريكية بعد قيامه من الموت مباشرة، وأسس كنيسته، ثم صعد إلى السماء.

- حقاً؟

(١) شهادة جوزيف سميث، ص ٧.

- بالتأكيد؛ فكتاب "عهد آخر ليسوع المسيح"^(١) هو سجل مقدس لبعض الناس الذين عاشوا في قارة أمريكا بين ٢٠٠٠ ق.م إلى ٤٠٠ بعد الميلاد. وفيه قصة هجرة بني إسرائيل في عام ٦٠٠ ق.م إلى القارة الأمريكية.

- بنو إسرائيل ثانية؟!؟

- أجل، حدث ذلك عندما ترك "لحي" وعائلته أورشليم مستقرين في القارة الأمريكية. فكان من سلالته "النافيون" وكذلك "اللامانيون"^(٢) وقد ترجم سميث السجل المقدس من المصرية القديمة إلى الإنجليزية.

- كيف استطاع ذلك؟!؟

- بفعل "نعمة الله وقوته"^(٣). فقد كان يضع الحجرين المقدسين اللذين وجدتهما مع الإنجيل في قبعته، ثم يضع القبعة على وجهه فينزل عليه الوحي، وبذلك استطاع أن يقوم بترجمة هذه الألواح الذهبية. وقد توالت الرؤى على جوزيف، حتى بلغت نحو ١٣٥ رؤيا على مدى ١٥ عاماً.

- وهل هناك تأكيد محاييد على صحة ترجمته^(٤)؟

(١) اسم آخر لكتاب المورمون.

(٢) يدعي المورمون أن الأمانيين هم جدود الهنود الحمر، أما النافيون فقد انقرضوا، ولم يبق منهم في سنة ٤٠٠م سوى شخص واحد وكان اسمه مورموني.

(٣) المبادئ والعهد ١٣٥ : ٣.

(٤) بعد أن استلم الألواح في ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٨٢٧م متعهداً بإعادتها بعد نهوضه بالمطوب، رحل عن مقاطعة مانسستر الأمريكية إلى حيث يعيش حموه في مقاطعة سوسكويهانا بولاية بنسلفانيا، الذي صار سنداً قوياً له، بما تمتعت به أسرته من مكانة طيبة، وأعانته على نشر أفكاره. وشرع بترجمة الصحف إلى اللغة الإنجليزية بطريقة القبعة، مملياً الترجمة على ذلك الثري. ولكن زوجته شكت بالأمر وطلبت منه أن يدعي ضياع الترجمة ويطلب منه ترجمة الألواح ثانية، لتقارن بين الترجمتين وتتأكد من صدقه. وقام الثري بالفعل بذلك، وعاد إلى جوزيف سميث الذي غضب بشدة للخبر، وطلب منه العودة إلى بيته، ثم استدعاه في اليوم التالي، وقال له: إن الله غضب عليه، على جوزيف، لأنه أعطاه الأوراق، وأمره بعدم الترجمة من اللوح الأول بل من الثاني!!!

- بالطبع؛ فقد أخذ "مارتن هاريس" بعض الحروف وشيئاً من الترجمة، وعرض ذلك على الأستاذ "تشارلز آنتون"، والدكتور "ميتشيل"، فأقرا بأن ما رأياه إنما هو ترجمة عن اللغة المصرية القديمة، وأن الأصل إنما يتألف من حروف مصرية قديمة، وحروف كلدانية، وحروف آشورية، وحروف عربية. ثم أعيدت الألواح الذهبية إلى الملك مورموني بعد أن اكتملت المهمة، فأعادها بدوره إلى السماء.

- وعندها أسس سميث الكنيسة المورمونية.

- كلا، لأنه لم يكن قد تلقى الأمر الإلهي بهذا حتى ذلك الحين. ولكن في ٢٥ أيار/مايو ١٨٢٥م ذهب مع "أوليفر كودري" للصلاة في الغابة حيث هبط عليهما "يوحنا المعمدان"^(١) وأمرهما بأن يعمد كل منهما الآخر، وأخبرهما بأنه قد جاء إليهما تنفيذاً لأمر بطرس يعقوب، ورسمهما لرعاية الكنيسة الحقيقية. وفي عام ١٨٣٠م وبحضور عدد من الشخصيات أعلن عن تأسيس "كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة".

- ما معنى "قديسي الأيام الأخيرة"؟

- بعد فترة وجيزة من ظهور العهد الجديد، أصبحت جميع الكنائس مهرطقة وتمكنت الوثنية منها، ولم يعد وجود لأي قديس حقيقي، إلى أن تأسست الكنيسة الحقيقية ليسوع المسيح.

- أي إنكم القديسيون الحقيقيون في هذه الأيام التي تعتبرونها الأخيرة؟

- أجل، وإن شئت الحقيقة، فإن كل من هم غير مورمون أو غير يهود يعتبرون

من "الأمم"^(٢).

- غوييم ١٩

(١) تقصد نبي الله يحيى عليه السلام.

(٢) الأميون.



- أجل، هل أنت يهودي.

- يهودي روسي.

- نحن نؤمن بتجمع إسرائيل الحرفي، واستعادة القبائل العشر، وأن المسيح قد جاء في الأساس لينقذ اليهود من الاضطهاد، وليمكنهم من الأرض؛ ٣ قاله أعطى وعده لإبراهيم، ومن ثم لابنه يعقوب بأن من ذريته سيكون شعب الله المختار. وفي هذا الزمان تعهد الرب بأنه سيجمع بني إسرائيل ليتعلموا الإنجيل. كما أن موسى قد نزل على يوسف سميث عام ١٨٣٦م في هيكل كيرتلاند، وأعطاه سلطة جمع "بيت إسرائيل".

- هيكل؟ أليس لكم كنائس؟

- الهيكل منفصل عن الكنيسة، وفيه فقط يتسلم المؤمنون المراسيم المقدسة، كما تقام فيه مراسم الزواج أيضاً.

- وهل هناك يهود بينكم؟

- بالطبع، كما أن بيت إسرائيل الآن في طريقه إلى الجمع، إذ إن آلاًفاً من الإسرائيليين ينضمون إلى الكنيسة سنوياً.

- ما تنبؤاتكم حول هذا الموضوع بالذات؟

- سيجمع سبطاً "أفرايم" و"منسي" في أرض أمريكا، وسيعود سبط "يهودا" إلى اورشليم. كما أن الأسباب العشرة المفقودة ستسلم البركات التي وعدت بها من سبط أفرايم في أمريكا.

- ومتى سيكتمل ذلك؟

- في المجيء الثاني للمخلص، الذي سيعود ليملك الأرض ويملاها جنات خالداً، وعندها ستكون هناك عاصمتان في العالم؛ الأولى في اورشليم، والثانية هنا في أمريكا

"صهيون الجديدة". لأن من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم تخرج كلمة الرب.

- إذن أنتم مناصرون لدولة إسرائيل.

- بالتأكيد.

ثم فتحت كتابها وقرأت في الإصحاح العاشر الفقرة ٣١:

- "فاستيقظي وانتفضي من الثرى يا أورشليم، نعم... والبسي حللك الجميلة يا

بنة صهيون، ووسعي حدودك إلى الأبد، لكي لا تعودى مغلوبة، ولكي تتحقق عهد الأب

الأزلية التي قطعها معك، يا بيت إسرائيل". وهنا في الإصحاح الرابع عشر فقرة ٦

يقول الكتاب مخاطباً قديسي الأيام الأخيرة: "لا تعطوا أورشليم للكلاب ولا تطرحوا

دوركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت لتمزقكم"، والكلاب والخنازير هنا

هم المحمديون.

- تؤمنون أن هذه الآيات موجهة إليكم تحديداً؟

- بالطبع، فكنيستنا أنشئت لتكون كنيسة القديسين الحقيقيين في الأيام الأخيرة.

- هل تظنون أنتم أيضاً أن الإيمان بفداء المسيح كاف للخلاص؟

- كلا؛ فالخلاص يتم بالأعمال فقط. كما نؤمن بأن البشر سيعاقبون من أجل

خطاياهم، وليس بسبب أكل آدم من شجرة المعرفة.

- هذا جيد. حدثيني عن طقوسكم الدينية.

- نحن نقدر يوم السبت لأن الله استراح فيه بعد انتهائه من خلق الكون، ويوم

الأحد الذي كان فيه قيام المسيح بعد صلبه. ونمارس التعميد^(١) والقربان، حيث كانت

القربان قبل المسيح تقدم على شكل ذبائح من الحيوانات، لكن كفارة المسيح بقتله

(١) وذلك بأن ينزل رجل الدين إلى الماء مع الشخص الذي يريد تعميده، فيغطسه في الماء ثم يخرج، وبذلك

تنتهي الحياة الخاطئة، وتبدأ الحياة الجديدة. وهي تسمى عندهم بـ "الميلاد الثاني".

أنهت هذا النوع من القرايين، وصارت عبارة عن خبز ونبيد مصحوبة بالصلوات. ولكن خلال رؤية حديثة لقديسي الأيام الأخيرة أصبحت خبزاً وماء.

- هل تحرمون النبيذ؟

- أجل، ونحرم كل المسكرات الكحولية والتبغ والدخان بكل أنواعه، ونمتنع عن شرب القهوة والشاي لما يحتويان عليه من عقاقير مضرّة^(١)، ونحذر من تناول المشروبات الفوارة والمياه الغازية^(٢).

- وماذا تبيحون؟

- نحن نبيح اللحم، ولكن لا نسرف في أكله. ونتناول الفواكه والخضر والبقول والغلل، ونركز على القمح بخاصة، لأنه نافع لجسم الإنسان ويؤدي إلى المحافظة على صحته وقوامه.

- هل تصومون؟

- بالتأكيد، ولكن الصوم عندنا لم يفقد معناه الحقيقي كبقية الطوائف المسيحية الوثنية؛ فهو عندنا الامتناع عن الطعام والشراب مدة أكلتين متتابعتين، وبذلك يصوم الشخص أربعاً وعشرين ساعة من غروب الشمس إلى الغروب التالي^(٣)، فإذا أكل أحدنا العشاء، فلا يجوز له أن يأكل مرة ثانية حتى العشاء الآخر^(٤)، كما يقدم الصائم للقائد الكهنوتي إما مالاً أو طعاماً مساوياً لطعام الوجبتين، وهذا يسمى بـ"عطاء الصوم".

(١) جدير بالذكر أن جوزيف سميث كان يرقص ويشرب الخمر ويشترك في المصارعة وقد كتب يقول: "خلق الإنسان ليتمتع بحياته".

(٢) يعتبرون الكولا أشدها خطراً.

(٣) كان هذا، والله أعلم، شبيهاً بالصوم الذي أقره الله سبحانه وتعالى على الأمم من قبلنا، وعلى أمتنا أيضاً قبل أن يخفف عنها. وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٤) قد يتكرر الصوم في اليوم التالي، ولكن عادة تكون هناك فترة بين يوم وآخر. (كصوم داوود عليه السلام الذي كان يصوم نصف الدهر) وتجدر الإشارة إلى أن بعض مشايخ الطائفة الدرزية يتمسكون بنوع شبيه من ذلك الصوم.

- يبدو أنكم تعودون فعلاً إلى شريعة الرب، ولقد سمعت أنكم كنتم تبيحون تعدد الزوجات كما شرع الرب زمن الكتاب المقدس. فلماذا عدلتم عن ذلك؟

- لم نعدل عن ذلك بتاتاً، فهذه سنة الكتاب المقدس وأنبياؤه، ونحن نؤمن أن المسيح نفسه تزوج من مريم المجدلية و"يوتا" وغيرهما. وقد مارس المورمون التعدد علانية حتى عام ١٨٩٠م، وكانوا لا يسمحون بذلك إلا لذوي الأخلاق العالية، على أن يثبتوا قدرة على إعالة أكثر من أسرة. وقد مارس يوسف سميث هذا التعدد. ولكن الكنيسة تخلت عن التعدد ظاهرياً في عهد نبينا "لفورد" نتيجة للضغط الشديد الذي قوبلت به من قبل الطوائف الأخرى، وكذلك بغية التمكن من الانضمام إلى السلطات الاتحادية. ولكن على الرغم من التحريم الرسمي العلني، إلا أن رجالنا لا يزالون يمارسون التعدد سراً. فبخلاف بقية الطوائف، نحن نحرم الزنا تحريماً مطلقاً تماماً.

- ما مصدر تمويلكم؟

- يجب على كل فرد أن يدفع العشر مما يكسبه، على أن يكون ذلك مصحوباً بالفرح والسرور، كما ندفع عطاء الصوم، واشتراكات مختلفة، هذا غير العطايا التبرعية، لذلك فإن كنيستنا تعتبر من الكنائس الموسرة جداً^(١).

- كم كان عدد أعضائها حين إنشائها؟

- ستة أعضاء فقط. ثم رحل سميث وأتباعه عن نيويورك إلى مدينة كيرتلاند بولاية أوهايو، حيث شيد هيكلًا عظيمًا، وقام بعمل تبشيري واسع النطاق في تلك المنطقة وما جاورها. وبعد ذلك بعث بالعديد من الإرساليات إلى مختلف الولايات الخمسين للتبشير ولاكتساب المؤيدين. ولكن عندما كثر عدد المؤمنين، تعرضوا للاضطهاد، فتنزلوا عن منازلهم ومزارعهم، ورحلوا إلى ولاية إلينوي، حيث اشتروا

(١) قدرت "ممتلكات" كنيسة المورمون بما يزيد على ١٥ مليار دولار في ١٩٨٣، وبما يزيد على ٥٠ مليار دولار في ٢٠٠٠م.

المستقعات الشاسعة المهجورة على شاطئ المسيسي وقاموا بإصلاحها وبنوا مدينة نوفو (أي الجديدة)، وبعد مقتل جوزيف سميث آلت رئاسة الكنيسة والنبوة إلى "بريجام يونج" الذي رحل بالقوم إلى جبال روكي^(١)، حيث حدد لهم مكان إقامتهم فبنوا مدينة "سولت ليك"^(٢)، وفيها الآن مركز متطور جداً للمعلومات.

- كيف قتل سميث؟

- لقد سجن هو وأخوه "هايرم" في مدينة كارسيج بولاية إلينوي لاتهامات ملفقة ضدهما، وبينما هما في السجن دخل عليهما مسلحان مقنعان فقتلاههما بالرصاص. وقد حدث ذلك في ٢٧ حزيران/يونيو ١٨٤٤م.

- ما طبيعة تلك الاتهامات؟

- التحريض على تدمير إحدى الصحف^(٣).

- ما هي نظرتكم إلى الثالث؟

- نحن لا نعتبر الأب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم لإله واحد، بل ثلاثة كينونات منفصلة. الأب السماوي هو رجل ممجد له جسم من لحم ودم، والابن كذلك، ولكن الروح القدس ليس من لحم ودم، بل هو شخصية روحية؛ ولو لم يكن كذلك، لما استطاع الروح القدس السكن فينا.

- الرب رجل من لحم ودم!!!

(١) ظلت أرملة جوزيف سميث، المدعوة إيماء، في إلينوي، وبقي معها الذين أقروا بابنها "جوزيف سميث الثالث" كخلف حقيقي لوالده ونبي للكنيسة، وأسسوا "كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة المعاد تنظيمها"، والتي يقع مقرها الآن في مدينة إندبندنس، ولاية ميزوري.

(٢) تعني حرفياً "البحيرة المالحة" وهذه المدينة هي مقرهم الرسمي، وتقع في ولاية يوتاه الأمريكية.

(٣) صحيفة "المفسر" Expositor في مدينة نوفو، إلينوي. فنتيجة لانحرافاته الكثيرة تخلى عنه بعض أصدقائه وكشفوها في تلك الجريدة، فما كان من جوزيف إلا أن حرق مبناه.

- في الواقع، هذه هي الحقيقة. فالله الأب هو كائن بشري "ممجّد" اسمه "إلوهيم" قام من الموت، وكما قال جوزيف سميث: "لو رفع الستار اليوم، ولو كان الله الذي يمسك هذا العالم في مداره، والذي يدعم كافة العوالم والأشياء بقوته، يجعل نفسه مرئياً، لرأيتموه بشكل إنسان"^(١).

- وكيف أصبح إلهاً باعتقادكم؟!!!

- بالامتثال إلى وصايا إلهه وتعاليمه؛ حيث رفع إلى التمجيد أو الطبيعة الربوبية عبر "التدرج الأزلي"، تماماً كما فعل يسوع المسيح.

- أي هناك رب للرب؟

- تماماً. وألوهيم ورث كونه الخاص، وأنجب أطفالاً روحيين في السماء مهيين للحياة البشرية على الأرض. ويعتبر كل البشر، بالإضافة إلى يسوع المسيح، حتى "لوسيفر" (الشيطان)، أبناء السماويين^(٢).

- وبماذا يختلف يسوع عن بقية أبناء الرب برأيكم؟

- يسوع المسيح هو بكر الأطفال الروحيين للأب السماوي في السماء، ولد من الله عبر مريم العذراء "بالمعنى الحرفي والكامل والتام" لذات "المعنى الذي هو فيه ابن مريم"^(٣). ويشكل هذان العنصران المتعلقان بكون يسوع المسيح ابناً حرفياً لله، فرادته في اللاهوت؛ حيث كفر يسوع المسيح عن خطيئة آدم في "بستان جثيماني" وعلى الصليب أيضاً وضمن القيامة والخلود للبشرية جمعاء.

- وهل يعني ذلك أن جميع البشر يمكن أيضاً أن تصبح آلهة؟

(١) تعليم النبي جوزيف سميث، ص ٣٤٥.

(٢) المبادئ والعهد، ١٣٠ : ٢٢.

(٣) بروس ماكونكي، شهادة جديدة لبنود الإيمان، دار نشر دزرت للكتاب، ١٩٩٣، ص ٦٧.

- بالتأكيد، فالبشر "آلهة في الحالة الجينية".

- وكيف ذلك؟

- يملك كل كائن بشري إمكانية في أن يصبح إلهاً عبر المحافظة على تعاليم الكنيسة، وهناك تصريح معروف عندنا يقول: "مثلما كان الإله ذات مرة إنساناً، كذلك الإنسان، قد يصير إلهاً". ومن الوجود الروحي قبل الولادة في السماء، يمكن أن يولد البشر على الأرض بهدف ممارسة الحرية في اختيار الخير أو الشر، وللحصول على جسد من أجل القيامة. لذا يتصف البشر بأنهم صالحون في الجوهر، ولكنهم سيعاقبون على خطيئتهم^(١)، غير أنه من خلال المحافظة على تعليم المورمون وطاعة الكنيسة والنبي، قد يجتاز الذكور المورمون المستحقون الحراس السماويين بعد القيامة، مصطحبين زوجاتهم معهم، ويبلغون حالة شبيهة بإيلوهيم، فتمحى آثار خطيئتهم بتقديم ولائهم للمعتقدات المورمونية. وفي القيامة، يرفع المورمون المخلصون إلى الطبيعة الربوبية، ويمارسون السيادة على عالمهم. وقد قال سميث في إحدى مواعظه: "عليكم تعلم كيفية التوصل إلى أن تصبحوا آلهة بأنفسكم، وأن تصبحوا ملوكاً وكهنة لله، تماماً كما فعل جميع الآلهة من قبلكم؛ أي بالانتقال من درجة صغيرة إلى أخرى، ومن قدرة صغيرة إلى قدرة عظيمة، من نعمة إلى نعمة أخرى؛ من مجد إلى مجد آخر، إلى أن تصلوا إلى قيامة الأموات، وتتمكنوا من السكن في النار الأبدية ومن التربع في المجد، مثل الذين يتربعون على عرش المجد في القوة الأبدية". وحتى على الأرض يمر المورموني بمراحل تطور عديد؛ فهو يعمد في الثامنة، وفي عمر الـ ١١ و ١٢ يطلق على العضو في الكنيسة اسم الشمساس، وفي الـ ١٤ المعلم، وفي الـ ١٦ الكاهن، وبعد الـ ١٨ يسمونه الشيخ. ويطلقون على الفتاة أو السيدة لقب "الأخت" وهي ليست راهبة.

- هل ينطبق ذلك على السود؟

(١) المورمون لا يؤمنون بالنار، بل بشيء اسمه "المنبذ المظلم" حيث تتوه به الأرواح المرفوضة إلى الأبد.

- إن أردت الحقيقة دون لف أو دوران، فالكهنوت لا يجب أن يعطى للزواج؛ لأن الزنجي ملعون من أيام كنعان بن حام ولا يستحق هذه المرتبة. ولكن حرصاً على مشاعرهم ورغبة في نشر كلمة الرب فقد تم التفاوضي عن ذلك^(١).

- كم عددكم الآن؟

- يربو على ثلاثة عشر مليوناً حول العالم، منا قرابة ستة ملايين في الولايات المتحدة، التي تشكل فيها رابع أكبر طائفة دينية، ونحو مئتي ألف في كندا. ويوجد بيننا شخصيات بارزة في مجلس الشيوخ الأمريكي ومجلس النواب، وأحدهم "ميت رومني"، كان مرشحاً رئيسياً عن الحزب الجمهوري^(٢) قبل أن يتنازل، للأسف الشديد، لجون ماكين الذي هزم فيما بعد على يد الرئيس الحالي باراك أوباما.

- وهل تظنين كأمركية أن الشعب الأمريكي كان يمكن أن ينتخب مورمونياً

كرئيس له؟

- أنا أردنية^(٣) ولست أمريكية. ولكن لم لا ينتخب الأمريكيون مورمونياً؟! فقد

جرى استفتاء في عام ١٩٩٩ عن الاستعداد لانتخاب شخص بمواصفات ممتازة لتولي

(١) مع ازدياد الضغوط عليهم من قبل كثير من المنظمات الإنسانية قالوا أخيراً إن الله غيّر رأيه في عام ١٩٧٨ بمجيء وعد بأن ينال الزواج الكهنوت، ولكنهم في السماء سيكونون خدامين للمورمون. ومن آرائهم

العنصرية الأخرى أن الهنود الحمر هم يهود سخطهم الله بحرق جلودهم حتى تحولت للون الأحمر. (٢) الحاكم السابق لولاية ماسوشيتس، وعندما كان مرشح الرئاسة الأمريكية للحزب تحدث أمام حشد من أنصار الحزب الجمهوري بمكتب الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب بولاية تكساس ليفند الانتقادات التي يتعرض لها بشأن انتمائه للطائفة المورمونية، ساعياً إلى تغيير النظرة السلبية عنها. وفي خطابه ذك أشار رومني إلى أن: "أمريكا تواجه غمطاً جديداً من التحديات، فالإسلام المتطرف الذي يتبنى العنف يسعى إلى تدميرنا، كما تحاول الصين أن تتفوق على زعامتنا الاقتصادية، ونحن في الداخل مهمومون بالتبذير الحكومي، والاستهلاك الكبير للنفط والتفكك الأسري".

(٣) للمورمون وجود ملحوظ في الأردن، وكنيستهم في جبل عمان تقريباً مقابل مستشفى الخالدي جوار "نزل دلون". ولهم وجود أقل في لبنان، ويسعون حالياً لنزع الاعتراف بهم على أنهم الطائفة التاسعة عشرة هناك، ومقرهم الحالي في حرج ثابت في سن الفيل.

منصب إداري مهم، وكانت نتيجة فيما لو كان من المورمون هي: ٧٩٪^(١).

- وماذا تفعلين هنا في الولايات المتحدة؟

- أوزع كتاب "عهد آخر ليسوع المسيح" هديتك من "كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة".

قالت ذلك وهي تقدم له نسخة كهدية، فأجابها مندهشاً:

- هل جئت من الأردن لهذا السبب؟!

- ليس تماماً؛ فقد قدمت في البداية من أجل إكمال دراستي الجامعية، ولكن أغلب المؤمنين المورمن يكرسون عامين من حياتهم ليبشروا، في أي مكان ترسلهم الكنيسة إليه. وقد أوقفت دراستي الجامعية مؤقتاً عندما جاء دوري في الخدمة^(٢).

- هل كنت مسلمة قبل ذلك؟

- كلا بالطبع.

قالت بقرف، ثم أردفت موضحة:

- لم أكن بلهاء ومتخلفة إلى هذه الدرجة. فقط كنت مسيحية كاثوليكية كما هم أهلي إلى الآن للأسف.

- إذن أوقفت دراستك من أجل توزيع كتاب، وأهلك يظنون أنك لا تزالين تدرسين في الجامعة؟!

- إن خدمة الرب أهم من مجرد تأخير تخرجي لعامين، فهذا الذي بين يديك ليس مجرد كتاب، لأن تعاليمه أعطتني السلام الحقيقي الذي يأتي من فهم المخلص،

(١) بقية النتائج كانت كالآتي: فيما لو كان امرأة ٩٥٪، روماً كاثوليكياً ٩٤٪، يهودياً ٩٢٪، شاذاً جنسياً ٧٩٪، ملحداً ٤٩٪.

(٢) كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة تضم اليوم أكثر من ٥٨٠٠٠٠ مبشر معينين في ١٦١ بلداً أغلبيتهم من الشباب المتطوع.

وما هو مخطط أبي السماوي لي: الآن، وبعد هذه الحياة. لذا فأنا أعرف أنه قادر على منح السلام نفسه لك أيضاً، ولجميع الناس.

- حسناً، سأذهب الآن، وأشكرك على سعة صبرك.

- بل أنا التي أشكرك على تفتح عقلك. اكتب لي بريدك الإلكتروني من فضلك.

- لماذا؟

- اقرأ هذه النسخة الإنجليزية التي أهديتها لك، وستصلك خلال أيام نسخة

أخرى، مع كتب عديدة باللغة الروسية، هدية من الكنيسة^(١).

أعطائها أبراهام عنوانه الإلكتروني، ثم ودعها مفادراً، وقد ظلت عبارتها الأخيرة

تلاحقه:

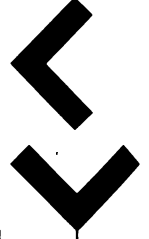
- في تلك الكتب ستجد الحقيقة التي يبحث عنها كل أولئك الحيارى الذين

يتخبطون بين الأديان المزيفة.

(١) بشكل عام وبعيداً عن التبشير، فإن موقع الكنيسة يوزع النسخة الإنجليزية مجاناً، ويبيع نسخ الكتاب

الترجمة لنحو ١٨٠ لغة بثلاثة دولارات.

توحيد التآليه



وتشمل:

الموحدون المسيحيون

الاعتراض برنابا

الأصل

لاهوت الشذوذ الجنسي

تنزيه دون غلو

إسرائيليات

متبع ام مبتدع

وجهة نظر أخرى

الصغير

توحيد التآليه



الموحدون المسيحيون

جلس أبراهام في مقهى للإنترنت يحمل كتب المورمون التي وصلتته عبر بريده الإلكتروني، ثم راح ينقب في تاريخ المسيحية، ليعرف هناك ما يؤكد تعدد الزوجات في المسيحية الأولى، فوجد أن المسيحيين القدماء كانوا يبيحون تعدد الزوجات فعلاً، وأن بعضهم كالإسبانيين^(١) كانوا يسمحون بالزواج مرتين وثلاثاً إلى سبع مرات حسب العلامة "أبيفانيوس" الذي يعطي أكبر قدر من المعلومات عنهم. وهو يقول أنهم كانوا يستخدمون إنجيل متى بدون سلسلة نسب المسيح، وأنهم لم يعترفوا إلا بأصل بشري للرب يسوع ورفضوا تأليهه، وهو لذلك يجمعهم مع بقية "طوائف الناصريين"^(٢) معتبراً

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف .

(٢) يقصد بني إسرائيل الذين آمنوا بعيسى عليه السلام، متمسكين بالناموس، ورافضين التآليه والتثليث .

أنهم قد هرطقوا جميعاً. أما "إيريناوس"^(١) و"ترتليانوس"^(٢) وهيبوليتس^(٣) فكانوا يرون أن أهم ما يميز الإسينيين أنهم لم يفرقوا، مثلما كان يفعل غيرهم من الغنوصيين كالكيرنثيين والكربوكراتيين، بين الله الأسمى وبين خالق العالم (الديمرج) الذي كان يقول عنه الغنوصيون إنه إله اليهود، بل كانوا يعتقدون أن "يهوه" هو الله الأسمى الواحد، خالق السماوات والأرض.

تحرى أبراهام عن بقية الطوائف المسيحية الأولى، ووجد بينها اختلافات كبيرة لم تكن تخطر له على بال، ووجد نفسه متفقاً مع المفكر "التر بوير" الذي قال: إنه "لم تكن هناك أي وحدة في العقائد المسيحية الأولى". وكذلك مع "أدولف فون هارناك" الذي قال: "إن العقائد قد خلقت الانقسامات الشديدة، وإن الهرطقة والأصولية أصبح لكل منها منهجه. لذلك يتكون تاريخ المسيحية من سلسلة ممتدة من الانقسامات والمعارك الضارية القائمة على خلافات عقائدية جذرية".

تراجع أبراهام بكرسيه إلى الوراء قليلاً كي يعطي نفسه فرصة للتفكير بما قرأه، ويقارن بين الموحدين المسيحيين القدماء، وبين من يمكن أن يعتبروا من الموحدين المسيحيين حالياً كشهود يهوه الذين تعرفهم في ألمانيا، ثم أشاح بوجهه عن شاشة الجهاز كي يريح قليلاً عينيه المجهدتين، إلا أنه لاحظ دون قصد منه، أن جارتته التي تجلس على الجهاز الملاصق، قد فتحت بعض الصفحات التي قد فتحها هو نفسه، ولكن بنسختها الإنجليزية، وعندما لاحظت تسمر عينيه على شاشتها، نظرت إليه بعتاب. فقال معتزلاً:

(١) ١٤٠ - ٢٠٢ م.

(٢) ١٥٤ - ٢٢٠ م.

(٣) ١٧٠ - ٢٣٥ م. وبالنسبة إلى التقليد الكنسي فإن هيبوليتوس هو أول بابا مزيف، ولكنه مع ذلك يعد طبق التقليد نفسه قديساً، شهيداً. وهو أول كاتب كنسي كتب باللغة اليونانية في روما.

- أنا آسف فلم أقصد التطفل؛ كل ما في الأمر أننا من قبيل المصادفة نفتح صفحات المواقع ذاتها.
- نظرت إلى شاشته بفضول، ودهشت عندما استعرض لها بعض النوافذ التي تؤكد فعلاً ما قاله لها. فقالت له مبتسمة:
- مع أن اللغة غير مفهومة بالمرّة، إلا أن بعض المواقع تبدو من شكلها وألوانها وكأنها المواقع نفسها التي أزورها حالياً. ما هذه اللغة؟ هل هي روسية؟
- أجل، فأنا روسي واسمي أبراهام.
- مرحباً أبراهام أنا "جاكلين".
- تشرفت بمعرفتك آنستي. ولكن عن ماذا تبحثين؟
- عن بدايات المسيحية الأولى.
- لماذا؟
- تلك قصة طويلة.
- ما رأيك أن نتبادل المعلومات؟ فأنا أيضاً أبحث في تاريخ المسيحية الأولى.
- وأنت لماذا تبحث في ذلك؟
- لأنني أولف كتاباً عن الأديان.
- إذن سأوافق على دعوتك لتبادل المعلومات ما دمت متخصصاً.
- وتروين لي قصتك الطويلة؟
- إذا كنت تملك الوقت والصبر الكافيين لذلك.
- لا تقلقي من هذه الناحية، فهذا هو عملي.

- إذن اتفقنا، وأول معلومة سأبادلها معك هي هذا الإنجيل المثير الذي وجدته الآن، ويدعى "إنجيل برنابا"^(١).

- لقد مر علي فعلاً ذكر ذلك الإنجيل، ولكنني لم أقرأه.

- هل تسمح لي باستخدام جهازك؟

- تفضلي.

قلبت جاكين قليلاً بين النوافذ المفتوحة على شاشته، ثم توقفت عند إحداها قائلة:

- لقد حملته من هذا الموقع، فابحث عن الإنجيل فيه ثم حمل النسخة الروسية إن وجدت.

وبعد عدة محاولات، وجد أبراهام نسخة إلكترونية من ذلك الإنجيل، فحملة إلى جهازه فوراً، ثم قال لها:

- ها قد حملته، وسأقرؤه في البيت لاحقاً.

(١) يعتبر إنجيل برنابا وثيقة إدانة مهمة ضد التحريف الذي أحدثه بولس وغيره في العقيدة المسيحية، كما يعد شاهداً على صدق النبي محمد *؛ فهو يقر بوحدانية الله عز وجل، وبيشيرية المسيح عليه السلام، ويشير برسول الإسلام باسمه الصريح "محمد" عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وكما هو متوقع فقد رفضته الكنيسة الرسمية، وحاربه منذ بداياتها، تماماً كما حاربت وحرقت بقية الأناجيل التي لا تتفق مع رؤيتها العقائدية. ومع أنه كان ضمن قوائم الكتب الممنوعة بشدة من قبل الكنيسة، ومحرم قراءتها بأوامر الباباوات، إلا أنه من لطائف الله تعالى أن المكتبة البابوية نفسها كانت تحتفظ بنسخة منه لمدة طويلة، تلك النسخة التي وجدت طريقها إلى النور بظروف معينة. ولكن هذا لا يعني أن النسخة التي نجت من حرب الإبادة ومن المكتبة البابوية، كانت هي نفسها التي وصلتنا؛ فما وصلنا هو نسخ لترجمات إيطالية وإسبانية عنها، وقد عانت للأسف بعض العبث البشري. ولكنها ومع ذلك تظل من أقرب نسخ الأناجيل المكتشفة حتى الآن إلى الإنجيل الحقيقي لرسول الله عيسى عليه السلام، وذلك وفق المنطق والدراسة المستفيضة، ووفق المكتشفات الأثرية الحديثة نفسها. وللمزيد من التفاصيل حول إنجيل برنابا ونسخه الناجية راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- وأنا أيضاً أنوي قراءته اليوم بتمعن، فقد أذهلتني الحقائق التي وجدتتها فيه حين كنت أتصفحه، وهي توافق ما أؤمن به.
- أيّ حقائق تعنين؟
- أهمها أن المسيح كان بشراً رسولاً، وليس إلهاً كما تدعي أغلبية الطوائف المسيحية الحالية للأسف.
- صعق أبراهام من جوابها، فهذا هو عين ما كان يبحث عنه، فسألها قلقاً وهو يتضرع إلى الله أن يكون جوابها بالنفي:
- هل أنت من شهود يهوه؟
- كلا بالطبع؛ فهؤلاء رغم عدم إيمانهم بألوهية يسوع، إلا أنهم أبعد ما يكونون عن المسيحية الحقيقية والتوحيد.
- فتهد أبراهام بارتياح، مستشعراً إرشاد الله له إلى بداية طريق الحقيقة بعد رحلته الطويلة الشاقة، فسألها متلهفاً:
- فما طائفتك إذن؟
- تلك هي القصة الطويلة.
- ما رأيك لو ذهبنا إلى الركن المخصص لتناول المشروبات، وتحدثنا بالموضوع دون أن نزعج من حولنا هنا؟
- فنظرت حولها، ثم قالت موافقة:
- معك حق؛ فيبدو أن الآخرين متضايقون من حديثنا.
- لهم الحق في ذلك، فهذا مكان للقراءة وليس للحديث.
- إذن هيا بنا، ولكن بعد ساعة يجب أن أتوجه إلى عملي.



- إذن هيا بنا حتى لا نضيع مزيداً من الوقت.
- مضى أبراهام فرحاً إلى البار، وأحضر بنفسه كوبين من القهوة، ثم عاد سريعاً إلى حيث كانت جاكلين تنتظره، وقال وهو يضعهما على الطاولة:
- كلي آذان مصغية، وأنتظر قصتك الطويلة على أحر من الجمر.
- فقال وهي ترتشف بعض القهوة من كوبها:
- أخشى أن أملك سيخيب، فقصتي ليست بتلك الإثارة التي تتوقعها.
- لقد قلت إنك ستذهبين بعد أقل من ساعة، فلا تضيعي الوقت بالتواضع والمجاملات، ودعيني أحكم بنفسي على قصتك بعد انتهائك منها.
- حسناً، ما دمت مصمماً. باختصار أنا موحدة، ولكنني بدأت أدرك في الآونة الأخيرة أن "الجمعية الشمول-خلاصية التوحيدية"^(١) التي أنتمي إليها، قد شطت كثيراً عن التوحيد الذي تدعيه.
- هل أنتم طائفة كبيرة هنا في أمريكا؟
- لقد كنا كذلك، أما الآن فعددنا لا يتجاوز مئة وستين ألفاً، ولنا زهاء ألف معبد.
- هل هناك موحدون غيركم في الولايات المتحدة؟
- أجل فهناك "كنائس الله المسيحية CCG" التي تفوقنا التزاماً بالوحدانية، ورغم وجودها القوي في الولايات المتحدة، إلا أن مركزها الرئيسي في أستراليا. وهناك "كنيسة الخمسينيين الموحدة" (الخمسونية الوحدانية) و"جمعية التوحيد الكونية" Unitarian Universalist Association، و"مدرسة الوحدانية المسيحية" Unity School of Christianity، و"كنيسة التوحيد Unification"

(١) طائفة لها حضورها الثقافي والسياسي في الساحة الأمريكية، وتمثل النقيض للحركة الأصولية المتطرفة، وهي في الجملة محسوبة كجزء من التيار المسيحي الليبرالي.

Church التابعة للقس "سون ميونغ مون"، ولكن شططه لا يعجبني بالمناسبة. وهناك أيضاً الكثير من الكنائس التي -مع أنها موحدة وترفض تأليه المسيح والثالوث- تعاني هرطقات أخرى مشبوهة مثل شهود يهوه. وبالإضافة إلى كنائس الموحدين، هناك بعض الكنائس الأخرى التي ترفض التثليث ولكن بطريقتها الخاصة؛ مثل جماعة "الروحيين" The Spiritualist، و"كنيسة يسوع المسيح الموحدة(الرسولية)" أو "كنيسة العنصرة الموحدة العالمية"، و"الطريقُ دولي" The Way International، وكنيسة "السيانولوجيا الدولية" ^(١) The Christian Science التي لا تملك تعريفاً واضحاً لطبيعة الله أو شخصه، وتحدده بمصطلحات غامضة على أنه يعادل "كمال كل شيء". كما يوجد أيضاً الكثير من الكنائس التي ترفض معتقدات الإيمان المسيحي التاريخية، وتبرهن (كل بطريقتها الخاصة) أن المسيحية الحقيقية شوهت وضلت في القرون الأولى لعصر العهد الجديد. وأخيراً يوجد كنائس أمريكية كانت موحدة ثم أصبحت مثلثة تدريجياً بسيرها مع الخط العام.

- مثل من؟

- مثل "الأدفنتست السبتيين Seventh-day Adventism" مثلاً.

- كنيسة الأدفنتست السبتيين كانت موحدة؟!!!

- أجل، فقد ظلت "حركة أدفنتست اليوم السابع" موحدة رسمياً حتى ١٩٣١ مع

وفاة "أوريا سميث".

- يبدو أن قصتك أكثر إثارة مما توقعت.

- حقاً.

(١) أي العلمولوجيا، وأشهر الشخصيات العامة التي تبعت هذه الكنيسة هي المثل الشهير "توم كروز".

- ودون أدنى مجاملة. ولكن قولي لي من فضلك كيف وصل الموحدون بشكل عام إلى أمريكا؟

- بعد انتصار الملوك الكاثوليك في البرتغال وإسبانيا على ملوك المسلمين الأندلسيين، أقامت الكنيسة الكاثوليكية محاكم التفتيش سيئة الذكر، التي اضطهدت المسلمين واليهود، واضطهدت معهم كل أصحاب الفكر الحر الذي يتعارض مع عقيدتها الشركية الوثنية، فلجأ كثير منهم إلى غرب أوروبا، لاسيما هولندا التي ظهرت فيها العقيدة التوحيدية بوضوح إلى جانب العقائد الأخرى المتحررة من ريق الكنيسة الرومانية. وفي منتصف القرن الماضي أضحت مدينة ليدن الهولندية وجامعتها مركزاً للتوحيد، وكثر عدد الموحدين فيها. كما كانت بريطانيا معقلاً آخر لهم هناك^(١)، وقد شكل هذان البلدان رافدين أساسيين للهجرة إلى أمريكا.

- وهل كانت نسبتهم كبيرة بين المهاجرين الأوائل؟

- أكبر مما تتصور، ومساهماتهم في تأسيس الجمهورية وقوانينها وسياساتها لا يمكن تجاهلها.

- ولكن لماذا لم أسمع عن ذلك من قبل؟

- لأن التاريخ يكتبه المنتصرون، ولأننا أنفشنا لم نحافظ على إرثنا التوحيدي، فنخر الفساد عقيدتنا العريقة. والواقع أنه بين الدين الذي أسست عليه هذه الدولة، والدين الذي تدين به اليوم، بون شاسع. وبالمناسبة هذا ينطبق على حركة الموحدين الأولى، وواقعنا اليوم كموحدين بالاسم فقط.

- على مهلك من فضلك، فهذه المعلومات جديدة علي كلياً، هل لك ببعض الإيضاح

والتفصيل؟

(١) من أبرز الأحداث لهم في بريطانيا في العصر الحديث هو إعلانهم لعقيدتهم في التوحيد صراحة في بيان وجهه إلى طلاب جامعتي "أكسفورد" و"كامبريدج" سنة ١٧٩٠م.

- بكل سرور. فالمؤسسون الأوائل لأمريكا كان منهم جمع غفير من الموحدين المهاجرين بدينهم، كما كان بينهم أولئك المتسمون باسم "الحجاج"، والذين تحملوا مشقة الرحلة الطويلة إلى بلاد نائية فراراً من الحروب الدينية الضروس التي اجتاحت أوروبا ضد الحركات الإصلاحية، وكان قادتهم مفكرين وساسة يؤمنون بالتسامح، ويمقتون الاضطهاد بالمقدار نفسه الذي كان عليه مفكرو التنوير في أوروبا أو أكثر^(١)، وهكذا أسسوا الدولة الناشئة على مبدأ "فصل الدين عن الدولة"، وأتاحوا للمتدينين الحرية في الانتماء إلى الكنيسة التي يريدون. والموحد الشهير "توماس جيفرسون"، الذي أصبح فيما بعد ثالث رئيس للولايات المتحدة الناشئة، أعلن في خطاب ألقاه سنة ١٧٧٣، أي قبل ثلاث سنوات من استقلال الولايات المتحدة، أنه: "يجب ألا يجبر أي رجل ليعتق أي دين، وأي عقيدة، وأي مذهب، ولا أن يزور أو لا يزور أي مكان عبادة أو تأمل أو تدين. ويجب ألا يؤذى أي رجل، أو يعتقل، أو يقتل بسبب ذلك، أو تصادر ممتلكاته، أو تعرقل مصادر رزقه. ويجب أن يكون كل رجل حراً في أن يؤمن بما يريد، ويصلي كما يريد، ويتأمل كما يريد"^(٢). وفي وقت لاحق، كتب جيفرسون إعلان الاستقلال الأمريكي سنة ١٧٧٦، واشترك في كتابة الدستور الأمريكي سنة ١٧٨٧، وضمن في الوثيقتين بعض هذه العبارات. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تجاوزه إلى

(١) التنوير كان سمة عصر الثورة العامة على المعتقدات الدينية التقليدية الشاذة، وكان يشمل المرحلة ما بين اشتداد الحروب الدينية في أوروبا، وبين ظهور الثورتين الأمريكية والفرنسية. أي إن القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً هو عصر التنوير، الذي أحدث في الفكر العالمي عامة والغربي خاصة ذلك الزلزال الذي لا تزال توابعه حاضرة حتى الآن، سواء في السياسة أو الاجتماع أو الأدب أو الفن. بيد أن أعظم آثاره تجلّى في الصراع العنيف بين الكنيسة والعقل.

(٢) كان وزير الخزانة في عهده "ألبير جالاتان"، فرنسي من الهيجونوت. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

الاتفاق على نفي أن تكون الدولة مسيحية رسمياً^(١). وذلك أن المؤسسين الكبار كانوا يؤمنون بأفكار عصر التنوير وفلسفاته مع تفاوت بينهم في الالتزام الديني الشخصي بالذهاب إلى الكنائس أو الانتساب إليها. إلا أن كنيسة واحدة فقط كان الانتماء إليها ينسجم مع الأفكار التنويرية... هي الكنيسة الموحدة؛ بحيث يمكن القول إنه لو كان للحكومة الناشئة أن تختار ديناً رسمياً للدولة، لما كان إلا دين الموحدين، وهذا ظاهر من استقراء عقائد الرؤساء الأوائل وعقائد المفكرين الأوائل مثل: "بنيامين فرانكلين"، و"الف أمرسن" وغيرهم.

- ما المراحل التي مرت بها كنيسة الموحدين؟

- لقد أسست عدداً من الكنائس الموحدة في مناطق متعددة من القارة الأمريكية، التي اجتذبت إليها شخصيات بروتستانتية مهمة مثل "وليم شاننج" (ت ١٨٤٢) راعي كنيسة بوسطن الأسقفية، الذي كان يقول بأن "ثلاثة الأقانيم تتطلب ثلاثة جواهر، ومن ثم ثلاثة آلهة مختلفة". ويقول أيضاً: "إن نظام الكون يتطلب مصدراً واحداً للشرح والتعليل، لا ثلاثة، لذلك فإن عقيدة التثليث تفتقد أي قيمة دينية أو علمية". وفي سنة ١٧٨٥م تحولت كنيسة الملك في بوسطن إلى كنيسة موحدة، حيث قرر أعضاؤها حذف الألفاظ الدالة على التثليث في الصلوات، ثم أسست كنيسة موحدة في فيلادلفيا سنة ١٧٩٤م. وبعد ذلك حدث تحول آخر مهم، وهو انتقال كنيسة الحجاج التي أسست سنة ١٦٢٠م إلى كنيسة موحدة سنة ١٨٠٢م، ثم تكونت "جمعية التوحيد الأمريكي" عام ١٨٢٥م، ثم أسس المجمع الوطني للموحدين في سنة ١٨٦٥م. ولكن ما لبثت الكنيسة التوحيدية أن انتكست، وانحرف كثير من أتباعها انحرافاً خطيراً.

(١) وقد ورد ذلك في وثائق رسمية؛ أهمها بالنسبة إلينا نحن المسلمين المعاهدة بين حكومة الولايات المتحدة و"ولاية طرابلس" (ليبيا)، التي كانت شبه مستقلة، وهي وثيقة مهمة كتبت سنة ١٢١٨هـ. والنص الإنجليزي في المادة (١٢) صريح في أن "الولايات المتحدة الأمريكية ليست دولة مسيحية، ومن ثم فليس بينها وبين أي دولة محمدية علاقة عداة".

- لماذا؟

- إن الغليان الفكري والاجتماعي في أمريكا لدى جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، أدى إلى ظهور موجة من التحلل والتفسخ والانقسامات الدينية الحادة والحركات المتطرفة، وشمل ذلك الكنيسة الموحدة التي تحولت تحولاً مبالغاً فيه إلى الاتجاه الليبرالي^(١)، واتخذت خطوة بعيدة بتوحيدها مع "كنيسة الخلاص للجميع"^(٢)، وهي كنيسة تدعي التوحيد، أسست سنة ١٧٩٢م، والواقع أنها لا تؤمن بالتثليث، لكنها تؤمن بعقيدة شمول الخلاص للجميع. ومع تنامي موجة التحرر والانحلال، تحولت هذه العقيدة إلى إقرار عام لجميع الأديان والأفكار، وكان الاندماج الكارثي بين الكنيستين سنة ١٩٦١م تحت اسم جمعية الشمول-خلاصية التوحيدية. ومن ثم بدأت مسيرة الذوبان مع كنائس كثيرة في بوتقة الليبرالية الحديثة التي شملت تنوعاً مدهشاً من العقائد الشرقية والغربية، مثل "الثيوصوفية"، و"الأرواحية"، و"عبادة الآلهة القديمة" (في مصر والشرق)، "السحرا"، وكذلك فلسفات حديثة مثل: "العصور الجديدة"، "التطورية الجديدة"، "الفلسفة الخالدة"، وغيرها. مما أفقدها جوهر التوحيد الذي قامت عليه، أو على الأقل شوهه كثيراً.

قال أبراهام ساهماً:

- إنها لمفارقة عجيبة أن تؤسس أمريكا لتكون تنويرية توحيدية، وينتهي بها الأمر لتكون إنجيلية صهيونية صليبية. والأعجب أن تتأسس الكنيسة التوحيدية لعبادة الرب الواحد، وينتهي الأمر بها لتكون ليبرالية تقر جميع الأديان والفلسفات.

(١) يسمى أحياناً باللاهوت التحرري. وهو مصطلح يغطي عادة الكثير من الحركات الفلسفية الدينية المسيحية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر وفي القرنين التاسع عشر والعشرين. وكلمة (الليبرالي) هنا لا تدل على حركة سياسية يسارية أو على مجموعة خاصة من العقائد، بل على حرية الجدل العملي في المسيحية، المرتبط بفروع الفلسفة الدينية المختلفة، والذي نما وتطور خلال عصر التنوير.

(٢) "اليونيفرسالية". ويسمى أعضاؤها الشمول خلاصيون.



- وهذا بالضبط ما يحزنتني، بل يقهرني إن شئت الصراحة.
- أنفهمك تماماً، خصوصاً إن كان للموحدين في السابق الأثر الذي تتكلمين عليه.

- هذا ما كان فعلاً، ولكي أثبت لك ذلك بما لا يدع مجالاً للشك، يمكنك أن ترجع إلى تاريخ الولايات المتحدة، وستجد مثلاً أن كلاً من الرئيس الثاني "جون آدمز"^(١)، ونائبه توماس جيفرسون الذي أصبح رئيساً فيما بعد^(٢) كانا موحدين. وستجد أيضاً أن الأخير قام بتأليف إنجيل جديد عام ١٨٠٤م، هذب فيه الأناجيل المعروفة في نسخة منقحة، محذوف منها كل ما يدل على التثليث.

- لقد سمعت عن هذا الإنجيل، ولكنه قد حذف منه أيضاً كل ما يدل على المعجزات، ومن ثم يكون ذلك دليلاً على أن جيفرسون كان من الفلاسفة العقلانيين التنويريين، لا من المتدينين التوحيديين^(٣).

- هذا ما يفعله الجميع معنا لطمس تاريخنا، ولكن الواقع هو أن جيفرسون كان موحداً ككثير غيره من الآباء المؤسسين، ولا تتس مقلته المشهورة: "يمكن تمييز كلمات يسوع الحقيقية مثل جواهر في كومة قمامة"، مما يدل على إيمانه بيسوع، ولكن رفضه في الوقت ذاته للافتراءات التي أضيفت على إنجيله. وقد كان "جيمس

(١) تولى الرئاسة ما بين عامي ١٧٩٧ - ١٨٠١م وإليه تنسب معاهدة طرابلس مع الرئيس الأول "جورج واشنطن" التي نفى فيها أن تكون الجمهورية الأمريكية، الحديثة حينئذ، "دولة مسيحية"، وأنها ليست معادية للإسلام بأي وجه من الوجوه.

(٢) تولى الرئاسة ما بين عامي ١٨٠١ - ١٨٠٩م. وهو أكثر الآباء المؤسسين أثراً في تكوين الفكر الأمريكي.

(٣) للأسف الشديد، فإن كثرة المحدثات التي أضيفت إلى المسيحية، وثبوت زيف الكثير منها على مر الزمن، قد جعلت من الصعب على بعض "المخلصين" أن يميزوا بين الغث والسمين من الغيبات، فرفضوها كلها. كما أن تلك المحدثات قد وفرت أيضاً فرصة كبيرة لكثير من "المشبهين" في تبريراتهم لرفض الدين من أساسه.

ماديسون" المشهور بـ"أبي الدستور الأمريكي" متأثراً بفكره، وقد عينه جيفرسون وزيراً في حكومته، ثم خليفة له في الحكم، وهذا هو السبب الحقيقي وراء عدم اعتماد البروتستانتية ديناً رسمياً للدولة، بل فصل الدين عنها وترك حرية الاعتقاد للجميع لاختيار الدين الذي يرضون عنه^(١).

- هذه وجهة نظر مثيرة للاهتمام فعلاً؛ فقد أثار استغرابي دائماً عدم إقرار البروتستانتية ديناً رسمياً، أو حتى ديناً ذا أثر واضح على الدستور، مع أن الجميع يقولون إن الولايات المتحدة تأسست على يد البروتستانت الهاربين بدينهم من الاضطهاد. ولو كان كل الآباء المؤسسين من البروتستانت فعلاً، لأخذت الأمور منحىً مختلفاً تماماً عما آلت إليه لدى تأسيس الجمهورية وكتابة الدستور. لكن كل هذا يصبح الآن مفهوماً، بعد أن عرفت أن نائب أول رئيس للولايات المتحدة، الذي أصبح الرئيس الثاني لها، ونائبه الذي أصبح الرئيس الثالث لها، كانوا موحدين، بل أن أبا الدستور الأمريكي كان متأثراً بفكر أحدهم، وعمل وزيراً في حكومته.

- تحليل موفق. ولقد استمر التوحيد بالجمهورية الناشئة في صعود مستمر في البداية، لاسيما بين الطبقة المثقفة، حتى وصل أحد المتدينين الموحدين الناشطين، وهو "وليام تافت"، إلى رئاسة الولايات المتحدة.

- وما الذي يميزه عن بقية الرؤساء الأمريكيين الموحدين؟

- نشاطه الديني الواضح، والذي توج بتوليته رئاسة الكنيسة التوحيدية بعد انتهاء ولايته في رئاسة الولايات المتحدة بأربع سنوات.

- و أي من الرؤساء الأمريكيين كانوا من الموحدين أيضاً؟

(١) من أقوال توماس جيفرسون: "إن القسيس (يقصد طبقة الكهنوت في المسيحية السائدة) في كل بلد وفي كل عصر هو من أعداء الحرية، وهو دائماً حليف الحاكم المستبد يعينه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الآخر".

- باستثناء الرئيسين الثاني والثالث اللذين تحدثنا عنهما قبل قليل؛ كان الرئيس السادس "جون كوينسي آدمز"^(١) أيضاً موحداً، وهو بالمناسبة ابن الرئيس الثاني، وكذلك الرئيس الثالث عشر "ميلارد فلمور"^(٢)، وبالطبع الرئيس السابع والعشرون "وليام تافت"^(٣) الذي ترأس الكنيسة الموحدة عام ١٩١٧م.

- وهل كان من بين الموحدون السياسيين المعاصرين، من ترشح للرئاسة مؤخراً؟
- أجل؛ "أدلای ستيفنس" الذي كان وزيراً في حكومة "جون كندي"، وتوفي سنة ١٩٦٥م، هو آخر المرشحين الرسميين لرئاسة الولايات المتحدة من طائفة الموحدين.
- من المحزن حقاً انتكاس الكنيسة التوحيدية.

- ولكن الخبر السار هو أن انتكاسة الكنيسة التوحيدية عوضها الله القدير بانتشار للعقيدة التوحيدية بين بقية المسيحيين.

- كيف ذلك؟!!!

- إن إنكار التثليث أو إنكار ألوهية المسيح قد تنامى بقوة حتى يمكن القول إنها عقيدة الأغلبية في أمريكا هذه الأيام، وليس في أمريكا فحسب، فعقلاء الغرب بشكل عام قد بدؤوا يدركون ذلك فعلاً، وقد ظهر عام ١٩٧٧ كتاب اسمه "أسطورة تجسيد الإله" The Myth of God Incarnate كتبه سبعة من كبار رجال اللاهوت البريطانيين بمن فيهم رئيس لجنة مذهب كنيسة إنجلترا، يعلنون فيه إنكار ألوهية المسيح، ويقرون ببشريته فقط. وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب أن مؤلفي هذا الكتاب مقتنعون بأن هناك، في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين، حاجة ماسة إلى تطور عقائدي كبير آخر، هذه الحاجة أوجدتها المعرفة المتزايدة لأصول المسيحية، المعرفة

(١) تولى الرئاسة ما بين عامي ١٨٢٥م - ١٨٢٩م.

(٢) تولى الرئاسة ما بين عامي ١٨٥٠م - ١٨٥٣م.

(٣) تولى الرئاسة ما بين عامي ١٩٠٩م - ١٩١٣م.

التي أصبحت تستلزم الاعتراف بيسوع أنه كان، كما يصفه سفر(أعمال الرسل ٢: ٢١): "رجل أيده الله" لأداء دور خاص ضمن الهدف الإلهي، وأن المفهوم المتأخر عن يسوع والذي صار يعتبره "الله المتجسد والشخص الثاني من الثالوث المقدس الذي عاش حياة إنسانية" ليس في الواقع إلا طريقة تعبير أسطورية وشعرية عما يعنيه يسوع المسيح بالنسبة إلينا. وقد أوردت مجلة تايم^(١) الشهيرة بحثاً هاماً اشتغلت به دوائر العالم الغربي وجامعاته وكنائسه، وهو عن "ظاهرة الدعوة إلى بشرية المسيح والمعارضة لألوهيته"، جاء فيه: "إن موجة الرفض لفكرة ألوهية المسيح أو ازدواج طبيعته تزداد قوة وانتشاراً في أوساط المفكرين اللاهوتيين، سواء في الجامعات أم في الكنائس الغربية". وهؤلاء الرافضون يعلقون أنه لا يوجد في الإنجيل، ولم يثبت عن المسيح القول بألوهيته، ويؤكدون أنه كان بشراً فقط. وفي سنة ١٩٩٣ ألقى البابا يوحنا بولس الثاني خطابه الرسولي، وأشار فيه إلى الانفصال المتزايد بين الكنيسة والرأي العام المسيحي، وذلك لعدم تصديق المسيحيين للعقيدة المسيحية الحالية. كما طالب المسيحيين بعدم مناقشة العقيدة المسيحية والتسليم الأعمى بها^(٢).

- هذا غريب جداً. سوف أتحرى عن ذلك لمعرفة المزيد.

- ستجد استبيانات ومعطيات كثيرة تؤكد ذلك. كما أن المكتبات والأرصفة قد امتلأت بالكتب التي كتبها مسيحيون غربيون وشرقيون قديماً وحديثاً ينتقدون فيها هذا الدين الموروث عن كنائس عهد الظلمات الجاهلة التي جعلت فيه الإله يولد من فرج أنثى، ثم يصلب على أيدي البشر، فيموت ويدفن في التراب ثم يقام من الأموات، مع أن الله الحقيقي يقول: "حي أنا إلى الأبد" (تشية ٣٢: ٤٠)، والذي جعلته تلك الكنائس يتغير من أب إلى ابن إلى روح قدس، في الوقت الذي يقول فيه الله الحقيقي:

(١) في عددها الصادر في ٢٧ شباط/فبراير ١٩٧٨ م.

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

"أنا الرب لا أتغير" (ملاخي ٣: ٦)، "أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري، أنا الرب وليس آخر" (إشعيا ٤٤: ٦، ٤٥: ٨)، أي لا أب ولا ابن ولا روح قدس، تلك التي أتت بها كنائس عهد الظلمات.

- هذا منطقي فعلاً.

- ولكن احذر مما تقرأ؛ فكثير من تلك الكتب ألفت بأيد مشبوهة، لتصل عبر إثبات زيف تأليه المسيح وزيف الثالوث إلى نتيجة زيف المسيحية بشكل عام، بل منهم من يهدف، عبر تسليط الضوء على تلك المحدثات والتتقيب عن أصولها الإلحادية في أساطير الشعوب الوثنية، إلى نتيجة التشكيك بوجود الرب نفسه.

- لا تخافي علي من هذه الناحية بالذات؛ فأظن أنني مثل رئيسك الموحد توماس جيفرسون، أجيد تمييز الجواهر، وإن أحيطت بالقمامة.

- أتمنى هذا . بالمناسبة، وعلى ذكر كنائس الظلمات، هل سمعت عن قرار الفاتيكان بتبرئة "جاليليو"^(١)!!!

- بعد أكثر من ٣٦٠ عاماً!!!

- أجل، والأحرى بهم أن يبرئوا الله من النقص. فيسوع يقول في (متى ٥: ٤٨):
"فكونوا أنتم كاملين كما أن إلهكم الذي في السماوات كاملاً". فكيف ينسبون إلى الله ثلاثة أقانيم، ويكون الأقتنوم الذي في السماوات كامل!!! ثم كيف يدعون له أقتنوماً آخر من الولادة كبقية المخلوقات الناقصة؟ وكيف يجعلون الأقتنومين ناقصين إلى أن قرروا تكملتهم بأقتنوم ثالث بعد أخذ ورد استمر حتى سنة ٢٨١م، في كونه الحكمة

(١) جاليليو كما هو معروف لم يرتكب إثماً سوى أنه نادى بكروية الأرض، وأقر بأنها ليست سوى كوكب صغير يدور حول الشمس، وليست مركزاً للكون، فاضطهده الكنيسة آنذاك، واضطرته إلى التراجع عن أقواله وحجسته في بيته بقية حياته.

أو الروح القدس حتى قرروا شكل الله الذي عجز هو نفسه عن تقريره في الكتاب المقدس^(١)!!! ولكنهم كما قال فيهم المسيح مذكراً بقول النبي إشعياء: "تسمعون سمعاً ولا تفهمون، ومبصرين تبصرون ولا تنظرون" (متى ١٣: ١٢). إن المطلوب من الفاتيكان اليوم هو أن يبرئ إلهه الحي من كل تلك النقائص، لا أن يصدر عفواً عن جاليليو الذي شبع موتاً. ولكن الفاتيكان، كما كان شأنه دوماً، يخضع للأقوى فقط. وأنصار العلم يشكلون أكبر قوة اليوم، أما أنصار التوحيد فلا حول لهم ولا قوة.

- كم يقدر عدد الموحدين المسيحيين حالياً.

- لا أعرف الكثير عن أتباع باقي كنائس التوحيد الأخرى، ولكن فيما يتعلق بكنيستي، فإن ثاني أكبر تجمع لها بعد الولايات المتحدة هو في رومانيا، ويقدر عدد أتباعها هناك بنحو ثمانين ألفاً، كما تتبعها أقليات موحدة أخرى في بلاد كثيرة أهمها جمهورية التشيك، وهنغاريا، والهند، والفلبين، وألمانيا، ونيجيريا، وكندا، وأيرلندا، والدول الاسكندنافية.

- يبدو أن عدد الموحدين المسيحيين قليل فعلاً.

- أجل للأسف. لكن لا تتس أنه على قلة عددهم، إلا أن المسيحيين الذين لا يؤمنون بالتثليث ولا يعتقدون بألوهية المسيح ولا يجمعهم الانتماء إلى أي من الكنائس الموحدة، هم أكثر عدداً من ذلك بمراحل، وهم ينتشرون في مختلف الدول المسيحية، منتسبين إلى كنائس أخرى أو متحررين من أي نسبة^(٢).

ثم نظرت إلى ساعتها وأردفت قائلة وهي تقوم عن مقعدها:

- لقد اقترب موعد عملي ويجب أن أذهب الآن.

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) المرجع السابق.

- آسف على تأخيرك، وأشكرك جداً على وقتك الثمين، وعلى المعلومات الأكثر من رائعة التي زودتني بها.

- كنت حقاً أود التحدث معك أكثر، ولكن ما باليد حيلة، فالعمل هو العمل.
- معك حق.

- الوداع، وفرصة سعيدة.

قالت ذلك وهي تمضي مسرعة، فأجابها صارخاً حتى يصل صوته إليها:
- بل إلى اللقاء.

ثم جلس مأخوذاً بكنز المعلومات الذي حصل عليه للتو، ولكنه ما لبث أن تنبه أنه لم يأخذ في تلك العجالة رقم هاتفها أو أي معلومة تساعد على الاتصال بها مجدداً، فقام مسرعاً يريد للحاق بها، إلا أن النادل أوقفه ظناً منه أنه يحاول التهرب من دفع الحساب. وبعدما دفع الفاتورة بسرعة، خرج إلى الشارع مهرولاً، لكن جاكين كانت قد اختفت تماماً، فيبدو أنه أخرها بأسئلته لدرجة أنها ولا ريب تركض الآن لاهثة للحاق بعملها.

- ما الذي يحصل معك بحق الرب يسوع؟!!!

قال فيكتور مستكراً بعدما روى له أبراهام عن جاكين، طالباً مساعدته في الوصول إلى طائفتها. ثم تابع فيكتور حديثه باستياء:

- في الأمس شهود يهوه المهوسون بدم المسيحية، ثم ديفيد، ذلك العجوز المتصابي المهوس بنظرية المؤامرة، ثم المورمن المهوسون بتعدد الزوجات، واليوم الشمول خلاصيون المهوسون بإنكار ألوهية الرب يسوع! إلى من ستتوجه غداً يا ترى؟!!!

- لماذا تقول عن د. كويد أنه عجوز متصابٍ؟

- وتدافع عنه أيضاً؟!!! هل وصل إعجابك به إلى درجة أنك لم تلاحظ كبر سنه؟

قال فيكتور وقد استشاط غضباً بشكل أكبر، وهو ما لم يستطع أبراهام أن يفسره بتاتا، ولكنه تجاوز ذلك الموضوع الغريب وسأله مستغرباً:

- حسناً وما العيب في محاولتي تعرف الطوائف المسيحية؟ فأنت نفسك كنت طوال الفترة الماضية عوناً كبيراً لي في ذلك!

- أجل، ولكن هؤلاء الشمول خلاصيين ليسوا مسيحيين، بل هراطقة على مذهب "أريوس" اللعين الذي يعلن ثلاث مرات منذ زمن قيام المسيحية حتى الآن بلا انقطاع. أراد أبراهام أن يستفسر أكثر عن ذلك العدو اللدود للكنيسة الذي تحدث عنه خاله باقتضاب، ولكنه عدل عن رغبته كي لا يزيد الأمور تعقيداً مع فيكتور، وقرر التحري عن أريوس لاحقاً بدون مساعدته^(١)، وإنهاء الموضوع بعد ردة الفعل غير المتوقعة منه، فقال محاولاً إنهاء هذا الحديث تماماً:

- يبدو أنك محق دائماً في كل ما تقوله، فهؤلاء الشمول خلاصيون، وإن كانوا يدعون التوحيد، قد دخلوا في صلب الشرك الحقيقي بضمهم الأديان والفلسفات المختلفة إلى عقيدتهم.

فتهلل وجه فيكتور، وقال بلهجة عاد إليها اللطف الذي اعتاد أن يكلم به أبراهام: - أحسنت. بالمناسبة، لدي خبران لك، أحدهما مزعج والآخر سار. بأيهما تريدني أن أبدأ.

- فليكن السار في النهاية.

- أحسنت في هذا أيضاً. الخبر المزعج هو أن جهاز الموساد يتحرى عنك، ويخطط لإيذائك.

- ماذا؟!!!

(١) للمزيد من المعلومات راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

قال أبراهام بجزع، ثم قال بعد أن تما لك نفسه قليلاً:

- وهل بعد هذا يمكن أن يكون هناك أي خبر سارا!

- بالطبع.

- وما هو؟

- هو أن الرب يسوع معك. وقد ألهمني أن أعرف بذلك عن طريق صديق لي، هو أحد ضباط السي آي إيه المكلفين بالتنسيق مع الموساد. وعندما عرف بأهميتك بالنسبة إلي، تعهد بأنهم لن يمسوك بأذى ما دمت على الأراضي الأمريكية، ولا سيما أن سبب ملاحظتهم لك هو سبب شخصي كما فهم منهم، فقد طلبوا مساعدته بشكل شخصي، وليس بشكل رسمي كالعادة.

الاعتراض برنابا

ازداد امتنان أبراهام ليفكتور وصار يثمن صداقته أكثر، فعلى كثرة مشاغله ورفعة منصبه، إلا أنه كان يتبسط معه كثيراً ويخصص له وقتاً طويلاً للتسامر، وللإجابة عن التساؤلات التي تعن على رأسه. كما كان يشجعه بفاعلية على إتمام كتابه عن الأديان، موفراً له كل المراجع والمعلومات اللازمة، ومتحاوراً معه حولها. وها هو ذا الآن يوفر له الحماية، وينقذه من متاعب الله وحده يعلم إلى أين كان يمكن أن تؤدي به.

أصبح أبراهام، ولكل هذه الأمور مجتمعة، يعتبر فيكتور كاتب روحي، وتدرجياً، ومع استشعاره لمدى عمق مشاعر فيكتور تجاهه، صار يشعر فعلاً أنه بات أقرب الناس إليه حتى صار يقابله كل يوم تقريباً، وهذا ما جعله يقلل من شأن انزعاجه العارض في ذلك اليوم المشؤوم، ويشجعه على بحث موضوع إنجيل برنابا معه. فقد قرأ ذلك الإنجيل عدة مرات، وتحرى عنه جيداً، وكوّن تحليلات عديدة بشأنه أراد أن يناقشها مع شخص يثق برأيه.

وفي إحدى المرات، وبينما كان فيكتور ينتقد ما يسمى بالتقليد الشريف لدى طوائف الأرثوذكس والكاثوليك، انتهز أبراهام الفرصة قائلاً:

- أنا لا أريد أن أغضبك، أو أن أخالفك في شيء، وقد كفت فعلاً عن البحث عن اعتقاد التوحيديين الشمول خلاصيين كما أردت، ولكنني قرأت ذلك الإنجيل الذي حملته جاكليين على جهازي، ويهمني كثيراً أن أتناقش حوله مع شخص مثلك، أثق برأيه وعلمه.
- تفضل.

- ولكن أرجو أن تضع اعتقادك الديني جانباً لبعض الوقت، كي نتناقش بشكل علمي بحت، دون أي عصبية، وبتجرد تام، هل تعدني بذلك؟

- حسناً، أعدك.

- هذا رائع. لقد قلت لي سابقاً إن الكثير من عقائد المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك غير موجودة لا في العهد الجديد ولا حتى في القديم، وأن مصدرها الرئيسي هو التقليد.

- هذا صحيح.

- بعد دراستي المتواضعة في هذا الموضوع، بت أعتقد أن بعض كتابات الآباء التي يدعونها تقليداً، هي في جزء معتبر منها ليست إلا الكتب التي رفضوها سابقاً لأن فيها بعض ما يناقض مذهبهم). ورغم تحريمها على العامة، إلا أنه يبدو جلياً أن مكاتب الباباوات كانت تحتفظ بنسخ عنها، وأنهم كثيراً ما اقتبسوا، أو استعانوا بما اعتبروه مناسباً منها، ولا يتعارض في الوقت ذاته مع تعليمهم. وربما كان من بين تلك الكتب إنجيل برنابا نفسه^(١).

(١) تم العثور على إنجيل برنابا في مكتبة الفاتيكان البابوية كما سيمر معنا بعد قليل. وقد كتب الأسقف الكنسي "ألفونسو ماي ستكلر" تقريراً موجزاً لليونسكو عن كنوز مكتبة الفاتيكان قال فيه: "تأسست مكتبة الفاتيكان رسمياً في عهد البابا "سكنس الرابع" في ١٥ حزيران/يونيو سنة ١٤٧٥ بموجب القرار البابوي الذي يبدأ بعبارة "من أجل تكريم الكنيسة المجاهدة"، ولكن المكتبة البابوية كان لها تاريخ عريق يرجع إلى ما قبل ذلك بوقت طويل، إذ كانت تضم مجموعات قديمة من مخطوطات جمعها الباباوات السابقون ابتداء من "أدماسيوس" في القرن الرابع الميلادي... وبلغ ما تحتويه هذه المكتبة عام ١٤٨١م ثلاثة آلاف وخمس مئة مخطوط، كان قد جمعها بعض مبعوثي البابا من أنحاء شتى في أوروبا، بينما كان حشد من الكتبة الذين ينسخون مؤلفات أخرى لحفظها والتعريف بها. (راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف) ويبلغ ما تضمه مكتبة الفاتيكان اليوم أكثر من سبعين ألف مخطوط (لا يطلع عليها أحد إلا بشروط صارمة) وثمانية آلاف كتاب من أوائل المطبوعات (أي مما طبع قبل ١٥٠٠م) ومليون مؤلف مطبوع". ويعترف "نورمان" بالوثائق الخفية أو المخفية في كتاب طبع في مدينة بوسطن سنة ١٨٣٧م نقل فيه بالمجلد الأول بعد المقدمة عن العالم الألماني "أكهانن": "في بداية المسيحية وجدت رسالة مختصرة يجوز أن يقال أنها هي الإنجيل الأصلي، وأنها وضعت للمريدين الذين كانوا لم يسمعوا أقوال المسيح بأذانهم، ولم يروا أحواله بأعينهم. وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيها على الترتيب.

- وكيف توصلت إلى ذلك الاستنتاج؟

- لأن اللاهوتيين يعترفون بأن آباء الكنيسة الأوائل أشاروا إلى ما جاء في الأسفار الأبوكريفية، واقتبسوا منها، ولأن معنى كلمة "أبوكريفا" التي صارت تعني عندكم "الكتب المنحولة"، هو تحريف للمعنى الحرفي الذي هو "الكتب السرية" (المخفية) أو "سيفاريم جينوزيم" (دانيال ١١: ٤٣) عندنا في العبرية والتي تعني "الكنوز المخفية عن العامة" (على أن يطلع عليها الخاصة وحدهم). وهي الكتب التي أوصى الأبحار بإخفائها عن العامة، لأنهم لن يفهموها بالشكل الصحيح، وستشوش أفكارهم^(١).

- ماذا تقصد بالضبط؟

- أقصد أن في الكتب المخفية الكثير من أصول تلك العقائد، والكثير مما يفسر طلاسم الأناجيل الحالية نفسها^(٢).

- قد أتفق معك في ذلك، ولكن إذا كان هذا ينطبق على إنجيل برنابا أيضاً، فما سبب محاربته الشديدة؟

- لأنه رغم امتلائه بالحكمة والموعظة الحسنة، واحتوائه على كل ما ذكرته الأناجيل الأربعة -مجتمعة- عن المسيح، وأسلوبه الأوضح من الأناجيل، وتفصيله الأكبر للأحداث والتعاليم، إلا أن به عيوباً كبيرة؛ فهو مثلاً يشير صراحة إلى أن يسوع كان نبياً وليس إلهاً، وأن الذبيح كان إسماعيل وليس إسحاق.

- كذلك بعض الأناجيل الغنوصية التي اكتشفت مؤخراً في الكهوف الأثرية^(٣)، ولكن تلك الكتب لم تحارب بتلك الضراوة التي حورب بها إنجيل برنابا.

(١) جاء في القرآن الكريم على لسانهم ما يشير إلى ذلك والله أعلم، مثل: ﴿وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قُلُوبِهِمْ أَمْتَدُّوا إِلَيْهَا فَمَنَّا فَرَّحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِتَحَاجُّوا بِهَا عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

(٢) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية الهروب إلى العاصفة، وأيضاً رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) لمزيد من المعلومات عن هذه الأناجيل راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

- ذلك لأن من بين عيوب إنجيل برنابا عيباً خطيراً لا يمكن التفاوضي عنه، ولا تأويله بأي شكل كان، فهو يصرح بأن النبي المنتظر هو محمد الذي سيأتي من نسل إسماعيل، وليس يسوع الذي أتى من نسل داوود وإسحاق.

- أنت كيهودي دارس للتوراة تستطيع أن تميز بكل سهولة كذب هذه الافتراءات، وبالذات في كون الذبيح هو إسحاق جد اليهود وليس إسماعيل جد العرب والمسلمين.

- لا أدري فيكتور، فقد راجعت هذا الأمر سابقاً ووجدت في التوراة ما يدعم ذلك الادعاء.

- ماذا؟

- في سفر التكوين (٢٢: ١٨-١٦) يقسم الرب قائلاً: "بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هَذَا الْأَمْرَ وَلَمْ تُسْكِرْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ أَبَارِكَكَ مُبَارَكَةً وَأَكْثَرُ نَسْلِكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ وَبِثُ نَسْلِكَ بَابِ أَعْدَائِهِ وَيَتَبَارَكَ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَّمِ الْأَرْضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي"، وقد جاء هذا القسم عندما كان إسماعيل هو وحيداً فعلاً ولم يكن إسحاق قد ولد بعد؛ إذ إن إسماعيل أكبر من إسحاق بـ ١٤ عاماً: "كَانَ أَبْرَامُ ابْنُ سِتِّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وُلِدَتْ هَاجِرُ إِسْمَاعِيلَ لِأَبْرَامَ" (تكوين ١٦: ١٦)، و"وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ مِئَةِ سَنَةٍ حِينَ وُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ" (تكوين ٢١: ٥).

- ولكن إسماعيل هو ابن الجارية، ومن ثم ليس ولداً شرعياً، فيكون إسحاق على ذلك ولده الوحيد.

- هذا ليس صحيحاً؛ فقد جاء في الكتاب: "فَقَالَتْ (سَارَى) لِإِبْرَاهِيمَ: "أَطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ (هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ) وَابْنَهَا لِأَنَّ ابْنَ هَذِهِ الْجَارِيَةِ لَا يَرِثُ مَعِ ابْنِي إِسْحَاقَ فَتَقْبَحَ الْكَلَامُ جَدًّا فِي عَيْنِي إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ" (تكوين ٢١: ١١-١٠). ويدافع جيمس

هيستج" عن حق البكورية لإسماعيل قائلاً: "لقد جانب التوفيق كُتَابِ سِفْرِ التَّكْوِينِ، أولئك الذين حاولوا أن يجعلوا نسل إسماعيل واستحقاقه لحقوق البكورية أقل مرتبة، زعماً أن انتماءه لأمه هاجر جارية إبراهيم يفقده حق البكورية. وبهذا الصنيع فهم يغفلون قانون الأسرة الواضح الصريح المنصوص عليه في التوراة في سفر التثنية، ووفقاً لهذا القانون فإن حقوق الابن البكر لا يمكن إسقاطها بسبب الوضع الاجتماعي للأُم. هذا الحق الشرعي قد بينه الناموس بالنسبة إلى الرجل الذي يجمع أكثر من زوجة، فتقول التوراة: "إِذَا كَانَ لِرَجُلٍ امْرَأَتَانِ إِحْدَاهُمَا مَحْبُوبَةٌ وَالْأُخْرَى مَكْرُوهَةٌ فَوَلَدَتَا لَهُ لُهُ بَيْنَ الْمَحْبُوبَةِ وَالْمَكْرُوهَةِ. فَإِنْ كَانَ الْإِبْنُ الْبِكْرُ لِلْمَكْرُوهَةِ فَيَوْمَ يَقْسُمُ لِبَنِيهِ مَا كَانَ لَهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُقَدَّمَ ابْنُ الْمَحْبُوبَةِ بَكْرًا عَلَى ابْنِ الْمَكْرُوهَةِ الْبِكْرُ بَلْ يَعْرِفُ ابْنُ الْمَكْرُوهَةِ بَكْرًا لِيُعْطِيَهُ نَصِيبَ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ مَا يُوْجَدُ عِنْدَهُ لِأَنَّهُ هُوَ أَوْلُ قَدْرَتِهِ. لَهُ حَقُّ الْبِكُورِيَّةِ" (تثنية ٢١: ١٧-١٥).

- هل جنت؟

- كلا، فإسرائيل (يعقوب) تزوج من جارتين هما زلفة وبلهة وأنجب منهن أربعة أبناء، تفرع من نسلهم أربع من قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة. فكر معي، فلو كان إسحاق هو الذبيح لاتخذ أبحارنا، نحن اليهود، من الفداء سنة لنا ولذكروها في مناسبات مختلفة، ولكن الفداء عندهم يرتبط بالخروج من مصر، وما من إشارة من قريب أو بعيد إلى ذكرى فداء إسحق: "وَيَكُونُ مَتَى أَدْخَلَكَ الرَّبُّ أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ أَنْتَ تَقْدِمُ لِلرَّبِّ كُلَّ فَاتِحِ رَحِمٍ وَكُلَّ بَكْرٍ مِنْ نِتَاجِ الْبَهَائِمِ الَّتِي تَكُونُ لَكَ. الذُّكُورُ لِلرَّبِّ وَيَكُونُ مَتَى سَأَلَكَ ابْنُكَ غَدًا: مَا هَذَا؟ تَقُولُ لَهُ: بِيَدِ قُوَّةِ أَخْرَجَنَا الرَّبُّ مِنْ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. وَكَانَ لَمَّا تَقَسَّى فِرْعَوْنُ عَنَّا إِطْلَافُنَا أَنَّ الرَّبَّ قَتَلَ كُلَّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَكْرِ النَّاسِ إِلَى بَكْرِ الْبَهَائِمِ. لِذَلِكَ أَنَا أَذِيحُ لِلرَّبِّ الذُّكُورَ مِنْ كُلِّ فَاتِحِ رَحِمٍ وَأَفْدي كُلَّ بَكْرٍ مِنْ أَوْلَادِي" (خروج ١٣: ١٦-١١).

- هذا هراء وتحميل للنصوص بما ليس فيها، والأهم أنه تجديف بحق الرب الذي صلب من أجل تكفير خطايانا؛ فتلك الحادثة هي رمز لفدائنا جميعاً والحمل هو رمز ليسوع، ومن ثم فلا يمكن أن تكون قد حدثت إلا مع جد الرب يسوع من جهة الجسد.

- فيكتور أنا أود فعلاً تصديق ذلك، ولكنني أجد تشبيهاً بين حادثتي الذبح والصلب في غير مصلحتك^(١)؛ ليس هذا فحسب، بل عندما أقرأ الروايات المختلفة لحادثة الصلب والفداء في الأناجيل أجد بينها تناقضات لا يمكن الجمع بينها. فمثلاً من يقارن تفاصيل المحاكمة والصلب والقيامة واكتشاف قبره ومن رآه عند قيامته، وماذا قال على الصليب ومن حمل الصليب، وغير ذلك في الروايات المختلفة سيجد اختلافات واضحة^(٢) تدل على أن القصة واهية من أساسها، أو أن كتابها اعتمدوا على الإشاعات والأساطير، وليس وحي الرب فحسب. كما أنني لا أستطيع أن أتصور أن المسيح الذي كان يصوم ويتحمل الصبر عن المأكل والمشرب، ويقضي الأسابيع لا ينال فترات العيش، هو الذي كان على خشبة الصليب يستغيث بأعدائه ويطلب منهم أن يسقوه بعد أن تملكه الظمأ!!! وهو الذي طالما كان يقول: "إن لي خبزاً لستم تعرفونه". وإذا كان الصلب قد حدث فعلاً، وحط عن البشر خطاياهم كما تقول، فما فائدة تعاليم المسيح والرسول من قبله إذا كان تكفير خطايا البشر مضموناً وأكيداً لهذه الدرجة؟ ولماذا قال المسيح إن كل كلمة باطلة يتكلم بها الناس، سوف يؤديها عنها الحساب في يوم الدينونة. فإنك بكلامك تبرر، وبكلامك تدان؟ (متى ١٢ : ٣٦) وما الذي سيمنع الإنسان أن يرتكب أكبر الفواحش وأعظم المنكرات إذا علم أن الخلاص مضمون؟ ولماذا الحاجة إلى التعميد الذي تفعله الكنيسة بكل مولود إذا كانت حادثة الصلب تلك قد غفرت للإنسان خطاياهم؟ ثم قل لي من فضلك: من من الآباء كان يعتقد أن المسيح أتى ليغفر كل خطايا العالم كما تقولون الآن.

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) المرجع السابق.

- أنا لست أرثوذكسياً ولا كاثوليكياً حتى أهتم بتقاليد الآباء، ولكني أهتم بإنجيلي فحسب. وسأقرأ عليك جواب الإنجيل نفسه: "هو ذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم".

- أنت تعلم أن كل نص كتابي لا يلزم أن تؤخذ منه عقيدة، ولا حتى بالنسبة إلى الإنجيليين؛ فأغلب عقائد المسيحيين اليوم، وحتى بالنسبة إليكم، لا توجد في الكتاب المقدس، بل في تقاليد الآباء. وأعجب كيف لا تعترفون بذلك معتبرين أنه يقتصر على الكاثوليك والأرثوذكس فحسب، مع أنكم توافقونهم في كثير من تقليدياتهم. كما أعجب بالنسبة إليك بالذات أنك فوق هذا كله تتبع الكابالا التي هي أيضاً تدخل في نطاق التقاليد القديمة التي لا تلتزم بالنص التوراتي.

- دعك من موضوع التقليد والكابالا الآن، فقد قرأت لك النص من الكتاب المقدس نفسه.

- هل هذا النص يخدمك؟ لا أظن. فالنص يقول "خطيئة العالم" لا خطايا العالم، وخطيئة العالم هي خطيئة آدم بأكل الثمرة المحرمة التي توارثها أبناؤه من بعده، وهذا هو فهم الكنائس عامة، ولا يوجد كنيسة تقليدية أو بروتستانتية تقول غير هذا. ولو قرأت رسالة بولس إلى رومية الإصحاح الخامس آية ١٧ لأدركت ذلك.

فتح فيكتور كتابه المقدس على الآية المشار إليها فوجدها تقول: "فإذا كان الموت بخطيئة إنسان واحد ساد البشر بسبب ذلك الإنسان الواحد، فبالأولى أن تسود الحياة بواحد هو يسوع المسيح أولئك الذين ينالون فيض النعمة وهبة البر". فأغلق الكتاب قائلاً:

- يبدو أنك تتعلم بسرعة.

- أشكرك. وهكذا فالذي دفع "الرب" إلى التجسد كبشر هو حمل خطيئة آدم

عنهم، وليس كل خطاياهم. أليس كذلك؟



- حسناً . أنت محق ولكن ...

- انتظر فيكتور؛ فأنا لم أنته من شرح وجهة نظري بعد .

- تفضل .

- هل قال المسيح إنه إله تجسد كبشر ليصلب ويموت كي يفدي البشر من خطيئة أبيهم؟! ولا أريدك الآن أن تلجأ إلى تقاليد الآباء التي ترفضها كما تقول، بل أريد أن تجد لي نصاً إنجيلياً واحداً، نصاً واحداً، تحدث المسيح فيه عن خطيئة آدم .

- في إنجيل يوحنا: "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية".

- أولاً: هذا ليس كلام المسيح بل هو كلام يوحنا كما يظهر جلياً من النص، أي إنه مجرد تعليق نتيجة مفاهيم التقليد وليس في نص كلام المسيح ما ينبئ بذلك .

ثانياً: هذا النص مترجم ترجمة مضللة؛ فكلمة "بذل" ترجمتها الصحيحة "أعطى"، وكلمة "الوحيد" ترجمتها الصحيحة "المتفرد في الجنس". وافتح الأصل اليوناني الذي أمامك لو كنت لا تصدقني. ولا ننس هنا أن اللغة التي جاء بها الإنجيل هي لغة أخرى أيضاً؛ وهي السريانية الآرامية، وأن اللغات مختلفة في ثرائها اللغوي بعضها عن بعض. وقد توجد كلمات في لغة لا يوجد نظير لها في لغة أخرى، وأن الكلمة تفقد جزءاً من معناها كلما ترجمت، لذا لا يمكن التسليم بالدقة الكاملة لمن ترجم كلام المسيح مثلاً من الآرامية ثم إلى اليونانية ثم إلى اللاتينية ثم إلى الإنجليزية وغيرها .

وأي ادعاء بأن الكتاب الحالي هو كتاب معصوم عن الخطأ، يلزم أن يكون جميع المترجمين الذين ترجموه معصومين أو موحى إليهم من الروح القدس، فهل يستطيع أحد ضمان ذلك؟! ثم إن المعنى المقصود هنا أن الله أحب العالم فأرسل ابنه المتفرد، أي أحد المؤمنين من "أبناء الله" كما كان اليهود يسمون الصالحين منهم، وكما تسمون

أنتم أنفسكم جميعاً^(١)، لأن يوحنا نفسه يقول: "أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه" (يو ١: ١٢، ١٣)، فأرسل الله أحد الأنبياء المتفرد بالجنس لكونه ولد من امرأة فقط لكي لا يهلك من يؤمن بالرب. هل تستطيع أن تثبت معنى غير هذا؟

- أجل، فالمسيح أعطانا الحياة الأبدية.

- ما هي الحياة الأبدية؟

- هي الملكوت والخلص بدم الرب يسوع.

- هذا تعريفك أنت. أما المسيح ويوحنا، فلا أظنهم يوافقونك عليه؛ فنحن نجد

في إنجيل يوحنا نفسه، في الإصحاح ١٧: "تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهَذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: "أَيُّهَا الْآبُ قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدْ ابْنَكَ لِيُجَدِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً. إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَاناً عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ. وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحَدَّكَ وَيَعْرِفُوا يَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ". أي إن الحياة الأبدية هي أن تعرفوا الرب كإله واحد وتعرفوا يسوع المسيح الذي أرسلته^(٢).

فقال فيكتور متهرباً من الانجرار أكثر إلى مثل هذه المواضيع:

- كفاك هرطقة، ولنعد إلى موضوعنا الأصلي. فرأيي فيما يسمى بإنجيل برنابا

أنه كتاب مضلل كصاحبه الشرير، ورسالة كافرة أثيمة ضارة، وأنه مجموعة أخطاء ومتناقضات^(٣) لا ترضي أي عاقل فضلاً عن المسيحي الحق.

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) وبكلمات أخرى: أن يشهدوا أنه لا إله إلا الله وأن المسيح رسول الله.

(٣) إن الأخطاء التاريخية والجغرافية الواردة في إنجيل برنابا هي في الحقيقة أقل بكثير من الأخطاء التاريخية والجغرافية الواردة في الكتاب المقدس باعتراف الباحثين. (راجع رواية الهروب إلى العاصفة، وأيضاً رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف) كما أن كثيراً مما يدعون أنه متناقضات، نجد أنه منطقي بالنظر إلى عقيدة المسيح عليه السلام دون المحدثات اللاحقة.



- لا تتسّ أن إنجيل برنابا أورد حقائق عن المسيح أخطأت فيها الأناجيل الأربعة، ثم جاء علماء المسيحية ليؤكدوا صحة ما جاء في برنابا وخطأ الأناجيل الأربعة.

- مثل ماذا؟

- قال برنابا أن المسيح أرسل ٧٢ تلميذاً في (فصل ٩٧)، وقال (إنجيل لوقا) أنهم كانوا ٧٠ فقط. وجاءت أقدم المخطوطات المكتشفة لتؤكد كلام برنابا وتفي كلام لوقا. كما قال برنابا أن "سالوما" هي شقيقة مريم أم المسيح (فصل ٢٠٩) وقالت الأناجيل أنها قريبتها، وعلماء المسيحية أكدوا أنها كانت شقيقتها فعلاً. وذكر برنابا استشهاد المسيح بروايات جاءت في أسفار يهودية حذفها المسيحيون من كتابهم المقدس من القرن الرابع بزعم عدم صحتها (فصل ٥٠، ١٦٧)، ثم اعترف التقليديون بصحة هذه الكتب (الأبوكريفا) وأضافوها إلى الكتاب المقدس. كما أن برنابا ذكر قصة الزانية الموجودة في إنجيل يوحنا، بصورة مختلفة تماماً (فصل ٢٠١) وأكد المؤرخون صدق ما قاله برنابا بالحرف، وتم تصويرها في فيلم "حياة المسيح" كما ذكرها برنابا، وليس كما ذكرها يوحنا.

- أذكر ذلك الفيلم فعلاً، وقد دهشت لذلك كثيراً.

- لا ينبغي أن تدهش كثيراً، فالواقع أن رواية إنجيل برنابا أكثر واقعية، كما أنها شرحت كلاماً ذكرته الأناجيل الأربعة بطريقة غير مفهومة: مثل أن اليهود هتفوا أمام المسيح قائلين: "أوصنا لابن داوود" وترجموها فيما بينهم بمعنى "خلصنا"! فلا يستقيم المعنى (خلصنا لابن داوود)، أما برنابا (فصل ٢٠٠) فقال أنهم قالوا: "مرحباً بابن داوود". وقالت الأناجيل أن المسيح قال: "من قال لأبيه قريان فلا يلتزم"، وقالها برنابا (فصل ٣٢): "إذا طلب الآباء من أبنائهم نقوداً يقول الأبناء: لا، إن هذه النقود نذر لله ولا يعطون لأبائهم". أيهما أوضح؟ كذلك ما جاء في (إنجيل لوقا ١٤) على لسان المسيح: "من لا يبغض أباه وأمه فلا يستحقني"!!! وهذا تحريض صريح على

كراهية الأب والأم، وأستبعد أن يصدر عن المسيح. في حين جاءت في إنجيل برنابا في (فصل ٢٦): "إن كان أبوك وأمك عشرة لك في خدمة الله فانبذهم"^(١). كما أن برنابا صحح أحداثاً تناقضت فيها الأناجيل الأربعة تناقضاً كبيراً، وحرار في تفسيرها علماء النصارى.

- لا تبالغ كثيراً.

- أنا لا أبالغ بتاتا. خذ قصة المرأة التي سكبت العطور على قدمي المسيح على سبيل المثال. فقد اختلفت فيها الأناجيل الأربعة؛ إنجيل متى قال: حدث قبل عيد الفصح بيومين في مدينة بيت عنيا عند سمعان الأبرص أن امرأة سكبت الطيب العطر على رأس المسيح، فاغتاظ تلاميذ المسيح منها لأن العطر كان غالي الثمن. وذكر إنجيل مرقس القصة نفسها وقال إن قوماً من الجالسين مع المسيح اغتاظوا من المرأة. وإنجيل لوقا قال إن الحادثة وقعت قبل عيد الفصح بزمن طويل في مدينة كفر ناحوم عند فريسي، فجاءت امرأة خاطئة فسكبت الطيب على قدمي المسيح، فاغتاظ الفريسي وقال: "لو كان هذا نبياً لعلم أنها خاطئة"، أي يرفض أن تلمسه هكذا. وإنجيل يوحنا قال إنها مريم أخت لعازر التي دهنت الرب بالطيب ومسحت رجليه بشعر رأسها؟ يعني حدث هذا في بيت لعازر وأن يهوذا تلميذ المسيح اغتاظ لأجل ثمن الطيب الباهظ لأنه كان سارقاً يسرق ما يتبرع به الناس للفقراء. وحرار علماء اللاهوت في الجمع بين هذه الروايات وتضاربت التفسير. في حين وردت القصة في برنابا بطريقة أكثر عبرة وواقعية، وأن الحادثة تكررت مرتين في بيت سمعان، الذي كان أبرص ثم شفاه المسيح؛ في المرة الأولى جاءت هذه المرأة المومس (مريم المجدلية)، أخت لعازر، تائبة تبكي عن زناها، فقال لها المسيح: "الرب إلهنا يغفر لك فلا تخطئي

(١) ولانس هنا فضل المترجمين في ترجمة كلمة "فانبذهم" وما شابهها، وإن كان معناها أخف بكثير من كلمة يغض، والفارق بين الجملتين كبير جداً.

بعد ذلك"، وفي المرة الثانية سكتب الطيب على رأس المسيح وملابسه فاعترض يهوذا الذي كان عنده صندوق جمع التبرعات للفقراء؛ لأنه كان يسرق من الصندوق(فصل ١٢٩ مع فصل ١٩٢، فصل ٢٠٥).

- بغض النظر عن كل هذا^(١) ألا ترى معي أن الإشارات الواضحة عن محمد تفضح إسلام مؤلفه، ومن ثم تاريخ كتابته والهدف من ورائه؟
- ربما يكون هذا هو رأيي النهائي أيضاً، ولكنني أريد قبل ذلك مناقشة إنجيل برنابا من كل الجوانب، وفق المبادئ التي اتفقنا عليها.

- حسناً. ألا يكفيك أن اختيار كاتب الإنجيل لبرنابا لم يكن موفقاً؛ فذلك الدجال ينتقد بولس بقسوة في كتابه المنسوب إلى برنابا، في حين أن برنابا الحقيقي كان على علاقة متميزة ببولس، فهو الذي قدمه للتلاميذ المتشككين في توبته بعد أن كان أشد المضطهدين للمسيحيين. وافتراق بولس وبرنابا الذي ذكر في أعمال الرسل (أعمال ١٥: ٣٩-٣٦) كان بسبب إصرار الأخير على عدم اصطحاب مرقس، ولم يكن عقائدياً.
- يرفض المحققون ما جاء في أعمال الرسل في تحرير سبب الخصام بين برنابا وبولس، ويرونه محاولة لإخفاء السبب الحقيقي، والذي قد يكون ما ذكره برنابا في إنجيله، ويستدلون لرأيهم بأنه لا يعقل أن ينفصل الصديقان بسبب اختلافهما فيمن

(١) ذكر برنابا تعاليم مهمة للمسيح عليه السلام لم يذكرها أي إنجيل من الأربعة ومنها: - نجاسة الخنازير (فصل ٣٢) - نجاسة عبادة الأصنام وتحريمها (فصل ٣٣) - فضل شريعة الختان (فصل ٢٢) - ما هو الكبرياء (فصل ٢٩) - تعليم جميل عن الصلاة وسنة الصلاة (٣٦، ٨٤) - أنواع عبادة الأصنام في العصر الحديث (فصل ٣٣) - من هو المراني (فصل ٤٥) - حق الطريق والعدل (فصل ٤٩) - القضاء العادل (فصل ٥٠) - ابتلاءات الله للناس والأنبياء خاصة (٩٩) - الصدقة (١٢٥) - الجحيم ودرجاته (١٣٥) - الجنة ودرجاتها (٧١) - موعظة الموت والدفن (١٩٦-١٩٨)، وغيرها الكثير. فهل يتخيل أي عاقل (إن لم يكن قد تربى وبرمج مسبقاً على ذلك) أن هذه الأناجيل الأربعة التي لم تذكر كلمة واحدة عن كل هذه الموضوعات المهمة وغيرها هي الصحيحة الصادقة وأن برنابا الذي ذكر كل هذه المواضيع وأكثر بالتفصيل هو الكاذب!!!

يرافقهما، خاصة أن بولس رضي فيما بعد برفقة مرقس، وأرسل إلى تيموثاوس يقول له: "خذ مرقس، وأحضره معك، لأنه نافع لي للخدمة" (تيموثاوس (٢) : ٣ : ١٠). وهو يوصي أخيراً فيقول: "يسلم عليكم استرخس المأسور معي، ومرقس ابن أخت برنابا الذي أخذتم لأجله وصايا، وإن أتى إليكم فاقبلوه" (كولوسي ٣ : ١٠). ثم ألا تلاحظ معي أنه مع تراجع بولس عن عدم اصطحاب مرقس إلا أننا لم نسمع بتاتا عن تحسن العلاقة بين بولس وبرنابا، بل اختفى ذكر برنابا من العهد الجديد كلية بعد تلك الحادثة!!! تماماً كما اختفى قبل ذلك ذكر بطرس وبقيّة تلاميذ المسيح؟ فبعد خلافهم مع بولس وتوبيخه لرئيسهم، (غلاطية ٢ : ١٤) تركوا له تبشير الأمم هو وبرنابا فقط^(١)، فكيف لهم أن يخالفوا أمر المسيح ويقعدوا عن دعوة الأمم ويتولى ذلك شخص لم يقابله قط؟ ولم نعد نعرف شيئاً عن أولئك الذين أرسلهم المسيح وعن دعوتهم، سوى القليل الذي نقله إلينا لوقا عن مقاومة أهل أنطاكية لتبشير بطرس المخالف لبولس؟ وعلى كل الأحوال فقد اعترف كثير من اللاهوتيين مثل القس "بتر سمث" بأن الخلاف بين برنابا وبولس كان خلافاً فكرياً فعلاً.

(١) تخبرنا رسالة بولس إلى أهل غلاطية بأن الأزمة تفاقمت بينه وبين الرسل، وأن المدافعين عن المعمودية في مجمع أورشليم بطرس ويعقوب وحتى برنابا عادوا فحاولوا ألا يختلطوا بالمسيحيين من أصل وثني. يخبر بولس أهل غلاطية بأن بطرس كان موجوداً في أنطاكية وكان يعاشر ويؤاكل الوثنيين، ثم أتى قوم من عند يعقوب فخاف منهم بطرس وتنحى، وكذلك فعل برنابا وباقي اليهود، وأن بولس قد عتفهم بشدة. وبعد ذلك فحسب رواية بولس "رأوا أنني أوتمنت على إنجيل الغرلة (الأمم) كما بطرس على إنجيل الختان ... أعطوني وبرنابا يمين الشركة لتكون نحن للأمم، وأما هم فللختان" (غلاطية ٢ : ٧-٩).

◀ الأصل

ظهر الارتباك على وجه فيكتور، وراح يعصر ذهنه كي يجد مطعناً آخر في إنجيل برنابا، لا يمكن الرد عليه بمثل هذه السهولة، ولكن دون جدوى. فقال أبراهام متابعاً:

- والآن هل نستطيع البدء بمناقشة احتمالية تزوير إنجيل برنابا أو صحته بطريقة علمية منطقية!!!

- هات ما عندك.

- حسناً. هناك احتمالان لا ثالث لهما في هذا الشأن: فإما أن يكون الإنجيل قد كتب فعلاً بواسطة برنابا، وإما أن يكون مزوراً. فإذا كان برنابا هو من كتبه فعلاً، فتلك الأخطاء قد يكون مردها إلى أنه قد دونه اعتماداً على ذاكرته، بحسب ما استحفظه من الإنجيل الأصلي، خالطاً بينه وبين اعتقاداته القديمة دون قصد.

- أي إنجيل أصلي هذا؟

- إنجيل المسيح. الإنجيل فقط، غير منسوب إلى مؤلف من البشر.

- بشارة المسيح على الأرض لم تزد على ثلاث سنوات، وقطعاً لم يكتب فيها شيء، لذا فلا يوجد مثل هذا الإنجيل.

- بل كان يوجد، وقد علمه المسيح لتلاميذه، ووردت إشارات عنه في الكتاب المقدس.

- مثل ماذا؟

- مثل ما جاء على لسان بولس نفسه: "إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ليس هو، غير أنه يوجد قوم يزعجونكم،

ويريدون أن تحولوا إنجيل المسيح" (غلاطية ١ : ٨-٦) وجاء في إنجيل مرقس: "من يهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل فهو يخلصها" (مرقس ٨ : ٣٥). فأَي إنجيل ترى كان هذا الذي يعنيه المسيح؟ أكان يدعو الناس للإيمان بإنجيل لم يُكتب بعد؟^(١)

- حسناً، لو سلمنا بهذه الفرضية جداً، فما الذي سيترتب عليها بنظرك؟

- أن "البشارة" أو "الخبر المفرح"، المعنى الحرفي لكلمة "إنجيل"، يمكن فعلاً أن يكون بشارة المسيح بالنبي الذي سيأتي بعده ويخلص العالم. خاصة أن جزءاً من الكتابات المسيحية الأولى التي تم العثور عليها مؤخراً تتحدث عن الشيء ذاته، أي قدوم النبي المنتظر، وإن كانت لا تحدد محمداً بالاسم كما فعل صاحب إنجيل برنابا. بل إن بعض تلك الكتابات المكتشفة تعتبر أن النبي المنتظر هو مسيح أيضاً، تماماً كما

(١) جاء في معجم مفسري الكتاب المقدس، المجلد الإضافي، ص ١٣٧ The Interpreter's Dictionary of the Bible, Supplementary Volume, p ١٣٧ ما نصه: "كل الدلائل تشير إلى أن كلمات يسوع كانت ذات سلطة رسمية منذ بدء الكنيسة الأولى. وهذا يثير مزيداً من الانتباه إلى مثل هذا الاهتمام الضئيل لأقوال وأفعال يسوع في الكتابات المسيحية الأولى: رسائل بولس، الرسائل الإنجيلية اللاحقة، العبرانيين، الرؤيا، وحتى أعمال الرسل، حيث نجد فيها الذكر القليل لأقواله وأفعاله!!! يوضح ذلك كون بايياس (١٣٠م) أول من ذكر اسم إنجيل مكتوب. فمع أنه عن إنجيل مرقس (Euseb. Hist. III. xxxix. ١٥-١٦)، وأضاف مجموعة من التقاليد اليسوعية في كتابه "تفسير وحي الرب" (Euseb. Hist. III.) "Interpretation of the Oracles of the Lord" (Euseb. Hist. III. xxxix. ٢-٣)، وفضل شخصياً بشكل واضح التقاليد الشفهية فيما يخص يسوع، ولمح أن أوسابيوس يساند التقاليد اليسوعية لبايياس؛ مع هذا كله، فإنه لم يلمح إلى اعتماده على مرقس. وأكثر الاستشهاد تكراراً بأقوال يسوع من قبل الآباء الرسولين والمتشابهة إلى حد كبير - لا تظهر اعتماداً كبيراً على أناجيلنا المكتوبة". كما قال الناقد الكبير سولومون ريناخ Solomon Reinach: "باستثناء بايياس Papias الذي تحدث عن رواية لمرقس ومجموعة من أقوال يسوع، لم يبق أي كاتب مسيحي في القرن الثاني (أي لغاية ١٥٠م) بالاعتقاد من الأناجيل أو من مؤلفيهم المحترمين". أورفيوس - تاريخ عام عن الأديان، سولومون ريناخ، ص ٢١٨ Orpheus a General History of Religions, Solomon Reinach, p. 218.

يسميه إنجيل برنابا، لأنهم كانوا يؤمنون بأن يسوع المسيح جاء يمهد الطريق لمسيح آخر للرب^(١).

- لا يوجد مسيح آخر ولا نبي منتظر، فالمسيح واحد، وهو نفسه سيعود آخر الزمان^(٢).

- إن لقب المسيح غير مختص بيسوع وحده، فكل الأنبياء كانوا مسحاء، بل أطلق لقب المسيح على بعض الكهنة والملوك، وأحدهم كان الإمبراطور الفارسي "كورش" الذي صار مسيح الرب، مع أنه ليس من بني إسرائيل أصلاً (إشعيا ٤٥: ١) كما يوجد في الكتابات المسيحية القديمة ما يدل على أن المسيحيين كان لديهم اعتقاد راج لفترة طويلة بقدوم نبي آخر الزمان قبل عودة يسوع المسيح^(٣)، وقد جاء في الإنجيل: "فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً: تعرفونني وتعرفون من أين أنا، ومن نفسي لم آت، بل الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه، أنا أعرفه لأنني منه وهو أرسلني..."

(١) مثل الإسيانيين. وللمزيد من المعلومات عن اعتقادهم في "المسيحين" راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف. أما عن الإشارات التي لا تزال باقية على بعثة نبينا في أسفار الكتاب المعتمدة فيمكنك مراجعة رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) لقد أبطل المسيح لليهود قولهم، بأن المسيح المنتظر سيكون من نسل داوود أكثر من مرة؛ مثل: "كان الفريسيون مجتمعين، سألهم يسوع: ماذا تظنون في المسيح؟ ابن من هو؟ قالوا له: ابن داوود. قال لهم: فكيف يدعوه داوود بالروح رباً قائلاً: قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع موطناً لقدميك؟ (المزمور ١١٠: ١-٦)، فإن كان داوود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه؟ فلم يستطع أحد أن يجيب بكلمة" (متى ٢٢: ٤١-٤٦). وأيضاً: "فداوود نفسه يدعوه رباً. (سيداً) فمن أين هو ابنه" (مرقس ١٢: ٣٧. وانظر: لوقا ٢٠: ٤١-٤٤) فلقب "المسيح المنتظر" يتعلق بمسيح يملك ويسحق أعداءه، وهو ما رأينا إنكار المسيح عليه السلام له في مواطن عديدة؛ منها قوله: "ملكوتي ليست في هذا العالم" (يوحنا ١٨: ٣٦) أي إنها ملكة روحية، وهي غير المملكة التي يبشر بها جده داوود في مزاميره. وينقل القس الدكتور "فهم عزير" عميد كلية اللاهوت للبروتستانت في مصر عن علماء الغرب إنكارهم "أن يسوع كان يتصرف ويتكلم كمسيح لليهود أو المسيا الذي كان ينتظره العهد القديم". (عن كتاب: "هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟"، للدكتور. منقذ بن محمود السقار).

(٣) راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

فآمن به كثيرون من الجمع وقالوا: أعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا" (يوحنا ٧: ٢١-٢٥). ويسوع حرص على نفي فكرة أنه النبي المنتظر مرة بعد مرة مثل: "فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم، وأما يسوع فإذ علم أنهم مزعمون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف أيضاً إلى الجبل وحده" (يوحنا ٦: ١٥-١٤).

- سأمشي معك إلى نهاية الطريق. فحتى لو سلمت لك بهذا أيضاً، فمن المستحيل أن يكون ذلك النبي المنتظر هو محمد، فيبقى إذن الاحتمال الثاني، فقط، وهو أن إنجيل برنابا مزور فعلاً.

- فلننتقل إذن إلى الاحتمال الثاني. ولكننا هنا نصطدم بعقبة أخرى، وهي أن مزوره ينبغي أن يكون من كبار الحاخامات وعالم بالشريعة اليهودية وبتاريخ بني إسرائيل ودارس مجد لجميع الكتب التي أنزلت على أنبيائهم، ثم اعتنق المسيحية، فصار قساً متبحراً باللاهوت والتقليد، ودرس الأناجيل والرسائل وأعمال الرسل وتاريخهم، وأخيراً اعتنق الإسلام، فأصبح شيخاً فقيهاً وعالمًا بالقرآن والحديث، ووجهة نظرهما في أخبار الأولين وأديانهم. وليس هذا فحسب، فينبغي أن يكون ذلك الشخص الخرافي مجيداً لكل اللغات التي كتبت بها أسفار التناخ والعهد الجديد والقرآن، كالعربية واللاتينية واليونانية والآرامية والعبرية القديمة، كي ينحل من كتب الشريعة واللاهوت والفقه إنجيلاً جديداً.

- هذا مستحيل طبعاً. ولكن ما الذي يدعوك إلى هذا الافتراض؟

- لأن الحقائق التي به، وأسلوب كتابته، ولاما كاتبه العجيب بالأسفار اليهودية والشريعة وكيفية استخدامه لأقوال أنبياء بني إسرائيل، وإشارته إلى أمور دقيقة لا يعلمها إلا أحرار اليهود المختصون، وفي الوقت نفسه إدراكه لتعاليم يسوع، وأمثله

وتصرفاته، وسرده المفصل لمواعظه، وتوضيحه للكثير من مبهمات العهد الجديد، لا يدع مجالاً للشك في كونه متمكناً بتعمق نادر، من كلتا الديانتين؛ اليهودية والمسيحية، وأنه قرأ واستوعب كل أسفارهما. كما أن الإشارات الإسلامية، وإسقاطها على الأحداث بشكل مقنع، وموافقة أجزاء كبيرة من إنجيله لوجهة النظر الإسلامية فيها، ينبغي أن تؤكد أنه على إيمان عميق بالإسلام. إلا أن اجتماع كل ذلك العلم عند شخص واحد هو أمر بعيد عن التصديق تماماً، خاصة في ذلك العصر الذي لم يكن به تنوع في مصادر المعلومات وسهولة العثور عليها كيومنا هذا.

- ماذا لو أن له أكثر من كاتب من مختلف الديانات اجتمعوا على تأليفه؟

- ذلك مستبعد تماماً لأسباب شتى؛ فإن هذا يقود أيضاً إلى افتراض إسلامهم جميعاً! وهذا يعيدنا إلى البداية، بل يعقد الأمور أكثر. ولأن إنجيل برنابا كتب بنفس واحد وأسلوب واحد، ولأن المؤلف يجب أن يكون على دراية كاملة بما يكتب عنه حتى يستطيع التوفيق فيما بين تلك الحقائق، كما أنه لو افترضنا أن كاتبه أو كتبه مسلمون، فإن ذلك يستدعي علم علماء المسلمين به، ولكن الغريب أن كثيراً منهم كتبوا عن إثبات بشارته نبيهم في الأناجيل طيلة اثني عشر قرناً، ولكن أياً منهم لم يستشهد بإنجيل برنابا قط، ولم يعرفوا به إلا بعد أن اكتشفه المسيحيون أنفسهم!! وهذا في حد ذاته دليل براءة المسلمين من تهمة اختلاقه^(١).

(١) وصل إلى المسلمين أول خبر عن ذلك الإنجيل خلال ما جاء عنه في مقدمة ترجمة "جورج سايل" للقرآن الكريم. وبعد ذلك شاع ذكر إنجيل برنابا في الأوساط الإسلامية في الهند، واستخدموا ما قيل عنه في مواجهتهم للإرساليات التبشيرية، والمبشرين المسيحيين. وقد تضايق "جون ديلينو نينجسون" الذي كان يعمل لـ"إرسالية كنيسة اسكتلندا في الهند" كثيراً، وطالب بالبحث عن الكتاب وعمل ترجمة له لكشف زيفه وتزويره حتى يحذف هذا الأمر المزعج من أجندة الحوار المسيحي الإسلامي نهائياً. وفي سبيل ذلك بذل نينجسون وزملاؤه جهوداً كبيرة حتى سمحت المكتبة الملكية بفينا بإطلاعهم على المخطوطة الإيطالية لذلك لإنجيل. وقام كل من "لودنسال راج" وزوجته "لوراراج" المتخصصين في أدب الشاعر الإيطالي الكبير "دانتي"!!! بترجمة النص الإيطالي إلى الإنجليزية سنة ١٩٠٧م، ووضعوا له مقدمة نقدية=

- هل يعني ذلك أنك ترجح الاحتمال الأول، وأن البشارة في حقيقة الأمر كانت

بالنبي العربي؟

- كلا بالطبع.

- إذن؟ كلا الاحتمالين فاسد!!!

- ليس تماماً.

=طويلة قصداً من خلالها برهنة زيف ذلك الإنجيل!!! وكان الهدف المعلن لهذه الترجمة ونشرها، هو تقديم الدليل للإرساليات التبشيرية على أنه كتاب مزيف ومزور!!! وبعدها بسنة واحدة قام الدكتور خليل سعادة المسيحي اللبناني بترجمته إلى اللغة العربية ووضع له أيضاً مقدمة نقدية طويلة لإثبات زيفه، مبنية أساساً على مقدمة الزوجين راج!!! ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح وانقلب السحر على الساحر. فمع أن الأهداف التي صاحبت عملية الترجمة مشبوهة، ومع أنهم تعمدوا الإيحاء بزيفه بكل طريقة ممكنة، وعلى رغم مقدمتهم الطويلة التي تفننوا بها، إلا أن المسلمين تجاهلوا ذلك بكل بساطة وترجموا الإنجيل إلى الأوردية والتركية ومختلف اللغات الإسلامية، وزادت قوة احتجاجهم به على الإرساليات المسيحية على رغم كل محاولاتها اليائسة لدس الأخطاء فيه وحذف الحقائق والتقليل من شأنه. والغريب في الأمر أن المسلمين لا يزالون يعتمدون على تلك الترجمة المتبورة وغير الدقيقة إلى الآن، وقد مضى على صدورها أكثر من مئة عام، ظهرت في خلالها عشرات الاكتشافات والدراسات فضلاً عن العثور على نسخة مخطوطة جديدة في مكتبة فيشر بأستراليا. (هناك نسخة مخطوطة أخرى فقدت، سيمر ذكرها بعد قليل). ويطالب البعض (بحق) بإعادة الترجمة بشكل حيادي مع الرجوع إلى كل المخطوطات المتوافرة، ثم التحقق حرفاً بحرف وكلمة بكلمة وعبارة بعبارة. وفي حال تم ذلك المشروع، فمن الممكن جداً أن تتكشف حقائق جديدة في ذلك الإنجيل البالغ الأهمية تزيد من قيمته العلمية، التي لم يستطع الزوجان راج وإرسالية كنيسة اسكتلندا نفيها رغم كل ما فعلوه.

وفيما يلي بعض أدلة تلاعب الترجمة (وما أكثرها):

- ١- ذكروا في الهوامش أنه ترجم من الأصل الإيطالي والأصل الإسباني، مع أن الأصل الإسباني حسب قولهم في المقدمة مطموس وناقص، ثم قالوا إنه لا وجود له! بالإضافة إلى اعتراف المترجم في الحواشي - مراراً عديدة - أنه غير كلام النسخة الأصلية عند الترجمة، بذريعة عدم وضوح الأصل.
- ٢- وفي هامش فصل ١٩٩ كتب المترجم: (وجربنا على ذلك في هذه الترجمة) أي إنه فعل ذلك كثيراً وغير كل ما لا يعجبه! وهذه صفاقة وعدم أمانة.
- ٣- ترجم كلمات كثيرة بأسلوب غريب لتشويه معاني الكتاب. مثل: بدلاً من القسم (بالله الحي) كما جاء في التوراة يكتب (لعمركم الله) وكتب (غناء الله) بدلاً من (غني الله) . . . وغير ذلك الكثير.

فقال فيكتور باستغراب:

- إلى أين تريد أن تصل؟!

- إما أن يكون الاحتمال الأول هو الصحيح فعلاً، وأن برنابا هو الكاتب الحقيقي، ولكن يد النسخ والترجمة والشرح، قد طالت إنجيله كما طالت غيره من الأناجيل والأسفار. وإما أن يكون الاحتمال الثاني هو الصحيح وأن الكاتب هو شخص مجهول، ومن ثم فقد استند إلى نسخة ما من الإنجيل الحقيقي بها كل تلك المعلومات الدقيقة التي أوردها ليمرر من خلالها معتقده الشخصي. وكالعادة، نسب كتابه إلى شخص موثوق في الكنيسة الأولى^(١)، ليوحي بالثقة والمصداقية، ويضمن القبول.

- أي إنك تفترض، في كلتا الحالتين، وجود أصل لذلك الإنجيل من زمن يسوع.

- بالضبط. فهذا هو المنطق.

- ولكن هذا يستلزم أن تؤمن بأن ذلك النبي العربي قد ورد ذكره صراحة في أكثر من موقع، وأن الله قد خلق العالم كله من أجله كما جاء في ذلك الإنجيل. فهل يمكن أن تؤمن بذلك!!!

- كلا بالطبع، ولكن ربما وردت نبوءات في الإنجيل الأصل عن النبي المنتظر، فهمّ منها الناسخ أنها تتحدث عن محمد، وأراد توضيحها بما لا يدع مجالاً للبس، ثم أصبح شرحه من أصل المتن لدى النسخ كما حصل مراراً وتكراراً في تدوين الكتاب المقدس نفسه. وبالمناسبة، لو كان مؤلف ذلك الإنجيل مسلماً وأراد أن يقحم اسم نبيه لإثبات صدق قرآنه، لكتب "أحمد" وليس محمد.

(١) برنابا هو أحد رسل المسيح، واسمه يوسف بن لاوي بن إبراهيم، وتعني برنابا ابن البر ابن الوعظ ابن النبوة. وجاء في العهد الجديد أنه باع حقله وجاء ووضع عند أرجل تلاميذ المسيح (أعمال ٥ : ٣٦ - ٣٧). عرف بصلاحه وتقواه، وقد ذهب برنابا للدعوة في أنطاكية. "ووعظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب، لأنه كان رجلاً صالحاً وممتلئاً في الروح القدس والإيمان، فانضم إلى الرب جمع غفير" (أعمال ١١ : ٢٢ - ٢٤).

- لماذا؟!!!

- لأن هذا بالذات هو اسم رسول المسلمين الذي ذكر القرآن أنه ورد في الإنجيل^(١)،
ومن ثم فإن ذكر محمد صراحة هو على الأغلب من توضيح الناسخ الذي أكاد أضمن من هو.
- من تقصد؟!

- طبقاً للمستشرق الشهير "سايل" فإن مكتشف إنجيل
برنابا هو راهب لاتيني يسمى "فرا مرينو"^(٢)، وأنه عشر على رسائل

(١) يقصد الآية التي ذكرت التبشير برسولنا الكريم في إنجيل عيسى عليه السلام ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. وقد كتب المعلق المسلم "مصطفى العرودي" (سيأتي ذكره بعد قليل) هذا الاسم بالذات. ففي هامش كتاب إنجيل برنابا تعليقات عربية في النسخة الإيطالية على اسم محمد عليه الصلاة والسلام الذي بشر به عيسى عليه السلام. ومن هذه التعليقات: "في لسان عرب: أحمد. في لسان عمران (يعني العبرية): مسيا. (يعني المسيح) في لسان الاتن (يعني اللاتينية): كنسلتر. في لسان روم (يعني اليونانية القديمة): باركل تس (يعني براكليت أو باركليتوس. ولمزيد من المعلومات حول هذه الكلمة الواردة في الإنجيل (بترجمته اليونانية الأولى)، والتي تعني الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام، راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف. تعليق على برنابا ٤٤: ١٩ صفحة ٦٩، عن كتاب "البشارة بنبي الإسلام" ٢٧١/٢.

(٢) ربما كان فرا مرينو هذا هو نفسه عالم الشرقيات الراهب المعتبر في الكنيسة "فراي ماركو ماريني Fray Marko Marini" ١٥٤٢-١٥٩٤م الذي كان في خدمة البابا سكتس الخامس، وكان هو من أعاد كتابة تاريخ الكنيسة بإيجاد مخطوطات قديمة جداً. وإن صح هذا، فهو يفسر كون ورثة المخطوطات القديمة قد قصده هو بالذات، خاصة بعد أن شاع أمر خبرته في مثل هذه الأمور. فقد جاء في مقدمة النسخة الإسبانية أن أحد النبلاء من عائلة أورفيني Urfini جاء يبحث عن فرا مرينو وقدم له أربعة كتب قديمة جداً مكتوبة باللاتينية كانت لأنبيا قداماء، و"لكونها معارضة للإيمان المسيحي، فقد اعتبرت كتب هرطوقية، لذا عهد بها إليه ليفعل بها ما يراه مناسباً. ووجد أنها أسفار الأنبياء إشعيا وحزقيال ودانيال ويوثيل. وأن تلك الكتب كانت مختلفة بدرجة كبيرة عن الأسفار التي كانت على أيامه وأنها مكتوبة بقلم الأنبياء. وبعد ذلك بسنة واحدة جاءته سيّدة من عائلة كولونا Colonna كان زوجها قد توفي قبل ذلك ليس بكثير وأعطته ثلاثة كتب قالت أنّها وجدتها في دولا ب كتب زوجها وطلبت من أحد أبنائها أن يقرأ لها جزءاً منها فوجدت أنها تصرخ ضد القديس بولس فوضعتها في حقيبة كتان وأرسلتها إليه بصفة خاصة وطلبت منه أن يبقّي المسألة سرا لئلا يأخذوا زوجها المتوفى من قبره ويحرقوه. ووجد أن أحدها يتحدث عن العذراء وقد كتبه أغناطيوس، والآخر كتبه زوزيموس تلميذ الرسل، والثالث كتبه إيريناوس ضد بولس مستشهداً بإنجيل برنابا.

لـ"إيريناوس"^(١) وفي عدادها رسالة يندد فيها ببولس مستنداً في تنديده ذلك إلى إنجيل برنابا، فأصبح الراهب المشار إليه من ذلك الحين شديد الشغف بالعثور على ذلك الإنجيل.

- ولكن القديس إيريناوس لم يكتب شيئاً ضد بولس^(٢)، بل غالباً ما استشهد بكتابات^(٣).

- كان ذلك أساساً في معرض رده على هرطقة "المارسيونيين"^(٤) الذين غلوا في بولس، فقد ابتدأ إيريناوس بتفنيد مزاعم هؤلاء قائلاً: "هؤلاء المارسيونيون الذين يزعمون أن بولس وحده يعرف الحق، وله وحده كشف السرّ بإعلان. فلندع بولس نفسه يدينهم..."^(٥)، ومن ثم ليس مستبعداً أن يكون قد ندد ببولس فعلاً في إحدى الفترات، أو في معرض تحقيقه ونقده لرسائله. ولا تتسأله. ولا يتسأله أنه لم يبقَ لدينا من كتابات

(١) أسقف ليون، وهو قديس وأحد آباء الكنيسة، وواحد من أهم لاهوتيين القرن الثاني الميلادي. وقد أوضحنا في الهامش السابق كيف وصلت تلك النسخة من كتابات إيريناوس إلى فرامرينو.
(٢) هذا ليس دقيقاً، فهو لم يخلط بين الله والمسيح كبولس، كما لم يتكلم قط عن العلاقة بين ما بات يعرف لاحقاً بالأفانيم الإلهية. وهو يلقب عيسى عليه السلام بأدم الثاني، ولم يستخدم تعبير "تأليه" في حديثه عن الخلاص، ويستخدم بدلاً منه تعبير "المشاركة في مجد الله"، فقد كان حريصاً على عدم إلغاء الحدود بين الله والإنسان. وكان أحد المدافعين عن التوحيد مستنداً إلى اللاهوت الظاهر في (مزمو ٤٥ : ٦ - ٧) و(عبرانيين ١ : ٨ - ٩).

(٣) اقتبس منها ٣١٧ اقتباساً حسب رأي اللاهوتيين. ولكن أولئك اللاهوتيين أنفسهم يعترفون أن استشهادات الآباء، بشكل عام، بالكتاب المقدس لا تتماثل حرفياً مع الكتاب المقدس الذي بين أيدينا حالياً! ويعللون ذلك بأن الآباء الأولين "كانوا في أغلب الأحيان يستشهدون عن ظهر قلبهم (من الذاكرة)، ومن غير أن يراعوا الدقة مراعاة كبيرة"!!! وهكذا فلا يمكننا الوثوق التام فيما ينقلون إلينا، خاصة مع قيام البعض بمحاولات "بهلوانية" (حسب وصف بعض النقاد) لمقابلته تلك "الاستشهادات" مع ما يشابهها في الكتاب المقدس، ليرجحوا في النهاية أنها النص المقصود!

(٤) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٥) كما هو واضح من مقدمة إيريناوس، فاستشهاده بكلام بولس نفسه ليرد به على من غلوا فيه، لا يعني مطلقاً أنه متفق معه في كل شيء، بل ربما العكس تماماً.

إيريناوس العديدة سوى مؤلفين تصعب قراءتهما بسبب أسلوبه المعقد أحياناً والمليء بالإعادات^(١)، وربما كان استشهاده بإنجيل برنابا من باب البحث الأكاديمي في النصوص المتداولة بين العامة، ولم يكن شخصياً يؤمن به، ولكن الراهب مرينو اجتذبتة تلك النقطة بالذات. وربما كان ذكر إيريناوس نفسه هو خلط غير متعمد من المترجم، وأن المقصود هو "أوريغانوس"^(٢).

- ربما كان أحد هذه الاحتمالات صحيحاً فعلاً، ولكن السؤال هو: كيف استطاع ذلك الراهب المزعوم أن يصل إلى مكتبة الفاتيكان ويسرق منها إنجيل برنابا بمنتهى السهولة!!
- لقد اتفق أنه أصبح حيناً من الدهر مقرباً من البابا "سكتس الخامس"^(٣)، فدخل معه يوماً إلى مكتبته، حيث ما لبثت سنة من النوم أن أخذته هناك، فأحب الراهب مرينو أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يفيق البابا، وكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو إنجيل القديس برنابا نفسه، فكاد يطير فرحاً من هذا الاكتشاف، وخبأ هذا الإنجيل في أحد ردني ثوبه، ولبث واقفاً بجانب البابا حتى استفاق، ثم استأذنه بالانصراف. ولما خلا بنفسه طالع ذلك الكنز بشوق عظيم، ثم اعتنق الإسلام على إثر ذلك.

(١) كتاب إيريناوس الأشهر "بحث وتفنيد ادعاء الغنوصية الكاذب" والمعروف باسم: "ضد الهرطقات" (كتب باليونانية) مفقود، والنسخة المعتمدة منه هي نسخة متأخرة مترجمة إلى اللغة اللاتينية، ويختلف العلماء اختلافاً كبيراً في تحديد تاريخها.

(٢) ١٨٥ م - ٢٥٤ م. وتقول الموسوعة الكاثوليكية بشأنه: "كان يعتبر الروح القدس أدنى مرتبة من الابن، ولا شك أن هذا يخالف العقيدة المسيحية كما أعلنت في المجامع المسكونية، لكن لا يغب عن بالنا بأن العقيدة المسيحية كانت في تلك الآونة تتلمس طريقها لتجد صيغة تسبك فيها الأسرار المسيحية على أساس سليم!!!" يذكر أن تعاليم أوريغانوس قد أدينت في مجمع نيقية تماماً مثل أريوس. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف. ولعرفة كيف يعترف آباء الكنيسة بأنهم حذفوا من كتبه كل ما من شأنه تشكيك عامة المسيحيين بإيمانهم.

(٣) (١٥٨٥-١٥٩٨م) وهذا البابا هو الذي أعطي الإذن للتحقيق في أصل المكتشفات التي اكتشفت في غرناطة سنة ١٥٨٨ و١٥٩٥ م.

- أي إنك تقصد أن الإضافات الإسلامية كانت تزويراً من فرا مرينو بعد إسلامه؟! - هذا إن افترضنا فيه سوء النية، وذلك صعب بالنظر إلى تضحيته بمنصبه وبحظوته عند البابا، في سبيل دين اقتنع به بعد قراءة ذلك الكتاب الذي كان يشير أصلاً إلى النبي العربي. أما إذا افترضنا فيه حسن النية، فهو لم يقدّم بأكثر من تفسير بعض ما أبهم فيه بعد دراسته للمصادر الإسلامية، أو بتدوين ملاحظات شخصية لبعض ما يتوافق بين المعتقدين، ثم نسخت لاحقاً دون تمييز بينها وبين متن النص. ومما يرجح ذلك، أن فرا مرينو احتفظ به لنفسه بعد إسلامه وهروبه، ولم يحاول التشهير بالكنيسة، بل لم يشع خبر ذلك الإنجيل أصلاً، ولم يعرف ذلك الإنجيل على مستوى واسع إلا في فجر القرن الثامن عشر (سنة ١٧٠٩م)، أي بعد وفاته بأكثر من قرن من السنين. ولم يعثر حينها على ذلك الإنجيل نفسه، ولكن على نسخة مترجمة منه إلى اللغة الإيطالية^(١)، كانت في مكتبة أحد الأمراء، فعثر عليها "كريم" أحد مستشاري ملك بروسيا، ثم انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار في سنة ١٧٢٨ إلى البلاط الملكي بفيينا، حيث لا تزال هناك حتى الآن^(٢).

- ألا ترى معي أن اختفاء النسخة الأصلية، ووجود نسخة بلغة أخرى غير التي كتبت بها أصلاً، يضعفان من صحة ذلك الإنجيل المزعوم؟

(١) يذهب الكاتبان "لو تسدال" و"لو راواغ" إلى أن نُسَخَ المخطوطة الحالية (النسخة الإيطالية) قد تم عام ١٥٧٥م تقريباً، وأنه من المحتمل أن يكون الناسخ هو فرامينو الراهب نفسه. (أي فراي ماركو ماريني طبقاً للتحليل السابق).

(٢) وهي النسخة التي ترجمها الزوجان راج. ولكن النسخة التي استشهد بها المستشرق الشهير سايل، في ترجمته للقرآن الكريم، كانت نسخة مخطوطة باللغة الإسبانية، يؤكد بعض العلماء أنها أقدم من النسخة الإيطالية. وكان سايل قد حصل عليها عن طريق الدكتور "هلم" من هدلي (بلدة من أعمال همبشير)، ثم تناولها بعده الدكتور "متكهوس" أحد أعضاء كلية الملكة في أكسفورد، فنقلها إلى الإنكليزية، ثم دفع الترجمة مع الأصل سنة ١٧٨٤م إلى الدكتور "هويت" أحد مشاهير الأساتذة، ثم اختفت بعد ذلك ولم يعرف عنها أي خبر!!! أما النسخة المخطوطة الثالثة والأخيرة لذلك الإنجيل، فقد عثر على أجزاء كبيرة منها في سبعينيات القرن الماضي في مكتبة فيشر Fisher library بسيدني بأستراليا. وهي أيضاً باللغة الإسبانية.

قال فيكتور بثقة، كأنه قد حسم موضوع زيف إنجيل برنابا نهائياً، إلا أنه صعق عندما رد عليه أبراهام مبتسماً بخبث:

- كلا، فالشيء نفسه ينطبق على الأسفار المعتمدة في الكتاب المقدس، فقد تم العثور عليها باللاتينية واليونانية، أما النسخ الأصلية التي كتبت بالآرامية والعبرية فلا تزال مفقودة أيضاً!

فقال فيكتور مديراً التحقيق إلى جانب آخر:

- ولكن إذا كان ذلك الإنجيل موجوداً منذ فجر المسيحية، كما تفترض، فلم لم نسمع له أي ذكر باستثناء شهادة فرا مرينو المزعومة باستشهاد أحد الآباء به في معرض انتقاده للقديس بولس؟!

- لو لم يكن ذلك الإنجيل من زمن برنابا، لندد مؤلفه بالتثليث وكتب في إبطاله، لأنه لا يعترف بألوهية المسيح، ولكنه لم يتحدث عن التثليث مطلقاً، مما يدل على أن زمن الكتابة سابق على دعوى التثليث التي ظهرت لاحقاً^(١)، ثم كونك لم تسمع بإنجيل برنابا، فذلك لا يعني أنه لم يكن له ذكر في التاريخ^(٢)، فقد جاء الأمر بتحريم قراءته في ثانيا قرارات الكنسية الرسمية منذ بداية إنشائها في القرن الرابع الميلادي، مثل

(١) ابتدأ الأمر بتأليه المسيح أولاً، ومن ثم تثنية أقانيم الله (الأب والابن)، ثم تبلور مفهوم الثالوث الأقدس في النهاية (الأب والابن والروح القدس). وللمزيد من التوضيح والتفصيل راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) قال العلامة المسيحي القس "صموئيل مشرفي" رئيس الطائفة الإنجيلية في مصر والشرق في كتابه الصادر سنة ١٩٨٨ "عصمة الكتاب المقدس واستحالة تحريفه" في صفحة ٢٠: إن إنجيل برنابا كان موجوداً سنة ٣٢٥ م. وأضاف قائلاً: أما نحن من جانبنا فنقول من باب الترجيح أن بعض أتباع المسيح قد بدؤوا بكتابة هذه الأناجيل عن المسيح عن طريق جمع مجموعات من أقواله وأفعاله لاستعمالهم الشخصي في البداية، وهنا بدأت القصص التي تُروى عن يسوع تجمع في كتب كبيرة كانت نواة لعدة أناجيل بلغت مئة إنجيل، وكان على الكنيسة أن تمحص هذه الأناجيل، وتمت الموافقة على هذه الأناجيل الأربعة فقط التي هي إنجيل الغرلة.

أمر البابا "ديماسوس" عام ٣٦٦م، وقرار مجلس الكنائس الغربية عام ٣٨٢م، وقرار البابا "أنوسنت" عام ٤٦٥م، وأخيراً قرار البابا "جلاسيوس الأول" الذي جلس على كرسي البابوية عام ٤٩٢ م^(١)، كما جاء في "قائمة الستين كتاباً" (المحرمة)، والمكتوبة في القرن السابع^(٢).

- إذا كان الأمر كذلك فمن المستبعد ألا يصل خبره ولو سماعاً إلى المسلمين، فلماذا لم يحتفظوا به كحجة قوية ضد تأليه المسيحيين ليسوع ورفضهم لمحمد؟

- لم يكن ينقصهم ذلك الإنجيل بالذات لإقامة الحجة على المسيحيين، فالتاريخ يحدثنا عن نسخ عديدة من الأناجيل والكتابات الدينية المسيحية التي كانت تتحدث عن عقائد مناقضة للمسيحية الرسمية ومقاربة للمفهوم الإسلامي الذي جاء بعدها بقرون، وهذا ليس سراً. ولذلك دخل الكثير من المسيحيين في الإسلام حال ظهوره، ونقل أغلبهم أنهم وجدوا ذكر النبي العربي في كتبهم، وشاع ذلك بين المسلمين^(٣)، ولكن الكنيسة الرسمية اجتهدت في حرق تلك الأناجيل أولاً بأول، ومحو آثارها تماماً^(٤)، وبالطبع لم يكن الإسلام معنياً بحفظ كل تلك الأناجيل، خاصة مع حرص نبيهم على

(١) ولد رسول الله ﷺ في سنة ٥٧١ م، وبدأت رسالته بعد ذلك بأربعين سنة.

(٢) تلك القائمة ذكرت الكتب المعتمدة أولاً، ثم ذكرت بعض الكتب الأبوكريفية (السرية، أو المنحولة وفقاً للمفهوم الجديد) المنهي عن قراءتها، ومن ضمنها كتاب "الإنجيل بحسب برنابا".

(٣) كان اسم النبي ﷺ موجوداً بجلاء في كتب اليهود والنصارى عبر التاريخ، وكان علماء المسلمين يحاجون الأخبار والرهبان بما هو موجود من ذكر محمد ﷺ في كتبهم. وصدق الله تعالى إذا يقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وللمزيد من المعلومات حول ذلك والاطلاع على بعض ما بقي للآن في كتبهم رغم كل ما تم إخفاؤه، راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٤) أما النصوص التي تحدثت عن الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام في نسخهم المعتمدة، فقد قاموا بتأويلها بدافع التقوى كي لا يضل ذلك التشابه عموم المسيحيين الجهلة، فيقعوا في براثن الإسلام. وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

التشديد على اكتفائهم بالقرآن، ونهى عن جمعهم لأسفار أهل الكتاب، حتى ما يوافق الإسلام منها^(١).

- إن إنجيل برنابا ينسب العديد من الآيات إلى العهد القديم مع أنه يخلو منها تماماً، وهذا وحده ينبغي أن يكون كافياً ليهودي دارس للكتاب مثلك لأن يصرفه عنه كلية؟!!!

- إذا كان ذلك ينبغي أن يصرفني عن إنجيل برنابا، فالأحرى أن يصرفني أكثر عن العهد الجديد نفسه؛ فهو قد نسب آيات أكثر للعهد القديم، مع أن كتابنا القانوني يخلو منها.

- مثل ماذا؟

- في إنجيل متى (٢٣:٢): "وجاء إلى مدينة اسمها الناصرة فسكن فيها ليطم ما قال الأنبياء: يدعى ناصرياً"، ولم يرد في العهد القديم على الإطلاق أن المسيح أو النبي الموعود يدعى ناصرياً! بل لم يرد ذكر مدينة الناصرة في العهد القديم أصلاً. وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (٩:٢): "ورد في الكتاب: أعد الله للذين يحبونه كل ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر". وهذا أيضاً غير موجود في كتبنا القانونية! وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥:٥٤): "تم قول الكتاب: قد ابتلع الظفر الموت"، وذلك أيضاً غير موجود في العهد القديم.

- أهذا هو ما يدخل الشك إلى قلبك بالنسبة إلى العهد الجديد؟

- ليس بالضرورة، فهناك أسفار كثيرة فقدت من العهد القديم، ولولا استشهاد

(١) ثبت عن النبي ﷺ أنه غضب حين رأى مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة فيها شيء من التوراة، وقال عليه الصلاة والسلام: "أفي شك أنت يا بن الخطاب؟ ألم أت بها بيضاء نقية؟! لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي". رواه أحمد والدارمي وغيرهم. وفي رواية أخرى قال النبي ﷺ لعمر: "أمتهوكون أتمم - والتهوؤك هو السقوط في هوّة الردى - كما تهوؤت اليهود والنصارى؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي" (حسنه الألباني).

أنبياء إسرائيل بها لما علمنا عنها شيئاً^(١)، وكذلك الحال بالنسبة إلى العهد الجديد أيضاً.

- قلت العهد الجديد؟

- أجل، فهناك رسالة بولس إلى أهل اللاذقية التي ورد ذكرها في رسالة بولس إلى أهل كولوسي (١٦:٤). ورسالة بولس الأولى إلى أهل فيلبلي التي ورد ذكرها في رسالة بولس إلى أهل فيلبلي (١:٣). وهناك رسالة أخرى مفقودة لبولس إلى أهل كورنثوس وقد ورد ذكرها في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (٩:٥)، وأخرى ورد ذكرها في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس (٨:٧)^(٢).

(١) مثل: سفر حروب الرب: ورد ذكره في سفر العدد (١٤:٢١). سفر سنن الملك: ورد ذكره في سفر صموئيل الأول (١٠:٢٥). سفر ياشر: ورد ذكره في سفر يشوع (١٠:١٣)، وسفر صموئيل الثاني (١٧:١). سفر أخبار أيام ملوك إسرائيل: ورد ذكره في سفر الملوك الأول (١٤:١٩) و(١٦:٥) و(١٦:١٤). سفر تاريخ إسرائيل ويهوذا: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (٧:٢٧). سفر تاريخ ملوك إسرائيل ويهوذا: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (٨:٣٦). سفر أخبار أيام ملوك يهوذا: ورد ذكره في سفر الملوك الثاني (٥:٢٤) و(٢١:٢٥). سفر أخبار جاد النبي: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الأول (٢٩:٢٩). سفر رؤيا النبي يعذو: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (٩:٢٩). سفر نبوءة أخيا الشيلوني: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (٩:٢٩). سفر تاريخ عدو النبي: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (١٢:١٥) و(١٣:٢٢). سفر تاريخ شمعي النبي: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (١٢:١٥). سفر تاريخ ناثان النبي: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (٩:٢٩). سفر تاريخ ياهو بن حناني: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (٢٠:٣٤). سفر تاريخ الملوك: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (٢٤:٢٧). سفر أخبار الأنبياء: ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني (٣٣:١٩). سفر أخبار سليمان: ورد ذكره في سفر الملوك الأول (١١:٤١). سفر الرب: ورد ذكره في سفر إشعياء (٣٤:١٦).

(٢) يذكر أنه قد جاء على لسان بولس: "بل كما هو مكتوب ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعدّه الله للذين يحبونه" (١كو٢:٩)، وتدل عبارة: "كما هو مكتوب" أن وصف اللجنة بذلك قد جاء في الكتاب، ولكننا (حالياً) لا نرى أثراً لذلك لا في العهد القديم ولا حتى في العهد الجديد! ولا أدري كيف يعتبر هذا الاستشهاد وحيّاً وإلهاماً من الروح القدس، ولا يتساءل من يقرؤه عن المصدر المستشهد منه!! خاصة إذا كان مؤمناً بأنه "تزول الجبال ولا يزول حرف واحد من الكتاب" (متى ٥: ١٧ - ١٨)!!! يذكر أن هذا الوصف للجنة قد تكرر حرفياً في حديث الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام عن ربه جل جلاله، مما يدل على أن النص المفقود الذي استشهد به بولس كان من كلام الله فعلاً.

فقال فيكتور محاولاً العودة إلى نقد إنجيل برنابا من جانب آخر، والهروب من تلك النقطة المحرجة:

- وماذا بشأن ما ورد في إنجيل برنابا (١٩: ٤٢) من أن موعظة الجبل كانت على جبل طابور.

- وماذا في ذلك؟

- لقد تعين اسم الجبل بعد تدوين الأناجيل، مما يعني أن إنجيل برنابا كتب بعد زمن المسيح بقرون عديدة!!!

- صحيح أن الأناجيل المعتمدة لم تذكر اسم الجبل "طابور" في حين أن إنجيل برنابا قد فعل ذلك، ولكن هذا الاعتراض يكون منطقياً فقط لو أن تسمية الجبل قد ظهرت بعد عصر المسيح، ولكن الشواهد تدل وتؤكد أن الجبل كان يحمل هذا الاسم قبل عصر المسيح بفترة طويلة. حيث ورد ذكره في سفر المزامير (١٢: ٨٩) في العهد القديم. وبذلك أرى ميزة لإنجيل برنابا على بقية الأناجيل في الدقة بذكر الأسماء.

- حتى في حال صحة كل ذلك، فهذا لا ينفي أن إنجيل برنابا متلاعب به منذ البداية.

- هذا جائز. ولكن بالتأكيد ليس لدرجة كافية (بالنسبة إلى البابا سكتس الخامس وأسلافه على الأقل) للاستغناء عنه، ما داموا احتفظوا به في المكتبة البابوية. ثم لا تتس اعتراف جميع الباحثين بأن إنجيل برنابا يخوض في المسائل الفلسفية والمباحث العلمية، وأنه "على جانب كبير من سمو المدارك، وقوة الحجّة، وشدة العارضة، وجلاء البيان. وأن مباحثه الفلسفية في الجسد والحس والنفس من الوجهة الدينية لمن أسمى ما كتب الباحثون الدينيون في هذا الموضوع"، كما ورد في مقدمة ترجمته. وهذا على العكس من الأناجيل المعتمدة التي كتبت بأسلوب قصصي شعبي غاية في البساطة.



- هذا أمر محير فعلاً، وما الذي خرجت به بعد كل هذا التحليل؟
- أكاد أجزم أن هناك أصلاً لذلك الإنجيل وجد منذ فجر المسيحية، وما بقيت تلك النسخة التي عثر عليها فرا مرينو مفقودة، بل ما بقي الإنجيل الذي أنزله الرب على السيد المسيح مفقوداً هو الآخر، فلن نعرف في أي المواضع وقع التحريف.
- هل أفهم من هذا أنك صرت تؤمن بالإنجيل وبالمسيح؟!
- دون أدنى شك.
- هذا أول خبر مفرح أسمعه منك اليوم يا عزيزي. تعال إلي.
- ثم ضمه إلى صدره وقبله بعنف قبلة اقتربت من فمه أكثر من اللازم، فأبعده أبراهام بلطف، ولكن بحزم. ثم قال محاولاً أن يعيد فيكتور إلى موضوع النقاش، بعد ردة فعله غير المفهومة:
- ما رأيك بفرضية وجود نسخة أصلية مفقودة للإنجيل؟
- ظهر الإحراج على وجه فيكتور لصد أبراهام له، فتهاوى على مقعده قائلاً بلامبالاة:
- إن لدي من المعلومات ما يؤكد فعلاً وجود نسخ سرية لبعض الأناجيل المعتمدة، ولكن ليس بالطريقة التي تظنها.
- بأي طريقة إذن؟

لاهوت الشذوذ الجنسي

عدل فيكتور جلسته وقال ناظراً نحو عيني أبراهام مباشرة:

- في عام ١٩٥٨ حين كان العالم اللاهوتي "مورتون سميث" (١٩١٥ - ١٩٩١) يقوم بفهرسة المكتبة الخاصة في دير "ماري سابا" جنوب شرق أورشليم، وجد كتاباً يعود إلى القرن السابع عشر يتحدث عن كتابات "أجناتيوس الأنطاكي". وفي آخر ثلاث صفحات من الكتاب كان هناك نص باليونانية لخطاب مقدم له كالآتي: "من الخطابات الموجهة من المقدس كليمنت، مؤلف كتاب الستروماتيس إلى ثيودور". و"كليمنت السكندري" (١٥٠ - ٢١٢ م) كاتب الخطاب كان حينها أسقفاً لأورشليم، وقد وجهه لشخص يدعى ثيودور. في هذا الخطاب يذكر كليمنت معلومات عما يسمى بـ"الإنجيل السري لمرقس" ويقوم كاتب الخطاب بسرد مقطعين كاملين من هذا الإنجيل ويشير إلى وجود الكتاب كاملاً في كنيسة الإسكندرية ولكن الكنيسة تخفيه^(١). ومن نص الخطاب يتضح أن إنجيل مرقس بوجه الخصوص كان موجوداً على ثلاثة أشكال في الحقب الأولى للمسيحية: الكامل أو السري الذي عند الآباء، والمنقح الذي عند العامة، ونسخة أخرى عند إحدى الطوائف المهرطقة. ومن ثم نستنتج منه أن المجمع في نيقية أقر النسخ المنقحة من الأناجيل وابتعد عن النسخ الكاملة أو النسخ المزيفة لمنع حدوث البلبلة بين المؤمنين المسيحيين الجدد.

- لقد شوقتني لقراءة ذلك الخطاب، فهل هو لديك؟

- بالتأكيد.

(١) كان كليمنت سكندري الأصل، وهاجر إلى القدس في عهد محاكمات القيصر "سبتيوس سيفيرس" التي أقامها للمسيحيين في عام ٢٠٣ ميلادية.

قال فيكتور بسرور وهو يقلب في أوراقه، وعندما وجده أعطاه أبراهام الذي قرأ

بصوت مسموع:

إلى ثيودور:

لقد فعلت حسناً في إسكات التعاليم الرديئة للـ"كربوكرات"؛ لأنهم مثل "النجوم التائهة" المشار إليها في النبوءة، الذين يضلون عن الصراط المستقيم المحدد بالوصايا إلى قعر الخطيئة الجسدية اللانهائية. ففي الوقت الذي يتباهون فيه بالمعرفة عن خفايا الشيطان، كما يدعون، فإنهم لا يعلمون أنهم يطردون أنفسهم بعيداً إلى "غياهب الضلال وظلماته". وبإدعائهم أنهم أحرار، فهم في الحقيقة عبيد أذلاء لرغبات الجسد. فمثل هؤلاء البشر يجب مقاومتهم جميعهم بشتى الطرائق؛ لأنهم حتى لو قالوا شيئاً صحيحاً، فإن من يحب الحقيقة لا يجب عليه أن يتفق معهم، لأن ليس كل الأشياء الصحيحة تعني الحقيقة. ولا يجب حتى تفضيل الحقيقة التي قد تبدو حقيقية في عيون الإنسان على الحقيقة البحتة حسب الإيمان^(١). الآن بالنسبة إلى الأشياء التي يقولونها باستمرار عن إنجيل مرقس الموحى به من الله؛ فبعضها مزيف، والبعض الآخر حتى لو حوى بعض الحقيقة، فهي على أية حال لم تقدم بالشكل الصحيح؛ لأن الأمور الحقيقية عندما يتم خلطها مع تلك المزيفة فهي في النهاية تعتبر مزيفة وتصحح كما يقول المثل: "كالمالح الذي يفقد طعمه".

بالنسبة إلى مرقس، فقد كتب وصفاً لأعمال الرب خلال إقامة بطرس في روما، ولكنه، على أية حال، لم يذكر كل الأعمال، ولا حتى لمح للأعمال السرية، لكنه اختار ما كان يعتقد أن له فائدة في تقوية إيمان الذين كانوا يتلقون الإيمان. لكن حين مات بطرس شهيداً، جاء مرقس إلى الإسكندرية حاملاً معه خواطره وملاحظاته وكذلك تلك الخاصة ببطرس، وقام بنقل بعض الأشياء المناسبة من تلك الخواطر والملاحظات

(١) تحت هذه الذريعة تم إخفاء الكثير من النصوص في الأسفار المعتمدة وتأويلها وتغييرها.

إلى كتابه الذي سبق أن كتبه؛ تلك التي قد تفيد في التقدم نحو المعرفة. وهكذا ألف إنجيلاً أكثر روحانية ليستخدمه من يبغي الكمال. لكنه على أية حال لم يتطرق إلى الأمور التي لا يجب النقاش فيها، وكذلك لم يكتب عن تعاليم الرب السرية الخاصة بالتفسيرات اللاهوتية، ولكنه زاد على القصص التي كان قد كتبها سلفاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه كـمفسر لاهوتي تطرق إلى أمثلة محددة يعرف أن سبر أغوارها سيقود من يتلقاها إلى الحقيقة المخفية من وراء سبعة حُجُب. لذلك، وفي الخلاصة، فلقد أعد تلك الأمور، دونما إكراه أو إهمال حسب رأيي. وحين شارف على الموت، ترك مؤلفاته للكنيسة في الإسكندرية، حيث يتم حراستها بعناية كبيرة، وتُقرأ فقط لمن يتم إعدادهم لتلقي الأسرار العظيمة.

لكن ولأن الشياطين الشريرة تخطط دائماً لتدمير الجنس البشري، فإن "كربوكراتس"، بتأثير من تلك الشياطين وباستخدام أساليب الخداع، تمكن من السيطرة على أحد قساوسة الكنيسة بالإسكندرية، وحصل منه على نسخة من الإنجيل السري، الذي قام بتفسيره طبقاً لعقيدته الكافرة التي تقُدس الجسد. علاوة على ذلك، قام بخلط الكلمات النقية والمقدسة بأكاذيب مخزية. ومن هذا الخليط خرج بتعاليم "الكربوكراتية". وبالنسبة إليهم فكما قد قلت فيما سبق، لا يجب أن نفسح لهم المجال. وحتى حين يقدمون أدلتهم الكاذبة، فلا يجب بتاتاً أن نعترف أن هذا الإنجيل السري قد كتبه مرقس، ويجب أن ننكره حتى تحت القسم (!!!) ذلك لأنه لا يجب لكل الناس أن يعرفوا كل الحقيقة. ولهذا السبب فإن حكمة الله لسليمان تقول: "أجب الأحمق بما يساوي حماقته" تبرهن على أن نور الحقيقة يجب إخفاؤه عن العقول الضالة التي لا يمكنها أن ترى تلك الحقيقة. ومرة أخرى تقول الحكمة الإلهية: "سوف تُحجَب الحقيقة عن كل من لا يمتلك عقلاً"، وكذلك: "دع الأحمق يمشي في الظلام". ولكننا نحن "أبناء النور" نتورت أذهاننا عن طريق نور الروح الإلهية الآتية من السماء. وحين تحل روح

الله فيك فإنها تهتف "لقد أصبحت حراً" و"الأتقياء فقط هم الذين يستحقون الأشياء النقية". وهكذا يا ثيودور، لن أتردد في الإجابة عن أسئلتك التي سألتها، لأدحض تلك الأكاذيب بكلمات الإنجيل (السري) ذاته. على سبيل المثال:

بعد "وَكَاثُوا فِي الطَّرِيقِ صَاعِدِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ" (مرقس ١٠: ٣٢)... وما بعدها، حتى "وبعد ثلاثة أيام سوف يقوم" (مرقس ٨: ٣١): يذكر الإنجيل السري هذا المقطع كلمة بكلمة: "وجاؤوا إلى قرية (بيت عُنْيَا) وإذا بامرأة قد مات أخوها كانت هناك وجاءت وسجدت ليسوع قائلة له: "يا بن داوود، ارحمني". فانتهرها التلاميذ. فغضب يسوع منهم وذهب معها إلى الحديقة حيث كان القبر. وفي الحال سمع صوت بكاء عال من داخل القبر. فدحرج يسوع الصخرة من أمام القبر، ودخل حيث كان الشاب، فمد يسوع يده وأقامه. فنظر الشاب إليه وأحبه وتوسل إليه أن يبقى معه، ثم خرجا من القبر، وذهبوا إلى بيت الشاب، لأنه كان غنياً. ومرت ستة أيام قضاها يسوع. وأعطاه التعليمات بما يجب عليه أن يفعله، وفي المساء جاء إليه الشاب لا يرتدي شيئاً سوى ثوب خفيف من الكتان فوق جسده العاري. وبقي معه تلك الليلة كي يُعلمه يسوع أسرار الملكوت الإلهي. وحين استيقظ يسوع، عاد إلى الجانب الآخر من نهر الأردن. وهذه الكلمات تتبع النص "وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَعْقُوبُ وَيُوْحَنَّا" (مرقس: ١٠: ٣٥) إلى آخر هذا المقطع. لكن: "رجل عار مع رجل عار"، والأشياء الأخرى التي كتبت عنها لي. ليست موجودة. وبعد الكلمات "وجاؤوا إلى أريحا" (مرقس ١٠: ٤٦)، يضيف الإنجيل السري "وأخت الشاب الذي أحبه يسوع كانت هناك، مع أمه وسالومه، لكن يسوع لم يستقبلهم" لكن أشياء كثيرة مما أتيت على ذكرها يبدو لي أنها بالفعل مجرد أكاذيب.

لم يفاجأ أبراهام بموضوع وجود نسخ سرية من الأناجيل محروسة بعناية ولا يسمح إلا للخاصة بالاطلاع عليها، كما لم يفاجأ بتاتاً بتبريرات الآباء لإخفاء بعض

الحقائق عن العامة، إغلاظ القسم بزيفها؛ ولكن ما فاجأه فعلاً هو تلك العبارات الغريبة عن الحب والعري بين الرجال، فسأل فيكتور مستوضحاً:

- ما معنى هذا؟

- كما فهمت.

قال فيكتور باسمياً وقد ارتسمت على وجهه نظرة غريبة لم يفهم أبراهام مغزاها. فعاد إلى السؤال ثانية:

- أوضح من فضلك، فقد بدأ خيالي بالجموح بعيداً.

- إن الجزء الأول يملأ الثغرة في إنجيل مرقس المعتمد بين (١٠ : ٣٤) و (١٠ : ٣٥) فهو يصف حدثاً مماثلاً لإحياء إليعازر "لعازر حبيب المسيح" في إنجيل يوحنا (١١ : ١ - ٤٥). وهنا يتحدث إنجيل مرقس السري أن هناك رجلاً في بيت عانى قد مات، وأتت أخته واستعطفت يسوع أن يرحمها بإحياء أخيها. ومن ثم يدحرج يسوع الحجر الذي يسد مدخل القبر ويدخل ويمد يده لكي يقوم أخو تلك السيدة من رقدته.

- ولكن بعد ذلك تأتي عبارة غريبة لا محل لها في السياق: "فنظر الشاب إليه (إلى يسوع) وأحبه!! وتوسل إليه أن يبقى معه". ثم "ولما حل المساء أتاه ذلك الشاب لا يرتدي سوى رداء من الكتان يستر جسده العاري وقضى الليل مع يسوع"!!!

- بتحليل تلك العبارات يبدو أن المقصود هو شخص واحد في الإنجيلين (إنجيل يوحنا وإنجيل مرقس السري)، وربما كان ذلك الشاب هو نفسه الذي هرب عارياً عندما داهمهم الحراس في حديقة جَسِيمَانِي في إنجيل مرقس (١٤ : ٥١ - ٥٢). ولربما كان نفسه الفتى "الذي أحبه يسوع" و"الذي كان يتكئ في حضنه" والذي التقى المريمتان وسالومه عند زيارتهم لقبر يسوع في إنجيل مرقس (١٦ : ٥). ولتفسير تلك المقاطع هناك اتجاهان؛ فبعض المفسرين استقرؤوا أن الرجل العاري ويسوع كانوا

يستعدون لعملية التعميد حيث كان في بدء المسيحية يقف القائم بالتعميد أو الكاهن ومن يتم تعميده عاريين في أثناء عملية التعميد! وربما يفسر هذا عبارة "رجل عار مع رجل عار" أيضاً.

- إذا كان الأمر كذلك فلم أخضت الكنيسة مثل هذه النصوص؟ ولم أنكرها كليمت واعتبرها مما لا يصح ذكره؟

- هذا ما يوضحه الاتجاه الآخر في تفسير ذلك الأمر. ففي بداية المسيحية كان هناك بعض الطوائف الهلنستية التي تجاهر بالإباحية الجنسية، ومنها الكربوكراتيين، التي تستخدم العلاقات الجنسية كنوع من التوحد مع الذات الإلهية! وكنوع من التحرر من الشريعة الموسوية. ويُستشف من كلام كليمت أن بعض الأشياء التي تم حذفها من إنجيل مرقس تدعم ذلك، وأنه قام بالرد فقط على المقاطع التي جاءت في خطاب ثيودور. ومن ثم فلا بد أن هناك مقاطع أخرى تم حذفها لم يأت كليمت على ذكرها.

- وهل هناك الكثيرون ممن يتبنون هذا الرأي؟

- أجل، وأبرزهم مورتون سميث نفسه، إذ إنه كتب كتابين عن الإنجيل السري لمرقس، وهو يعتقد أن يسوع وهذا الرجل كانا بالفعل يمارسان اللواط أثناء تلك الليلة المذكورة في المقطع الأول. وهذا يعني أن يسوع قد يكون مثلي الجنس (Homosexual)، أو حتى ثنائي الجنس (Bisexual)^(١)، بالنظر إلى ما يشاع أيضاً عن علاقته بمريم المجدلية، وأنه ألغى رجم الزناة من الناموس بسبب وله بها.

- وأنت. هل تصدق ذلك!!!؟

- لا أعرف. فيبدو جلياً أن الخطاب كان استجابة من قبل كليمت لتساؤل من ثيودور عن الطائفة المسماة بالكربوكراتيين، وهي طائفة كانت موجودة بالفعل في

(١) له رغبة في النساء كما في الرجال في الوقت نفسه.

البدايات الأولى للمسيحية، وقد كانوا يؤمنون بإمكانية تناسخ الأرواح، ويعتقدون أن على المرء أن يمر بعدد من الحيوانات على الأرض لكي يمكنه أن يمر بكل التجارب والأحاسيس والآلام في الحياة، وهذا يتضمن أيضاً جميع الخبرات الجنسية بما فيها من أحاسيس الذكر وأحاسيس الأنثى وكذلك الأحاسيس المثلية والثنائية. وكانت تلك الطائفة شهيرة بتبادل الزوجات بين أعضاء الطائفة. وأنا شخصياً مع تكفيري لتلك الطائفة، إلى أنني أكاد أجزم أنه كانت لها التبريرات اللاهوتية المقنعة لكي تقوم بذلك.

- هل تعني أن هناك تبريرات دينية للواط؟! هذا مستحيل تماماً. فلماذا لا تفترض زيف ذلك الخطاب من أساسه!!!

- لقد تمكن العالم اللاهوتي سميث من التحري عن ناشر الكتاب الذي يحوي تلك النسخة من الخطاب، وتأكد أنه يعود إلى القرن السابع عشر. كما قام بتصوير الصفحات المعنية وعرضها على متخصصين في التاريخ القديم للكتب، وأيضاً علماء متخصصين في الكتابة اليونانية القديمة، فأجمعوا على أن الخط وطريقة الكتابة تطابق القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، فالكتابة قديمة بالفعل! وبمقارنة أسلوبها بأسلوب كليمنت، والذي له مؤلفات عديدة في المكتبة المسيحية القديمة، وكلها باللغة اليونانية، وجدوا تطابقاً تاماً بين الأسلوبين. وعندما قارنوا ما ذكره كليمنت من مقاطع موجودة بالإنجيل السري لمرقس بأسلوب إنجيل مرقس الحالي، وجدوا تطابقاً شبه تام، وبشهادة علماء لاهوتيين كبار!

- ولكن وإن كان ذلك صحيحاً، فهذا يعني أن مرقس قد ارتد في أواخر حياته، وأضاف تلك النصوص المشبوهة، وإلا فلو كانت تلك النصوص حقيقية فلماذا لم يكتبها منذ البداية؟

- فرضية إضافة مرقس لتلك النصوص لاحقاً، كانت توضيح كليمنت للموضوع. ولكن بالفحص الدقيق للنص يمكن تمييز أن الإنجيل السري هو في الحقيقة الإنجيل

الأصلي لمقرس، ثم تمت إزالة بعض المقاطع التي وجد مؤسسو الكنيسة الرومانية أنها لا تناسب عموم الناس ولا يصح إلا للخاصة الاطلاع عليها! ومن ثم قاموا بحذفها لكي تظهر النسخة المختصرة (القانونية) إلى الوجود!

- ما الدليل على ذلك؟

- في مرقس (١٠ : ٤٦)؛ حيث تم حذف المقطع الثاني بالكامل من النسخة المختصرة، وكذلك في مرقس (١٤ : ٥٢) ذكر الرجل العاري في حديقة جيسماني تبدو غير معقولة لو كانت النسخة المختصرة هي الأصلية. في حين أن ذكر المقطع الأول من خطاب كليمنت عن الإنجيل السري قبل تلك الفقرة يعطينا فهماً أعمق وتبريراً أكثر منطقية لوجود مثل هذا الرجل الذي يلبس ثوباً خفيفاً من الكتان. أليس كذلك^(١)؟

- لا أعرف. فالأمور أصبحت متشابكة كثيراً في رأسي.

- إن الإغريق الذين انتشرت المسيحية بينهم في عصورها الأولى كانوا يعتبرون أن المثلية الجنسية هي وسام على صدورهم، وأن صفوة المجتمع وحكماءه فقط هم الذين يمارسون الشذوذ^(٢)، حتى الفيلسوف المشهور "أفلاطون" ذكر أن "سقراط" كان معشوق معلميه، وهو كان يعشق غلاماً اسمه اليسباديس. وقد أورد مناظرة بين رجلين أحدهما ينادي بمعاشرة الرجل للرجل والآخر ينادي بمعاشرة الرجل للمرأة، وكانت نتیجتها أن الزواج شيء لا غنى عنه، في حين أن المثلية هي "دلالة الحكمة". وحديثاً كتب "أندريه جيد" سنة ١٩٠٧ عن إباحة الشذوذ الجنسي، ودافع على المحاور

(١) جاء على موقع البي بي سي للأخبار أن بعض القساوسة التحريريين يطالبون بإعادة تفسير الكتاب المقدس في ضوء العلم الحديث والمكتشفات الجديدة، وأن يتقبل الناس مثلي الجنس.

<http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/world - news/newsid - 4296000/4296523.stm>

(٢) جاء في كتاب "Exposing the Bible 's Texts of Hate to Reveal the God of Love" للأسقف المتقاعد "جاك سبونج" تابع لكنيسة نيويوراك أن نصف القساوسة الروم الكاثوليك شواذ جنسياً.

"كوريدون" الشخصية المثلية في المناظرة معتمداً على نصوص إنجيلية. بل يرى البعض أن اسم المسيح باليونانية "جيزوس" Jesus هو تحريف لاسم "زيوس" Zeus رب الأرباب في أساطير الإغريق القديمة. فحرف "J" لم يظهر في اللغة الإنجليزية إلا في القرن السادس عشر للميلاد، ومن ثم فلو حذفنا حرف "J"، ووضعنا حرف "Z" مكانه لفهمنا كيف جاءت التسمية. فاسم يزوس لا يشبه حتى الأصل العبري "يشوع" مطلقاً^(١)، وأصحاب هذا الرأي يغمزون بأن زيوس الإله الإغريقي كان مثلياً وأنه في إحدى المرات اغتصب الفتى الوسيم جانيميد Ganimeed.

- أهنك من يؤيد هذا الرأي بين الشخصيات العامة؟

- هناك "أوسكار وايلد" و"والت ويتمان" وكثيرون غيرهم. ففي فترة حياة المسيح كانت المثلية من مظاهر الحكمة، ولأن يسوع كان مصنفاً من الحكماء، فيجب أن يفعل ما كانوا يفعلونه.

- ولكن خارج نطاق إنجيل مرقس السري، فلا يوجد ما يستدل به على ذلك من العهد الجديد القانوني. بل ربما العكس هو الصحيح، فقد قال المسيح: "يوجد خصيان خصوصاً أنفسهم لأجل ملكوت السماوات، من استطاع أن يقبل فليقبل" (متى ١٩ : ١٢)، وأما التلميذ يعقوب فيقول: "أيها الزناة والزواني، أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله، فمن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله" (يعقوب ٤ : ٤). حتى بولس كان يبالي في تأكيد أهمية العفة، بل طالب من يستطيع بالامتناع مثله عن الجنس تماماً وألا يتزوجوا: "أقول لغير المتزوجين وللأرامل: إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا، ولكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا" (١كورنثوس ٧ : ٨ - ٩).

(١) إن السبب الحقيقي لعدم التشابه بين يزوس ويشوع (يسوع) يعود إلى أنهما اسمان مختلفان أصلاً. للوقوف على شرح ذلك وتفصيله، راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- هذا موضوع آخر تماماً. أما عن زعمك أن العهد الجديد لا يحوي ما يستدل به على المثلية، فهو خاطئ تماماً؛ فقد لمح القس "بيتر ميرفي" بشأن عبارة: "فَتَرَكَهُ الْجَمِيعُ وَهَرَبُوا. وَتَبِعَهُ شَابٌّ لَأَبْسًا إِزَاراً عَلَى عُرْيِهِ فَأَمْسَكَهُ الشَّبَّانُ. فَتَرَكَ الإِزَارَ وَهَرَبَ مِنْهُمْ عُرْيَاناً" مرقس (١٤: ٥٢-٥١)؛ بأنه "لا يجد تفسيراً لكون هذا الفتى يلبس رداءً خفيفاً بهذا الشكل بحيث يمكن سحبه وجعله عرياناً" كما ورد في إنجيل يوحنا (١٣: ٥-٤)؛ "قام (يسوع) عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتّزر بها، ثم صبّ ماء في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها". والسؤال هو: هل غسل أرجل الناس يستدعي التعري وخلع الملابس؟^(١)، وفي الإصحاح نفسه (١٣: ٢٣): "وكان متكئاً في حضن يسوع واحد من تلاميذه كان يسوع يحبه" والاتكاء في الحضن هو إشارة صريحة إلى أن المتكئ عشيق المتكأ عليه، وهي رمز لعشق كل منهما للآخر.

- بالتأكيد لم يكن هذا ما قصده يوحنا عندما كتب تلك النصوص.

- إن إنجيل يوحنا كتب باليونانية، والجمهور المستهدف أساساً بهذا الإنجيل هو الجمهور اليوناني. ومن ثم فإن هذا هو بالضبط ما قد يتبادر لذهنهم عند قراءتهم لتلك النصوص في إنجيله. كما أن هناك من له تفسير مثير بشأن العبارة: "مُبْطَلِينَ كَلَامَ اللَّهِ بِتَقْلِيدِكُمْ الَّذِي سَلَّمْتُمُوهُ. وَأُمُوراً كَثِيراً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ. ثُمَّ دَعَا كُلَّ الْجَمْعِ وَقَالَ لَهُمْ: اسْمَعُوا مِنِّي كُلُّكُمْ وَافْهَمُوا. لَيْسَ شَيْءٌ مِّنْ خَارِجِ الْإِنْسَانِ إِذَا دَخَلَ فِيهِ يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ لَكِنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ هِيَ الَّتِي تُنَجِّسُ الْإِنْسَانَ". حيث يكتب "ج. ريتشاردز" أن علينا مقارنة حال الشواذ مع تلك العبارات، هل يتضمن الشذوذ دخول شيء ما للإنسان من الخارج؟ الإجابة هي: نعم بالطبع، ومن ثم فهي لا تنجسه! وهي

(١) والجواب هو أن ذلك النص دخيل على الأناجيل. فقد وردت القصة نفسها في كتب الهندوس قبل تلك الأناجيل بزمان طويل. حيث قام "كرشنا"، الإله في نظرهم، بغسل أرجل البراهميين ومسحها لهم بشكل متطابق مع ما يرد بإنجيل يوحنا. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

بالضرورة ليست خطيئة!!! وإذا كان لدى أحد ما يمكن أن يدحض به هذا القول من الكتاب المقدس فهو مخطئ، فيسوع كان صادقاً ويعرف ما يقوله جيداً.

- ولكن هذا يخرج الآية من سياقها بطريقة مبتذلة.

- كلا، ففي مرقس (٧: ١- ١٣) يتهم الفريسيون يسوع بأن تلاميذه لا يتبعون تقاليد الشيوخ. وهنا بدأ يسوع في توبيخهم وضرب الأمثلة متهماً إياهم بأنهم أبطلوا كلام الله بتقليدهم الأعمى! ثم يأتي إلى الفقرة المشار إليها (٧: ١٣ - ١٥) فيضع مقياساً يمكن الحكم على الخطاة من خلاله. ثم في مرقس (٧: ١٦ - ٢٣) يوبخ يسوع التلاميذ على شكهم في كلامه، ويؤكد لهم أنه يعني كل ما يقوله! وقد لاحظ "مايكل كيلي" بعض الملاحظات المثيرة، ففي متى (٨: ٥ - ١٣-) مدح يسوع قائد المئة الذي قصد يسوع لشفاء "غلامه"! كما كتب بولس نفسه في (رسالة رومه ١٦: ١٦): "سلموا بعضكم على بعض بـ"قبلة مقدسة". كنائس المسيح تسلم عليكم".

- ليس هذا بالتأكيد ما قصده. فالناس، وبالذات في الشرق، هكذا سلامهم فيما بينهم!

- القضية ليست قضية قبل مقدسة فقط، وإنما هناك ما يعرف كذلك بـ"لاهوت الشذوذ". وقد صدر عن مجلس الكنائس العالمي، في ١٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨، بيان صحفي يحمل الرقم ٣٠ تحدث إيجابياً عن "لاهوت المثلية الجنسية"، ودعا المعاهد اللاهوتية إلى إدخال مواد هذا اللاهوت في دراستها. وهناك أيضاً ما يعرف بالتجمع العالمي للطلاب المسيحيين (World Student Christian Federation) وهو من الدعاة إلى ما يسمى بـ"لاهوت التحرير" ولهم فرعهم في كندا حيث ينظمون لقاءات بين الشواذ والمتحولين جنسياً كذلك.

- إذا كان هذا صحيحاً فلم أدانت المسيحية القديمة، حسب معلوماتي على الأقل،

الشذوذ الجنسي ونعنته بأقدر الصفات؟

- المسيحية لم تكن تدين هذا السلوك بالدرجة نفسها التي وصلت إليها بعد ذلك، ولكن ذلك تغير على أيدي بعض الآباء. وكانت قمة الهجوم المسيحي على الشذوذ على يد القديس "أوغسطين" بالذات في القرن الرابع الميلادي. والقديس أوغسطين نفسه كانت لديه بعض الخبرات الجنسية قبل أن يعلن توبته، فهو يقول في اعترافاته: "أنا قد لوثت تيار ومجرى الصداقة بقذارة وفحش الفسق، وعكرت مياهه الرائقة من نهر الجحيم الأسود للشهوة". ويذكر أن الذي كان يمارس معه الشذوذ قد تركه، فتعذب أوغسطين كثيراً، لذلك بدأ بحرب شعواء على الشذوذ والشاذين عموماً، بسبب ما عاناه من هجر حبيبه. وكذلك فعل "توما الأكويني"^(١) وبمساعدة "أمبروز" أسقف ميلانو تم تجريم الشذوذ في المسيحية قاطبة، وتعميمها على كل الكنائس المنتشرة في ذلك الوقت.

في أثناء ذلك كان أبراهام يراجع في مخيلته تصرفات فيكتور معه منذ البداية، بما فيها اهتمامه الزائد الذي فسره بأسباب تبشيرية فقط، وحنانه الذي ظنه أبوياً، وغيرته من الدكتور كويد التي ظنها تنافساً أكاديمياً، ثم توقف كثيراً عند تلك القبلة التي طبعتها قبل قليل على خده مقترباً من فمه، وكيف عانقه بلهفة شديدة. فسأله متوجساً من الإجابة:

- وأنت فيكتور. ماذا تعتقد شخصياً بشأن الشذوذ الجنسي؟

- لماذا تسميه شذوذاً؟!!! فلو كان شذوذاً لما اعترفت به كثير من الكنائس التي رسمت قساوسة "مثليين" وقبلت زواجهم، وربطهم بالرباط المقدس لتكون علاقتهم "طاهرة". والتسمية العلمية هي HOMOSEXUAL و HOMO باليونانية تعني "مثل" ليصبح المعنى هو المثلية الجنسية. والأفضل هو تسمية GAY التي تعكس البهجة والمرح وتهرب من سوء سمعة التسميتين معاً وثقلهما.

(١) قديس شهير أيضاً، وسيأتي تعريف له في راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- إنني أسميه شذوذاً، لأنه شذوذ عن الفطرة السليمة للرجل.

- أنت مخطئ. فأخر الإحصاءات التي قام بها العلامة "كينزي" تدل على أن ١٠٪ من الرجال الأمريكيين البيض كانت ممارساتهم الجنسية مقصورة على نفس الجنس لمدة ثلاث سنوات على الأقل فيما بين ١٦ و ٥٥ سنة، و ٤٪ منهم كانت الممارسة مقصورة على نفس الجنس مدى الحياة، و ٧٣٪ من كل سكان أمريكا قد جربوا الشذوذ مرة واحدة على الأقل في أثناء حياتهم، وفي هذه المرة كانت الممارسة قد أدت إلى الأورجازم (النشوة الجنسية). ولو جريت الأمر لوجدته ممتعاً جداً.

قال ذلك وهو يقترب منه، فأوقفه أبراهام بلطف قائلاً:

- رويدك. فلست من هذا النوع.

- أبراهام، أنا أحبك، وقد شغفت بك منذ النظرة الأولى... أنت لا تعلم كم تعذبت طوال الفترة الماضية بسبب غفلتك عن ذلك، خاصة أنني فعلت كل ما بوسعي كي أجعلك سعيداً...كنت أصبر نفسي بأنك أنت أيضاً لديك عاطفة ما نحوي، ولكنك لا تدركها بالشكل الصحيح لأسباب عديدة. ربما كان تحركك بسبب التقاليد؟ أنت تعرف أن أغلبها باطل. وإن كان بسبب الدين، فأنت ترى أن الدين نفسه لم يدين ذلك حقيقة، بل ربما تجسد الرب نفسه في صورة "رجل مثلي". كما أن الأناجيل كما رأيت تدعم هذا الافتراض بقوة، أو على الأقل لا تنفيه... لا تكابر، أنت أيضاً ترغب بهذا، فمثلي لا يخفى عليه ذلك.

تنزيه دون غلو

كان أبراهام يستمع إلى اعترافات فيكتور الشاذة بذهول، غير مصدق أذنيه، ومع اقتراب فيكتور أكثر وأكثر في أثناء كلامه، وجد أبراهام أن الذوق لن يفيد في هذا الموقف بتاتاً. لذا قام بعنف قائلاً:

- قلت لك توقف. لقد أسأت فهمي فعلاً، وأنا لم يخطر ذلك ببالي ولو لطرفة عين. أما بالنسبة إلى المسيحية، فصحيح أنني قد بدأت أؤمن بها، ولكن بالتأكيد ليس حسب تصورك وفهمك.

- عدنا للهرطقة. فما ينفعك إيمانك إذن؟

- ينفعني في أنني أعرف أن ربي هو الخالق والإله الوحيد، وأن يسوع هو المسيح ورسوله الذي أرسله لهداية بني إسرائيل بعد فسادهم، وأن تلك النقائص التي تلصقونها به تؤكد أن دينه وإنجيله قد طرأ عليهما التحريف فعلاً.

- أستم رائحة تعبيرات إسلامية في حديثك!! اهل معنى ذلك أنك تريد أن تسلم؟!!!

- بل معنى ذلك أنني أطلب الحق أينما وجد. وإن كان هذا الذي أقوله موجوداً في الإسلام، فلا ضير من أن أدرس ذلك الدين لأكون صورة أوسع عنه.

- وإن لم تجد فيه ضالتك كالعادة؟

- سأعود عندها إلى ملة إبراهيم، وأترك كلاً من تلمود اليهود، وتقاليد المسيحيين، وأستمسك بما ثبت عدم تحريفه من التوراة والإنجيل، منتظراً ظهور نبي آخر الزمان؛ المشيخ الحقيقي.

- أي تكون أمة وحدك؟
- إن الرب لن يتركني وحيداً. وإن لم يطل زمان ذلك النبي في حياتي، فأرجو من الرب أن يبعثني على نية الإيمان به ونصرة دينه.
- إنك تعذب نفسك هكذا يا عزيزي. لم لا تأخذ الأمور ببساطة أكثر؟
- قال ذلك ملاطفاً وهو يقترب منه مجدداً، فقام أبراهام متهرياً:
- لقد نذرت نفسي للبحث عن الحقيقة، وليست الحقيقة بهذه البساطة.
- أظنك ولدت في الزمن الخاطئ؛ فزمن الأنبياء والقديسين قد ولى، ولن تدركه.
- بل ولدت على الدين الخاطئ، ودين الرب الحق لا يولي، وسأدركه بنعمة الرب.
- لكن المسيح وفر عليك ذلك كله وأسأل دمه في سبيل خلاصك.
- قد أقبل أن يموت نبي إنسان في سبيل الرب، ولكنني لا أستطيع أن أتخيل أن يموت الرب نفسه في سبيل الإنسان. وبالتأكيد لا يمكنني أن أتخيل أن يكون الرب شاذاً جنسياً.
- هذا فراق بيني وبينك. فلقد بذلت ما بوسعي في الشهادة لخلاصك، ولكن يبدو أن الخطيئة الأصلية تملكك، وتحول بينك وبين الخلاص.
- أي خلاص هذا في الشذوذ الجنسي؟!!!
- حسناً. انس أمر المثلية الجنسية، فهو مجرد اعتقاد، وعدم اعتناقك له لا يتنافى مع الإيمان المسيحي. ولكنك تكفر بتجسد الرب على صورة إنسان وموته على الصليب ليخلصنا، وهذا يتنافى مع أبسط قواعد المسيحية.
- انظر إلى بطرس في (أعمال ٢: ٢٢) إذ يقول: "أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال. يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون"، وتأمل بمعنى قوله: "ولو

اضطرتت أن أموت معك" وهذا ما قاله الجميع^(١)، إن قول التلاميذ كافة هنا لدليل على معرفتهم له بأنه إنسان مُعرَّضٌ للهلاك والموت، وأن الاتحاد بينه وبين الله والروح القدس كانت معلومة مجهولة عندهم تماماً. فهل عرفت أنت عن المسيح ما لم يعرفه تلاميذه؟!!! أليكون المسيح إلهاً ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه أذى حفنة من اليهود والرومان؟!!! أتقبل أن تعبد إلهاً ضعيفاً؟!!! أليكون المسيح هو الرب ثم يأتي إلى عبد من عبيده لكي يعمده منه ويكمل نفسه؟ ألم يذكر العهد الجديد أن المسيح جاء إلى يوحنا المعمدان لكي يعتمد منه؟!!! إن المسيح لو كان هو الرب لسجد له يوحنا حالاً، فهل كان النبي يوحنا يجهل ربه؟!!!^(٢) بل في إنجيل متى (١٧:٣) جاء أنه سمع صوتاً من السماء يعرفه به: "هو ذا ابني الذي به سررت" ثم يناقض كاتب إنجيل متى نفسه في (١٢:١١) قائلاً: "عندما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه وقال له: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟"!!! ثم إذا كان المسيح هو الله فهل يمكن أن يموت؟!!! إن نصوص العهد القديم تنفي ذلك بكل صراحة، انظر مثلاً في إرمياء ١٠:١٠: "أما الرب فهو الإله الحق، الإله الحي"، وفي حزقيال (٢:١٨): "حي أنا يقول الرب".

- كونه حياً لا ينفي أن يموت أحد أقانيمه في فترة معينة.

- لقد جاء في دانيال ٦:٢٦: "هو الإله الحي القيوم إلى الأبد". ثم هل يليق برب السماوات والأرض أن يتجسد في صورة طفل رضيع يخرج من فرج امرأة ضعيفة، ثم يمر بمراحل نمو الإنسان المختلفة يأكل الطعام ويخرج الفضلات حتى إذا اكتمل نموه

(١) جاء في إنجيل مرقس ١٤ عدد ٢٧-٣١: "وَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: إِنَّ كَلِّكُمْ تُشَكُّونَ فِيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرِّاعِيَ فَيَتَبَدَّدُ الحَزَافُ. وَلَكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الجَلِيلِ. فَقَالَ لَهُ بَطْرُسُ: وَإِنْ شَكَّ الحَمِيعُ فَأَنَا لَا أَشُكُّ! فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: الحَقُّ أَقُولُ لَكَ إِنَّكَ التَّيَوْمَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ قَتْلَ أَنْ يَصِيحَ الدَّبْكُ مَرَّتَيْنِ تُنْكِرُنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ بِأَكْثَرِ تَشْدِيدٍ: وَلَوْ اضْطَرَّرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لَا أَنْكِرُكَ. وَهَكَذَا قَالَ أَيْضاً الحَمِيعُ".

(٢) جاءت مقابلة يسوع ليوحنا المعمدان في إنجيل يوحنا ١: ٣٢ (الحمامة والتعميد بالروح القدس).

وصار رجلاً ناضجاً لقي من البشر صنوف الإهانة والتعذيب ألواناً؟!! هل هذا المخلوق الضعيف الذي يلتقم ثدي أمه هو من كان يدبر أمور جميع الكائنات في الوقت الذي لا يستطيع هو أن يدبر أمر طعامه وشرابه؟!!

- لقد فعل الله ذلك من أجلنا وأجلك يا جاحد . فعل ذلك لأنه يجبنا .

- ولكن ما حاجته لأن يصير إنساناً؟

- سوف أجيبك عن هذا السؤال عن طريق مثل رائع سمعته من أحد القساوسة^(١) عن فلاح يحرث حقله . فلنفترض أنك أنت ذلك الفلاح وتلاحظ عش نمل في طريق المحراث، ولنفترض أنك تحب النمل، فتفكر أن تسرع إليهم لتحذيرهم، وتصرخ محدراً، لكنهم يستمرون في عملهم، فتستعمل لغة الإشارة، وكل وسيلة أخرى تعرفها، ولكن النمل لا ينتبه . لماذا؟ لأنك عاجز عن الاتصال بهم، فما هي أفضل طريقة لذلك؟ هي أن تصير نملة فيفهمون ما تقول .

- ولكن الله غير "عاجز" عن الاتصال بنا؟!! ثم إنني أنا على ضعفي وهواني لا أَرْضَى بأن أتحول إلى نملة مهما كنت أحب الحشرات، فكيف الله؟ إنه الله يا فيكتور . وهو بالتأكيد قادر على كل شيء، ولذلك فلن يعدم وسيلة أخرى يوصل تحذيره إلينا بها دون أن يتعرض للضرب والبصق والقتل . صدقني يا فيكتور، أنا أملك الشجاعة والعقل المتفتح بشكل كافٍ كي أرجع عن اعتقاداتي في حال ثبوت فسادها . فهل أنت... فقال فيكتور مقاطعاً:

- إذن فافعل لأنها فاسدة فعلاً، والمسيح يحبك ويمد يديه لك، فلا ترفضه كما فعل أسلافك اليهود .

(١) نقل هذا المثل حرفياً من الموقع المسيحي : عرب من أجل المسيح .

<http://www.arabsforchrist.com/god-came-in-flesh/40-godandincarnation.html>

تحت عنوان : " إذا أراد الله أن يتجسد هل يستطيع ؟ " .

- بل أقبلة، وأنكر رفض أسلافي له. ولهذا أنكر أيضاً تحريف أسلافك الإغريق والقبط والرومان لسلوكياته وطبيعته وتعاليمه. فهل تملك أنت الشجاعة والعقل المتفتح الكافيين للعودة عن اعتقادك في حال ثبوت فساده؟!

- هراء. فديني أصح وأصلح دين في الأرض وفي السماء على الإطلاق، وليس له بديل.

- كل صاحب دين أو طائفة يقول ذلك.

- المسيحية وحدها هي الحقيقة التي تبحث عنها، ولا يمكن الوصول إلى الله دونها. والكتاب المقدس وحده هو كلمة الله على هذه الأرض.

- ربما كنت محقاً، ولكن المسيحية الحقيقية بالتأكيد ليست هي تلك التي تؤمن أنت بها، وكلمة الله بالتأكيد بريئة من الشوائب التي أُلحقت ولا تزال تُلحق بالكتاب المقدس.

- من أنت لتحكم على المسيحية وكتابها بالباطل فقط أنك لا تفهمهم. "إن دستور الإيمان المسيحي ينص على أن الدين المسيحي هو إعلان إلهي يتضمن حقائق كانت مجهولة عند البشر لسُمُوها عن إدراكهم، فأعلنها لهم ربنا يسوع المسيح ورسله الكرام في كتابه الإلهي لأجل خلاصهم وسعادتهم. ومن ثم يجب على العقل البشري أن يسلم بها ويخضع لها من دون أن يحكم فيها لأنها ليست من اختصاصه"^(١).

- تلك الحقائق هي تجسد الله على صورة بشر والتثليث وخطيئة آدم والفداء!!! هذه الحقائق كانت مجهولة فعلاً في اليهودية، فهم لم يعرفوا ثلوثاً ولم يرثوا خطيئة آدم، ولم يحتاجوا الفداء منها مع أن قصة آدم ومعصيته مسجلة في كتابهم. ولكن هذه "الحقائق الجديدة" كما تسميها، ليست جديدة بتاتاً على الأديان الوثنية؛ فقد تشابهت

(١) اقتباس من كتاب (علم اللاهوت) للقمص "ميخائيل مينا".

طقوس المسيحية وأسرارها مع طقوس العديد من الديانات الوثنية وأسرارها، بما فيها التثليث والقربان المقدس والتجسد والفداء^(١). كل طائفة يا صديقي تظن أنها تحتكر الحقيقة، ولكن هل أنت مستعد للبحث عن الحقيقة بتجرد وإن لم تكن هي دين آبائك؟

- فليبحث الضال عن الحقيقة التي يجهلها، أما أنا فقد ولدت عليها، ونشأت

فيها، وقد خلصني الرب يسوع.

- نصرت تعتبرني ضالاً؟

- بل أحبك كما أمرني الرب يسوع.

- تقصد كما تدعي أن يسوع كان يحب الفتى الذي بحضنه.

- أتسخر من أقوال الرب؟

- كلا بالطبع، فمن أنا لأسخر من أقوال الرب؟! ولكن لكثرة ما جاء من التلفيق

والدس على كلامه صرت أشك بكل ما لا يقبله العقل منه. ثم ما دليلك على أن المسيح

هو الرب؟

- تأمل معي: لو أن الله صار إنساناً، فإننا نتوقع منه أن:

١ - يدخل إلى العالم بطريقة غير عادية.

٢ - يكون بلا خطية.

٣ - يُجري المعجزات.

٤ - يكون مختلفاً عن كل ما عداه.

(١) يذكر "دوان" نقلاً عن "أورفيوس" وهو أحد كتّاب اليونان وشعرائهم الذين كانوا قبل المسيح بعدة قرون ما نصح: "كل الأشياء عملها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم". وهذا التعليم النالوثي أصله مصر، وكثير من الآباء (رجال الكنيسة) في الجيل الثالث والرابع قالوا: إن فيثاغورث وهيرقليطس وأفلاطون علموا التثليث، وقد أخذوا فلسفتهم في التثليث عن أورفيوس. دائرة المعارف تشمبرس، كلمة "أورفيوس". وللמיד من المعلومات راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- ٥ - يقول أعظم ما يُقال .
 ٦ - يكون تأثيره شاملاً ودائماً .
 ٧ - يُشبع جوع الناس الروحي .
 ٨ - يكون له سلطان على الموت^(١) . ولم تتحقق كل هذه الشروط إلا بالرب يسوع فقط .

- لا أتفق معك في هذا. فأما "النقطة الأولى" فقد دخل آدم وحواء إلى العالم بطريقة غير اعتيادية أكثر! كما جاء في سفر (إرمياء ١ : ٥): "وقبلما خرجت من الرحم قدستك"، وجاء في (الرسالة إلى العبرانيين ٧ : ١ - ٢) عن ملكي صادق أنه: "بلا أم بلا أب بلا أم بلا نسب. لا بداية أيام له ولا نهاية حياة!" وأما عن "النقطة الثانية" فقد جاء في (العدد ٢ : ٢١) عن يعقوب قول بلعام: "لَمْ يَشْهَدْ إِنْثَاءً فِي يَعْقُوبَ، وَلَمْ يَرَ مَشَقَّةً فِي إِسْرَائِيلَ. الرَّبُّ إِلَهُهُمْ مَعَهُمْ، وَهَتَافٌ لِلْمَلِكِ فِيهِمْ". ويقول الرب عن أيوب: "فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: هَلْ رَاقَبْتَ عَبْدِي أَيُّوبَ، فَإِنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَهُوَ رَجُلٌ كَامِلٌ صَالِحٌ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَجِيدُ عَنِ الشَّرِّ". ويقول أيوب عن نفسه في (أيوب ٣١ : ٤، ٥، ٦): "أليس هو ينظر طريقي وَيُخْصِي كُلَّ خَطْوَاتِي؟ إِنْ سَلَكَتُ فِي ضَلَالٍ وَأَسْرَعَتُ قَدَمِي لِأَرْتِكَابِ الْغِشِّ، فَلَأُوزَنَ فِي قِسْطِاسِ الْعَدْلِ، وَيُعْرِفِ اللَّهُ كَمَالِي" ويقول في (٢٧ : ٣): "وَلَكِنْ بَادَأَمَتْ نَسَمَتِي فِيَّ، وَنَفَخَةُ اللَّهُ فِي أَنْفِي، فَإِنَّ شَفَتِي لَنْ تَنْطِقَا بِالسُّوءِ، وَلِسَانِي لَنْ يَتَلَفَّظَ بِالْغِشِّ". ويصف الكتاب المقدس بعض بني إسرائيل في سفر صفنيا (٣ : ١٣): "بقية إسرائيل لا يفعلون إثمًا، ولا يتكلمون بالكذب، ولا يوجد في أفواههم لسان غش". وورد عن اللاويين في (ملاخي ٢ : ٦): "شريعة الحق كانت في فيه وإثم لم يوجد في شفثيه".

- تريد أن تجعل كل اليهود بلا خطيئة؟

(١) ورد هذا حرفياً في المقال المشار إليه قبل قليل .

- لا أقصد هذا بالتأكيد، فقد قيل ذلك في العهد الجديد أيضاً بحق المسيحيين الأوائل. مثال (رؤيا يوحنا ١٤ : ٥): "ما نطق لسانهم بالكذب، لأنهم بلا عيب" وجاء في (رسالة يوحنا الأولى ٢ : ٩): "كل مولود من الله لا يعمل الخطيئة لأن زرع الله ثابت فيه، لا يقدر أن يعمل وهو من الله" وفي (٥ : ١٨): "تعلم أن كل من ولد من الله لا يخطئ، بل المولود من الله يحفظ نفسه، والشريير لا يمسه، نعلم أننا نحن من الله". فلا ميزة للمسيح على غيره من المؤمنين به ما دام قد ثبت في المسيح إيمانه فهو لا يخطئ، كذلك الحال من ولد من الله فهو لا يخطئ. وعن زكريا وزوجته إلیصابات جاء في إنجيل لوقا (١ : ٥، ٦): "كَانَ فِي زَمَنٍ هِيرُودُسَ مَلِكِ الْيَهُودِيَّةِ كَاهِنٌ اسْمُهُ زَكْرِيَّا، مِنْ فِرْقَةِ أَبِيَّا، وَزَوْجَتُهُ مِنْ نَسْلِ هَارُونَ، وَأَسْمَاهُ أَلِيصَابَاتُ. وَكَانَ كِلَاهُمَا بَارَيْنِ أَمَامَ اللَّهِ، يَسْلُكَانِ وَقْفًا لَوْصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ كُلَّهَا بِغَيْرِ لَوْمٍ". أي إن المسيح لم يعمل خطيئة، وكذلك يعقوب وأيوب ويحيى وزكريا وغيرهم كثيرون ممن لم يعملوا خطية. ثم ألا تقولون أنه من عمل خطيئة وتاب منها فقد يصير بالتوبة أفضل مما كان قبل، وأفضل ممن لم يعمل تلك الخطيئة؟ أي إن التائب عن الخطيئة يصبح أفضل من المسيح الذي لا خطيئة له حسب زعمكم!!! وأما عن "النقطة الثالثة" فقد جاءت معجزات مثل معجزاته، بل أكبر منها من قبل بعض تلامذته، مثل متى الإنجيلي الذي أنزل من السماء مائدة عظيمة وأشرق حولها نور عظيم في هيكل أبللون في الحبشة، فأمن كهنته، ولما علم حاكم المدينة بذلك أمر بإحراقهم. وحدث عند ذلك أن مات ابن الوالي، فصلى متى الرسول، وتضرع إلى الله أن يقيم هذا الابن، فاستجاب له الرب وقام الولد من الموت؛ فلما رأى الوالي ذلك آمن هو وبقية أهل المدينة، فعمدهم متى الرسول ورسم لهم أسقفاً وكهنة، وبنى لهم كنيسة. وحدثت معجزات أكبر على يد قديسين أقل درجة من التلاميذ وأبعد زمناً منهم عن المسيح؛ فمنهم من وجد في أكثر من مكان في نفس الوقت، ومنهم من نقل الجبال بإشارة من إصبعه، ومنهم من ظلت برادة حديد السلاسل التي قيد بها تشفي المرضى لمئات السنين، ولم يقل أحد أنهم تألهوا.



- دعك من الخرافات التي يرويها المسيحيون التقليديون السذج في تقليداتهم، فأنت نفسك تعرف أنها محض افتراء.

- وماذا عن معجزات رسل بني إسرائيل التي يزخر بها الكتاب المقدس، ومثل إحيائه لـ"إليعازر" كمثل إحياء "صموئيل" للفلام؟ كما جاء في العهد القديم أن أنبياء آخرين قد حصلت لهم معجزة إحياء الموتى، بل أحيا حزقيال جيشاً كاملاً (حزقيال ١١-٣٧: ١)، وأحيا إيليا صبيّاً (ملوك أول ٢٤-١٧: ١٧)، وأحيا أليشع صبيّاً آخر (ملوك ثاني ٤: ٣٢-٣٥)، بل بعد أن مات هو نفسه أحيا رجلاً ميتاً رمي في قبره (ملوك ثاني ١٣: ٢٠)، حتى الحواري بطرس أحيا التلميذة "طابيثة" (أعمال ٩: ٤٠). ومن الأتباع الصالحين للأنبياء من أوقف الشمس (يوشع ١٠: ١٢-١٤)^(١). ومع أن الكتاب المقدس يروي كل ذلك كحقائق إيمانية لا جدال فيها، إلا أن أحداً لم ينسب الألوهية إلى أبطال تلك القصص!!! وأما عن "النقطة الرابعة" فقد رأيت في تلك الأمثلة وبالذات بالنسبة إلى النقطة الأولى أن كثيرين اختلفوا عن عداهم أكثر منه، وأما عن "النقطة الخامسة" فقد قيل أعظم بكثير مما قال المسيح، سواء في العهد القديم أو في كتابات بوذا، بل في قرآن محمد أيضاً. وبالمناسبة، بشأن "النقطة السادسة" فقد كان تأثير محمد في الإسلام وبوذا في البوذية أكثر وأعم وأشمل من تأثير المسيح في المسيحية، التي كان تأثير بولس فيها أكبر بكثير من تأثيره وأكثر شمولاً وديمومة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى "النقطة السابعة". أما عن "النقطة الثامنة" والأخيرة فالكتاب المقدس يخبرنا أن موسى قد تم إقامته من الأموات ونقله إلى السماء (يهوذا ٩)، ويوافق في ذلك ما ذكر في العهد القديم في (تث ٣٤: ٦) أن أحداً لم يعرف قبره، ولكن دون أن تذكر قيامته صراحة، كما أن أخنوخ تم نقله حياً إلى السماء وتغلب على

(١) بل دس في الكتاب المقدس أن من الأنبياء من صارع الله وغلبه!!! (تكوين ٣٢: ٢٣-٣٣). تعالى الله عما يصفون.

الموت (عبرانيين ١١ : ٥)، وكذلك إيليا صعد إلى السماء كما جاء في (تكوين ٥ : ٢٤)، بل في مركبة نارية كما جاء في (٢ملوك ٢ : ١١).

- إن ما ينطبق على الناس الذين دخلوا في الخطيئة الأولى، لا ينطبق على الرب.
- في عام ١٩٥٠ قرر البابا "بيوس الثاني عشر" أن مريم العذراء أيضاً قد ارتفعت إلى السماء، وأعلن ذلك كـ"عقيدة إيمانية" عند الكاثوليك، بناء على عقيدتهم فإن مريم حبل بلا دنس أي لم تدخل في الخطيئة الأولى أيضاً!
- أنا لست كاثوليكيًا مغفلاً لتتذرع لي بمثل هذه السخافات.

- لكنك تعتقد بأن المسيح مكون من لاهوت وناسوت، وأن ناسوت المسيح هو من جنس سائر النواصيت البشرية؛ فهو ينام ويكتب ويحزن ويجرب ويجوع ويعطش كباقي النواصيت أيضاً. كما أنك تعتقد أن البشر خطأؤون بطبيعتهم البشرية، فتكون النتيجة بلا شك أن ناسوت المسيح داخل في الخطيئة أيضاً!
- كلا بالطبع، فقد قال الرب يسوع: "من منكم يوبخني على خطيئة".

- لو قصد المسيح الربوبية فعلاً من وراء قوله هذا لكان الأحرى به أن يقول: "من منكم يجحد خلقي العالم، أو نفخي الروح في آدم، أو بسطي للرزق؟"، ولكنه قصد أن يستدل على نبوته بثبوت عصمته عن المعاصي، فقال: "من منكم يوبخني على خطيئة"، وبالفعل لم يستطع أحد أن يرد عليه، لأنه معصوم عن الخطايا كبقية الأنبياء، وليس كرب؛ فالرب لا يقول مثل هذا لعبيده. ثم إنك بهذه الآية التي اقتبسها ترد على نفسك. فالشدوذ الجنسي الذي تحاول أن تلصقه بيسوع هو من أكبر الخطايا عند الفريسيين واليهود بشكل عام في ذلك الوقت، ومناقض للناموس. فلو كان شاذاً فعلاً، ألم يستطع أحد أن يرد عليه موبخاً على تلك الخطيئة التي لا تغفرها الشريعة!!! وهكذا فإن هذه النقيصة ألصقت بشخص السيد المسيح لاحقاً من قبل الإغريق

والرومان الذين اعتنقوا دينه بعد أن فصلوه حسب مقاييسهم.

- لقد حررنا المسيح من الشريعة وتقاليد الفريسيين.

- إن يسوع كان ملتزماً بشريعة الرب، ومن حرركم منها هو بولس وأحباركم.

قام فيكتور إلى الباب ففتحه قائلاً:

- الوداع. فلا أمل يرتجى منك.

- يبدو أنك لم تلتزم بما اتفقنا عليه، وغضبت مني ثانية. وفي هذه الحال فأنا

لن أناقشك فيما يستجد معي من أمور.

- إن كانت على مثل هذا المنوال، فاحتفظ بهرطقتك الإسلامية لنفسك.

- ماذا تعني بذلك!!!

قال أبراهام فزعاً، فأجابه فيكتور بعصبية:

- أعني أن الشيطان يقودك إلى الإسلام دون أن تدري.

- لماذا تظن ذلك!!!

- اسأل نفسك، فإن ما تقوله هو عين ما يفتره المسلمون.

- هذا ليس صحيحاً.

- لا ريب أنه صحيح، وكل ما أستطيع قوله لك هو أن تحذر منهم؛ فصحيح أن

المسلمين يحاربون الشذوذ الجنسي في العلن، وعقوبته في دينهم الرمي من فوق جبل

متعذباً حتى الموت، بل ويعتقدون أن عرش الله يهتز تحته من الغضب على الشذوذ،

ولكنهم في السر لا يختلفون عنا مطلقاً.

- لا أنكر وجود شواذ بين عوام المسلمين كما بين العوام كافة، ولكن هذا لا يستند

عندهم إلى الدين.

- ليس فقط بين عامة المسلمين، بل بين شيوخهم الذين لا يكفون عن اغتصاب الأولاد.

- أنا لا أريد الدفاع عن الإسلام، ولكنك تجرني إلى ذلك رغماً عني؛ فالإسلام أكثر صراحة من اليهودية نفسها في تحريم الشذوذ، حتى تلك القلة من الشيوخ الشواذ، فشذوذهم ينبع -ولا ريب- من فسادهم أنفسهم، ولم نسمع أن أحداً منهم قد جاهر بذلك، أو برره بناء على أسس دينية إسلامية، وحالما يكتشف أمر أحدهم يجازى على ذنبه بصرامة، ولا يعود شيخاً، ولا يسمح له بممارسة أي نشاط ديني. أما القساوسة فإن منهم من يجاهر بشذوذه الجنسي، بل يكتب في ذلك الكتب التي يثبت أصلها في الأناجيل، كما ذكرت أنت نفسك قبل قليل، وكما قرأتُ أنا مؤخراً في مذكرات صاحب الغبطة "رامبرت ويكلاند" الذي كان رئيس أساقفة أبرشية "ميلواكي" الكاثوليكية. ومع أن هذا المطران على عتبة الموت حالياً (٨٢ سنة)، إلا أنه لا يخجل من تسجيل غرامياته. ومنهم من يرسمون كقساوسة على أنهم شواذ أصلاً، بل يتولون مهام رعية كبقية القساوسة، ومن بينها تعليم الناشئة وتربيتهم والعناية بهم، وبعض الكنائس تعقد قرائنهم على رجال مثلهم. ومؤخراً صوّت قادة العمل الكنسي في الولايات المتحدة الذين يمثلون آلاف القساوسة الرومان الكاثوليك (الذين هم أكثر تحفظاً من البروتستانت) لمصلحة إبقاء أولئك القساوسة المتورطين بفضائح الشذوذ الجنسي، ورفضوا عزلهم. أما المسلمون فإن الفاسق فيهم ينطوي على نفسه لأنه يعرف أن ما يقوم به خطيئة كبرى تخرجه من الدين، ولا يستطيع أن يجد لها سنداً في الإسلام ليمارسها علانية. ومن استطاع أن يجاهر بها منهم، تكون العلمانية أو اللادينية بشكل عام هي طريقه المثلى لذلك، بل إن بعضهم اتخذوا طريقاً آخر باعتراف المسيحية نفسها، كما حدث مع الشاذ المصري الذي يحاكم حالياً بتهمة التجسس على بلاده لإسرائيل^(١).

(١) كان اسمه "محمد عصام العطار" وبعد اعتناق الكاثوليكية حمل اسم "جوزيف العطار".



- كيف لا يوجد سند ديني للشذوذ في الإسلام!!! وماذا عن "الغلمان المخلدين"!!!
 - لقد سمعت عن هذا مراراً وتكراراً في منتديات المسيحيين في الإنترنت حتى صدقته فعلاً، ولكنني عندما تحريت عن ذلك وجدت أنهم خدم لأهل الجنة. ولا يوجد أي نص لا في القرآن ولا في السنة يتحدث عن ممارسة الشذوذ الجنسي معهم، ولا مع غيرهم، وأنت بنفسك ذكرت عقاب الإسلام على ذلك وما يدعونه من اهتزاز العرش لتلك الفاحشة، فدعك من ذلك.

- لا ريب أن أحداً من المسلمين قد تمكن من خداعك وفتتك.

- كلا، فطيلة إقامتي هنا في الولايات المتحدة لم ألتق بواحد منهم، ولكنني دائم القراءة وأحب أن أطلع على المناظرات الدينية التي تجري على الشبكة العنكبوتية.

- بل أنا متأكد أن أحدهم قد غرر بك فعلاً، وهذا المسلم وإن استطاع أن يوهمك بعقلانيته وتحضره وذهنه المتفتح فلا يجب أن تصدقه؛ فالمسلمون لا فائدة منهم، وسيظلون بدويين وإرهابيين وإن تربوا في بلد الحرية والديمقراطية وتشدقوا بالعقل والمنطق، وأسبغوا على دينهم كل الفضائل؛ لأن دينهم هو دين مخادع ودموي وإرهابي، وحالما تتوافر لهم الفرصة يعودون إلى أصلهم ويحاولون السيطرة على العالم ثانية بعد السيف. وقد أظهر الاستطلاع الذي أجرته مؤسسة "بيو فورم" مؤخراً، الذي يعد الأول من نوعه لتحديد مواقف المسلمين الأمريكيين، أنه رغم ما تراه الأغلبية من عدم وجود تعارض بين حياة المسلم ملتزماً وكونه أمريكياً، إلا أن نسبة الشباب المسلم الذين يترددون على المساجد بلغت ضعف نسبة آباءهم، وهؤلاء يعرفون أنفسهم بأنهم مسلمون أولاً، وأمريكيون ثانياً، فهم متدينون بشكل واضح وأكثر ظهوراً بالزي الإسلامي، وأكثر تديناً من الجيل الأكبر سناً. وربما كانت أكثر الإحصاءات إثارة للانتباه أن ٢٦ ٪ منهم

أوضحوا أنه يمكن تبرير موقف الأشخاص الذين يفجرون أنفسهم في بعض الأحيان، وهؤلاء يرفضون العديد من جوانب المجتمع الأمريكي، ويعتبرون أنه يحيد عن "القيم الأخلاقية" ويحط من "قيمة الإنسان". ومن بين هؤلاء شابات مسلمات اعتبرن أن التزامهن بالإسلام وارتداءهن للحجاب ورفضهن للمادية الأمريكية هو نوع من أنواع "الجهاد". وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، وفي واحد من أكثر المجتمعات ليبرالية وانفتاحاً في أوروبا، كانت "آيان هيرسي علي"، وهي عضو سابق في البرلمان الهولندي، وملحده ولدت لعائلة مسلمة محافظة، هدفاً لشكل أكثر عنفاً من العداء، بعد أن تعاونت مع "ثيو فان غوخ" في إنتاج فيلم ينتقد معاملة الإسلام للمرأة^(١)، فكان أن قتل غوخ على يد إسلامي متطرف، وتعرضت هي لتهديدات شنيعة، كادت تتحقق لولا حماية الشرطة لها. وفي لندن، تحدثت الصحافية "أمانبور" إلى "إد حسين"، وهو شاب مسلم يصف نفسه الآن بأنه يتجه نحو تقبل إيديولوجيا التطرف الإسلامي، ويسعى إلى إعادة السلام إلى العالم من خلال استعادة الخلافة الإسلامية، ويُسبِّهُه الشبان البريطانيون المسلمون المتطرفون الذين كانوا مسؤولين عن تفجيرات ٧ تموز/ يوليو ٢٠٠٥ في مترو لندن، والهجمات التي حدثت مؤخراً في مطار غلاسكو في سكوتلندا.

- أنا لم أعد قادراً على اللحاق بك أو استيعابك! لماذا تقول لي هذا؟ وما علاقتي

أنا بكل ذلك؟!!!

- حتى تفهم ما الذي ينتظرك في آخر المطاف، إن ظللت في تحبظك هذا.

- أنت محق. هذا فعلاً فراقٌ بيني وبينك.

(١) كان الأخرى بهما، ماداما ينشدان العدالة كما يدعيان، أن ينتجا فيلماً عن الحادثة التي أبيد فيها ثمانية آلاف من البوسنيين المدنيين العزل في "سيبرسكا" على مرأى ومسمع من القوات الدولية هناك، التي كان جلها يتكون من جنود هولنديين.

- أنا أعرف أنني محق، وقد كنت دائماً كذلك، وإليك نصيحة أخرى، وهي محقة أيضاً: إذا كنت لا تستطيع السمو إلى روحانية المسيحية، فعلى الأقل ابق يهودياً، ولا تمرغ نفسك بأحوال وثنية الإسلام.

- أشكرك على النصيحة.

- وإليك نصيحة أخرى وأخيرة، غادر الولايات المتحدة فوراً، لأنني لن أحملك مرة أخرى. والآن تفضل أرجوك فقد أضعت الكثير من الوقت الثمين في صحبتك، وأتمنى ألا أراك مجدداً.

إسرائيليات

جلس أبراهام واجماً، وهو يحرق في سقف الطائرة، ثم نظر إلى كتاب ترجمة معاني القرآن الذي بين يديه، فأشاح بنظره عنه بسرعة، وعاد يحرق بالسقف مجدداً، وهو يتساءل بقلق عن السبب الذي جعله يختاره هو بالذات للقراءة في أثناء السفر.

- ترى أيعقل أن يكون فيكتور وهافا محقين في كوني أتجه فعلاً نحو هرطقة الإسلام؟! -

أغمض عينيه بيأس، وبينما هو كذلك تضرع إلى الله تعالى كي يرشده إلى الحق؛ فإذا كان الإسلام هو الحقيقة فعلاً، وكتابه لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، كما يدعي المسلمون، فلتكن الآية التي سيقروها الآن، لا على التعيين، تأكيداً علمياً على ذلك، وبشكل إعجازي، أما إذا كان الإسلام هرطقة، فلتكن تلك الآية إشارة واضحة إلى كذبه، وبشكل لا يدع مجالاً لأدنى شك.

قلّب أبراهام صفحات الكتاب، ثم فتح عينيه فإذا بأول "سورة القمر" فقرأ:

- ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١].

فقال في نفسه:

- وهل القمر مصنوع من كرتون حتى ينشق؟! كيف يمكن لعاقل أن يصدق ذلك في القرن الحادي والعشرين، بعد أن صعد الإنسان إلى سطح ذلك الكوكب الصخري الصلب؟ ثم إذا كانت الساعة قد اقتربت فعلاً، فلماذا لم تحدث حتى الآن، رغم مضي أكثر من أربعة عشر قرناً على كتابة تلك الآية؟ حمداً للرب، فقد جاءت الإشارة بأبسط وأوضح شكل ممكن^(١).

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

أحس أبراهام أن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن صدره؛ فالآن فقط يستطيع القول بثقة إنه قد تأكد من زيف ما يسمى بالأكاديمية العلمية في المنهج الإسلامي، والتي يبدو أنه قد خدع بها فعلاً. تتهد بارتياح، ثم دس ترجمة معاني القرآن بين مطبوعات شركة الطيران في جيب المقعد المقابل، وتناول عوضاً عنها إحدى المجلات ليتسلى بقراءتها إلى أن تحط الطائرة في مطار دسلدورف.

كان أول موضوع تحدث به أبراهام مع أحمد هو نقد إنجيل برنابا، وذلك كي يثبت لنفسه أنه قد تحرر فعلاً من منطقته الحالي المتهم بالتماهي مع المنهج الإسلامي. ولكن أحمد كان ملماً بالموضوع على نحو أعمق مما كان يظن، وناقشه به من جوانب أخرى لم تكن تخطر بباله. وكان مما قاله:

- ألم تلاحظ أن إنجيل برنابا لم يقرن التوراة بموسى عليه السلام ولا مرة واحدة؟

استرجع أبراهام ما قرأه في ذلك الإنجيل ثم قال بدهشة:

- هذا صحيح.؛ فقد كان يقول: "كتاب موسى"، ولم يقل توراة موسى ولو مرة واحدة حسب ما أذكر! ولكن مهلاً، أليس هذا دليلاً على عدم دقة كاتبه؟

- كلا، فالحقيقة أن ذلك يعد دليلاً على أنه أدق من أحباركم وأقرب إلى الحق منهم؛ فهم يطلقون اسم التوراة فقط على الأسفار الخمسة التي ينسبونها إلى موسى عليه السلام، ويعتبرون إطلاق اسم التوراة على كامل التناخ (العهد القديم) من باب تسمية الكل بالجزء الأهم فحسب، وقد ثبت علمياً، اختلاف هوية كتيبة تلك الأسفار الخمسة وأسلوبهم، بل جاءت نظريات كثيرة ترجع السفر الأول^(١) مثلاً إلى يوسف عليه

(١) تقول دائرة المعارف الكتابية تحت عنوان (تكوين - سفر التكوين): "كان إجماع اليهود والكنيسة المسيحية هو أن الكاتب هو موسى كليم الله. . إلى أن ظهر ما يسمى "بالنقد العالي" في القرن التاسع عشر". وبعد ذلك نقضوا فكرة أن موسى عليه السلام هو كاتب التكوين لأنه لا يوجد دليل عليه حتى الآن.

السلام، وبعضهم رجح أن يكون كاتبه هو إبراهيم عليه السلام، واتفقوا جميعاً على أن موسى عليه السلام ربما كان مسؤولاً فقط عن سفر التثنية، ومن ثم فإن كتاب موسى ليس هو التوراة التي "تنزلت"^(١) على أنبياء بني إسرائيل بالتدريج، أو على الأقل هو جزء أو مرحلة من هذا التنزيل.

- ربما كنت محقاً في هذه النقطة بالذات^(٢).

- ألا تكفي هذه النقطة، التي لم تكتشف إلا مؤخراً، لإثبات صدقه؟

- الغريب أنني قد قرأت معظم ما كتب بشأن إنجيل برنابا، إن لم يكن كله، سواء من جهات مؤيدة أو منتقدة، ولم يذكر أي منهم هذه النقطة، فكيف تنبعت لها أنت؟! - عندما قرأت إنجيل برنابا للمرة الأولى، استغربت كثيراً من تكرار كاتبه لتسمية "كتاب موسى" وليس تسمية "توراة موسى" المتعارف عليها، لدرجة أن شككتني ذلك بدقته، ولكن عندما رجعت إلى معجم ألفاظ القرآن الكريم، دهشت لكون القرآن أيضاً لم يقرن التوراة بموسى ولو مرة واحدة^(٣)، وهو أيضاً قد وصف سفره بـ"الكتاب". - إذا كان هذا صحيحاً، فهو برأيي دليل على أن كاتب إنجيل برنابا هو مسلم فعلاً، وأنه اقتبس ذلك من القرآن نفسه.

- كلا؛ فالقرآن قد وصف ما أنزل على موسى بـ:"الكتاب" و"الفرقان" و"الهدى" و"ضياء" و"ذكر" و"الألواح" و"الصحف". وكان من الممكن لكاتب إنجيل برنابا أن يستخدم

(١) لو تمعنا في هذه الآية: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَنطَلُوا إِنَّ كُتُبَ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، فقد قال الله تعالى: (تُنزَّلُ)، وليس (تُنزَلُ)، والتنزيل غير الإنزال، فالأول على مراحل، والثاني لمرة واحدة، والله أعلم.

(٢) لاسترجاع بعض الأدلة على ذلك، راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٣) التوراة لم تنسب نصاً إلى موسى عليه السلام، في أي موضع من المواضع الـ ١٨ في القرآن الكريم وهي: ٦ مرات في آل عمران، و٧ مرات في المائدة، ومرة واحدة في كلٍ من الأعراف والتوبة والفتح والصف والجمعة.

أكثر من وصف واحد منها فيما لو كان يقتبس فعلاً من القرآن، ولكنه اقتصر على تسمية واحدة وعامة، هي الكتاب. كما أن الشائع في كل الأدبيات الإسلامية حتى الآن أن التوراة هي كتاب موسى عليه السلام، وهذا بناء على الإسرائيليات التي لجأ إليها علماء المسلمين في تفسير ما يختص ببني إسرائيل وأنبياهم. وكما قلت لك، فأنا نفسي لم أنتبه أن القرآن لم يقرن التوراة بموسى إلا بعد أن قرأت إنجيل برنابا، وبدأت أبحث عن سبب عدم إطلاقه اسم التوراة على ما أوتي موسى عليه السلام، كما هو متعارف عند الجميع، المسلمين وغيرهم.

فقال أبراهام مستكراً:

- ولكن ألا ترى معي أن ذكر محمد بالاسم يؤكد أن كاتبه مسلم فعلاً؟
- لا، بتاتاً؛ فقد ورد اسم النبي الأكرم في التوراة نفسها قبل تحريفها.
- أثبت ذلك^(١)؟

فتناول إنجيل برنابا من مكتبته، وقال وهو يقلب صفحاته:

- لا بد أنك قرأت هنا قصة "نيقوديموس" الكاتب^(٢) حين قال ليسوع: "لقد رأيت كتباً قديماً مكتوباً بيد موسى ويشوع خادمي ونبيي الله، وهو كتاب موسى الحقيقي، ففيه مكتوب أن إسماعيل هو أب لـ"مسيا"، وإسحاق أب لرسول مسيا. ويقول الكتاب أن موسى قال: "أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم اظهر لعبدك في سناء مجدك"، فأراه الله من ثم رسوله على ذراعي إسماعيل، وإسماعيل على ذراعي إبراهيم، ووقف على مقربة من إسماعيل إسحاق، وكان على ذراعيه طفل يشير بإصبعه إلى رسول

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) وهو أحد الكتبة اليهود الذين آمنوا بعبسى عليه السلام، وأشار عليه أن يخرج من أورشليم قائلاً: "يا سيد إن لي بستاناً وبيتاً وراء جدول قدرون"، وهو البستان الذي احتفى فيه عبسى والحواريون إلى أن جاء اليهود ومعهم الجنود الرومان للقبض عليه.

الله قائلاً: "هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء". فصرخ من ثم موسى بفرح: "يا إسماعيل إن في ذراعيك العالم كله والجنة، اذكرني أنا عبد الله لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك الذي لأجله صنع الله كل شيء". لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله يأكل لحم المواشي أو الغنم، لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله قد حصر رحمته في إسرائيل فقط، بل أن الله يرحم كل إنسان يطلب الله خالقه بالحق. لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله لأن رئيس الكهنة الذي كنت في مكتبته نهاني قائلاً إن: "إسماعيلياً^(١) قد كتبه". فقال حينئذ يسوع: "انظر ألا تعود أبداً فتحجز الحق، لأنه بالإيمان بمسيح سيغطي الله الخلاص للبشر ولن يخلص أحد بدونه".

ثم قلب صفحات الإنجيل ثانية، وأردف قائلاً:

- وفي قصة "هوشع" حيث قال المسيح فيها: "وكان تلميذ لـ "حجي" على مقربة من هوشع، فأراد أن يرى هل كان كتابه مكتوباً صحيحاً، فذهب ليزوره وقال له: "أيها الأخ خذ كتابك ولننظر هل هو مطابق لكتابي؟" مما يدل على وجود الاختلاف في النسخ المتوافرة آنذاك، وعلى جهود أصحاب العلم لتوحيدها، وأصحاب المصالح لإخفائها.

- ليس من المنطق أن تحاول إثبات صحة كتاب مشكوك بأمره، عن طريق حجج وردت في الكتاب عينه!

- ربما كنت محقاً فعلاً في هذا. فلنترك إذن إنجيل برنابا جانباً، وتأمل معي في قول شيخ الإسلام "ابن تيمية" رحمه الله، حين كتب: "قد رأيت أنا من نسخ الزبور (المزامير) ما فيه تصريح بنبوّة محمد ﷺ باسمه، ورأيت نسخة أخرى من الزبور فلم

(١) الإسماعيليون هي تسمية الكتاب المقدس لبني إسماعيل عليه السلام، وهم العرب، كما أن الإسرائيليين هي التسمية الكتابية لبني إسرائيل.

أر ذلك فيها". وقد أخبر سلمان الفارسي في قصة إسلامه المشهورة عن راهب عمورية حين حضرته المنية حيث قال له: "إنه قد أظلك زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل"^(١).

- هذه كلها مصادر إسلامية، ومع احترامي الشديد لها، إلا أنها لا تنفع أيضاً في الاحتجاج بها أمامي، ما دمت لا أؤمن بالإسلام.

- وماذا عن إخبار أبحار اليهود، ورجالاتها بقرب ظهور نبي آخر الزمان، كما وجدوا في أسفارهم؟! ومن ذلك قصة "أبي الهيبان" الذي نزل في "بني قريظة" ثم توفي قبل البعثة النبوية بسنتين وهو آسف أنه لم يلحق بزمن بعثة النبي، وطلب من أتباعه أن يؤمنوا به حال ظهوره"^(٢).

(١) تفصيل تلك الحادثة وحوادث أخرى حول هذا الموضوع تجدها في راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف .
والحديث في مسند أحمد بتمامه .

(٢) جاء في كتاب "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" لأبي الفرج: "... فإن رجلاً من يهود من أهل الشام، يُقال له ابن الهيبان، قدم علينا قبل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط كان يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر، قلنا: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا، فيقول: لا والله، حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة له، فنقول: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر أو مدين من شعير. قال: فيُخرج ذلك، ثم يخرج بنا إلى حرتنا فيستسقي لنا، فوالله ما يبرح مجلسه، حتى ير السحاب ويسقي... و لما حضرته الوفاة قال لبني قريظة: "يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير (يقصد الشام) إلى أرض البؤس والجوع؟! (يعني الحجاز) قالوا: "أنت أعلم". قال: "إنني قدمت هذه البلدة أتوكف (أنتظر) خروج نبي قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن أدركه فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا يسبقنكم أحد إليه. يا معشر اليهود، فإنه يُبعث يسفك ويسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه". فلما بعث الله رسوله، قال هؤلاء الفتية، وكانوا شباباً أحداثاً: يا بني قريظة، والله إنه الذي عهد إليكم فيه ابن الهيبان، قالوا: ليس به. قالوا: بلى والله، إنه لهو بصفته، فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهاليهم".

- لا تكلمني بالكتابات الدينية التي كانت في تلك الأزمان ثم أخفيت لسبب أو لآخر، كما أن الكتب الدينية بشكل عام لا تحدد أزماناً بعينها لظهور الأنبياء، بل تترك الأمر مبهماً.

قال أبراهام مقاطعاً، فأجابه أحمد بهدوء:

- هذا ليس دقيقاً؛ فأحباركم قد اشتهروا في تحديد زمن الحوادث المهمة عن طريق حسابات بطرائق معينة (معقدة أحياناً) لكلمات التوراة. ومن أبسط الأمثلة على ذلك حساب ما جاء في دانيال (١٢: ١٢): "طوبى لمن ينتظر ويبلغ إلى الألف والثلاث مئة والخمسة والثلاثين يوماً"، فإذا افترضنا أن دانيال قد قال سنة وليس يوماً، وعلمنا أن بين دانيال ومحمد عليهما الصلاة والسلام نفس هذه المدة تقريباً، لاستطعنا أن نتخيل شيئاً عن كيفية حسب الأحبار لموعد قدومه. فربما كانت هذه النبوءة أكثر وضوحاً زمن أبي الهيبان ولم يطلها شيء من التغيير بعد. وربما استند إلى نبوءات أخرى قد أخفاها اليهود تماماً بعد مبعث النبي العربي عليه الصلاة والسلام. المهم هو أن أبا الهيبان وكثيراً غيره من الأحبار في ذلك الزمان كانوا متفقين على أن حسابات الكتاب تشير إلى قرب مبعث النبي المنتظر، وأن مضيفيه من أحبار بني قريظة أنفسهم لم ينكروا عليه ذلك، بل إن منهم من كان قد توصل إلى النتيجة نفسها وتوعدوا الناس به.

فقال أبراهام محاولاً التهرب من اتجاه الحديث إلى ذلك المسار:

- يجب أن تخجل من ذكر بني قريظة بعد ما فعله بهم رسولكم؛ فقد قتل منهم ٦٠٠ إلى ٩٠٠ في يوم واحد، وأخذ النساء سبايا، مع أنهم كانوا يُعتبرون بالمقاييس الحديثة أسرى حرب.

- أولاً قصة طلب بني قريظة أن يحكم الصحابي "سعد بن معاذ" رضي الله عنه عليهم اعتقاداً منهم بأن قراراته ستكون معتدلة بسبب روابطه القديمة بهم، ثم حكمه بقتل كل ذكر من بني قريظة وصل إلى مرحلة البلوغ ليست رواية مؤكدة في التاريخ

الإسلامي. فأول من أوردها هو "ابن إسحاق" الذي مات في سنة ١٥١ للهجرة. أي بعد ١٤٥ سنة بعد حادثة خيبر. والمؤرخون الذي أتوا بعد ابن إسحاق اقتبسوا من هذه الرواية دون تشكيك في صحتها باستثناء اثنين وهما "مالك بن أنس" و"ابن الحجار" الذي وصف الرواية بصفة "رواية غريبة"، وأضاف مالك بن أنس بأنها "كاذبة ومختلقة". ومن الجدير بالذكر أن مالك بن أنس عاش في نفس الفترة الزمنية لابن إسحاق. وهناك ظاهرة عامة عند كتاب السيرة الأوائل؛ وهي نقلهم لكل ما سمعوه عن الرسول دون التقصي في مصداقية المراجع، وقد ذكروا هذا بوضوح في مقدمات كتاباتهم. ثانياً إن بني قريظة لم يكونوا أسرى حرب، لا بمقاييس الإسلام، ولا حتى بالمقاييس السياسية الحالية، فقد كانوا معاهدين للمسلمين وخانوهم في غزوة الخندق، كما أنهم كانوا وراء أمنع الحصون في ذلك الوقت.

- دعك من بني قريظة كي لا يتشعب الحديث. المهم أن تلك الحوادث التي استشهدت بها تدخل أيضاً في نطاق الأدبيات الإسلامية غير المؤكدة، حيث لا ذكر لها في مصادر أخرى.

- هذا ليس صحيحاً؛ فقد شاع حديث ذلك، وانتشر بين اليهود والمسيحيين أيضاً، حتى بلغ درجة القطع عندهم، وهذا ثابت تاريخياً، وبناء عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنورة: "إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم". كما قال "هرقل" ملك الروم عندما استلم رسالة النبي ﷺ: "وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم"^(١).

- ولماذا لا نجد أثراً لذلك فيما خلفه اليهود والمسيحيون من تلك الحقبة؟

- ولكنك استشهدت بقصة حكم سعد بن معاذ بقتل يهود بني قريظة، دون أن يكون لها هي أيضاً أي أثر فيما خلفه مؤرخوكم!!! ثم تأمل معي في حديث كعب

(١) راجع الفصل (الموقف) السابق نفسه.

الأخبار"، الذي هو حبر يهودي أسلم زمن رسول الله ﷺ، حين قال: "إني أجد في التوراة مكتوباً: محمد رسول الله، لا فظ ولا غليظ، ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح"^(١)، وستجد نصاً مشابهاً لذلك في سفر "إشعيا: "هُودًا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ"^(٢) مُخْتَارِي الَّذِي سَرَّتْ بِهِ نَفْسِي وَصَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلْأُمَّمِ بِالْعَدْلِ. لَا يَصِيحُ وَلَا يَرْفَعُ وَلَا يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ قَصَبَةً مَرْمُوضَةً لَا يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لَا يُطْفِئُ بِأَمَانَةٍ يَقْضِي بِالْعَدْلِ لَا يُلَوِّي وَلَا يَنْكَسِرُ حَتَّى يَقِيمَ الْعَدْلَ فِي الْأَرْضِ فَشَرِيعَتُهُ رِجَاءُ الشُّعُوبِ. هَذَا مَا قَالَهُ الرَّبُّ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَنَاشِرَهَا بَاسِطَ الْأَرْضِ مَعَ خَيْرَاتِهَا وَوَاهِبَ شَعْبَهَا نَسْمَةَ الْحَيَاةِ رُوحاً لِلْسَّائِرِينَ فِيهَا: أَنَا الرَّبُّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأَمْسِكْ بِيَدِكَ وَأَحْفَظْكَ وَأَجْعَلْكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِهَدَايَةِ الْأُمَّمِ، لِيُفْتَحَ عُيُونُ الْعَمِيِّ، لِيُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السَّجَنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ أَنَا الرَّبُّ (الله) وهذا هو اسمي. لا أعطي لآخر مجدي ولا للأصنام تسبيحي ما مضى مضى فأخبركم بما يأتي وقبل أن يحدث أسمعكم به" (إشعيا ٤٢ : ٨-١)، وهذا يجعلك تتخيل مقدار ما طمس من كتاب الله من زمنه حتى الآن؛ فإذا كانوا قد أخفوا بعض النبوءات من كتبهم المقدسة، وإذا كانوا حوروا بعضها الآخر عن طريق المقارنة بين النسخ المختلفة، والترجيح بينها حسب اعتقادهم لما يرونه حقاً، وعن طريق

(١) ما روى البخاري في صحيحه (رقم ٤٨٣٨) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: "لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ، قَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهُ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ، بِيَعُضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً)، وَحِزْزاً لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمِيْتُكَ الْمُتَوَكَّلُ (المختار)، لَيْسَ بَقَظٌ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا سَخَابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسِّيَةِ السِّيَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُفْتَحَ بِهَا أَعْيُنُ عَمِيًّا، وَأَدَانَا صُمًّا، وَقُلُوبًا غَلْفًا". وأخرجه أحمد في مسنده عن عطاء بن يسار أيضاً.

(٢) كتب متى في (١٢ : ١٧) مستشهداً بهذه الآية: "لكي يتم ما قاله النبي إشعيا: هو ذا فتاني الذي اخترته حببي الذي به رضيت، سأفويض روعي عليه" وهذه العبارة التي انفرد إنجيل متى بذكرها مخالفة للعبارة الأصلية كما نرى. ولو سلمنا جدلاً بأن نبوءة إشعيا هذه تتحقق في المسيح لكان من اللازم أن تكون أولى صفاته أنه "عبد لله" كما في النص المستشهد به أصلاً، وليس ابنه أو فتاه.

الترجمة، وترجيح بعض المعاني التي تزيل اللبس عن الكلمات الأصلية، حسب وجهة نظرهم، فما الذي يمنعمهم من إخفاء هذه الآثار من أدبياتهم؟!!! خاصة في خضم حالة المنافسة الشديدة التي قامت بين دينهم وذلك الدين الجديد، والتي أدت إلى انتقال الكثير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام؟ وهو ما حتم على القائمين على تلكما الديانتين التصرف بحزم، ضد كل النصوص والكتابات والأفكار التي قد تستغل لإضلال (لإسلام) عدد أكبر من أبناء دينهم، وأعادوا جدولة النبوءات قاطعين دابر الفتنة من أصولها، غير مدركين أنهم بالفتنة وقعوا، وأنهم حرفوا كلمات الله تعالى.

- ولكن ألا ترى معي استحالة اتفاق اليهود والمسيحيين معاً، على اختلافهم الشديد آنذاك، على تبديل النبوءات الواردة بشأن نبيكم بنفس الطريقة تماماً؟!!!

- لم يتفقوا على ذلك؛ فنظراً لقرب المسيحيين إلى الدين أكثر من اليهود الذين طال عليهم الأمد، ونظراً لكثرة عدد أولئك المسيحيين، وتعدد طوائفهم وعدم اتفاق أساقفتهم فيما بينهم، فهم لم يستطيعوا تغيير تلك النبوءات بسرعة كافية، واحتاج الأمر منهم إلى سنوات طويلة. وفي هذه الأثناء أقبل كثير منهم على الإسلام، وبالذات أساقفتهم وقساوستهم^(١)، أما اليهود فلم يكونوا كذلك؛ فقد كانوا قلة منظمة وأحبارهم على اتفاق شبه كامل، لذا فقد كانت حريتهم أكبر وقدرتهم على التبديل والإخفاء أكثر من المسيحيين الذين حذوا حذوهم فيما بعد. ويشهد التاريخ أن المسيحيين كانوا دائماً ينقلون آخر النسخ من التناخ (عهدهم القديم) عن اليهود، ويقبلون معها آخر تنقيحاتهم بطيب خاطر، حتى تلك التي أخفت النبوءات عن مسيحهم نفسه، وكل ذلك بذريعة أن اليهود هم المؤمنون على الأسفار القديمة وحفظها، وأن كلمتهم هي الفصل فيما يخص العهد القديم.

(١) لمزيد من المعلومات راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- أنت محق في النقطة الأخيرة من حديثك.

- ومحق فيما قبلها أيضاً؛ فقد كان إخفاء النبوءات بل محو أسفار كاملة، غاية في السهولة بين أحبار اليهود في ذلك الوقت. وقد جاء في تاريخنا أن أحدهم، وهو "الزبير بن باطا"، كان أعلم اليهود في شبه الجزيرة العربية، وكان يقول قبل الإسلام: "إني وجدت سفراً كان أبي يختمه علي، فيه ذكر أحمد نبي يخرج بأرض القرظ صفته كذا وكذا"، ولكن بعد ظهور النبي ﷺ عمد إلى ذلك السفر فمحاها وكتب بشأن النبي عليه الصلاة والسلام وقال: ليس به. وقد أخبرنا من أسلم من يهود بني قريظة أن أحبارهم كانوا يدرسونهم وهم صغار ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم بصفته واسمه ومهاجره إليهم، فلما ظهر رسول الله عليه الصلاة والسلام حسدوا وبغوا وقالوا: ليس به^(١).

صمت أبراهام هنيهة كأنه يسترجع شيئاً دفيناً في نفسه، ثم قال مفكراً:

- مع أنني لا أتفق معك تماماً فيما ترمي إليه، إلا أنني أجد نفسي مضطراً لموافقتك على أن هناك فعلاً من حور في بعض النصوص المقدسة من اليهود، وليس فقط ليدافع عما يظن أنه الحق، ويحمي عامة المؤمنين من الشك في اليهودية، بل قد يكون عن سابق إصرار في التحريف كما تقول فعلاً... ولكن بهدف تخريب دين آخر.

- تمهل علي من فضلك، فأنا لم أفهم ما قلته الآن.

- هل تذكر عندما قلت لك على الشرفة في إيزرلون، أن محاولة تهويد المسيحية

وتغييرها بدأت من أيام باباوات الفاتيكان اليهود؟

- بالطبع، ولكن ما علاقة ذلك بموضوعنا؟!

رد أحمد باستغراب، فقال أبراهام موضحاً:

- لقد كنت مخطئاً.

(١) طبقات ابن سعد.

- لقد حاولت إيضاح ذلك لك دون جدوى، مع أنني أعترف بأنني قد بدأت أنا نفسي أقتنع بوجهة نظرك. ولكن، ما الذي يجعلك تظن أنك كنت مخطئاً؟ ومرة أخرى ما علاقة ذلك بموضوعنا؟!!!

- لأنني اكتشفت أنه ربما تكون محاولة "تهويد المسيحية" قد بدأت فعلاً من الفاتيكان. ولكن محاولة "إفساد دين المسيح على يد اليهود" بدأت بوقت أبكر من ذلك بكثير... أقصد مع بدايات المسيحية نفسها.

متبع أم مبتدع

ازدادت حيرة أحمد بعد الذي سمعه من أبراهام، فاستفسر منه ثانية:

- عفواً، ولكن يبدو أنني لم أعد قادراً على اللحاق بك بتاتاً. فماذا تعني

بالضبط؟!!

- أعني التغييرات التي أحدثها "شاول الطرسوسي" اليهودي الفريسي، تلميذ

"غمالايل"^(١) وصاحب الثقافات الواسعة بالمدارس الفلسفية والحضارات في عصره^(٢)،

والذي كان في البداية يذيق أتباع المسيح سوء العذاب، ثم أعلن فجأة أنه قد أصبح منهم، مدعياً أنه قد رأى الرب في الطريق وخاطبه مؤنباً له على اضطهاده لأتباعه،

وأمراً له بنشر تعاليمه بين الأمم!

صمت أبراهام قليلاً، ثم أردف قائلاً:

- كيف عرف بولس فجأة بعد أن سمع الصوت، أن الذي يخاطبه هو الرب

وليس شيطاناً؟! ولماذا لم يذهب بولس بعد تنصره مباشرة إلى التلاميذ ليتلقى عنهم

دين المسيح؟ لماذا ذهب، عوضاً عن ذلك، إلى الجزيرة العربية^(٣)، ومكث بعيداً عن

التلاميذ ثلاث سنين؟! ثم لقي اثنين منهم فقط لمدة خمسة عشر يوماً فحسب!!

(غلاطية ١ : ١٨-١٩).

- فعلاً.

(١) أشهر علماء اليهود في ذلك العصر .

(٢) يقول بولس : "إني مديون لليونانيين والبرابرة للحكماء والجهلاء" (رومه ١ : ١٤).

(٣) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف .

- ليس هذا فحسب، فلو حاولت تمحيص رؤيته المزعومة نفسها، لواجهتك تناقضات أكبر^(١)؛ إذ إن سفر أعمال الرسل يقول: "في ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغته أبرق حوله نور من السماء. فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً: شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع. وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين: يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً" (أعمال ٩: ٧-٣). لكن سفر أعمال الرسل يعود ليروي هذه الحادثة مرة أخرى على لسان شاول نفسه، فيقول: "حدث لي وأنا ذاهب ومنتقرب إلى دمشق أنه نحو نصف النهار بغته أبرق حولي من السماء نور عظيم، فسقطت على الأرض وسمعت صوتاً قائلاً لي: شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ فأجبت: من أنت يا سيد؟ فقال لي: أنا يسوع الناصري الذي أنت تضطهده. والذين كانوا معي نظروا النور وارتعبوا، ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كلمني" (أعمال ٢٢: ٩-٦). إن تناقض الشهادتين في السفر نفسه واضح جداً، ذلك أن المسافرين مع شاول في الشهادة الأولى: "سمعوا، ولم ينظروا"، وفي الشهادة الثانية: "نظروا، ولم يسمعوا"^(٢)، وإن تقديم شهادتين كهاتين أمام أي محكمة ابتدائية في أي قضية، ولتكن حادثة بسيطة من حوادث السير على الطرق، لكفيل برفضهما معاً، فما بالنا إذا كانت القضية تتعلق بعقيدة يتوقف عليها المصير الأبدي للملايين من البشر؟

فعلق أحمد باسمًا:

- لقد تبهت لذلك أيضاً.

(١) بعد اكتشاف كتابات "أوبيديوس" الشاعر الإغريقي من القرن الرابع قبل الميلاد، وجد فيها عبارات متطابقة (حرفياً) وأحداثاً مشابهة لما حصل مع بولس، تلقي بعض الضوء على مصدر الإضافات التي ألحقت بقصته لاحقاً. راجع الموقف (الفصل) المشار إليه أعلاه.

(٢) هناك قصة ثالثة جاءت أيضاً في سفر أعمال الرسل! حيث سقط شاول على الأرض من لمعان النور هو وجميع من معه، وأمره الصوت قائلاً: "الآن أرسلك إلى الشعب لفتح عيونهم ليرجعوا إلى الله" فذهب إلى دمشق وأورشليم وأمرهم أن يتوبوا إلى الله! (أعمال ٢٦).

- ثم غير شاول اسمه إلى بولس بطلب من الرب كما ادعى، بل أصر على أن يعتبر "رسولاً"^(١)، ولم يكتف بذلك ولكنه اعتبر نفسه أفضل من بقية الرسل^(٢)، وملاً العهد الجديد بآرائه المحضة، ثم جعلها حياً مقدساً من عند الرب. تلك الآراء التي صار لها اسم جديد هو... "المسيحية"^(٣)، وما نتج عن ذلك من نقض الناموس والوصايا التي قال عنها المسيح: "إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا" (متى ١٩ : ١٦) وقال أيضاً: "على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون" (متى ٢٣ : ١)، فقد أحل بولس شرب الخمر ودعا إليها صراحة^(٤)، وأحل أكل لحم الخنزير^(٥)،

(١) مثل قوله: "مني أنا، بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح والله الآب الذي أقامه من الأموات". رسالته إلى غلاطية ١ : ١، وليس رسولاً عادياً، بل لا يقل عن الرسل العظام كقوله مثلاً: "كان ينبغي أن أمدح منكم إذ لم أنقص شيئاً عن الرسل العظام، وإن كنت لا أساوي شيئاً فالعلامات على أنني رسول أظهرتها بكل صبر بينكم". رسالته الثانية إلى كورنثوس (٢كو ١٢ : ١٢، ١١)، مع أن هذا يناقض ما جاء في رسالته الأولى إلى كورنثوس نفسها حيث قال: "ولا أحسب نفسي أهلاً لأن يدعوني أحد رسولاً أنني اضطلعت كنيسة الله" (١كو ١٥ : ٩).

(٢) يقول بولس: "أهم عبرانيون فأنا أيضاً. أهم إسرائيليون فأنا أيضاً. أهم نسل إبراهيم فأنا أيضاً، أهم خدام المسيح. أقول كمختل العقل. فأنا أفضل. في الأتعاب أكثر. في الضربات أوفر. في السجون أكثر. في الميتات مراراً كثيرة". (٢كو ١١ : ٢٢، ٢٣).

(٣) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٤) بولس في رسالته ينهى الأساقفة والشمامسين فقط عن السكر والإدمان والولع بالخمر الكثير (١ تيموثاوس ٣ : ١)، ولكنه كان يأمر بشرب القليل منه، لكونه مفيداً! "لا تقتصر بعد اليوم على شرب الماء، بل اشرب قليلاً من الخمر من أجل معدتك وما يتناكب من أمراض"!!! (١ تيموثاوس ٥ : ٢٣).

(٥) حول أهمية تحريم لحم الخنزير شهادة للطبيب الألماني "هانس ريكفينغ" إذ يقول في كتاب (الدين والعلم وتحريم لحم الخنزير)، ترجمة عدنان حليبي: "لا بد أن أشير إلى التراث القديم عند بعض الأمم، حيث كان للتعاليم التي أرساها النبيان محمد وموسى أكبر الأثر في التزام المسلمين واليهود بقوانين الله الطبيعية. ففي إفريقيا حيث يعيش المسلمون وغيرهم في ظروف مناخية واحدة، نجد بالمقارنة، أن الشعوب الإسلامية تتمتع بصحة جيدة لأن لحم الخنزير محرم في شريعتها، بينما نجد أن الشعوب الأخرى التي تعتمد النظام =

وحلل ذبيحة الصنم، وأبطل مفهوم النجاسة، وحرم الختان، مع أن المسيح قد اختتن، وألغى تقديس يوم السبت، وقال عن الشريعة التي كان المسيح من أشد الناس تمسكاً بها أنها: "لم توصل الذين كانوا يعبدون الله بحسبها ولو إلى أدنى درجات الكمال" (عبرانيين ٧: ١٧)، ثم وصل به الحال إلى أن ألغى الشريعة، معللاً ذلك بكل وقاحة بأن الشريعة تجلب الغضب! و"حيث لا تكون شريعة لا تكون معصية" (رومه ٤: ١٥)، وقال أيضاً: "لذا نحن (أي بولس) نقرر تبرير أعمال الإنسان من خلال إيمانه، بدون التزامه بالشريعة" (رومه ٣: ٢٨)، فجعل بولس فصلاً تاماً بين الإيمان والعمل، وجعل المطلوب من الشخص كي ينجو: فقط أن يؤمن أن المسيح مات على الصليب كفارة

=الغربي في تغذيتها تصاب بأمراض ترتبط كل الارتباط بتناولها للحم الخنزير . ويتابع قائلاً: "في دراسة جرت في الهمالايا حيث تعيش قبائل "الهونزا" التي اعتنق معظم أفرادها الإسلام، ويمتنعون عن أكل لحم الخنزير، وجد أنهم يتمتعون بصحة جيدة، ومتوسط أعمارهم مرتفع ويعملون حتى سن متقدمة لتحصيل أرزاقهم . في حين أن القبائل التي تجاورهم من غير المسلمين تصاب بعدد من الأمراض الشائعة بينهم لتناولهم لحم الخنزير، ومتوسط أعمارهم وفعاليتهم أقل بكثير من القبائل المسلمة . وهكذا فإني أرى أن الكتب السماوية التي جاء بها محمد وموسى كان معها الحق، كل الحق، في تحريم تناول لحم الخنزير" . وحديثاً اختلف العلماء في أثر الغذاء على الطبع والخلق، لكن ملاحظات كثير من العلماء قادتهم إلى تأكيد اختلاف الآثار الخلقية باختلاف نوع اللحوم الأكثر من تناولها، وبأن لحم الخنزير وشحمه له تأثير سيئ، على العفة والغيرة على العرض إذا داوم الإنسان على تناوله . وتوصلوا إلى القول بأن نوعية الطعام تؤثر على شخصية وسلوك الإنسان وتصرفاته . (الدكتور أحمد جواد عن كتابه "الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم"، دار السلام، ١٩٨٧). وفي مقالة للدكتور الفنجري (الطب الوقائي في الإسلام - دمشق ١٩٩٢) الدكتورة أحمد بربور وزملاؤه يؤكد فيها "أن الذين يأكلون لحوم الحيوانات الكاسرة عادة ما تكون طباعهم شريرة، غير متسامحين، ويميلون إلى ارتكاب الآثام والجرائم . وإن أكل لحم الخنزير لا بد أن يؤثر على شخصية الإنسان وسلوكه العام الذي يتجلى واضحاً في كثير من المجتمعات الغربية حيث يكثر اللواط والسحاق والزنى، وما نراه متفشياً من نتاج تلك التصرفات من ارتفاع نسبة الحمل غير الشرعية والإجهاض وغيرها" . ومن هنا نفهم كيف أن معاني الرجس (سورة الأنعام ١٤٥) قد استقرت في أذهاننا التصاقها جميعاً بالخنزير، فهو لا يكاد يرى إلا وأنفه في الرغام . وإن النفور والتقزز من هذا الحيوان ليس قاصراً علينا - نحن المسلمين - فحسب، ففي كل من أوروبا وأمريكا، ومع أن تجارة الخنازير عندهم وتربيتها رائجة، ومع أنهم يتخذون دمي لأطفالهم تمثل الخنزير، إلا أن أسماءه، على اختلاف لغاتهم، تعد سبة وشتيمة شنيعة، لا يقذفون بها إلا كل زري ذميم .

لأخطاء البشرية! ثم لا عليه بعد ذلك أن يفعل ما يريد!! فإذا آمن بالمخلص، فالنجاة ستأتيه آلياً^(١)!! مع أن يعقوب تلميذ المسيح وأول أسقف لأول كنيسة بعد المسيح، والذي يؤمن المسيحيون أنه "أخو الرب"^(٢)، قال في رسالته: "يا إخوتي، هل ينفع أحداً أن يدعي أنه مؤمن، وليس له أعمال تثبت ذلك؟ هل يقدر إيمان مثل هذا أن يخلصه؟" (يعقوب ٢: ١٤)، وقال أيضاً: "وهذا يؤكد لك، أيها الإنسان الجاهل (في ترجمة أخرى الغبي)، أن الإيمان الذي لا تنتج عنه أعمال هو إيمان عقيم (في ترجمة أخرى ميت)" (يعقوب ٢: ٢٠). بل أخبر بولس أن الكافر الذي لا يؤمن بالمسيح قد يدخل الجنة... إذا كان متزوجاً من امرأة مؤمنة!! (كورنثيوس ١٦-١٧: ٨). ويبدو أن رسل يسوع الناصري قد حاربوا أفكار بولس بكل ما استطاعوا من قوة، وبالذات رئيسهم بطرس^(٣)، وهو ما اضطره إلى قصر تبشيره على الأماكن التي لم يصل إليها نفوذهم بعد، كي يستطيع نشر تعاليمه "بحرية". وقد اعترف بذلك قائلًا: "وكنت حريصاً أن لا أبشر حيث سمع الناس باسم المسيح، لئلا أبني على أساس غيري" (رومه ١٥: ٢٠). ثم أصيب بجنون العظمة فزعم أنه أعظم من المسيح، فقال إن الله أقام المسيح مخلصاً لإسرائيل، وأقام بولس نوراً وخلصاً للأمم وإلى أقصى الأرض! (أعمال ١٣: ٤٧-٢٣)، بل جعل أتباعه

(١) يذكر أن هناك سجنًا في جهنم اسمه بنفس لفظ الاسم الذي اختاره صاحب الرسائل، وهو حديث رقم: ٢٤٩٢ سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله - باب حدثنا سويد بن نصر أخبرنا عبد الله بن المبارك عن محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي * قال: "يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلقهم نار الأنبار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال". قال أبو عيسى حديث حسن صحيح.

(٢) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) لذلك فقد شن عليه بولس (وكذلك على يعقوب وبرنابا كما يبدو) حرباً شعواء كما يظهر من رسائله مثل (غلاطية ٢: ١١)، وربما قام أتباع بولس بعد ذلك بإخفاء (إنجيل بطرس)، الذي سلمه إليه المسيح (مفاتيح ملكوت السماوات كما في إنجيل متى ١٦: ١٩) وذلك باعتراف بولس نفسه في (غلاطية ٢: ٧)، والله أعلم.

المسيحيين يؤمنون أنهم سيشاركون الله في دينونة البشر في يوم الدين!! وأنهم وبولس سوف يدينون حتى الملائكة!!! (كورنثوس الأولى ٦: ٢-٤)، فماذا إذن تركوا لله تعالى ليفعله في يوم الدينونة!!!

- رغم اتفاقي معك في ذلك، إلا أن ما تقوله خطير جداً.

- أعرف، ولكنه منطقي جداً أيضاً. فيحق لنا أن نسأل: إذا كان هناك شخص غير المسيح سيكون بهذه الأهمية بعده، فلماذا يكون ذلك الشخص هو بولس، مع أنه لم يكن من بين الحواريين الاثني عشر الذين لازموا المسيح وتعلموا على يديه، ولم يكن حتى أحد السبعين الذين أرسلهم المسيح للتبشير (لوقا ١٠: ١)، ولا حتى أحد الأكثر من خمس مئة الذين شاهدوه بعد قيامته دفعة واحدة (١كو٥: ٦)، بل لم يكن أحد أتباعه ولا حتى رآه في حياته!!! فلماذا هو بالذات مع أن أياً من أتباع المسيح، أو أياً من المئة والعشرين الذين حل عليهم الروح القدس بعد خطبة بطرس، كان أحق منه بهذا التكليف، خاصة مع ماضيه المشبوه، الذي اتسم باضطهاد المسيحيين!!! وإذا كان المسيح قد تجاهل كل هؤلاء، وظهر بعد موته لبولس بالذات، وجعله رسولاً كما يدعي، ولم يدع أحد غيره الرسالة، فلماذا لم يخبر تلاميذه بنبوته، خاصة أنه قد قابلهم أيضاً بعد قيامه من الموت!!!

- ربما أخبرهم فعلاً.

- بتاتاً.

- من أين لك هذه الثقة؟

- من الكتاب المقدس نفسه؛ فقد جاء في أعمال الرسل: "ولما وصل شاول إلى اورشليم حاول أن ينضم إلى التلاميذ فكانوا كلهم يخافون منه ولا يصدقون أنه تلميذ" (أعمال ٩: ٢٦).

- هذا صحيح.

- ليس هذا فحسب فبولس نفسه لا يمكن أن يكون رسولاً بكل المقاييس.

- لماذا؟

- أولاً: كان بولس موجوداً في نفس زمان المسيح^(١) ومكانه! ولكن المسيح تجاهله، ولم يجتره، كما اختار غيره، ليكون من تلاميذه ويتلقى عنه مباشرة قبل أن يرفع إلى السماء. ثانياً: لماذا يرسل المسيح رسولاً بالأصل؟ لأن حادثة الصلب جاءت فجأة، ولم يكن مستعداً لها، مما حال بينه وبين إتمام رسالته، فاضطر بعد ذلك إلى مخاطبة بولس من حيث لا يراه، ليتم الرسالة التي أعجزه اليهود عن تبليغها كاملة؟ أيكون المسيح إلهاً ثم يمنعه اليهود من تبليغ رسالته فيضطر هذا الإله إلى اختيار عدو من أعدائه ليكلفه بإتمام تبليغ الرسالة!!!؟ فيما أن المسيح جاء ليموت على الصليب فلقد كان عليه أن يتم رسالته قبل أن يصلب، لا أن يستدرك بإتمام ما منعه اليهود من توصيله إلى الناس. ثالثاً: لكل رسول آية يصدقه الناس بها، فما آية بولس باعتباره رسولاً للمسيح الإله كما يزعمون!!!؟ فقد ادعى بولس أن المسيح كلمه أمام جمهرة من الناس، ولما سئل الشهود: أسمعتم صوت المسيح وهو يكلم بولس؟ أجابوا: لم نسمع صوت المسيح وإنما بولس هو الذي كان يتكلم. فلو كان المسيح هو الذي كلم بولس لأسمع صوته للشهود لتكون آية للناس. رابعاً: الرسول يجب أن يكون محل ثقة الناس، ولم يسبق أن بعث الله رجلاً كافراً كرسول، فضلاً عن أن يكون عدواً لدوداً للدعوة، ومشهوراً باضطهاد المؤمنين؟! قد أفهم أن ينتقل رجل من الكفر إلى الإيمان، ولكن كيف ينتقل من الكفر ومحاربة الدين إلى النبوة والتبشير بين الأمم!!!؟ ومن دون أن يمر ولو بأي مرحلة تعليمية وسيطة!!!؟ وأخيراً: إذا كان بولس بهذه الأهمية، فلماذا لا نجد أي نص في الأناجيل يدل أو يشير إليه!!! والنص الوحيد الذي قد يشير إليه ليس بمصلحته بتاتاً.

(١) ولد في العام الثالث بعد الميلاد.

- عن أي نص تتحدث؟! فحسب علمي لا يرد ذكره فعلاً في أي من الأناجيل المعتمدة!

- أعني ما جاء على لسان المسيح في (متى ٥ : ١٩-١٧): "لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل فإنني الحق أقول لكم: إنى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد من الناموس حتى يكون الكل، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى: أصغر في ملكوت السماوات"، وكلمة بولس معناها "أصغر".

- حقاً^(١)!!!

- بالتأكيد، أما الأخبار الجيدة التي جاءت عنه، فقد جاءت من رسائله، وهي تعد شهادة منه لنفسه، لذا فهي غير مقبولة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى أعمال الرسل التي كتبت بتأثير منه، وبعض اللاهوتيين ينسبها إلى بعض تلاميذه، ومنهم من ينسبها إليه مباشرة! ثم ما فائدة رسالته بعد رسالة المسيح مباشرة؟ ألا يعني ذلك أن المسيح لم يبلغ رسالته على الوجه الأكمل؟ ولماذا لم يذكر بولس اسم شاهد واحد على الأقل على قصة رؤيته العجائبية للمسيح!!!

- فعلاً، فلا يوجد أي تعريف لأولئك الشهود المجهولين! كما لا يوجد اتفاق على كونهم قد رأوا أو سمعوا، ولا حتى تفاصيل ما رأوه أو سمعوه!!!

- أرايت! ثم ألم يقر المسيح بأن شهادته هو لنفسه وحدها لا تكفي، وإنما يلزم شهادة أخرى معه كما نصت على ذلك التوراة؟ فهل بولس أفضل من المسيح؟ وحتى لو قبلنا قصة رؤيته المزعومة التي وردت في أكثر من نص في رسائله وأعمال الرسل، فكيف نفسر التناقضات الشديدة بين تفاصيلها في كل نص!!! وكيف يوثق

(١) للتفسير الأكثر قرباً من الحق والمنطق لقول المسيح عليه السلام (إن قاله فعلاً).

أصلاً بكلام رسول يقول: "صرت لليهود كيهودي. وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس... وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس... صرت لكل كل شيء" (١ كورنثوس ٩: ٢٠-٢١)؟ فمن البدهي أن مثل هذا الفكر لا يمكن أن يكون وحيًا بأي حال من الأحوال؛ فالوحي الإلهي الصادق يجب أن يكون مستقلاً عن قبول الناس ورفضهم للرسول، فما على الرسول إلا البلاغ بالدين الحق. وسواء قبل به الآخرون أم رفضوه، فلا يحق للرسول أن يتلون مع الجماعات وإلا فقد الدين مغزاه.

- معك كل الحق في هذه التساؤلات ولكن...

- ولكن ماذا؟ فأنا لست أول من تنبه على أن تأثير بولس على المسيحية الحالية أكبر من تأثير كل تلاميذ المسيح الذين آمنوا به في حياته وصحبوه ونالهم الاضطهاد في سبيل دينه، بل أكثر من تأثير المسيح نفسه؛ فقد قال السير "آرثر فندلاي" في كتابه "الكون المنشور": "إن بولس هو الذي وضع أساس الدين الذي يسمى بالدين المسيحي"^(١)، وقال "يواكيم برنز": "لقد كان بولس سباقاً إلى قبول فكرة انفصال المسيحية عن اليهودية، ومهد بإنشاء العقيدة المناسبة"^(٢)، كما قال "د. جوستاف لوبون": "إن بولس أسس باسم يسوع ديناً لا يفقهه يسوع لو كان حياً، ولو قيل للحواريين الاثني عشر إن الله تجسد في يسوع، ما أدركوا هذه الفضيحة ولرفعوا أصواتهم محتجين". وأيضاً قال "د. شارل جنيبير" رئيس قسم الأديان بجامعة باريس: "لقد تجاهل بولس فكرة يسوع الناصري ولم يتجه إلا إلى يسوع المصلوب، فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه في الوجود. رجل سماوي احتفظ الله به إلى جانبه، أمداً طويلاً، حتى نزل إلى الأرض لينشئ فيها حقاً لبشرية جديدة يكون هو دمه".

(١) في كتاب "اختيار الدين" للدكتور "شونج فيث" (وهو طبيب من كندا كان كاثوليكياً، ثم تحول إلى البروتستانتية، وفي نهاية بحثه عن الحقيقة اعتنق الإسلام). قال إنه أراد أن يبشر مسلمين معه في المستشفى، فقرأ العهد الجديد، مركزاً على أقوال المسيح فقط دون الآخرين، فوجد أنها لا تخرج عن الإسلام في أي شيء.
(٢) راجع قول بعض أئمة المسلمين في تكليف قادة اليهود لبولس كي يضل أتباع المسيح ويبعدهم عن الناموس.

- أعرف هذا. وقد كتبت مئات المجلدات عن ذلك. ولكن...

فقاطعه أبراهام مجدداً وهو يدل على وجهة نظره باستشهاد آخر، سيدغدغ مشاعر صديقه هذه المرة:

- هل تعلم أن "مايكل هارت"^(١) صاحب كتاب "الخالدون المئة: تقويم لأعظم الناس أثراً في التاريخ" والذي وضع نبيكم على رأسهم، قد وضع بولس في المركز السادس، في حين خلت قائمته من تلاميذ المسيح الذين غلبتهم دعوة بولس مؤسس المسيحية الحقيقي في رأيه؟ وأنه علل وضع بولس في ذلك المركز المتقدم، بأن المسيحية لم يؤسسها شخص واحد، وإنما أقامها اثنان؛ المسيح وبولس، ولذلك يجب أن يتقاسم شرف إنشائها هذان الرجلان معاً، معتبراً أن المسيح قد أرسى المبادئ الأخلاقية للمسيحية، وكذلك نظراتها الروحية وكل ما يتعلق بالسلوك الإنساني، وكانت مبادئ اللاهوت من صنع القديس بولس. وأنه قال: "المسيح لم يبشر بشيء من هذا الذي قاله بولس، الذي يعتبر المسؤول الأول عن تأليه المسيح". و"أن بولس لم يستخدم لقب "ابن الإنسان" الذي كان كثيراً ما يطلقه المسيح على نفسه".

- أعرف هذا.

- ولكل هذه الأسباب مجتمعة، أظن أن بولس قد قلب تعاليم المسيح رأساً على عقب وحرف دينه. وهناك فرضية أميل إليها كثيراً، تقول أنه كان هناك إنجيل واحد هو "إنجيل المسيح"^(٢)، ونقل منه كل النسخ التي لدى التلاميذ والرسول، فكان مع كل منهم إنجيله. ولما انضم بولس إلى التلاميذ جعل هناك إنجيلاً آخر سماه "إنجيل الغرلة" (عدم الختان) وسمى الذي مع التلاميذ إنجيل الختان.

(١) عالم فلكي أمريكي كان يعمل في "هيئة الفضاء الأمريكية". وحسب قوله فإن التاريخ هو عشقه الأول.
 (٢) يرى أغلب علماء الكتاب المقدس أنه كانت هناك وثيقة نقل عنها مرقس ومتى أسموها Q (الوثيقة كيو material Q من الكلمة الألمانية "كويلا" التي تعني شيئاً غير معروف. ويحتمل أن تكون تقاليد شفوية) وهي ضائعة الآن. انظر مثلاً: الإنجيل بحسب القديس مرقس. الأب متى المسكين، ص ٣.

- وما مصدر هذه المعلومة؟

- ما قاله بولس نفسه في (غلاطية ٢: ٦-٨): "أما الذين كانوا يعتبرون من كبار المؤمنين، ولا فرق عندي ما كانت عليه مكانتهم لأن الله لا يحابي أحداً، فما أضافوا شيئاً، بل بالعكس، إذ رأوا أنني أوْتُمِنْتُ عَلَىٰ إِنجِيلِ الْغُرَّةِ كَمَا بَطْرُسُ عَلَىٰ إِنجِيلِ الْخِتَانِ. فَإِنَّ الَّذِي عَمِلَ فِي بَطْرُسٍ لِرِسَالَةِ الْخِتَانِ عَمِلَ فِيَّ أَيْضاً لِلْأُمَّمِ". والفرق بينهما أن إنجيل الختان هو نسخة أصح من إنجيل السيد المسيح الذي يأمر فيه باتباع الناموس واتباع الختان، وليس فيه شرب للخمر على أنه دمه، ولا أكل لحم نجس. أما إنجيل بولس فقد ألقى الناموس والختان وسمح بالخمر وأكل الخنزير، وجعل المسيح أقنوماً ثانياً للرب، وكل ذلك من أجل تقريبه إلى الرومان وتناغمه مع طقوسهم وعقائدهم الوثنية، مفرغاً تعاليمه من كل ما لا يطيقونه. ولكن لما جاء العصر الحالي بعلموه وحرите في النقد، ابتداءً ظهور كل تلك الحقائق التي جاهد أتباعه طويلاً في إخفائها، معتبرين أنها تشكك في العقيدة المسيحية نفسها، وهذا ما عنيته في قولي بأنك محق في هذه النقطة بالذات، عندما تحدثت عن التحريف.

- لقد فهمت ما كنت ترمي إليه، وأنا متفق معك في هذا، ولكن ربط ذلك بإفساد يهودي مقصود للمسيحية في بداياتها يبقى كلاماً خطيراً، وقد يجلب لك المتاعب، ولا سيما إذا كنت تنوي ذكره في كتابك.

- سأذكره طبعاً، خاصة أن هناك ما يؤيده من تقليدات الكنيسة. فحين تغيب كل من بطرس وبولس عن أنطاكية^(١) لدواعي التبشير أقاما عليها أسقفين هما "أفوديوس" أسقفاً على مسيحيي الغرلة^(٢)، و"أغناطيوس" أسقفاً على نصارى الختان^(٣)، وذلك قبل أن يتحد

(١) وهي أول كنيسة أقيمت خارج فلسطين، كما أن أسقفية أورشليم نفسها ما لبثت أن اندثرت، ولاحقاً أصبحت الكنيسة فيها تتبع لأسقفية أنطاكية مباشرة. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٢) أي الأم من أصل وثني التي قبلت المسيح دون الالتزام الكامل بالناموس.

(٣) أي اليهود ومعهم الأم الذين آمنوا بالمسيح والتزموا بكامل الناموس.

الطرفان تحت رئاسة أغناطيوس النوراني بعد عام ٦٨م، الذي سمي تلك الكنيسة الجديدة المتحدة بالكنيسة "الجامعة" (أي الكاثوليكية)^(١)، وكان أول من استعمل ذلك الاصطلاح.

- لم أكن أعرف هذا .

- ولا أنا، حتى بدأت بدراسة الموضوع من جوانبه كافة. وتلك الدراسة هي التي دفعتني لتأكيد فرضية وجود اتجاهين متضادين في بدايات دين المسيح، أحدهما يمثل تلامذته الحريصين على تعاليمه في إتمام الناموس، والآخر يمثل بولس الحريص على إخراج أتباع المسيح من الناموس وتغيير تعاليم المسيح وفق رؤيته المضلة.

- ربما كنت محقاً فعلاً، فهناك الكثير من القرائن التي تدعم رأيك^(٢)، ولكن، ماذا

لو لم يكن الأمر كذلك حقاً!!!

- كيف، وبولس هو المسؤول الأول عن بدعتي "إلغاء الختان" و"تأليه المسيح" اللتين

(١) كاثوليكية أو جامعة بمعنى أنها جمعت كلنا الفئتين معاً. أي توحدت الفئتان على حل وسط .

(٢) يقول الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن في تفسير سورة النساء ١٧٠: " وقد قيل : إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعدما رفع عيسى ؛ يصلون إلى القبلة، ويصومون شهر رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى فقال: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا وجحدنا وإلى النار مصيرنا، ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار؛ وإني أحتال فيهم فأضلهم فيدخلون النار؛ وكان له فرس يقال لها العقاب، فأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب وقال للنصارى: أنا بولس عدوكم قد نوديت من السماء أن ليست لك توبة إلا أن تنتصر، فأدخلوه في الكنيسة بيتاً فأقام فيه سنة لا يخرج ليلاً ولا نهاراً حتى تعلم الإنجيل؛ فخرج وقال: نوديت من السماء أن الله قد قبل توبتك. فصدقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نسطوراً وأعلمه أن عيسى بن مريم إله، ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت وقال: لم يكن عيسى بإنس فتأنس ولا بجسم فتجسم ولكنه ابن الله. وعلم رجلاً يقال له يعقوب ذلك؛ ثم دعا رجلاً يقال له الملك فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى؛ فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً وقال له: أنت خالستي، ولقد رأيت المسيح في النوم ورضي عني، وقال لكل واحد منهم: إني غداً أذبح نفسي وأتقرب بها، فادع الناس إلى نحلتي، ثم دخل المذبح فذبح نفسه؛ فلما كان يوم ثالث دعا كل واحد منهم الناس إلى نحلته، فبيع كل واحد منهم طائفة، فاقتلوا واختلوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث؛ فهذا كان سبب شركهم فيما يقال، والله أعلم ."

أخرجنا أتباع المسيحية من الناموس؟

- قد أكون متفقاً معك في صحة هذه الفرضية، ولكن الأمانة العلمية تحتم عليك عدم إهمال الفرضية المقابلة.

- أظن أنني فهمت قصدك؛ فأنت تعني فرضية تأثير الإمبراطور الروماني "طيباروس قيصر" (٣٧-١٤م) على بولس! على أية حال فأنا لم أستبعد تحالف القوى العظمى وقوى الظلام لإفساد دين المسيح عن طريق الإشراف في الألوهية.

- مهلاً. فأنا لم أكن أعني ذلك، بل إنني في الحقيقة لست على علم بأي تأثير لطيباروس على بولس. فماذا تقصد من وراء ذلك؟

- أقصد ما أورده المؤرخ "أوسابيوس" القيصري^(١)، عن طيباروس حيث بلغته أخبار المسيح، فأراد إضافته إلى الآلهة، ولكن وحسب المتبع، كان لا بد أن يحال الأمر إلى "مجلس الشيوخ" للمصادقة عليه أولاً، إذ لا يجوز للإمبراطور أن يضيف إلهاً إلا بواسطتهم. لكن المجلس رفض ذلك، وبقي طيباروس متمسكاً برأيه. وربما كان بولس أحد أهم الأدوات التي اتخذها الإمبراطور لاحقاً لنشر فكرته الجديدة عن المسيح كإله.

- هذا أمر مثير فعلاً، وهل له ما يؤيده خارج تأريخ أوسابيوس؟

- أجل بالطبع؛ ومنه ما جاء على لسان المؤرخ "ترتليانوس"^(٢): "وطيباروس نفسه لو أمكن أن يكون قيصراً ومسيحياً معاً لكان آمن به".

- غريب!

- بالمناسبة، فإن لهذا ما يؤكده في إنجيل برنابا نفسه.

(١) ولد في فلسطين عام ٢٦٥م تقريباً، ويلقب بـ "أبي التاريخ الكنسي"، وسوف يتكرر ذكره كثيراً في الجولة الثالثة.

(٢) وهو أيضاً مؤرخ كنسي كبير، وسيتكرر ذكره مراراً كذلك.

- لقد قرأت إنجيل برنابا، ولكنني لا أذكر ذلك!!!

- حسناً، سوف أنعش ذاكرتك قليلاً. فقد جاء في إنجيل برنابا أنه قد حدث في ذلك الزمن اضطراب عظيم في اليهودية كلها لأجل يسوع، لأن الجنود الرومانية أثارت بعمل الشيطان العبرانيين قائلين إن يسوع هو الله قد جاء ليفتقدهم. فحدثت فتنة بين الناس وقال فريق أنه هو الله، وقال فريق أنه ابن الله، وقال الآخرون أنه نبي الله. وقد نشأ هذا عن الآيات العظيمة التي فعلها يسوع، فترتب على رئيس الكهنة تسكيناً للشعب أن يركب في مركب لابساً ثيابه الكهنوتية واسم الله القدوس ذو الأحرف الأربعة على جبهته، وركب كذلك الحاكم "بيلاطس" و"هيرودس"، وكلموا الناس فلم يسكنوا، إلى أن قال الحاكم ورئيس الكهنة: أيها الإخوة إن هذه الفتنة إنما قد أثارها عمل الشيطان لأن يسوع حي، وإليه يجب أن نذهب ونسأله أن يقدم شهادة عن نفسه (تلخيص الفصل ٩١). وفي هذا الوقت كان يسوع مع تلاميذه في جبل سينا معتكفاً لمدة أربعين يوماً. وفي طريق عودته إلى أورشليم لمح أحدهم عند نهر الأردن، فعاد إلى المدينة قائلاً: "إن إلهنا آت يا أورشليم تهيني لقبوله". فخرج من المدينة كل أهلها الصغير والكبير ليروا يسوع، حتى أصبحت المدينة خالية، لأن النساء حملن أطفالهن على أذرعهن، لدرجة أن نسين أن يأخذن معهن زاداً للأكل^(١)، فلما علم بهذا الحاكم ورئيس الكهنة خرجا راكبين وأرسلا رسولاً إلى هيرودس، فخرج هو أيضاً راكباً ليرى يسوع تسكيناً لفتنة الشعب، فنشدوه يومين في البرية على مقربة من الأردن، وفي اليوم الثالث وجدوه وقت الظهيرة إذ كان يتطهر (يتوضأ) هو وتلاميذه للصلاة حسب كتاب موسى، فذهل يسوع لما رأى الجرم الغفير الذي غطى الأرض بالقوم، فلما عرفوه

(١) موعظة الجبل التي أطعم المسيح بها الجموع (خمسـة آلاف) من خمسة أرغفة وسمكتين ببركة الله تعالى . وقد جاء في إنجيل (يوحنا ٦ : ١٤ - ١٥) : " فلما رأى الناس هذه الآية التي صنعها يسوع قالوا : بالحقيقة هذا هو النبي الآتي إلى العالم " وعرف يسوع أنهم يستعدون لاختطافه وجعله ملكاً، فابتعد عنهم ورجع وحده إلى الجبل " .

أخذوا يصرخون: "مرحباً بك يا إلهنا"، وأخذوا يسجدون له كما يسجدون لله (تلخيص الفصل ٩٢)، حينئذ وبخهم يسوع على ذلك بقوة، ثم وصل الوالي مع هيرودس ورئيس الكهنة وقال الكاهن: إن اليهودية اضطربت لآياتك وتعليمك حتى إنهم يجاهرون بأنك أنت الله، فاضطربت بسبب الشعب إلى أن آتي إلى هنا مع الوالي الروماني والملك هيرودس، فترجوك من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك (تلخيص الفصل ٩٣)، فكرر يسوع نفي ألوهيته أمامهم، فقال الوالي وهيرودس: يا سيد إنه لمن المحال أن يفعل بشر ما أنت تفعله، فلذلك لا نفقه ما تقول. فضرب له يسوع الأمثلة على معجزات موسى ويوشع بن نون وإيليا التي لم يفعلها هو نفسه وأنهم الآن موتى ولا ينكر أحد بشريتهم، وكذلك كثيرون آخرون من الأنبياء والأطهار وأخلاء الله فعلوا بقوة الله أشياء لا تبلغ كنهها عقول الذين لا يعرفون إلهنا القدير الرحيم المبارك إلى الأبد (تلخيص الفصل ٩٤)، ولما قال هذا انصرف الجمهور مع الكاهن والوالي مع هيرودس وهم يحتاجون في يسوع وتعليمه، لذلك رغب الكاهن إلى الوالي أن يكتب بالأمر كله إلى روما إلى مجلس الشيوخ، ففعل الوالي كذلك، لذا أصدر مجلس الشيوخ أمراً أنه ينهى ويتوعد بالموت كل أحد يدعو يسوع الناصري نبي اليهود إلهاً أو ابن الله، وعلق هذا الأمر في الهيكل منقوشاً على النحاس (من الفصل ٩٨)، ثم بعد ذلك شفى يسوع أعمى منذ الولادة ورد له بصره (من الفصل السابع والخمسين بعد المئة) وبعد مناقشة حادة بين يسوع وبينهم أخذ كل من الكتبة والفريسيين مع شيوخ الشعب حجارة ليرجموا يسوع، فاختموا عن أعينهم وخرج من الهيكل. ثم إنهم بسبب شدة رغبتهم في قتل يسوع أعماهم الحنق والبغضاء فضرب بعضهم بعضاً حتى مات ألف رجل ودنسوا الهيكل المقدس، أما التلاميذ والمؤمنون الذين رأوا يسوع خارجاً من الهيكل (لأنه لم يكن محتجياً عنهم) فتبعوه إلى بيت سمعان (من الفصل الثامن بعد المتين)، فتحول بذلك اضطهاد الكهنة السري إلى اضطهاد علني، واعتبروه شيطاناً، حتى إن

رئيس الكهنة ذهب بنفسه إلى هيرودس وإلى الوالي الروماني متهماً يسوع بأنه رغب في أن يجعل نفسه ملكاً على إسرائيل، وكان عندهم على هذا شهود زور، فالتأم من ثم مجلس عام ضد يسوع لأن أمر الرومانيين أخافهم، ذلك أن مجلس الشيوخ الروماني أرسل أمرين بشأن يسوع، يتوعد في أحدهما بالموت من يدعو يسوع الناصري الله، ويتوعد في الآخر بالموت من يشاغب في شأن يسوع الناصري نبي اليهود، فلهذا السبب وقع الشقاق فيما بينهم، فرغب بعضهم في أن يعودوا فيكتبوا إلى روما يشكون يسوع، ثم كلم هيرودس الوالي قائلاً: كيفما كانت الحال فإن بين أيدينا معضلة، لأننا إذا قتلنا هذا الخاطئ خالفنا أمر قيصر، وإن تركناه حياً وجعل نفسه ملكاً فكيف يكون المآل؟ (من الفصل العاشر بعد المئتين).

- هل تعلم أنني قرأت إنجيل برنابا عدة مرات، ولم أنتبه لما انتهت له أنت!! وقرأت كتاباً لأحد القساوسة^(١) يذكر هذا الموضوع بالذات كدليل يؤكد كذب إنجيل برنابا، حيث قال: "حاول هذا الكاتب المزيّف والمزورّ تصوير الجنود الرومان على أنّهم مصدر عقيدة لاهوت المسيح ليُوحى لمن يقرأ كتابه المزيّف أنّها عقيدة وثنيّة تابعة من وثنيّين، وزعم أنّهم كانوا يتدخّلون في الشؤون الدينيّة لليهود، وبالغ في ذلك حتى أدخل مجلس الشيوخ الرومانيّ في هذا الأمر!!" ولم أكن أعرف حينها أن أوسابيوس القيصري وترتليانوس أشهر مؤرخين كنسيين لتلك الفترة قد قالوا ما يدعم إنجيل برنابا، بل يفسر هذه النقطة فيه!

- ربما لم يكن ذلك القس على اطلاع بذلك.

- هذا غير ممكن بتاتاً؛ فتقافته واسعة كما يبدو من كتاباته. ثم إنه، وهو الأهم، استشهد بكلا المؤرخين مراراً وتكراراً في معرض تكذيبه لإنجيل برنابا! واستشهد

(١) كتاب "إنجيل برنابا هل هو إنجيلٌ صحيحٌ؟" للقسّ "عبد المسيح بسيط أبو الخير"، كاهن كنيسة العذراء الأثريّة بمسطرد.

أيضاً بتقرير بيلاطس الذي ذكره ترتليانوس عن حادثة الصلب! ومن غير المعقول ألا يكون مطلعاً على مجمل ما استشهد به، ولكنه مع كل ذلك أكد أن المسيحية لم تكن تعني الروم، ولم ينظر إليها أكثر من بدعة يهودية! وأن ذلك حدث ابتداءً في أواخر القرن الأوّل، أي بعد صعود المسيح بأكثر من نصف قرن!!! كما أنه أكد أن الروم لم يجادلوا المسيح قط في الأمور الدينية، وساق الأدلة على ذلك من أعمال الرسل!!! وتجاهل ما قاله المؤرخان اللذان استشهد بكتابتهما عن هذه النقطة بالذات!!!

- لا أعرف لماذا تستغرب ذلك، فالواقع يؤكد أنهم غالباً ما أخفوا -متعمدين- كل ما يظنون أنه قد يشوش على إيمان رعيّتهم، كأن الناس لا يزالون في العصور المظلمة، وليس عندهم مصادر أخرى للمعرفة.

- ولكن إذا كان الرومان قد تدخلوا في المسيحية في عصورها الأولى، فلماذا تأخر اعترافهم بها ثلاثة قرون؟ ولماذا اضطهدوها خلال تلك الفترة؟

- كان ذلك قبل تولي الإمبراطور الشهير "نيرون" الحكم مباشرة، فقد كان نيرون، كما يقول أوسابيوس: "أول إمبراطور أعلن العداء للديانة الإلهية". ولا تنس أن الإمبراطور "فيليب العربي" الذي تولّى عرش الإمبراطورية عام ٢٤٤م كان مسيحياً منذ الصغر.

- أجل، لقد سمعت بذلك فعلاً.

- والآن قل لي، فإن لم يكن دور الرومان، لا اليهود، في تأليه المسيح هو ما قصدته قبل قليل بالفرضية المقابلة، فماذا قصدت إذن؟!!!

- قصدت الفرضية التي تبرئ بولس من تهمة تأليه المسيح عليه السلام، وتجعل ذلك كإضافات متأخرة على رسائله.

- يبدو أنك متعاطف مع بولس.

- أنا؟! كلا بالطبع، فأنا أميل إلى رأي أغلب المفكرين المحايدين الذين أثبتوا أن رسائله هي عماد التحريف الرئيسي لدين المسيح الحق، وأن المسيحية مبنية عليها أكثر مما هي مبنية على تعاليم المسيح نفسه، وأنها قد رفضت الكثير من أناجيل حواريي المسيح وتلاميذه ورسائلهم، فقط لأنها تتعارض مع مذهب بولس.

- إذن لماذا تجتهد في البحث عن ذرائع لتتفي عنه كل ذلك؟! خاصة أنه قد تكررت قصة بولس بجذافيرها في دينك نفسه، ومع رجل يهودي أيضاً يدعى "عبد الله بن سبأ"^(١)! والذي هو أيضاً لم ير نبيكم قط، ودخل الإسلام نفاقاً ومواراة بعد وفاته، وأثار الفتن ضد خليفتم آنذاك^(٢)، وانتقد تلامذة نبيكم^(٣)، وابتدع تعاليم مغايرة تماماً

(١) يقول الإمام ابن حزم الظاهري: "إن أحبارهم (اليهود) الذين أخذوا عنهم دينهم والتوراة وكتب الأنبياء عليهم السلام، اتفقوا على أن رشوا بولس البنياميني - لعنه الله - وأمروه بإظهار دين عيسى عليه السلام، وأن يضل أتباعهم، ويدخلهم إلى القول باللاهية، وقالوا له: نحن نتحمل إثمك في هذا، ففعل، وبلغ من ذلك حيث قد ظهر. واعلموا يقيناً أن هذا عمل لا يستسهله ذو دين أصلاً، ولا يخلو أتباع المسح عليه السلام عند أولئك الأحبار - لعنهم الله - من أن يكونوا على حق أو على باطل، لا بد من أحدهما: فإن كانوا عندهم على حق، فكيف استحلوا ضلال قوم محققين، وإخراجهم عن الهدى والدين إلى الضلال المبين؟ هذا والله لا يفعله مؤمن بالله تعالى أصلاً. وإن كانوا عندهم على ضلال وكفر فحسبهم ذلك منهم، وإنما يسعى المؤمن ليهدي الكافر والضال، وأما أن يقوي بصيرته في الكفر، ويفتح له فيه أبواباً أشد وأفحش مما هو عليه، فهذا لا يفعله أيضاً من يؤمن بالله تعالى قطعاً، ولا يفعله إلا ملحد يريد يسخر بمن سواه. فعن هؤلاء أخذوا دينهم وكتب أنبيائهم بإقرارهم. فاعجبوا لهذا، وهذا أمر لا نبعده عنهم؛ لأنهم قد راموا ذلك فينا وفي ديننا، فبعد عليهم بلوغ أربهم من ذلك، وذلك بإسلام عبد الله بن سبأ، المعروف بابن السوء اليهودي الحميري - لعنه الله - ليضل من أمكنه من المسلمين".

(٢) يقصد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٣) يقصد الصحابة. وكذلك فعل بولس، ففي رسالته إلى غلاطية ٢: ٢ يتحدث عن مواجهة وصادم مع الحواريين في أثناء انعقاد مجمع القدس. ونقرأ تعابير غريبة مثل: "إخوة كذبة"، "جواسيس"، "يحاولون جعل بولس وحاشيته "عبداً"!!! كما انتقد بشدة رئيس الحواريين (بطرس) الذي قاومه وجهاً لوجه لأنه يستحق اللوم"، وكتب أنه جحد لأنه كان "خائفاً"!!! ووصف من جاء به (برنابا) أنه "انقاد ببلاهة إلى ربايتهم"، أي رباة بطرس ومن معه ممن "لا يسرون سيرة مستقيمة مع حقيقة البشارة" (الحديث هنا عن حواريي المسيح)، لذا وبخ بطرس علناً كما ادعى في رسالته إلى غلاطية ٢: ١١-١٤.

لتعاليمهم وتعاليم نبيهم^(١) كان أخطرها المغالاة بآبن عم النبي^(٢) وأهل بيته، بل أشركه بالألوهية! فظهرت بسببه عقيدة فاسدة (السبئية)، كانت السبب الخفي وراء الكثير من الانشقاقات، وولدت الكثير من الفتن التي لا يزال صداها مدياً عندكم حتى الآن. وهذا يدل على الدور الخبيث الذي يقوم به اليهود لتشويه العقائد على مر التاريخ.

- ربما كنت محقاً في هذا. كما أن ذلك قد تكرر أيضاً مع نبيك موسى عليه السلام بشخص "السامري" الذي كان وراء فتنة العجل وأضل قوم موسى، حينما ذهب لملاقاء ربه، وأن بني إسرائيل من يومها أشربوا العجل في قلوبهم. وأعترف أن تداعيات تلك الفتن الثلاث مستمرة إلى الآن فعلاً، وربما تكون من أهم ما قصد الرسول ﷺ في حديثه حين قال: "ما من فتنة حدثت منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة إلا وتسب في فتنة الدجال".

- ما دمت تعتقد ذلك، فلم تحاول إذن نفي مسؤولية بولس عن الفتنة التي

أحدثها!!!

- الأمر مع بولس ليس بهذه البساطة، بل هو أعقد من ذلك بكثير؛ فأنتم قد أنكرتم وجود السامري ونسبتم ضلاله إلى هارون عليه السلام (الخروج ٣٢: ٦-١)، الذي صار من نسله كهنتكم! وكذلك أنكرت طوائفا المنشقة وجود عبد الله بن سبأ

(١) يقصد سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام وسنة الصحابة الذين تبعوه بإحسان، عليهم رضوان الله أجمعين.

(٢) يقصد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه. ويقول صاحب الطحاوية: "أصل الرفض إنما أحدثه منافق زنديق، قصده إبطال دين الإسلام، والقدح في الرسول *، كما ذكر ذلك العلماء. فإن عبد الله بن سبأ لما أظهر الإسلام، أراد أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبئه، كما فعل بولس بدين النصرانية، فأظهر التنسك، ثم أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى سعى في فتنة عثمان وقتله، ثم لما قدم علي الكوفة أظهر الغلة في علي والنصر له، ليتمكن بذلك من أغراضه، وبلغ ذلك علماً، فطلب قتله، فهرب منه إلى قرقيسيا". (المنحة الإلهية ص/ ٣٨٠).

لاحقاً^(١)، ونسبوا ضلاله إلى بعض أهل بيت الرسول عليهم السلام، ممن يعتبرون أئمة! أما بولس فلم ينكر وجوده أحداً وإنما وضع اسمه على ضلالات غيره، فاختلطت مع تعاليمه الأخرى ذات الأثر البالغ على المسيحيين كافة، ومن ثم يجب تسليط الضوء على تلك الضلالات بالذات، وعدم أخذ باقي تعاليم بولس وشخصه بجريرتها.

- لم أعد أفهمك. فهل يعني هذا أنك تدافع عن بولس!!!

- أنا لا أدافع عن بولس، ولكنني أدافع عن الاعتدال والقسط، محاولاً أن أظهر الصورة أمامك كاملة. خاصة بعد أن لمست تحيزك لفرضية معينة، وخشيت أن يحملك ذلك على قبول كل ما يوافقها من الأدلة من أول وهلة، مهملاً غيرها من الفرضيات التي قد لا توافق هواك، فتميل بذلك عن الحياد العلمي.

(١) يقول الأستاذ الدكتور "سليمان بن حمد العودة": " يبدو أن أول من شكك في وجود ابن سبأ بعض المستشرقين، ثم دعمهم الأغلبية من الشيعة المحدثين، وأنكر بعضهم وجوده، وبرز من هذه المجموعة من أولع بأراء المستشرقين، ومن تأثر بكتابات الشيعة المحدثين، ولكن هؤلاء وأولئك ليس لهم من دعائم الشك إلا الشك ذاته. وقد سبق البيان... (يمكن مراجعة البحث وأدلته على الرابط:

<http://www.al-ommah.net/vb/showthread.php?threadid=1219>.

ومن أئمة الشيعة المتأخرين الذين ذكروا عبد الله بن سبأ، أبو عمرو بن عمر بن عبد العزيز الكشي كبير علماء التراجم المتقدمين (القرن الرابع) وصاحب " معرفة الناقلين عن الأئمة الصادقين " المعروف بـ "رجال الكشي" (ص ١٠١، ط مؤسسة الأعلمي بکربلاء، العراق) والمماقاني إمام الجرح والتعديل، في كتابه " تنقيح المقال " (ص ١٨٤، ج ٢، ط طهران)، والنوبختي في كتابه " فرق الشيعة " (ص ٤٣ و ٤٤ ط المطبعة الحيدرية بالنجف، العراق، سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م). وفي اللغة الفارسية: تاريخ شعبي " روضة الصفا " (ص ٢٩٢، ج ٢، ط إيران).

◀ وجهة نظر أخرى

رغم استنكار أبراهام لاحتمال براءة بولس، إلا أنه لم ير ضيراً في مناقشة تلك الفرضية، فقال بلامبالاة:

- حسناً. هات ما عندك.

- من الثابت تماماً أن الأيدي البشرية قد تدخلت في صياغة الكتاب المقدس بطرائق متعددة، وكما تعرف فإن أعداد اللاهوتيين الذين اضطروا إلى الاعتراف بذلك متزايدة باستمرار مع تكشف الحقائق^(١).

فقاطعه أبراهام قائلاً:

- أوافقك تماماً، وأعترف بأن الأيدي البشرية قد عبثت فعلاً بالتوراة والإنجيل، ولكن هذا لا ينطبق على رسائل بولس بالذات؛ لأنها دونت في الأصل بأسلوب بشري لا وحي فيه، وملئت بالأخطاء المتعمدة لغاية في نفس كاتبها، بل إن كثيراً من الزيادات والمفاهيم المغلوطة الموجودة في الأناجيل حالياً، كانت بتأثير مباشر من تلك الرسائل المضلة ذاتها.

- ربما. ولكن ربما ينطبق ذلك على رسائله أيضاً؛ فعند التأمل في تلك الرسائل تجد تناقضات عديدة بين رسالة وأخرى، وبين الفقرات المختلفة لبعض الرسائل ذاتها،

(١) يقول الدكتور "غراهام سكروجي" W. Graham Scroggie وهو أحد أبرز المنصرين في العالم من معهد Moody Bible Institute في كتابه "هل الكتاب المقدس كلام الله؟": "نعم إن الكتاب المقدس من وضع البشر، بالرغم من إنكار البعض لهذا القول من قبيل الحماسة وليس عن علم، فقد خطت أفلام البشر هذه الأسفار بعباراتهم، بعد أن خطرت على عقولهم، فصدرت بأسلوب البشر وتحمل صفاتهم".

إذ ثمة نصوص تصرح ببشرية المسيح^(١)، وأخرى يفهم منها تأليهه^(٢).

- لقد لاحظت ذلك التناقض^(٣)، وأظنه يرجع إلى تلون بولس حسب حالة مدعويه،

(١) لخص الدكتور وديع أحمد كلام بولس عن الله ثم عن المسيح في أعمال الرسل كالآتي: "١. أن الله: أقام المسيح مخلصاً لبني إسرائيل (أعمال ١٣: ٢٣)، أي ليس مخلصاً للعالم كله كما يدعي النصارى. ثم عاد (بولس) وقال عن نفسه أن الله أقامه هو شخصياً مخلصاً لليهود (أعمال ١٣: ٤٧). ٢. أن الله عين الإنسان يسوع لكي يقدم الإيمان بالله للناس (أي يدعوهم لعبادة الله)، ويشرح لهم كل شيء عن الإيمان (أعمال ١٧: ٣). ٣. أن الله سوف يدين الناس بالعدل بالإنسان يسوع المسيح؟؟ ولعله كان يقصد أن الله سوف يجازي الذين عاصروا دعوة المسيح على أساس الإيمان بأنه عبد الله وليس أكثر من ذلك، أو أن المحرفين حشروا كلاماً متضارباً أو أنه كان يهذي (أعمال ١٧: ٣١). ٤. المسيح هو أول من يقوم من الأموات (يعني في يوم القيامة) (أعمال ٢٦)؛ أي أنه خاضع لسلطان الله في كل المخلوقات".

(٢) يقول الدكتور "وديع أحمد" في بداية مقالته في مدونة نور الإسلام بعنوان (كيف اخترع بولس المسيحية وهدم النصرانية): "بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي هداني إلى الإسلام بعد أن عشت حوالي أربعين عاماً في شرك دين المسيحية. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وأشهد أن المسيح عيسى بن مريم (المدعو/ يسوع) هو عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل. ومن أعجب ما في كتاب النصارى رسائل بولس؛ التي تتخذها كل طائفة من المسيحيين ذريعة لكي تنفصل عن الطوائف الأخرى وتكفرها وتحاربها، لأن هذه الرسائل فيها كلام متضارب ومتناقض. - وأقول للمسيحيين أن هذه الرسائل هي سبب ضلالهم وانحرافهم عن الدين الأصلي إلى (المسيحية) التي اخترعها لهم بولس، وذلك باعتراف كتابهم (المقدس) عندهم".

(٣) في "بولس ورسائله" يوم الخميس الفصل التاسع والعشرون: الرسائل البولسية الثانية Michel Quesnel. Le Deutéropaulinisme يشرح المؤلف كيف أن "حقوق الملكية الأدبية" لم تكن موجودة في عصور العهد القديم والعهد الجديد، وأن تلاميذ "الخطباء والفلاسفة العظام"، اعتادوا أن ينشروا باسم معلمهم مؤلفات حسبها التعبير الأمين لهؤلاء المعلمين. ويضرب الأمثلة المتعددة على أسفار "مقدسة" كتبت بأيدي "كتاب مجهولين استعاروا أسماء معلمهم" (مع أن المؤلف يعترف أن بعض تلك الأسفار جاءت بعد مئات السنين من وفاة أولئك المعلمين!!!) وهو لا يرى أي غضاضة في ذلك ويصرح قائلاً: "فتلميذ يكتب ويختبئ وراء اسم معلمه، ليس كاتباً مزيقاً!!!) إلا إذا توخى من كتابته أن يمنح لتعاليمه الشخصية سلطة لا يحق له بها. بل إن من مدّ فكر المعلم، دلّ على تكريمه وعلى خصب فكره حتى بعد موته"!!!) وبعد أن يشرح إمكانية أن الرسالة الثانية لتيموثاوس "كانت في الأصل بطاقة وجهها بولس إلى معاونه الأمين، كانت بقدر فلم أو أطول منها بقليل" ويشرح الأسباب التي قادت مجهولين إلى إضافة "ملحقات" إليها وإلى الرسالة إلى تيطس. يتساءل أخيراً: "هل كانت لتيطس وتيموثاوس علاقة شخصية بهذا الأمر؟ جوابنا هو كلا، بلا شك. فالرسائل التي وُجّهت إليهما =

ومن ثم مجاراته لهم كما قال بنفسه: "صرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وصرت لأهل الشريعة من أهل الشريعة، وإن كنت لا أخضع للشريعة، لأربح أهل الشريعة، وصرت للذين بلا شريعة كالذي بلا شريعة لأربح الذين هم بلا شريعة، مع أن لي شريعة من الله بخضوعي لشريعة المسيح،... وصرت للناس كلهم كل شيء" (اكورنثوس ٩: ٢٠-٢٢). أو ربما يرجع ذلك إلى مراحل تطور معتقده في طبيعة المسيح.

- مرة أخرى ربما. ولكن ربما أيضاً يرجع التناقض إلى الإضافات التي ألحقت برسائله^(١)، وإلى الرسائل الكاملة التي نسبت إليه زوراً. فقد جاء في الموسوعة

=تعكس، على ما يبدو، وضِعاً يعود إلى السنوات ٨٠-٩٠. فمن المعقول أن يكونا غادرا هذه الدنيا. ولكن قريهما من رسول الأمم، أتاح لاسمهما أن ينتقل إلى السلف فتميّز عن اسم مسيحين آخرين عاشوا في القرن الأول، لأنهما تسلماً في "خدعة أدبية" رسائل لم نعرف اسم كاتبها، ولكنها استندت إلى سلطة بولس (!!!).

نقله إلى العربية الخوري "بولس الفغالي" وتستطيعون مراجعة النص كاملاً على

<http://www.paulfeghali.org/index.php...&chapter - id=88>.

(١) جاء في المصدر السابق تحت عنوان "الحواشي" ما نصه: "الحواشي: شكل آخر من الرسائل البولسية الثانية" إذن، أعيدت قراءة القديس بولس، وأعيد تفسيره. فأنتجت هذه الظاهرة خمس أو ست رسائل بولسية ثانية أدخلتها الكنيسة في قانونها، معتبرة (وهذا أمر نعود إليه) أنها تستحق الإكرام الذي تنعم بها رسائل صدرت مباشرة من يد الرسول. غير أننا لا نستطيع أن ننهي هذه النظرة الإجمالية دون أن نشير إلى شكل آخر من الرسائل البولسية الثانية: هو نصّ محدّد وقصير، لهذا نعتبره غير موقّف. نحن هنا أمام حواشٍ أدرجها الكتبة في النصوص ليجعلوها تتجاوب تجاوباً أفضل مع وضع الكنائس التي تقرؤها، عندئذ نجد نصاً بولسياً صحّحه أناس ابتعدوا عنه كثيراً في الزمن "!!! ويعطي الكاتب مثالين على ذلك؛ أولهما ١ كور ١٤: ٣٣ ب-٣٥: عن أن صوت المرأة عورة ويقول: إن "هذا النصّ الذي يتعارض مع النسوية هو في أصل بغضاء عنيفة تشعر بها النساء تجاه بولس. لا شك في أن هذا النصّ يبدو جذرياً إلى حدّ يجعل الإنسان يرتعش غضباً ولكنه ليس من بولس. هذا ما لا شك فيه... وهناك أيضاً حاشية ذات نتائج أقل أهمية، "أقحمت" في ١ كور ١٥: ٥٦، في وسط توسّع حول الموت والقيامة: ((شوكة الموت هي الخطيئة، وقوة الخطيئة هي الشريعة)). لماذا ذكرت هنا الخطيئة والشريعة، دون أي رباط بالسياق؟ هذا ما يشبه بعض المواضيع التي توسّعت فيها روم. أدخلها في هذا المقطع كاتبٌ تعذّى بالتعليم البولسي فأراد أن يفاخر بمعرفته لفكر بولس. هل نحن أمام تأتقٍ ناسخ؟ هذا ما لا نعرفه. غير أن هذا النهج يدلّ على أن المسيحيين أحسّوا منذ زمن طويل بالحاجة إلى التوسّع في الفكر البولسي، لأنه متشعب ولأنه يدفع القارئ طوعاً إلى تفسيره" (!!!)

البريطانية^(١) أن: "رسائله لرومه والأولى والثانية لكورنثوس وإلى غلاطية هما في الواقع حقيقتان. وأغلب العلماء أيضاً يتقبلون الرسالة إلى فيليبي وتسالونيكى الأولى والرسالة إلى فيلمون. وتنقسم الآراء حول الرسالة إلى أفسس وتسالونيكى الثانية وكولسي. أما الرسالة الأولى والثانية إلى تيموثي وتيطس، فيعتقد الكثير من العلماء أنهم كتبوا بعد زمن بولس"^(٢)، ويمكن أن يرجع التناقض أيضاً إلى ما تعرضت له رسائل بولس من نفس التبدل والتغيير الذي تحدثنا عنه. خاصة أن النصوص التي نتحدث عن بشرية المسيح في رسائل بولس هي نصوص لا تحتل التأويل ولا يمكن أن تفهم بشكل مغاير نتيجة الترجمة، كذلك التي نتحدث عن ألوهيته.

- هات بعض الأمثلة.

- قوله: "يوجد إله واحد، ووسيط واحد بين الله والناس: الإنسان يسوع المسيح" (١ تيموثاوس ٢: ٥). وقوله: "أن تحفظ الوصية بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح، الذي سيبينه في أوقاته، المبارك، العزيز، الوحيد، ملك الملوك، ورب الأرباب، الذي وحده له عدم الموت.." (١ تيموثاوس ٦: ١٦-١٤). وكما تعلم فإن كلمة "رب" تترجم أيضاً بمعنى "سيد" في اللغات السامية^(٣)، ويعترف مترجمو الكتاب المقدس بأنه: "تم بانتظام ترجمة السيد إلى الله "منعاً لأي التباس" (!!!)، حيث إن السيد هو أحد ألقاب الله". وعليه يكون قد وصف عيسى عليه السلام بـ"سيدنا" كما يقول المسيحيون للآن

(١) تحت عنوان "بولس، الرسول، القديس Paul, the Apostle, Saint. article-١٦٠٩٢.

(٢) جاء في "بولس ورسائله" يوم الخميس الفصل التاسع والعشرون: الرسائل البولسية الثانية، ما نصه: "قبل أن تدرك (رسائل بولس) هذا الوضع القانوني (أي أن تصبح ضمن كلمة الله في العهد الجديد)، كانت أقدم "أدب مسيحي". لا نعرف عددها بالضبط، لأن عدداً منها قد ضاع، ولأننا لا نستطيع أن نميز بدقة، بين تلك التي حُفظت لنا، الرسائل الأصلية، والرسائل التي استعارت اسم بولس" !!!

(٣) وذلك حتى في العربية (رب الأسرة، ربة منزل) بل في لغة القرآن أيضاً. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

سيدنا البطريك فلان. ووصف الله تعالى بـ"المبارك، العزيز، الوحيد، ملك الملوك، ورب الأرباب". والأهم أنه "الذي وحده له عدم الموت"، بما لا يدع مجالاً للشك بربوبيته، ولا بوحدانيته. في حين يصرح بموت يسوع على الصليب مراراً وتكراراً. وفي إحداها يقول عنه: "الذي في أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت، وسمع له من أجل تقواه" (عبرانيين ٥: ٧).

- لقد سمعت عن هذا عندما تحدثت إلى شهود يهوه في الولايات المتحدة. فقد ترجموا الفقرة (٢: ١٣) في "رسالة إلى تيطس" حسب أقدم نسخة لاتينية، في "ترجمة العالم الحديث" على النحو التالي: "وفيما نتظر الرجاء السعيد وظهور مجد المخلص الآتي من بيننا، يسوع المسيح"، في حين وجدت أن البروتستانت قد ترجموها في "الكتاب المقدس الأمريكي النموذجي الجديد" كالآتي: "فيما نتظر تحقيق رجائنا السعيد، ثم الظهور العلني لمجد إلهنا ومخلصنا العظيم يسوع المسيح".

- مثال موفق، ومثله الكثير أيضاً.

- أنا مطلع على هذا الجانب، فهل هناك جوانب أخرى.

- أكثر مما تتصور، منها قوله عن المسيح عليه السلام أنه: "مدعو من الله رئيس كهنة على رتبة ملكي صادق" (عبرانيين ٥: ١٠)، أي رتبة بشرية لرجل سبقه. ويجري مقارنة بينه وبين الملائكة فيقول: "لكن الذي وضع قليلاً عن الملائكة: يسوع، نراه مكللاً بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت" (عبرانيين ٢: ٩). وهذا يظهر فضل عيسى عليه السلام، لكنه ينفي عنه الألوهية، أو حتى مساواة الملائكة. ويقارن بينه وبين موسى عليه السلام فيقول: "لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع حال كونه أميناً للذي أقامه كما كان موسى... موسى كان في كل بيته كخادم...، وأما المسيح فكابن على بيته، وبيته نحن إن تمسكنا بثقة الرجاء." (عبرانيين ٣: ٦-١)، مما يؤكد بشريته.

- ألم تلاحظ أنه وصف يسوع بابن الله!!!

- أبراهام، دع هذا لفيرك؛ فمعروف أن لفظ البنوة لله تعالى قد أطلق في الفكر اليهودي على الكثيرين، ولكن ظهر للكلمة مفهوم البنوة الحقيقية في ربوع الفكر اليوناني الوثني^(١) وهي غير كافية للحكم بأنه قصد باستخدامها تأليه المسيح، بل هي عادة اليهود في وصف الصالحين منهم^(٢)، إلا أن "تقوى المؤمنين" قد اتجهت لاحقاً،

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف .

(٢) جاء في مواضع عديدة من الأناجيل المعتمدة أن المسيح قد اعتبر كل بارّاً متّق لله، ابناً لله . وإن كان قد جاء في تلك الأناجيل أنه قد سمّى الله تعالى أباه، فقد اعتبره كذلك أبانا جميعاً في كثير من مواضع كلامه؛ ففي إنجيل متى (٦ : ٦) يقول عيسى عليه السلام مخاطباً أمته: "عندما تصلي ادخل غرفتك، وأغلق عليك بابك، وصل إلى أبيك الذي في الخفاء، وأبوك الذي يرى في الخفاء هو يكافئك" . وفي متى (٥ : ٤٤-٤٥) يقول: "صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، ويضطهدونكم لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات" . وفي متى (٦ : ٩-١٢) علم عيسى عليه السلام تلاميذه الصلاة التالية: "أبانا الذي في السماء ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء، خبزنا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا" . وذكرها في لوقا أيضاً (١١ : ٢-٤)، وفي إنجيل برنابا (الفصل السابع والثلاثون) ذكرت الصلاة السابقة وقال عيسى عليه السلام في آخرها: "لأنك أنت وحدك إلهنا الذي يجب له المجد والإكرام إلى الأبد" . وفي يوحنا (٢٠ : ١٧): "إني أضعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" . أي إن هذا ليس مختصاً بعيسى عليه السلام وحده، كما أن هذه البنوة ليست بنوة ولادة، ولكنها بنوة رعاية وعناية وقيام بالمصالح وهداية، فالخلق عيال الله كما جاء في الحديث عن أنس: قال رسول الله #: "الخلق عيال الله فأحبههم إلى الله أنفعهم لعياله" . ومع أن هذا الحديث ليس في الصحاح إلى أنه ذكر بكثرة في بقية كتب الحديث المعتمدة. فقد أخرجه الطبراني في "الكبير" (١٠ / ٨٦)، وفي "الأوسط" (٥٥٤١)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢ / ١٠٢) و(٤ / ٢٧٣)، والشاشي في "مسنده" (٤٣٥)، وابن عدي في "الكبير" (٦ / ٣٤١)، والخطيب في "تاريخه" (٦ / ٣٣٣)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٤٤٨)، وابن الجوزي في "العلل المتناهية" (٢ / ٢٨)، والحارث بن أبي أسامة في "مسنده" (٢ / ٨٥٧ - بغية الباحث)، والبيهقي في "مسنده" (١٩٤٩ - كشف)، وأبو يعلى في "مسنده" (٣٣١٥، ٣٣٧٠، ٣٤٧٨)، والطبراني في "مكارم الأخلاق" (٨٧)، وابن أبي الدنيا في "قضاء الخوائج" (٢٤)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٤٤٥، ٧٤٤٦)، وابن عدي في "الكامل" (٧ / ١٥٣)، والقضاعي في "مسند الشهاب" (١٣٠٦). ومع أن الحديث ضعيف إلا أن لفظه (عيال الله) بالذات لا إشكال فيها لورودها عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإسناد صحيح عند سعيد بن منصور في سننه: حدثنا سعيد قال: =

دونما إدراك للعواقب، إلى الغلو في الإيمان عن طريق التوحيد بين الابن والأب، كما الغلو بالخلط بين السيد والله، تعالى الله عن غلوهم ولغوهم بغير علم علواً كبيراً. ولا تتس أن عيسى عليه السلام قد شدد على كونه "ابن الإنسان" محارباً تلك البدعة اليهودية المسماة بـ"ابن الله" في مهدها^(١).

- ولكن بطرس هو أول من استخدم تعبير البنوة، عندما أجاب عن سؤال المسيح: "أنتم من تقولون إنني أنا؟ فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت هو المسيح ابن الله الحي. فأجاب يسوع: طوبى لك يا سمعان بن يونا... (متى ١٦: ١٦-١٥).

- إن دس هذه العبارة في إنجيل متى واضح بما لا يدع مجالاً للشك^(٢)، ومع أن فقدان أصله العبراني، لا يمكّننا للأسف من أن نؤكد الإضافة أو الخطأ في الترجمة،

=نا أبو عوانة، عن هلال بن أبي حميد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أهل المغرب، فقال: والله يا أمير المؤمنين لتحملني، فنظر عمر إلى أذنانهم إليه، فقال: "والله إن كان بك ما إن تبنتني حاجتك دون أن تقسم علي، وأنا أحلف بالله لا أحملك" فأظنه قد ردها ثلاثين، أو قريباً من ثلاثين مرة، فقال رجل يقال له عتيك بن بلال الأنصاري: أي شيء تريد؟ ألا ترى أمير المؤمنين قد حلف أيماناً لا أحصيها أن لا يحملك، والله إن تريد إلا الشر، فقال الرجل: والله إنه لمال الله، والله إنني لمن عيال الله، والله إنك لأمر المؤمنين، ولقد أدت بي راحتي، والله إنني لابن السبيل أقطع بي، والله لتحملني، فقال له عمر: "كيف قلت؟" فأعادها عليه، فقال عمر: "والله إن المال لمال الله، وإنك لمن عيال الله، وإنني لأمر المؤمنين، وإن كانت راحلتك أدت بك لا أتركك للتهلكة، والله لأحملك"، فأعادها حتى حلف ثلاثين يمينا، أو يمينين، ثم قال: "لا أحلف على يمين أبداً فأرى غيرها خيراً منها إلا اتبعت خير اليمينين".

(١) من الملاحظ أن النص القرآني أيضاً يطلق على عيسى عليه السلام: "ابن مريم" استبعاداً لتلك الهرطقة التي تقول أنه "ابن الله".

(٢) جاء في "بولس ورسائله" الفصل التاسع والعشرون تحت عنوان "خاتمة" ما نصه: "... إن الكنيسة لم تخلط يوماً بين المسائل المتعلقة باسم مستعار وتلك المتعلقة بقانونية نص من النصوص. وهذا أمر محمد عليه، فلو فعلت غير ذلك، لحرمتنا من إشعياء الثاني وإشعياء الثالث، ومن حكمة سليمان، وحرمتنا من إنجيلين على الأقل، من إنجيل متى وإنجيل يوحنا؛ هما يغرزان جذورهما في أرض بذرها الرسولان، ولكنهما ليسا من عمل الرسولين. فلنحمد الروح القدس الذي ألهم كتاباً لا نعرف أسماءهم فدوتوا ما فدوتوا من أجل خير الكنيسة والعالم!"

إلا أننا نستطيع تخمين الخلل بسهولة عندما نرجع إلى ما جاء في وصف الحادثة نفسها في الأناجيل الأخرى. فقد وردت نفسها في إنجيل مرقس مثلاً: "فأجاب بطرس، وقال له: أنت المسيح" (مرقس ٨: ٢٩)، ولم يذكر بنوة الله. وبذلك يكون متى قد خالف مرقس^(١)، مع أنه كان ينقل عنه كما أثبت حالياً. كما وردت الحادثة نفسها في إنجيل لوقا أيضاً: "فأجاب بطرس، وقال: مسيح الله" (لوقا ٩: ٢٠). ومرة أخرى لم تذكر البنوة المزعومة لله عز وجل.

- مقارنة تستحق التأمل والتحليل فعلاً.

- وبالمثل، فربما بالغ بولس في تأكيد خصوصية المسيح كبشر متميز بمحبة الله له واختياره ليكون مسيحاً للرب، ووسيلة في إبلاغ وحيه، ولكن نتيجة لتقوى المؤمنين المتأثرين بالبيئة الرومانية المليئة بالخرافات الوثنية، التي تؤمن بتعدد الآلهة وتجسدها وموتها، تم تحميل كلامه بأكثر من المعنى الذي قصده فعلاً.

- ولكن هل تظن حقاً أن أحداً قد يفكر بتأليه شخص ما، كائناً من كان، بهذه البساطة، دون أن يكون هناك سند قوي؟!

- في ذلك الزمن نعم. ففي رحلة بولس وبرنابا إلى "لستر"، صنعنا بعض الأعاجيب وكانت النتيجة كما جاء في "أعمال الرسل": "فالجوع لما رأوا ما فعل بولس رفعوا أصواتهم بلغة ليكاونية قائلين: إن الآلهة تشبهوا بالناس، ونزلوا إلينا، فكانوا يدعون برنابا: زفس، وبولس: هرمس" (أعمال ١٤: ١٢-١١)، و"زفس" و"هرمس"، كما أوضح محررو قاموس الكتاب المقدس هما اسمان لإلهين من آلهة الرومان: أولهما كبير

(١) يقول "بطرس قراماج" في كتابه "مروج الأخبار في تراجم الأبرار" عن مرقس: "كان ينكر ألوهية المسيح".

الآلهة^(١)، والثاني إله الفصاحة^(٢)، وهكذا اعتقد أولئك البسطاء الوثنيون أن بولس وبرنابا إلهان تجسدا بشكل بشر، لمجرد أن فعلا أمامهم بعض الأعاجيب! ويحكي سفر الأعمال أيضاً أن الكهنة أنفسهم قربوا إليهما الذبائح، وهموا بذبجها، لولا إنكار بولس وبرنابا ذلك عليهم!! (أعمال ١٤ : ١٨-١٣). فماذا قد يكون قول هؤلاء في الذي كان يحيي الموتى، وأشيع أنه قام من الموت، وأتى بالأعاجيب والمعجزات؟! كما أن فكرة تجسد الآلهة كانت شائعة عند الوثنيين، الذين حددوا مواسم وأعياداً معروفة لولادة الآلهة المتجسدة وموتها، وبعثتها.

- وربما استغل بولس ذلك، وأنزل بفصاحته الإله إلى الأرض ليراه الرومان، ويكون قريباً منهم.

- ربما! ولكن ألا تظن أن تصديقه من قبل التلاميذ والرسول، ومرافقته لبعضهم، كبرنابا مثلاً، ولفترة معتبرة من الزمن، يؤكد أن إيمانه كان صادقاً فعلاً؟!

- بل يؤكد أنه قد خدعهم، وأنهم قد كشفوه في النهاية، ولا تتس أنه قد ثبت زيف كل النصوص التي تظهر اعترافهم بالحكمة المعطاة لبولس ونقلهم عنه^(٣).

- يبدو أنك مازلت مصرراً على تحميل بولس مسؤولية كل ما جاء في الرسائل

المنسوبة إليه؟

(١) يقصدون برنابا، وهذا يدل على أن السيادة كانت لبرنابا على بولس وقت وجودهما معاً.

(٢) يقصدون بولس الذي يبدو أنه كان خطيباً بليغاً ومؤثراً.

(٣) جاء في "بولس ورسائله" يوم الخميس الفصل التاسع والعشرون: الرسائل البولسية الثانية ما نصه: "والمثل الثاني الذي هو معروف هو مقطع من ٢ بط يذكر الرسائل البولسية. ((واحبسوا أناة ربنا خلاصاً، كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضاً بحسب الحكمة المعطاة له. وهذا ما يقوله أيضاً في جميع الرسائل التي يتكلم فيها عن هذه الأمور. فيها أشياء عسيرة الفهم يحرفها الجهال وضعفاء النفوس، كما يفعلون في سائر الكتب المقدسة، لهلاك نفوسهم)) (٢ بط ٣ : ١٥-١٦). إذا كان الجدال لا يزال قائماً بالنسبة إلى ٢ تس، فبالنسبة إلى ٢ بط، لم يعد من جدال تقريباً: إن توافقاً واسعاً من الشراح يعتبر أن هذه الرسالة استعارت اسم بطرس، ويرى أنها تعود إلى سنة ١٣٠." .

- لا أزال أميل إلى هذا فعلاً، لأن بولس، وإن سلمنا بفرضية الدسائس المغالية المضافة إلى رسائله، إلا أنه -ولا ريب- هو من فتح الباب واسعاً على ذلك، عن طريق غلوه في تعظيم المسيح. كما أنه هو من فتح الباب إلى التثليث أيضاً.

- بالنسبة إلى مغالاته بالمسيح عليه السلام وفتحه باباً على تأليهه، فربما تكون محقاً. أما بالنسبة إلى التثليث فأنا أميل إلى براءته التامة من وزره. فمع أن الكثيرين من الكتاب قد دأبوا على اتهام بولس بإقحام التثليث في المسيحية نظراً لما عرف عن دوره في صياغة سائر معتقداتها، إلا أن رسائله قد خلت في الحقيقة من تأليه الروح القدس، كما خلت من ذكر عناصر التثليث مجتمعة إلا في نص يتيم، لا يفهم منه خالي الذهن ما يعتقدده المسيحيون من التثليث حالياً. وذلك في قوله: "ولتكن نعمة ربنا يسوع ومحبة الله وشركة الروح القدس معكم جميعاً" (٢كورنثوس ١٣ : ١٤)^(١).

- ألا يكفي هذا.

- بالطبع لا؛ فكما ترى، ليس في النص ما يفيد تأليه الروح القدس، ومما يؤكد غفلة بولس عن التثليث هو التأمل في ترتيب عناصر التثليث المذكورين في النص، إذ يقدم الابن على الأب، وهو ما تعتبره الفرق المسيحية حالياً هرطقة لا يسكت عنها. ويضاف إلى ذلك أن اسم الأقتوم الأول في صيغة التثليث هو الأب، ولكن بولس ذكر الله (الذي هو الأب والابن والروح القدس في المفهوم المسيحي الحالي)، بل قصد مجرد "محبة الله" وليس الله نفسه. كما أن اسم الأقتوم الثاني هو الابن أو الكلمة، ولكن بولس ذكر ربنا (سيدنا) يسوع، بل قصد نعمته تحديداً ولم يقصده شخصياً! وكذلك قصد "شركة" الروح القدس. وكان الموضوع كله هو دعاء بأن تكون النعمة (نعمة المسيح) والمحبة (محبة الله) والشركة (شركة الروح القدس) معهم جميعاً.

(١) النسان الآخران الوحيدان في كل العهد الجديد، واللذان يستند إليهما أيضاً في إثبات التثليث غير منسوبين إلى بولس. وللإطلاع على الأدلة التي تثبت إضافتهما المتأخرة راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- من المسؤول عن التثليث إذن، إن لم يكن بولس!!٩

- لقد ظهر التثليث في مرحلة متأخرة جداً عن بولس نفسه. فباعتراف الكنيسة الكاثوليكية فإن أول من "صاغه" (أي ابتدعه) هو "ترتليانوس"^(١) في أوائل القرن الثالث للميلاد^(٢)، وأصبح عقيدة رسمية عام ٢٨١م في مجمع القسطنطينية، ولم يرد له ذكر رسمي حتى في قرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥م أو غيرها من المجمع قبل ذلك التاريخ^(٣)، في حين يرجع بعض كبار علماء اللاهوت في قاموس الكتاب المقدس الأمر إلى الوراء أكثر قائلين: إن "مادة التثليث لم ترد في الكتاب المقدس، ويظن أن أول من صاغها هو "ترنفيان" في القرن الثاني الميلادي، وقد خالفه الكثيرون". وعليه؛ ربما يكون شخص آخر هو المسؤول عن تلك العقائد الباطلة؛ فالتثليث كان رائجاً جداً في الديانات والفلسفات الوثنية آنذاك حتى صار من المسلمات، وهناك من اللاهوتيين المتحمسين للدفاع عن أقدمية التثليث من يرى أن أول إسقاط لذلك المفهوم على المسيحية ظهر على يد "ثيوفيلس" الأسقف السادس لأنطاكية^(٤)، والمعتبر

(١) جاء في الموسوعة الكاثوليكية العربية حرفياً: "كان ترتليانوس في زمنه أحد أكثر دعاة المسيحية حماساً. ولديه كتابات لاهوتية عديدة، وصلنا منها ٣١ كتاباً في الإيمان والدفاع عن العقيدة ضد الهرطقة والأخلافات المسيحية. وقد أثر ترتليانوس بشكل كبير في آباء الكنيسة بالأخص الآباء الغربيين، وخصوصاً كبريانوس. وقد كان علامةً في اللغتين اليونانية واللاتينية، فكان أول من كتب عن اللاهوت باللاتينية، وفي هذا المجال لا يمكن أن يُنسَى بأنه أول من صاغ كلمة ثلاث (Trinitas) وأدخل كلمة أقتوم (Persona)، وأوضح بعض المفاهيم الثالوثية والكريستولوجية".

(٢) حسب الموسوعة الأمريكية فإن أغلب المسيحيين آنذاك لم يقبلوا التثليث، وأن ترتليانوس نفسه كتب أنه في أيامه "كان أغلبية الشعب ينظرون إلى المسيح باعتباره إنساناً". وجليد بالذکر أن ترتليانوس اعتنق مذهب "المونطانية" النبوي فيما بعد، وتغيرت الكثير من أفكاره عن أمور مثل الباركلية والتوبة والاعتراف، وهو أول من استخدم مصطلح "monarchism" المونارخية" أو ما سمي لاحقاً بـ "بدعة الرئاسة الواحدة"، وهي تنادي بسلطان الله الواحد، أي إن الله هو الأساس الأوحد و"غير المنقسم" للكون. راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) راجع رواية كهولة قبل البلوغ.

(٤) تاريخ ميلاده غير معلوم ولكنه مات بعد ١٨٠ ميلادية.

من أبرز آباء الكنيسة. ولكن عند الاطلاع على النص المقصود نفاجاً بأن ثالثه كان "الله، الكلمة، الحكمة (صوفيا ΣΟΦΙΑ)"!!! ومع أنهم يدعون الآن أنه قصد بالحكمة الروح القدس، إلا أن المتتبع لكتبه الدفاعية الثلاثة المتبقية إلى اليوم، يجد أنه استخدم كلمة الحكمة أولاً بمعنى روح الله، وأنه قصد بها المسيح بالذات!!! كما هي العادة عند الآباء. وفي عرف ثيوفيلس وفي كلامه تفصيل كثير لا يتسع المجال لمناقشته هنا، مثل اعتقاده المخالف تماماً لاعتقاد مسيحيي اليوم في الأقنوم الذي يوحى للأنبياء(في رأيه هو الابن) والكثير غير ذلك، مما يدل أن ثالثه كان مختلفاً تماماً عن الثالث المتعارف عليه حالياً، ولذلك لا مجال للاحتجاج به مطلقاً.

- يبدو أنك متعمق جداً في هذه الناحية!

- ذلك لأنني كنت أظن -مثل ما يظن أغلب غير المسيحيين- أن الذي دعاهم إلى الإيمان بهذه العقيدة التي يصعب على العقل أن يستيفها، لا بد أن يكون نصوصاً صريحة من الأقوال والأحوال التي تسببها الأناجيل الرسمية إلى السيد المسيح عليه السلام، نصوصاً واضحة بين المسيح لهم فيها أنه إلههم وربهم ومعبودهم الذي جاء بنفسه إلى هذا العالم لتخليصهم، وأن الله تعالى مكون من ثلاثة أقانيم وأنه لا نجاة إلا بالتسليم بألوهية المسيح والروح القدس، إلى أن وقع بيدي لأول مرة العهد الجديد، عندما أهداه لي أحد المبشرين في روسيا، فبدأت أقرأ منه وأتأمل بشكل خاص أقوال سيدنا المسيح عليه السلام، فإذا بي أفاجأ بنصوص يؤكد فيها المسيح بكل صراحة بشريته وإنسانيته، ونصوص تفيد عبادة المسيح لله عز وجل وصلاته له ودعائه إياه، ونص يرفض فيه المسيح أن يسميه تلميذه بالمعلم الصالح ويقول له: " لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحداً وهو الله"، ونصوص تذكر أن المسيح جاع وعطش وتعب ونام أو أن الشيطان يمتحنه... وغير ذلك مما يتنافى تماماً مع القول بألوهية

المسيح ويتجاهل تماماً ألوهية الروح القدس) فدفعني هذا إلى أن أبدأ من جديد قراءة متمعنة للأناجيل، وقد أعيناني البحث عبثاً أن أجد عبارة واحدة صريحة لسيدنا المسيح عليه السلام نفسه يدعو فيها أتباعه إلى الإيمان بألوهيته ويلزوم عبادته، أو يصرِّح فيها لهم بأنه رب العالمين وإله الخلائق أجمعين المتجسد الذي انقلب بشراً، أو يصرح لهم فيها بألوهية الروح القدس وبعقيدة التثليث التي هي الركيزة الأساسية للمسيحية، فلم أجد شيئاً من ذلك، بل كل ما وجدته كان نصوصاً تعاكس ذلك تماماً؛ أي تؤكد عبودية المسيح لله عز وجل وأنه لا يعدو كونه نبياً خادماً لله ورسولاً لله تعالى متبعباً أمره، منفذاً مشيئته ومبلغاً رسالاته^(١). وهكذا بدأت بالبحث عن أصل التثليث ومن أين جاء وكيف تطور^(٢)، متحريراً الحياد العلمي فحسب، دون أن أدع لمفاهيمي الإسلامية أثراً على مسار بحثي آنذاك^(٣).

- لا أنكر أنك قد وفقت ببحثك إلى درجة بعيدة، ولكن ما أقوله أنا بشأن بولس لا يخرج أيضاً عن الحياد العلمي بأي حال من الأحوال. فبالإضافة إلى كل ما ذكرته بشأنه، فإن عموم المسيحيين في العصور الأولى من الاضطهاد، كانوا قد أظهروا الوثنية، وأبطنوا المسيحية، كما كان هناك من دخل المسيحية ولم تخلع من عقلية جميع تعاليم الوثنية. وهؤلاء -لا شك- كانوا تربة خصبة لأفكار بولس الشركية وطموحاته في السيادة والمجد، خاصة مع غياب المركزية أو القوة التي تحمي المسيحية الحقيقية. حتى عندما جاءت القوة والمركزية ممثلة بالإمبراطور قسطنطين، كانت قوة وثنية أصلاً، ففقدت المجامع الكنسية لترجيح تعاليم بولس بالذات، لما فيها من

(١) من مقدمة كتاب "الأناجيل الأربعة ورسائل بولس ويوحنا تنفي ألوهية المسيح كما ينفيها القرآن"، بقلم "سعد رستم".

(٢) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) لمزيد من المعلومات راجع تجربة أحمد في رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

مواومة لمفاهيمها^(١)، لذا فأنا لا أرى الحكمة من استعراض فرضيات لبراءته ولتحريف رسائله، مادامت حقائق إدانته واضحة كوضوح الشمس.

- بل هناك حكمة واضحة في ذلك. فمع أن بولس، بالنسبة إليك هو مجرد يهودي روماني أفسد المسيحية من داخلها، وأدخل فيها تأليه المسيح عليه السلام، وأرسى فيها أساساً لبدعة التثليث، مضيفاً عليها تعاليم عديدة لم تكن بها، إلا أنه عند أغلب المتدينين المسيحيين يعتبر قديساً مملوءاً بالروح القدس، ورسولاً فوضه المسيح بنشر دينه عندما ظهر له بكرامة إعجازية بعد رفعه، بالإضافة إلى كونه شهيداً ضحى بنفسه في سبيل الدين. وما دمت قد قررت الكتابة عن موضوع شائك كهذا، فيجب أن تتحرى الحياد والاعتدال، وأن تستعرض مجمل الآراء الواردة بشأن ذلك الرجل المثير للجدل بأمانة تامة، وتعطيها حقها من النظر والتمحيص من كل الجوانب، وإن خالف بعضها هواك أو وجهة نظرك المسبقة عنه، ومن ثم تحاول أن تدافع عن وجهة نظرك الخاصة بموضوعية، وتترك للقارئ، بعد ذلك كله، أن يحكم على الموضوع بنفسه، دون أن تهين ذكاه بإخفاء، أو حتى بتسفيه، الآراء الأخرى.

- ولكنني أحكم على بولس من خلال رسائله الأربع عشرة، التي تشكل ما يقرب من نصف العهد الجديد، ومنها وحدها تستمد معظم العقائد المسيحية الحالية، وبالذات عقيدة تأليه المسيح. ولا أرى أي فائدة في مناقشة احتمال أن تكون تلك العقيدة قد أقحمت على رسائله لاحقاً؛ فما يهمني هو الظاهر فقط.

(١) في ذلك يقول الشاعر السوري " رشيد سليم الخوري "، المولود في أسرة أرثوذكسية: "إن الكنيسة ظلت حتى مطلع القرن الرابع الميلادي تعبد الله على أنه الواحد الأحد، وأن يسوع المسيح عبده ورسوله حتى تنصر قسطنطين عاهل الروم، وتبعه خلق كثير من رعاياه اليونان والرومان فأدخلوا بدعة التثليث وجعلوا لله سبحانه وتعالى أنداداً شاركوه منذ الأزل في خلق السماوات والأرض وتديير الأكوان. ومالأهم الأسقف الأنطاكي مكاروريوس فثار زميله الأسقف أريوس على هذه البدعة ثورة عنيفة شطرت الكنيسة، واتسع بين الطائفتين نطاق الجدل حتى أدى إلى الاقتتال، وفاز أريوس بالحجة القاطعة في المجامع بيد أن السلطة وضعت ثقلها في الميزان، فأسكتت صوت الحق، وأنفذت صوت الباطل واستمر المسيحيون يعمهون في ضلالتهم".

- ما دمت ملتزماً بالظاهر فقط كما تقول، فظاهر كلام بولس أنه لم يقل أن المسيح هو الله، بل جعله دائماً رباً (سيداً) بعد الله! ولم يذكر قط أن الله والمسيح واحد! ولم يذكر قط أن المسيح يساوي الله في الجوهر! ولم يذكر قط تأليه الروح القدس، ولم يتطرق قط لأقانيم الثالوث معاً بنص واضح! بل لم يذكر حتى لفظة التثليث أو الأقانيم!!! وكل رسائله تعترف أن الله هو الأعظم والأول والخالق والمانح والفاعل والقادر والوحيد... إلخ، ومن بعده يأتي المسيح الذي يأخذ من الله دائماً. ومع أن الآراء المنسوبة إلى بولس وغلوه في المسيح عليه السلام، ونقضه لناмос الشريعة، كانت الأساس الأول لتأليه المسيح ومن ثم التثليث، إلا أنه هو نفسه لم يجرؤ على قول ذلك صراحة، وفي أسوأ الاحتمالات فإن بولس قد وضع مجرد حجر أساس للمسيحية المثلثة، ثم قام بعض الأساقفة ببناء عشرات المباني فوق ذلك الحجر.

- إذا كانت هذه هي أسوأ الاحتمالات كما تقول، فما هو أفضلها إذن؟

- أن غلو بولس في المسيح عليه السلام، والذي استنتج منه مجمع نيقية وغيره أن المسيح هو أقنوم لله مساو لله الأب، هو إضافات وشروحات تم إقحامها على تعاليمه "بالأيادي الخفية" نفسها التي عبثت ببقية أسفار الكتاب المقدس على مر الأجيال. وإذ إن الكتابات الأصلية من الصحف والتوراة والزيور والإنجيل والرسائل مفقودة إلى الآن، فلا أنت ولا أنا ولا أي شخص آخر في الوجود قادر على تحديد مواضع العبث، ولا أيها كان بسوء نية بهدف إفساد دين الله، وأيها كان خطأ النساخ أو الشارحين أو المترجمين^(١)، سواء بحسن أم بسوء نية، ولا أيها كان تطويراً لنصوص مختلفة ودمجها

(١) يقول علماء الكتاب المقدس: "إن نص العهد الجديد قد نسخ ثم نسخ طوال قرون كثيرة بيد نساخ صلاحهم للعمل متفاوت، وما من واحد منهم معصوم من مختلف الأخطاء التي تحول دون أن تتصف أية نسخة كانت، مهما بذل فيها من الجهد، بالموافقة التامة للمثال الذي أخذت عنه، ويضاف إلى ذلك أن بعض النساخ حاولوا أحياناً - عن حسن نية - أن يصوبوا ما جاء في مثالهم، وبدلاً لهم أنه يحتوي على أخطاء واضحة، أو قلة دقة في التعبير اللاهوتي، وهكذا أدخلوا على النص قراءات جديدة تكاد تكون كلها خطأ. ثم يمكن أن يضاف إلى ذلك كله أن الاستعمال لكثير من الفقرات للعهد الجديد في أثناء إقامة =

في نص واحد^(١).

=شعائر العبادة، أدى أحياناً كثيرة إلى إدخال زخارف غايتها تجميل الطقس، أو إلى التوفيق بين نصوص مختلفة ساعدت عليها التلاوة بصوت عال. ومن الواضح أن ما أدخله النساخ من التبديل على مر القرون قد تراكم بعضه على بعضه الآخر فكان النص الذي وصل آخر الأمر إلى عهد الطباعة مثقلاً بمختلف ألوان التبديل ظهرت في عدد كبير من القراءات". الترجمة الكاثوليكية للرهبنة اليسوعية - المدخل، ص ١٣.

(١) جاء في "بولس ورسائله" يوم الخميس - الفصل التاسع والعشرون: الرسائل البولسية الثانية تحت عنوان الرسالة إلى أفسس ووحدة الشعيين: "إن عناصر التوازي التي اكتشفناها بين ١ تس (تسالونيكى) و٢ تس، والتي دلت على أن الثانية قلّدت الأولى، تبدو أيضاً أكثر وضوحاً بين كو (كولسي) وأف (أفسس). وهذه العناصر لافتة بشكل كبير، بحيث إننا نستطيع أن نرتّب النصّين بشكل متواز، وذلك بالنسبة إلى مقاطع كاملة. ولوائح المقاطع المتوازية التي نجدها في ترجمات الكتاب المقدس الحديثة مذهشة. نستطيع أن نشرح هذا الوضع الأدبيّ بثلاث رسومات تاريخيّة ممكنة: إما ترتبط أف بالرسالة إلى كولسي، وإما ترتبط كو بالرسالة إلى أفسس، وإما تألفت كو وأف في مدرسة بولسيّة واحدة، واستقلت الواحدة عن الأخرى على المستوى الأدبي. يبدو أن مجمل الشرح يأخذون بالحلّ الأوّل، الذي يستند إلى سمة نصويّة مهمة، وهي أنه لا يرد في أقدم المخطوطات (للرسالة إلى أفسس) إشارة إلى الذين أرسلت إليهم... أما بالنسبة إلى العلاقة بين أف وكو، فنحن نأخذ بالفرضيّة التالية: توجّهت كو إلى جماعة مسيحيّة جاءت كلها من العالم الوثنيّ... نستطيع أن نستعيد بعض مقاطع من كو لكي نرى ماذا صارت إليه في أف. المثل الأوّل نقرؤه في كلام عن المسيح الرأس في كو ١: ١٨: ((هو رأس الجسد الذي هو xxxxxxxxxx)). وكتبت أف ١: ٢٢ في موازاة هذا النص: ((وجعل [الله] كل شيء تحت قدميه [قدمي المسيح]، وجعله، فوق كل شيء، رأساً للكنيسة التي هي جسده وملء ذلك الذي يملأ كل شيء في كل شيء)). جاء الفكر في أف أكثر تفصيلاً، فلم يقل فقط من هو المسيح بالنسبة إلى الكنيسة، بل أيضاً من هو بالنسبة إلى الله الذي جعله (أعطاه كهديّة) للبشر، وأيضاً من هو بالنسبة إلى جميع الكائنات بما فيها القوى السماويّة. كانت "ربوبيّة" المسيح شاملة جداً منذ الرسالة إلى كولسي، "فانتسعت شموليّتها" أيضاً في الرسالة إلى أفسس... والمثل الثاني يكشف أيضاً الطريقة التي بها استعادت الرسالة نصاً من رسالة أخرى: توجّه صاحب كو إلى قرّائه بالكلمات التالية (١: ٢١-٢٢). . . من الواضح أن نص أف يعطي دوراً كبيراً جداً للمسيح. فهو ليس فقط ذاك الذي به تمّت المصالحة، بل أيضاً ذاك الذي أمّنها في شخصه... هذا ما يصل بنا إلى عبارة مشهورة لا نجد ما يقابلها في كو: ((هناك جسد واحد وروح واحد، مثلما دعاكم الله إلى رجاء واحد: ربّ واحد، وإيمان واحد، معموديّة واحدة. إله واحد وأبّ للجميع. يسود على الكل، ويعمل بالكل، ويقوم في الكل)) (أف ٤: ٤-٦). قبل ذلك الوقت، لم يعتبر كتاب من العهد الجديد، بمثل هذه القوّة، عن وحدة الكون في الله وفي المسيح. كانت هذه الوحدة نبته صغيرة في كو، فوجدت في أف قوّة ووضوحاً في التعبير له بليغ الأثر. " (!!!)

- لماذا تتجاهل الاحتمال الأرجح، وهو أن بولس كان يخطط من وراء رسائله لهدم دين المسيح من الأساس؟

- ربما لم يخطط صاحب الرسائل لذلك، ربما كان معلماً "مجتهداً" مغموراً، ينشر فلسفته الدينية مثل بقية أصحاب "الاجتهادات"، الذين يعتبرون أنفسهم مكلفين بنشر مفهوم جديد بين مريديهم، وأنه لم يعتبر كتاباته من الكتابات المقدسة، بل كان يعتبرها فهماً جديداً للكتاب المقدس، ولكن تلاميذه قاموا بمذهبه لاحقاً وطوروا رسائله، ومن ثم أضافوها إلى الكتاب المقدس تحت اسمه.

- من أين أتيت بهذا الاعتقاد؟

- من الرسائل نفسها، فيبدو أن صاحبها لم يكن يدور بخلده أنه كان يكتب أسفاراً مقدسة حين كان يكتب رسائله. وهناك أدلة كثيرة على ذلك؛ مثل ذكره لأحداث وأمور شخصية صرفة^(١)، هذا غير الحديث عن خلافاته^(٢)، وصدقاته وتوصياته بهم^(٣)، والأهم من ذلك كله هو قوله: "كل الكتاب موحى به من عند الله" (تيموثاوس الثاني ٢: ١٦)، مع أنه لم يكن قد أنهى كل رسائله التي تمثل أكثر من نصف العهد الجديد.

- هذه فعلاً نقطة مثيرة؛ فأَيُّ كتاب كان يقصد؟ ثم إنه لم يُشِرْ إلى أي من

الأناجيل الأربعة المعتمدة، كأنه لا يعرف شيئاً عنها!

(١) وهي أكثر من أن تعد أو تحصى، ولكننا نورد عليها مثالين للدلالة، كقوله: "الرداء الذي تركته في تراوس عند كابرس أحضره متى جئت، والكتب أيضاً لاسيما الرقوق . . . سلم على ريسكا وأكيلا وبيت أنيسيفورس، اراستس بقي في كورنثوس، وأما ترو فيمس فتركته في ميليتس مريضاً. بادر أن تجيء قبل الشتاء . . ." (٢ تيموثاوس ٤: ١٣ - ٢١)، و "حينما أرسل إليك أرتيماس أو تيخيكس بادر أن تأتي إليّ إلى نيكوبوليس، لأنني عزم أن أشتي (في ترجمة أخرى أفضي الشتاء) هناك. جهز زيناس الناموسي وأبلوس باجتهاد للسفر حتى لا يعوزهما شيء" (تيطس ٣: ١٢-١٣).

(٢) مثل: "الذي كان سبباً للحزن ما أحزنني أنا وحدي . . . ويكفي هذا الرجل من العقاب ما أنزله به أكثركم" (٢ كور ٢: ٥، ٦).

(٣) مثل توصيته بالأخت فيبة وطلب مساعدتها، وبريسكلا وأكيلا اللذين عرضا حياتهما للموت من أجله، ويونياس ونسيبي رفيقه بالسجن . . . إلخ. (الإصحاح السادس عشر من رسالته لرومه).

- على الأغلب كان يعني الإنجيل الحقيقي للمسيح عليه السلام.

صادف ذلك هوى في نفس أبراهام، فقال باهتمام شديد:

- أكمل.

- إن بولس يصرح بأن ليس كل ما يقوله هو شرح لكلام الرب، بل يقول أيضاً برأيه (اجتهاده)، فهو يقول: "وأما المتزوجون فأوصيهم، لا أنا بل الرب" (١كورنث٧: ١٠)، ثم يقول: "وأما العذارى فليس عندي أمر من الرب فيهن، ولكني أعطي رأياً" (١كورنث٧: ٢٥).

- ولكن كون بولس مجرد مجتهد وليس رسولاً ملهماً ومؤلفاً لأسفار مقدسية يجعله متواضعاً، وهذا يتنافى مع ادعائه الرسولية، وتفضيل نفسه على تلاميذ المسيح أنفسهم.

- قد يكون ذلك مما أضيف إلى كتاباته لاحقاً؛ لأن في رسائله ما يناقض تكبره.

- مثل ماذا؟

- مثل قوله: "ما أقوله ليس من عند الله بل أقوله كأحمق" (٢ كورنثوس ١١: ١٧، ١١: ٢١ و٢: ١١). ومثل قوله أيضاً: "لست أعرف ما أنا أفعله، إذ لست أعرف ما أريده، بل الذي أبغضه هو الذي أفعل. بل الخطيئة الساكنة فيّ. فإني أعلم أنه ليس ساكن في جسدي شيء صالح. وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد. لأنني لست أفعل الصالح الذي أريده. بل الشر الذي لست أريده فأياه أفعل. إذن أجد الناموس لي، حينما أريد أن أفعل الحسنى أن الشر حاضر عندي. فإني أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن. ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي: ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت" (رومه ٧: ٢٤).

- رأيك منطقي جداً على غرابته الشديدة! فما الذي جعلك تفكر في هذا الاحتمال بالنسبة إلى بولس؟
- ما جاء عنه في بعض مصادرنا الإسلامية.
- وهل تحدث القرآن والحديث عن بولس؟
- كلا، لم يأت اسمه صراحة لا في القرآن ولا في السنة، ولكن بعض كبار المفسرين المسلمين مثل "ابن كثير" قد ذكره في تفسير القرآن على أنه كان أحد المرسلين (من قبل المسيح عليه السلام) في سورة يس ١٢ - ٣٠. وابن كثير رحمه الله كان مؤرخاً أيضاً، وروى في أحد مؤلفاته قصة هداية بولس بشكل يختلف قليلاً عن الرواية الكتابية.
- ماذا قال بالضبط؟
- لقد قال: "... بولس اليهودي الذي كان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح. وكان بولس قد حلق رأس أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد (القدس) ثم رجمه حتى مات. ولما سمع بولس أن المسيح قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقبله، فالتقاه عند كوكبا. فلما واجهه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه، فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح، فجاء إليه واعتذر مما صنع، وآمن به فقبل منه، وسأله أن يمسح عينيه ليرد عليه بصره فقال: اذهب إلى "حنينا" عندك في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك، فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره وحسن إيمان بولس بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وبنيت له كنيسة، فهي كنيسة بولس المشهورة بدمشق"^(١). وإن صح هذا، فهو ولا ريب يجلي كثيراً من الغموض، والله أعلم^(٢).

(١) "البداية والنهاية" (٦/١٠٠).

(٢) جاء في "السيرة النبوية" لابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق، تحت عنوان "أسماء رسل عيسى": "وكان من بعث عيسى بن مريم عليه السلام من الخواريين والأتباع الذين كانوا بعدهم في الأرض بطرس الحواري، ومعه بولس، وكان بولس من الأتباع ولم يكن من الخواريين، إلى رومية...".

- أشكرك على معلوماتك وعلى نصائحك القيمة. وأعدك أن آخذ بما أراه منطقياً منها. لذا فسوف أذكر فرضية براءة بولس في كتابي، ولكنني لن أتطرق إلى تفسير ابن كثير وقصصه الوهمية، فهي لا تتمتع بالقدر الكافي من المصدقية أو حتى المنطق. كما أنني في الحقيقة لا أزال مقتنعاً تماماً بأن بولس قد سعى لإفساد المسيحية عن سابق قصد وسوء نية، سواء بتكليف من اليهود أو الرومان أو من الشيطان مباشرة.

- هذا يتعارض مع الموضوعية والأمانة العلمية التي تحاول إلزام نفسك بهما! فالحقيقة هي التي يجب أن تكون غايتك، ولا ينبغي أن تدع لعواطفك أو لوجهات نظرك المسبقة، أي مجال للتأثير على موضوعيتك وأنت تعلم.

- أنا من يجب أن أذكرك بكل ذلك، فيبدو أن العواطف ووجهات النظر المسبقة تتحكم بك أنت وليس بي.

- كيف ذلك، فباستثناء استشهادي الأخير بأحد تفاسير القرآن الكريم، فإن كل استشهاداتي الأخرى كانت من الكتاب المقدس؟

- أظن أنك قد بنيت قناعاتك في هذا الموضوع على رأي خاطئ في الإسلام، ثم بدأت تبحث في الكتاب المقدس عما يوافقك، وهذا إن صح هو منتهى العاطفية والبعد عن الحياد والمنطق.

- أنت مخطئ يا بن العم، فالإسلام لم يقل أن بولس كان مسيحياً موحداً! ولا أنه قد قابل المسيح شخصياً، فهذا ليس نصاً من القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة، كما أن هناك من كبار المفسرين الآخرين كابن حزم والقرطبي وغيرهما، ممن يرون غير ذلك تماماً. ورواية ابن كثير هنا لا تخرج عن كونها مجرد سرد للبيانات التاريخية التي

وصلت إليه^(١)، ولا يوجد منها شيء مسند متصل عن المعصوم عليه السلام.

- إذا كان الأمر غير ملزم عندكم، بل غير محسوم أصلاً، فلماذا ذكرته إذن؟
- لقد تطرقت إليه بهدف توسيع مداركك، كي يشمل بحثك مصادر معتبرة أخرى، وإن اختلف بعضها مع المتعارف عليه. ومع أنني غير ملزم بالإيمان بتفسير ابن كثير أو تاريخه، إلا أنني مقتنع تماماً بأنه ليس ممن يرمون الكلام جزافاً، وأنه لا بد قد استقى معلوماته من مصادر موثوقة.
- ابن كثير ليس معتبراً عندي، كما أن قوله هذا ليس توسيعاً للمدارك، بل هو الجنون بعينه.

- هذا كلام غير لائق بتاتاً.

- رغم اعتراضني على الإسلام، إلا أنني أجد نفسي ملزماً بالاعتراف بميزة أساسية له، يتفوق فيها بالذات عن المسيحية، وعن اليهودية أيضاً.
- ما هي؟

- أن شخصاً واحداً فقط مسؤول عن الوحي فيه. ولذلك فإن دينكم، رغم كل شيء، لا يزال إلى الآن وفق تعاليم نبيكم وحده. وأصل كتابه لا يزال محفوظاً عندكم، دون

(١) لم يتعرض أي من العلماء لهذه الروايات بالتصحيح أو التكذيب. ولا يعني مجرد ورودها صحتها كما يعلم أهل التحقيق. فهذا هو ذا- مثلاً - ابن جرير الطبري يقول في مقدمة تاريخه الشهير: " وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أنني راسمه فيه؛ إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواياتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحداثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بإخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا".

أن يطاله أي تغيير. أما الوحي في المسيحية واليهودية فمسؤول عنه أشخاص كثيرون جداً، ولم يحفظ إلا بعد أن تناقلت الأيدي كتاباتهم لمدة طويلة بعد وفاتهم، مما أدى إلى تراكم التغيرات والتناقضات فيها. وفي حالة ثبوت أي خطأ في تفسير المعنى أو الشرح، فيمكنكم التملص منه بسهولة كبيرة، أما شروحات الكتاب المقدس وتعليقاته فقد أصبحت من أصل المتن، ومن ثم فإن ثبوت أي خطأ فيها يشكك بالكتاب المقدس برمته.

- ما قلته صحيح تماماً يا بن العم، رغم تحفظي على ما قصدته من ورائه.

- لا أقصد أي سوء نية، فهذا بالذات هو ما دفع مايكل هارت إلى وضع نبيك في المركز الأول لقائمته، حيث قال ما نصه: "وربما بدا شيئاً غريباً حقاً أن يكون محمد على رأس هذه القائمة مع أن عدد المسيحيين ضعف عدد المسلمين، وربما بدا غريباً أن يكون محمد هو رقم واحد في هذه القائمة، بينما يسوع هو رقم ٣ وموسى هو رقم ١٦. ولكن لذلك أسباب: من بينها أن محمداً قد كان دوره أخطر وأعظم في نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان ليسوع في الديانة المسيحية. ومع أن يسوع هو المسؤول عن مبادئ الأخلاق في المسيحية، غير أن القديس بولس هو الذي أرسى أصول الشريعة المسيحية، وهو أيضاً المسؤول عن كتابة الكثير مما جاء في كتب العهد الجديد، أما محمد فهو المسؤول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي والأخلاقي وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية. كما أن القرآن قد نزل عليه وحده، وفي القرآن وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم. والقرآن نزل على الرسول كاملاً، وسجلت آياته وهو ما يزال حياً، وكان تسجيلاً في منتهى الدقة، فلم يتغير منه حرف واحد، وليس في المسيحية شيء مثل ذلك؛ فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن. وكان أثر القرآن على الناس بالغ العمق، ولذلك كان أثر محمد أكثر وأعمق من الأثر الذي تركه يسوع في الديانة المسيحية".

- وهذا أيضاً صحيح يا بن العم. وليس هارت وحده من اعترف بفضل نبينا عليه الصلاة والسلام، ففي كتاب "تاريخ الأتراك" وضع الشاعر الفرنسي "لامارتين" ثلاثة مقاييس موضوعية للقائد العظيم وهي: عظمة الغاية Greatness Of Purpose - قلة الوسائل Smallness of Means - نتائج رائعة Outstanding Results، ويستنتج بعد ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام: "فيلسوف - خطيب - رسول - مشرع - محارب - هادم الأفكار الباطلة - مُحيي المعتقدات العقلانية وعبادة بلا أصنام ولا صور - مؤسس ٢٠ إمبراطورية دنيوية وإمبراطورية واحدة روحية؛ ذلك هو محمد (عليه الصلاة والسلام). وبعد النظر إلى كل المقاييس التي يمكن أن تقاس بها عظمة البشر يحق لنا أن نسأل: "هل يوجد أي إنسان أعظم منه؟" كما جاء في مجلة التايم^(١).

(١) قامت مجلة التايم في ١٥ تموز/ يوليو ١٩٧٤ بإجراء بحث في مقال بعنوان (Who Were History's Great Leaders) ووضعت آراء متعددة، ومنها ما قاله وليام مكينيل William Mcneill (مؤرخ أمريكي بجامعة شيكاغو): "ولو أنك قست الزعامة بمدى تأثيرها فإنك يجب أن تذكر المسيح وبوذا ومحمداً وكونفوشيوس على أنهم أنبياء العالم العظماء". وقال "جولز ماسيرمان" Jules Masserman (محلل نفسي أمريكي وأستاذ في جامعة شيكاغو): "ثلاثة شروط ينبغي أن تتوافر في القائد العظيم: التكوين السليم للقيادة. يجب على القائد أن يوفر لشعبه مجموعة واحدة من المعتقدات. يجب أن يوفر القائد أو من يكون قائداً نظاماً اجتماعياً يشعر فيه الناس نسبياً بالأمن والطمأنينة". وبعد أن يقوم بالتحليل والتحصيص لأكثر من شخصية (لويس باستير - غاندي - كونفوشيوس - الإسكندر الأكبر - قيصر - هتلر - بوذا - المسيح - إلى آخر الباقي) وصل أخيراً إلى النتيجة التالية: "لعل أعظم قائد كان على مر العصور هو محمد الذي جمع الأعمال الثلاثة، وقد فعل موسى الشيء نفسه بدرجة أقل". أما البروفيسور "ك. س راماكروشنا راو" فقد ذكر في كتابه "محمد رسول الإسلام" مستشهداً بقول لهتلر في كتابه: "نادراً ما يكون رجل النظريات العظيمة قائداً عظيماً، ولكن الداعية المؤثر هو أكثر احتمالاً لأن يملك هذه المتطلبات والمؤهلات، ولذلك فهو دائماً ما يكون قائداً عظيماً لأن القيادة أو الزعامة تعني القدرة على تحريك الجماهير البشرية. المهوبة في تصدير الأفكار لا تشترك في شيء مع القدرة على الزعامة". ويستنتج التالي: "في شخص رسول الإسلام رأى العالم أندر ظاهرة على وجه الأرض متمثلة في إنسان من لحم ودم". والحديث يطول بشأن اعتراف المصنفين من غير المسلمين بفضل نبينا عليه الصلاة والسلام، ولكننا سنختتمه بنقل ما جاء عنه في دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١١: "لقد كان محمد الأكثر توفيقاً من بين جميع الشخصيات الدينية".

فقاطعه أبراهام قائلاً:

- قبل قليل حولت موضوع بحثنا إلى مناقشة خرافات ابن كثير! والآن تريد تحويل الموضوع إلى تعداد مناقب نبيكم!! ألا ترى أنك تخرج عن الحياد بذلك، وتحاول فرض معتقد معين علي؟!!!

- هل تعتقد فعلاً أنني خرجت عن الحياد، أو حاولت فرض معتقدي عليك؟!!!
- ليس بعد، ولكنني أراك قد بدأت تمهد لذلك بشكل جيد.

- هذا ليس صحيحاً. أولاً: لأنني مؤمن أن الدعوة إلى الإسلام هي عن طريق تقديم المثل الصالح في الالتزام به أولاً، ومن ثم شرحه لمن يرغب في ذلك، وليس فرضه على من لا يرغب. وثانياً، وهو الأهم، لأنني أراك تسير في الطريق الصحيح، وإذا تابعت ذلك بتلك المنهجية العلمية التي تتسم بها إلى الآن، فسيؤدي بك ذلك، دون أدنى شك، إلى الإسلام، دون الحاجة أن يحاول أحد إقناعك به. وفيما يخص ابن كثير فقد كنت أحاول أن أجم تحيزك لرأي معين عن طريق ذكر بقية الآراء. وفيما يخص محاولتي تعدادي لفضل الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، فقد كنت أعلق على موضوع فتحته أنت نفسك، فأين خروجي عن الحياد؟ وأين محاولتي لفرض معتقدي عليك؟!!!

كان أبراهام يدرك براءة أحمد من التهمة التي وجهها إليه، والتي لم تكن في حقيقة الأمر إلا تعبيراً عن صراع داخلي يؤرقه، وكبحاً لتعاطف يخشاه، ومكابرة لقناعة حسم أمره بنبذها. فقال لأحمد متوسلاً:

- أرجوك يا أحمد، دعنا لا نتطرق إلى التبشير(الدعوة) أو أي محاولة مباشرة أو غير مباشرة للتأثير على رحلتي في البحث عن الحقيقة، فأنت لا تتخيل مدى حاجتي إليك في ذلك، ولن أخاطر بخسران صداقتك، كما خسرت صداقة فيكتور قبلها.

فأجاب أحمد بأسى:

- مقارنة غير عادلة بالمرّة يا بن العم. ولكنني سأتجاهل سماعي لها، ولن أدافع حالياً لا عن نفسي ولا عن ديني، حرصاً على صداقتك التي تعني لي أيضاً الكثير، وحتى لا تفهم ذلك كمحاولة أخرى للتأثير عليك.

- آسف للتشبيه غير الموفق فعلاً، وأقدر موقفك ابن العم. فصداقتك تعني لي الكثير فعلاً.

الصغير

مع أن ذهن أبراهام قد تفتح على فرضيات جديدة عن بولس، إلا أن ذلك لم يشف غليله، بل فتح شهيته أكثر لمعرفة المزيد عن حقيقة ذلك الشخص الغامض الذي تسبب إليه أغلب التعاليم المسيحية الحالية. لذا فقد قرر أن يبحث عن معلومات إضافية لجلاء كل ذلك الغموض، ولكنه هذه المرة لم يقصد أي كنيسة، وإنما توجه إلى الجامعة، حيث طلب مقابلة أستاذ متخصص في تاريخ الأديان من المهتمين ببولس. وأخيراً وجد ضالته في شخص البروفيسور "هيلموت شنايدر"، الذي بدا له شخصاً واسع الثقافة، وملماً بموضع بحثه من الجوانب كافة.

- أنت محق في كل تساؤلاتك يا بني.

قال البروفيسور شنايدر بعد أن سمع ملخص بحث أبراهام حول بولس، ثم أردف متابعاً:

- ومع أنني قضيت فترة طويلة من حياتي أبحث عن إجابة لتلك التساؤلات، إلا أن التحقيق التاريخي في موضوع بولس قد قادني إلى تساؤلات أخرى أكثر تعقيداً.

- التحقيق التاريخي؟

- أجل، فلأسف لم يأخذ التحقيق التاريخي حظه من الاهتمام في هذا الموضوع الحساس^(١)؛ فقد كان بولس في شبابه (عندما كان اسمه

(١) اعتمدت في هذا الفصل (الموقف) بشكل رئيسي على بحث بعنوان "رحلات مع بول (شاوول الطرسوسي)":

<http://www.forum.3almani.org/viewtopic.php?f=5&t=3848>

للمشرف: materialistic في منتدى العلمانيين العرب. ومع التحفظ الشديد على هدف الباحث من وراء الأدلة التي ساقها، والنتائج التي استخلصها، إلا أن بحثه كان مفيداً جداً، وغاية في العمق والتحليل.

شاول^(١) فريسياً متعصباً (زيلوطياً)^(٢)، ووضع أعضاء المجمع اليهودي الأعلى أغراضهم تحت قدميه حين رجموا "إسطفانوس" بالحجارة (سفر أعمال الرسل ٧: ٥٨)، وكان يسعى إلى خراب الكنيسة، فيذهب من بيت إلى بيت ويخرج منه الرجال والنساء، ويلقيهم في السجن (أعمال الرسل ٨: ٣). أي إن شاول كان "مضطهد المسيحيين" وكانت له سلطة بوليسية واسعة لملاحقتهم.

- وماذا في ذلك؟

- أين كان شاول قبل ذلك بفترة وجيزة؟ أي حين كان يسوع يهيج ويستثير قري ومدناً كاملة؟! ويقلب موائد الصيارفة داخل الهيكل، ويستفز اليهود الفريسيين والصدوقيين بوجه عام؟!!

- ما الذي تحاول قوله يا سيدي؟

- طبقاً لأعمال الرسل، فقد تربى شاول في أورشليم عند قدمي غملائيل (أعمال الرسل ٢٢: ٣)، والأسئلة التي قد تتبادر إلى الذهن هنا: هل انضم شاول إلى تلك الجموع التي كانت تضايق يسوع الناصري شخصياً وتتهجم عليه؟ هل كان شاهداً متحمساً أمام المجلس اليهودي الأعلى (السنهدرين) على تجديف يسوع؟ وأين كان شاول خلال أسبوع الفصح ذلك؟ من المؤكد أنه كان في أورشليم يحتفل مع زيلوطيين آخرين بأقدس الأعياد اليهودية، ولكن لماذا لم يذكر ولو كلمة واحدة عن حضوره لحادثة صلب يسوع؟

- غريب أنتي لم أفكر بذلك من قبل! فمع أن شاول كان معاصراً ليسوع في الزمان والمكان، فلا هو ولا من كتب عنه، ذكروا له أي دور أو ردة فعل على تلك الحوادث المهمة في أثناء حياة يسوع؟!!

(١) سترى بعد قليل أن شاول وبولس "ربما" كانا شخصيتين مختلفتين يفصل بينهما زمن طويل، ولكن تم الدمج بينهما لاحقاً حتى أصبحا الشخص نفسه.

(٢) أي شديد الغيرة على تقاليد الآباء (التعاليم اليهودية) حسب تعبيره في رسالته إلى غلاطية ١: ١٤.

- هذا بالضبط ما أحاول قوله. إن بولس يا بني هو "شاهد آخر ليسوع" لم يسمع ولم ير أي شيء!

قال البروفيسور غامزاً، ثم أردف متابعاً:

- أليس من الغريب أن كتابات الحاخامات في القرنين الأول والثاني لا تذكر شيئاً على الإطلاق عن تلميذ عاص جحود من تلامذة المعلم الأشهر في ذلك العصر: غملائيل^(١) خاصة إذا كان بولس قد وصل حقاً إلى مكانة متقدمة لدى المجلس اليهودي الأعلى جعلت بيده سلطة اعتقال المسيحيين، بل امتد نطاق مهامه وسلطته ليشمل مطاردة المسيحيين في مدينة دمشق المستقلة!!! من المؤكد فعلاً أن مثل هذا الجاحد المتمرد الذي خان منصبه، وصار هرطيقاً يحتقر حفظ يوم السبت، ويلح على أتباعه في تجاهل القواعد اليهودية عن أنواع الأطعمة، ويعلن أن الناموس والختان قد أبطلا، لا يمكن أن يهرب بالكامل من انتباه الكتبة، فلا يوجد ولا كلمة واحدة ذكرها حاخامات القرنين الأول والثاني عن تلميذ بهذه الأهمية "ضاع وفسد"^(٢).

- فعلاً! كيف لم يجرموه ويلعنوا اسمه على حسب عاداتهم مع كثيرين ممن هم أقل أهمية منه؟

- لقد لعن وحرّم فعلاً، ولكن الغريب هو أن من حرّمه ولعنه كانوا اليهود الذين قبلوا المسيح!!! فالأبيونيون أدانوا بولس بأشد الكلام خشونة، بل قالوا إنه في الحقيقة متحول يوناني متذمر، قوبل تحرقه بالرفض من قبل ابنت رئيس الكهنة! (إيبيفانيوس، باناريون ١٦). لكن الأغرب من هذا أن ذلك حدث في القرن الثاني!

(١) يروي التلمود أن غملائيل كان فوق ذلك من ذرية الرابي المشهور "هليل".

(٢) لا تتضمن المشناة أي شيء مطلقاً عن بولس مع أنها تناول كل "الهرطقات" التي تعرضت للمحكمة العليا اليهودية منذ ٤٠ ق.م حتى سنة ٢٣٧م تقريباً. وتعد المشناة أشبه ما تكون بيوميات لأعمال المعبد اليهودي وتاريخ الفريسيين.

- أي بعد حياة بولس الرسول وموته بأكثر من قرن من الزمان!!!

- تماماً.

- كيف يستقيم ذلك؟

- في الحقيقة يا بني، هناك أمور أكثر من ذلك بكثير، لا تستقيم مع الرواية

المذكورة في الكتاب المقدس.

- مثل ماذا أيضاً؟

- أولاً: من غير المعقول أن فرّيسياً بارزاً، أو أي فرّيسي في الواقع، يدخل في

ارتباط وثيق مع رئيس الكهنة (الصدوقي)، مثلما سجّل شاول أنه كان يفعل^(١): "وفعلت

ذلك أيضاً في أورشليم فحبست في سجون كثيرين من القديسين آخذاً السلطان من

قبل رؤساء الكهنة. ولما كانوا يقتلون ألقيت قرعة بذلك. وفي كل المجمع كنت أعاقبهم

مراراً كثيرة وأضطرهم إلى التجديف. وإذا أفرط حنقي عليهم كنت أطردهم إلى المدن

التي في الخارج" (أعمال الرسل ٢٦: ١٠ - ١١)!!!

ثانياً: لم يكن أصلاً لرئيس الكهنة ولا لمجلسه من السلطة ما يخولهم السّماح

لصائد هراطقة بالعمل بهذه الحرية والسلطة الواسعة.

ثالثاً: بفرض أن ذلك صحيح، فلا بد أن هناك أموراً أكثر أهمية يجب الالتفات

لها بدلاً من الاهتمام بمجموعة صغيرة من "أتباع يسوع" في دمشق التي تحت حكم

ملك الأنباط القوي "الحارث الرابع"^(٢)، "فذهب إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى

مجامع دمشق ليعتقل الرجال والنساء الذين يجدهم هناك على مذهب الرب ويجيء

بهم إلى أورشليم" (أعمال ٢: ٩).

(1) Hyam Maccoby. The Myth Maker, p58.

(2) الحارث الرابع كان ملكاً نبطياً امتد ملكه على مساحة واسعة من عاصمته البتراء.

رابعاً: سفر أعمال الرسل يقول إن الرسل استمروا في كرازتهم في أورشليم حتى بعد مقتل إسطفانوس (أعمال الرسل ٨: ٢). وعليه، فلماذا لم يلاحق شاول القادة الذين كانوا في متناول يده؟ خامساً: من غير المعقول أن يكون شاول قد درس حقاً على يد الفرّيسي الكبير غمالاتيل (أعمال الرسل ٢٢: ٣)، فمن المرجح أن بولس كانت لديه مشكلة بصورة واضحة مع اللغة العبرية، إذ إن جميع إشارات الكتابية مأخوذة من الترجمة اليونانية للعهد القديم المعروفة باسم النسخة السبعينية!!!

- صحيح أن شاول كان قد نشأ في أورشليم كما يقول سفر الأعمال، ولكنه يقول أيضاً أنه قد ولد في طرسوس^(١)، وكان مواطناً رومانياً؛ أي من ذوي الثقافة اليونانية.

- فلنفترض ذلك، ولكن هذا يقودنا إلى سؤال أكثر إرباكاً، وهو: ما مدى إمكانية صحة أن الشاب شاول - المفترض أنه من يهود الشتات ذوي الثقافة اليونانية- يتم تعيينه رئيساً بوليسياً للأرثوذكسية اليهودية المتطرفة في أورشليم؟

- احتمال ضعيف جداً في الواقع.

- الغريب أنه لا شيء في رسائل بولس يقترح أنه كان يتولى منصباً رسمياً في تعامله مع المسيحيين!!! وعلى ذلك، وعلى عكس ما عبر عنه كاتب سفر الأعمال، لم يكن بولس قادراً على القبض والسجن والتعذيب بهدف إجبار المسيحيين على الاعتراف بأنهم كانوا مخدوعين^(٢)، ويبدو أن كل ذلك كان إضافات متأخرة.

- ما الهدف من ورائها؟

(١) طرسوس: هي إحدى المدن المهمة في منطقة "كيليكية: Cilicia" (آسيا الصغرى قديماً / تركيا) . . . والتي نشأت فيها "كنيسة أنطاكية" فيما بعد. وتقع مدينة طرسوس في جنوب تركيا بالقرب من البحر الأبيض المتوسط. ويبلغ عدد سكانها على حسب تعداد ١٩٩٠ (٥٠٨ . ١٨٧) نسمة.

(2). Morphy O'Connor, Paul.His History, p 19.

- أن يهودياً زيلوطياً (غيوراً) "مضطهد الكنيسة" يرى نور يسوع، ويتحول من "مبيد القديسين" إلى الرسول القديس! لكن التاريخ يتعارض مع هذا الافتراء اللاهوتي عن "الاضطهاد" الباكر للكنيسة حديثة الولادة. حتى الكتاب المقدس نفسه يشير إلى ذلك الاضطهاد الوهمي بقصة "اهتداء بولس" فقط، وبعد ذلك يتوقف الاضطهاد على نحو مفاجئ: "وأما الكنائس في جميع اليهودية والجليل والسامرة فكان لها سلام وكانت تبني وتسير في خوف الرب وبتعزية الروح القدس كانت تتكاثر" (أعمال الرسل ٩: ٣١). إن "الاضطهاد المبكر" هو بالكامل سيرك ذو مهرج واحد.

- يبدو ذلك فعلاً!

- ثم ما مدى إمكانية صحة أن بولس/شاؤل قد اهتدى إلى المسيحية في ظرف سنة أو سنتين من الصلب^(١)؟ إذا كان هو حقاً زيلوطياً ناضج العقل على الديانة اليهودية، وكان غير متأثر عاطفياً، وبمنأى عن كرازمات وتجوالات الإله البشري، ولم يبالي بكل معجزاته الخارقة، فكيف قلبته معجزة "العمى" بهذه السهولة بعد كل ذلك التعنت؟ ولماذا هو بالذات من بين كل المهتمين يكلف بنشر التعاليم التي لم يتح الوقت ليسوع للحديث عنها؟! ألا ترى معي أنه من المستغرب كثيراً أن الأنجيل الأربعة لا تذكر، بل لا توحى، باسم رسول من الرواد الأوائل يدعى بولس، وكانت له كل هذه الأهمية الفائقة.

- يبدو أنك ترفض قصة اهتداء بولس تماماً.

- هذه القصة لم ترد صراحة برسائله رغم كل ما ادعاه لنفسه فيها من الرسولية والتفويض الإلهي، بل وردت في مصدر واحد يتيم (أعمال الرسل)، وتكررت فيه بثلاث صيغ متناقضة^(٢)، ومقطع اضطهاد الرب يسوع فيها يتشابه حرفياً مع مقطع

(١) إيريناوس يقول ١٨ شهراً.

(٢) أولاها في أعمال الرسل (٩: ٣-٢٢)، من كاتب سفر الأعمال، والثانية من كلام بولس في خطبته أمام الشعب (أعمال ٢٢: ٦-١١)، والثالثة أيضاً من رواية بولس أمام الملك أغريباس (أعمال ٢٦:

اضطهاد "ديونيسيوس" الذي نجده في أعمال أيوريديس: "شاول... شاول... لماذا تضطهدني. صعب عليك أن ترفض مناخس"، لاحظ أن كليهما يستخدم كلمة "مناخس" "The Bacchae"^(١)!!!

- هل تشكك بوجود بولس التاريخي؟

- ليس هذا ما أعنيه تماماً، مع أنه لا ذكر على الإطلاق للمبشر المسيحي المتميز والقديس بولس الرسول، فيما كتبه مؤرخو تلك الحقبة. لا تاسيتوس، ولا بليني، ولا يوسيفوس فلافيوس ولا غيرهم.

- هل يعقل هذا؟ فالكتاب المقدس يقول أن بولس كان يخالط حكام المقاطعات وكانت له مقابلات مع ملوك وأباطرة.

- يبدو أنه لم ير أي مؤرخ في ذلك العصر أن تلك الأعمال تستحق الذكر فعلاً!

- قلت أنك لا تحاول إنكار وجوده التاريخي، فما الذي تقصده إذن؟

- إن الصورة الشعبية للقديس بولس مستخلصة على نحو انتقائي انطلاقاً من مصدرين: سفر أعمال الرسل، والرسائل التي تحمل اسمه. لكن المصدرين يقدمان شخصين مختلفين جذرياً، وروايتين متباعدتين كل التباعد. والمتخصصون في دراسة الكتاب المقدس متآلفون تماماً مع المشكلة المحيرة والمربكة في أن قصة بولس عن نفسه التي يمكن تجميع معلوماتها من الرسائل تتناقض وتتضارب بالكامل مع القصة التي يرويها سفر أعمال الرسل!

(١) حين روى كاتب سفر الأعمال على لسان بولس تلك القصة، فإنه كان ولا ريب يقرأ من كتابات "أوبيديوس" الشاعر الإغريقي في القرن الرابع قبل الميلاد، والذي وضع قصة يبدو فيها الإله وقد ظهر إلى أحد مُضطهديه ويقول له: "لماذا تفعل ما تفعل... صعب عليك أن ترفض مناخس... اذهب وقدم ذبائح لي". وما يؤكد هذا النقل أكثر هو أن الكاتب قد نقل ثلاث روايات أخرى في السفر نفسه، ثبت تشابهها تماماً مع روايات أوبيديوس، ومنها أن الروح القدس أو الإله فتح باب السجن ليهرب بولس.

- كيف يفسرون ذلك؟

- اللاهوتيون يعزون الأمر إلى "سرّ إلهي"!!! ويقمعون فكرة إمكانية الانزلاق إلى الاعتراف بأن كل الحكاية هي مجرد قصة نسجها الخيال الديني.

- أوضح من فضلك؟

- بولس في سفر أعمال الرسل هو مجرد فرد ضمن فريق، وتحوله إلى الديانة المسيحية، وهو في طريقه إلى دمشق مهم لدرجة أنه يذكر ثلاث مرات؛ فمن حالة: إنسان من الخطاة (حين كان شاول المضطهد اليهودي) يحمل إلى الاعتناق بحب للكنيسة حديثة الولادة. والآن كفرد من أفراد الأخوية "حملة" التلاميذ من دمشق، و"أحضره" برنابا إلى الرسل، وصار "يروح ويجيء" معهم في اورشليم (أعمال ٩: ٢٥ - ٢٨). ثم صار يستخدم من قبل التلاميذ، حيث "أنزلوه" إلى قيصرية ثم "أرسلوه" منها إلى طرسوس (أعمال ٩: ٣٠)، ثم "أرجعه" برنابا إلى أنطاكية (١١: ٢٦)، ثم "أرسلوه" مع برنابا إلى اورشليم بمؤن لتخفيف المجاعة (أعمال ١١: ٣٠) (لاحظ أن الزيارة لأورشليم غير معروفة إطلاقاً لبولس نفسه). في نهاية المطاف "أرسلت" الأخوية بولس في أول رحلة تبشيرية. وكمبشر كان شاول/ بولس مجرد فرد من الإرسالية الجماعية: (١٣: ٤)، "وإذ كانوا يجتازون في المدن كانوا يسلمونهم القضايا التي حكم بها الرسل والمشايخ الذين في اورشليم ليحفظوها. فكانت الكنائس تتشدد في الإيمان وتزداد في العدد كل يوم." (١٦: ٤، ٥). ومن سالونيك "أرسل" الإخوة بولس بعيداً إلى بيريا من طرف الأخوية (١٧: ١٠)، ثم "أرسل أيضاً" عن طريق البحر إلى أثينا (١٧: ١٥-١٤)، وفي كنجريا وقتى بولس بنذر يهودي وحلق رأسه (١٨: ١٨).

- يبدو واضحاً فعلاً أن بولس كان مجرد تابع يتلقى الأوامر من الرسل! ولكن ألا تعد هذه الأمور أيضاً تسليماً بأنه قد أصبح هو أيضاً رسولاً.

- كلا بالطبع، فقد ذكر شاول، ثم "شاول الذي اسمه أيضاً بولس" (١٢:٩)، ثم بولس ١٧٧ مرة في أعمال الرسل، وفي كل هذه المرات لم يرد اسمه مسبقاً باللقب التشريفي "رسول" قط! وإن أقرب ما منح سفر أعمال الرسل هذا اللقب لبولس كان في الإصحاح ١٤ عدد ١٤ حيث يأتي اسمه بعد اسم برنابا ويستخدم اللقب في صيغة الجمع. وفي جميع الأحوال الأخرى يظهر اسم بولس كشخص معزول بالكامل وخاضع ضمناً للرسل.

- هذا التجاهل لرسوليته غريب فعلاً.

- الصدمة تصبح أكبر إذا ما أخذنا في الاعتبار أن كاتب سفر الأعمال ليس إلا لوقا رفيق بولس وأحد أشد المعجبين به.

- فعلاً. هذا صادم للغاية.

- وفي تباین مطلق، تترع رسائل بولس بإشاراته إلى عظم قدره، "أمني أنا بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح والله الآب الذي أقامه من الأموات.....٩ كما سبقنا فقلنا أقول الآن أيضاً إن كان أحد يبشركم في غير ما قبلتم فليكن أناثيما (ملعون).....١٢ لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا علمته بل بإعلان يسوع المسيح." (رسالته إلى غلاطية الإصحاح الأول). ونصف الـ٢٧ مرة التي كتبت فيها كلمة رسول كانت الكلمة تشير إليه شخصياً! وهو يظهر في هذه الرسائل المنسوبة إليه كشخص اختط لنفسه مسلكاً مستقلاً على نحو منمّق طنان، لا يمثل أحداً سوى نفسه، وليس خاضعاً لأوامر أحد. إن بولس هنا هو الذي يحمل عصا القيادة، وهو لا يقوم بتسليم رسائل التعاليم والأحكام بطلب من الرؤساء في أورشليم، (الغريب أن كل تلك الرسائل فقدت تماماً!!!) بل يقوم هو نفسه بكتابتها وإرسالها إلى الكنائس لينفذوا ما فيها.

- هذا صحيح؛ فبولس في الرسائل يتطرق إلى الأعماق تكراراً، وهو مملوء بأهمية ذاته، أنه رسول معين من قبل السماء مباشرة، و"برهانه" على ذلك هو النجاح الشخصي الذي أحرزه كمبشر، كما نرى واضحاً رسالته الثانية إلى كورنثوس ٢، ٣. وهي حجة ذات جدارة مربية تستخدمها الكنيسة إلى الآن: انظر إلى نجاحنا! لا بد أننا على حق!

- فعلاً، ويقول الإصحاح الخامس عشر من سفر أعمال الرسل إن إقامة بولس الطويلة في أنطاكية، التي تلت رحلته التبشيرية الأولى، قد انقطعت بسبب "المشرّعين" في إقليم اليهودية الذين كانوا يصرون على أن الخلاص يقتضي الاختتان. ففرع ناقوس الخطر، واختير بولس وبرنابا لترؤس وفد إلى أورشليم لمقابلة الرسل والشيوخ. المقابلة هي ما سوف يعرف باسم "مجمع أورشليم" الشهير الذي يؤرخ تقليدياً بين سنة ٤٨ وسنة ٥٢، ويسجل سفر أعمال الرسل أن الاجتماع سادته التوافق والوثام، مع حل المسألة ودياً وبطيب خاطر. ثم يمتّع بولس الأخوة هناك بحكايات عن "معجزات وأعاجيب" بين الوثنيين (١٥: ١٢)، ويصدر يعقوب قراراً فيما يتعلق بختان الوثنيين بأن: "لا ننقل عليهم" (١٥: ١٩). وعند الرجوع إلى أنطاكية "فرحت" الأخوية (١٥: ٣٢)!!! لكن ما يسجله بولس نفسه عن الاجتماع مع "أولئك الذين يبديون الأكثر ثباتاً" مختلف للغاية؛ فهو يذهب إلى أورشليم ليس بتكليف من أحد، بل كنتيجة لـ "رؤية" أُعلنت له (رسالته إلى غلاطية ٢: ٢)، ويتحدث في الواقع عن مواجهة وصدام في أثناء انعقاد هذا المجمع، ونقرأ تعابير غريبة مثل: "إخوة كذبة"، "جواسيس"، "يحاولون جعل بولس وحاشيته "عبيداً"!!!

- هذا تناقض محير آخر بين البولسيين.

- أجل، وعلى عكس ما روي عن بولس (الأول) في أعمال الرسل، لا يذكر بولس (الثاني) في الرسائل قصة تحوله إلى المسيحية "في طريق دمشق"، ولا أصله من مدينة طرسوس^(١)، ولا يذكر قبرص ومعركته مع ساحر خصم، ولا يشير إلى الأوامر الصادرة من يعقوب عن تحريمات الأطعمة والزنا؛ بل يظهر في رسائله كأنه لا يدين بشيء لأي شخص، وكمتأسد سيئ الطباع لا يُنعم بقليل من الود على أولئك الذين لا يقبلون وجهة نظره، بمن فيهم رئيس التلاميذ الذي "قاومه وجهاً لوجه لأنه يستحق اللوم"، وكتب أنه جحد لأنه كان "خائفاً"!!! ووصف من جاء به (برنابا) أنه "انقاد ببلاهة إلى رياتهم"، أي رياء بطرس ومن معه ممن "لا يسرون سيرة مستقيمة مع حقيقة البشارة" (يقصد حواربي المسيح) لذا وبخ بطرس علناً (غلاطية ٢: ١٤-١١).

- مع أنني قرأت كل هذه الأحداث مراراً، إلا أنني لم أربط بينها على هذا النحو. حقاً! كيف يمكن أن يتحول ذلك "التابع المسير" في أعمال الرسل إلى "قائد ملهم" في الرسائل؟! بل ويويخ قادة المسيحية التقليديين، ويعلم من رافقوا المسيح في جميع مراحل بشارته كيفية "السيرة المستقيمة مع حياة البشارة"!!! وإذا كان مصدر إلهامه هو من حادثة دمشق في أعمال الرسل، فكيف لم تكن كافية لرفع مرتبته هناك، وكيف لم يحتج بها كاتب رسائل بولس!!! لقد كنت أعرف منذ البداية أن قصة اهتدائه هذه مزيفة، والآن تيقنت من ذلك تماماً.

- رويدك يا بني، فالموضوع ليس بهذه البساطة. صحيح أن هناك تزييفاً لقصة اهتدائه، ولكن لا بد أن يكون هناك أصل حقيقي لهذه القصة، وإلا لماذا تكرر إلحاق هذه القصة نفسها بسفر الأعمال ثلاث مرات! إذ يبدو أنها نقلت عن ثلاثة مصادر مختلفة!!!

(١) جيرونيمو يذكر أن بولس من الجليل!

- تحليل منطقي فعلاً، ولكن كيف تفسر الموضوع إذن؟

- يبدو أنه قد كان هناك رجل ضد المسيحيين قد تعرض فعلاً إلى حادثة ما على طريق دمشق، وأنه قد تم تفسير ذلك الأمر روحانياً، وقاده إلى اعتناق المسيحية، وربما قام بعد ذلك بأعمال تبشيرية جليلة أورثته شهرة معينة. وربما جاء بعد ذلك بكثير شخص آخر مختلف تماماً، وكتب بعض تلك الرسائل. ثم تم بعد ذلك تغيير بعض الأسماء والتواريخ والأحداث لإسقاط رسائله على فترة رسولية مبكرة، وهي الفترة التي أعقبت حياة المسيح على الأرض مباشرة، لإعطاء لاهوتها "تخويلاً" إضافياً، وللإستفادة من سمعة الشخصية الأولى^(١).

عاد إلى مخيلة أبراهام ما ذكره أحمد عن قول ابن كثير، فسأل مستكراً:

- إذا كان هدفهم هو دمج شخصية كاتب الرسائل بشخصية رسولية معتبرة، فلم لم يدمجوها بإحدى شخصيات الحواريين أو بقية التلاميذ، فذلك يعطي إحياء لاهوتياً أكثر إلزاماً؟

- لو فعلوا ذلك لظهر زيفها فوراً، فمن سيصدق أن أحد تلامذة المسيح العبرانيين البسطاء الذين رافقوه كل بشارته وكانوا يطيعونه ويقلدونه في كل أموره، يمكن أن يخرج بتعاليم مغايرة وتعتبر "إصلاحية ثورية" ومتشعبة بالفلسفة والثقافة اليونانية العصرية!!!

(١) جاء في "بولس ورسائله" يوم الخميس - الفصل التاسع والعشرون: الرسائل البولسية الثانية ما نصه: "نعود إلى كاتب مسيحي كرس رسالة للمسائل الاسكاتولوجية: هو بولس في الرسالة الأولى إلى التسالونيكين. فانبرى "كاتب نجهل اسمه"، عاش بلا شك في جماعة طرحت فيها هذه المسائل المشار إليها بشدة، فدوّن رسالة ثانية إلى التسالونيكين وجعلها تحت سلطة المعلم. هي براهين عديدة تؤكد أننا أمام مؤلف مقلد. ففي مقاطع عديدة تكتفي الرسالة بأن تستعيد نصّ ١٨١ بألفاظ قريبة جداً. وهكذا يكون الكاتب في الحق ويتحاشى الخطأ (!!!). ثم أضافت هذه الرسالة إلى كل هذا، عناصر جديدة أخذتها من الوضع الجديد وهي: البطالة والمجون".

- فعلاً، هذا منطقي جداً. خاصة أنهم كانوا آنذاك لا يزالون قريبي العهد بتعاليم المسيح، ولم يختلطوا مع الأمم لفترة كافية، ومن الصعب أن يصدق أحد أن أفكارهم تغيرت جذرياً في تلك المدة البسيطة.
- تماماً.

- ولكن من تظن ذلك الإصلاحي الثوري المتشبه بالفلسفة والثقافة اليونانية، والذي كتب هذه الرسائل^(١)؟

- لقد كانت رسائل بولس مكتوبة في البداية لـ"المارسيونيين"^(٢) تلك الفرقة المسيحية المبكرة التي خسرت المعركة السياسية في منتصف القرن الثاني عندما وقع حرم كنسي على مؤسسها مارسيون. ومارسيون^(٣) هذا هو الشخص المشار إليه

(١) جاء في "بولس ورسائله" يوم الخميس - الفصل التاسع والعشرون: الرسائل البولسية الثانية ما نصه: "نستطيع بلا شك أن نحاول كشف هوية هذا الكاتب الملهم الذي فكّر بأن يقدم شقيقة صغيرة للرسالة الأولى إلى التسالونيكبي، مكرّسة لمسائل مشابهة، وذلك بعد عشرات السنين. ولكن المحاولة لا تستحقّ كل هذا التعب. أولاً، طرح أسماء عديدة ولم يفرض اسم نفسه. ثم إن مثل هذا البحث يخون بشكل من الأشكال الروح التي أشرفت على تدوين الرسالة (!!!). فيما أن الكنيسة بمجملها اعتبرت ككاتب أكثر أهمية من الأفراد، رأت النور الكتب التي استعارت أسماء الرسل، فلماذا نبحث عبثاً عن اسم يطمئن عقول المعاصرين ولا يحمل فائدة إلى معرفة أصولنا!!!!!!

(٢) المارسيونيون فرقة مسيحية مبكرة، وكانوا يعظمون المعلم الكبير بولس (صاحب الرسائل)، ويعتبرون أنه وحده يعرف الحق، وله وحده كشف السرّ بإعلان الهي، ويرفضون الرسائل التي نسبت إليه زوراً. وكانوا يصفون غيرهم من الكنائس بـ"المؤمنين الكاذبين"، لأنهم نقلوا الكتب المقدسة عبر نسخها وإضافة أجزاء من هنا ومن هناك، كي تتماشى مع معتقداتهم الخاصة. وقد استمر جزء كبير من كنيستهم مستقلاً حتى القرن الخامس الميلادي، ويقال إن عدد المارسيونيين كان أكبر من عدد الأرثوذكس (الكاثوليك لاحقاً). وهم قد أنكروا كل أسفار العهد الجديد إلا إنجيل لوقا وتسع رسائل من رسائل بولس بنسختها الأصلية كما ادعوا. ومن المؤكد أن الكتب التي اعترفوا بها لم تكن مماثلة لنظرائها في القانون المعتمد لاحقاً. لمزيد من المعلومات راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(٣) ابن أسقف سينوب في إقليم البنطس (على شاطئ البحر الأسود) وكانت له أفكار شاذة، فحرمه والده من الكنيسة، فخرج من سينوب وطاف آسيا الصغرى حتى روما، فشر تعاليمه وتجمع حوله الكثير من الأتباع.

بالتحديد وبالضبط وبالذقة كأول "مكتشف" لرسائل بولس^(١).

- ولكن إذا كانت كنيسة مارسيون قد خسرت المعركة السياسية كما تقول، فكيف تم قبول رسائله المحتوية على أفكاره التي حرمتها الكنيسة؟ وإن نسبها إلى شخص له وزنه؟

- لقد كانت رسائل بولس في شكلها الأصلي إثينية (Dualists) وخنوسطية (Gnostics)، ويعتق لاهوتها الهروب من العالم المادي، يتمحور حول الخلاص الفردي "مبّر الإيمان"، قاطعاً كل الصلات بإرث يهودي خصوصي، ومتخلصاً من شريعة موسى وقوانينها المزعجة. في البداية، انزعجت العناصر اليهودية داخل الكاثوليكية، ولكن تلك الرسائل كانت تزود بحكايات مفيدة عن الروح القدس وهو يفعل أفاعيله بين الوثنيين، كما أن التطورات الجيوسياسية العاجلة، جعلت هذا التوجه اللاهوتي جذاباً للغاية.

- كيف ذلك؟

- إن الصراع الذي طال أمده بين الفرق المسيحية المؤيدة لليهود والمناهضة لهم انتهى في النصف الأول من القرن الثاني بعد حرب "باركوخبا" ١٣٥-١٣٠ مع ما رافقها من الازدراء الروماني لكل ما هو يهودي. آنذاك أصبح من المفيد كثيراً لمسيحيي الإمبراطورية الرومانية قطع أي علاقة مباشرة بينهم وبين اليهود "المغضوب عليهم"

(١) لم ترد أي إشارة إلى رسائل بولس وإنجيل لوقا (قانون مارسيون) من أي من آباء القرن الأول من الذين تتلمذوا على يد رُسُل المسيح، على العكس من آباء أواخر القرن الثاني. ففي ذلك الزمان بدأت الكنائس تعرف رسائل بولس. أي إن أول من اعترف بولس ورسائله وأدرجها ضمن الإنجيل هو مارسيون الهرطوقي!!!!!! إذن فالسند منقطع طيلة القرن الأول إلى أن جاء مارسيون في القرن الثاني ليعترف بإنجيل لوقا ورسائل بولس، وعنه استلمت الكنائس رسائل بولس وإنجيل لوقا (بعد التعديل)، ولكنها كُفرت، لأنه لم يعترف بالعهد القديم، ولأنه ادعى أن للكون إلهين. وكان من باب أولى أن تُكفر الرسائل والكتاب الذي يؤمن به أيضاً، فكيف يعتد بكتب أول من أدخلها ضمن القانون هرطوقي محروم بحكم الكنيسة!!!!

من قبل الرومان، بل تم تبرئة الرومان أنفسهم من دم المسيح وإلقاء المسؤولية كاملة على اليهود! وبلغ في وصف المعاناة المزعومة و"الاضطهاد المبكر" الذي كان يواجهه المسيحيون من اليهود! مع أن الاضطهاد الحقيقي لم يكن مبكراً، ولم يكن بيد اليهود، الذين كانوا يعتبرون أنصار المسيح فرقة "يهودية" ضالة^(١)، ولم يكن حربها واضطهادها من أولوياتهم^(٢)، حتى إبان انتصار ثورتهم، وإنما كان الاضطهاد الحقيقي بيد الرومان

(١) يذكر القديس إيرونيموس مثلاً أن يعقوب البار (أسقف أورشليم وأحد أعمدة الكنيسة ورأس أول مجمع لأتباع المسيح وضم الرسل وبعض الكهنة المشايخ) كان ميجلاً ومهاباً من قبل اليهود، ويتهافون على لمس ثيابه، ويروون أن من كثرة ركوعه للصلاة كانت ركبته كركبتي جمل. ويقول يوسفوس المؤرخ اليهودي: "إن من أسباب خراب أورشليم أن أهلها قتلوا يعقوب البار، فنزل غضب الله عليهم، وأن الفريسيين والكهنة من أصدقاء يعقوب قد ثاروا على كبير الكهنة الذي أمر بقتله وعزلوه". ويقول كذلك: "إن الهزيمة النكراء التي ألحقها الحارث بهيرودس بعد ذلك التاريخ (قتل يوحنا المعمدان) كانت جزءاً وفاقاً لدينونة إلهية نزلت به". كما يقول أيضاً: "إن الفريسيين ثاروا وقتلوا رئيس الكهنة (الصدوقي) بعد أن قتل يعقوب البار" (تاريخ يوسفوس ١٨ و ٥ و ٢). وهو يقسم اليهود ثلاث فرق رئيسية قائلاً: تفرقت النخبة في إسرائيل في مجموعات ثلاث: الأسينيون (العيسويون)، الفريسيون الذين قبلوا بالهيكل لكي يصلحوه، الصادقيون الذين نظّموا نفوسهم حول الهيكل". ونفهم من حديث يوسفوس وغيره عن العيسويين (دون أن يذكر اسم المسيحيين، الذي لم يكن قد وجد بعد) أن أتباع المسيح كانوا يعدون في وقته فرقة يهودية كغيرها من الفرق المختلفة التي يدعي كل منها أنه على الحق، وكان صالحوهم مبعجلين لدى عامة اليهود. ملاحظة: ذكر العهد الجديد فرقتين من الفرق الرئيسية الثلاث (الصدوقيين والفريسيين) ولكنه لم يتحدث عن الفرقة الثالثة قط!!! ونحن نرى في ذلك دليلاً إضافياً على أن أتباع عيسى عليه السلام هم أنفسهم من لقبوا من قبل بقية بني إسرائيل، سواء برضاهم أم لا، بالعيسويين.

(٢) يشير سفر الأعمال (٢٣: ٨) إلى أنه حين مثل بولس أمام السنهدين (المحكمة اليهودية العليا)، لعب على التناقض بين الفريسيين والصادوقيين، فأعلن أنه فريسي وأنه يُحاكم لأنه يؤمن بقيامة الموتى. (ملاحظة عابرة: كيف انطلى على المجلس ذلك وهو من يعرف بولس جيداً، ووكله بمهام رسمية وخوله صلاحيات واسعة!!!) فعلاً صباح شديد وقام بعض الكتبة من فريق الفريسيين فاحتجوا بشدة وقالوا: "لا نجد ذنباً على هذا الرجل ربما كلمه روح أو ملاك" (أع ٢٣: ٩)!!! وقبلها جاء في الآيتين ٤، ٥ ما نصه: "فقال الحاضرون لبولس أنت تشتم رئيس كهنة الله! فقال بولس: ما كنت أعرف أيها الأخوة أنه رئيس الكهنة، فالكتب المقدسة تقول لا تلعن رئيس شعبك" (يقصد خروج ٢٥: ٢٢: "لا تلعن الله ولا تشتم رئيس شعبك"). كما جاء في سفر الأعمال أيضاً ما نصه: "فلما سمع أعضاء المجلس هذا الكلام، غضبوا كثيراً وعزموا على قتلهم (الرسل)، ولكن واحداً منهم اسمه غملائييل، وهو فريسي من معلمي الشريعة، =

أنفسهم، ولدة طويلة جداً قبل أن يسود الوثام بين الطرفين ويتنصر الرومان ويطرومن المسيحيون.

- هذا منطقي جداً. ولكن اللاهوت برسائل بولس لم يقطع الصلات بالإرث اليهودي تماماً كما هو حال اللاهوت في عقيدة مارسيون!!!

- وهذا ما أردت الوصول إليه. ففي ذلك الوقت تم عجن نوعين من التعاليم (وهذا يفسر التناقض) معاً في شكل فطير نصف مخبوز. وهكذا تمت قولبة بولس، بطل المارسيونيين الهراطقة وبولس بطل المعجزات (في رسائل بولس لم يرد ذكر معجزات بولس في أعمال الرسل) لتتوحدا في صورة بولس "الرسول الثالث

=يحترمه الشعب كله، أمر بإخراج الناس قليلاً، ثم قال لأعضاء المجلس: (يا بني إسرائيل، إياكم وما أنتم عازمون أن تفعلوا بهؤلاء الرجال. قام ثوداس قبل هذه الأيام، وادعى أنه رجل عظيم، فتنبعه نحو أربع مئة رجل، ولكنه قتل وتفرق جميع أتباعه وزال أثرهم. ثم قام يهوذا الجليلي في زمن الإحصاء، فجر وراءه جماعة من الناس، فهلك أيضاً وتشتت جميع الذين أطاعوه. والآن أقول لكم: اتركوا هؤلاء الرجال وشأنهم ولا تهتموا بهم، لأن ما يبشرون به أو ما يعلمونه يزول إن كان من عند البشر، أما إذا كان من عند الله، فلا يمكنكم أن تزيلوه لثلاث تصيروا أعداء الله)، فوافق جميع أعضاء المجلس على رأيه " (أعمال ٥ : ٣٣ - ٤٠). وأتباع ثوداس (ورد اسمه في كتابات يوسيفوس عن بعض حركات اليهود العصيانية ضد الرومان) ويهوذا الجليلي، كما نعرف، هم يهود ظنوا أن زعيمهم هو المسيح المنتظر، ولم يكفرهم أحد من بقية بني إسرائيل على ذلك. كما نفهم من النص أيضاً أن أعضاء السنهدرين من علماء الشريعة كانوا ينظروا إلى أتباع عيسى عليه السلام على أنهم من مذهب آخر وليس من دين مختلف، بل لم ينفوا احتمال أن ما يعملوه ويبشروا به قد يكون من عند الله فعلاً، وأن الروح أو ملاكاً هو من يخاطبهم بذلك. وعلماء الشريعة بالتأكيد لا يمكن أن يظنوا هذا بدين مستقل عن اليهودية، ويلغي الشريعة والختان والسبت وبقية الأحكام. (ملاحظة عابرة: يذكر أن هذه الرواية تشابه إلى حد كبير مع رواية ابن حزم في حواشي بولس، وقلب تعاليم المسيح رأساً على عقب، وبطلها (غمالائيل) هو معلم بولس نفسه، والاختلاف فقط في النتيجة التي توصل إليها مع حكماء اليهود. فحسب ابن حزم استقر رأيهم على تكليف بولس بالادعاء باعتناق دين عيسى عليه السلام، ثم إضلال أتباعه، وإدخالهم إلى القول بألوهيته، وقالوا له: نحن نتحمل إثمك في هذا).

عشر"^(١)، وتم دمج الكنائس المارسيونية في كنيسة رومانية عالمية وأكبر حجماً. والرسائل المنسوبة إلى بولس لم يتم التخلص منها لفائدتها الزائدة عن اللزوم، بل اكتفوا بـ"معالجتها" لتصبح أكثر فائدة للقضية الكاثوليكية^(٢).

(١) جاء في بولس ورسائله الفصل التاسع والعشرون تحت عنوان "خاتمة" ما نصه: "إن الحضارة الحديثة التي اغتذت بالعقلانية والدقة، لا ترضى باسم مستعار، لهذا، يصعب عليها أن تقارب مؤلفاً لا أصيلاً دون فكر مسبق ينطبع بطابع الرفض. والخط الذي قدّمناه داخل الرسائل البولسية الثانية، قد يكون عملاً (هذا ما نرجوه على الأقل) على تبديل بعض الآراء. لا شك في أن بعض أساليب الاقتباس والتقليد تعطي نتيجة سقيمة تبعث على الحزن. فإن كانت جاشية ١ كور ١٥: ٣٣-٣٥ إضافة جعلها كاتب في النص، فقد أساءت مدة طويلة إلى القديس بولس وإلى حياة الكنيسة التي استندت إلى سلطة بولس لتبرز موقفها المعارض للنسوية بما في هذا الموقف من شك. ولا شك أيضاً في أن الرسائل الرعائية تبدو بعض المرات ضعيفة بالنسبة إلى الرسائل التي دونها بولس نفسه. غير أن الحياة تمر عبر حقبات مختلفة، ويجب أن نقبل بهذا الاختلاف. فحقبات التأسيس غير حقبات التنظيم، ولكن الالنتين ضروريان. ظلّ بولس منسياً بعض الوقت خلال القسم الأكبر من القرن الثاني، وهذا أمر نفهمه؛ فهذا القرن الذي عرف اضطهادات قاسية، والذي انطبع بمسافة اتسعت يوماً بعد يوم، بين الكنيسة والمجمع، كانت له اهتمامات غير التبرير بالسريرة. ولكن حين يتيح الاسم المستعار كتابة نصّ من مستوى الرسالة إلى أفسس، فلا يمكننا إلا أن نتهجم بهذه الظاهرة(!!!)، فالرسالة إلى كولوسي تبدو في حجمها الصغير مسوذة بسيطة تجاه عظمة شقيقتها (الرسالة إلى أفسس) التي جاءت بعدها. ثم إن الكنيسة لم تخلط يوماً بين المسائل المتعلقة باسم مستعار وتلك المتعلقة بقانونية نصّ من النصوص. وهذا أمر محمد عليه؛ فلو فعلت غير ذلك، لحرمتنا من إشعياء الثاني وإشعياء الثالث، ومن حكمة سليمان. ولحرمتنا من إنجيلين على الأقل، من إنجيل متى وإنجيل يوحنا. هما يغرزان جذورهما في أرض بذرها الرسولان، ولكنهما ليسا من عمل الرسولين. فلنحمد الروح القدس الذي ألهم كتاباً لا نعرف أسماءهم فدوّنوا ما دوّنوا من أجل خير الكنيسة والعالم !!!"

(٢) جاء في "بولس ورسائله" يوم الخميس - الفصل التاسع والعشرون: الرسائل البولسية الثانية ما نصه: "... ولكن رؤساء الكنيسة لم يرضوا بأن يجعلوا من رسالة (كولوسي) تحملاً عدداً من التحذيرات، رسالة دوّارة لدى جماعات غير معنية بهذه الأمور. لهذا، جاءت "فكرة ريفية" تقوم بالانطلاق من كواكب لتأليف رسالة أكثر حيادية، رسالة تخلّصت مما يتعلّق بانحرافات كولوسي، رسالة تقدر أن تصل إلى مجمل الكنائس المسيحية الآتية من العالم الوثني، لكي تنعم بالفرح الذي تضمّنه النصّ الأساسي، نصّ كور. مثل هذه الرسالة تستطيع أن تنتقل من كنيسة إلى كنيسة فتقدّم جوهر الفكر البولسي وقد بلغ إلى ملء نضوجه !!!"

- و هل وضع حد فاصل بين المسيحيين واليهود، وأفاعيل الروح القدس والمعجزات، كانت مهمة إلى هذه الدرجة؟!

- بالإضافة إلى شعبيتها الكبيرة، بسبب كل هذه الأسباب وغيرها، فقد كُبحت رسائل بولس (مؤسس الكنائس) الرعوية الموجهة إلى الرعاة "أو القساوسة" كُبحت جماح رجال الدين المتمردين المستقلين، وأكّدت "السلطة الأسقفية"^(١) أن الكاثوليكية الوليدة، وهي تتنظم في روما، كانت قدماها في الأرض، ورأت أن مجدها المستقبلي في تسوية مع النظام الإمبراطوري. فتلا ذلك الموافقة على "القانون"^(٢) الذي أوّسد الأبواب أمام أي ابتداعات لاهوتية أخرى.

- إذن أنت تفترض أن هناك بولس آخر، وهو الذي كتب الرسائل للمارسيونيين؟

- بالتأكيد، فربما كان هناك معلم كبير اسمه بولس أيضاً، وربما كان مارسيون نفسه هو كاتب الرسائل التي وضع عليها اسم بولس.

(١) جاء في "بولس ورسائله" يوم الخميس - الفصل التاسع والعشرون: الرسائل البولسية الثانية تحت عنوان: الرسائل الرعائية وتنظيم الكنائس: "قبل اضطهاد دوميسيانوس والقلقل التي حرّكها هذا الاضطهاد لدى المسيحيين، طُرحت في الكنائس مسألة أقلّ مأساوية، هي مسألة التنظيم. فمذ السنوات ٨٠-٨٥، زُرعت في حوض المتوسط الشرقيّ مدنٌ توزّعت فيها جماعات مسيحية ذات أهمية بحيث لا يمكن إهمالها. . . . فيقدر ما أخذت الكنيسة في الانتشار، وجب عليها الانتقال من مرحلة الخلق والإنشاء إلى مرحلة التنظيم. فوُتبت خدم اختلفت عن تلك التي عرفناها في ١ كور ١٢: ٢٨، وقد جاءت شبيهة في جزء منها بخدم عرفتها المجامع اليهودية في الشتات: أساقفة، شمامسة، أرامل، كهنة أو قسس. غير أن هذا الوضع الجديد كان محتاجاً إلى جذور. فوُجِدت طوعاً عند بولس الذي كلف تيموتاوس وتيطس بمهمات لارسلوية بحصر المعنى. وجاءت الرسائل التي "استعارت اسم بولس" وتوجّهت إلى هذا التلميذ وذلك، فصوّرت تنظيم هذه الوظائف. "!! ثم قال المؤلف أيضاً: "ونلاحظ أيضاً أن لفظ ((كنيسة))، استُعمل هنا (الرسالة الأولى إلى كولسي) في صيغة المفرد ليدلّ على مجموعة المسيحيين، ساعة استُعمل في الرسائل السابقة، لكلام عن الكنائس المحلية الخاصة. وهكذا كانت خطوة مهمة منذ الرسائل الكبرى في خط الشمول والكوئيتة".

(٢) لمزيد من الإيضاح والتفصيل راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- ما الذي يجعلك تظن ذلك؟

- كان مارسيون كاتباً ملهماً، وقد أنتج اثنين من الأعمال الأدبية الأكثر تميزاً وثورة في الكنيسة على الإطلاق، أولهما عرف باسم "الأنتيوتيز"^(١)، والثاني كان أول "قانون" في تاريخ الكنيسة للأسفار التي ينبغي اعتمادها دون غيرها. وبالطبع كانت رسائل بولس السبع^(٢) ضمنها. ومن غير المستبعد أن مارسيون قد اختلق ما سيصبح "بولس العهد الجديد"، ليكون رسولاً ناقلاً لأفكاره الخاصة. فمن الظاهر بوضوح أنه استعان بسيرة حياته الخاصة كنواة روائية لقصة بولس، خاصة الصراع على السلطة الذي نشب بينه وبين المجموعة في روما. كما أن بولس مثل مارسيون عرف الحقيقة وحده بواسطة سرّ غامض ظهر له في رؤية. ولا ننس أن مارسيون كان مالك سفن من سينوب^(٣)، وكان قادراً على السفر على نحو واسع، ولا بد أنه كان متألماً مع خطوط السير البحرية ومخاطر البحر الباردة كما نرى ذلك بصورة واضحة في حكاية بولس. ومن الممكن أنه اختار اسم بولس (الذي يعني: صغير، متواضع) كانعكاس لموقفه الخاص. فمع أنه كان موسراً جداً^(٤) إلا أنه كان يتقل وينشر أفكاره بتواضع كبير^(٥).

(١) تعليق على الكتاب المقدس، يظهر التناقض بين العهد الجديد والعهد القديم. راجع الفصل (الموقف) المشار إليه أعلاه.

(٢) تضمن قانون مارسيون تسع رسائل، اعترفت الكنيسة بسبع منها فقط، أما الرسالتان إلى الإسكندرية وإلى لادوكيا، فلم تعترف الكنيسة بقانونيتهما لوضوح تعاليم مارسيون المنطرفة فيهما. (مع أن الرسالة إلى كولسي تشير إلى وجود رسالة إلى اللاودكيين. "فعلى الجماعين في كولسي ولاودية أن يتبادلا الرسالتين اللتين استلمتهما" (كو ٤ : ١٦) فالمنطقي هو: أما التسليم بقانونية الرسالتين أو رفضهما معاً.) وأمرت بإبادهما، ولكن التاريخ قد حفظ لنا نصهما في The Muratori Canon (قانون موراتورى الذي كتب في روما قبل سنة ٢٠٠م) Ibid. ٤٤.

(٣) ميناء على البحر الأسود يقع على مسافة ١٠٠ ميل من غلاطية.

(٤) لدرجة أن قام بتمويل الكنيسة في روما قبل أن يوقع عليه الحرمان الكنسي ويرجع إلى الشرق.

(٥) تفسير غريب وغير منطقي بتاتا. راجع نهاية هذا الفصل (الموقف) للاطلاع على تفسير أكثر منطقية وعقلانية.

- معقول. وهذا يظهر أن مارسيون ذو الثقافة اليونانية كان عالماً فعلاً بالكتاب، وقادراً على صياغة الرسائل بشكل لاهوتي متقن وعصري في آن واحد.
- لا أظن أن كاتب تلك الرسائل (سواء كان مارسيون أو غيره) قد اعتمد فقط على الثقافة اليونانية^(١) وعلى أسفار الكتاب^(٢) في صياغتها، فقد استعان أيضاً بسير حكماء عصره ومن أهمهم يوسيفوس.

(١) جاء في بولس ورسائله يوم الثلاثاء - الفصل الثالث عشر: نزع السُّطْر عن اللغة الإسكاتولوجية تحت عنوان ثانياً: المصادر التي استقى منها بولس وصفه السطري لمجيء المسيح: "إن ولادة بولس في طرسوس لها تأثير كبير على ثقافته، إذ تعرّف هناك على الثقافة اليونانية وعلى التيارات الفلسفية؛ حين تطرّق الرسول إلى مجيء المسيح، من الطبيعي أن يستعين ببعض المعطيات التي يستقيها من الثقافة اليونانية. ولكنّ بولس هو يهودي في الولادة (غل ٢: ١٥) وقد تعلّم على يد غملائيل (أع ٢٢: ٣) طريقة الاستشهاد بالكتب المقدسة وكيفية تطبيقها على واقع الحال. سنحاول أن نعرض مدى تأثير الثقافة اليونانية والديانة اليهودية على وصف بولس السُّطري لمجيء المسيح. ١- استيحاء بولس من الثقافة اليونانية: يبدو أن بولس قد تصوّر مجيء المسيح على مثال الاستقبالات الاحتفالية التي كانت المدن اليونانية تشهدا أثناء زيارة الملوك أو الأباطرة الرومان لها. إننا نلاحظ أن كلمة المجيء (باروسيا) هي غائبة عن الترجمة السبعينية ولا نجد ما يقابلها في التوراة العبرية؛ غير أن الأدباء اليونان استعملوا بكثافة هذه الكلمة حين يجري الحديث عن زيارة الأباطرة أو الملوك للمدن اليونانية؛ كما أننا نجد كلمة أخرى في وصف بولس السُّطري وهي ملاقة (ابانتيسين) وهذه الكلمة هي خاصة بتلك الاستقبالات التي أشرنا إليها. حين زار نيرون مدينة كورنثية، خرج أهل المدينة إلى لقائه باحتفال مهيب، وتخليداً لهذا المجيء العظيم، صكّوا النقود وأعلنوا بداية حقبة جديدة. كان بولس، بدون شك، على اطلاع بهذه الاستقبالات الاحتفالية، لذلك تصوّر ظهور الرب وتجليه على مثال هذه اللقاءات الفرحة: حين يأتي المسيح من السماء ويقترّب من المدن الأرضية، سيخرج المؤمنون إلى ملاقاته ليستقبلوه باحتفال. لا يمكننا أن نففي تأثير الحضارة اليونانية على تفكير بولس. يمكن الاطلاع على النص الكامل على الرابط

<http://www.paulfeighali.org/index.php...86&page-id=491>.

(٢) جاء في المصدر السابق أيضاً ما نصه: "إن معرفة بولس بالكتب المقدسة لها تأثير واضح على تعليمه حول مجيء المسيح، فالوصف السُّطري لمجيء المسيح يتضمّن عناصر عديدة مأخوذة من العهد القديم ومن "الكتب الرؤيوية المنحولة" (!!!). . . إن الرسول الذي أراد الكلام عن مجيء المسيح، قد استعان بعدة عناصر خاصة بالكتب الرؤيوية اليهودية التي تتكلّم باستمرار عن الملائكة حملة الأبوّاق، والغيوم وغيرها، واستوحى الرسول أيضاً من الحضارة اليونانية فظهر تعليمه في لوحة غنية امتزج فيها الوصف السُّطري بالتفكير الشخصي الموحى !!!"



- يوسيفوس فلافيوس المؤرخ!!!

- يوسيفوس لم يكن مؤرخاً فقط؛ فقد عيّنه رئيس الكهنة حنانيا قبل الحرب حاكماً لمقاطعة الجليل، مع أوامر بقمع "اضطهاد" الحركات الراديكالية، ومن العصابات التي تعامل معها في طبرية وحولها، كانت هناك عصابة يقودها زعيم يدعى.... يسوع^(١).

- يسوع المسيح!!!

- كلا يسوع آخر. فقد كتب يوسيفوس قائلاً: "وهكذا يسوع بن صفياس، رئيس القضاة في طبرية، أحد الذين ذكرناهم كقائد للفتنة التحريضية لبحارة وناس فقراء منعنا، وأخذ معه بعض الجليليين وأحرق القصر بكامله بالنار..... يسوع وعصابته ذبح كل اليونانيين الذين كانوا يقيمون في طبرية، كما فعل بكثيرين آخرين من أعدائه قبل بداية الحرب". ويبدو أن هذا كان كافياً لإلهام كاتب الرسائل لاختلاق قصة التفويض من رئيس الكهنة والاضطهاد المبكر. كما ستجد فصولاً أخرى من سيرة المؤرخ اليهودي يتردد صداها بصورة ملاصقة لقصة بولس، خاصة قصة غرق السفينة في الطريق إلى روما^(٢).

- يا إلهي.

- ليس هذا فحسب، بل يبدو أن شيئاً من سيرة يوسيفوس قد تسرب إلى أعمال الرسل أيضاً في أثناء محاولات "التوفيق". قارن إن شئت بين قول يوسيفوس: "في ذلك الوقت جاءني رجلان عظيمان، ممن كانوا تحت سلطة الملك أغريبا، خرجا من

(١) ربما كان هذا أحد أسباب الخلط بين اسمي: "عيسى" (بالعبرية عيسو)، و"يسوع" (بالعبرية يشوع)، والله أعلم. لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة الحساسة راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

(2) Josephus, Life 12

إقليم تراخونيوس وأحضرا معهما خيولهما وأسلحتهما، وكذلك كانا يحملان معهما أموالهما. ولما حاول اليهود أن يجبروهما على الاختتان إذا رغبا في البقاء بينهم، لم أسمح لهم بإجبارهما على أي فعل، بل قلت لهم: كل واحد يجب أن يعبد الرب طبقاً لميوله، ولا يجب إكراهه بالقوة، وهذان الرجلان اللذان لجأا إلينا في طلب الحماية يجب معاملتهما بحيث لا ينذمان على قدميهما^(١)؛ وبين القول (الغريب على يعقوب) الذي أقحم في أعمال الرسل: "وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الإخوة أنه إن لم تختتوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا. فوقع بينهم وبين بولس وبرنابا خلاف وجدال شديد... وبعدما ختما كلامهما أجاب يعقوب قائلاً: أيها الرجال الإخوة اسمعوني.... لذلك أنا أرى أن لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم" (سفر أعمال الرسل ١٥ : ١، ١٩)!!!

- هل هناك أمثلة أخرى؟

- بالتأكيد، فيوسيفوس فلافيوس يتعرض لخيانة من "يوحنا" الذي يتخلى عنه مع بعض رجاله، فيختار يوسيفوس حليفاً اسمه "سيلا" ويهرب هروباً إعجازياً^(٢)! قارن ذلك بما حدث مع بولس في سفر الأعمال حيث يفارقه برنابا مصطحباً مرقس، فيختار بولس "سيلا" ويهرب هروباً إعجازياً (أعمال الرسل ١٦ : ٢٥ - ٢٨)!!!

ظهر التشويش واضحاً على وجه أبراهام بعد كل هذه المعلومات المربكة، فقال له البروفيسور شنايدر ملاطفاً:

- ما رأيك أن نلعب لعبة؟

- عفواً!!!

(1). Josephus. Life 23

(2). Josephus. Life 17



- سوف أقرأ عليك آية، وأنت تحزر في أي سفر. صدقني سيكون الأمر ممتعاً.
- استغرب أبراهام من ذلك الطلب الغريب، ولكنه أجابه بالإيجاب، فأمسك البروفيسور الكتاب المقدس وقرأ بصوت مسموع:
- "وكانت خاتمة أمره منقلباً سيئاً لأن زعيم العرب طرده فجعل يفر من مدينة إلى مدينة والجميع ينبذونه ويغضونه بغضة من ارتد عن الشريعة ويمقتونه مقت من هو قتال لأهل وطنه حتى دحر إلى مصر".
- يتحدث عن بولس بالتأكيد، وأكد أجزم أنه في الرسالة الثانية لكورنثوس.
- كلا، فهذا الكلام عن رئيس الكهنة ياسون، وجاء في سفر المكابيين الثاني ٨: ٥، وكان ذلك في سنة ١٧٢ قبل الميلاد!
- فهتمت ما تقصده؛ فقد كنت مستغرباً جداً من مطاردة الحارث ملك العرب لبولس، والتي لا سبب لها على الإطلاق. وبولس نفسه لا يذكر لنا لماذا كان يطارده!!
- ولكن لماذا ظننت أنني أقرأ من رسالة كورنثوس الثانية، فقد كنت أتوقع أن تظن أن النص من أعمال الرسل!!!
- لأن القصة الشهيرة لهروب بولس من دمشق بوضعه في سلة قد تكررت في سفر أعمال الرسل (٩: ٢٥) وفي رسالته الثانية إلى كورنثوس (١١: ٣٢ - ٣٣). لكن بولس يهرب في سفر الأعمال من اليهود، أما في الرسالة الثانية لكورنثوس فيهرب من والي الملك الحارث على دمشق، لذا خمنت أنك تقرأ منها.
- يبدو أنك كثير القراءة للكتاب المقدس.
- ليس الأمر كما تظن، ولكن هذه هي إحدى التناقضات التي أثارت حيرتي في قصة بولس، وقد قرأت عنها منذ فترة قريبة فقط.
- ما دمت قد ذكرت الموضوع، فما رأيك بقصة السلة؟

- ماذا تعني؟

- أعني ما مدى إمكانية صدق قصة هروب بولس من مدينة دمشق في "سلة"؟

- لا أدري؟

- هناك أسئلة عديدة تتبادر إلى ذهني كلما قرأت تلك القصة الغريبة: فالسلة

المربوطة بحبل تستخدم في العادة لشراء خبز من الباعة المتجولين، تدلى السلة وبها النقود ثم ترفع بعد ذلك وبها الخبز، ولكن من أين أتوا بسلة بحجم رجل، وكيف

ربطوها؟ هل كان يجلس مرتاحاً؟! ألم يكن من الأسهل أن يستمسك ببساطة بالحبل

ويهبط كأى شخص عادي؟ وممن كان يهرب؛ من الملك العربي أم من اليهود؟ ولماذا كان

يريد يهود دمشق اغتياله؟ (أعمال الرسل ٩: ٢٣ - ٢٤) إن أي سمعة يمكن أن يكون

بولس قد نالها بين يهود دمشق هي أنه فارض للديانة اليهودية بالقوة، فلماذا قتله!!

- إن التفسير الضعيف الذي يقدمه سفر أعمال الرسل هو أن بولس أربك اليهود

بيسوعه.

- هل هذا يبدو سبباً كافياً كي ينظموا محاولة اغتيال ومراقبة بوابات المدينة

"ليلاً ونهاراً" (كانت هناك سبع بوابات على الأقل)!! إن هذا عمل يستدعي توظيف

عدد غير قليل من المستعدين للقتل. وهنا يطرح "أوكنور" OConnor سؤالاً منطقياً

ومعقولاً: "لماذا كان على اليهود أن يراقبوا مخارج المدينة في حين كان من السهل عليهم

جداً إيجاد أين يقيم بولس وتدمير "حادثة" له هناك؟^(١).

- أسئلة محيرة فعلاً.

- لم أنه بعد سرد الأسئلة التي تحيرني في هذه القصة.

- تفضل.

(1). OConnor. A Critical Life, p6

- وبعد أن واجه بولس عداء من إخوانه السابقين في الدين، ما مدى إمكانية صحة أنه -وهو لتوه جرب تحولاً غير حياته - ذهب إلى "العربية" لمدة ثلاث سنوات (العربية التي طارده من دمشق)، بدلاً من الالتحاق بالرفاق الأرضيين لربه الجديد!!!
أليس من المفترض أنه كان سيسعى للأمان مع المسيحيين؟ ألا يفترض أن يذهب لزيارة الأماكن التي كرز فيها يسوع وفعل معجزاته، وأن يسير على طريق الجلجثة، ويتأمل في البقعة التي عانى فيها ربه الجديد آلامه؟ أليس من المفروض أنه كان سيرغب في التحدث مع أم مخلصه التي كانت لا تزال على قيد الحياة؟

- فعلاً هذه نقطة مثيرة فعلاً، لم يذهب إلى مريم؟!!!

- تماماً. فمن المفترض أن بولس أسّس كنيسة أفسس (أعمال الرسل ١٨ : ١٨؛ ١٩ : ٥ - ٧)، وأنه أنفق وقتاً مع إخوانه في الدين في هذه المدينة أكثر مما أنفق في أي مكان آخر (ثلاثة شهور خلال رحلته التبشيرية الثانية، وثلاث سنوات خلال الرحلة الثالثة)، ويتم تشجيعنا على الاعتقاد بأن رسالتي بولس إلى "كورنثوس" قد كتبتا في أفسس، وأنه هناك استقبل مندوبين مضطربين من كورنثوس، وترأس أول حرق مسيحي للكتب (أعمال الرسل ١٩ : ١٩)، ولكن يوحنا الرسول أقام في أفسس نفسها بعد حادثة الصلب^(١)، وبرغبة من يسوع نفسه، وضعت مريم العذراء تحت رعاية يوحنا. ويبدو أنهما سافرا معاً إلى أفسس، وهناك بنى يوحنا بيديه "بيت مريم"^(٢)!!
ويذكر إريناوس في القرن الثاني^(٣) أن يوحنا بقي في أفسس حتى زمن الإمبراطور تراجان (٩٨م - ١١٧م)، وطبقاً لكلام ديونيسيوس في القرن الثالث فلم يكن ليوحنا قبر واحد فقط، بل قبران في أفسس! وهكذا فالقصة تصرح بأن يوحنا الرسول عاش

(١) يشار إليه دائماً بأنه مؤسس كنيسة أفسس!!!

(٢) تحول إلى مزار موجود في أفسس إلى يومنا هذا.

(٣) اقتبس من أوسيبوس ٢٣.

وقتاً طويلاً في المدينة التي بشرها بولس في رحلته الثانية والتي يفترض "شعبياً" أنها بدأت في سنة ٤٩ م. مع ذلك، وبالنظر إلى التداخل في الزمان والمكان، لم يتعرف بولس مطلقاً مريم، ولم يتشاور مطلقاً مع زميله يوحنا الرسول!!!

- يبدو أنك محق في كل ما ذهبت إليه، فبولس (كاتب الرسائل) لم يكن بالتأكيد في زمن مريم والتلاميذ، بل يبدو أنك محق إلى أبعد من ذلك بكثير!!! فلي صديق مسلم روى لي عن أحد مفسري قرآنهم ومؤرخيهم القدامى ما يؤيد ما استنتجته من وجود شخصيتين مختلفتين، فهو يقول أن بولس (الذي بزمن المسيح) كان صالحاً، وأن اسمه قد استغل من قبل شخص آخر!

- وأنا أيضاً لي صديق مسلم تحدثت معه في هذا الموضوع وأبدى رأياً إبداعياً يفسر كل شيء بمنطقية وعقلانية تفوق كل ما توصلنا إليه.

- لماذا لم تذكره منذ البداية إذن؟!

- لأنه طيب وليس من ذوي الاختصاص بمثل هذه الأمور!!

- لا أرى أي مانع إن كان رأيه مبدعاً كما تقول، فأغلب المبدعين لم يكونوا مختصين في مجال إبداعهم. فكم من رجل دولة قدير لم يدرس في كلية العلوم السياسية والاقتصاد؟! وكم من فنان مبدع لم يدرس في كلية الفنون الجميلة؟! وكم من إعلامي بارز لم يدرس الصحافة أو الإعلام؟ وكم من رجل أعمال ناجح لم يدرس في كلية إدارة الأعمال أو التجارة. ففي مثل هذه المجالات يمكن أن تكون المواهب تولد مع الشخص أكثر فاعلية من أي تعليم أو اكتساب لمهارات.

- في الحقيقة ليس هذا هو السبب الوحيد؛ فالأهم من ذلك هو أن رأيه متأثر بدينه الذي أرفضه أصلاً، ومبني على يقينه بأن محمده هو خاتم الرسل والنبیین.

- ماذا قال بالضبط؟

- قال إن المسيح قد بشر برسوله محمد صاحب الملكوت على كل الأرض وخاتم النبيين، وأورد على ذلك أدلة كثيرة من الكتاب المقدس^(١)، لا يعنيها منها هنا إلا ما جاء على لسان المسيح في إنجيل لوقا: "لَأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ بَيْنَ الْمُؤَلُّودِينَ مِنَ النِّسَاءِ لَيْسَ نَبِيٌّ أَعْظَمُ مِنْ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ وَلَكِنَّ الْأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْهُ" (لوقا ٧: ٢٨)، أي إن يوحنا، على عظم قدره عند الناس واعتراف المسيح نفسه بذلك القدر، إلا أن نبي آخر الزمان، الذي هو محمد بزعم ذلك الطبيب المسلم، أعظم منه!

- لماذا لم ترد عليه بأن عبارة "الأصغر في ملكوت الله"، وإن استخدمها المسيح في إنجيل لوقا للمدح كما يبدو، استخدمها هي نفسها في إنجيل متى للذم والتحقير بقوله: "الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد من الناموس حتى يكون الكل، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى: أصغر في ملكوت السماوات" (متى ٥: ١٧ - ١٩)!!!

- هناك من يقول فعلاً إن تلك النبوءة هي للذم والتحقير، وإن كاتب رسائل بولس قد حققها في شخصه دون أن يشعر، وذلك عندما نقض الوصايا معتبراً أن الناموس لعنة (رسالة غلاطية ٢: ١٢) وأنه قد عتق وشاخ (رسالة العبرانيين ٨: ١٢) وابتدع تعليماً مناقضاً للوصايا ولتعليم المسيح، تماماً كما تتبأ عليه المسيح. ولكن إن كان هذا صحيحاً فكيف تفسر التناقض الكامل في كلام المسيح!!! فقد ذكرت العبارة حرفياً ولا يعقل أن يقصد منه المدح مرة والقدح مرة أخرى.

- أمر محير فعلاً، وماذا قال في ذلك؟

- لقد قال أن العبارة قد استخدمت في المرتين بالمعنى نفسه وهو المدح، ومن ثم يكون معنى قول المسيح في إنجيل متى: إن الناموس سيظل سارياً إلى أن يأتي نبي آخر الزمان محمد، وعندها سيأتي بتشريع جديد يلغي فيه الناموس والعمل به.

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

- كيف فهم صديقك أن مثل هذا الوصف المهين يقصد منه مدح لرسوله!!!
 - لقد استند إلى أدلة إسلامية؛ منها حديث يروي كيف شعر موسى بالأسى لما رأى في الجنة أن أتباع محمد أكثر عدداً من أتباعه، مع أن محمداً كان أصغر منه، أي ولد بعده بزمان طويل^(١)، ومن ثم فإن محمداً هو الأصغر فعلاً بين الرسل.
 - ولكنني لم أفهم بعد كيف يمكن أن يفسر هذا شيئاً في موضوع بولس، بل لم أفهم ما علاقة كل هذا ببولس أصلاً.

- يقول الطبيب المسلم أن المسيح جاء ليبشر بالرسول خاتم النبيين وبملكوت الله الذي سيقمه على الأرض وأنه مبعوث للناس كافة، وأن ذلك كان واضحاً جداً في فجر النصرانية وجميع النصارى كانوا ينتظرونه ويعرفون كثيراً من أوصافه التي عددها رسولهم عيسى. ثم جاء رجل أمل أن يكون هو ذلك الرسول، وتحرى أن تتطابق الأوصاف على شخصه، لذا أطلق على نفسه لقب "بولس" أي "أصغر"، وزيادة في الإيضاح قال حرفياً في إحدى رسائله: "لِي أَنَا أَصْغَرَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ" (أفسس ٣: ٨). بل ادعى الرسولية دون باقي أتباع المسيح بمن فيهم الحواريون أنفسهم، وأصر أنه رسول الأمم "أُعْطِيَتْ هَذِهِ النُّعْمَةُ، أَنْ أُبَشِّرَ بَيْنَ الْأُمَمِ بِغَنَى الْمَسِيحِ الَّذِي لَا يُسْتَقْصَى" (الآية نفسها) مع أن المسيح قال صراحة: "إلى طريق الأمم لا تمضوا" (متى ٥١: ٥، ٦)، بل إنه نهى تلاميذه أيضاً عن الذهاب إلى الأمم، موضحاً أن نبي آخر الزمان وليس أي أحد آخر هو من سيقم ملكوت الله على الأرض. وربما كان السعي لأن تتحقق فيه صفات النبي المنتظر هو ما دفعه إلى السفر فور تنصره إلى العربية

(١) روى البخاري في صحيحه في قصة الإسراء والمعراج، باب ذكر الملائكة: "... فَأَتَيْنَا [النبي ﷺ] وجبريل عليه السلام [على السماء السادسة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قيل: مُحَمَّدٌ. قيل: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْحَابًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَأْتَيْتُ عَلَى مُوسَى فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَابًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيِّ، فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكِّي، فَقِيلَ: مَا أَبْكَاكُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ هَذَا الْعُلَامُ الَّذِي بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلَ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي...".

(صحراء فاران، مكة)، مبعث النبي المنتظر طبقاً للأسفار المتداولة آنذاك كما يؤكد ذلك الطبيب المسلم، حيث قضى فيها ثلاث سنوات، ثم عاد لينقض الناموس والوصايا ويبشر الأمم بتعليم مخالف لتعليم المسيح وقرر دعائم المسيحية كديانة جديدة دائمة لا مؤقتة كما كانت^(١)، وأنها هي ملكوت الله الذي سيقوم بين الأمم والديانة الخاتمة.

- إن رأي صديقك المسلم مثير فعلاً، ويبدو أنه لا ينقصه الذكاء أو سعة الاطلاع والقدرة على التحليل.

- كما لا ينقصه أيضاً الخيال والإيمان الأعمى للأسف، ولولا ذلك لتبنت رأيه فعلاً لأنه يفسر كل ما أشكل علينا بشأن شخصية بولس.

- بل على العكس تماماً، فهذا الرأي يفتح المجال لإشكاليات أكثر تعقيداً في هوية ذلك الرجل الغامض. على أية حال فسواء كان بولس معلماً مبتدعاً استغل اسم أحد الصالحين الأقدمين وسمعته ليقلب تعاليم المسيح رأساً على عقب، أو كان في الأساس صالحاً ولكن آخرين تلاعبوا برسائله وأضافوا إليها بدعهم، أو كان هناك بولسان صهر تعليمهما في بوتقة واحدة تحت اسم واحد، أو كان مدعي نبوة كاذباً يظن بنفسه أنه رسول آخر الزمان الذي سيقوم ملكوت الله في الأرض بين الأمم، فمن المؤكد تماماً أن المسيحية مؤسسة على رسائل بولس بالدرجة الأولى.

- هذا صحيح، ولكن كان يجب أن تقول المسيحية "الحالية" يا بني، فما جاء به يسوع الناصري كان مختلفاً جذرياً عما جاء به بولس. حتى الأناجيل وبقية الأسفار المعتمدة بل حتى كتابات الآباء قد اختيرت حسب موافقتها لرسائل بولس، أو بشكل أدق: بمقدار عدم معارضتها لها. وتلك الرسائل بالذات أضحت المنظار الذي ينظر من خلاله إلى كلمات المسيح نفسه وإلى الكتاب المقدس بشكل عام.

(١) راجع رواية كهولة قبل البلوغ للمؤلف.

دخل أبراهام إلى البيت حزيناً، وحيأ أحمد باقتضاب مشوب بالشعور بالذنب، ثم توجه إلى غرفته متثاقلاً، ولكنه ما لبث أن توقف عند بابها وهو يمسك بمقبضه كأنه يستجمع قواه للقيام بأمر فوق طاقته، ثم استدار أخيراً وقال بصوت حاول أن يبدو متماسكاً:

- أنا مدين لك بالاعتذار عما قلته بشأن ابن كثير، فيبدو أنه كان محقاً في بعض الأمور. ولكن أرجو ألا يأخذك الحماس بعيداً، وتحمل الأمر فوق طاقته، فمرد ذلك إلى أن مصادره كانت موثوقة فعلاً ولا ريب.

ظل أبراهام واقفاً هنيهة لا يعرف ماذا يقول، ثم ولج في غرفته، وأغلق الباب خلفه دون أن ينبس بكلمة إضافية. وكذلك صمت أحمد، ولم يحاول أن يناقشه كي لا يساء فهمه ثانية، واكتفى بأن هز رأسه متفهماً، فقد مر هو ذاته بنفس هذه المراحل خلال رحلة بحثه عن الحقيقة^(١)، وكابر طويلاً، قبل أن يذعن للحق بشكل كامل، ويتحرر من كل أوهامه. وتساءل في نفسه أيضاً صاحبه النقاط على الحروف التي تجمعت لديه، أم أنه سيقضي بقية عمره حائراً بين حروف تحتمل أكثر من معنى؟



(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

الفهرس



رقم الصفحة	العنوان
٥	إهداء
٧	تقديم
١٧	تمهيد
١٩	الهجرة إلى الغرب
٢١	حدوته قبطية
٤٣	فرسان مالطا وبلاك ووتر
٦٢	لغز المارونية
٨٣	في كولونيا
١٠١	التقليد الشريف
١١٥	البابا
١٢٧	خلفاء الرسل
١٤٥	توبة مُدعية لليهودية. ويهودية مدعين للادينية

١٦٧	الدين والسياسة
١٦٩	كنعانيون وهنود حمر
١٩٢	أذرع الأخطبوط
٢١٢	باباوات من أجل اليهود
٢٣٣	البابا والقيصر
٢٥١	شهود زور
٢٧٠	ضمير ليبرالي
٢٨٦	هزيمة أم نصر؟
٣٠٢	اغتيال الجسد والروح
٣٢٠	مساجد وكنائس
٣٣٥	للذي بيكة
٣٥٣	العلو الكبير
٣٥٥	تسامح ووقاحة
٣٧٢	رجال خلف الستار
٣٨٧	أصدقاء، ولكن
٤٠١	كنائس أمريكا
٤١٨	من الليبرالية إلى الأصولية
٤٤٣	الأزمة المالية



٤٥٤	غروب شمس الولايات المتحدة
٤٧٥	حقد له ما يبرره
٤٩٦	من يجروء على الاعتراف؟
٥١٣	بين الحقيقة والوهم
٥٣٦	مبشرة مورمونية
٥٥٥	توحيد التأليه
٥٥٧	الموحدون المسيحيون
٥٧٧	الاعتراض برنابا
٥٩٠	الأصل
٦٠٧	لاهوت الشذوذ الجنسي
٦٢٠	تنزيه دون غلو
٦٣٥	إسرائيليات
٦٤٧	متبع ام مبتدع
٦٦٧	وجهة نظر أخرى
٦٩٢	الصغير
٧٢٢	الفهرس



بشارات هائمة

قد لا يكون صعباً أن يتخذ المرء قراراً مصيرياً بتغيير مسار حياته والتحرر من موارثه، خاصةً إن ثبت فساد، لكن الصعب فعلاً هو إيجاد المسار الذي يرضى عنه ويحقق تطلعاته.. وبطل روايتنا لم تنقصه الجرأة في اتخاذ القرار، كما لم تنقصه الإرادة في البحث، فنراه ينقب في أقبية التاريخ ويخوض مآهات أرواقه في صراع مرير للوصول إلى الحقيقة والتحرر من الأوهام.


رواية
Rewayah

دار رواية للنشر

لندن

104 Queensway

London W2 2RR

UK

E-Mail: info@rewayah.net

www.rewayah.net

رحمة الله

ISBN 978-9948-15-127-1



9 789948 151271